تاريخ الحركة القومية

وتطور نظام الحكم في مصر

بقلم

عبد الرحمن الرافعي بك

الجزء الثالث

عصر محمد علي

ثمنه ٢٥

الطبعة الاولى — ١٣٤٩ هـ — ١٩٣٠ م

مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر

تاريخ الحركة القومية

وتطور نظام الحكم في مصر

بقلم

عبد الرحمن الرافعي بك

الجزء الثالث

عصر محمد علي

ثمنه ٢٥ ص

الطبعة الاولى — ١٣٤٩ هـ — ١٩٣٠ م

مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الثالث

هذا هو الجزء الثالث من « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر »، وهو يتناول الكلام عن عصر محمد على

تضمن الجزء الأول من الكتاب ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الاهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، واشتمل الجزء الثانى على تتمة وقائع المقاومة الشعبية الى انتهاء الحملة الفرنسية ، وتطور الحياة القومية بعد انتهاء تلك الحملة الى ارتقاء محمد على اريكة مصر بارادة الشعب، وقد قلنا فى بيان هذه الحقيقة « ان محمد على هو اول من استعان بالعامل القومى الذى ظهر على مسرح الحوادث السياسية ، وانه من هذه الناحية ثمرةٌ من ثمرات الحركة القومية ، ودورٌ من أدوارها التاريخية ، اقترن ظهوره بظهور العامل القومى، وكانت ولايته نتيجة اختيار وكلاء الشعب ومناداتهم به والياً مختاراً على مصر ، ولقد برهن بعد أن تولى الحكم على انه اكبر بنّاءٍ فى صرح القومية المصرية »

فموضوع الجزء الثالث هو تفصيل الكلام عن عصر محمد على وكيف كان دورا من أدوار الحركة القومية

والحركة القومية كما عيّناها فى مقدمة الكتاب وجعلناها أساس البحث والتدوين هى الجهود التى بذلتها الامة فى سبيل تحرير مصر من النير الاجنبى وفكّ قيود الاستبداد عنها وتقرير حقوق الشعب السياسية، هى التضحيات التى قدمتها والآلام التى احتملتها فى سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة

وعلى هذا الاعتبار يجب ان نعد عصر محمد على صحيفة مجيدة من صحائف الحركة القومية ، ففيه نشأت الدولة المصرية الحديثة ، فيه تحقق الاستقلال القومى وشيدت الدعائم الكفيلة بالقيام به ، فيه تأسس الجيش المصرى، والاسطول المصرى، والثقافة المصرية ، وفيه وضعت أسس النهضة العلمية والاقتصادية فى البلاد ، فهو عصر استقلال وحضارة وعمران

* * *

ان استقلال مصر كان ثمرة الحروب التى خاضت غمارها فى عصر محمد على ، تلك الحروب التى بذلت فيها الأمة أرواح عشرات الآلاف من زهرة ابنائها ، من اولئك الابطال المجهولين الذين جاهدوا واستشهدوا فى ميادين القتال وسقوا أديم الأرض بدمائهم فى ربوع مصر والسودان ، وفى صحارى جزيرة العرب ، وجبال كريت والموره ، وبطاح سورية والاناضول ، وفى قاع اليم بمياه اليونان أو على سواحل مصر والشام ، فلا جرم ان كان الجيل الذى عاش فى عصر محمد على هو اكثر الاجيال عملا وتضحية فى سبيل تكوين مصر المستقلة ، فعلى اكتافه وبجهوده وضحاياه قام صرح الاستقلال عالى الذرى ، وهو الذى نهض بالاعمال الاولى لحضارة مصر وعمرانها ، فشق الترع ، وأقام القناطر والجسور ، وشاد المدارس والمعاهد ، وبنى العمائر والدواوين والقصور ، وأنشأ الموانئ ودور الصناعة (الترسانات) ، واستحدث المعامل ، وشيد القلاع والاستحكامات ، وبذل فى سبيل تلك المنشآت راحته وحياته ، ويكفيه فضلا فى ميدان التضحية أنه أنشأها وبناها عاملا على السخرة ، دون أن ينال على جهوده أجراً ولا جزاء ، ولا شكورا ، وأن عشرات الآلاف من بنيه قد ماتوا تحت اعباء المجهودات المضنية التى احتملوها فى سبيل إتمام تلك الاعمال المجيدة ، فاذا قارنت بين جهود ذلك الجيل وتضحياته وما بذلته الاجيال المتعاقبة من بعده الى اليوم ، حكمت من غير تردد انه اكثر الاجيال بذلاً ومساهمة فى اعباء الجهاد القومى ، واكثرها تضحية بالنفس والروح والمال فى سبيل استقلال مصر وعمرانها ، فهو جدير بأن تنحنى الاجيال المصرية احتراما لذكراه ، وتقديرا

لفضله ، لأنه عمل لها جميعاً ، و بذل لها راحته ودمه وحياته ، واحتمل ما احتمل من جهد وحرمان ليعبد لها الطريق كى تجنى ثمار جهوده وتضحياته وآلامه .

والحقيقة البارزة التى تخلص لك من إنعام النظر فى تاريخه أن عبقرية محمد على يرجع اليها الفضل الكبير فى تنظيم ذلك الجهاد واستثماره وتوجيهه إلى خير مصر وعظمتها ، كما أن مواهب الأمة المصرية وحسن استعدادها للتقدم ، وماضيها فى الحياة القومية ، كل أولئك كان مادة الاستجابة لدعوة محمد على ، ومن جميعها تكوّن الفَلَك النورانى لتلك النهضة التى سطعت شمسها فى عصره ، فلو أنه تولى الحكم فى بلد آخر من بلدان السلطنة العثمانية وقتئذ ، لدفنت فيه عبقريته ، ولما استطاع أن يشيد ذلك الملك الضخم ، ولا أن ينهض بتلك المشروعات والاعمال الجليلة ، ولكانت نهايته لا تختلف كثيراً عن خاتمة الباشوات الذين شقوا عصا الطاعة على السلطنة العثمانية فى أواخر القرن الثامن عشر وخلال التاسع عشر ، ولكن تأييد الشعب له ، ومناصرته إياه عند اشتداد الازمات ، كان لها الفضل الاكبر فى ثبات ملكه وتغلبه على الدسائس والعقبات التى اعترضته فى طريقه ، وحسبك تبياناً لهذه الحقيقة أن تلقى نظرة على مباحث هذا الجزء وأن ترجع إلى الفصول التى أفردناها للكلام عن الجيش والاسطول وأعمال العمران ، تجد ان على سواعد المصريين قد قام ذلك الملك العريض وتمّت تلك المنشآت العظيمة ، وأن محمد على لم يستطع انشاء الجيش المصرى النظامى من العناصر غير المصرية التى كانت تتألف منها القوة الحربية فى أوائل حكمه ، لِما فطرت عليه من التمرد والفوضى ، ولم يوفق إلى تأسيس ذلك الجيش الذى تفخر به مصر فى تاريخها الحديث إلا بعد أن ألفه من صميم المصريين

* * *

إن مفخرة الجيل الذى عاش فى عصر محمد على أنه حقق لمصر استقلالها ، وألّف وحدتها القومية بفتح السودان وضمه إلى حظيرة الوطن ، فله فضل تحقيق تلك الوحدة التى كانت و بقيت على مدى السنين من أقدس مطالب القومية المصرية ، ولئن

اعترض ذلك الاستقلال قيود حالت دون جعله استقلالا تاما فلم يكن ذلك عن تقصير فى الجهاد ، بل لان الدول الأوروبية قد تألبت على مصر بتحريض السياسة الانجليزية ، فحرمتها ثمرة انتصاراتهـا ، وهذا الاستقلال مع ما اعترضه من قيود لايزال مفخرة عصر محمد على ، لأن الجيل الذى حققه واستخلصه و بذل فى سبيله ما بذل من جهود وتضحيات ، قد دافع عنه وتركه للاجيال المتعاقبة سليما من الاذى ، لـكنها بدلا من أن تنهض بالدفاع عنه وتصل به إلى غايته من الاستقلال التام أو تحتفظ به كما هو وتصونه بالمهج والارواح ، قد تهاونت فيه ، وقصرت فى الذَوْدُ عنه حتى رُزئت البلاد بالاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ ، فتصدَّع البناء الذى أقيم فى عصر محمد على

و يكفينا تقديراً لجهاد الجيل أو الجيلين اللذين أدركا ذلك العصر ، أن انجلترا حاولت فى خلاله احتلال مصر مرتين ، فالمرة الاولى سنة ١٨٠٧ حين جردت عليها حملتها المعروفة بحملة الجنرال فريزر ، فكان نصيبها الاخفاق والهزيمة فى (رشيد) و (الحمَّاد) ممـا اضطرها الى الجلاء عن البـلاد كما تراه مبسوطا فى الفصل الثانى ، والمرة الثانية سنة ١٨٤٠ بعد ما فازت مصر على تركيا فى معركة (نصيبين) فألَّبت انجلترا عليها الدول الاوروبية واتفقت وحلفاءها على إذلالها وجردت عليها أساطيلها فى سورية ومصر ، ومع أنها استعانت عليها بحلفائها فان كل ماأصابت منها أن حرمتها فتوحاتها وأرجعتها إلى حدودها الاصلية ، لـكنها أخفقت فى ادراك مطامعها الاستعمارية فى مصر ، وعبثاً أنفذت أسطولها إلى مياه الاسكندرية بقيادة الكومودور نابييه Napier يتهددها و يتوعدها بالاحتلال فلم يستطع أن ينزل جنوده الى ارض الـكنانة إذْ أدرك أن لها جيشا قويا يحمى الذّمار ويدفع الغارة و يدحر الاعداء ، فقارنْ بين موقف الـكومودور نابييه سنة ١٨٤٠ وموقف الاميرال سيمور سنة ١٨٨٢ حينما ارسلته انجلترا الى مياه الاسكندرية اثناء الحوادث العرابية وكيف سهل عليه أن يعبث باستقلال مصر إذ آنس منها ضعفا وتخاذلا ، فاحتل الجنود الانجليز أرض مصر ، ولم يلقوا بها المقاومة التى لقيها نابليون سنة ١٧٩٨ ، وكليبر

سنة ١٨٠٠ ، ومنو سنة ١٨٠١ ، وفريزر سنة ١٨٠٧ ، ونابييه سنة ١٨٤٠ ، فمن هـذه المقارنة يتبين لك فضل الجيل الذى عاش فى عصر محمد على ومبلغ ذوده عن الاستقلال وحسن بلائه فى الدفاع عن الذمار

فلجهاد هذا الجيل وكفاحه فى سبيل مصر خصصنا الجزء الثالث من الكتاب ، أقدمه لمواطنىّ الأعزاء ، سائلا من الله الهداية والتوفيق ، وعليه سبحانه الاعتماد والتكلان

للذكرى

وإذ يوافق اليوم تمام الحول الثالث على وفاة فقيد الوطن المرحوم امين بك الرافعى فالى روحه الطاهرة المستقرة فى الرفيق الاعلى أرسل تحيات الذكرى والوفاء ، فسلام عليك يا امين فى اعلى عليين ، سلام عليك من قلوب لاتنسى جهادك فى سبيل المثل الاعلى ، سلام عليك ما كرّت الاعوام وتعاقبت الاجيال ، ولتخلد ذكراك على الدهر ما بقى فى الدنيا وفاء وما ذكر الاخلاص والمخلصون ؟

٢٩ دسمبر سنة ١٩٣٠ — عبد الرحمن الرافعى



محمد على
(١٧٦٩ - ١٨٤٩)
مؤسس الدولة المصرية الحديثة وباعث نهضتها واستقلالها

خلاصة مباحث الجزأين الأول والثانى

نذكر هنا خلاصة فصول الجزأين الأول والثانى لنضع أمام القارىء صورة موجزة منهما قبل قراءة الجزء الثالث

الجزء الاول

مقدمة الكتاب واهداؤه

الفصل الأول — نظام الحكم فى عهد المماليك

الفصل الثانى — تطور نظام الحكم فى عهد الحملة الفرنسية

الفصل الثالث — نظم الحكم التى أسسها نابليون فى مصر — ديوان القاهرة ، دواوين الاقاليم ، الديوان العام

الفصل الرابع — المجمع العلمى

الفصل الخامس — المقاومة الاهلية فى عهد الحملة الفرنسية ، فى الاسكندرية

الفصل السادس — فى البحيرة ، معركة شبراخيت ، نهب القرى

الفصل السابع — فى القاهرة ، واقعة امبابه أو معركة الاهرام

الفصل الثامن — عود الى الاسكندرية ، واقعة أبو قير ، ديوان الاسكندرية

الفصل التاسع — فى رشيد

الفصل العاشر — عود الى البحيرة و رشيد

الفصل الحادى عشر — فى القليوبية والشرقية

الفصل الثانى عشر — عود الى القاهرة ، سياسة الحفلات

الفصل الثالث عشر — ثورة القاهرة الأولى

الفصل الرابع عشر — فى المنوفية والغربية

الجزء الثانى

الفصل الثالث عشر — نتائج ظهور العامل القومى على مسرح الحوادث السياسية ، الحالة السياسية فى مصر بعد جلاء الفرنسيين ، قادة الشعب وزعماؤه ، ظهور محمد على الكبير ، الصراع بين القوات الثلاث ، جلاء الانجليز عن مصر ورحيلهم عنها ، ثورة الشعب على المماليك ، ثورة الشعب على الوالى التركى ، ايام الثورة ، خلع خورشد باشا والمناداة بمحمد على واليا لمصر ، السيد عمر مكرم روح الحركة ، ختام الثورة

الفصل الرابع عشر — وثائق تاريخية

تمت الخلاصة ويليها الفصل الأول من الجزء الثالث



الفصل الأول

الزعامة الشعبية فى السنوات الأولى من حكم محمد على

موقف محمد على فى بداءة حكمه

تقلد محمد على باشا ولاية الحكم بارادة زعماء الشعب ونزولا على رأيهم فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ كما أوضحنا ذلك تفصيلا بالجزء الثانى من الكتاب ، فالزعامة الشعبية هى التى ابلغته سلطة الحكم ، وقد ظلت هذه الزعامة فى الميدان ، و بقيت قائمة عاملة فى السنوات الأولى من حكم محمد على ، فكان لها أثر فعال فى تثبيت دعائم ملكه وتذليل العقبات التى وضعها فى طريقه رجال الاستانة من جهة ، والانجليز وصنائعهم المماليك من جهة أخرى ، وإحباط الدسائس التى دبروها والمؤامرات التى سعوا بها الى اقتلاعه عن كرسى الولاية ، فالزعامة الشعبية كان لها فضل وعمل هام من هذه الناحية ، وكذلك كان لها عمل كبير فى توجيه الشؤون العامة ، ونصيب وافر فى سلطة الحكومة ، وسنبحث فى هذا الفصل مبلغ سلطة تلك الزعامة وعملها فى تلك السنوات .

لم ترسخ قدم محمد على باشا فى الحكم بمجرد مبايعته أو صدور الفرمان المؤذن بتوليته ، فان الدسائس كانت تحيط به من كل جانب ، فالسياسة الانجليزية تسعى بمختلف الوسائل لترد السلطة الى محمد بك الألفى (١) ، وكان عمالها فى الاستانة لا يفتأون يسعون لدى الباب العالى فى اسناد حكم مصر اليه ، وقناصلها فى مصر يمدون المماليك بالمعونة ويحركون الطمع فى نفوسهم ويلقون فى روعهم ان انجلترا لا تدع صنائعها ولا تتخلى عنهم ، وانها لابد محققة آمالهم ، والمماليك من ناحيتهم كانوا يجمعون جموعهم ليحاربوا الوالى الجديد

---

(١) زعيم المماليك . راجع الجزء الثاني ص ٣٤٧

موقف تركيا .

وكانت السياسة التركية مترددة غير مستقرة ، ترقب الاحوال لتتبع الخطة التى تراها أكفل بمصلحتها وأوفق لبسط نفوذها فى مصر ، ولم تكن خالصة النية نحو محمد على باشا ، بل كانت ترميه بعين البغض وتنفس عليه رسوخ قدمه فى مصر ، وحسبه جرماً فى نظرها أنه لم يكن من الولاة الذين ترسلهم كل عام الى مصر وتوليهم وتعزلهم كما تشاء ، بل كان الوالى المختار من الشعب المصرى ، فالشعب هو الذى أجلسه على كرسى الولاية ، ولم تكن هذه الطريقة فى تعيين الولاة مما يروق فى نظر الحكومة التركية ، صحيح أن حكومة الاستانة قد لبت نداء الشعب المصرى واصدرت فرمانها بعزل الوالى الذى ثار عليه الشعب (وهو خورشد باشا) وتعيين محمد على واليا مكانه ، وقد أوفدت الى القاهرة رسولا يحمل هذا الفرمان ، ولكن هذا لم يكن دليلا على خلوص نية تركيا نحو مصر ، وهو لا يعدو أن يكون حلا مؤقتا تتفادى به من ثورة الشعب الى أن تحين الفرصة فتسترجع سلطتها فى البلاد وتضع يدها حيث شاءت ، ولو كانت صادقة النية لاكتفت برسولها ذاك يحمل فرمان إسناد الولاية الى محمد على ، لكنها أوفدت بعد ذلك قبطان باشا (١) فى عمارة حربية تقل ٢٫٥٠٠ من الجنود ليرقب الحالة فى مصر ويجعل عينه على الحوادث ويتخذ من القرارات النهائية مايراه موافقا لمصلحة تركيا

وصلت هذه العمارة الى ابوقير يوم ١٧ يوليه سنة ١٨٠٥ أى فى الوقت الذى كان خورشد باشا مازال ممتنعاً فى القلعة معتصما بها ، ولم تجر عادة تركيا بارسال مثل هذه القوة إلا ذريعة لحدث تحدثه فى البلاد ، فهذه القوة الحربية لم تأت الى مصر عبثا ، بل جاءت ليستعين بها قبطان باشا على إنفاذ اغراضه الخفية ، ولقد كانت مهمته الظاهرة استنزال خورشد باشا الوالى المعزول من القلعة ، بيد أن الحكومة التركية خولته السلطة المطلقة فى تثبيت محمد على فى الولاية أو عزله عنها

(١) هو عبد الله رامز باشا

وتتبين لك مقاصد تركيا من أن قبطان باشا لم يبرح السواحل المصرية بعد انقضاء مهمته الظاهرة ، بل ظل متربصا وحوله الخمسمائة والألفا مقاتل ، وأخذ يرقب الحالة ليتبع الكفة الراجحة ، وقد راسله محمد بك الألفى زعيم المماليك وعرض عليه أن ينحاز بقواته الى سلحدار خورشد باشا الذى كان لم يزل بالجيزة يناوئ محمد على . وأن ينضموا جميعا الى الجنود الذين جاء بهم قبطان باشا ويزحفوا على القاهرة لينتزعوها من يد محمد على ويطردوا الجنود الارناءود من البلاد

دسائس السياسة الانجليزية

وتردد عليه أيضا رسل الانجليز أثناء مقامه فى ابوقير وأيدوا مطالب محمد بك الالفى ، وسعوا فى إقناعه باسناد ولاية مصر اليه ، وحسنوا له ذلك الأمر ، زاعمين أن المماليك هم وحدهم القادرون على حكمها وإعادة الأمن والنظام فى ربوعها ، وان بقاء محمد على فى كرسى الولاية يجدد الفتن ويستفز المماليك الى استئناف الحرب والقتال ويحفزهم الى الزحف على القاهرة لاسترداد سلطتهم القديمة ، فيضطرب حبل الأمن . ولم يكتف رسل الانجليز بتأييد صنائعهم المماليك على هذا النحو ، بل جاهروا بأن الحكومة الانجليزية قد تضطر الى تجريد جيش على مصر لتأييد وجهة نظرها

فالسياسة الانجليزية كانت ترمى منذ نيف ومائة عام إلى تثبيت قدمها فى وادى النيل بتولية صنائعها من المماليك حكم البلاد ، وتتهدد بتجريد قواتها لهذا الغرض ، وقد جردت هذه القوة فعلا سنة ١٨٠٧ كما سيجىء بيانه

أما حجة محمد على لدى قبطان باشا فهى أنه مؤيد من زعماء الشعب ، مرضى عنه منهم ، وأنه الكفيل بانتشال البلاد من وهدة الفوضى والفتن التى تردت فيها ، وأنه بمقاومته المماليك وحماتهم الانجليز لايخدم مصر وحدها بل يخدم الباب العالى ويحول دون تحقيق مطامع السياسة الانجليزية فى البلاد

معاضدة زعماء الشعب لمحمد علي

فمحمد علي باشا كان إذن في حاجة كبرى إلى تأييد الزعامة الشعبية واقرارها إياه في مركزه ليقوى بها على مقاومة العواصف التي هبت عليه من مختلف الجهات

وقد بقيت تلك الزعامة تؤيده وتناصره، وتمده بالعون والعضد، فكان لها النفوذ الفعال والفضل الكبير في تثبيت دعائم عرشه في السنوات الأولى من حكمه

ومن الواجب أن نبادر فنقول إن السيد عمر مكرم الذي كان على رأس تلك الزعامة وحامل لوائها في تقليد محمد علي سلطة الحكم قد احتفظ بهذه المهمة فيما بذلته الزعامة الشعبية للدفاع عن عرشه

وكان المماليك يعرفون ذلك النفوذ لزعماء الشعب، وخاصة للسيد عمر مكرم، ويعلمون أنهم هم الذين اقتادوا الجماهير وانحازوا بها إلى محمد علي، فما فتئوا بعد توليته يسعون إلى استمالتهم في جانبهم ليكسبوا نفوذهم المعنوي في ثل عرش الوالي الجديد، لكنهم وجدوا فيهم إباء واعرضا، وثبت زعماء الشعب على مناصرتهم لمحمد علي .

هجوم المماليك على القاهرة واخفاقهم

(اغسطس سنة ١٨٠٥)

دبر المماليك الهجوم على القاهرة ليستولوا عنوة على زمام الحكم، وبادروا إلى انفاذه في شهر أغسطس سنة ١٨٠٥ ولما يمض شهران على تولية محمد علي باشا، وربما كان قصدهم من هذا التعجيل أن يضربوا ضربتهم قبل رحيل قبطان باشا عن مصر ليشهد بعينه قوة المماليك وشدة بأسهم، فينحاز الى جانبهم ويولى واحداً من زعمائهم حكم مصر، وقد اختاروا لهجومهم يوم الاحتفال بوفاء النيل (اغسطس سنة ١٨٠٥) إذ يكون محمد علي باشا والجمع الحاشد من الجنود والاهالي مشغولين

بالاحتفال فى مصر القديمة بعيداً عن المدينة ، وأحكموا تدبيرهم ، أو خُيّل اليهم أنهم أحكموه ، بأن تآمروا سرا مع بعض رؤساء الجند أن ينضموا اليهم إذا هم دخلوا المدينة ، وتبادلوا وإياهم الرسائل من قبل فى هذا الصدد ، لكن محمد على علم بسر هذه المؤامرة فاعتزم أن يوقع المماليك فى الكيد الذى كادوا ، واتفق سراً مع بعض رجاله الامناء على أن يتصلوا بالمماليك و يتظاهروا لهم بالاخلاص و يستدرجوهم الى دخول العاصمة فيمدوا لهم فى غيهم، و يزينوا لهم نجاح خطتهم ، وهم فى الواقع أعوان لمحمد على (١) ، ففى اليوم الموعود (٢) هجم المماليك على القاهرة فى قوة تبلغ ألفا من المقاتلة شاكى السلاح ، وعلى رأسهم جماعة من زعمائهم وهم عثمان بك حسن وشاهين بك المرادى وأحمد كاشف سليم وغيرهم ، واقتحموا باب الحسينية بعد أن حطموه ودخلوا القاهرة من باب الفتوح ، وقصد زعماؤهم الى دار السيد عمر مكرم ليعجموا عوده و يستنجدوه، ولكنه رفض مقابلتهم ، فقصدوا الى دار الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر وهناك وافاهم السيد عمر مكرم وصارحهم القول بألا ينتظروا منهم عونا ولا نجدة ، ونصح اليهم أن يعودوا من حيث أتوا ، فعلموا أن الزعامة الشعبية لا تؤيدهم ، وانقلبوا هنالك خائبين ، ودب الفشل والارتباك فى صفوفهم وصفوف جندهم ، فخرج فريق منهم من باب البرقية نجاة بأنفسهم ، وذهب رهط آخر الى باب

---

(١) ذكر الجبرتى فى ترجمة محمد بك الالفى ما يؤيد هذه الرواية ، فقد أورد كلاما قاله الالفى عن زملائه المماليك فى تبيان غلطاتهم وعدم إصغائهم لنصائحه وأشار الى حادثة هجومهم على القاهرة وأنها وقعت بتدبير محمد على باشا فقال « واحتال عليهم ثانيا يوم قطع الخليج فراجت حيلته عليهم أيضا وأرسلت اليهم فنصحتهم فاستغشونى وخالفونى، ودخل الكثير منهم البلد وانحصروا فى ازقتها وجرى عليهم ماجرى من القتل الشنيع والامر الفظيع ولم ينج الا من تخلف منهم أو ذهب من غير الطريق »

(٢) ١٦ أغسطس سنة ١٨٠٥ — ٢٠ جمادى الاولى سنة ١٢٢٠

زويلة وتقدموا جهة الدرب الاحمر ، فتلقاهم الجند الذين كانوا هناك بالرصاص فتقهقروا الى داخل باب زويلة ، وحاولوا دخول جامع المؤيد والامتناع به ، فهاجمهم جماعة من المغاربة والمرابطين هناك وأطلقوا عليهم الرصاص ، فلجأ فريق منهم الى جامع البرقوقية ، وذهبت طائفة أخرى تعدو بخيلها الى باب النصر ، فألفوه مقفلا ، فنزلوا عن جيادهم وتسلق بعضهم الاسوار ونجا بنفسه ، وتفرق آخرون فى العطوف واختفوا فيها ، وأما الذين لجأوا الى جامع البرقوقية فان اثنين منهم تمكنا من الخروج ولحقا بالمماليك النازلين بدار الشيخ الشرقاوى ، وبعد أن انبأوهم بما وقع فر الجميع خارجين من باب الغريب ، أما الباقون (فى جامع البرقوقية) فقد أحاط بهم الجند وقتلوا منهم مقتلة نحو الخمسين وأسروا نحو الثمانين وذهبوا بهم الى محمد على باشا ، فأمر بقتلهم فقتلوا جميعاً ، وبذلك انتهت مؤامرة المماليك بالخيبة والخسران ، قال الجبرتى فى هذا الصدد مامعناه « ولم يتفق للامراء المصرية (المماليك) أقبح ولا أشنع من هذه الحادثة وطبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم وغل أيديهم »

استيلاء « محمد على » على الجيزة

وانتهز محمد على فرصة هذه الهزيمة فاستولى على الجيزة (سبتمبر سنة ١٨٠٥) وكانت لم تزل الى ذلك الحين فى أيدى المماليك ، وظهر عليهم وعلى سلحدار خورشد باشا ، واضطره الى التسليم والتخلى عن جنده وذخائره واللحاق بمولاه خورشيد باشا فى الاسكندرية

رحيل قبطان باشا الى الاستانة

وتلت هذه الحوادث مركز محمد على ، فلم يعد قبطان باشا يتردد فى أى الفريقين ينضم اليه ، ورأى أن محمد على باشا هو الأحق بالتأييد ، لأن الشعب والقوة فى جانبه ، واعتزم أن ينقلب الى الاستانة فرحل عن البلاد فى اكتوبر سنة ١٨٠٥ ومعه خورشيد باشا الوالى المخلوع

غادر قبطان باشا أرض مصر وهو يتنبأ لمحمد على بمستقبل كبير ، فقد روى عنه

أنه قال يوما قبل رحيله « إنى لأترك فى مصر رجلا ستجده الدولة يوما من أعظم خصومها شأناوأ كبرهم خطراً،ولم يوفق سلاطيننا الى رجل مثل هذا الباشا فى دهائه وحزمه ومضاء عزيمته » وقد حققت الايام صحة هـذا الرأى فان محمد على قد خرج على تركيا وهزم جيوشها فى ميادين الحرب و زلزل عرش السلطنة العثمانية وكاد يدكه لولا ان وقفت اوروبا فى طريقه

رجوع محمد على الى زعماء الشعب فى مهمات الامور

عرف محمد على باشا ما لزعماء الشعب من المكانة والنفوذ عند الجماهير ، فقدر لهم هذه المنزلة ، وكان يرجع اليهم و يستشيرهم فيما يجدّ من مهمات الأمور ، فمن ذلك أنه كلما احتاجت الحكومة الى تقرير إتاوة جديدة رجع اليهم بادئ الأمر وأوضح لهم الحاجة الملجئة اليها ، وخاصة اذا كان الغرض منها دفع رواتب الجند ، فينال اقرارهم وموافقتهم ، ذكر الجبرتى ما خلاصته أنه فى أواخر جمادى الثانية سنة ١٢٢٠ (سبتمبر سنة ١٨٠٥) احتاج إلى دفع باقى أعطية العسكر « فتكلم مع المشايخ فى ذلك وأخبرهم بان العسكر باق لهم ثلاثة آلاف كيس لا نعرف لتحصيلها طريقة . فانظروا فى ذلك وكيف يكون العمل ، ولم يبق الا هذه النوبة » وأقنعهم بانه اذا أخذ العسكر رواتبهم سافروا الى بلادهم ولم يبق منهم الا من كان فى حاجة اليهم ومن يتولون المناصب من ضباطهم

وقد اقتنع زعماء الشعب بهـذه الحجة وخاصة لانهم كانوا يميلون الى رحيل الجنود الارناءود والدلاة عن البلاد لكثرة مساوئهم واعتداءاتهم على الناس . فوافقوا على فرض الاتاوة الجديدة .

ومما يلفت النظر فى مشاورة محمد على باشا للشيوخ قوله لهم « ولم يبق الا هذه النوبة » وهذا يدلك على مبلغ عنايته باكتساب رضاهم واقناعهم بأن الحاجة الى صرف رواتب الجنود هى التى الجأته الى هـذه الاتاوة ، وان هـذه آخر مرة يلجأ فيها الى زيادة الضرائب ، وقد اقتنع الشيوخ بهذه الحجة كما قدمنا ، واستقر الرأى بعـد المشاورة على أن تستولى الحكومة فى ذلك العام على ثلث الفائض من

الحصص والالتزام (أى على ثلث ايراد الملتزمين لأن مايسمونه الفائض هو صافى دخلهم) وكان الملتزمون يؤلفون الى ذلك العهد طبقة كبيرة من الملاك، فتبرموا بهذه الاتاوة التى هى أشبه بالمصادرة ، وضجوا من حرمانهم ثلث ايرادهم كل عام ولكن محمد على باشا أراد أن يطمئنهم بأن هذه الوسيلة استثنائية وانها لا تتكرر كل سنة فوعد الشيوخ بكتابة فرمان يلتزم فيه عدم العودة الى ذلك ثانيا و يثبت فيه « لعن الله من يفعلهامرة أخرى »، فاقتنع الشيوخ بهذا الشرط، وانفرجت الازمة مؤقتا

كان زعماء الشعب اذن مرجع الحكومة فما تفرضه من الاتاوات والضرائب ، كما كانوا ملجأ الشعب فى تخفيف ماتفرضه منها ، ومن ذلك أن الحكومة فرضت فى تلك السنة (أكتوبر سنة ١٨٠٥) على أهل رشيد اتاوة قدرها اربعون الف ريال توزع على ثلاثة عشر من تجار المدينة ، فحضر الى القاهرة وفد من أهل رشيد يتظلمون من هذه الاتاوة ، وقابلوا السيد عمر مكرم والشيوخ و رفعوا اليهم ظلامتهم ، فقام السيد عمر و فى صحبته الشيوخ وعرضوا الامر على محمد على باشا ، وتشاوروا فى تخفيف الاتاوة ، فاستقر الرأى على انزالها الى عشرين الف ريال ، و فى مايو سنة ١٨٠٦ طلبت الحكومة قرضاً من الملتزمين والتجار على القاعدة التى سار عليها خورشد باشا الوالى المعزول فى العام السابق (سنة ١٨٠٤) فضاق الناس ذرعا وذهبوا أفواجا الى السيد عمر مكرم يشكون و يتبرمون ، فبذل مافى وسعه للتخفيف عن بعضهم

مكانة السيد عمر مكرم

يتبين من هذه الوقائع ان زعماء الشعب وعلى رأسهم السيد عمر مكرم كان لهم نفوذ فعال فى ادارة الحكومة ، وكانوا ملجأ الناس فى رفع المظالم، وقد عظم نفوذ السيد عمر مكرم فى تلك السنوات الى مالم يسبق له نظير من قبل ، ولا غرو فهو الذى أجلس محمد على على عرش مصر وكان فى السنوات الاولى من حكمه أحد أركان ذلك العرش

ولقد بلغ من مكانته أن محمد على باشا لما اعتزم أن يجرد جيشا لمحاربة محمد بك الالفى فى الصعيد (ابريل سنة ١٨٠٦ — صفر سنة ١٢٢١) عرض عليه أن يستخلفه فينوب عنه ويكون « قائمقاما » مدة غيبته ، فامتنع السيد عمر مكرم ولم يقبل ، ولم يذكر الجبرتى سبب امتناعه ، ولكن اذا صح ما يقوله من أنه « تبين انها ايهامات لا أصل لها » فيكون الامتناع راجعا الى أنه شعر بان العرض لم يكن الا ضربا من ضروب المجاملة والتكريم ، أولأنه كان يتورع عن مناصب السلطة ويخشى أن يتهمه حساده — وكانوا كثيرين — بأنه يسعى الى الجاه ولا يعطى الا ليأخذ ، فأراد أن يجعل جهاده خالصا لوجه الله والوطن

ولم يكن السيد عمر مكرم فى حاجة الى أن يكون « قائمقاما » ليعظم مركزه ، فقد كان له فى نفوس الشعب أكبر منزلة واعظم مكانة ، وكان فى الاجتماعات والحفلات العامة يتقدم المدعوين فيخلون له صدر المجالس طواعية واختيارا ، فيكون بجانب محمد على كتفا لكتف .

وحسبك أن تقرأ بعض ماذكره الجبرتى عنه فى مناسبات مختلفة لتعرف الى أى حد بلغ نفوذه ومكانته ، قال « ارتفع شأن السيد عمر وزاد امره بمباشرة الوقائع [1] وولاية محمد على باشا ، وصار بيده الحل والعقد والامر والنهى والمرجع فى الامور الكلية والجزئية » وقال فى موضع آخر « ولما وقع ماوقع فى ولاية محمد على باشا وانفرد السيد عمر افندى فى الرياسة صارت بيده مقاليد الامور »

ولا نزاع ان الزعامة الشعبية قد اكتسبت نفوذا معنويا كبيرا لمكانة السيد عمر مكرم شخصيته ومهابته ، فهو بحكم رآسته لهذه الزعامة كان يسبغ عليها من شخصيته الكبيرة مايجعلها نافذة الكلمة محترمة المقام

ادرك السيد عمر مكرم اذن مكانة عظمى فى نفس الشعب ، وعند الحكومة ، ولم تكن هذه المكانة لتخفى على زعماء المماليك ، فلجأ اليه محمد بك الألفى

---

(١) يريد وقائع الثورة التى قامت ضد خورشد باشا وفصلنا الكلام عنها بالجزء الثانى ص ٣٦٤

وطلب وساطته له عند محمد على باشا وشفاعته لديه ليصفو له وللأمراء المماليك، وتنتهى الحرب بينهم على أن يقطعهم جهة يقيمون بها ويستغلونها، لكن محمد على كان أبعد نظرا من أن يطمئن لخصومه الألداء فعادت الحرب بينهما وانسحب الالفى بك الى الفيوم يعد العدة للقتال، واعتزم محمد على أن يزحف عليه ليستخلص الوجه القبلى من سلطة المماليك

الحرب بين محمد على والمماليك

كان المماليك حتى أوائل سنة ١٨٠٦ أصحاب النفوذ والحكم فى الصعيد، إذ كان محمد بك الألفى يحتل الفيوم، وسليمان بك ومعه ثلاثة من أتباعه البكوات يرابطون بجنودهم شمالى أسيوط، وعثمان بك حسن يرابط فى مديرية اسنا، وابراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسى واتباعهما يحتلون شاطئ النيل بين أسيوط والمنيا، فكان على ذلك معظم الصعيد تحت سلطة المماليك، فأنفذ محمد على جيشا بقيادة حسن باشا للزحف عليهم

انحدر حسن باشا فى النيل من الجيزه ومضى حتى بلغ الرقة (١)، وما كاد يتجاوزها حتى التقى بقوات محمد بك الالفى الذى جاء من الفيوم قاصدا الوجه البحرى (مارس سنة ١٨٠٦ — أواخر ذى الحجة سنة ١٢٢٠)، وكان الألفى قد حشد تحت لوائه فى الفيوم عدة آلاف من العرب ليناجز بهم قوات محمد على، فنازل بهم جيش حسن باشا فى معركة انتهت بهزيمة هذا الاخير وانسحابه الى (الرقة)، وتابع الألفى زحفه الى الجيزة ومنها سار شمالا الى البحيرة، أما حسن باشا فلم يشأ أن يصطدم بالألفى وسار جنوبا حتى بلغ بنى سويف، وبقى بها لا يعمل عملا، وفى الوقت نفسه تقدم ابراهيم بك وعثمان بك البرديسى شمالا وحاصروا المنيا وكانت بها حامية من جنود محمد على، وكان موقع المنيا عظيم الخطر، فأمدها حسن باشا بنجدة تحت قيادة أخيه عابدين بك فجاءتها وشدت أزر الحامية، ووقفت

---

(١) على شاطىء النيل بمديرية الجيزة

الحرب عند هذا الحد إذ واجه محمد علي مشكلة خطيرة كادت تقلب عرشه كما تراه فيما يلي

محاولة عزل محمد علي واخفاقها

سنة ١٨٠٦

لم يكن محمد علي كما قدمنا مرضيا عنه لا من الحكومة التركية ولا من الانجليز ، ولئن أخفقت مناورة سنة ١٨٠٥ و بقي على عرشه فان ذلك لم يمنع الانجليز من أن يسعوا سعياً حثيثا في تحقيق سياستهم التي ترمي الى اقصائه عن مصر واحلال المماليك مكانه

دسيسة انجليزية جديدة

وقد ساعد انجلترا على تجديد سعيها لدى الباب العالي رجحان كفتها في حروبها مع فرنسا حين بلغ الصراع بين الانجليز ونابليون أشده ، فقد كان لهم الفوز في معركة (الطرف الاغر) البحرية(١) ، حيث اشتبك الاسطول البريطاني بقيادة الاميرال نلسن والأسطول الفرنسي الذي يقوده الكونتر اميرال فيلنوف ، فانتصر الأسطول الانجليزي في تلك المعركة الشهيرة ، وخرجت انجلترا من الحرب قوية الشوكة نافذة الكلمة ، باسطة سيادتها على ظهر البحار ، وقضت نهائيا على آمال نابليون في أن ينازعها تلك السيادة ، فصار البحر الأبيض المتوسط تحت مطلق سلطانها ، ورجحت كفتها السياسية في الشرق وخاصة على ضفاف البوسفور حيث لم تعد تخشى مزاحمة فرنسا لها ، وأخذت تملي سياستها على الباب العالي مستعينة بما اكسبها الفوز البحري على نابليون من الشوكة والنفوذ ، واستأنفت تدخلها في المسألة المصرية بما يطابق أهواءها ، وكان أول ماقصدت اليه أن تبسط نفوذها في وادي النيل وتحقق المطامع التي فاتها تحقيقها في السنوات الماضية ، أثناء الحملة الفرنسية وبعد انتهائها ، وكانت على يقين أن بسط نفوذها يتحقق باعادة

---

(١) ٢١ اكتوبر سنة ١٨٠٥

الحكم فى مصر الى صنائعها من المماليك ، فطلبت من الباب العالى بلسان سفيرها فى الاستانة عزل محمد على عن ولاية مصر وجعل الحكم فيها الى محمد بك الالفى ، وتوصلت الى اقناع الحكومة التركية بوجهة نظرها بحجة مايعود عليها من النفع من وراء هذا التغيير ، وألقت فى روعها أن محمد على باشا لايميل الى الاذعان لأوامرها ولم يدفع الى ذلك الحين شيئا من الخراج الذى كان يؤديه الولاة السابقون

سعت انجلترا سعيها لاسناد حكم مصر الى محمد بك الالفى ، وكان الالفى على اتصال مستمر بعمال الانجليز ، يتبادل واياهم الرسائل والرسل ليتخذ انجلترا شفيعة بل حامية وكفيلة له لدى الباب العالى كى تتفق واياه على الشروط التى يتولى بها الحكم ، فعرضت انجلترا على الحكومة التركية أن تعين واليا جديدا بدل محمد على يكون من طراز الولاة الاتراك الاقدمين الذين كانوا يتركون سلطة الحكم للامراء المماليك ، وأبلغتها أن الالفى يتعهد باداء جزية سنوية مقدارها ١٥٠٠ كيس (١) تضمن الحكومة الانجليزية ايفاءها ، ويتعهد بالولاء وبذل الطاعة والخضوع لأوامر الاستانة ، وأن هذا الاتفاق اذا تم يكون فاتحة تقدم فى المعاملات التجارية بين البلدين مما يؤدى الى زيادة رسوم جمارك مصر وسورية ، وبالتالى يعود بالربح على خزانة الاستانة ، فاستمع الباب العالى لهذه الحجج ، ورأى فيها منفعة مادية تعود عليه ولو كان من ورائها تسليم مصر للمطامع الانجليزية ، وصادف هذا الاغراء هوى فى نفوس حكام الاستانة لان الباب العالى لم ينس أن اسناد ولاية مصر الى محمد على كان نتيجة قيام ثورة شعبية على الوالى الرسمى المعين بمقتضى «فرمان سلطانى» ، وأن الارادة الشاهانية التى اقتضت تولية محمد على انما صدرت تحت ضغط تلك الثورة ، وهذا أمر لم يكن سائغا ولا مألوفا عند سلاطين الترك ، وكذلك لم يكن مألوفا أن تقر الحكومة التركية واليا فى منصبه أكثر من سنة ، فلاجرم كانت تنظر الى بقاء محمد على وسعيه فى تثبيت مركزه فى

---

(١) ٧٥٠٠٠٠ قرش

مصر بعين السخط والمقت ، فصحَّت عزيمتها على أن تعزله، وأصدرت فرمانا بتولية موسى باشا فى مكانه وتقليد محمد على ولاية سلانيك ، ومعنى ذلك ابعاده عن مصر . وكان متفقا على أن موسى باشا سيكون آلة فى يد المماليك كما كان شأن ولاة مصر فى القرن الثامن عشر ، وأن يسمح للمماليك بشراء أفواج الرقيق من جنسهم وجلبهم الى مصر ورفع الحظر الذى كان مضروبا عليهم فى هذا الصدد منذ الحملة الفرنسية فيعودوا الى شراء المماليك من أسواق الرقيق ويقوى بهم جيشهم فى مصر ، وبذلك تتحقق وجهة النظر البريطانية فى المسألة المصرية ، ويعود الحكم الى المماليك وتبسط انجلترا نفوذها فى مصر على أيديهم

مجىء أسطول عثمانى الى مصر

لعزل محمد على

ولاجل أن تحقق الحكومة التركية ما اعتزمت عليه أنفذت عمارة بحرية بقيادة صالح باشا قبودان العمارة العثمانية ليتم النقل والتغيير دون أن تحدث مقاومة أو تنهض معارضة ، فاقلعت العمارة تقل الوالى الجديد موسى باشا ، وكان الألفى قد اطلع من قبل على مفاوضات الانجليز والباب العالى ، ووقف عليها من قناصل انجلترا فى مصر ، وهذا هو السبب الذى دعاه الى التحرك من الفيوم قاصدا الوجه البحرى ، فكانت غايته من ذلك أن يتلقى القبودان صالح باشا عند حضوره ، فلما وصل الى قرب دمنهور علم بوصول العمارة العثمانية ، فابتهج لهذا النبأ ابتهاجا عظيما

وصلت العمارة التركية الى الاسكندرية فى اول يوليه سنة ١٨٠٦ ، وكانت من أربع بوارج وفرقاطتين وسفينتين أخريين وعلى ظهرها موسى باشا الوالى الجديد وجنود الحملة المتأهبة للنزول الى البر وعدتها ثلاثة آلاف مقاتل ، والتقى الالفى فى حوش عيسى برسل الترك والانجليز ، وهنأوه بقرب تحقيق آماله

رواية الجبرتى

يتبين من رواية الجبرتى أن محاولة عزل محمد على تمت بالاتفاق بين الانجليز والحكومة التركية ومحمد بك الالفى ، قال فى حوادث ربيع الثانى سنة ١٢٢١ (يونيه سنة ١٨٠٦) ماخلاصته

« وردت سعاة من الاسكندرية وأخبروا بورود أربعة مراكب وفيها عساكر من النظام الجديد [١] وصحبتهم ططريات (رسل) و بعض أشخاص من الانكليز (تأمل) ومعهم مكاتبة خطابا الى الالفى و بشارة بالرضا والعفو للأمراء المصرية (المماليك) من الدولة العثمانية بشفاعة الانكليز ، فلما وصلوا اليه بناحية حوش ابن عيسى بالبحيرة سر بقدومهم ،وعمل لهم شنكا ، وضرب لهم مدافع كثيرة ، وأرسلهم الى الامراء القبليين (المماليك بالصعيد) وصحبتهم أحد سناجقه وهو أمين بك ومحمد كاشف تابع ابراهيم بك الكبير ، ثم أنه أرسل عدة مكاتبات بذلك الخبر الى المشايخ وغيرهم بمصر وكذلك الى مشايخ العربان مثل الحويطات والعائد وشيخ الجزيرة »

وقال فى موضع آخر فى ترجمة محمد بك الالفى « وكان مع ماهو فيه من التنقلات والحروب يراسل الدولة والانكليز ، وأرسل أمين بك الى الانكليز فسعوا مع الدولة لمساعدته وحضروا اليه بمطلوبه فعمل لهم بحوش ابن عيسى شنكا وأرسلهم مع أمين بك الى الامراء القبليين » وقال فى موضع آخر « والسبب فى حركة القبطان (صالح باشا) ارساليات الالفى للانكليز ومخاطبة الانكليز الدولة ووزيرها محمد باشا السلحدار »

فالمسألة اذن كما ترى لم تكن ابدال وال بآخر ، بل هى دسيسة انجليزية تركية حيكت شباكها فى الاستانة بقصد اعادة المماليك الى حكم مصر و بسط النفوذ الانكليزى عليها

---

(١) أى من الجيش النظامي الجديد

ولم يكد يستقر صالح باشا فى الثغر حتى أوفد رسولا الى محمد على يبلغه فرمان النقل والتغيير ويأمره بالذهاب الى سلانيك مقر ولايته الجديدة ، وكان محمد على يعالج المشكلات بالحكمة والسياسة والدهاء ، فتظاهر بالامتثال ، ولكنه تأهب سراً للمقاومة ، وأجاب أنه مستعد للرحيل الى سلانيك غير أن الجند يعارضون فى رحيله قبل أن تؤدى رواتبهم المتأخرة ، وقدرها عشرون ألف كيس ، فكانت هذه الحجة أول ذريعة توسل بها الى احباط مؤامرة العزل والنقل ، وأخذ محمد على يعد العدة للمقاومة ، فاتجه فكره فورا الى السيد عمر مكرم يستنجد به لاحباط المؤامرة الجديدة

قال الجبرتى « فلما قرأ الدفتردار الورقة أرسل الى السيد عمر النقيب فركب اليه وحضر صحبته الى الباشا واختليا معا ساعة ثم فارقاه »

ففى هذه الخلوة أفضى محمد على الى السيد عمر مكرم بمؤامرة الاستانة ، وطلب اليه المعونة والنجدة ، فكان عمر مكرم عند ظنه وكان له نعم العضد الامين ، واتفقا على الخطة المشتركة

كانت هذه الازمة خطيرة العواقب ، وكادت تقتلع محمد على عن كرسيه وترجع بالبلاد الى حكم المماليك ، فان الفرمان الذى جاء به قبطان باشا كان يتضمن تولية موسى باشا على مصر وانفصال محمد على باشا عن ولايتها ويتضمن أيضا « العفو عن الامراء المماليك ، وأن يكونوا كعادتهم فى إمارة مصر وأحكامها وأن يستقر الباشا الجديد فى القلعة كعادته » ومعنى ذلك اطلاق يد المماليك فى حكومة البلاد كما كانوا قبل الحملة الفرنسية وارتكاس البلاد فى حكم التقهقر والفوضى

فالمؤامرة كانت واسعة النطاق اشترك فى حياكة خيوطها الباب العالى والانجليز والمماليك معا ، فلا غرو ان ابتهج محمد بك الالفى لورود الفرمان الجديد ابتهاجا عظيما ، وأرسل رسله فى البلاد لاذاعته بين الناس

حصار دمنهور

اعتزم الالفى عندما وصلت العمارة التركية الى الاسكندرية أن يستقر فى دمنهور

ليتخذها مركزا يجمع فيه قواته ويدبر خططه ، وكان يظن أن أهلها لايخالفون له أمرا بعد وصول الوالى الجديد ، فأعلنهم بقدوم العمارة التركية ووصول فرمان يقلده حكم مصر ، وطلب اليهم تسليم المدينة ونزولهم على حكمه ، لكن الاهالى رفضوا التسليم ، وأعدوا لمقاومته والامتناع فى المدينة ، وأرسلوا الى السيد عمر مكرم ينبئونه بالخبر فأبلغه الى محمد على باشا ، ووضع الالفى الحصار حول دمنهور لاكراهها على التسليم

تضامن محمد على والعلماء

فى مقاومة فرمان العزل

استوثق محمد على من معاضدة السيد عمر مكرم ومن ثم عزم على مقاومة ارادة الباب العالى ، وأخذ يتأهب للحرب والقتال ، واتفق هو والسيد عمر على أن يجتمع العلماء ويكتبوا محضرا فى شكل التماس بالاعتراض على عزل محمد على والاحتجاج على تولية موسى باشا ورجوع السلطة للمماليك

ومضمون هذا الاعتراض ان الامراء (المماليك)قد عرضوا على السدة السلطانية تعهدهم بدفع الأموال الأميرية الى خزانة الدولة العلية واداء مرتبات الحرمين الشريفين والعفو عن جرائمهم الماضية فى مقابل اقرارهم على دخول مصر القاهرة ، وان طلبهم قد حاز القبول ، ومن ثم صدر الأمر السلطانى بعزل محمد على باشا وتوجيه ولاية سلانيك اليه وتقليد موسى باشا ولاية مصر ، وقبلت توبتهم على ان يقبل العلماء والوجاقلية والرؤساء والوجهاء بالديار المصرية كفالتهم ، على أن الموقعين على العريضة لا يستطيعون كفالتهم « فان شرط الكفيل قدرته على المكفول ، ونحن لا قدرة لنا على ذلك ، لما تقدم من الافعال الشهيرة ، والاحوال والتطورات الكثيرة ، ولا يمكننا التكفل والتعهد لأننا لا نطلع على ما فى السرائر وما هو مستكن فى الضمائر ، فنرجو عدم المؤاخذة فى الامور التى لا قدرة لنا عليها ، لأننا لا نقدر على دفع المعتدين والطغاة والمتمردين ، الذين أهلكوا الرعايا ودمروهم » وعدد العلماء فى عريضتهم مساوىء المماليك ومظالمهم ، وأطروا

فعال محمد على باشا ، وختموا كلامهم بتفويض الامر الى السدة السلطانية ، وكتبوا من العريضة نسختين احداهما الى القبطان باشا والأخرى الى السلطان بعد ما وقعوا عليها بامضاءاتهم وأختامهم

ومعنى هذا البيان على ما فيه من اظهار الولاء والاخلاص للسدة السلطانية انهم لايجيزون تغيير الوالى ، ولا يرضون بعودة الحكم الى المماليك ، ولا يقبلون كفالتهم ، وانهم متمسكون بولاية محمد على ، وفى هذا من تأييده فى مركزه والاستهانة بالفرمانات (الشاهانية) مالا يعزب عن البال

اما قبطان باشا فقد مضى فى تنفيذ مهمته ، فبعث الى العلماء رسالة ينبئهم فيها بعزل محمد على باشا وتقليد موسى باشا ، ويدعوهم الى الامتثال للأمر ، وبعث بمثل هذه الرسالة الى السيد عمر مكرم ، وبثالثة الى السيد محمد السادات ، فلم يلق منهم جوابا صريحا بالامتثال ، بل أبدوا أعذارهم ، وكانت الاوامر تقضى برحيل الجنود الارناءود مع محمد على ، فتذرعوا بأن امتناع الجنود عن الرحيل وعصيانهم يترتب عليه تعرض البلاد للخراب ، فكرر قبطان باشا عليهم الأمر فى رسالة شديدة اللهجة قال فيها « انه لا يقبل هذه الاعذار ولا ما نمقوه من التمويهات التى لا أصل لها ولا بد من تنفيذ الاوامر وسفر الباشا (محمد على) هو وحسن باشا وعساكرهم وخروجهم من مصر وذهابهم الى ناحية دمياط وسفرهم الى الجهة التى أمروا بالذهاب اليها ، ولا شيء غير ذلك أبدا »

وكتب العلماء رسالة أخرى الى قبطان باشا فى شهر جمادى الثانية سنة ١٢٢١ (اغسطس سنة ١٨٠٦) يذكرون فيها صراحة انهم لا يرتضون عن محمد على باشا بديلا ، ومما جاء فى هذه الرسالة قولهم « ان محمد على باشا كافل الاقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبله ، وقاطع المعتدين ، وان الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله ، والشريعة مقامة فى أيامه ، ولا يرتضون خلافه ، لما رأوا فيه من عدم الظلم والرفق بالضعفاء وأهل القرى والارياف ، وعمارها بأهلها ورجوع الشاردين منها فى ايام المماليك المعتدين الذين كانوا يعتدون عليهم ويسلبون

أموالهم ومزارعهم ويكلفونهم بأخذ الفرض والكلف (جمع كلفة) الخارجة عن الحد اما الآن فجميع اهل القطر المصرى مطمئنون بولاية هذا الوزير »

استعداد محمد على للحرب

اعتمد محمد على اذن على تأييد زعماء الشعب له فى المقاومة واخذ يحرض رؤساء الجند على العصيان والمعارضة فى رحيله ، وقد صادف هذا التحريض هوى فى نفوسهم لانهم خشوا اذا هو ارتحل عن مصر ان تسقط رواتبهم المتأخرة وكانت تبلغ نحو عشرين الف كيس ، فاتفق واياهم على أن يقاوم الامر الصادر له من الاستانة اذا أعطوه موثقا بأن يكونوا مخلصين له متفانين فى الدفاع عنه ، فعاهدوه على الأمانة والاخلاص ، واقسموا له أنهم مؤيدوه وناصروه ، فأخذ يعمل مطمئنا ويستعد للمقاومة ، فأمد القلعة بالميرة والذخيرة ، وحصن الطوابى الباقية من عهد الحملة الفرنسية والمحيطة بأطراف المدينة ، وأنفذ جيشا من جنوده الى الرحمانية ليكون على اهبة الاستعداد لقتال الالفى بك والاتراك ، وبعث الى حسن باشا بالصعيد يدعوه الى التقدم نحو القاهرة لتكون قواته كلها على اهبة القتال .

رواية الجبرتى

قال الجبرتى فى هذا الصدد « وشرع الباشا فى عمل آلات حرب وجلل ومدافع ، وجمعوا الحدادين بالقلعة واصعدوا بنبات كثيرة واحتياجات ومهات الى القلعة ، وظهر منه علامات العصيان وعدم الامتثال ، وجمع اليه كبار العسكر وشاورهم وتناجى معهم فوافقوه على ذلك »

وقال فى موضع آخر « وأرسل الباشا فجمع الاخشاب التى وجدها ببولاق فى الشوادر والحواصل والوكائل وطلعوا بجميع ذلك الى القلعة لعمل العربات والعجل برسم المدافع والقنابر »

موقف زعماء الشعب

كل هذه الاستعدادات تدل على أن محمد على قد اعتزم فعلا مقاومة قرار الباب

العالى بالقوة ، ولقد عاونه على انفاذ فكرة المقاومة ثقته بتأييد زعماء الشعب له وتضامنهم وإياه فى مقاومة عودة المماليك الى الحكم

ولقد كان تأييدهم صادراً عن نية صادقة وعقيدة راسخة فى نفوسهم ، لانهم هم الذين اختاروه للولاية ، فهم بحكم اختيارهم يريدون ان تنفذ ارادتهم بتثبيت قدم محمد على فى الحكم ، ولأنهم من جهة أخرى يعلمون أن تعيين موسى باشا مع اطلاق يد المماليك ورؤسائهم فى الحكم معناه الرجوع الى حكم المظالم والارتكاس فى الفوضى ، وهذا أمر لا ترضاه نفوسهم لأنهم هم الذين اثاروا الشعب على هذه المظالم ، ولقد رأوا فى سياسة محمد على باشا ورجوعه اليهم فى تقرير الضرائب التى يفرضها وفاء بالعهد الذى قطعه على نفسه حين ولاية الحكم أن يسير بالعدل والقسطاس ، فلا جرم ان تطمئن نفوسهم اليه ، كل هذه الظروف جعلت تأييد زعماء الشعب لمحمد على أمرا طبيعيا يقضى منطق الحوادث بأن لا مناص منه

فمناصرة الزعماء لمحمد على باشا هى تأييد للسياسة التى رسموها من قبل ، وتثبيت للسلطة التى كسبوها فى تسيير شؤون الحكومة ، وهذه السلطة نفسها لم يتجاهلها الباب العالى لأنه جعل رجوع المماليك الى الحكم معلقا على كفالة العلماء لهم ، ولقد استمسك العلماء بهذا الشرط فصرحوا فى عريضتهم الى الدولة انهم لا يقبلون هذه الكفالة ولا يرضون بها ، ومعنى ذلك أنهم لا يريدون رجوع الحكم الى المماليك ولا يبغون عن محمد على بديلا

سياسة محمد على

وتذرع الباشا من جهة أخرى بالدهاء والحيلة بازاء المماليك ، فأخذ يعمل على فصم عراهم مستخدما التنافس القديم بين زعمائهم

كان محمد على يعلم بأن الالفى بك مكروه من بقية رؤساء المماليك كالبرديسى وابراهيم بك وعثمان بك حسن وانهم ينقمون منه انفراده بالاتصال بالانجليز وكتمانه عنهم أسرار مفاوضاته واياهم ، وقد بادر الألفى الى الرحيل عن الفيوم

قاصدا البحيرة وشواطىء الاسكندرية لمقابلة صالح باشا دون ان يكاشف زملاءه بد خيلة نفسه ، فأثار فيهم الحفيظة القديمة التى كانت تبدو ما بين آن وآخر ، وأرسلوا سعاتهم الى محمد على يعرضون عليه الصلح ، فانتهزها فرصة ليضعف شوكة الالفى خصمه اللدود ، فتلقى السعاة بالبشاشة والترحيب ووصلهم بالهدايا اعلانا عن مقاصده الودية حيالهم ، واطمأن من جانبهم ، واستخدم حيال الترك سلاحا آخر وهو الرشوة ، فانه كان يعلم ما انطوت عليه نفوس حكام تركيا وساستهم من الاذعان للمال والنزول على حكمه ، ومما يؤثر عنه فى هذا الصدد قوله عنهم « انى اعرف الترك وأعرف الطريقة التى تنجح معهم فالرشوة هى وسيلة فعالة مع هؤلاء الناس » ، فاستخدم هذا السلاح وأخذ يقدم الرشا والهدايا لصالح باشا وبطانته من جهة ، ولرجال « المابين » فى الاستانة من جهة أخرى ، وكان لهذه الوسيلة فضل كبير فى تمهيد السبيل لمساعيه ، فقد بعث بعريضة زعماء الشعب الى الاستانة لتقديمها الى السدة السلطانية على يد رسول من امنائه وأرسل معه ٢٠٠٠ كيس برسم رجال الدولة جمعها له رؤوساء الجند لاعداد الاهبة للحرب والقتال فأحدثت هذه الرشوة أثرها على ضفاف البوسفور

وبذل كذلك سفير فرنسا فى الاستانة مساعى جمة لتعضيد محمد على ، فاجتمعت هذه الاسباب المختلفة وعدلت من خطة الباب العالى ، فبعث الديوان الى صالح باشا يطلق يده ويكل اليه التصرف المطلق فى الامر كما سيأتى

معركة النجيلة

قلنا ان محمد على باشا أنفذ الى الرحمانية جزءا من جيشه لمحاربة محمد بك الالفى والاتراك ، فوصل هذا الجيش فى أواخر يوليه سنة ١٨٠٦ الى الرحمانية ، وكان يقود حاميتها طبوز اوغلى (كتخدا بيك) وطاهر باشا ابن اخت محمد على باشا ، فلما أقبلت النجدة استظهر بها القائدان وخرجا من الرحمانية ، ولما علم الالفى بهذه

الحركة اعتزم مواجهة قوات محمد على ، فرفع الحصار عن دمنهور وأقبل بقواته واشتبك هو وجنود محمد على فى (النجيلة)[1] يوم ١٢ اغسطس سنة ١٨٠٦ وانتهت المعركة بهزيمة العلويين فانسحبوا بقيادة كتخدا بك الى منوف بعد أن خسروا نحو ستمائة بين قتيل وأسير واستولى المماليك على الرحمانية

رواية الجبرتى عن معركة النجيلة

كانت معركة النجيلة ذات خطر وشأن وكان لها تأثير بالغ فى نفس محمدعلى باشا قال الجبرتى فى صددها مايلى :

« وفى ثانى عشر جمادى الاولى سنة ١٢٢١ وردت الاخبار بأن العسكر الكائنين بالرحمانية ومرقص[2] رجعوا الى النجيلة ونصبوا عرضيهم (معسكرهم) هناك وحضر الالفى تجاههم فركبوا لمحاربته وكانوا جمعا عظيما ، فركب الالفى بجيوشه وحاربهم ووقع بينه و بينهم وقعة عظيمة انجلت عن نصرته عليهم وانهزام العسكر وقتل من الدلاة وغيرهم مقتلة عظيمة ولم يزالوا فى هزيمتهم الى البحر (النيل) والقوا بانفسهم فيه ، وامتلأ البحر من طراطير الدلاتية (الدلاة)، وهرب كتخدا بيك وطاهر باشا الى بر المنوفية وعدوا فى المراكب واستولى الالفى وجيوشه على خيولهم وخيامهم وحملاتهم وجبخانتهم وأرسل بر ءوس القتلى والاسرى الى القبودان (صالح باشا) وأشيع خبر هذه الواقعة فى الناس وتحدثوا بها وانزعج الباشا والعسكر انزعاجا عظيما »

استئناف حصار دمنهور

ودفاعها المجيد

تشجع الالفى بهذا الانتصار وعاود محاصرة دمنهور ، فدافع أهلها دفاعاً مجيداً مدة

---

(١) جنوبى الرحمانية

(٢) على مقربة من الرحمانية

شهرين من بدء الحصار الأول ، وكانوا متروكين لقوتهم ، وعبثا طلبوا النجدة من محمد على فانه لم يستطع أن يمدهم خلال هذه المدة ، فلما استأنف الالفى حصارها كان على يقين من استيلائه عليها عنوة وخاصة بعد انتصاره على جنود محمد على فى النجيلة والرحمانية ، وقد زحف هذه المرة مجهزا بالمدافع الكثيرة التى يقوم عليها رماة من الاروام والايطاليين أمده بهم الانجليز

ولكن الألفى لم ينل من دمنهور منالا ، إذ دافع أهلها عنها رجالا ونساء دفاع الأبطال ، وردوا هجمات المماليك المرة بعد المرة ، وفى خلال الحصار أرسل أهلها الى السيد عمر مكرم والى محمد على باشا يجدد بهم عمله فجاءهم الجواب بوجوب الاستمرار على المقاومة ، وأمدهم السيد عمر بكل مايحتاجون اليه من الذخيرة والميرة ، قال الجبرتى فى ترجمة محمد بك الألفى انه «رجع الى البحيرة وأراد دمنهور فامتنع عليه أهلها وحاربوه وحاربهم ولم ينل منهم غرضا والسيد عمر مكرم يقويهم ويمدهم ويرسل اليهم البارود وغيره من الاحتياجات»

وظل الالفى زهاء شهر يحاول الاستيلاء على دمنهور فيرتد عنها خائبا ، وقد أثر هذا الفشل فى تطور الاحوال تأثيراً كبيراً ، قال فولابل فى هذا الصدد «يمكن اعتبار دفاع دمنهور ذلك الدفاع الذى جمع بين الشجاعة والثبات ، وكذلك تخاذل رؤساء المماليك ، من أهم الأسباب المباشرة التى أحبطت الخطة المرسومة بالاشتراك بين الباب العالى والانجليز» [1] ويقول المسيو جومار فى هذا المعنى «إن أهالى دمنهور قد أظهروا مثل هذه الشجاعة والمثابرة أثناء الحملة الفرنسية فى ظروف تختلف عن الظروف التى قاوموا فيها قوات الالفى مما يدل على مافطروا عليه من الشجاعة» (٢)

حبوط مؤامرة العزل

انتهز محمد على فرصة انهماك الالفى فى محاصرة دمنهور فاتصل بحاشية صالح باشا بالهدايا والرشوة ليحولهم الى صفه ، وقد أحدث المال فى نفس صالح باشا ونفوس بطانته

---

(١) فولابل . مصر الحديثة

(٢) مانجان تاريخ مصر فى حكم محمد على الجزء الاول ص ٤٤٣

تحولا كبيراً فى وجهة نظرهم، وزاد هذا التحول خيبة الالفى فى الاستيلاء على دمنهور وما تبين لصالح باشا من انقسام المماليك وتخاذلهم ، فان البرديسى لما رأى ارتباط الألفى بالانجليز أعرض عن تأييده لحقده عليه ولانه من انصار الالتجاء الى فرنسا ، وقد تبين لصالح باشا عبث الاعتماد على المماليك والركون اليهم لان الالفى تعهد ان يؤدى له ١٥٠٠ كيس كانت ثمن إعادتهم للحكم ، وأوفد رسولا الى زملائه ابراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسى وعثمان بك حسن وكانوا وقتئذ بالصعيد يسألهم معاونته فى أداء هذا المبلغ ، ولكنهم ردوا الرسول خائبا وعلم صالح باشا بذلك فغضب على الألفى واخذ يفكر فى تغيير خطته ، ورأى أن تأييد زعماء الشعب لمحمد على ، ورفضهم ولاية موسى باشا وتضعضع الالفى فى حصار دمنهور وتخاذل المماليك فيما بينهم كل هذه الاسباب تبرر تحويل شراعه الى ناحية محمد على

وفى غضون ذلك وردت من الباب العالى الى صالح باشا رسالة تطلق يده وتفوض اليه أن يتصرف على ما يراه صالحا ومعنى ذلك ان حكومة الاستانة رجعت عن فرمانها القاضى بعزل محمد على باشا من ولاية مصر ، فصحت عزيمة صالح باشا على تثبيت محمد على فى الولاية ، وتم الأمر على ذلك فى مقابل ان يؤدى الى الباب العالى ٤٠٠٠ كيس ، وان يجعل ابنه ابراهيم بك (باشا) رهينة بالاستانة على هذا المبلغ ، وانتهت المشكلة بورود مرسوم الى محمد على يتضمن « ابقاءه واستمراره على ولاية مصر حيث ان الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس » فزينت القاهرة لهذا النبأ ثلاثة أيام متواليات

فمرسوم التثبيت مبنى اذن على ان محمد على باشا مؤيد من الشعب. مرضى عنه من زعمائه موثوق فى عدله ، ومن ذلك يتبين ان الزعامة الشعبية كما كانت صاحبة اليد الطولى فى اختيار محمد على باشا لولاية الحكم فانها كانت العامل الاكبر فى توطيد مركزه واحباط المؤامرة الواسعة النطاق التى كادت تقتلعه عن عرشه

وانتهت تلك المؤامرة بالاخفاق والفشل واقلع القبودان صالح باشا بعمارته من

أبو قير يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨٠٦ (٥ شعبان سنة ١٢٢١) قاصدا الاستانة يصحبه موسى باشا وابراهيم بك بن محمد علي ، وترك صالح باشا وكيله بمصر ليتعجل توفية الاربعة الآلاف كيس التي تعهد بها لحكومة الاستانة

وبذل محمد علي جهده فأدى الاربعة آلاف كيس كاملة في أوائل نوفمبر سنة ١٨٠٦ ، فجاءه رسول من الاستانة يحمل فرمانين أحدهما باقراره في حكمه والثاني يأمره فيه بتسفير المحمل وارسال القمح المطلوب الى جده

وبذلك استقر محمد علي على عرش مصر وحبطت المؤامرة التي كان يقصد منها عزله

وفاة البرديسى

كانت العناية الالهية تلحظ محمد علي باشا في ادوار حياته ، ففي الوقت الذي انتهت فيه مؤامرة الباب العالي والانجليز بالاخفاق والفشل جاءه الخبر بوفاة عثمان بك البرديسي احد زعماء المماليك الذين يطمحون الى ولاية الحكم وأحد الذين يخشى منهم على عرشه الجديد ، فالبرديسي ماقتىء يتحين الفرص لتحقيق مطامعه الى أن عاجلته المنية يوم ٨ رمضان سنة ١٢٢١ (١٩ نوفمبر سنة ١٨٠٦) فدفنه اتباعه في الصعيد وأمّروا عليهم شاهين بك المرادي خلفا له ، وشاهين بك هذا كان خصما لدودا للالفي فكانت امارته حائلة دون توحيد صفوف المماليك وسببا لاطمئنان محمد علي من هذه الناحية

وغني عن البيان ان محمد علي باشا قد ابتهج بوفاة أحد خصومه الذين ينافسونه في الحكم ، ولم يكد يمضي شهران على وفاة البرديسي حتى عاجلت المنية خصمه الآخر الالد محمد بك الالفي

اخفاق الالفي ووفاته

لم ييئس الالفي أن يظاهره الانجليز في انتزاعه الحكم ، فاستمر متصلا بقنصل انجلترا في مصر يطلب من دولته النجدة والمدد ، وفي غضون ذلك

انتقضت العلاقات بين انجلترا وتركيا ، واعتزمت انجلترا احتلال مصر ، ومن هنا جاءت فكرة الحملة الانجليزية التي سيأتي الكلام عنها فيما يلي ، وقد أنبأه قنصل انجلترا بقرب وصول العمارة الانجليزية بهذه الحملة ،

فكان هذا النبأ باعثا له على البقاء في البحيرة ليتصل بالانجليز عند قدومهم، وقد شدد الحصار على دمنهور ليفتحها ويتخذها معقلا له ، ولكن مقاومة دمنهور وامتناعها عليه أفسد خطته ، ذلك ان جنوده سئموا الاستمرار على الحرب والقتال واشتد بهم الحر والتعب ، ونفدت مؤونتهم ، وكان ذلك في زمن القيظ ، فتمردوا عليه واعلنوه بأنهم تاركوه اذا أصر على متابعة الحصار ، وانتظر هو عبثا ورود النجدة الانجليزية فلم تصل (وكانت آتية في الطريق) ، فاضطر ان ينقلب بجيوشه الى الصعيد بعد أن خانه الحظ وخذله زملاؤه ، وتمرد عليه جنوده ، وابطأ عليه حلفاؤه

فامتناع دمنهور واستعصاؤها على الألفي كان من أهم اسباب اخفاقه في سياسته ، قال المسيو مانجان في هذا الصدد « ان دفاع دمنهور المجيد هو جدير بأن يسجل في صفحات تاريخ مصر الحربي فقد تولى أهلها الشجعان هذا الدفاع وحدهم دون ان يتلقوا أي مدد أو مساعدة حتى من محمد على الذي كان هذا الدفاع دفاعا عنه فقاوم أولئك الشجعان بكل ثبات وبسالة قوات الالفي كلها الى أن تكلل دفاعهم بالنجاح فكان له تأثير كبير في احباط خطة الباب العالي »

وقال الجبرتي في ترجمة حياة محمد الألفي يصف موقفه بعد رحيل صالح باشا الى أن ارتد عن دمنهور « ولما تنحت عنه عشيرته ولم يلبوا دعوته واتلفوا الطبخة وسافر القبودان وموسى باشا من ثغر اسكندرية على الصورة المذكورة استأنف المترجم أمرا آخر ، وراسل الانكليز يلتمس منهم المساعدة ، وأن يرسلوا له طائفة من جنودهم ليقوى بهم على محاربة الخصم كما التمس منهم في العام الماضي فاعتذروا له بأنهم على صلح مع العثماني وليس في قانون الممالك اذا كانوا في صلح أن يتعدوا على المتصادقين معهم ولا يوجهون نحوهم عساكر الا باذن منهم أو بالتماس لمساعدة في أمر مهم ، فغاية ما يكون المكاتبة والترجي ، ففعلوا وحصل ما تقدم

ذكره ولم يتم الامر ، فلما خاطبهم بعد الذى جرى صادف ذلك وقوع النفرة بينهم وبين العثمانى ، فأرسلوا الى المترجم يوعدونه بانفاذ ستة آلاف لمساعدته ، فأقام بالبحيرة ينتظر حضورهم نحو ثلاثة شهور ، وكان ذلك أوان القيظ وليس ثم زرع ولا نبات ، فضاقت على جيوشه الناحية ، وقد طال انتظاره للانكليز ، فتشكى العربان المجتمعون لديه وغيرهم لشدة ما هم فيه من الجهد ، وفى كل حين يوعدهم بالفرج ويقول لهم اصبروا لم يبق الا القليل ، فلما اشتد بهم الجهد اجتمعوا اليه وقالوا له اما ان تنتقل معنا الى ناحية قبلى فان أرض الله واسعة واما ان تأذن لنا فى الرحيل فى طلب القوت ، فما وسعه الا الرحيل مكظوما مقهورا من معاندة الدهر فى بلوغ المآرب ـ الأول مجىء القبودان وموسى باشا على هذه الهيئة والصورة ورجوعهما على غير طائل ، الثانى عدم ملكه دمنهور وكان قصده أن يجعلها معقلا ويقيم بها حتى تأتيه النجدة ، الثالث تأخر مجىء النجدة حتى قحطوا واضطروا الى الرحيل ، الرابع وهو أعظمها ، مجانبة اخوانه وعشيرته وخذلانهم له وامتناعهم عن الانضمام اليه ، فارتحل من البحيرة بجيوشه ومن يصحبه من العربان حتى وصل الى الاخصاص »

عاد الالفى قاصدا الصعيد بعد خذلانه فى حصار دمنهور ، وقد تولاه اليأس والقنوط ، وسار كئيبا حزينا ومعه القوات العديدة التى كان يحسب أنها تصل به الى عرش النيل ، فكان تحت لوائه ستة آلاف من العرب وستمائة من فرسان المماليك وثمانمائة من الترك والنوبيين ومعه من آلات القتال عشرة مدافع وعدد لا يحصى من البنادق والاسلحة ، وكانت الميرة والمؤونة تحملها آلاف عدة من الابل

رجع الالفى بهذه القوات الحاشدة فى اوائل يناير سنة ١٨٠٧ ، فكان لا يمر ببلدة الا أباحها لجيشه نهبا وسلبا ، فكان اهل القرى ينزحون عن بلادهم اذا ما اقترب منها ويخلونها من الميرة والمتاع والماشية نجاة بها من النهب

وبلغت هذه الجموع المخربه الى الجيزة ، فأوجس محمد على باشا خيفة من مجىء خصمه الألد بهذه القوة الرهيبة وأخذ يستعد للمقاومة ، فجمع نحو أربعة آلاف من

جنوده فى شبرا (١٢ يناير سنة ١٨٠٧) وعبر بهم النيل الى امبابه واتخذها معسكره العام ، ولكنه رأى من كثرة جموع الالفى ما جعله يحجم عن مهاجمته

وكانت طلائع الالفى تحت قيادة شاهين بك قد تقدمت واحتلت قرية الكوم الاسود التى تقع على مسيرة ساعة ونصف من امبابه جنوبا وسار الألفى بك حتى بلغ شبرامنت ، ولم تغادره الكآبة التى لازمته من يوم رحيل العمارة التركية ورفع الحصار عن دمنهور ، وزاد فى غمه أنباء وصلته عن تخاذل رؤساء المماليك فى الصعيد وتخليهم عن نصرته وقد كان يؤمل ان يتخذوه رئيسا لهم بعد وفاة البرديسى ، فاشتد غيظه وانفجر صدره كمدا وصرعه المرض فأحس بدنو أجله ، فدعا البكوات المماليك من اتباعه وأمّر عليهم شاهين بك الالفى خليفة له ، ثم قضى نحبه ليلة ٢٨ يناير سنة ١٨٠٧ (١٩ ذى القعدة سنة ١٢٢١) (١)

كتب المسيو مانجان عن مصرعه انه خرج للتنزه ممتطيا جواده فرأى عربانا من جيشه يتلفون مزرعة قمح فثارت نزوة الغضب فى رأسه فانقض عليهم وقتل أربعة منهم كان بينهم شيخ قبيلة ولما انقلب الى خيمته اعتراه قىء مستمر واصابه مرض قتال قيل انه الكوليرا ولم يمهله الا ساعات حتى أودى بحياته وكان له من العمر خمس وخمسون سنة ، وأوصى بأن يدفن فى البهنسا

وذكر الجبرتى انه لما وصل الى قرب قناطر شبرامنت جلس على ربوة هناك وزادت هواجسه وآلامه وأخذ يودع احلامه وآماله ثم تحرك به خلط دموى وتقايأ دما وأحس بدنو أجله فقال « قضى الامر وخلصت مصر لمحمد على »

مات الالفى فى الوقت الذى كان الانجليز يسيرون حملتهم على مصر ، وقد وصلت هذه الحملة الى الاسكندرية بعد موته بنحو اربعين يوما ، وقد يكون موته من اسباب اخفاق تلك الحملة كما سيجىء ، وبموته تخلص محمد على من الد اعدائه واقواهم بأسا وأصعبهم مراسا

---

(١) اعتمدنا فى هذا التاريخ على رواية الجبرتى ، وهى تختلف قليلا عن رواية المسيو مانجان الذى جعل تاريخ الوفاة ٣٠ يناير

الحملة على المماليك فى الصعيد

قضى الالفى نحبه فى الوقت الذى كان محمد على باشـا يجهز تجريدة لمحاربة المماليك فى الوجه القبـلى ، فلما أعد معدات الحملة بدأ بالزحف ، وكان جيشه مؤلفا من ثلاثة آلاف من المشاة و ثلاثة آلاف من الفرسان وست سفن مسلحة ، وأقلت الحملة نحو ثمانمائة مركب ، واصيب محمد على هو أيضا بالكوليرا لـكن طبيبه الخاص عنى به أحسن العناية وتغلبت بنيته القوية على المرض فشفى منه وكان فى أيام مرضه موضع العطف من العلماء والاعيان، فلما تمّه وانتهض اعتزم السير الى الصعيد فعهد بادارة الامن الى كتخداه وغادر القاهرة يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٠٧ . (١)

وعلم ان قوات المماليك احتشدت فى المنيا فقصد اليهـا بجيشه ولما وصل الى بنى سويف ارسل الى زعماء المماليك رسلا من العلماء يسعون للصلح ، وكانت تلك خدعة منه ، واخذ فى الوقت نفسه يجتذب اليه بعض العربان الموالين للمماليك و يستميلهم بالمال، ثم تقدم ذات ليلة الى معسكر المماليك ولما كانت حراسته موكولة الى اولئك العربان توصل اليه بارشادهم فانقض على المماليك وهم نائمون فأوقع بهم واستولى على كل مدافعهم ومهماتهم وتعقب الفارين منهم الى حدود الصحراء

و بعد ان هزمهم بالقرب من اسيوط احتل المدينة واتخذ معسكر فيها ، وهناك تلقى أخبار الحملة الانجليزية

(١) مانجان تاريخ مصر في حكم محمد على جزء ١ ص ٢٦٧

الفصل الثانى

الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ واخفاقها

لم تكد مصر تنجو من خطر رجوع المماليك الى الحكم حتى واجهت أزمة أشد واعظم خطرا ، وهى الحملة التى جردتها عليها انجلترا سنة ١٨٠٧ لاحتلالها وتحقيق مطامعها فى وادى النيل

أسباب الحملة

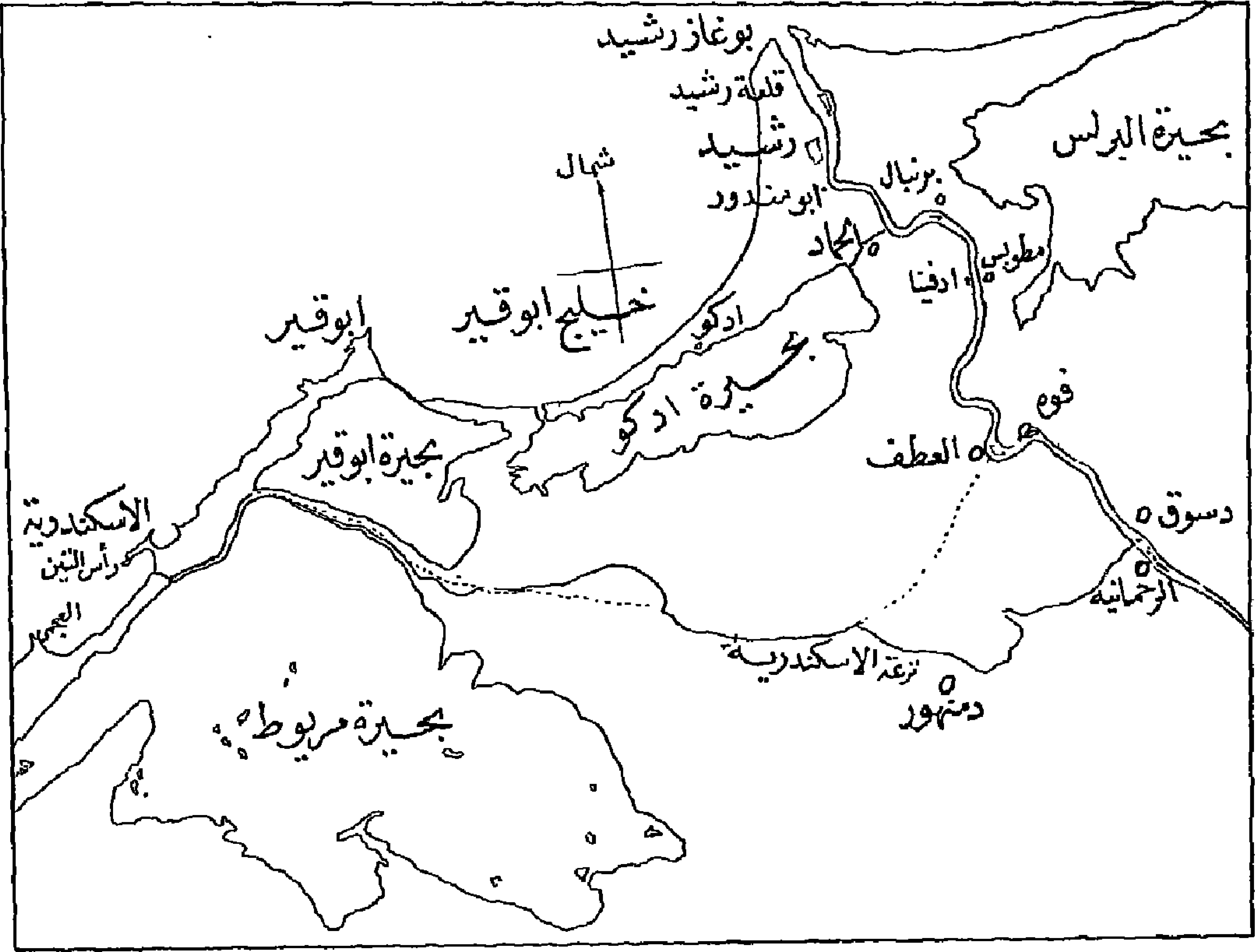
ترجع اسباب تلك الحملة الى انتقاض العلاقات بين انجلترا وتركيا وما اعتراهما من الجفاء والعداء لانحياز تركيا الى جانب فرنسا ، فنقمت انجلترا من الحكومة التركية تلك السياسة واتفقت هى والروسيا على الكيد لها ، وساءت العلاقات بين الدولتين حتى انتهت باعلان الحرب بينهما ، ودخل الاسطول الانجليزى بقيادة الاميرال دوكورث (Duckworth) بوغاز الدردنيل واعتزمت انجلترا ان تضرب تركيا فى مصر فتنال بذلك غرضين وهما اذلال تركيا من جهة وتحقيق اطماعها فى مصر من جهة أخرى

حالة الافكار فى القاهرة والاقاليم

جردت انجلترا حملتها على مصر بقيادة الجنرال فريزر ، وكانت على اتفاق مع محمد بك الالفى أن يؤيدها ويشد أزرها على ان تكفل للمماليك الاستيلاء على حكومة البلاد

لكن مصر لم تستسلم لتلك الغزوة ، بل قاومتها بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وظهرت الامة بذات الروح التى نهضت بها بازاء الحملة الفرنسية أى بروح المقاومة والبذل والتضحية والدفاع والمحاماة عن الذمار حتى انتهت الحملة بالخيبة والفشل

جاءت مصر أخبار الحملة الانجليزية قبل قدومها ، وعلم الناس بها من الرسائل الواردة من الاستانة ، فأخذوا يعدون لمقاومتها كاستعدادهم لمقاومة الحملة الفرنسية



خريطة مواقع الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧

وترى فيها البلاد والمواقع التى ورد ذكرها فى الفصل الثانى ، والجهات التى مرت بها الحملة منذ نزول الجنود الانجليزية بشاطىء العجمى (غربى الاسكندرية) الى هزيمتهم فى رشيد والحماد ، والخريطة مرسومة حسب تخطيط سنة ١٨٠٧ ، وتجد بها ترعة الاسكندرية التى كانت موجودة فى ذلك العهد وانشئت مكانها ترعة المحمودية سنة ١٨١٩ وقد اشرنا الى تخطيطها فى الخريطة بخط منقوط

مقابل ص ٤١

التى تقدمتها بنحو عشر سنوات ، وتولى السيد عمر مكرم زعامة المقاومة الشعبية بما عهد فيه من شجاعة وحزم واخلاص

ذكر الجبرتى حالة البلاد قبيل مجيء هذه الحملة فقال فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢٢١ (فبراير سنة ١٨٠٧) « شرع أهل الاسكندرية فى تحصين قلاعها وابراجها وكذلك أبو قير ، وأرسل كتخدا بك (نائب محمد على باشا) من يتقيد ببناء قلعة بالبرلس ، وحصل بمصر قلق ولغط ، وغلت الاسعار فى البضائع المجلوبة وعملوا جمعيات فى بيت كتخدا بك وبيت السيد عمر النقيب واتفقوا على ارسال تلك المراسلات الى محمد على باشا بالجهة القبلية صحبة ديوان افندى (سكرتيره) »

أقبلت العمارة الانجليزية الى مياه الاسكندرية فى شهر مارس سنة ١٨٠٧ ، فأرسل السعاة أخبار مجيئها الى القاهرة ، وكان محمد على باشا غائبا عنها يقاتل المماليك فى الصعيد ، فلما استفاضت أخبارها هاجت الخواطر وقلق الناس ، واجتمع ولاة الامور يتشاورون فيما يجب عمله للدفاع عن البلاد

قال الجبرتى « فلما وصلت تلك المكاتبات اجتمع كتخدا بك وحسن باشا وبونابارته الخازندار وطاهر باشا والدفتردار والروزنامجى وباقى أعيانهم ، وذلك من الغروب ، وتشاوروا فى ذلك ، ثم اجمع رأيهم على ارسال الخبر بذلك الى محمد على باشا يطلبونه للحضور هو ومن بصحبته من العساكر ليستعدوا لما هو أولى وأحق بالاهتمام ، ففعلوا ذلك وانصرفوا الى منازلهم بعد حصة من الليل ، وأرسلوا تلك المكاتبة اليه فى صبح يوم الجمعة صحبة هجانين ، وشاع الخبر وكثر لغط الناس فى ذلك »

قلنا ان الحملة الانجليزية جاءت على اتفاق سابق مع الالفى زعيم المماليك ، لكن الاقدار الالهية قضت ان يموت الالفى قبل ان تهبط الحملة الى مصر ، ولو أنها تقدمت فى مجيئها أربعين يوما فجاءت والالفى على قيد الحياة وحوله تلك الألوف من المقاتلة لكان محتملا ان يتحول مجرى الحوادث فى مصر ، بيد أنها وصلت

بعد موت الالفى وتشتت انصاره وانفضاض جيشه ، فكان ذلك من الأسباب التى هيأتها العناية الالهية بجانب المقاومة التى أبدتها مصر لاخفاق هذه الحملة

مجىء العمارة الانجليزية

فى أوائل مارس سنة ١٨٠٧ اقبلت سفينة انجليزية الى مياه الاسكندرية دون أن تخبر باسباب حضورها، ولعلها كانت سفينة استطلاع لتعرف الحالة فى الثغر ، فلما كان يوم ١٤ مارس جاءت سفينة حربية أخرى واستدعت القنصل الانجليزى (١) فلبى الدعوة ومضى مسرعا لمقابلة من فيها ، ولم يكد يعود الى الثغر حتى بادر بانفاذ عدة من السعاة يحملون رسائل الى جهات بعيدة ، وقد ظن الاهالى انها مرسلة الى الرعايا الانجليز لاستدعائهم الى الثغر ، ولكن تبين بعد ذلك انها مرسلة الى البكوات المماليك فى الصعيد لاخبارهم بقرب وصول الحملة البريطانية واستدعائهم الى الوجه البحرى ، فدلت هذه الرسائل على أن الحملة الانجليزية جاءت باتفاق سابق مع الالفى على أن يمدها المماليك بما لديهم من الرجال والعتاد

قال الجبرتى فى هذا الصدد « وبعد موت الالفى بنحو الاربعين يوما وصلت نجدة الانكليز الى ثغر الاسكندرية وطلعوا اليها فبلغهم عند ذلك موت المذكور ، فلم يسهل بهم الرجوع فأرسلوا الى الجماعة المصريين (يريد المماليك) ظانين ان فيهم أثر الهمة والنجدة يطلبونهم للحضور ويساعدهم الانكليز على ردهم لمملكتهم »

وقال فى موضع آخر ما خلاصته « ان هذه الطائفة من الانكليز ومن انضم اليهم وعدتهم على ما قيل ستة آلاف لم تأت الى الثغر طمعا فى أخذ مصر (!) بل كان ورودهم ومجيئهم مساعدة ومعاونة للالفى على اخصامه باستدعائه لهم واستنجاده بهم ، وسبب تأخرهم فى المجىء لما كان بينهم وبين العثمانى من الصلح ، فلما وقعت النفرة بينهم وبينه انتهزوا الفرصة وارسلوا هذه الطائفة ، وكان الالفى ينتظر حضورهم بالبحيرة ، فلما طال عليه الانتظار وضاقت عليه البحيرة ارتحل بجيوشه قبلا وقضى

---

(١) هو الماجور ميست Misset وكان قنصلا عاما لانجلترا فى مصر

الله بموته باقليم الجيزة، وحضر الانكليز بعد ذلك الى الاسكندرية فوجدوه قد مات، فلم يسعهم الرجوع فارسلوا الى الامراء القبليين يستدعونهم ليكونوا مساعدين لهم على عدوهم ويقولون لهم انما جئنا الى بلادكم باستدعاء الألفى لمساعدته ومساعدتكم فوجدنا الالفى قد مات وهو شخص واحد منكم وانتم جمع فلا يكون عندكم تأخير فى الحضور فانكم لا تجدون فرصة بعد هذه وتندمون بعد ذلك ان تأخرتم »

يتبين من ذلك ان الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ كانت باستدعاء الالفى واتفاقه مع الانجليز على احتلال البلاد ، وهذا يؤيد الحقيقة التى بسطناها فى الجزء الثانى وهى ان المماليك كانوا صنائع السياسة الانجليزية وظلوا صنائعها الى أن استراحت البلاد منهم، ولعلك لاحظت فى رواية الجبرتى قوله ان الانجليز لم يأتوا الى الثغر طمعا فى أخذ مصر الخ ... وهو قول من لم يدرك كنه السياسة الانجليزية، والجبرتى معذور فى عدم ادراكه حقيقة مقاصدها، فلم يكن قد بلاها ، ولا عرف أسرارها، وهو فى انخداعه بها أحق وأولى بالمعذرة ممن توهموا سنة ١٨٨٢ أى بعد نيف وسبعين عاما من هذه الحوادث ان الانجليز جاءوا مصر للدفاع عن عرش الخديوية المصرية ، وكان عليهم أن يفهموا انهم انما جاءوا ليحتلوا البلاد ويبسطوا نفوذهم وسيطرتهم فيها

احتلال الاسكندرية

فى يوم ١٦ مارس عادت السفينة الانجليزية تتبعها بارجة كبرى وبعض السفن الاخرى والقت مراسيها بالميناء الغربية ، ونزل منها ضابطان طلبا مقابلة محافظ الثغر فى ذلك العصر ، واسمه امين اغا، وهو من ضباط الاستانة وكان متواطئا مع الانجليز أن يسلم لهم المدينة على رشوة من المال ، قال المسيو مانجان فى كتابه ان الانجليز قد اشتروا أمين أغا هذا بالمال ، والذى أعطاه هذا المال هو قنصل انجلترا ، فلما قابله الضابطان النازلان من العمارة الانجليزية اتفق معهما على ان يسلم المدينة

دون مقاومة ، ثم لم يكد يطلع يوم ١٧ مارس حتى أقبلت العمارة الانجليزية مؤلفة من خمس وعشرين سفينة بقيادة الاميرال لويس Lewis وسدت مدخل الميناء الغربية، وفى مساء ذلك اليوم أخذ جنود الحملة ينزلون الى البر بشاطىء العجمى ، ثم زحف الانجليز على الاسكندرية وعسكروا تحت اسوارها ، وأرسلوا فصيلة منهم لاحتلال قلعة (أبو قير) شرقى الاسكندرية، وانقضى يومان فى مفاوضات صورية بينهم و بين أمين اغا محافظ المدينة انتهت بأن سلم نفسه كأسير حرب و معه حامية المدينة وعددها نحو ثلثمائة مقاتل ، ودخل الانجليز الاسكندرية ليلة ٢١ مارس دون ان تطلق رصاصة واحدة

هـذا ما فعله أمين اغا محافظ الاسكندرية فى ذلك العهد ، ولعلك تذكر موقف السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الوطنى حين مجىء حملة نابوليون سنة ١٧٩٨ ومبلغ شجاعته فى مقاومتها (١) وتقابل بين موقفه النبيل وخزا (امين اغا) فى استسلامه للحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ ، وامين اغا هو من ضباط الاستانة لان الحكومة التركية كانت تعد الاسكندرية الى ذلك العهد تابعة لها مباشرة فكانت تعين حاكمها ، واما السيد محمد كريم فقد كان فى عهد الحملة الفرنسية حاكم المدينة الوطنى ، فقابل بين موقف الحاكم الوطنى وشجاعته وجبن ضابط الاستانة ونذالته تجد الفرق بين الاثنين عظيما

استولى الانجليز اذن على الاسكندرية دون حرب ولا قتال ، لكن الجبرتى فى ايراده اخبار تلك الحملة ذكر فى يوميات شهر محرم سنة ١٢٢٢ ورود انباء من الاسكندرية بوقوع قتال « وضرب بالمدافع الهائلة من البحر وهدم جانب من البرج الكبير وكذلك الابراج الصغار » ، وكل ذلك لم يكن سوى اشاعات باطلة كانت ترسل الى القاهرة فيتناقلها الناس كما تروج الاشاعات الكاذبة أثناء الحروب ثم لا تلبث ان ينكشف بطلانها ، والواقع انه لم يحصل ضرب بالمدافع

(١) انظر الجزء الاول الفصل الخامس

الهائلة ولاهدم جزء من البرج الكبير او الابراج الصغيرة، والجبرتى كان يذكر كل الاشاعات التى تردأثناءوقوع الحوادث الخطيرةالتى يدونهافقد ذكر ايضا انهم «اشاعوا ان الاسكندرية ممتنعة على الانكليز وانهم طلعوا الى رأس التين والعجمى فخرج عليهم أهل البلاد والعساكر وحاربوهم وأجلوهم عن البر ونزلوا الى المراكب مهزومين وحرقوا منهم مركبين وانه وصلت اليهم عمارة العثمانيين والفرنساوية وحاربوهم فى البحر واحرقوا مراكبهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ولم يبق منهم الا القليل »

ولم يكن شيء من ذلك صحيحا ولا قريبا من الواقع، بل كله مكذوب وكان مصدره الاشاعات الباطلة أو كما يقول الجبرتى بعد ذلك « واستمر الامر فى هذا الخلط القبلى والبحرى عدة أيام ولم يأت من الاسكندرية سعاة ولا خبر صحيح » و بعد ان أورد الجبرتى تلك الاشاعات ذكر انه فى ٢٠ محرم وردت الاخبار الصحيحة بأخذ الاسكندرية واستيلاء الانكليز عليها يوم الخميس تاسع الشهر ودخلوها وملكوا الابراج يوم الاحد صبيحة النهار وسكن صارى عسكرهم بوكالة القنصل » فالجبرتى فى ايراده (الاخبار الصحيحة) لم يذكر انه حدثت حرب او قتال ولا ضرب بالمدافع الهائلة ولا هدم للابراج ، وهذا يؤيد المصادر الصحيحة التى اتفقت روايتها على أن استيلاء الانجليز على الاسكندرية قد تم من غير مقاومة بفضل خيانة أمين اغا

كانت الحملة الانجليزية مؤلفة من نيف و ٦٠٠٠ مقاتل(١) بقيادة الجنرال فريزر Fraser و يتألف هذا الجيش من فرقتين الاولى بقيادة الجنرال ستوارت Stuart والاخرى بقيادة الجنرال ويكوب Wacop

و لعلك تعجب كيف جازف الانجليز بهذا العدد الضئيل فى الحملة على مصر فى حين أن نابوليون بونابرت لم يقدم على غزوها الا بجيش مؤلف من ٣٦٠٠٠ من المقاتلة وعمارة من أعظم الاساطيل البحرية ، ولكن هذه الدهشة لاتلبث ان

---

(١) اعتمدنا فى هذا الاحصاء على الوثيقة رقم ٢٠ من وثائق الحملة الإنجليزية التى أخرجتها الجمعية الجغرافية فى كتاب (مصر والجلترا ـ حملة سنة ١٨٠٧) للمسيو دوان

نزول اذا علمت ان الانجليز كانوا يظنون انهم لا يجدون فى مصر مقاومة ذات شأن بسبب الاضطرابات التى مزقت شملها ، وكانوا من جهة أخرى يعتمدون على قوات المماليك فى مصر ، ولذلك لم يصحبوا معهم قوة من الفرسان اكتفاء بما يظاهرهم به صنائعهم المماليك ، وكانوا يعتقدون انهم لا يلبثون ان يطأوا أرض مصر حتى يسارع اليهم المماليك من انحاء البلاد لملاقاتهم والانضمام اليهم ، فلما دخلوا الاسكندرية ولم يروا لهم أثرا أرسل اليهم القنصل الانجليزى يطلب من زعمائهم الحضور ليلتقوا بمنقذيهم وحماتهم

ولما بلغت القاهرة أنباء احتلال الاسكندرية احدثت انزعاجا كبيرا بين الناس وخاصة لما علموا ان محافظ الثغر قد سلم المدينة بدون قتال ، فأخذ زعماء الشعب يجتمعون ويتشاورون فاستقر رأيهم على أن يدعوا الشعب الى التطوع لصد الانجليز عن البلاد

موقف المماليك

وكان محمد علي لم يزل بالصعيد يقاتل قوات المماليك ، فلما جاءته الانباء الاولى عن الحملة توجس خيفة منها واعتزم العودة الى القاهرة ، على أنه قابل الخبر برباطة جأش ، وعمد الى الدهاء فى كسر حدة المماليك ليضمن عدم انحيازها الى صفوف الانجليز ، ففاوض زعماءهم فى ابرام الصلح معهم ، وكانت شروطهم لقبول الصلح ان يترك لهم حكم الوجه القبلى ، وقد وجد محمد على ان الضرورة السياسية تقتضى المهادنة معهم حتى يدفع خطر الحملة الانجليزية ، فقبل منهم هذا الشرط على أن يؤدوا له خراج الصعيد وعلى أن يكونوا الى جانبه فى محاربة الانجليز ، فرضى المماليك بهذا الشرط ، ولو كان الالفى بك على قيد الحياة لما رضى به ، ولكن خلفاءه لم يكونوا مرتبطين مع الانجليز بمثل الروابط والعهود التى قطعها الألفى على نفسه ، فضلا عن أنهم خشوا اساءة سمعتهم واتهامهم بالخيانة اذا هم انضموا الى الانجليز أعداء مصر والاسلام فقبلوا أن يحالفوا محمد على ، ولم يكونوا صادقين فى التحالف ، بل كانوا يضمرون ان يتربصوا حتى تنكشف نتائج الحملة الانجليزية ، فان هى فازت انحازوا اليها وان

أصابها الفشل فيهم على تحالفهم مع محمد على ، كذلك كان شأنهم فى كل عهد أن يكونوا مع الغالب ، على أن هـذا الموقف فى ذاته قد افاد قضية مصر لأنه حرم الانجليز عضدا قويا كانوا يعتمدون عليه فى حملتهم

اخلى اذن محمد على الصعيد ، وسار بجنوده الى القاهرة فاحتل المماليك عواصم الوجه القبلى وتقدموا الى الجيزة

واقعة رشيد

وهزيمة الانجليز فيها

٣١ مارس سنة ١٨٠٧ (٢١ محرم سنة ١٢٢٢)

كانت خطة الانجليز فى القتال ان يزحف المماليك على القاهرة فيحتلوها ، وان يحتل الانجليز بمعاونة اسطولهم ثغور مصر ويزحفوا الى الداخل و يبسطوا أيديهم على حكومة البلاد مستعينين بصنائعهم المماليك

وقد تلقى الجنرال فريزر وهو بعد فى الاسكندرية تقريرا من المستر بتروتشى Petrucci قنصل انجلترا فى رشيد عن حالة مصر واحصاء ما بها من القوات ، فأمعن النظر فى هذا التقرير ودرس الموقف بمقدار ما بلغ اليه علمه ، ثم اعتزم الزحف على رشيد لاحتلالها واتخاذها قاعدة حربية يتزود منها الجيش ومنها يزحف الى داخل البلاد ، وعهد بهذه المهمة الى الجنرال و يكوب وأنفذه اليها فى قوة من ٢٠٠٠ من الجنود

تحرك هذا الجيش من الاسكندرية يوم ٢٩ مارس قاصدا رشيد ، فكان تحت اسوارها فى اليوم التالى ، وأخذ يتأهب لدخولها صبيحة يوم ٣١ مارس

كان محافظ رشيد وقتئذ يدعى على بك السلانكلى ، وهو رجل شجاع ثاقب النظر يختلف كثيرا فى اخلاقه عن أمين اغا حاكم الاسكندرية ، وتحت أمره نحو سبعمائة جندى ، فعزم على مقاومة الجيش الانجليزى معتمدا على قوة الحامية وعلى مشاركة الاهالى فى الدفاع عن المدينة ، ولاجل أن يبعث الحمية فى نفوس جنوده ويحملهم على الاستبسال فى القتال أمر بابعاد مراكب التعدية الى البر الشرقى

للنيل حتى لا يجد رجال الحامية وسيلة الى الارتداد اذا حدثتهم نفوسهم ان يسلموا كما سلمت حامية الاسكندرية ، فلما تم له نقل جميع المراكب وشعر الجنود والاهلون عند اقتراب الجيش الانجليزى ان البحر من ورائهم، والعدو من أمامهم، صحت عزيمتهم على المقاومة الى النهاية ، وأمر على بك ان تتراجع الحامية الى داخل المدينة وان يعتصموا هم والاهلون بالمنازل مستعدين للضرب وألا يبدءوا بحركة ما الا عند ما تصدر لهم الاشارة باطلاق النار

فتقدم الانجليز، ولما لم يجدوا أثرا للمقاومة خارج البلد اعتقدوا ان حاميتها قد اعتزمت اخلاءها وتسليمها محتذية بما فعله أمين اغا محافظ الاسكندرية ، فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين، وكانوا قد أعياهم السير فى الرمال من الاسكندرية الى رشيد ، فانتشروا فى الطرق والاسواق يرتادون أمكنة يلجأون اليها ويستريحون فيها ، ولكنهم ما كادوا يجوسون خلال الديار وتشتمل المدينة عليهم حتى أصدر على بك أمره باطلاق النار ، فاقتحمهم الرصاص من كل صوب ، وأخذ الاهلون يطلقون النار من النوافذ والسطوح ، فدب الرعب فى قلوبهم ، وسقط الكثيرون منهم صرعى فى الشوارع ، فقتل الجنرال ويكوب برصاصة أردته ، وقتل الكثير من ضباطه ، فاستولى الذعر على نفوس الانجليز ولاذوا بالفرار ، وانتهت الواقعة بهزيمة الجيش الانجليزى وارتداد الأحياء منه عن رشيد فى حالة يأس وفشل ، فتقهقروا الى الاسكندرية بطريق أبو قير وبلغ عدد القتلى منهم فى هذه الواقعة نحو ١٧٠ قتيلا و ٢٥٠ من الجرحى وأسر المصريون منهم ١٢٠ أسيرا

رواية الجبرتى عن واقعة رشيد

ذكر الجبرتى عن واقعة رشيد ما يأتى

« فى يوم الجمعة رابع عشرين محرم سنة ١٢٢٢ وردت اخبار من ثغر رشيد يذكرون بان طائفة من الانكليز وصلت الى رشيد فى صبح يوم الثلاثاء حادى عشرينه (أى ٣١ مارس سنة ١٨٠٧) ودخلوا الى البلد وكان أهل البلدة ومن معهم من العساكر متنبهين ومستعدين بالازقة والعطف وطيقان البيوت فلما حصلوا بداخل

البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية فألقوا ما بأيديهم من الاسلحة وطلبوا الامان فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة واسروا الباقين وفرت طائفة الى ناحية دمنهور [1] وكان كاشفها عند مابلغه ماحصل برشيد اطمأن خاطره ورجع الى ناحية ديبه ومحلة الامير وطلع بمن معه الى البر فصادف تلك الشرذمة فقتل بعضهم واخذ منهم اسرى وارسلوا السعاة الى مصر بالبشارة فضربوا مدافع وعملوا شنكا »

نصيب المصريين فى المعركة

كان لاهالى رشيد النصيب الاوفر فى هزيمة الجيش الانجليزى ، لان حاميتها العسكرية كانت من القلة بحيث لاتستطيع ان تصد الجيش الزاحف ، وقد سبق لنا القول ان اخبار الحملة الانجليزية قد استفاضت فى مصر قبل مجيئها وعلم الناس بأمرها من الرسائل الواردة من الاستانة واخذت الثغور تستعد لمقاومتها ولم يقبل الاهلون فى رشيد أو غيرها أن يطلبوا المدد من جنود القاهرة لما اشتهروا به وقتئذ من النهب والسلب اذ كان معظمهم من الارناءود والدلاة واخلاط السلطنة العثمانية ، فآثر الاهالى أن يتولوا الدفاع عن المدينة بانفسهم واحتملوا معظم العبء فى المقاومة والقتال ، قال الجبرتى فى هذا الصدد « وفى يوم الثلاثاء ٧ محرم سنة ١٢٢٢ (١٧ مارس سنة ١٨٠٧) عملوا جمعية ببيت القاضى حضرها المشايخ والاعيان وذكروا أنه لما وردت الاوامر بتحصين الثغور ارسل الباشا (محمد على) سليمان اغا ومعه طائفة من العسكر وارسل الى اهالى الثغور والمحافظين عليها مكاتبات بانهم ان كانوا يحتاجون الى عساكر فيرسل لهم الباشا عساكر زيادة على الذين ارسلهم ، فاجابوا بان فيهم الكفاية ولا يحتاجون الى عساكر زيادة تأتيهم من مصر فانهم اذا كثروا فى البلد يأتى منهم الفساد والافساد ، فعملوا هذه الجمعية لاثبات هذا القول »

---

(١) لعل الصواب أبو قير .

يتبين من ذلك أن الاهالى أبوا أن يطلبوا النجدة من العسكر توقيا لما يقع منهم من الفساد وانهم وطنوا النفس على تحمل اعباء القتال بانفسهم ، ومما يؤيد تلك الحقيقة ان وقائع الحملة تدل على أن الحاميات العسكرية قد فر معظمها من الميدان ولم تواجه الجيش الانجليزى ، فقد مر بك مافعله امين اغا حاكم الاسكندرية وحامية المدينة من التسليم ، وكذلك فعلت حامية دمنهور فانها لما بلغتها اخبار احتلال الانجليز الاسكندرية اخلت دمنهور وانسحبت الى فوه ، وحاول الدمنهوريون أن يثنوهم عن عزمهم وحرضوهم على البقاء بالمدينة لمقاومة الانجليز ، فابوا الا الهرب وارسل الاهالى الى السيد عمر مكرم ينبئونه بفرارهم ، قال الجبرتى فى هذا الصدد

« وفى ١٢ محرم سنة ١٢٢٢ ورد مكتوب من أهالى دمنهور خطابا الى السيد عمر النقيب مضمونه أنه لما دخلت المراكب الانكليزية الى اسكندرية هرب من كان بها من العساكر وحضروا الى دمنهور فعندما شاهدهم الكاشف (الحاكم) الكائن بدمنهور ومن معه من العسكر انزعجوا انزعاجا شديدا وعزموا على الخروج من دمنهور ، فخاطبهم اكابر الناحية (الاعيان) قائلين لهم كيف تتركوننا وتذهبون ولم تروا منا خلافا وقد كنا فيما تقدم من حروب الالفى من أعظم المساعدين لكم فكيف لايساعد الآن بعضنا بعضا فى حروب الانكايز ، فلم يستمعوا لقولهم لشدة ماداخلهم من الخوف وعبوا متاعهم واخرج الكاشف اثقاله وجبخانته ومدافعه وتركها وعدى وذهب الى فوه من ليلته ثم أرسل ثانى يوم فى خذ الاثقال ، فهذا ماحصل أخبرناكم به »

ينتج مما تقدم أن النصر فى معركة رشيد يرجع الى الاهالى وانهم هم الذين احتملوا معظم اعباء الجهاد وأبلوا أحسن بلاء فى الدفاع عن المدينة

نتائج واقعة رشيد

كان لموقعة رشيد تأثير كبير فى تطور الاحوال ، لان هذا النصر المبين قد ملأ قلوب المصريين حماسة وفخرا ، وضعضع الهيبة التى كانت للانجليز فى نفوس الناس ،

تلك الهيبة التى جاءت من انتصاراتهم السابقة على الجيش الفرنسى فى مصر وعلى الاساطيل الفرنسية فوق ظهر البحار ، فلا غرو أن يبعث هذا النصر الى نفوس الشعب روح الثقة ، ويحفزه الى الاستمرار فى المقاومة ، ولقد كان لهذه الواقعة فى نفوس المماليك تأثير بالغ فانها كانت لهم صدمة شديدة اضعفت أملهم فى نجاح الحملة الانجليزية وجعلتهم ينكمشون فى معاقلهم بالوجه القبلى ، وبالتالى جعلت الجيش الانجليزى لا يتوقع المعاونة التى كان ينتظرها منهم ، فكل هذه الاعتبارات جعلت لواقعة رشيد من الاهمية شأناً بالغاً فى قيمته وخطره

وقد بادر على بك حاكم رشيد بعد الموقعة الى إنفاذ الاسرى الانجليز الى القاهرة ومعهم رءوس قتلاهم ليكون ذلك اعلاناً للنصر الذى نالته رشيد ثم ليبعث هذا المنظر فى نفوس الجنود والشعب روح الأمل والثقة ، وكان يوم حضورهم يوماً مشهوداً

قال الجبرتى فى وصفه ماخلاصته

« فلما كان يوم الاحد ٢٦ محرم سنة ١٢٢٢ (ابريل سنة ١٨٠٧) اشيع وصول رءوس القتلى ومن معهم من الاسرى الى بولاق فهرع الناس الى الذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم الى ساحل بولاق وركب أيضاً كبار العسكر ومعهم طوائفهم لملاقاتهم فطلعوا بهم الى البر وصحبتهم جماعة العسكر المتسفرين معهم فأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا من باب النصر وشقوا بهم من وسط المدينة وفيهم فسيال (ضابط) كبير وآخر كبير فى السن وهما راكبان على حمارين والبقية مشاة فى وسط العسكر ورءوس القتلى معهم على نبابيت وعدتها أربعة عشر رأساً ، والأحياء خمسة وعشرون ، ولم يزالوا سائرين بهم الى بركة الازبكية وضربوا عند وصولهم شنكا ومدافع وطلعوا بالاحياء مع فسيالهم الى القلعة وفى يوم الاثنين وصل أيضاً جملة من الرءوس والاسرى الى بولاق فطلعوا بهم على الرسم المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون رأساً ، وثلاثة عشر أسيراً وفيهم جرحى »

حالة الشعب النفسية

وتطوعه للقتال

تكلمنا عن نصيب أهل رشيد فى المعركة التى دارت رحاها فى شوارعها وفيما حاق بالجيش الانجليزى من الهزيمة ، ولقد بدت على سكان القاهرة تلك الروح التى تجلت فى أهل رشيد ، فمنذ أن وردت أنباء المعركة الاولى استنفر الشيوخ وفى مقدمتهم السيد عمر مكرم أهل القاهرة الى التطوع للقتال ، وخطب خطباء المساجد فى حث الناس على الجهاد ، فاستجابوا للدعوة راضين واقبلوا على التطوع مختارين

فضل السيد عمر مكرم

أخذ المتطوعون يذهبون فى صبيحة كل يوم الى أطراف المدينة يعملون فى حفر الخنادق واقامة الاستحكامات شمالى القاهرة لصد الانجليز اذا جاءوا بطريق شبرا ، وبادروا الى العمل فى ذلك وسارعوا الى الاستعداد للقتال وعلى رأسهم السيد عمر مكرم ، وكان الفقراء يعملون متطوعين نصف النهار ثم يعودون الى أعمال معاشهم عند الظهر

وظهرت العاصمة بتلك الروح التى تجلت فيها قبيل معركة الاهرام سنة ١٧٩٨ وفى خلال ثورة الشعب على خورشد باشا سنة ١٨٠٥ ، قال المسيو مانجان فى هذا الصدد يصف ما شاهده

« كان السيد عمر مكرم يذهب فى صبيحة كل يوم تتبعه الجماهير الى حيث يشتغل العمال فى اقامة الاستحكامات ، وكثيرا ما يبقى هناك النهار كله فى خيمة أعدت له ، وكان حضوره يثير الحماسة والشجاعة فى نفوس الناس جميعا ، وقد بذل كل انسان ما فى وسعه لاقامة الاستحكامات (١) »

---

(١) تاريخ مصر فى حكم محمد على ، جزء ٢ ص ٢٧٩

وقال الجبرتى يصف عمل السيد عمر مكرم

« وفيه – يوم ٢٦ محرم – نبه السيد عمر النقيب على الناس وامرهم بحمل السلاح والتأهب للجهاد فى الانكليز حتى مجاورى الازهر وأمرهم بترك حضور الدروس وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك القاء الدروس »

فتأمل دعوه الجهاد التى بثها السيد عمر مكرم والروح التى نفخها فى طبقات الشعب ، فانك لترى هذا الموقف مماثلا لموقفه عندما دعا الشعب الى التطوع لقتال الفرنسيين قبل معركة الاهرام ، ثم تأمل فى دعوته الازهريين الى المشاركة فى القتال ، تجد انه لا ينظر اليهم كرجال علم ودين فحسب بل رجال جهاد وقتال ودفاع عن الذمار أيضا ، فعملهم فى ذلك العصر كان أعم وأعظم من عملهم اليوم

وقال الجبرتى فى موضع آخر يصف اجتماع زعماء الشعب ورجال الحكومة للتشاور فيما يجب عمله .

« وفى يوم الثلاثاء حصلت جمعية ببيت القاضى وحضر حسن باشا وعمر بك والدفتردار وكتخدا بك والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ الامير وباقى المشايخ فتكلموا فى شأن حادثة الانكليز والاستعداد لحربهم وقتلهم وطردهم فانهم اعداء الدين والملة ويجب ان يكون الناس والعسكر على حال الالفة والشفقة والاتحاد وان تمتنع العساكر عن التعرض للناس بالايذاء كما هو شأنهم وان يساعد بعضهم بعضا على دفع العدو ، ثم تشاوروا فى تحصين المدينة وحفر خنادق ، فقال بعضهم ان الانكليز لا يأتون الا من البر الغربى والنيل حاجز بين الفريقين ، وان الفرنساوية كانوا أعلم بأمر الحروب وأنهم لم يحفروا الا الخندق المتصل من باب الحديد الى البحر (النيل) فينبغى الاعتناء باصلاحه ولو لم يكن كوضعهم واتقانهم واتفقوا على ذلك »

وقال فى موضع آخر « وفى يوم الاربعاء ٢٩ محرم ركب السيد عمر النقيب والقاضى والاعيان المتقدم ذكرهم ونزلوا الى ناحية بولاق لترتيب امر الخندق

المذكور وصحبتهم قنصل الفرنساوية وهو الذى أشار عليهم بذلك ، وصحبتهم الجمع الكثير من الناس والاتباع والكل بالاسلحة »

وقال عن اشتراك طبقات الشعب فى حفر الخندق المذكور واقامة الاستحكامات بما بلغ اليه جهد كل مطيق : « وشرعوا فى حفر الخندق المذكور ووزعوا حفره على مياسير الناس واهل الوكائل والخانات والتجار وارباب الحرف والروزنامجى وجعلوا على البعض اجرة مائة رجل من الفعلة وعلى البعض اجرة خمسين وعشرين ، كذلك أهل بولاق ونصارى ديوان المكس (الجمرك) والنصارى والاروام والشوام والاقباط واشتروا المقاطف والغلقان والفوس والقزم وآلات الحفر وشرعوا فى بناء حائط مستدير باسفل تل قلعة السبتية »

وقد حدثت كل هذه الاستعدادات ومحمد على باشا لم يزل غائبا بالصعيد ، وهذا يدلك على أن الشعب كان متطوعا من تلقاء نفسه للقتال عازما على الحرب والمقاومة كما كان شأنه عند مجىء الحملة الفرنسية ، أما قنصل فرنسا الذى اشار اليه الجبرتى فهو المسيو دروفتى وكان فى الاسكندرية عندما جاءت العمارة الانجليزية ، فغادر الثغر مخافة أن يقع أسيرا فى يد الانجليز لما كان بين انجلترا وفرنسا من العداء المستحكم فى ذلك الحين ، فرحل من الاسكندرية الى رشيد ومنها انحدر الى القاهرة فاشترك فى تنظيم وسائل الدفاع عنها

ولم يقتصر تطوع سكان القاهرة على الدفاع عن العاصمة بل هبوا لنجدة اخوانهم أهل رشيد ، وذلك أنه على الرغم من ردهم الجيش الانجليزى الاول فانهم استهدفوا لزحف الجيش الانجليزى الثانى الذى جاء ليمحو أثر الواقعة الاولى ، فضرب الحصار على رشيد ، وركب المدافع على آكام ابى مندور التى تتسلط عليها ، واخذ يضرب بها بالمدافع تمهيدا للهجوم عليها وفتحها عنوة ، وقد تهدم كثير من بيوتها ومات كثير من أهلها من ضرب المدافع وتساقط القنابل ، فارسل السيد حسن كريت نقيب اشراف رشيد الرسائل الى السيد عمر مكرم يستنجده ويطلب اليه امداد المدينة بالرجال والعتاد ، فقرأ السيد عمر الرسالة الاولى على الناس وحضهم على

التطوع لنجدة رشيد ، فاستجابوا وتطوعوا وحملوا السلاح وأزمعوا السفر لنجدة اخوانهم ، وبالرغم من أن (كتخدا بك) لم يأذن لهم بالسفر حتى يحضر محمد على باشا من الصعيد فان كثيرين منهم لم يعبأوا بهذا المنع وارتحلوا لنجدة أهل رشيد فى صد الجيش الانجليزى

وتطوع كذلك اهالى البحيرة والبلاد المجاورة لرشيد واقبلوا عليها يدافعون عنها ، فكان ذلك مظهرا جليلا من مظاهر التضامن القومى والاشتراك فى حمل اعباء الجهاد ، واتحاد الكلمة فى ساعة الخطر ، وفداء كل موضع فى البلاد بكل فرد من أهل البلاد

قال الجبرتى « وفى يوم الخميس غاية محرم ورد مكتوب من السيد حسن كريت نقيب اشراف رشيد والمشار اليه بها (أى كبير أعيانها) يذكر فيه ان الانكليز لما أوقع بهم برشيد ورجعوا فى هزيمتهم الى الاسكندرية استعدوا وحضروا الى ناحية الحماد قبلى رشيد ومعهم المدافع الهائلة والعدد ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر (النيل) الى الجبل عرضا ، وذلك ليلة الثلاثاء ثامن عشرينه ، فهذا ماحصل اخبرناكم ، ونرجو الاسعاف والامداد بالرجال والجبخانة والعدة والعدد وعدم التأنى والاهمال ، فلما وصل هذا الجواب قرأه السيد عمر النقيب على الناس وحثهم على التأهب والخروج للجهاد ، فامتثلوا ولبسوا الاسلحة ، وجمع اليه طائفة المغاربة واتراك خان الخليلى وكثيرا من العدوية والاسيوطية واولاد البلد ، وركب فى صبحها الى كتخدا بك واستأذنه فى الذهاب فلم يرض وقال حتى يأتى افندينا الباشا (محمد على) ويرى رأيه فى ذلك ، فسافر من سافر ، وبقى من بقى »

وقال فى موضع آخر « وفى يوم السبت ثانى صفر (١١ ابريل سنة ١٨٠٧) وردت مكاتبة أيضا من ثغر رشيد وعليها امضاء على بك السلانكلى حاكم الثغر وطاهر باشا واحمد اغا المعروف ببونابارت بمعنى مكتوب السيد حسن السابق ويذكرون فيه ان الانكليز ملكوا أيضا كوم الافراح وأبو منضور ويستعجلون النجدة ، وفى خامس صفر وردت مكاتبة من رشيد عليها امضاء السيد حسن كريت

يخبر فيها بان الانكليز محتاطون بالثغر ومتحلقون حوله ويضربون البلد بالمدافع والقنابر ، وقد تهدم الكثير من الدور والابنية ومات كثير من الناس ، وقد ارسلنا لكم قبل تاريخه نطلب الاغاثة والنجدة فلم تسعفونا بارسال شيء ، وما عرفنا لأي شيء هذا الحال ، وما هذا الاهمال ، فالله الله في الاسعاف ، فقد ضاق الخناق وبلغت القلوب الحناجر من توقع المكروه وملازمة المرابطة والسهر على المتاريس ونحو ذلك من الكلام وهي خطاب للسيد عمر النقيب والمشايخ ومؤرخه في ثاني صفر ٢٢ »

معركة الحماد

(٢١ ابريل سنة ١٨٠٧)

كانت واقعة رشيد ضربة شديدة اصابت الجيش الانجليزى ، فاراد الجنرال فريزر ان يمحو أثر الهزيمة التي حاقت به في تلك الواقعة ، واعتزم تجريد جيش آخر يستأنف الزحف على رشيد وعهد بقيادته الى الجنرال ستوارت

وفي غضون ذلك وصل محمد على باشا الى القاهرة عائدا من الصعيد فبلغها ليلة ١٢ ابريل سنة ١٨٠٧ (٣ صفر سنة ١٢٢٢) (١) فاطلع على الانباء الواردة عن هزيمة الانجليز في رشيد ، فاطمأن نفسا والفى الحالة أقل خطورة مما كان يتوقع ، على أنه لم يركن الى ما حدث في تلك الموقعة ، ورأى بثاقب نظره ان الانجليز قد يستأنفون القتال والزحف ليستردوا هيبتهم الضائعة ، فبادر الى تجريد جيش أنفذه لمحاربتهم وصدهم عن التقدم ، وأتم عمل الاستحكامات التي بدىء بها قبل حضوره ، وواصل العمل في حفر الخنادق بين باب الحديد وبولاق لاقامة خط الدفاع عن القاهرة من الشمال ، وشق أخاديد امام الخنادق تتصل بالنيل لتمتلىء بالمياه وتعرقل تقدم الجيش الانجليزى ، واغرق عدة من المراكب بين جزيرة بولاق والشاطىء لمنع مرور السفن الانجليزية في النيل اذا جاءت من رشيد ، ونصب

---

(١) رواية الجبرتي

بطاريات من المـدافع فى شبرا وامبابه وجزيرة بولاق ، واشترك العلماء والشعب فى العمل بحماسة وغيرة وحمية .

وأخذ يدبر المال اللازم لنفقات الجيش ، وعاونه السيد عمر مكرم والعلماء فى جمع ما يستطاع تدبيره من المـال فجمعوا تسعمائة كيس من سكان العاصمة خصصوها لنفقات الزحف

وتم تجهيز الحملة ، فكانت مؤلفة من أربعة آلاف مقاتل من المشاة وخمسمائة والف من الفرسان ، وسارت قاصدة الى رشيد بقيادة طبوز اوغلى (١)

أما جيش الجنرال ستوارت فكان عدده نحو أربعـة آلاف مقاتل مجهزين بالمدافع والاسلحة والذخائر

تحرك هذا الجيش من الاسكندرية يوم ٣ ابريل زاحفا على رشيد ، ولما صار على مقربة منها أنفذ الجنرال ستوارت كتيبة منه احتلت (الحماد) التى تقع جنوبى رشيد بين النيـل وبحيرة ادكو (٢) ، وكان الغرض من احتلالها تطويق رشـيد ، ومنع وصول المدد اليها من الجنوب ، وحماية ساقة الجيش الانجليزى

واحتل الانجليز أيضا آكام أبى منـدور ، وركبوا عليها المدافع ليضربوا رشيد بالقنابل ، وعسكر معظم الجيش غربى رشيد وجنوبيها وأخذ يحاصرها (٧ ابريل) ويضربها بالمدافع .

كان الانجليز يظنون ان ضرب المدينة بالمدافع يلقى الرعب فى نفوس الحامية والاهالى ، ويضطرهم الى التسليم ، وقد انذروهم غير مرة بأن يسلموا المدينـة ، ولـكنهم رفضوا ، وكان انتصارهم السابق فى واقعـة رشيد قد بعث فى نفوسهم الحمية والحماسة ، فصمموا على الاستبسال فى الدفاع عن مدينتهم ، وبالرغم مما أحدثته القنابل من تخريب البيوت وقتل العدد الكثير من السكان فانهم صابروا وصبروا

---

(١) هو كتخدا بك اى نائب محمد على ، ويسميه الجبرتى (دبوز اوغلى) ، وهو جد حسين رشدى باشا أحد رؤساء الوزارة السابقين

(٢) انظر موقعها بالخريطة الملحقة بهذا الفصل .

واحتملوا هذه الشدائد بشجاعة ورباطة جأش ، وكانوا يخرجون من المدينة من آن لآخر لمناوشة القوات الانجليزية ، واستمر الضرب والحصار نحو اثنى عشر يوما دون أن يفوز الانجليز بطائل .

كتب الجنرال ستوارت فى رسالة له الى الجنرال فريزر يقول (١)

« ان ما أنبأونى به من قرب حضور المماليك جعلنى أتريث فى الهجوم على رشيد ، لقد ألحقنا بالمدينة اضرارا كبيرة ، وقد بلغ ما أطلقناه عليها من المدافع البعيدة المرمى وحدها ٣٠٠ قنبلة ، على أنه قد تبين لنا أن الأعداء لا يكترثون بالمصائب التى تنزل بهم ، ان قواتهم لا تزيد على ما بلغنا عن ٣٠٠ من الفرسان ، و ٨٠٠ من الارناءوط ، والف من الأهالى المسلحين ، ولكن نظرا لسعة خطوط دفاعهم وطبيعة مواقعهم لم أر من الحكمة أن أتعجل اقتحام المدينة ، وان نجاحنا معلق على نجدة المماليك ، فاذا جاءوا الينا أمكننا أن نرسل الى البر الشرقى من النيل قوة تشترك فى القتال ، اما الآن فيستحيل علينا ذلك لأن العدو متفوق علينا فى قوة الفرسان ، وليس لدينا مثل هذه القوة التى لها عمل كبير فى الجهات المنبسطة كجهات الدلتا ، وفى انتظار تلك النجدة يتبين لنا مبلغ أهمية موقعنا فى (الحماد) فاننا نتوقع أن يهاجمنا الاعداء فيها ، وسنبذل كل جهودنا لاستبقائها فى يدنا » .

كان الانجليز ينتظرون اذن ان ينجدهم المماليك ، ولكن هؤلاء أخذوا يسوّفون ويماطلون فى الوفاء بعهدهم ، ويرقبون تطور الحوادث ، ثم تخلوا عن حلفائهم لما رأوا من حرج مركزهم

وفى غضون ذلك أخذ الأهالى يناوشون مواقع الانجليز فى الحماد ، فأنفذ اليها الجنرال ستوارت مددا من الجنود ، وركب المصريون أيضا مدفعين على الشاطىء الشرقى وأخذوا يلقون القنابل على ميمنة الجيش الانجليزى بالبر الغربى ، فاجتاز الماجور ماكدونالد Macdonald النهر عند مسجد أبى مندور (١٦ ابريل) ومعه

---

(١) وثائق الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ للمسيو دوان وثيقة رقم ٤٦ .

قوة من ٢٥٠ جنديا واستولى على موقع المصريين وعلى المدفعين ، ثم تلقى المصريون مددا فعاد ما يدو نلد ادراجه الى البر الغربى

واستمر الضرب والحصار الى أن جاء المدد الذى أرسله محمد على باشا بقيادة طبوز اوغلى ، فتغير الموقف الحربى تغيرا جوهريا

كان هذا المدد مؤلفا من فرقتين ، الأولى يقودها طبوز اوغلى نفسه بالبر الشرقى للنيل ، والاخرى بقيادة حسن باشا بالبر الغربى ، وكانت الفرقتان تسير كلتاهما حذاء الأخرى على الشاطئين ، فلما جاءتا على مقربة من رشيد عسكرت فرقة حسن باشا بالبر الغربى تجاه (الحماد) ، وعسكرت الاخرى فى (بر نبال) بالشاطىء الشرقى ، وكان جنود الفرقتين يشاهد بعضهم بعضا

ففى صبيحة ٢٠ ابريل تقدمت طلائع الجيش المصرى من الفرسان (من فرقة حسن باشا) نحو مواقع الانجليز فى الحماد ، والتقت بكتيبة منهم وسط المزارع ، فاراد هؤلاء الارتداد الى القرية ، ولكنهم لم يحكموا انسحابهم وأحاط بهم فرسان الجيش المصرى فقتلوا بعضهم وأسروا آخرين

فلما علم الجنرال ستوارت بهذا الاصطدام الأول أنفذ الكولونل ماكلود Mac Leod ومعه مدد من الجنود والمدافع الى (الحماد) لتثبيت مركز الانجليز فيها ، وعهد اليه بقيادة القوة المرابطة بها

كان موقع هذه القرية على جانب كبير من الاهمية ، وعليها يدور محور القتال ، لانها واقعة فى برزخ بين النيل وبحيرة ادكو ، وفى شماليها ترعة كانت فى ذلك الحين جافة تصل من النيل الى قرب البحيرة ، فلو أن الانجليز أحكموا الدفاع عن موقعهم بها لأمكنهم أن يسدوا الطريق أمام الجيش المصرى فلا يستطيع اجتياز ذلك البرزخ ولا الوصول الى رشيد لمدها بالنجدة

رتب الكولونل مواقع جنوده ليدافع بهم عن هذا البرزخ ، وكان عددهم ثمانمائة مقاتل ، ترتكز ميسرتهم الى النيل بقيادة الماجور وجلسند Wogelsand ، وميمنتهم قرب بحيرة (ادكو) بقيادة الكابتن تارلتون Tarleton ، والقلب فى

قرية الحماد بقيادة الماجور مور Moor ، أما جمهرة الجيش الانجليزى فرابطت حول رشيد لحصارها

وانقضى يوم ٢٠ ابريل وموقع الانجليز فى الحماد لم يستهدف فى الظاهر للخطر ، وكان الكولونل ماكلود مطمئنا الى مركزه ، لكن الجنرال ستوارت لاحظ حينما فتش خط الدفاع فى الحماد (ليلة ٢١ ابريل) انه لايحتمل فى بعض جهاته ضغط قوات الجيش المصرى اذا تكاثر عددها ، فعهد الى الكولونل ماكلود أن يستبسل فى الدفاع عن مواقعه قدر مايستطيع ، وفى حالة تكاثر قوات الفرسان المصريين فعليه أن يرتد الى شاطئ البحيرة ، فاذا لم يستطع ذلك فليتراجع الى مواقع الجيش الانجليزى الذى كان يحاصر رشيد . .

وأدرك الجنرال ستوارت أن القوات المصرية بعد أن جاءها المدد صارت أكثر عددا من الجيش الانجليزى ، فارتأى أن ينتظر الى اليوم التالى (٢١ ابريل) واعتزم اذا لم تصله النجدة من المماليك أن ينسحب من الحماد ويرفع الحصار عن رشيد ويتراجع الى الاسكندرية

أما طبوز اوغلى ، قائد الجيش المصرى ، فانه كان الى ذلك الوقت مرابطا فى برنبال بالبر الشرقى ، متردداً فى أى طريق يسلكه ، هل يذهب رأسا لنجدة رشيد ليرفع الحصار عنها ، أم يهاجم أولا موقع الانجليز فى الحماد ، الى أن تشجع بالنصر الذى ناله فرسان حسن باشا بالبر الغربى فى الاصطدام الاول ، فاعتزم اتباع الخطة الاخيرة ، فعبر النيل ليلا بجنوده ، وأقلتهم المراكب الى العدوة اليسرى ، وانضموا الى فرقة حسن باشا تأهبا لمهاجمة الحماد فى صبيحة الغد (٢١ ابريل)

وفى الصباح شاهد الكولونل ماكلود قوات الجيش المصرى قد تكاثر عددها ، وامتلأ السهل برجالها ، فأرسل من فوره الى الجنرال ستوارت ينبئه الخبر ويطلب اليه أن يقره على الانسحاب الى مواقع الجيش الانجليزى حول رشيد ، فبعث اليه ستوارت يقره على خطته ، ويعده بفصيلة من الجند ، ولكن الرسول لم يصل الى الحماد ، وكذلك لم يجئ المدد ، لأن فرسان الجيش المصرى قد انسابوا

فى السهل وقطعوا المواصلات بين الحماد ورشيد ، فاعتزم ماكلود الانسحاب من خط دفاعه ، ولكنه لم يحكم خطته ، وتفرقت قواته ، فتمكن فرسان الجيش المصرى من الانقضاض عليها واحدة اثر أخرى فى الوقت الذى احتل فيه المشاة المصريون قرية الحماد .

تعقب الفرسان القوات الثلاث ، فأحاطوا بقوة القلب وكان معها الكولونل ماكلود ، وانهال عليها الرصاص من كل صوب فقتل معظم رجالها وقتل من بينهم الكولونل ماكلود نفسه .

وأحاطوا كذلك بالميمنة فقتل قائدها الكابتن ترلتون ومعظم جنودها ، ولم ينج من القتل سوى خمسين وقعوا فى الاسر .

أما الميسرة فقد قاومت قليلا ، وأحاط بها الفرسان من كل جانب ، فلم ير قائدها الماجور وجلسند بداً من التسليم ، فسلم هو والبقية الباقية من الانجليز ، وكان ذلك ختام المعركة .

بدأت الواقعة الساعة السابعة صباحا ، واستمرت ثلاث ساعات حمى فيها وطيس القتال ، وانتهت بهزيمة الجيش الانجليزى المرابط فى الحماد ، ولم ينج منه أحد ، فمن لم يدركه القتل لم يسلم من الأسر ، وبلغت خسارته نحو ٤١٦ من القتلى و٤٠٠ أسير

كان الجنرال ستوارت مرابطا أثناء الواقعة جنوبى رشيد ومعه بقية الجيش الانجليزى ، فلما أدرك عظم النكبة التى حلت بقواته فى الحماد سارع الى رفع الحصار عن رشيد وبادر الى الانسحاب قبل أن ينقض عليه الجيش المصرى ، فأتلف مدافعه التى لم يستطع حملها وتراجع الى طريق ابوقير يجر أذيال الخيبة والهزيمة

وبالرغم من كتمانه تدابير الانسحاب فان أهالى رشيد والبلاد المجاورة تعقبوه فى انسحابه الى أن وصل الى بحيرة ادكو وجرت مناوشات على شاطىء البحيرة بينه وبين المصريين انتهت بارتداد هؤلاء ومواصلة الانجليز الانسحاب حتى بلغوا ابو قير ومن هناك استقلوا السفن الى الاسكندرية

رواية الجبرتى عن معركة (الحماد)

قال الجبرتى عن معركة الحماد ما يلى

« فى يوم الخميس ١٤ صفر حضر شخصان من السعاة وأخبرا بالنصر على الانجليز وهزيمتهم ، وذلك انه اجتمع الجم الكبير من أهالى البحيرة وغيرها وأهالى رشيد ومن معهم من المتطوعة والعساكر ، واهل دمنهور ، وصادف وصول كتخدا بك واسماعيل كاشف الطوبجى الى تلك الناحية ، فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة واسروا من الانكليز طائفة وقطعوا منهم عدة رءوس ، فخلع الباشا (محمد على) على الساعيين جوختين ، وفى أثر ذلك وصل أيضا شخصان من الأتراك بمكاتبات بتحقيق ذلك الخبر ، وبالغا فى الأخبار وان الانكليز انجلوا عن متاريس رشيد وابى منضور والحماد ، ولم يزل المقاتلون من أهل القرى خلفهم الى أن توسطوا البرية وغنموا جبخاناتهم وأسلحتهم ومدافعهم و مهراسين عظيمين »

وقال فى موضع آخر يصف تطوع المصريين فى القتال بعد معركة رشيد الاولى ونصيبهم فى معركة الحماد وما أبلوا فيها من البلاء الحسن ، وكيف غمط حقهم بعد ذلك ولم يعرف فضلهم فى الجهاد والفوز :

« وكذلك أهل البلاد قويت همتهم وتأهبوا للبروز والمحاربة، واشتروا الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد ، وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق واعلاما ، وجمعوا من بعضهم دراهم ، وصرفوا على من انضم اليهم من الفقراء ، وخرجوا فى مواكب وطبول وزمور ، فلما وصلوا الى متاريس الانكليز دهموهم من كل ناحية على غير قوانين حروبهم وترتيبهم ، وصدقوا فى الحملة عليهم ، والقوا أنفسهم فى النيران ولم يبالوا برميهم ، وهجموا عليهم واختلطوا بهم ، وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى ابطلوا رميهم ونيرانهم ، فالقوا سلاحهم ، وطلبوا الامان فلم يلتفتوا لذلك ، وقبضوا عليهم وذبحوا الكثير منهم وحضروا بالأسرى والرءوس على الصورة المذكورة وفر الباقون الى من بقى بالاسكندرية ، وليت العامة شكروا على ذلك أو نسب

اليهم فضل ، بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره ، وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك »

تأثير معركة الحماد فى الموقف الحربى

كانت معركة (الحماد) هزيمة ساحقة للانجليز ، فملأت نفوس المصريين عزما وفخرا وثقة ، وأسقطت هيبة الجيش الانجليزى وخاصة لما جمع كتخدا بك اسراهم وشحنهم فى المراكب الى القاهرة ليتحقق الناس عظم النصر الذى أدركه الجيش المصرى .

وصل أولئك الأسرى الى بولاق يوم ٢ صفر سنة ١٢٢٢ (٢٩ ابريل سنة ١٨٠٧ فسيقوا من بولاق الى الازبكية ومنها الى القلعة ، وعددهم ٤٨٠ أسيرا وفى مقدمتهم من قواد الجيش الانجليزى الماجور مور ، والماجور وجلسند ، وكان يوم حضورهم يوما مشهودا احتشدت فيه الجماهير من سكان العاصمة على جوانب الشوارع والطرقات لرؤية منظر الأسرى وطيف برءوس القتلى الانجليز ليراها الناس على الطريقة التى كانت مألوفة فى ذلك العصر فبلغ عددها ٤٥٠ رأسا

اما الجنرال فريزر فقد أسقط فى يده بعد هزيمتى رشيد والحماد ورأى من العبث ان يعاود القتال ، فامتنع بالاسكندرية واخذ فى تحصينها ، وبعث بالرسل الى زعماء المماليك يذكرهم بوعود الألفى ويناشدهم العهود ويحرضهم على امداده ومعاضدته ليواصل القتال ويعيدهم الى دست الاحكام ، ولكن المماليك لما علموا بما حل بالانجليز من الهزيمة صموا آذانهم عن الاستجابة لطلب الجنرال فريزر وظلوا بعيدين عن غمرات القتال .

ولكى يأمن الجنرال فريزر على نفسه قطع سد ابو قير لتطغى مياه بحيرة ابو قير على مريوط وتحيط المياه بالاسكندرية من جميع الجهات ، وهذه هى المرة الثانية التى قطع فيها الانجليز هذا السد ، وكانت المرة الاولى سنة ١٨٠١ حينما

حاربوا الجنرال منو فارادوا أن يحضروه فى الاسكندرية فقطعوا السد (١)

ولا يخفى ان قطع السد يتلف ترعة الاسكندرية فيمنع وصول مياهها الى الثغر ويخرب بلادا كثيرة فى جهات مريوط ، فالانجليز قد تسببوا فى هذا الخراب مرتين

وأخذ محمد على يعد العدة للزحف على الاسكندرية واجلاء الانجليز عنها ، ولم يكد يبدأ فى انفاذ عزمه حتى جاءه بالقاهرة رسول من قبل الجنرال فريزر يحمل رسالة منه ، فظن أن هذه الرسالة خاصة بالأسرى الانجليز الذين فى القلعة ، ففضها فاذا فيها طلب الجنرال فريزر المفاوضة فى الصلح على أن يجلو الجيش عن الاسكندرية ، ولم يكن محمد على يتوقع جلاء الانجليز عن البلاد بهذه السهولة وهم الذين يتطلعون منذ سنوات عدة الى احتلالها و بسط نفوذهم عليها و يبذلون الجهود والوسائل لتحقيق اطماعهم فيها ، فلم يغب عن محمد على ما بذله الانجليز من عهد الحملة الفرنسية لاحتلال مصر ولا مساعيهم لدى الباب العالى و دسائسهم المستمرة لتولية صنائعهم المماليك حكم البلاد وخاصة محمد بك الالفى ، ولا تجريدهم تلك الحملة فى هذا الغرض ، كل هذا لم يفت نظر محمد على الثاقب ، ولذلك لم يكد يصدق هذه الرسالة ، وحاول كتمان دهشته منها وابتهاجه لها ، وأجاب الرسول بأنه ذاهب بجيشه الى دمنهور ، وهناك سيبعث بجوابه الى الجنرال فريزر

والواقع أن انجلترا عزمت وقتئذ على العدول عن غزو مصر ، ولم يكن ذلك منها تورعا ولا عدولا عن تحقيق اطماعها الاستعمارية فى وادى النيل ، بل لأن الحالة السياسية فى اوروبا كانت لا تمكنها من متابعة حملتها على مصر ، وذلك أن الصراع بينها و بين نابليون استحر و بلغ مبلغه فى ذلك العهد ، وكان نابليون إذ ذاك فى أوج قوته ومجده ، وقد دان له معظم القارة الأوروبية ، وعقد مع قيصر الروسيا صلح (تلسيت) الشهير ، ذلك الصلح الذى وطد مركزه فى أوروبا وضمن له صداقة القيصر ، فاستطاع أن يتفرغ لتوجيه قواته الهائلة لسحق انجلترا ، فرأت هذه أن تجمع قواها لتدافع عن جزيرتها ، وآثرت ألا تغامر بجيوشها فى حملات

---

(١) انظر الجزء الثانى ص ٢٥٢

بعيدة وهى فى حاجة اليها ، ورأت من جهة أخرى بعد ما أصاب جنودها من الهزيمة والخذلان فى رشيد والحماد أن الحملة على مصر ليست مرجوّة العواقب ، من أجل ذلك عدلت عن متابعة حملتها وارسلت تستدعى جيشها من الاسكندرية ، وامرت الجنرال فريزر بالاقلاع بجنوده الى صقلية ، ولا يعنى بهذا أنها تخلت عن مطامعها فى مصر ، بل رأت أن ترجىء تحقيقها الى أن تسنح فرصة أخرى ، وكذلك ظلت تضمر الشر لمصر وترقب الفرص الى ان كشرت عن نابها أثناء اشتداد الصراع بين مصر وتركيا سنة ١٨٣٩ فتدخلت فى المسألة المصرية وألبت الدول الاوروبية على مصر وحرمتها ثمرة انتصاراتها على الاتراك ، كما سيجىء بيانه ، وظلت بعد ذلك تتحين الفرص لاحتلال البلاد حتى سنحت لها الفرصة سنة ١٨٨٢ أثناء الثورة العرابية .

ابرام الصلح وجلاء الانجليز عن البلاد

اعتزم محمد على اذن السفر الى دمنهور وسار بجيشه من معسكره فى امبابه الى الرحمانية ، ومنها الى دمنهور يوم ١٢ اغسطس سنة ١٨٠٧ (٧ جمادى الثانية) ، وكان جيشه مؤلفا من ثلاثة آلاف من المشاة والف من الفرسان مجهزين بمدفعية قوية

ولما بلغ دمنهور التقى بالجنرال شيربروك Sherbrook الانجليزى الذى فوضه الجنرال فريزر فى الاتفاق على الصلح ، وهناك ابرم الطرفان المعاهدة[١] ، وهى تقضى بجلاء الجنود الانجليزية عن الاسكندرية فى مقابل استرجاعهم اسراهم وجرحاهم ، فبادر محمد على بانفاذ أمره الى القاهرة ليحمل الأسرى الانجليز على الفور ، وأخذ الجنرال فريزر يعد معدات الجلاء ويتسلم الأسرى ، وفى اليوم التاسع عشر من سبتمبر[٢] تم جلاء الانجليز عن المدينة ، وتسلم الاسكندرية طبوز اوغلى نيابة عن محمد على

---

(١) بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ ، وقد نشرنا نصها فى قسم الوثائق وثيقة رقم ١

(٢) اعتمدنا فى تاريخ هذا اليوم على الوثيقة رقم ١٢٩ من وثائق الحملة الانجليزية المتقدم ذكرها

ثم اقلعت السفن البريطانية ذاهبة بجنود الحملة الى صقلية

قال الجبرتى « وفى يوم الاربعاء ١٣ رجب سنة ١٢٢٢ وصل المبشرون بنزول الانكليز من ثغر الاسكندرية الى المراكب ودخل اليها كتخدا بك (طبوزاوغلى) ونزل بدار الشيخ المسيرى »

وبذلك طويت صحيفة الاحتلال البريطانى الثانى (١)، فكانت مدته ستة أشهر

فتأمل فى هذا التاريخ ، سبتمبر سنة ١٨٠٧ ، وارجع معى بفكرك الى اكثر من مائة سنة خلت ، واعلم بأن انجلترا مافتئت خلال هذه الاعوام الطوال ترقب فريستها وتتحين الفرص لتحقيق مطامعها القديمة فى بلادنا العزيزة ، وما زالت تدبر الدرائع وتخلق الحوادث وتنصب الشباك حتى استطاعت بعد خمس وسبعين سنة من جلائها عن البلاد أن تحتلها سنة ١٨٨٢ ، ومن غرائب القدر أن يكون جلاء الانجليز فى الاحتلال الثانى كان فى شهر سبتمبر سنة ١٨٠٧ ودخولهم القاهرة فى الاحتلال الثالث كان فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، فما اعظم الفرق بين التاريخين ، فالأول يذكرنا بيوم سؤدد وفخار ، والثانى يثير فى نفوسنا لوعه الأسى والاحزان

كانت الاسكندرية خلال السنوات السبع الماضية فى عزلة عن القطر المصرى بعيدة عن نفوذ محمد على ، ذلك أن الباب العالى كان يعتبرها تابعة مباشرة لحكمه ولم يكن للولاة ظل من النفوذ فيها ، فبقيت على هذه الحال الى أن جلا الانجليز عن البلاد وسار محمد على اليها ، فكان هذا الجلاء فرصة سعيدة لبسط نفوذ الحكومة المصرية على ربوعها ، ودخلها محمد على لأول مرة بعد جلاء الانجليز وكان يوما مشهودا اطلقت فيه مدافع القلاع والابراج ابتهاجا بانضمام الاسكندرية الى جامعة الوطن

---

(١) سميناه الثانى تمييزاله عن الاحتلال الاول الذى وقع سنة ١٨٠١ فى اواخر عهد الحملة الفرنسية واستمر بعد انتهائها الى سنة ١٨٠٣ (راجع الجزء الثاني ص ٣٣١)، والاحتلال الثالث الذى رزئت به البلاد سنة ١٨٨٢ ولا نزال نعانيه الى اليوم (١٩٣٠)

عودة محمد على الى القاهرة

ظل محمد على فى الاسكندرية الى أن غادرها وسار برا الى رشيد يصحبه حسن باشا، ومن هناك انحدر فى النيل الى القاهرة ، وفى طريقه اليها انقلب به مركبه أمام (وردان) فاجتاز النهر سباحة وواصل سفره راكبا جواده، فكبا به الجواد على غير عادته وسقط على الأرض ، فتطيرت حاشية الباشا من الحادثتين ، ثم وصل محمد على الى القاهرة و بلغها فى شهر اكتوبر سنة ١٨٠٧

قال الجبرتى فى هذا الصدد « فى ثالث شعبان سنة ١٢٢٢ (٦ اكتوبر سنة ١٨٠٧) وصل الباشا الى ساحل بولاق ، فضربوا لقدومه مدافع من القلعة ، وعملوا له شنكا ثلاثة أيام ، واتفق ان الباشا فى حال رجوعه من الاسكندرية نزل فى سفينة صغيرة وصحبته حسن باشا طاهر وسليمان اغا الوكيل سابقا فانقلبت بهم وأشرف ثلاثتهم على الغرق وتعلق بعضهم بحرف السفينة فلحقتهم مركب أخرى أنقذتهم من الغرق وطلعوا سالمين وكان ذلك عند زفيتة(١) »

ولما بلغت أنباء الجلاء عن الاسكندرية الى الاستانة ابتهج السلطان محمود ابتهاجا عظيما لما كان بين تركيا وانجلترا من العداء فى ذلك الحين ، فارسل رسولا الى محمد على يظهر له ابتهاجه ويهدى اليه سيفا ثمينا وخلعة ، وكذلك أنعم على ابراهيم بك وطوسون بك وحسن باشا وطاهر باشا والسيد عمر مكرم وعابدين بك وعمر بك وصالح قوش بالرتب والخلع الثمينة .

وأعادت الحكومة التركية ابراهيم بك (باشا) الى مصر وكان بالاستانة رهينة حتى يؤدى محمد على الاربعة الآلاف كيس التى التزم بأدائها ، فاطلقت الحكومة سراحه اعرابا عن ابتهاجها بانتصار الجيش المصرى

---

(١) على شاطىء النيل شمالى القناطر الخيرية من بلاد مركز قايوب وتسمى زفيتة شلقان

وصفوة القول ان اخفاق الحملة البريطانية سنة ١٨٠٧ وهزائم الانجليز فى رشيد والحماد هى صفحات مجد وفخار لمصر والمصريين

فتنة الجند واخمادها

سنة ١٨٠٧

كان محمد علي باشا معتزما بعد أن تخلص من الحملة الانجليزية ان يجرد حملة على المماليك فى الصعيد ليقضى على سلطانهم به ، لكنه علم وهو فى الاسكندرية ان الجنود قد جنحوا فى العاصمة الى التمرد والفتنة ، فرأى أن يدع الحملة على المماليك حتى ينتهى من اخماد فتنة الجند

عاد الى القاهرة فطالعه الناس بالشكوى من مسلك الجنود واخلالهم بالنظام ، والواقع ان هؤلاء الجنود كان دأبهم النهب والسلب والعدوان على الناس وانتهاك الحرمات والاستهانة بالارواح والاموال

وكما كان للزعامة الشعبية الفضل الكبير فى احباط الحملة الانجليزية كذلك كان لها الفضل فى مناصرة محمد على باشا ومعاونته على اخماد فتنة العسكر

كان أولئك الجند آفة على الامن والنظام ، وكذلك كانوا خطرا على استقرار محمد على باشا فى الحكم ، وقد تخلص من العناصر الأكثر نزوعا الى العصيان كالدلاة مثلا فانه بعد توليته حكم مصر سرح معظمهم وعهد الى فرقة من الارناءود ترحيلهم الى الحدود السورية ، وفى اثناء جلائهم عن البلاد نهبوا قرى الوجه البحرى وعاثوا وأفسدوا ، لكن بقيت عناصر الارناءود من الجنود غير النظاميين و بقية من الدلاة تخل بالأمن وتنزع الى العصيان ، وكانوا كلما نجحوا فى فتنة ازدادوا تمردا وطغيانا ، وكلما عادوا من حملة أو تجريدة جاسوا خلال القرى آخذين ماتصل اليه أيديهم بالنهب والسلب

وقد رأى محمد على باشا من نزوعهم الى العسف والاعتداء وانسلالهم الى

الارياف والعاصمة للنهب والفتك بالاهلين عقب حملة سنة ١٨٠٧ ما جعله يصمم الرأى على تأديبهم وكبح جماحهم ، فلما استقر به المقام فى القاهرة اعتزم انفاذ هـذا العزم ، وكان ذلك عين الصواب لأن اولئك الجند قد تمادوا فى طغيانهم ولم يزعهم وازع من سلطة او نفوذ حتى تهددوا محمد على ذاته بالفتك به

ففى ٢٨ اكتوبر تجمهرت جموع حاشدة من الجنود الارناءود وذهبوا بجمعهم وصخبهم الى سراى الباشا بالازبكية يطالبون برواتبهم المتأخرة ، فلم يجابوا الى طلبهم ووُعدوا بالدفع ، فلم يرضوا ، وأخذوا يطلقون النار من بنادقهم على ابواب القصر ونوافذه ، ولما نفدت ذخيرتهم عادوا من حيث أتوا ، ولم تمض ثلاث ساعات على هـذا التجمهر حتى جاء رهط آخر من الجنود الدلاة وحذوا حذو الارناءوط فى تمردهم وشغبهم ، ففزع الناس من هذه الفتنة وخشوا عواقبها واقفلوا الدكاكين والاسواق ، وأغلقوا بوابات الدروب والحارات من الغروب وسهروا خلفها بالأسلحة ، فادرك محمد على خطر هذه الفتنة ، فاحتاط لنفسه قبل أن يصيبه شرها ، وكان ذلك من دلائل فراسته وبعد نظره ، فان الجنود المتمردين كانوا قد أجمعوا الفتك به فى سرايه بالازبكية ، وكانت هذه السراى مكشوفة للمتمردين ، فعقد العزم على مبارحتها الى القلعة لانه رآها آمن مستقرا ومقاما

فى اليوم التالى (٢٩ اكتوبر) انتقل ليلا مع صحبه المخلصين له الى القلعة بعد أن نقل اليها أمتعته الثمينة وخزائنه التى كانت بسراى الازبكية ، وقد تم انتقاله الى القلعة سراً بحيث لم يشعر به الجنود المتمردون ، فلما علموا بالخبر ثارت ثائرتهم واقبلوا ينهبون سراى محمد على ، وتجمهروا فى انحاء المدينة واطلقوا ايديهم فى النهب والسلب والاعتداء على الناس ، واستمرت الفتنة سبعة أيام حتى أنست الناس الاحتفال برؤية رمضان

استفحلت الفتنة واضطربت لها العاصمة وكادت تقضى على الأمن والنظام فيها ، فتدخل السيد عمر مكرم والعلماء ، واجتمعوا غير مرة طورا فى القلعة ، وآونة فى

بيت السيد عمر مكرم ، وآنا فى بيت السيد محمد المحروقى كبير التجار ، وبحثوا فى خير الوسائل لاخماد الفتنة ، فاتفقوا رأيا على أن تؤدى الحكومة للجنود المتمردين جزءاً من رواتبهم المتأخرة قدروه بألفى كيس ، ولما كانت خزانة الحكومة خالية من المال قرروا أن يتحمل الاهالى هذه الاتاوة الجديدة ، فوزعوها على التجار والملاك والصناع وأرباب الحرف ، واقنعوا المتمردين بالاخلاد الى السكينة مقابل هذا المبلغ من المال

فجُبيت الاتاوة ، ودفعت للجنود ، واستتبت السكينة مؤقتا على حساب الاهالى ، واعتزم محمد على تلقاء خطورة هذه الفتنة أن يقتص من زعمائها ، فقرر نفى رجب اغا أحد رؤساء الجند الارناءود وأشدهم نزوعا الى العصيان ، وكان هذا الاغا يعمل من قبل فى صفوف محمد بك الالفى رئيسا لقواته المشاة ، فلما مات الالفى جاء الى القاهرة يصحبه رهط من رجاله وأخذ يعيث فسادا ، فلما قرر محمد على نفيه استكبر وأصر وأبى أن يذعن للامر ، وامتنع فى باب الخلق ، وكادت تقوم فى المدينة فتنة جديدة لولا أن تدخل فى الامر عمر بك وصالح قوش من رؤساء الجند الارناءود ، فذهبا برجب اغا الى بولاق وانفذاه الى دمياط فارتحل منها الى بلاده

دلت هذه الفتنة على أنه مادام جيش الحكومة خليطا من تلك العناصر المتمردة النازعة ابدا الى الاخلال بالنظام فلا يستقر الامن فى البلاد ، ولا تستقيم شؤونها ، ومن هنا خالجت محمد على فكرة التخلص من الجنود غير النظاميين وانشاء جيش جديد أساسه النظام والطاعة للرؤساء ، وأخذ يتحين الفرص لانفاذ فكرته ، فكان من وسائل تحقيقها ارسال اخلاط الجيش غير النظامى الى الحملات البعيدة فى الحجاز والسودان ، وبذلك أخذ يتخلص منها تدريجا تمهيدا لتأسيس الجيش المصرى النظامى كما سيأتى بيانه

الفصل الثالث

اختفاء الزعامة الشعبية من الميدان

الموقف السياسى

من الراجح أن محمد على باشا كان يميل فى ذات نفسه الى التخلص من الزعامة الشعبية التى أجلسته على قمة المجد ، لأن هذه الزعامة كانت فى السنوات الاولى من حكمه بمثابة سلطة ذات شأن تستقصى عليه وتراقب أعماله مراقبة مستمرة ، وكانت ملجأ الشاكين ممن ينالهم الظلم أو تتحيفهم مساوئ الحكام ، ولا نزاع فى أن هذا النوع من الرقابة لم يكن مألوفا ولا سائغا فى ذلك العصر ، ولئن كان محمد على مدينا للزعامة الشعبية بولاية الحكم وتثبيته وتذليل العقبات التى اعترضته واحباط الدسائس والمؤامرات التى تدبر له ، فان السلطة فى ذاتها من شأنها أن تطغى صاحبها وتنزع به الى الاستبداد بالامر ، فمحمد على بعد أن استقر فى الحكم وثبتت قدمه طمحت نفسه الى الاستبداد و بدأ يشعر بالغضاضة من تدخل العلماء وأهل الرأى فى شؤون الحكومة وسعيهم فى رفع المظالم عن الناس ، ومهما يكن هذا التدخل شرعيا ولا غبار عليه لصدوره من قوم بايعوا محمد على على الولاية بشرط أن يسير فى الحكم بالعدل والقسطاس ، فما لا نزاع فيه انه كان يميل الى التخلص من هذه الرقابة باقصاء الزعامة الشعبية عن الميدان

كل هذا صحيح واقع لا ريب فيه ، ولكن من الحق أن نقول أيضا ان الزعامة الشعبية هى التى هدمت سلطتها بيدها ، وأنها كانت تحمل فى عناصرها أسباب انحلالها ، ذلك أن زعماء الشعب لم يكونوا على وفاق وتضامن واخلاص متبادل ، فأخذت أسباب التنافس والتحاسد والمطامع الشخصية تفرق بينهم ، ودبت

فى نفوس الكثيرين منهم عقارب الحسد لما ناله السيد عمر مكرم من المنزلة والرياسة، ومع أن عمر مكرم بلغ مكانته بجدارة واستحقاق لما له من فضل السبق فى تكوين تلك الزعامة واقامتها على طريق السداد، ولما اشتهر عنه من الأنفة والحمية، والتعفف وعلو النفس، والبعد عن الصغائر ونزعات الهوى، فان زملاءه فى الزعامة قد حسدوه ونقموا عليه رياسته، فأخذوا يكيدون له لاضعاف مركزه، والنيل من مكانته، ولم يجدوا سبيلا أقرب الى تحقيق غرضهم من التزلف الى محمد على والوقيعة بينه و بين عمر مكرم، فانتهزها محمد على فرصة للتخلص من الزعيم الشعبى الذى كان لديه كالرقيب العتيد على أعماله، ثم للتخلص كذلك من الزعامة الشعبية بجملتها مرةً واحدة.

هذا هو السبب الجوهرى فى تفكك عرا تلك الزعامة الشعبية وانحلالها، واذا تأملت فيما ذكره الجبرتى خلال يومياته رأيت أن أسباب التخاذل وتفرق الكلمة قد بدأت تعمل فى تقويض دعائم تلك الزعامة من أواخر سنة ١٨٠٥، واستمرت تلك الاسباب تبدو حينا وتختفى حينا آخر الى أن بلغت مداها سنة ١٨٠٩، وانتهت بالوقيعة بالسيد عمر مكرم ونفيه الى دمياط، و بمنفاه واقصائه عن الميدان انهار ركن الزعامة الشعبية وهوى نجمها الساطع، وطويت صحيفتها الى حين.

ومما يستوجب الدهشة والاسف ان التخاذل بين الزعماء بدأ لأسباب واهية ما كان يجدر ان تفرق بين قوم حملوا دورا خطيرا فى حياة مصر السياسية، فقد كان أول سبب لانقسامهم هو تزاحمهم على نظر أوقاف الازهر..!

قال الجبرتى فى حوادث رمضان سنة ١٢٢٠ (نوفمبر سنة ١٨٠٥).

« وفى هذه الايام وقعت بين أهل الازهر منافسات بسبب أمور واغراض نفسانية يطول شرحها، وتحزبوا حزبين حزب مع الشيخ عبد الله الشرقاوى وحزب مع الشيخ محمد الامير وهم الاكثر، وجعلوا الشيخ الامير ناظرا على الجامع (الازهر). وكتبوا له تقريرا بذلك من القاضى وختم عليه المشايخ والشيخ السادات والسيد

عمر افنـدي النقيب ، وكانت النظارة شاغرة من أيام الفرنسيس ، وكان يتقلدها أحد الامراء (المماليك) فلما خرج الأمراء من مصر صارت تابعة لمشيخة الأزهر لوقت تاريخه، فانفعل لذلك الشيخ الشرقاوى »

تخاذل الزعماء وحالتهم النفسية

كان هـذا الخلاف من الحوادث الجوهرية التى لفتت نظر الكتاب الافرنج ممن تابعوا حوادث مصر فى ذلك العصر ، فقـد ذكره المسيو مانجان فى كتابه بقوله :

« ان العلماء اختلفوا فيما بينهم على من يتولى النظر على أوقاف الأزهر وانقسموا فريقين فريق أراد أن يكون ذلك للشيخ محمد الأمير ، وفريق تحزب للشيخ الشرقاوى وطلب أن يكون النظر اليه، وقد فاز الأمير وحزبه فتقرر له النظر »

ثم أخذ هذا الخلاف يستفحل مع الزمن ، وسعى بعض الشيوخ البعيدين عن أسبابه ، وعلى رأسهم الشيخ عبد الرحمن السجينى ، ان يحسموه خيفة أن يتصدع بناء الجماعة ، فدعاهم السجينى الى داره وأعد لهم وليمة يبتغى بهـا أن يزول ما فى نفوسهم من أسباب الجفاء ، قال الجبرتى فى حوادث صفر سـنة ١٢٢١ (ابريل سنة ١٨٠٦) « وفى هذه الايام كان بين مشايخ العلم منافسات ومنافرات ومحاسدات وذلك فى أوائل شهر رمضان سنة ١٢٢٠ ، وتعصبات بسبب مشيخة الجامع و نظر أوقافه وأوقاف عبد الرحمن كتخدا ، فاتفق أن الشيخ عبد الرحمن السجينى ابن الشيخ عبد الرءوف عمل وليمة ودعاهم اليها فاجتمعوا فى ذلك اليوم وتصالحوا فى الظاهر »

فتأمل كيف كانت المنافسة بين الشيوخ والزعماء لاسباب شخصية واهية وهى التزاحم على مشيخة جامع أو ادارة أوقاف ، وتأمل فى قول الجبرتى انهم حينما اجتمعوا على مائدة الشيخ السجينى تصالحوا وكان صلحهم (فى الظاهر) ، ومعنى ذلك إنه لم يكن الا رياءً ومداهنة ، وبقيت السرائر على ما طويت عليه

لم يخف أمر هذا التنافس على محمد على ، بل لابد ان يكون قد ابتهج له في خاصة نفسه ابتهاجا عظيما ، وعزم على استغلاله لينفرد بالحكم ، ويتخلص من تلك الرقابة الشعبية ، وقد قويت فيه نعرة الانفراد بالحكم بعد اخفاق الحملة الانجليزية ، مما جعله ينزع الى الاستئثار بالحكومة والقضاء على كل سلطة تراقبه أو تعارضه ، وقد بدأ بالتخلص من الزعامة الشعبية لأن هذه الزعامة مرتكزة على أساس راسخ من التفاف الشعب حولها وصحة المبادىء التى تعمل لها

ومن الحق أن نقول انه لم يكن من بين زعماء الشعب من كان يحسب له حساب كبير مثل السيد عمر مكرم ، فانه الرجل الذى كان يتمثل فيه دائما تاريخ الثورة ، فلم تلن قناته للمنافع والمغريات ، ولم تزعزعه الكوارث والتهديدات ، وقد ظل يمثل النزاهة والاستقامة حتى آخر نسمة من حياته ، وأيده فى مسلكه بعض الشيوخ ، ولكن أغلبيتهم قد انصرفت الى أسباب المنافع ، والاستكثار من الاموال والضياع والدور والقصور ، وأخذوا يقلدون البكوات المماليك فى البذخ والرفاهية ، فأذلتهم الدنيا ، وضعفت نفوسهم أمام سلطة الحاكم ونفوذه

وكان محمد على عند فرضه الضرائب الجديدة على القرى والالتزامات قد راعى خاطر الشيوخ ليضمهم اليه ، فأعفى أملاكهم وضياعهم وما دخل فى التزامهم من دفع ضريبة (الفائض) ، وكذلك شمل بهذا الاعفاء أملاك من ينتمون اليهم ، فاغتر الشيوخ بهذا التمييز فى المعاملة ، وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين ، وداخلهم الطمع ، وتركوا الدنيا تفسد من طباعهم ، قال الجبرتى فى هذا الصدد « وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية ، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء (المماليك) واتخذوا الخدم والمقدمين والاعوان وأجروا الحبس والتعزير والضرب وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الامور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميرى

والفائض والمضاف والرماية والمرافعات والمزاسلات ... زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الامور وحظوظ الانفس على الاشياء الواهية »

وغنى عن البيان أن هـذه الحالة النفسية التى وصفها الجبرتى قد أدت الى اضعاف مكانة الشيوخ وازالة هيبتهم من القلوب ، ومهدت السبيل لمحمد على ليتسلم زمامهم ، لأنه يكفى أن يلوح لهم بمنفعة جديدة أو يتهددهم بحرمانهم من منفعة قائمة ليضمن ولاءهم وموافقتهم اياه فى كل مايرغب عمله ، وكانت الحكومة فى غضون ذلك تفرض ماتشاء من الاتاوات والضرائب ، فطوراً تقرر الاستيلاء على نصيب من ايراد الملتزمين ، وتارة تقرر قروضا اجبارية تكره عليها الملاك والتجار ، وكانت فيما تقرره تعفى الشيوخ من الاتاوات ، ولكنها قررت فى أواخر اكتوبر سنة ١٨٠٧ ابطال هذا الامتياز وتعميم ما تفرضه من الضرائب العقارية الجديدة على أطيانهم .

الخلاف بين محمد على والسيد عمر مكرم

كانت الحكومة كلما احتاجت الى المال تفرض ضرائب واتاوات جديدة على الاطيان والمتاجر وغيرها ، فساءت الحالة الاقتصادية ، ووقع الضنك واشتد الضيق بالاهالى ، وكثرت هجرتهم من القرى ، وزاد الحالة حرجاً نقص النيل نقصا فاحشا فى فيضان اغسطس سنة ١٨٠٨ ، فارتفعت الاسعار ، واشتد الغلاء ، وقلت الغلال فى الاسواق ، فلجأ الاهالى كعادتهم الى العلماء ، وهؤلاء كلموا محمد على فى كثرة الضرائب وطلبوا اليه رفع تلك المظالم ، فغضب عليهم الباشا ، ونسب اليهم ظلم الاهالى لانه حينما اعفى اطيانهم من الضرائب الجديدة كانوا هم مع ذلك يقتضونها من الفلاحين ، وتهددهم بمراجعة مانالهم من هذا الباب ، فقبلوا المراجعة ، وكان هذا الجدل نذيرا باشتداد الخلاف بين محمد على باشا والعلماء ، واتفقوا على

اقامة صلاة عامة للاستسقاء ، وهي الصلاة التي تقام اذا ماشح النيل للدعاء الى الله أن يرفع الكرب ويجرى الماء

قال الجبرتى فى هذا الصدد « فلما كان يوم السبت ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٢٢٣ وخامس عشر مسرى القبطى نقص النيل نحو خمسة اصابع وانكشف الحجر الراقد الذى عند فم الخليج تحت الحجر القائم، فضج الناس ورفعوا الغلال من الرقع والعرصات والسواحل، وانزعجت الخلائق بسبب شحة النيل فى العام الماضى وهيفان الزرع وتنوع المظالم وخراب الريف وجلاء اهله، واجتمع فى ذلك اليوم المشايخ عند الباشا فقال لهم اعملوا استسقاء وأمروا الفقراء والضعفاء والاطفال بالخروج الى الصحراء وادعوا الله، فقال له الشيخ الشرقاوى ينبغى ان ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم ، فقال أنا لست بظالم وحدى ، وانتم اظلم منى ، فانى رفعت عن حصتكم الفرض والمغارم اكراما لكم وانتم تأخذونها من الفلاحين ، وعندى دفتر محرر فيه ماتحت ايديكم من الحصص يبلغ الفى كيس، ولا بد أنى افحص ذلك ، وكل من وجدته يأخذ الفرضة المرفوعة عن فلاحيه ارفع الحصة عنه، فقالوا له لك ذلك، ثم اتفقوا على الخروج والسقيا فى صبحها بجامع عمرو بن العاص لكونه محل الصحابة والسلف الصالح يصلون به صلاة الاستسقاء ويدعون الله ويستغفرونه ويتضرعون اليه فى زيادة النيل، وبالجملة ركب السيد عمر والمشايخ واهل الازهر وغيرهم والاطفال واجتمع عالم كثير وذهبوا الى الجامع المذكور بمصر القديمة ، فلما كان فى صبحها وتكامل الجمع صعد الشيخ جاد المولى على المنبر وخطب بعد أن صلى صلاة الاستسقاء ، ودعا الله وأمن الناس على دعائه وحول رداءه ، ورجع الناس بعد صلاة الظهر وبات السيد عمر هناك ، وفى تلك الليلة رجع الماء الى محل الزيادة الاولى واستتر الحجر الراقد بالماء ، وفى يوم الاثنين خرجوا ايضا ، واشار بعض الناس باحضار النصارى ايضا ، فحضروا وحضر المعلم غالى ومن يصحبه من الكتبة الاقباط ، وجلسوا فى ناحية من المسجد يشربون الدخان ، وانفض الجمع ايضا ، وفى تلك الليلة التى هى ليلة الثلاثاء زاد الماء ونودى بالوفاء وفرح الناس ، وطفق النصارى يقولون

ان الزيادة لم تحصل الا بخروجنا ، فلما كانت ليلة الاربعاء طاف المنادون بالرايات الحمر ونادوا بالوفاء ، وعمل الشنك والوقدة تلك الليلة على العادة ، وفى صبحها حضر الباشا والقاضى واجتمع الناس وكسروا السد وجرى الماء فى الخليج جريانا ضعيفاً »

وبالرغم من جريان النيل فان الضائقة الاقتصادية لم تخف وطأتها ، وزادت الحكومة فى فرض الضرائب ، فازداد البؤس واشتد الضيق بالناس

ولما كانت سنة ١٨٠٩ قرر محمد على باشا فرض ضريبة المال الميرى على الأراضى الموقوفة، وهى المعروفة بالرزق الاحباسية أى المرصدة على المساجد والسبل والخيرات ، وكذلك على اطيان الاوسية التى كانت ملكا خاصا للملتزمين ، وهذه الاطيان كانت كلها معفاة من الضرائب ، وقرر كذلك فحص اطيان الرزق والاوقاف ، وطلب حججها ممن يتولون النظر عليها ، وأمر حكام الاقاليم (الكشاف) بالاستيلاء على تلك الاطيان اذا لم يقدم اصحابها الى الديوان حجج إنشاء الوقف ، ومعنى ذلك تمهيد السبيل لمصادرة معظم الاطيان الموقوفة ، لان الكثير منها قد تقادم العهد على وقفه بحيث اصبحت حججه لا تنطبق عليه لتغير المعالم أو للنزاع فى الاستحقاق ، وتخويل حكام الاقاليم امر فحصها معناه اطلاق يدهم فى الغاء ماشاءوا من الاوقاف

وقررت الحكومة ايضا الزام جميع الملتزمين بان يؤدوا للحكومة نصف الفائض لهم من الالتزام ، أى نصف الصافى من ايرادهم من الاطيان الداخلة فى التزامهم ، ومعنى ذلك مقاسمة الملتزمين فى معايشهم

كانت هذه المحدثات سببا فى تبرم جمهور الملاك ونظار الاوقاف والمستحقين والملتزمين ، وهم طبقة كبيرة من السكان ، ومنهم المحتاجون الذين لا يرتزقون الا من غلة الاوقاف الموقوفة عليهم من اسلافهم ، أو من ايراد الاطيان الداخلة فى التزامهم ، فلا جرم أن تثير هذه المغارم فى نفوسهم عاصفة من الاستياء والسخط ، وان يجأروا بالشكوى الى الشيوخ الذين هم ملجأ المظلومين فى ذلك العصر

وكان مفهوماً أن تكون هذه المحدثات سببا لاشتداد الخلاف بين محمد على باشا والسيد عمر مكرم ، لانه لم يكن منتظرا أن يقره عليها، وكان له من النفوذ على الجماهير مايجعل احتجاجه بمثابة احراج لمركز الحكومة

فاعتراض السيد عمر مكرم واحتجاجه كان أمراً ذا بال ، وله من العواقب فى اثارة الشعب مالا يعزب عن البال ، وقد حدث ما كان منتظراً ، فاجتمع الناقمون على المحدثات الجديدة ، واتفقوا على أن يقصدوا الى الازهر لرفع ظلاماتهم الى الشيوخ والعلماء ، وحدث من قبيل المصادفات أن ولاة الشرطة اعتقلوا طالبا من طلاب العلم فى الازهر يمت بصلة القربى الى أحد علمائه (السيد حسن البقلى) ، فتشفع العلماء فى اطلاق سراحه ، فلم يقبلوا وأرسلوه الى القلعة ، فجاءت هذه الحادثة سببا جديدا لاثارة الخواطر فوق ثورانها بسبب الضرائب الجديدة

ففى يوم السبت ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٢٤ (٣٠ يونيه سنة ١٨٠٩) بينما الشيوخ حاضرون بالازهر كعادتهم لقراءة الدروس أقبل الناس افواجا من رجال ونساء ، ومنهم أهل الطالب المسجون يصرخون ويستغيثون ، وأبطلوا الدروس ، فاجتمع الشيوخ بالقبلة ، وأرسلوا الى السيد عمر مكرم فحضر اليهم وأخذوا يتداولون الرأى فيما يجب عمله ، وتناسوا مؤقتا منافساتهم الشخصية ، واتفقوا على الدفاع عن مصالح الجمهور ، ثم انفض الاجتماع وذهبوا الى بيوتهم على أن يجتمعوا ثانيا

واستأنفوا الاجتماع فى الغد وتداولوا الأمر ، وأجمعوا الرأى على الاعتراض على المحدثات الجديدة من المظالم والمغارم عامة ، وأهمها فرض الضريبة على الاطيان الموقوفة واطيان الاوسية ، ومقاسمة الملتزمين فى ايرادهم ، وضريبة التمغة على المنسوجات والمصوغات والأوانى ، واعتقال الطالب الازهرى بغير ذنب جناه ، وحبسه بالقلعة ، واتفقوا على أن يرفعوا هذا الاحتجاج كتابة الى محمد على باشا

توافق الشيوخ فى هذا الاجتماع على الاخلاص والتضامن ، « وتعاهدوا وتعاقدوا على الاتحاد وترك المنافرة » كما يقول الجبرتى ، ولكن هذا العهد لم يكن

صادرا عن نية صادقة ، فان حساد السيد عمر مكرم كانوا مضمرين فى أنفسهم أن يخذلوه اذا حزب الامر واشتدت الازمة ، وأن يدعوه وجها لوجه أمام محمد على

وظاهر من رواية الجبرتى أنهم اتفقوا رأيا على الاكتفاء بتقديم العريضة بمثابة احتجاج على تصرفات الباشا وعدم الذهاب اليه خيفة أن يؤثر فيهم اذا اجتمع بهم، أو تلين قناتهم اذا صاروا بحضرته ، على أن محمد على اعتزم أن يفرق جمعهم باستدعائهم فيختلفوا فى وجوب الذهاب اليه أو الامتناع عن مقابلته ، فتقع الفرقة بينهم ، وتظهر مكنونات ضمائرهم ، وهنالك يضرب الضربة التى اتفق مع المهدى والدواخلى على ايقاعها بالسيد عمر مكرم

لوقيعة بالسيد عمر مكرم

وتفصيل ذلك أن محمد على اوفد سكرتيره (ديوان افندى) لمقابلة الشيوخ وتعرف نياتهم ، أو جس نبضهم كما يقولون ، فوجد منهم فى اليوم الاول اتحادا فى الرأى ، واصرارا على عدم مقابلته والاكتفاء بالعرض الذى قدموه ، وفى ذلك معنى الغضب والاحتجاج الذى يخشى محمد على عواقبه فى نفوس الجمهور

قال الجبرتى فى وصف هذه المقابلة « حضر ديوان افندى وقال ان الباشا يسلم عليكم ، ويسأل عن مطلوباتكم ، فعرفوه بما سطروه اجمالا ، وبينوه له تفصيلا ، فقال ينبغى ذهابكم اليه ، وتخاطبونه مشافهة بما تريدون ، وهو لايخالف أوامركم ولا يردشفاعتكم ، وانما القصد أن تلاطفوه فى الخطاب لانه شاب مغرور جاهل وظالم غشوم[١] ولاتقبل نفسه التحكم ، وربما حمله غروره على حصول ضرر بكم وعدم انفاذ الغرض ، فقالوا بلسان واحد لانذهب اليه أبدا مادام يفعل هذه الفعال ،

---

(١) كذا فى الجبرتى ، وهذه الرواية تقرب فى معناها من رواية المسيو مانجان في كتابه تاريخ مصر في حكم محمد على جزء ١ ص ٢٣٢

فان رجع عنها وامتنع عن احداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا اليه وترددنا عليه كما كنا فى السابق ، فاننا بايعناه على العدل لا على الظلم والجور ، فقال لهم ديوان افندى وأنا قصدى أن تخاطبوه مشافهة ويحصل انفاذ الغرض ، فقالوا لانجتمع عليه أبدا ولا نثير فتنة ، بل نلزم بيوتنا ، ونقتصر على حالنا ونصبر على تقدير الله بنا و بغيرنا ، وأخذ ديوان افندى « العرضحال » ووعدهم برد الجواب »

هذا ماذكره الجبرتى عن اجتماع الشيوخ بسكرتير محمد على باشا ، ومنه يتبين أنهم كانوا فى بادئ الأمر يدا واحدة فى الاعتراض على المظالم والضرائب الجديدة ، وأن ماسماه الجبرتى « عرضحالا » كان بمثابة احتجاج شديد له خطره وعواقبه ، وكثير من الثورات يكون منشؤها العرائض أو « العرضحالات » ، وقد كان هذا العرض مقرونا بالامتناع عن مقابلة الباشا ورفض المباحثة معه ، وهذا أمر خطير فى ذاته وفى نتائجه ، وليس هذا الامتناع مقصورا كما يقول الشيوخ على أن « يلزموا بيوتهم ويقتصروا على حالهم ويصبروا على تقدير الله بهم وبغيرهم » بل هو اعلانٌ للجمهور بأنهم غضبوا على من أجلسوه منذ سنوات على كرسى الحكم ، ومصارحةٌ لهم بأنه خالف الشروط التى بايعوه عليها ، ففى هذا العمل السلبى تهديد صريح لمحمد على بأن يجيب طلباتهم والا فانهم « لايجتمعون عليه أبدا »

و بديهى أن محمد على باشا ادرك بثاقب نظره ما ينطوى تحت هذه « المقاطعة » من المعانى ، وما يترتب عليها من النتائج ، فبادر أولا الى الافراج عن الطالب الازهرى « قريب السيد حسن البقلى » الذى كان محبوسا ، ليفهم الجمهور أن لاظلم ولا حبس ولا تعذيب ، ثم أخذ يجهد الفكر لفصم عرا تلك الزعامة الشعبية التى كانت تقلق باله وتقضُّ مضاجعه ، ومضت أربعة أيام على اجتماع الشيوخ دون أن يبعث إليهم محمد على بالجواب ، والظاهر أنه قضى هذه الايام فى استمالة بعض الشيوخ اليه والائتمار بالسيد عمر مكرم

وفى ذلك يقول الجبرتى « الى أن بدت الوحشة بين الباشا والسيد عمر مكرم

فتولى كِبْر السعي عليه سرا هو وباقي الجماعة حسدا وطمعا ليخلص لهم الأمر دونه حتى أوقعوا به »

وكان بدء هذه المؤامرة أن اجتمع الشيخ محمد المهدي والشيخ محمد الدواخلي وناظر المهمات (محمد افندي طبل) ، واتفقوا معا على الخطة التي يتبعونها لانفاذ المؤامرة ، و بعد تفرقهم ذهب المهدي والدواخلي الى السيد عمر وأخذا يدافعان عن محمد علي باشا ، و يبرئانه مما نسب اليه ، وكان هـذا الدفاع مقدمة انقلابهم على السيد عمر ، قال الجبرتي في هذا الصدد « اجتمع الشيخ المهدي والشيخ الدواخلي عند محمد افندي طبل ناظر المهمات ، وثلاثتهم في نفوسهم للسيد عمر ما فيها ، وتناجوا مع بعضهم ، ثم انتقلوا في عصرها وتفرقوا ، وحضر المهدي والدواخلي الى السيد عمر ، وأخبراه أن محمد افندي المذكور ذكر لهم ان الباشا لم يطلب مال الأوسية ولا الرزق (الاطيان الموقوفة) ، وقد كذب من نقل ذلك ، وقال انه يقول إني لا أخالف أوامر المشايخ ، وعند اجتماعهم به ومواجهته يحصل كل المراد »

فالمهدي الدواخلي دافعا اذن عن محمد علي ، ونقضا الاتفاق الذي تم بين الشيوخ في اجتماعهم السابق ، ومضمونه ألا يذهبوا الى محمد علي باشا الا اذا أجاب مطالبهم ، لان كلامهم الجديد للسيد عمر يدل على قبولهم الاجتماع بالباشا وتحبيذهم هذا الاجتماع .

وقد فطن السيد عمر الى سر الخطة الجديدة التي اتبعها المهدي والدواخلي ، اما هو فقد أصر على عهده بعد أن ألزم الشيخين الحجة ، إذ قال لهما « أما انكاره طلب مال الرزق والاوسية فهاهي أوراق المباشرين عندي لبعض الملتزمين مشتملة على طلب الفرضة (الضريبة) ونصف الفايض (أي نصف ايراد الملتزمين) ومال الأوسية والرزق ، وأما الذهاب اليه فلا أذهب اليه ابدا ، وان كنتم تنقضون الأيمان والعهد الذي وقع بيننا فالرأي لكم »

وانفض المجلس ، وعلم محمد علي باشا بما دار فيه ، فأدرك أن السيد عمر مكرم لا تلين قناته ، وانه مصمم على المقاومة ، فاخذ كما يقول الجبرتي يدبر تفريق جمع

الشيوخ « وخذلان السيد عمر لما فى نفسه منه من عدم انفاذ اغراضه ، ومعارضته له فى غالب الامور ، و يخشى صولته ، و يعلم أن الرعية والعامة تحت أمره ، ان شاء جمعهم ، وان شاء فرقهم ، وهو الذى قام بنصره ، وساعده ، وأعانه ، وجمع الخاصة والعامة حتى ملكه الاقليم ، و يرى انه ان شاء فعل نقيض ذلك ، فطفق يجمع اليه بعض افراد من اصحاب المظاهر و يختلى معه و يضحك اليه ، فيغتر بذلك ، و يرى انه صار من المقربين وسيكون له شأن ان وافق ونصح ، فيفرغ له جراب حقده و يرشده بقدر اجتهاده لما فيه من المعاونة »

بهذه العبارة وصف الجبرتى موقف محمد على باشا ازاء السيد عمر مكرم وصفا دقيقا ، فمحمد على كان يخشى نفوذ السيد عمر و يتوجس من اثارته الجمهور عليه واقتلاعه من مركزه ، كما اقتلع خورشد باشا من قبل ، ولذلك أخذ يقرب اليه بعض أصحاب المظاهر وطلاب المنافع و يعدهم و يمنيهم ليفصلهم عن السيد عمر

و رواية الجبرتى فى مجموعها تتفق و رواية المسيو مانجان (صديق محمد على باشا) فى كتابه ، فقد ذكر ان السيد عمر مكرم لما حضر اليه سكرتير الباشا وعبد الله بكتاش (ترجمانه) يوم ١٣ يونيه سنة ١٨٠٩ ، وكان العلماء مجتمعين عنده ، طلبا اليه أن يذهب لمقابلة الباشا ، فرفض الذهاب ، وأقسم ألا يرى محمد على باشا الا اذا عدل عن مشروعه فى فرض الضرائب الجديدة ، وانتقد سياسته انتقادا شديداً قائلا « واذا أصر الباشا على مظالمه فاننا نكتب الى الباب العالى ، ونثير عليه الشعب ، وأنزله عن كرسيه كما أجلسته عليه »

فعمر مكرم كان معتمدا على منزلته عند الشعب ، وعلى سابقة يده على محمد على ، أما منزلته الشعبية فكانت تزداد قوة على مدى الايام ، لما تبينه الناس من بقائه على عهده ، واستمساكه بالمهمة التى أخذها على عاتقه وهى أن يكون ترجمان الشعب الصادق و رسوله الأمين فى مراقبة ولاة الامور ، ورفع المظالم عن الجمهور ، فكانت مكانته تعظم كل يوم بما كان يسديه من الخير اليهم ، يدلك على عظم مكانته الاجتماعية انه اقام فى ذلك الحين مهرجانا لختان حفيده فى شهر ربيع الاول سنة ١٢٢٤

(ابريل سنة ١٨٠٩) ، فكان من اعظم مارأته القاهرة رَوعة وجمالا ، احتشدت فيه الجموع من كافة الطبقات ، واكتريت الاماكن لمشاهدته ، قال الجبرتي في وصفه :

« واستهل شهر ربيع الاول سنة ١٢٢٤ ، وفيه شرع السيد عمر مكرم نقيب الاشراف فى عمل مهمّ لختان ابن ابنته ، ودعا الباشا والاعيان ، وأرسلوا اليه الهدايا والتعابى ، وعمل له زفة يوم الاثنين سادس عشر ، مشى فيها أرباب الحرف والعربات والملاعيب وجمعيات وعصب صعايدة وخلافهم من اهالى بولاق والكفور والحسينية وغيرها من جميع الاصناف ، وطبول وزمور وجموع كثيرة ، فكان يوما مشهودا اكتريت فيه الاماكن للفرجة ، وكان هذا الفرح هو آخر طنطنة السيد عمر بمصر ، فانه حصل له عقب ذلك ماسيتلى عليك قريبا من النفى والخروج من مصر »

تدبير المؤامرة

علمت مما تقدم أن الشيخين المهدى والدواخلى كانا قوام الوقيعة بالسيد عمر مكرم ، وأنهما أخفقا فى اقناعه بالعدول عن موقف الصلابة والتشدد الذى وقفه ازاء محمد على باشا

ويقول الجبرتى ان المهدى والدواخلى أعادا الكرة لاقناع السيد عمر بالعدول عن مقاطعة الباشا ، فذهبا اليه ثانيا صحبة سكرتيره ، وعبد الله بكتاش ترجمانه ، وطال بينهم الكلام والمعالجة ، ولكن السيد عمر أصر على الامتناع عن مقابلة الباشا ، ثم طلبا الى الشيخ محمد الامير أن يذهب معهما لمقابلته ، فاعتذر بوعكه ، والظاهر أنه أبى أن يشترك معهما فى المؤامرة على السيد عمر ، فرفض الذهاب معهما

وعندئذ أظهر المهدى والدواخلى مكنون نياتهما ، فذهبا وحدهما الى محمد على باشا بالقلعة ، واجتمعا به وهوّنا له من أمر السيد عمر لكى يطمئن على مركزه اذا أراد أن يبطش به ، قال الجبرتى ماخلاصته ، ان الباشا قال فى كلامه لهما : أنا لا أرد شفاعتكم ، ولا أقطع رجاءكم ، والواجب عليكم اذا رأيتم منى انحرافاأن تنصحونى ، ثم أخذ يلوم السيد عمر على تخلفه وتعنته ، ويثنى على الباقين (أى الذين انفصلوا عنه) ،

وقال عنه انه فى كل وقت يعاندنى و يبطل احكامى ، ويخوفنى بقيام الجمهور ، فقال الشيخ المهدى (وهنا بيت القصيد) هو ليس الا بنا ، واذا خلا عنا فلا يسوى بشىء ، إن هو إلا صاحب حرفة ، او جابى وقف يجمع الايراد و يصرفه على المستحقين، قال الجبرتى « فعند ذلك تبين قصد الباشا لهم (اى البطش بالسيد عمر) ووافق ذلك ما فى نفوسهم من الحقد للسيد عمر ، ثم تباحثوا معه حصة ،وقاموا منصرفين مذبذبين ، ومظهرين خلاف ما هو كامن فى نفوسهم من الحقد وحظوظ النفس ، غير مفكرين فى العواقب »

انتهى اذن هذا الاجتماع بالاتفاق بين محمد على والمهدى والدواخلى على الوقيعة بالسيد عمر مكرم ، وكان الدواخلى حاضر الاجتماع اصالة عن نفسه ونيابة عن الشيخ عبد الله الشرقاوى ، اى ان الشرقاوى كان شريكا فى المؤامرة ، ولكنه لم يشأ ان يظهر فيها بشخصه تفاديا من اللوم وسوء الظن به ، وترك للمهدى والدواخلى أن يحكما فصولها ، ولم يكن المهدى والدواخلى والشرقاوى فى موقفهم عاملين على هدم السيد عمر فحسب، بل كانوا فى الواقع يهدمون أنفسهم وزملاءهم ، وكل عضو فى تلك الزعامة الشعبية التى قامت بدور خطير فى تاريخ مصر القومى ، وقد فاتهم وهم تحت تأثير الحقد والحسد « وحظوظ النفس » أن يقدروا عواقب عملهم ، فصدق فيهم قول الجبرتى انهم كانوا « غير مفكرين فى العواقب »

ذهب المهدى والدواخلى ثانية الى السيد عمر ليفضيا اليه بما شاءا من حديث الباشا ، وكان غرضهما تبرير موقف محمد على ، وأرادا أن يدخلا الرهبة فى نفس السيد عمر حتى يذعن أو يسجلا عليه التمرد والعصيان اذا أصر على موقفه ، قال الجبرتى « وحضروا عند السيد عمر وهو ممتلىء بالغيظ مما حصل من الشذوذ ونقض العهد ، فأخبروه أن الباشا لم يحصل منه خلاف ، وأنه قال أنا لا أرد شفاعتكم ، ولكن نفسى لا تقبل التحكم ، والواجب عليكم اذا رأيتمونى فعلت شيئا مخالفا ان تنصحونى وتتشفعوا ، فأنا لا أردكم ولا أمتنع عن قبول نصحكم ، وأما ماتفعلونه من التشنيع والاجتماع بالازهر فهذا لا يناسب منكم ، وكأنكم تخوفوننى بهذا الاجتماع

وتهييج الشرور وقيام الرعية كما كنتم تفعلون في زمان المماليك ، فأنا لا أفزع من ذلك ، وإن حصل من الرعية أمر ما فليس لهم عندى إلا السيف والانتقام ، فقلنا له هذا لا يكون ، ونحن لانحب ثوران الفتن ، وانما اجتماعنا لأجل قراءة البخارى ، وندعو الله برفع الكرب ، ثم قال (أى محمد على) اريد أن تخبرونى عمن انتبذ لهذا الأمر ، ومن ابتدأ بالخلف ، فغالطناه ، وانه وعدنا بابطال الدمغة ، وتخفيف الفايض الى الربع بعد النصف ، وأنكر طلب ضريبة المال الميرى عن اطيان الأوسية والرزق من اقليم البحيرة »

هذا ماذكره الجبرتى ، ومنه يتبين أن المهدى والدواخلى ارادا الافضاء الى السيد عمر بان محمد على باشا يعتبر عمل الشيوخ حركة ثورية يتوعد بقمعها بالسيف والانتقام ، وانه سأل عن المدبر لها ، فغالطاه فى الجواب أى لم يتهما السيد عمر بزعامتها ، على انهما لم يصدقا السيد عمر القول ، فان حديثهما مع محمد على كان يدور حول تحريضه على السيد عمر والتهوين من أمره وتصغير شأنه حتى وصفاه بأنه (صاحب حرفة) اى نقيب الاشراف ، ولعمرى ان السيد عمر مكرم لم ينل ما نال من المكانة لتوليه نقابة الاشراف ، بل ان مكانته ترجع الى شخصيته البارزة ، ونفسه العالية ، وشجاعته ونزاهته ، وترفعه عن الدنايا وسفاسف الأمور ، ولو لم يكن نقيبا للاشراف لما نقصت مكانته عما صارت اليه من العظمة ورفعة الشأن

انتهت المقابلة على غير جدوى ، وانفض ذلك المجلس ، والمؤامرة ماضية فى سبيلها ، او كما قال الجبرتى « قاموا منصرفين ، وانفتح بينهم باب النفاق ، واستمر القال والقيل ، وكل حريص على حظ نفسه ، وزيادة شهرته وسمعته ، ومظهر خلاف ما فى ضميره » .

واستأنف محمد على باشا السعى ليكسب السيد عمر ويستميله اليه بالحسنى ، وكان الشيوخ وسطاءه فى هذا السعى ، ففى اول جمادى الثانية سنة ١٢٢٤ اجتمع الشيوخ عند السيد عمر فى داره ، واعادوا الكرة لاقناعه بمقابلة الباشا « فحلف السيد عمر انه لا يطلع اليه ، ولا يجتمع به ، ولا يرى له وجها إلا اذا ابطل هذه

الاحدوثات ، وقال ان جميع الناس يتهموننى معه ويزعمون انه لا يتجارى على شىء يفعله إلا باتفاقى معه ، ويكفى مامضى ، ومهما تقادم يتزايد فى الظلم والجور »

وعبثاً حاول الشيوخ اقناعه ، فأصر وأبى ، فاستقر رأيهم أن يذهبوا دون السيد عمر لمقابلة الباشا ، وأرسلوا فى طلب الشيخ محمد الامير لهذا الغرض ، فاعتذر بوعكه ، ومعنى ذلك أنه رفض الذهاب معهم ، وانه كان واقفا على ما دبره زملاؤه للسيد عمر فأبى أن يشترك فى أدوار هذه المأساة ، فاتفقوا على ذهاب الشرقاوى والمهدى والدواخلى والفيومى « وذلك على خلاف غرض السيد عمر ، وقد ظن انهم يمتنعون لامتناعه للعهد السابق والايمان » ، ولكن لم يمنعهم العهد ولم تمنعهم الايمان عن مقابلة الباشا ، فذهبوا اليه وتكلموا معه « وقد فهم كل منهم لغة الآخر الباطنية » ثم ذاكروه فى أمر الاتاوات التى فرضها ، وكانت موضع شكايات الناس وسخطهم ، فأخبرهم أنه يرفع ضريبة الدمغة وكذلك يرفع الضريبة عن الأطيان الأوسية والرزق (الأطيان الموقوفة) ويكتفى بأخذ ربع فايض ايراد الملتزمين بدلا من النصف ، وانصرفوا من عنده وذهبوا الى السيد عمر ليعرضوا عليه ماقرره الباشا ، لعله يرضى بذلك ، فقال لهم وهل أعجبكم ذلك فلم يجيبوا جوابا صريحا ، فقال انه أرسل يخبرنى بتقرير ربع المال الفايض فلم أرض وأبيت الا أن يرفعه كله لأنه فى العام الماضي لما طلب تقرير الربع قلت له هذه تصير سنة متبعة ، فحلف أنها لا تكون بعد هذا العام ، وانما طلبها لضرورة النفقة على العسكر ، وإن طلبها فى المستقبل يكون ملعونا ومطرودا من رحمة الله ، وعاهدنى على ذلك ، وهذا فى علمكم ، كما لا يخفى عليكم ، قالوا نعم ، قال وأما قوله إنه رفع طلب المال عن الاوسية والرزق فلا أصل لذلك ، وها هى أوراق البحيرة وجهوا بها الطلب ، فقالوا اننا ذكرنا له ذلك فانكر ، وحاججناه بأوراق الطلب ، فقال ان السبب فى طلب ذلك من اقليم البحيرة خاصة ان المساحين لما نزلوا للكشف على اراضى الرى والشراقى ليقرروا عليها فرضة (ضريبة) الاطيان حصل منهم الغش والتدليس فاذا كان فى أرض البلدة خمسمائة فدان رى جعلوها مائة وسموا الباقى رزقا وأوسية لاخفائها من

المال فقررتُ ذلك عقوبةً لهم فى نظير تدليسهم وخيانتهم، فقال السيد عمر: وهل ذلك أمر واجب فعله ، أليس هو مجرد جور وظلم أحدثه فى العام الماضى وهى فرضة الاطيان التى ادعى لزومها لاتمام نفقات العسكر ، وحلف ان لا يعود لمثلها ، وقد عاد وزاد ، وانتم توافقونه وتسايرونه ، ولا تصدونه ولا تصدعونه بكلمة ، وانا وحدى مخالفا وشاذا ، ولا مهم السيد عمر على نقضهم العهد والايمان، وانفض المجلس « وتفرقت الآراء ، وراج سوق النفاق ، وتحركت حفائظ الحقد والحسد، وكثر سعيهم وتناجيهم بالليل والنهار ، والباشا يراسل السيد عمر ويطلبه للحضور اليه والاجتماع به ويعده بانجاز ما يشير عليه ، وارسل اليه كتخداه (وكيله) ليترفق به ، وذكر له ان الباشا يرتب له كيسا (خمسمائة قرش) فى كل يوم ويعطيه فورا ثلثمائة كيس خلاف ذلك ، فلم يقبل »

فمحمد على لما اخفق فى استمالة السيد عمر بالوسطاء اراد ان يكسبه بالمال ، ولعله ظن ان شأنه شأن صالح قبطان باشا وسائر موظفى حكومة الاستانة « عبيد الدرهم والدينار » كما قال فيهم ، ولكن السيد عمر مكرم كان على اخلاق كريمة، أخصها النزاهة والعفة ، فلم يؤثر فيه وعد او وعيد ،ولا ترغيب او ترهيب

اشتداد الازمة

وفى غضون ذلك اخذ رسل السوء يزيدون هوة الخلف اتساعا بين محمد على والسيد عمر مكرم ، وينقلون الى الباشا ما يقوله السيد عمر فى مجالسه ، ويزيدون عليه ما سولت لهم اغراضهم ، والسيد مصر ممتنع عن مقابلته ، واحيط بيته بالجواسيس لمراقبة حركاته وسكناته ، واحصاء زواره ، وحدث فى خلال ذلك ان حرر محمد على باشا بيانا برسم الحكومة التركية ، يذكر فيه ما انفقه فى مصر من الخراج ، وقدره نحو اربعة آلاف كيس (١) وانها صرفت فى مهمات تختص

(١) كانت الحكومة التركية تطالب بهذا المبلغ كباقي المخصص لها

بشؤون البلاد ، فمنها ما صرف فى سد ترعة الفرعونية ، وما صرف على الحملات العسكرية لمحاربة المماليك ، وما انفقه على عمارة القلعة وترميم المجراة وحفر الترع ، اوضح فى بيانه ان الميرى قد نقص بسبب الشراقى ؛ وارسل البيان الى السيد عمر مكرم لاقراره والتوقيع عليه ؛ فامتنع واظهر الشك فى محتوياته ؛ وقال للرسول الذى حمله اليه : اما ماصرفه على سد ترعة الفرعونية فان الذى جمعه وجباه من البلاد يزيد على ماصرفه اضعافا كثيرة ؛ « واما غير ذلك فكله كذب لا اصل له ، وان وجد من يحاسبه على ما اخذه من القطر المصرى من الفرض والمظالم لما وسعته الدفاتر » ، وكان جوابا جافا شديد اللهجة ، فلما عاد الرسول الى محمد على اشتد حنقه عليه ، وطلبه من جديد لمقابلته ، فأصر على الامتناع ، فلما كثر التراسل بينهما فى هذا الشأن قال السيد عمر « ان كان ولا بد فاجتمع به فى بيت السادات ؛ وأما طلوعى اليه فلا يكون » فلما بلغ هذا الجواب مسامع محمد على باشا ازداد حنقه ؛ وكبر عليه ان يشترط السيد عمر مكرم ان تكون المقابلة بينهما فى دار غير مقر حكمه ؛ وقال « هل بلغ به ان يزدرينى ويأمرنى بالنزول من محل حكمى الى بيوت الناس » وصمم على البطش به

ومع بلوغ الازمة الى هذا الحد فان محمد على باشا كان يحسب حسابا كبيرا لمكانة السيد عمر فى الجمهور ، فلم يفكر فى ان يكون العقاب من نوع ما كان مألوفا فى ذلك العصر من القتل او السجن ، بل اعتزم ان يعزله من نقابة الاشراف وينفيه الى دمياط ليبعده عن القاهرة حيث له من النفوذ مايجعل اهلها رهن اشارة تصدر منه ، ورأى بثاقب نظره ان يكون عقابه متفقا (ظاهرا) مع الاوضاع الشرعية المألوفة وقتئذ ، بان يدعوه الى الاحتكام فيما شجر بينهما من الخلاف الى القاضى والشيوخ ، وكان مطمئنا من قبل الى حكمهم ، واثقا من تحيزهم ، وبهذه الوسيلة يضع السيد عمر فى مركز حرج ، فاذا هو اجاب الدعوة وقبل حكم القاضى والشيوخ يخرج من التقاضى مغلوبا ، وحينئذ يكون لمحمد على باشا ان ينفيه جزاء خروجه بدون حق على ولى الأمر ، وان لم يحضر كان امتناعه فى ذاته خروجا ايضا

على السلطة الشرعية ، فالمؤامرة كانت اذن محكمة التدبير ، ولولا نقض الشيوخ للعهود والمواثيق لما استطاع محمد على باشا ان ينال من خصمه منالا

نفى عمر مكرم الى دمياط

فلما اصبح يوم الاربعاء ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٢٢٤ (٩ اغسطس سنة ١٨٠٩) نزل محمد على باشا من القلعة وذهب الى بيت ابنه ابراهيم باشا (وكان وقتئذ بك) بالازبكية ، وطلب القاضى والمشايخ ، وارسل الى السيد عمر رسولا من طرفه و رسولا من طرف القاضى يستدعيانه للحضور ليحتكم واياه لديهم ، فأدرك السيد عمر أن المؤامرة قد وصلت الى دورها الاخير ، ورأى من العبث أن يذهب الى محكمة يعلم من رأى اعضائها وتواطئهم مع خصمه ما يجعل الاحتكام اليهم عبثا لايجدى ، فآثر الامتناع عن اجابة الدعوة ، واعتذر بمرضه ، فلم يكن من محمد على باشا إلا أن أمر فى حضرة القاضى والشيوخ بعزل السيد عمر مكرم من نقابة الاشراف ، ونفيه من مصر ، وأن ينفذ الامر فورا ، وخلع على السيد محمد السادات خلعة نقابة الاشراف

وقد رأى الشيوخ أن يُراعوا بالعطف على السيد عمر ، فتشفعوا عند الباشا أن يمهله ثلاثة أيام ، حتى يستعد للرحيل ، فأجابهم الى ذلك ، ثم سألوه أن يأذن له بالذهاب الى أسيوط (مسقط رأسه) لتكون منفى له ، فرفض محمد على اجابة هذا الطلب ، وخيره بين النفى الى دمياط أو الاسكندرية ، وانفض المجلس على ذلك

أما السيد عمر فقد قابل هذه المحنة بالثبات ورباطة الجأش ، وقال فى هذا الصدد « أما منصب النقابة فانى راغب عنه زاهد فيه ، وليس فيه إلا التعب ، وأما النفى فهو غاية مطلوبى » ، ثم طلب أن يكون النفى الى جهة ليست تحت حكم محمد على باشا اذا لم يأذن له بالذهاب الى أسيوط ، واختار الطور أو درنه (بطرابلس الغرب) ، فعرض هذا الطلب على الباشا ، فرفضه ، وأصر على نفيه الى دمياط ،

فأخذ السيد عمر يستعد للسفر ، ووكل عنه السيد المحروقي كبير تجار القاهرة وعهد اليه ادارة املاكه ورعاية أهل بيته

رحيل السيد عمر مكرم الى منفاه

كان رحيل السيد عمر الى دمياط مشهدا مؤثرا ، فان الجمهور قد أدرك عظم النكبة وشعر الناس بوحشة كبيرة لنفي الرجل الذى كان ملاذهم وملجأهم فى رفع المظالم ، فاجتمعوا لوداعه واظهار عواطفهم نحوه ، وكانت سيما الحزن والكآبة بادية على جمهور المودعين

قال الجبرتى فى هذا الصدد « واستهل شهر رجب سنة ١٢٢٤ بيوم الأحد وفيه اجتمع المودعون للسيد عمر ، ثم حضر محمد كتخداى الالفى (الذى عهد اليه اصطحابه الى منفاه) فعند وصوله قام السيد عمر وركب فى الحال وخرج صحبته ، وشيعه الكثيرون من المتعممين وغيرهم ، وهم يتباكون حوله ، حزنا على فراقه ، واغتم الناس لسفره وخروجه من مصر ، لانه كان ركنا وملجأ ومقصداً للناس لتعصبه لنصرة الحق ، فسار الى بولاق ، ونزل فى المركب ، وسافر من ليلته باتباعه وخدمه الذين يحتاج اليهم الى دمياط »

موقف الشيوخ بعد نفي زعيمهم

لم يتورع الشيخ محمد المهدى عن اظهار مكنونات ضميره فى الدور الاخير من ادوار المأساة ، ففى صبيحة الليلة التى ارتحل فيها السيد عمر الى منفاه ذهب الى محمد على باشا يلتمس منه المكافأة على تدبير المؤامرة ، فطلب وظائف السيد عمر ، فانعم عليه الباشا بنظر أوقاف الامام الشافعى ونظر وقف سنان باشا ببولاق ، وطلب كذلك ما كان منكسراً له من راتبه من الغلال نقدا أو عينا مدة اربع سنوات ، فأمر محمد على باشا بدفعها اليه نقدا من خزانة الحكومة وقدرها خمسة وعشرون

كيسا « وذلك — كما يقول الجبرتى — فى نظير اجتهاده فى خيانة السيد عمر حتى أوقعوا به ما ذكر »

ولم يكتف الشيوخ بالتواطؤ مع محمد على باشا على الوقيعة بالسيد عمر ، بل اخذوا بعد نفيه يعملون على النيل من سمعته ، ولعلهم رأوا مظاهر حزن الناس على فراقه ، وعطفهم عليه ، فأرادوا ان يحاربوه بسلاح الافتراء والتشهير ، ليسوغوا فعلتهم ، فكتبوا عرضا لارساله الى الاستانة يبررون فيه عزل السيد عمر من نقابة الاشراف ونفيه ، نسبوا اليه فيه ، انه ادخل فى دفتر الاشراف اسماء اشخاص ممن اسلموا من الاقباط واليهود ، وانه قبض من محمد بك الألفى مبلغا من المال ليمكنه من حكم مصر فى ايام قيام الجمهور على احمد خورشد باشا الوالى السابق ، وانه كان متواطئا مع الأمراء المماليك حين شرعوا فى مهاجمة القاهرة يوم الاحتفال بوفاء النيل سنة ١٨٠٥ [1] ، وانه اراد اخيرا احداث فتنة بين الجمهور ليخلع الباشا ويولى خلافه

وقد نمق الشيوخ هذا البيان ، وطافوا به على زملائهم ليوقعوا عليه ، فامتنع كثير منهم عن التوقيع ، وبرءوا السيد عمر مما رمى به وقالوا « هذا كلام لا أصل له » ، وحصلت مشادة بين رؤساء الشيوخ المدبرين لهذا المنشور و بين الممتنعين عن التوقيع ، ثم غيروا صورة المنشور ، وخففوا لهجته ليحملوا زملاءهم على توقيعه ، فامتنع كذلك بعضهم ، وكان أشدهم اصرارا على استنكاره والامتناع عن توقيعه السيد احمد الطحطاوى مفتى الحنفية ، وكان من العلماء الصالحين المتنزهين عن المطامع الدنيوية ، فسخط الشيوخ عليه وتهددوه بعزله من منصبه ، فلم يعبأ بهم ، فعزلوه ، وولوا بدله الشيخ حسين المنصورى ، وخلع عليه محمد على باشا خلعة الافتاء ، فلم يكترث السيد الطحطاوى لهذا الأمر ، ولم يأبه له ، وأعاد الى الشيخ السادات الخلعة التى خلعها عليه من قبل حينما تولى الافتاء ، فاستاء السادات من هذا العمل ، وعده اهانة كبرى له ، واستمر السيد الطحطاوى يقبح عمل الشيوخ ،

---

(١) انظر ص ١٥

واعتزلهم واعتكف فى داره « وهم يبالغون فى ذمه والحط منه لكونه لم يوافقهم على شهادة الزور » كما يقول الجبرتى ، فكان عمل الطحطاوى حجة بالغة على نفاق الشوخ ورياتهم .

خلا الجو لحساد السيد عمر مكرم والمؤتمرين به ، ولكنهم فى الواقع قد جنوا على انفسهم وعلى مكانتهم ونفوذهم ، فان المؤامرة التى دبروها قد أسقطت منزلتهم فى نظر الجمهور وفى نظر محمد على باشا ، فالجمهور رأى فى عملهم معنى الغدر والخيانة ، ومحمد على رأى فيه الضعة وصغار النفس ، فلم يبق لهم عنده ذلك الشأن الذى كان لهم من قبل ، ولم يعد يعبأ برايهم ، وسقطت تلك الزعامة الشعبية التى كانت لها المكانة العظمى والقول الفصل فى تطور الحوادث مدى عشر سنوات متعاقبة ، وزالت عنهم تلك الهيبة التى اكتسبوها بجهادهم واخلاصهم وتضامنهم ، وأضاعوها بتحاسدهم وتخاذلهم ، ودالت دولتهم ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، وحقت عليهم الآية الشريفة « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

وقد سجل عليهم الجبرتى رأيه فيهم بقوله « ان الحامل لهم على ذلك كله الحظوظ النفسانية والحسد ، مع ان السيد عمر كان ظلا ظليلا عليهم وعلى أهل البلد ، يدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم ، ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر راية ، ولم يزالوا بعده فى انحطاط وانخفاض » ، وقال فى موضع آخر « وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس ، وانهمكوا فى الامور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية »

عمر مكرم فى منفاه

اما السيد عمر مكرم فقد عاش فى دمياط تحت المراقبة « والحرس ملازمون له » الى ان تشفع له قاضى قضاة مصر صديق افندى لدى محمد على باشا ، فاذن له بالانتقال الى طنطا ، وذلك فى ربيع الأول سنة ١٢٢٧ ، فكأنه قضى بدمياط نحو أربع سنوات ، وبقى بطنطا الى ربيع الاول سنة ١٢٣٤ (ديسمبر سنة ١٨١٨) إذ طلب الاذن له أن يؤدي فريضة الحج ، وكان محمد على قد بلغ قمة المجد والسلطة ،

وقهر الوهابيين ، وذاع صيته فى الخافقين ، فتذكر المنفى العظيم الذى كان له الفضل اكبر الفضل فى اجلاسه على عرش مصر ، فتلطف بقبول طلبه ، واذن له بالذهاب الى القاهرة وان يقيم بداره الى أوان الحج ، وذكر صديقه القديم بالخير ، وقال لجلسائه « انا لم أتركه فى الغربة هذه المدة الا خوفا من الفتنة ، والآن لم يبق شيء من ذلك ، فانه أبى ، وبينى وبينه ما لا أنساه من المحبة والمعروف »

كتاب محمد على الى السيد عمر مكرم

وقد بعث اليه بكتاب رقيق يبلغه اجابة طلبه ، والكتاب يحتوى أرق عبارات الاحترام والتبجيل ، ويدل على مبلغ ماله عنده من المكانة الرفيعة قال فيه :

« مظهر الشمائل سنيها ، حميد الشؤون وسميها ، سلالة بيت المجد الاكرم ، والدنا السيد عمر مكرم ، دام شأنه

« اما بعد فقد ورد الكتاب اللطيف ، من الجناب الشريف ، تهنئة بما أنعم الله علينا ، وفرحا بمواهب تأييده لنا ، فكان ذلك مزيدا فى السرور ، ومستديما لحمد الشكور ، ومجلبة لثناكم ، واعلانا بنيل مناكم ، جزيتم حسن الثناء مع كمال الوقار ونيل المنى ، هذا وقد بلغنا تجلسكم عن طلبكم الاذن فى الحج الى البيت الحرام ، وزيارة روضته عليه الصلاة والسلام ، للرغبة فى ذلك ، والترجى لما هنالك ، وقد اذنا كم فى هذا المرام ، تقربا لذى الجلال والاكرام ، ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام ، فلا تدعوا الابتهال ، ولا الدعاء لنا بالقال والحال ، كما هو الظن فى الظاهرين ، والمأمول من الاصفياء المقبولين ، والواصل لكم جواب منا خطابا الى كتخدائنا ، ولكم الاجلال والاحترام ، مع جزيل الثناء والسلام »

عودة عمر مكرم الى القاهرة ثم نفيه ثانيا

وبعث الباشا بالخطابين الى السيد عمر صحبة حفيده السيد صالح ، وارسل الى كتخدائه يبلغه الأمر « واشيع خبر مقدمه فكان الناس بين مصدق ومكذب » حتى وصل الى بولاق يوم السبت ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٤ (٩ يناير ١٨١٩) ، فركب

من هناك و توجه لزيارة الامام الشافعى ، ثم ذهب الى القلعة وقابل الكتخدا ، وكان محمد على باشا وقتئذ بالاسكندرية ، « وهنأه الشعراء بقصائدهم ، وأعطاهم الجوائز ، واستمر ازدحام الناس اياما ، ثم امتنع عن الجلوس فى المجلس العام نهارا ، واعتكف بحجرته الخاصة ، فلا يجتمع عنده الا بعض من يريدهم من الأفراد ، فانكف الكثير عن التردد عليه ، وذلك من حسن الرأى »

يتبين من رواية الجبرتى ان منزلة السيد عمر مكرم فى قلوب الشعب بقيت كما كانت عند منفاه ، ولم ينس الناس ما أسداه لهم من الخير ، مع انقضاء عشر سنوات على نفيه ، ورجع عظيما كما كان قبل نفيه ، ولولا ذلك لما هنأه الشعراء بقصائدهم وازدحم الناس على داره ، وظاهر ان عيون محمد على باشا كانت منبثة حول داره ترقب بحذر ازدحام الجماهير على بابه ، وتستمع تهانى الشعراء له ، وتشهد مظاهر تعلق الشعب بزعيمه القديم ، وكيف ان الزمن والمحنة والشيخوخة والنفى ، كل ذلك لم يؤثر فى منزلته فى القلوب ، ومن المحتمل ان هذه « المظاهرات » لم تكن لتروق لأصحاب السلطة وقتئذ ، ولا يبعد أن يكون قد بلغ السيد عمر ان مثل هذه « المظاهرات » مما يؤخذ عليه ، فآثر الاعتكاف فى داره حتى لا تكون فتنة ولا تكون وقيعة ، فكان ذلك « من حسن الرأى » كما يقول الجبرتى ، وان كلمة « حسن الرأى » تؤكد ان الاعتكاف كان سياسيا

على ان محمد على لم يأمن على مركزه من نفوذ السيد عمر مكرم ، ولم يطمئن لبقائه طويلا فى القاهرة ، وبالرغم من شيخوخته واعتكافه فى بيته بمصر القديمة (بساحل أثر النبى) فانه كان مصدر قلق لمحمد على ، وحدث أن قامت فى القاهرة سنة **١٨٢٢** فتنة هاج فيها السكان استياء من فرض ضريبة جديدة على منازل العاصمة ، بعد فرضها على منازل البنادر فى الأقاليم ، فأخذ الموظفون يطوفون بالمنازل لتقدير الضريبة عليها ، فوقعت مصادمات بين أهالى باب الشعرية وبعض الموظفين الموكول اليهم تقدير الضريبة أدت الى اقفال الدكاكين وهياج الأهالى ، وذهبت جموعهم الى دار الشيخ العروسى شيخ الجامع الأزهر ، وكان يسكن على

مقربة من موطن الهياج ، وقد خرج الشيخ من داره قاصدا الأزهر ، فالتفت به الجماهير رجالا ونساء يضجون ويصيحون ، وكادت تقع الفتنة لولا أن عاجلتها الحكومة بالحزم واتخاذ التدابير الكفيلة بحفظ الامن ، ونفذت الحكومة الضريبة كما قررتها ، وقد ساورت الظنون محمد على باشا ، وارتاب فى ألا يكون للسيد عمر مكرم يد فى تلك الفتنة ، والواقع أنه كان بعيدا عنها ، فأرسل اليه رسولا فى داره(١) أنهى اليه ان محمد على يأمره بمغادرة القاهرة والاقامة فى طنطا ، ومعنى ذلك أنه امر بنفيه ثانيا من مصر ، فاجاب السيد عمر باستعداده لمبارحة العاصمة بعد أن يعد مركبا ينقله الى طنطا ، فاخبره الرسول ان المركب معد لهذا الغرض فى ساحل مصر القديمة ، فادرك ان المراد أن يغادر المدينة فورا ، ويرحل الى منفاه ، فتلقى هذه المحنة الجديدة بالصبر ، وبرح العاصمة مساء ذلك اليوم ، فكانت هذه هى المرة الرابعة التى يذهب فيها الى النفى ، فالأولى والثانية فى عهد الحملة الفرنسية ، والمرتان الثالثة والرابعة فى عصر محمد على باشا

وهكذا كانت حياة ذلك المجاهد الكبير سلسلة من النفى والهجرة ، ومكافحة الخطوب والمحن ، ولم يعرف فضله ، ولا كوفئ على جهاده بالشكر وحسن التقدير ، بل كان نصيبه النفى ، والحرمان ، والاقصاء من ميدان العمل ، ونكران الجميل ، وذلك كان جزاء اكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر فى فجر النهضة القومية .

---

(١) يوم ١٥ أبريل سنة ١٨٢٢ ، وقد كانت وفاته فى هذه السنة

الفصل الرابع

انفراد محمد على بالحكم

يدل منطق الحوادث على أن نيـة محمد على فى الانفراد بالحـكم قد بدأت تتملـكه ، كما ألمعنا الى ذلك ، بعد عودته من الاسكندرية عقب جلاء الانجليز عن البلاد ، وذلك أن مركزه قد توطد إذ تغلب على دسائس الباب العالى أولا ، ثم هزم الحملة الانجليزية ثانيا ، وبسط نفوذه وسلطانه على بلاد خارجة عن نطاق حكمه كالاسكندرية التى كانت الباب العـالى يعتبرها تحت مطلق سلطته ، فانتصار الجيش المصرى على الانجليز ، واستخلاص البلاد من قبضة دولة قوية البطش عزيزة الجـانب ، جعل محمد على ينزع الى الانفراد بحكومة البلاد ويستأثر بها بلا معـارض ولا منازع ، وأخذ يعمل على ذلك تدريجا مستعينا بما أوتى من الدهاء وسعة الحيلة

واذا تأملت فى مجرى الحوادث عقب عودته الى القاهرة تجد أنه قد أخذ فعلا من ذلك الحين يعمل على تحقيق هذا الغرض ، ذلك انه اغتنم الفرصة فى ثورة الجنود الارناءود ومطالبتهم برواتبهم المتأخرة وإخلالهم بالنظام كعادتهم ، فاعتزم الانتقال من سرايه بالازبكية الى قلعة المقطم ، واتخاذها مقرا له ، ومعنى انتقاله الى القلعة عزمه على ان يحكم البلاد بالقوة ، لانك اذا رجعت بذاكرتك الى نحو أربع سنوات مضت قبل وقوع هذه الحوادث تجد أن خورشد باشـا حينما انتقل من سرايه بالأزبكية الى القلعة(١) كان معتزما ان يحكم البلاد بالقوة ، دون ان يعبأ برأى شيوخها وزعمائها ومطالب جماهيرها .

---

(١) انظر الجزء الثانى ص ٣٦١.

والواقع ان سكنى ولى الامر فى الازبكية أى فى قلب العاصمة يجعله أميل الى الاصغاء لمطالب الشعب اذا هاجت خواطره ، لان الازبكية كانت الميدان الذى تحتشد فيه الجموع اذا حفزها حافز من شكوى او احتجاج ، فاذا ماسكنها ولى الأمر كان أقرب الى رؤية مظاهرات الشعب و ادنى للاستماع الى صيحاته ومطالبه

أما اذا استقر فى القلعة ، فكأنه يريد أن يمتنع فى قمة الجبل ، و يضع نفسه مع المدافع المتسلطة على البلد ، ويصم اذنيه عن سماع صيحات الجماهير ، و ينظر الى القاهرة كما ينظر النسر المحلق فى السماء الى فريسته على الأرض .

ولا يذهبن عنك أن القلعة تربض على ذروة المقطم كما يربض الأسد فى عرينه ، وهى بابراجها ومدافعها تشرف على القاهرة وتتسلط عليها ، فكأنما بناها صلاح الدين الايوبى فى ذلك الموقع ليتخذها الملوك والسلاطين معقلا يتسلطون منه على المدينة العظيمة وأهلها ، و يكفيك أن تصعد يوما الى القلعة ، وتمد نظرك الى ما يتناوله الافق ، لتتضاءل القاهرة أمامك ، اذ تراها مبسوطة لعينيك بشوارعها ، وميادينها ، وقصورها ، ومبانيها وأشجارها ، وحدائقها ، كرقعة صغيرة تكاد تكون فى قبضة يدك وعلى بسطة ذراعك ، أو كأنها لوحة صغيرة من الرسوم الصامتة ، ولا تكاد اذ ترى أشباح الناس تتحرك فى شوارعها وطرقاتها أن تميز بين مسيرهم ودبيب النمل ، وهيهات أن تبلغ سمعك أصواتهم مهما علت أو اكتظت بهم الميادين فى مختلف نواحيها القريبة والبعيدة ، فالحاكم المستبد اذ يشاهد من القلعة تلك المدينة الكبرى منبسطة أمام نظره ، صامتة لا يسمع لها صوتاً ، جامدة لا يحس لها ركزاً ، و يرى نفسه فى ذلك العلو الشاهق ، تحف به الأبراج وفيها المدافع متحفزة فاغرة افواهها على المدينة ، لا جرم أن تعتريه وساوس السلطة المطلقة ، وتتملكه نزعات الاستبداد والبطش بمعارضيه !

فمحمد على باشا قد انتقل الى القلعة واتخذها معقلا له حينما قامت فى المدينة فتنة الجند الارناءود ، ومن يومئذ وهو معتزم أن يستأثر بالحكم لا ينازعه فيه منازع ، فبعد أن اخمد فتنة الجند اتجهت عزيمته الى التخلص من الزعامة الشعبية ، فتم له ما أراد كما رأيت فى الفصل السابق ، ثم صحت عزيمته على التخلص من خصومه

المماليك ، فانهم بالرغم من تقليم اظافرهم كانوا لا يفتأون يتحينون الفرص لمناوأته ومنازعته الحكم والسلطان

موقف محمد على ازاء المماليك

كان عدد المماليك فى ذلك الحين يبلغ ٢٥٠٠ من المقاتلة كما قدرهم المسيو مانجان [١] ، وقد استعان محمد على باشا على رؤسائهم منذ سنة ١٨٠٧ بالحيلة ، فابتدأ باستمالة شاهين بك الألفى خليفة محمد بك الألفى ، وما زال يعرض له المودة والصفاء حتى اجتذبه الى القاهرة ووافقه على ان يقيم بالجيزة ويكون له ايراد اقليم الفيوم وثلاثين قرية فى اقليم البهنسا وعشر قرى فى الجيزة ، وأطلق له التصرف فى ذلك كله التزاما وكشوفية [٢] ، وضم له كشوفية البحيرة بتمامها الى الاسكندرية ، وكتب له الحجة بذلك

فارتضى شاهين بك بهذا الصلح ، وطابت له نفسه ، وجاء القاهرة لزيارة محمد على باشا ، فاكرم مثواه ، ودعاه الى مأدبة عند ابنه طوسون ، ثم سكن شاهين بك بالقصر الذى أعد له بالجيزة (شوال سنة ١٢٢٢ — ديسمبر سنة ١٨٠٧) ، وضرب صفحا عن عيشة الكفاح والقتال ، وحذا حذوه بعض الأمراء المماليك ، فبذلوا الطاعة لمحمد على باشا ، وأرسل فى أوائل سنة ١٨٠٨ (ذى القعدة سنة ١٢٢٢) الى زملائه المماليك فى الصعيد يرغبهم فى الاذعان والولاء لمحمد على

كان لدعوة شاهين بك أثرها فى كسر حدة المماليك ، فوقفت حركات القتال فى الصعيد ، وهدأت الحالة هدوءا نسبيا ، ويرجع سبب هذا الهدوء الى ما أصاب المماليك من الضعف ، والى اليأس الذى تسرب الى نفوس زعمائهم ، فان ابراهيم بك الكبير قد أضعفته الشيخوخة ، فصار أقرب الى الراحة والسكون بعد ما هدت السنون

---

(١) فى كتابه (تاريخ مصر فى عهد محمد على) الجزء الاول

(٢) أى يتولى حكم تلك البلاد ويستولى على ايراد اطيانها بعد أداء الميرى

من نشاطه وقوته ، وكذلك عثمان بك حسن ، وهذان هما كبيرا المماليك المعترف لهما بالزعامة بعد موت الالفى والبرديسى ، على انهما مع ماتولاها من الضعف واليأس ظلا على عهدهما القديم من كراهية محمدعلى باشا وعدم الثقة فى مقاصده حيال المماليك، أما شاهين بك المرادى (خليفة البرديسى) فلم يكن له نفوذ بجانب ابراهيم بك وعثمان بك حسن

كان محمد على باشا يعلم نفسية ذينك الزعيمين ، ويعرف أن التجارب جعلتهما لا يطمئنان اليه ، ولا يثقان به ، فتخطاهما وصرف مساعيه الى استمالة صغار البكوات والكشاف من اتباعهما ، فانتهز فرصة الهدوء النسبي الذى ساد صفوف المماليك وجعل يوفد رسله اليهم يدعوهم الى الاخلاد للطاعة على أن يرتب لهم رواتب تقوم بأودهم فى القاهرة ، وانتهى بهذه الوسيلة الى فصم عرا المماليك واجتذاب بعضهم الى العاصمة

ولما مات شاهين بك المرادى خليفة البرديسى (مايو سنة ١٨٠٨) أراد محمد على ان يظهر سطوته وأنه ولى الأمر ، فعين سليم بك المحرجى رئيسا للمماليك المرادية، خلفا لشاهين بك ، وخلع فى الوقت نفسه على مرزوق بك ابن ابراهيم بك الكبير خلعة حاكم جرجا ، فوضع المماليك بهذا التعيين المزدوج أمام الامر الواقع ، وجمع فى الوقت نفسه بين اعلان سلطته عليهم واجتذاب ابراهيم بك بتعيين ابنه حاكما لجرجا ، ولم يعهد المماليك أن يتحكم فيهم الولاة الاتراك السابقون ويتدخلوا فى شؤونهم الى هذا الحد الذى وصل اليه محمد على ، فانهم كانوا محتفظين باستقلالهم فى اختيار زعمائهم وكان الصعيد تحت مطلق تصرفهم

اجتمع رؤساء المماليك ، وتشاوروا فيما يكون موقفهم حيال هذا التدخل، وبعد الأخذ والرد استقر رأيهم على قبول الامر الواقع

لكنهم لم يؤدوا ما على البلاد التى تحت سلطتهم من الاموال الأميرية ، نقدا أو غلة ، فتهددهم محمد على بتجريد حملة عليهم اذا لم يؤدوها ، فتوسط شاهين بك الألفى بين الفريقين ، واتفقوا على ان يؤدوا ثلث ما عليهم من غلال الحكومة ،

وقدر ذلك سبعة آلاف ومائة الف اردب (مارس سنة ١٨٠٩) ، ولكنهم لم يفوا بها ، فجرد عليهم ، فى سبتمبر سنة ١٨٠٩ ، جيشا لاخضاعهم واستخلاص الصعيد من ايديهم

على ان المماليك لم يفكروا فى مقاومته ، فانسحبوا الى الجبال القريبة من جرجا وأسيوط ، فرأى محمد على ان الفرصة سانحة ليتولى حكم الوجه القبلى ، فسار فى شهر اكتوبر من القاهرة فى جيش يبلغ ستة آلاف مقاتل ، فلم يكد يبلغ أسيوط حتى بادر المماليك الى طلب الصلح ، فاشترط عليهم محمد على أن يرحلوا عن الوجه القبلى ، و يقيموا فى القاهرة ، على ان يعطيهم بعض الجهات يستغلونها و يدفعون اموالها والضرائب التى تفرض عليها ، وهذه الشروط تدل على مبلغ ما وصل اليه المماليك من الضعف ، فان شروطهم السابقة كانت ان يتولوا حكم الصعيد على دفع الخراج ، اما الشروط الأخيرة فأساسها التخلى عن الحكم والاقامة فى القاهرة تحت حكم محمد على

تم هذا الاتفاق فى ٢٧ رمضان سنة ١٢٢٤ (نوفمبر سنة ١٨٠٩) باسيوط ، وطلب المماليك مهلة ثلاثة أشهر يقضون فيها مصالحهم ، فقبل محمد على هذه المهلة ، وعاد الى القاهرة ، ولما انقضت المدة طلبوا مدها شهرا فرضى بذلك ، ولما انتهى الأجل أنذرهم اذا لم يحضروا أن يجرد عليهم الجيش ، فأذعنوا وازمعوا الرحيل الى العاصمة .

سار ابراهيم بك وزملاؤه الى القاهرة (مايو سنة ١٨١٠) ، فلما كان قريبا من الجيزة عسكر بالبر الغربى ، و نصب خيامه على رمية المدفع من الجيزة ، وهناك ترددت الرسل بين ابراهيم بك ومحمد على باشا ، وكان الباشا مقيما وقتئذ بقصره بشبرا ، وتعددت مقابلات الرسل على غير طائل ، إذ أن ابراهيم بك كان قليل الثقة فى مقاصد محمد على باشا ، كما ان محمد على نفسه لم يكن يبغى من هذه المفاوضات الا كسب الوقت لتقليم أظافر المماليك واذلالهم ، واستياء ابراهيم بك من

المعاملة التى عومل بها ، إذ لم تضرب لحضوره المدافع كما كان ينتظر ، وتركه محمد على باشا فى الجيزة دون أن يكترث له ، فاعتزم العودة الى الصعيد، ناكثا الصلح ، وبذلك تجدد الخصام بين محمد على باشا والمماليك

وقد توصل ابراهيم بك الى اقناع شاهين بك خليفة الألفى بنقض اتفاقه هو أيضا مع محمد على ، والرحيل عن القاهرة الى حيث يتحد واخوانه ، فاستجاب له وانسلّ من الجيزة ، وتبعه فى انسحابه البكوات والكشاف المماليك الذين لبثوا بمصر سنتين راضين بحكم محمد، على ، وعاد الاتحاد الى صفوف المماليك، فاستاء محمد على من هذه الحركة ، وجرد جيشا جديدا لمحاربة خصومه .

تجدد القتال، وزحف الجيش على الصعيد ، فانتصر على المماليك فى البهنسا واللاهون ، واستولى على اقليم الفيوم ، وانسحب ابراهيم بك وعثمان بك حسن وسليم بك زعماء المماليك الى اسوان منهوكة قواهم منحلة عزائمهم ، ورجع شاهين بك الالفى يطلب العفو من محمد على باشا ، فعفا عنه وسمح له بالاقامة فى القاهرة ، واقطعه دارا جميلة ليسكن فيها بالازبكية (اكتوبر سنة ١٨١٠) ، ولعله أراد اجتذابه هذه المرة ليلقى حتفه فى مذبحة القلعة كما سيجىء بيانه ، وكذلك فعل كثير من البكوات والكشاف والمماليك ، فانهم طلبوا من محمد على الامان ، فأمنهم على انفسهم وعفا عنهم ، واذن لهم بالعودة الى القاهرة والاقامة فيها

أخضع محمد على الصعيد لحكمه ، ودانت له مصر قاصيها ودانيها ، ورجع المماليك الذين قدموا طاعتهم الى القاهرة ، وأخذوا ينصرفون الى اسباب الرفاهية والرغد ، وأغدق عليهم محمد على من خزانة الحكومة ما جعلهم يستطيبون الاقامة فى القاهرة ، ويؤثرونها على عيشة الكفاح والقتال ، وانصرفوا الى ترتيب عيشتهم الجديدة ، وتجميل بيوتهم وتأثيثها بفاخر الرياش والاثاث ، وشرع معظمهم فى التزوج واعداد معدات الافراح والمسرات، وخيل اليهم انهم استراحوا من شظف العيش ،

واهوال الكرّ والفرّ ، وأنهم مقبلون على حياة الهناء والرفاء والبنين ، ولم يدروا ما خبأ لهم القدر من خاتمة رهيبة

ذلك ان محمد على باشا أوجس خيفة من بقاء المماليك فى القاهرة ، وخاصة لما اعتزم تجريد الحملة على الحجاز لمحاربة الوهابيين تلبية لاوامر الاستانة ، وخشى اذا غادر الجيش مصر وضعفت قوته الحربية ان يعودوا لمناوأته وانتزاع السلطة من يده ، فرأى ان لا وسيلة للاحتفاظ بسلطانه وانفراده بالحكم سوى التخلص من البقية الباقية من المماليك ، ومن هنا نبتت فى رأسه فكرة اغتيالهم فى المؤامرة المعروفة بمذبحة القلعة

مذبحة القلعة

أول مارس سنة ١٨١١

اذا ذهبتَ يوما الى قلعة صلاح الدين لتتعرف ما تشتمل عليه من المواقع والمبانى والآثار، فقفْ قليلا تحت منارة جامع السلطان حسن، واتجه بنظرك الى القلعة ، تجدها ماثلة أمامك، بموقعها المنيع ، وأسوارها العالية ، وابراجها الشاهقة، وأبوابها الضخمة ، وأول ما يلفت نظرك قباب جامع محمد على ومآذنه الهيفاء البديعة الصنع التى تداعب السحاب فى علوها ، فاذا رجعت الطرف فى هذا المنظر فدعه جانبا، لانه لم يكن موجودا بتمامه فى العصر الذى نكتب عنه ، إذ لم يكن محمد على باشا قد بنى جامعه الى هذه السنة (عام ١٨١١) ، وانظر امامك تجدْ بابا ضخما غائرا فى الجبل ، تعلوه أبراج قديمة ، هذا الباب هو المسمى (باب العزب) وهو باب القلعة من الجهة الغربية، ويقع على الميدان المسمى الآن ميدان (صلاح الدين) وكان يسمى فى ذلك العهد ميدان الرميلة ، فاذا دخلت هذا الباب تجد طريقا وعرا متعرجا ، منحوتا فى الصخر ، تسير فيه صعدا بالجهد والعناء الى رحبة القلعة ، وتصل من هذه الى جامع محمد على ، ثم الى قصره

فاذا تعرّفت تلك المواقع، وثبتت صورتها فى ذهنك، فاسمع ما جرى فيها يوم أول مارس سنة ١٨١١

لما عاد محمد على باشا من الوجه القبلى أخذ يجهز جيشا ينفذه الى الحجاز لمحاربة الوهابيين ، تلبية لنداء الحكومة التركية ، وجعل يهيئ معدات الحملة فى أوائل سنة ١٨١١، وعقد لواء قيادتها لابنه احمد طوسون باشا ، وأعد مهرجانا فخما بالقلعة، حدد له يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١ للاحتفال بالباس ابنه خلعة القيادة ، ودعا رجال الدولة واعيانها وكبار الموظفين العسكريين والملكيين لشهود ذلك الاحتفال الفخم ، وكان الترتيب أن يلبس طوسون باشا خلعة القيادة ، ثم ينزل من القلعة فى ابهته وموكبه مخترقا أهم شوارع المدينة ليصل الى معسكر الحملة فى القبة (١)

وكان مثل هذا الاحتفال من المواكب المشهودة التى تحتشد لها الجماهير ، وقد دعا الباشا جميع الامراء والبكوات والكشاف المماليك واتباعهم لحضور الحفلة، فعدّ المماليك هذه الدعوة علامة الرضا من محمد على باشا ، وركبوا جميعا فى زينتهم وكبكبتهم ، وارتدوا أجمل وأثمن ما عندهم من الملابس ، وامتطوا خير ما لديهم من الجياد ، وذهبوا صبيحة ذلك اليوم الى القلعة قبيل الموعد المضروب لركوب طوسون باشا

وقبل ابتداء الحفلة دخل البكوات المماليك على محمد على باشا فى قاعة الاستقبال الكبرى ، فتلقاهم بالبشر والحفاوة ، وقدمت لهم القهوة ، وشكرهم الباشا على اجابتهم دعوته ، وألمع الى ما ينال ابنه من التكريم اذا ماساروا معه فى موكبه ، فاجابوه بالشكر ، واعتذروا عن تخلف بقية اخوانهم الذين مازالو فى الصعيد ولم يحضروا للاشتراك فى الاحتفال ، فقابل الباشا الاعتذار بالتجاوز والاعراب عن تسامحه وحسن مقاصده للمتخلفين ، وتجاذب هو وضيوفه أطراف الحديث هنيهةً ، ثم ما لبث أن اذن مؤذن الرحيل ، فقرعت الطبول وصدحت الموسيقى ، فكان ذلك إعلانا بالتأهب لتحرك الموكب

(١) الضاحية المعروفة شمالى العاصمة ، وتسمى قبة العزب

وعندئذ نهض المماليك وقوفا ، و بادلوا الباشا و بادلهم عبارات التحية والاحترام ، وساروا الى حيث يأخذون مكانهم فى الموكب الفخم ، ولما تقلد الامير طوسون باشا اللواء بدأ الركب يسير منحدرا من القلعة

تحرك الركب ، تتقدمه طليعة من الفرسان الدلاة يقودها ضابط يدعى أوزون على ، يتبعها والى الشرطة ، والأغا (محافظ المدينة) والمحتسب ، ويليهم الوجاقلية ، ثم كوكبة من الجنود الارناءود يقودهم صالح اقڤوش ، ثم المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب ، ومن بعدهم بقية الجنود الارناءود فرسانا ومشاة ، وعلى أثرهم كبار المدعوين من ارباب المناصب

سار الموكب على هذا النظام ، منحدرا الى باب العزب المتقدم ذكره ، منسربا فى ذلك الطريق الضيق الوعر الذى وصفناه آنفا

فاجتازت الباب طليعة الموكب ، ثم رئيس الشرطة ، ثم المحافظ ومن معه ، ثم الوجاقلية ، ولم يكد هؤلاء يجتازون باب العزب حتى ارتج الباب وأقفل من الخارج على حين فجأة إقفالا محكما فى وجه المماليك ، ومن ورائهم الجنود الارناءود ، فلما رأى هؤلاء الجنود الباب قد أقفل ، وكانوا عالمين بما تدل عليه هذه الاشارة ، تحولوا عن الطريق فى صمت وسكون ، وتسلقوا الصخور التى تكتنفه وتعلوه يمينا وشمالا ، وأخذوا مكانهم على الصخور والاسوار والحيطان المشرفة عليه ، ولم يتنبه المماليك بادىء الأمر الى أن الباب قد اقفل ، واستمروا يتقدمون متجهين اليه ، ولكن لم تكد تبلغه صفوفهم الأولى حتى رأوه مقفلا فى وجوههم اقفالا محكما ، وأبصروا الارناءود يتسلقون الصخور المشرفة عليهم ، فتوقفوا قليلا عن المسير ، وتضامت صفوفهم المتلاحقة بعضها اثر بعض ، ولم تمض هنيهة حتى دوى طلق الرصاص من نوافذ احدى الثكنات ، فكان هذا نذيرا بانفاذ المؤامرة ، ذلك انه لم تكد تلك الطلقات تدوى فى الفضاء حتى انهال الرصاص دفعة واحدة على المماليك وهم محصورون فى هذا الطريق الغائر فى الارض ، فالباب الضخم مقفل فى وجوههم ، والجنود الارناءود من ورائهم ومن فوقهم ، وعن يمينهم ، وشمالهم ، يتناولونهم برصاص بنادقهم

لم يستطع المماليك دفاعا عن أنفسهم، ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة على الحركة، أو الرجوع القهقرى، أو النزول عن جيادهم، لضيق المكان الذى حصروا فيه، ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص، ولم يكونوا يحملون سوى سيوفهم، وهيهات أن تعمل السيوف فى ذلك الموقف شيئا، فانصب عليهم الرصاص، وحصدهم حصدا، وجاءهم الموت من كل مكان

ولما سقطت الصفوف المكشوفة من المماليك تختبط بدمائها، أمكن الباقين أن يترجلوا عن جيادهم، وأرادوا النجاة بأنفسهم من تلك الحفرة المهلكة التى كانوا مكدسين فيها، فتسلق بعضهم الصخور المحيطة بالطريق بعد أن خلعوا ما كان عليهم من الفراوى والملابس الثمينة والثياب الفضفاضة ليسهل عليهم الفرار، ولكن الرصاص كان يتلقفهم أينما صعدوا، فلا تلبث أن تتساقط جثثهم فى جوف الطريق، ومن هؤلاء شاهين بك الالفى الذى تمكن فى عدة من مماليكه ان يتسلق الحائط وصعد الى رحبة القلعة وانتهى الى عتبة قصر صلاح الدين، فعاجله الجنود الارناءود برصاصة أردته صريعا، واستطاع سليمان بك البواب أن يجتاز الطريق وجسمه يقطر دما، ووصل الى سراى الحرم، واستغاث بالنساء صائحا (فى عرض الحرم)، وكانت هذه الكلمة تكفى فى ذلك العهد لتجعل من يقولها فى مأمن من الهلاك، ولكن الجنود عاجلوه بالضرب حتى قطعوا رأسه، وطرحت جثته بعيدا عن باب السراى، وتمكن بعض المماليك من الوصول الى حيث كان طوسون باشا راكبا جواده منتظرا أن تنتهى تلك المأساة، فترامو على أقدامه طالبين الأمان، ولكنه وقف جامداً لا يبدى حراكا، وعاجلهم الجنود بالقتل، وتكدست جثث القتلى بعضها فوق بعض فى ذلك المضيق وعلى جوانبه حتى بلغ ارتفاع الجثث فى بعض الامكنة الى أمتار، واستمر القتل الى أن أفنى كل من دخلوا القلعة من المماليك، ومن لم يدركه الرصاص ممن وقع تحت جثث الآخرين أو فر فى نواحى القلعة أو تخلف عن الموكب، ساقه الارناءود حيا الى الكتخدا بك فاجهزوا عليه ضرباً بالسيوف»

واستمر القتل من ضحوة النهار الى هزيع من الليل حتى امتلأ فناء القلعة بالجثث

وهكذا دخل القلعة فى صبيحة ذلك اليوم اربعمائة وسبعون من المماليك واتباعهم قتلوا جميعا ، ولم ينج منهم إلا واحد يسمى (امين بك) ، فانه كان فى مؤخرة الصفوف، فلما رأى الرصاص ينهال على زملائه طلب النجاة فصعد بجواده الى المكان المشرف على الطريق و بلغ سور القلعة ، و رأى الموت محيطا به ، فلم يجد منجى إلا أن يرمى بنفسه من اعلى السور الى خارج القلعة ، وكان الخطر المحقق فى تلك المحاولة ، إذ يعلو السور عن الارض ستين قدما ، ولكنه خاطر بنفسه مؤثرا الموت على القتل ، فلكز جواده فقفز به مترديا ، ولما صار على مقربة من الارض قفز هو مترجلا ، وترك الجواد يتلقى الصدمة ، فتهشم الجواد لفوره ، ونجا أمين بك من الموت ، ومضى يعدو فى طريق الصحراء ، ومازال يطوى الفدافد متنكرا حتى بلغ الى جنوب سورية(١)

أحكم محمد على باشا تدبير المؤامرة ، فلم يقف على سرها الا أربعة من خاصة رجاله ، وهم حسن باشا قائد الجنود الارناءود ، والكتخدا بك محمد لاظ اوغلى ، وصالح قوش أحد ضباط الجند ، وابراهيم اغا حارس الباب ، وصالح قوش كان بك كان يقود كوكبة الجنود الارناءود فى الموكب ، وهو الذى أمر باقفال باب العزب وأعطى اشارة القتل الى رجاله

وبينما كان صالح قوش يتأهب لتنفيذ المؤامرة كان محمد على باشا جالسا فى قاعة الاستقبال ، ومعه امناؤه الثلاثة ، وقد ظل فى مكانه هادئا الى أن بدأ الموكب يتحرك ، واقتربت اللحظة الرهيبة ، فساوره القلق والاضطراب ، وساد القاعة صمت عميق ، الى أن سمع اطلاق اول رصاصة ، وكانت ايذانا ببدء المذبحة ، فوقف

---

(١) ذكر المسيو فولابل فى كتابه (مصر الحديثة) ان هذا المملوك بقى على قيد الحياة حتى ظهور كتابه سنة ١٨٣٢ وأنه لجأ الى الاستانة حيث دخل فى خدمة السلطان

محمد على وامتقع لونه ، وعلا وجهه الاصفرار ، وتنازعته الانفعالات المختلفة ، وأخذ يسمع دوى الرصاص وصيحات الذعر والاستغاثة وهو صامت لاينبس بكلمة ، الى أن حصد الموت معظم المماليك ، وأخذ صوت الرصاص يتضاءل ، وكان ذلك إعلانا بانتهاء المؤامرة ، وعندئذ دخل عليه المسيو ماندريشى طبيبه الايطالى وقال له « لقد قضى الأمر واليوم يوم سعيد لسموكم » ، فلم يجب محمد على بشىء ، وطلب قدحا من الماء فشرب به جرعة طويلة ، وخرج الكتخدا بك وأخذ يجهز على الباقين من المماليك

لم يكن أحد من سكان القاهرة يتنبأ قبل أن تقع المذبحة بما خبأه القدر بين أسوار القلعة ، فكانت الجماهير يعلوها الابتهاج محتشدة فى الشوارع المعدة لسير الموكب تنتظر مروره ، ولقد مرت طليعة الموكب بين جموع المتفرجين ، وأخذ الناس يترقبون بلهف مرور الصفوف التى تليها ، ثم انقطع تلاحق الصفوف ، فعجب الناس وطفقوا يتساءلون عن السبب ، وذهبت افكارهم فى تفسير ذلك مذاهب شتى ، وفيما هم ينتظرون قدوم الصفوف المتأخرة سمع المحتشدون فى ميدان الرميلة الذى بأسفل القلعة صوت الرصاص يدوى فى الفضاء بعد أن اقفل باب العزب ، فسرى الذعر الى الناس إذ وصل خبر المذبحة الى الجماهير القريبة من القلعة ، وصاح صائح « قتل شاهين بك » وسرعان ماذاع الخبر بسرعة البرق الى مختلف الانحاء ، فتفرقت الجماهير وأقفلت الدكاكين والاسواق ، وهرع الناس الى منازلهم ، وخلت الشوارع والطرقات من المارة ، وأعقب هذا الذعر نزول جماعات من جنود الأرناءود الى المدينة يقصدون بيوت المماليك فى انحاء القاهرة ، فاقتحموها وأخذوا يفتكون بكل من يلقونه فيها من اتباعهم ، وينهبون ماتصل اليه أيديهم ، ويغتصبون من النساء ما يحملن من الجواهر والحلى والنقود ، واقترفوا فى ذلك اليوم واليوم الذى تلاه من الفظائع ما تقشعر منه الابدان ، ولم يكتفوا بالفتك بمن يلقونه من المماليك ونهب بيوتهم واغتصاب نسائهم بل تجاوزوا بالقتل والنهب الى البيوت المجاورة ، وبلغ عدد المنازل التى نهبوها خمسمائة منزل ، وأصبح اليوم التالى (السبت) والسلب والنهب والقتل مستمر فى المدينة ،

واضطر محمد على باشا الى النزول من القلعة فى ضحوة ذلك اليوم ونزوله رؤساء جنده وحاشيته لوضع حد للنهب والاعتداء ، فمر بالاحياء المهمة التى كانت هدفا لعدوان الارناءود ، أمر بقطع رءوس من استمروا فى النهب والاعتداء ، وكذلك فعل طوسون باشا .

قال الجبرتى « ولولا نزول الباشا وابنه فى صبح ذلك اليوم لنهب العسكر بقية المدينة وحصل منهم غاية الضرر »

ونبه على الارناءود بأن يقتصروا على القبض على المماليك الذين بقوا أحياء لتخلفهم عن الذهاب الى القلعة فى اليوم المشهود وارسالهم الى القلعة ، فكان الكتخدا بك يأمر بقطع رءوسهم ، ولم ينج منهم الا من هرب من المدينة مختفيا وهاجر الى الوجه القبلى ، وكذلك أصدر محمد على أمره الى كشاف المديريات باعتقال كل من يلقونه من المماليك وقتلهم

بلغ عدد من قتلوا من المماليك فى القلعة وفى انحاء القاهرة والمديريات فى تلك الايام الرهيبة نحو ١٠٠٠ من أمراء وكشاف وأجناد ومماليك

وقد ذكر الجبرتى أسماء من لهم شهرة ممن قتلوا بالقلعة وبلغه خبرهم، وهم شاهين بك كبير المماليك الألفية ، ويحيى بك ، و نعمان بك ، وحسين بك الصغير ، ومصطفى بك الصغير ، ومراد بك ، وعلى بك ، وهؤلاء من الأمراء الألفية ، ومن غيرهم أحمد بك الكيلارجى ، ويوسف بك أبو دياب ، وحسن بك صالح ، ومرزوق بك ابن ابراهيم بك الكبير ، وسليمان بك البواب ، وتابعه احمد بك ، ورشوان بك ، وابراهيم بك ، وقاسم بك تابع مراد بك الكبير ، وسليم بك الدمرجى ، ورستم بك الشرقاوى ، ومصطفى بك أيوب ، ومصطفى بك تابع عثمان بك حسن ، وعثمان بك ابراهيم ، وذو الفقار تابع جوهر ، ومن الكشاف (الحكام) على كاشف الخازندار ، وعثمان كاشف الحبشى ، ويحيى كاشف ، ومرزوق كاشف ، وعبد العزيز كاشف ، ورشوان كاشف ، وسليم كاشف ، وفايد كاشف ، وجعفر كاشف ، وعثمان كاشف ، ومحمد كاشف ، واحمد كاشف الفلاح ، واحمد كاشف صهر محمد اغا ،

وجليل كاشف ، وعلى كاشف قيطاس ، واحمد كاشف ، وموسى كاشف .

نفذ القضاء فى ذلك اليوم على فئة المماليك ، ولم يبق منهم الا عدد ضئيل ممن بقوا مع ابراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن اللذين لم يطمئنا من قبل لمصالحة محمد على باشا وبقيا فى الصعيد ومعهما ذلك الرهط من المماليك ، فلما بلغهم نبأ مذبحة القلعة مضوا جنوبا الى ما وراء اسوان وأوغلوا فى اقليم النوبة ودنقلة ، ونجا أيضا من القتل عدا هؤلاء نحو ستين مملوكا فروا الى سورية

الرأى فى مذبحة القلعة

تلك هى الواقعة الشهيرة بمذبحة القلعة ، ونحن هنا لا نريد ان ندافع عن المماليك ، فانا عددنا عليهم من المساوئ التى ارتكبوها والمضار التى جلبوها على البلاد ما يغنى عن البيان ، ولكن مهما بلغت سيئاتهم فان القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الانسانية ، ولو أن محمد على باشا استمر فى محاربتهم وجها لوجه حتى تخلص منهم فى ميادين القتال لكان ذلك خيرا له ولسمعته ، ولا يسوغ فعلته أن هذه الوسيلة كانت مألوفة فى ذلك العصر ، وأن هذه المؤامرة هى صورة مكبرة لما أمر به الباب العالى سنة ١٨٠٤ من الفتك بالمماليك ، إذ عهد الى الصدر الاعظم والى حسين قبطان باشا أن يقضى عليهم بهذه الطريقة نفسها (١) ، فان تكرار السيئات لا يبررها ، وبالجملة فمذبحة القلعة كانت نقطة سيئة فى تاريخ محمد على باشا

وقد حاول بعض المؤرخين تبريرها بقولهم انه اضطر اليها دفاعا عن نفسه وأن المماليك كانوا يأتمرون به حين ذهب الى السويس يتعهد شؤون العمارة المعدة

---

(١) انظر الجزء الثانى ص ٣١٥ وما بعدها

لنقل الحملة الوهابية ، ونمى اليه انهم ينوون الفتك به عند عودته الى القاهرة (فبراير سنة ١٨١١) فخرج من السويس ليلا على غير ميعاد وأسرع فى السير حتى دخل القاهرة ، ولما تحقق انه لا يأمن فتك المماليك به وخاصة اذا انفذ الحملة على الحجاز وخلت البلاد من الجنود اعتزم قطع دابرهم ، وهذه الرواية لم نجد لها سندا قويا ، ولا نعتقد ان هذا الحادث هو الذى أوحى الى محمد على تدبير مذبحة القلعة ، بل اغلب الظن انها كانت نتيجة تفكير عميق وتدبير واسع المدى سابق على ذلك الحادث وكان قبله بمدة

ولم تلق مذبحة المماليك تبريرا قويا حتى من أصدقاء محمد على المدافعين عنه وعن حكمه ، فانظر مثلا الى ما كتبه المسيو مانجان وهو صديق للباشا تراه يقول

« انى أبعد ما اكون عن تبرير الفتك بالمماليك ، على انى أعده من بعض النواحى خيرا لمصر ، فان بقاءهم يفضى الى حرب هى أضر على البلاد من الايقاع بهم ، كما ان ارادة الباب العالى كانت تؤدى الى استمرار تلك الحرب ، فالضربة الجريئة التى ضربها محمد على تنفيذا لاوامر الباب العالى السرية قد قضت على نظام كانت تركيا تعمل على التخلص منه تدريجا ، ومن هذه الناحية يمكن تبرير عمل الباشا ، ومن جهة أخرى فان الدفاع عن سلامته كان يقضى ان يلجأ الى طرق حازمة ، فقد كان محاطا بجنود فطروا على الشغب والفوضى ، وكان مضطرا الى انفاذ جزء كبير من قواته الى جزيرة العرب ، فكان عليه أن يفكر فى اضعاف خصومه الذين يزدادون فى هذه الحالة قوة ونفوذا ، فقد بلغه على ماقيل انهم كانوا يأتمرون به ليختطفوه عند عودته من السويس ، ولما علم ان السياح من الأفرنج يلومونه فى رحلاتهم وكتبهم على اغتيال المماليك ويعدونه عملا منافيا للانسانية صرح بأنه يبغى ان يرسم صورة يضع فيها مذبحة المماليك بجانب حادثة اغتيال الدوق دانجان (١) D. Engein ليحكم الناس على الحادثتين »

---

(١) الذى اتهمه نابليون ظلما بالتآمر عليه وأمر بقتله فى محاكمة صورية

ويقول المسيو جومار وهو الذى جعله محمد على باشا مديرا لاول بعثة مدرسية مصرية فى فرنسا .

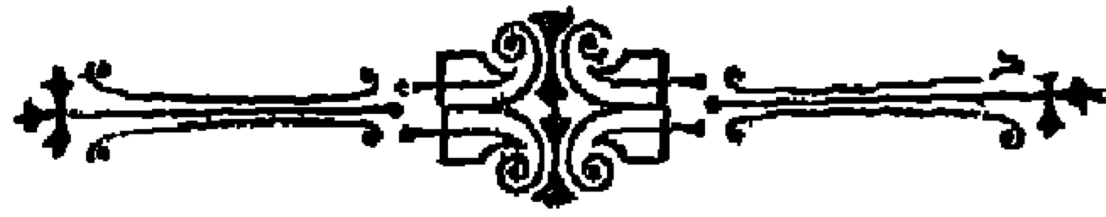
« لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد على هدفا لاحكام التاريخ القاسية »

هذا ، واذا نظرنا الى هذه الحادثة من الوجهة القومية البحتة وجدنا ان البقية الباقية من المماليك كان قد ضعف شأنهم وتقلمت اظفارهم حتى لم يبق من وجودهم خطر على نفوذ محمد على وسلطانه ، فماذا كان يستطيع ابراهيم بك وعثمان بك حسن وغيرهما ان يفعلوه وليس معهم سوى ذلك العدد الضئيل من المماليك الذين كانوا يحيطون بهم ؟

وماذا كان يستطيع أن يفعله شاهين بك وسليمان بك البواب ومرزوق بك وغيرهم وقد تركوا اخوانهم فى الصعيد وجاءوا القاهرة مستأمنين خاضعين وغادروا حياة الكر والفر لينعموا بالرفاهية ورغد العيش ؟ ما نظن مطلقا أن ثمة خطرا كان يتهدد محمد على من هذه الناحية ، وما نظنه كان فى حاجة الى التخلص من تلك البقية الباقية من المماليك بتلك الوسيلة المنطوية على الغيلة والغدر

ومن جهة أخرى فان الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة قد كان له اثر عميق فى حالة الشعب النفسية ، لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب فى قلوب الناس ، وكان من نتائجها ان استولت الرهبة على القلوب ، فلم يعد ممكنا الى زمن طويل ان تعود الشجاعة والطمأنينة الى نفوس الناس ، والشجاعة خلق عظيم تحرص عليه الامم الطامحة الى العلا ، وهى قوام الأخلاق والفضائل القومية ، فاذا فقد الشعب الشجاعة وحلت الرهبة مكانها كان ذلك نذيرا بانحلال الحياة القومية وفسادها ، فالرهبة التى استولت على النفوس بعد مذبحة القلعة كان لها أثرها فى اضعاف قوه الشعب الخلقية والمعنوية ، وتلك خسارة قومية كبرى ، فانما الامم أخلاق وفضائل ، اضف الى ذلك أن هذه الحادثة وقعت فى الوقت الذى كانت فيه النفوس قد تطلعت الى مراقبة ولاة الأمور ودبت فيها روح الحياة والديمقراطية ، وتعددت

مظاهر هذه الروح بما رأيت من اجتماعات الشعب واحتجاجاته على المظالم ، فنحسب أن مذبحة القلعة قد قضت على هذه الروح الى زمن طويل ، وأحلت فى مكانها روح الرهبة من الحكام ، ولعل هذه الروح الجديدة قد جعلت محمد على باشا أكثر اطمئنانا على انفراده بالحكم ، فلم يبدُ من الشعب فى خلال السبع والثلاثين سنة التى قضاها فى الحكم بعد تلك الحادثة روح معارضة أو محاسبة أو انتقاد ، وغنى عن البيان انه مع ما أسداه محمد على من الخير للبلاد فى خلال حكمه فانه لم يعوض على الشعب ما فقده من تلك الناحية الخلقية ، ناحية الشجاعة الادبية والروح الديمقراطية ، تلك الناحية التى هى من أركان عظمة الامم ومن دعائم حياتها القومية



الفصل الخامس

تحقيق الاستقلال القومى

حروب مصر فى عهد محمد على

نظرة عامة فى تلك الحروب من الوجهة القومية

ان حروب مصر فى عهد محمد على باشا هى التى مكنتها من تحقيق استقلالها القومى ، ولولا تلك الحروب لما تكون ذلك الاستقلال ولرجعت البلاد الى عهد الحكم التركى وبقيت زمنا لا يمكن تقديره ولاية تحكمها تركيا كما كانت تحكم سائر ولايات السلطنة العثمانية ، يتعاقب عليها الولاة كل سنة أو سنتين

فى ميدان الحروب تكونت الدولة المصرية الحديثة ، وحققت استقلالها ، وكذلك قضت سنة الله فى الامم أن لا يأتيها استقلالها رغدا ، بل تخوض اليه غمار المتاعب والضحايا والآلام ، تناله بالقوة ، وتحافظ عليه بالقوة ، واذا ماتراخت قوة الامة واعتراها الوهن والضعف ، أو تطوحت وركبت متن الشطط ، او تخاذل ابناؤها وتفرقت كلمتهم ، التوى عليها القصد ، واستهدف استقلالها للخطر ، ولا يلبث ان تعصف به اطماع الغزاة والمستعمرين ، وقضت سنة الله فى خلقه ان الدول الفتية لا تتكون ولا تنشأ الا فى ميادين القتال والنضال ، وما المعاهدات التى تعترف بوجود الدول الحديثة واستقلالها الا منظمة ومقررة لنتائج الحروب والانقلابات التى يتحقق فيها ذلك الاستقلال .

فتلك الحروب التى خاضت مصر غمارها فى عهد (محمد على) هى السبيل التى أوصلتها الى تحقيق استقلالها ، وتأليف وحدتها ، وحفظ كيانها ، وبلوغ مركزها

الدولى ، والمكانة التى نالتها بين الدول هى ثمرة تلك الحروب أولا

على هذا الاعتبار ننظر الى حروب مصر فى عهد محمد على ، فهى من الوجهة القومية سبيل الاستقلال الذى نالته فى تاريخها الحديث ، وما الوقائع ، والمعارك ، والاسماء ، والحوادث التى تخللتها إلا معالم لهذا السبيل ، لذلك وجب علينا أن نستعرض هذه الحروب ونتابع وقائعها ، ونتبين نتائجها فى تكوين مصر المستقلة

الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧

ان الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ كانت أول حرب اشتبكت فيها مصر دفاعا عن كيانها ، وكانت فاتحة سعيدة لحروب مصر فى ذلك العصر ، لانها انتهت باخفاق انجلترا فيما كانت ترمى اليه من احتلال مصر ، وقد استوفينا الكلام عن تلك الحرب فى الفصل الثانى

الحرب الوهابية

١٨١١ — ١٨١٩

ان جزيرة العرب هى أول ميدان لحروب مصر الخارجية فى عهد محمد على ، وكانت الحرب فيها من أشق الحروب التى خاضت غمارها وأطولها مدى ومن اكثرها ضحايا ومتاعب ، جردت مصر فى خلالها حملات عدة كلفتها الضحايا الكثيرة فى الارواح والأموال ، ولقى فيها الجنود الشدائد والاهوال فى قطع المراحل البعيدة المترامية بين الفيافى والقفار ، ونالتهم المتاعب والاوصاب ، من وعورة الطرق ، وشدة القيظ تضطرم به الارض والسماء ، الى قلة المؤونة وندرة المياه وفقدانها فى معظم الجهات ، الى محاربة عدو مستبسل يبذل النفس والنفيس دفاعا عن وطنه

تحملت مصر فى الحرب الوهابية خسائر جسيمة ، وان فداحة تلك الخسائر

لتدعونا أن نتساءل عن السر فى اهتمام محمد على باشا بخوض غمار تلك الحرب الضروس، و بذل ماا قتضته من الجهود والضحايا، واحتمال اعبائها سنوات عدة متوالية بلا هوادة ومن غير أن يتردد فى متابعتها أو يثنيه عنها ما أصاب الجيش فى بعض أدوارها من الهزائم والمهالك ، بل كان كلما أخفقت حملة جرد الأخرى حتى بلغ النصر والظفر .

نتساءل عن ذلك وخاصة لأن الحرب الوهابية قد تبدو غير ضرورية ولا لازمة لمصلحة مصر ، ولم يخض غمارها إلا استجابة لنداء تركيا ، فان حكومة الاستانة مافتئت فى مختلف المناسبات تدعوه الى تجريد جيوشه لمحاربة الوهابيين ، طلبت اليه ذلك فى أواخر ديسمبر سنة ١٨٠٧ قبل أن يمضى عامان على ولايته ، إذ ورد اليه فرمان بتجديد ولايته، واسناد منصب الدفتردار (مدير الشؤون المالية) الى ابنه ابراهيم ، وتكليفه فى الوقت ذاته ارسال الجنود الى الحجاز لقمع الفتنة الوهابية ، وجددت تركيا هذا الطلب بل ذلك الامر سنة ١٨٠٨ ثم ١٨٠٩ ، وكان محمد على فى كل مرة يتعلل باشتغاله بمحاربة المماليك ، فلما انتهى من حملته عليهم بالوجه القبلى وعاد الى القاهرة فى سبتمبر سنة ١٨١٠ الفى رسولا من الاستانة يحمل اليه رسالة جديدة تقضى بتكليفه الاسراع فى تجريد الجيش لمحاربة الوهابيين ، فلم يستطع وقد فرغ من محاربة المماليك أن يتمحل الاعذار القديمة فى التأجيل والتسويف ، وبادر الى الاستجابة ، وأبدى اهتماما كبيرا بتهيئة معدات الحرب فى الحجاز ، ومن يومئذ اعتزم السير بالحملة حتى تصل الى غايتها وهى القضاء على الدولة الوهابية فى شبه جزيرة العرب ، فما هى اذن مصلحة مصر ومصلحة محمد على باشا فى الاقدام على تلك الحملة الشاقة ؟

ان محمد على لم يكن ليغفل عما بينه وبين تركيا من سوء الظن المتبادل، ولم يغرب عن ذهنه ان حكومة الاستانة سعت غير مرة لتقتلعه من عرش مصر ، وان القوة هى التى ردت يدها وحالت دون تحقيق مرادها، ولكنه لبى أخيرا نداءها فى الحملة على

الحجاز لانه راى فى خوضه غمار الحرب الوهابية تمكينا لسلطته ورفعا لشأنه وشأن مصر واعلاء لمكانتها

ذلك أنه لما استفحلت الدعوة الوهابية انفذت تركيا لاخمادها حملات عدة رجعت بالخيبة والفشل ، وتعطلت شعائر الحج، وامتنع ورود عشرات الآلاف من الحجاج من انحاء الشرق ، فتزلزلت هيبة تركيا وأثرت هذه الحالة فيها تأثيرا كبيرا ، ووقع الشك فى مقدرة السلطان العثمانى على الاضطلاع بمهمة «حامى الحرمين الشريفين» تلك التى كانت تجعل لتركيا المقام الممتاز بين الممالك الاسلامية

فرأى محمد على انه اذا نجح حيث اخفقت تركيا واستطاع بقوة جيشه ان يقضى على دولة الوهابيين ويستخلص منهم الاراضى المقدسة، فلا جرم أن يتوطد مركزه وتسمو مكانته حيال تركيا ، فلا تعود تفكر فى عزله او تغييره ، ولا تستطيع ان تعامله معاملة سائر الولاة الذين كانت تتصرف فيهم بالعزل والنقل ، بل يدعوها تطور الحوادث الى ان تعامله معاملة الند للند، أو الحليف للحليف، ويتدرج مركزه من وال تابع الى حاكم مستقل ، اضف الى ذلك انه اذا لم يلب دعوة السلطان ويتأهب لمحاربة الوهابيين فان ذلك يكون مبررا لعزله ، ولم يكن مركزه بعد قد استقر حتى لا يحسب حسابا لاوامر الاستانة ، بل كان عليه ان يتقى شرها حتى ترسخ دعائم ملكه

فالحرب الوهابية كانت اذن وسيلة لتوطيد مركز محمد على ، كما انها سبيل لرفع شأن مصر، واعلاء مكانتها، وتمهيد لتتبوأ المركز الذى نالته من بعد بين الدول

وأغلب الظن أن فكرة الانفصال عن تركيا وتحقيق استقلال مصر قد بدأت تملك عليه مشاعره من ذلك العهد ، وأنه أخذ يعمل لها من طريق الفتح والحرب ، وليس ثمة حرب تعلى مكانة مصر وتنيلها مركزا ممتازا وتكسبها عطف الشرق والعالم الاسلامى مثل الحرب الحجازية ، فقد كان الغرض منها انقاذ الحرمين الشريفين من تحكم فرقة الوهابية ، وتجديد ما بين الامم الاسلامية من الصلات

الادبية والاقتصادية ، واعادة مناسك الحج وتأمين السبيل للحجاج الذين يأتون كل عام من مشارق الارض ومغاربها

واذا رجعت الى الماضي ، وتذكرت ما فعله على بك الكبير رئيس المماليك عند ما تولى حكم مصر سنة ١٧٦٣ (١) نجد انه عند ما سعى الى الاستقلال والتخلص من الحكم العثماني وأعلن انفصاله عن تركيا وعزل الوالى التركى كان أول ما وجه اليه عزمه أن جرد جيوشه على جزيرة العرب وفتح معظمها و بسط نفوذه على الحجاز ، فاستحق اللقب الذى اسبغه عليه شريف مكة وهو « سلطان مصر وخاقان البحرين »

فمحمد على قد خاض غمار الحرب الوهابية لا لمصلحة تركيا ، بل تثبيتا لمركزه ، واعلاء لشأن مصر ، وقد حققت الأيام صدق نظره ، إذ عظمت منزلته حيال تركيا خلال الحرب الوهابية و بعد انتهائها ، وعلت مكانة مصر الحربية والسياسية ، وامتدت سلطتها الى جزيرة العرب ، وانبسطت رقعتها واتسعت حدودها ، فان الجيوش المصرية التى جردها محمد على لحرب الوهابية لم تنسحب منها بعد كسر الوهابيين ، بل ظلت تحتلها وأخذت الحكومة المصرية تبسط سلطانها فى أصقاع الجزيرة ، وتنصب لها الحكام وقواد الجند ، كما أن تركيا كافأت محمد على باسناد مشيخة الحرم المكى وولاية جدة الى ابنه ابراهيم فاتسع فعلا نطاق مصر ، وضمت اليها بلاد الحجاز ونجد والعسير وجزء من اليمن ثم وصلت سيادتها الى شاطىء الخليج الفارسى ، اى ان نفوذ مصر قد امتد الى معظم جزيرة العرب ، وظل كذلك الى ان اضطربت الاحوال السياسية سنة ١٨٤٠ واضطرت مصر الى سحب جنودها كما سيجىء بيانه

وكان لمحمد على أغراض أخرى محلية أدركها من الحملة الوهابية ، أهمها التخلص من طوائف الجنود الارناءود والدلاة لذين الفوا التمرد والشغب ، فقد

«١» انظر الجزء الاول ص ٢١

رأيت كيف ازداد طغيانهم وتمردهم حتى صار واخطرا على الأمن وعقبة دون استقرار سلطة الحكومة (١) ، فكانت الحملة الوهابية خير فرصة انتهزها محمد على ليقذف بتلك الطوائف المتمردة الى الاصقاع النائية من جزيرة العرب لعله فى غيبتهم يستطيع أن يدخل النظام الجديد فى الجيش المصرى ، وقد سعى الى ذلك فعلا خلال الحملة الوهابية وان كانت ظروف الاحوال لم تمكنه من إنفاذ مشروعه فارجأه الى سنة ١٨٢٠ كما سنذكره فى حينه

وكذلك كانت الحملة ذريعة لاطلاق يد الحكومة فى فرض ما تشاء من الضرائب والاتاوات من غير أن يجد الشعب مسوغا للاعتراض عليها ، فان حجة محمد على باشا فيما فرضه اثناء الحملة الوهابية من مختلف الضرائب والاتاوات الفادحة ان الحكومة فى حاجة الى المال لانفاقه على حرب مقدسة ترمى الى استرداد الحرمين الشريفين وتأمين سبيل الحج ، فهى من هذه الناحية جهاد مفروض وكذلك الانفاق عليها

تلك هى البواعث التى جعلت محمد على يقدم على تلك الحرب الشاقة ، والآن فلننقل كلمة عن الوهابية ونشأتها ، ثم نتكلم بعد ذلك عن الحملة ووقائعها

الدعوة الوهابية

ظهرت الدعوة الوهابية فى جزيرة العرب حوالى منتصف القرن الثامن عشر على يد زعيمها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولذلك نسبت اليه وسمى اتباعه وانصاره الوهابيين

ولد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١١٥ ﻫ (١٧٠٣ م) فى (العُيَيْنَة) من بلاد نجد ، ونشأ بها وقرأ القرآن وحفظه ، وتلقى العلم عن أبيه الذى تولى القضاء فى بعض

---

(١) انظر ص ٦٨

بلدان العارض (١) ، وحج الى بيت الله الحرام وهو بعد فى سن الشباب ، ثم قصد الى المدينة المنورة واقام بها نحو شهرين ، ثم عاد الى بلده واشتغل بدراسة الفقه على مذهب الامام احمد بن حنبل ، وكان حادّ الفهم ، شديد الذكاء، سريع الادراك والحفظ، قوى الرغبة فى العلم،رحل فى طلب العلم فقصد الىالبصرة والحجاز مراراً، وجاء (الحسا) وكانت آهلة بالمشايخ والعلماء ، وطالت اقامته بالبصرة يتلقى فيها العلم و يقرأ كثيرامن كتبالحديث والفقه واللغة ، فاتسع فى كل ذلك ، ثم عاد الى ارضه وموطنه

كان محمد بن عبد الوهاب حنبلى المذهب ، يميل الى الشدة فى التعاليم الدينية ، ولا يأخذ بالرُّخَص ، فاستنكر كثيرا من البدع الفاشية بين المسلمين ورأى فيها شركا بالله ، فدعا الى التوحيد وصنف فيه كتابا ، وحدثته نفسه أن ينقى الدين ويخلصه مما دخله من البدع ، فدعا قومه الى نبذها وطرح كل مالم يرد فى القرآن والسنة من الاحكام والتعاليم ، والرجوع بالدين الى فطرته و بساطته الاولى ، وقد أخذ دعوته من طريقة الامام ابن تيمية ، فالمذهب الوهابى هو فى أصوله المذهب الحنبلى ، والفكرة التى دعا اليها محمد بن عبد الوهاب فى أصلها وجوهرها فكرة صالحة ، لكنه غلا فيها وتشدد ، حتى صار أساسها تكفير كل من لم يأخذ أخذه ولا يتبع تعاليمه ، واعتباره مشركا بالله ، ومن هنا جاءت تسمية الوهابيين للمخالفين لهم « مشركين » ، ومثل هذه الدعوة قد تصادف نجاحا وتجد لها الاتباع فى بلاد فطر أهلها على الخشونة والبداوة ، ولكنها تتعارض ومقتضيات الحضارة والعمران

فمن تعاليم الوهابية تحريم لبس الحرير وشرب الدخان والتنباك، وكذلك تحريم اقامة المزارات ونصب القباب على القبور واعتبارها مخالفة لاحكام الدين ثم الدعوة الى هدمها ، وغير ذلك من التعاليم المنطوية على التشدد والغلو ، على أن

---

(١) من أقاليم نجد

هذا الغلو لم يسيء الى الدعوة الوهابية بمقدار ما أساء اليها اسراف أنصارها فى القسوة وارتـكابهم الفظائع مع مخالفيهم فى المذهب والعقيدة

دعا محمد بن عبد الوهاب قومه الى الاخذ بتعاليمه ، فنالت دعوته نجاحا بين أهل نجد ، وأخذ يكسب الاعوان والانصار خلال عدة من السنوات دون أن تأبه له الحكومة العثمانية ، ولـكن حدث يوما أن قدمت اليه امرأة متهمة بالزنى، وثبتت عليها التهمة ،فأمر برجمها فقتلت على الفور ، ولم تـكن هذه العقوبة مما تسيغه النفوس، فأحدثت استياء شديدا وانتهى نبؤها الى حاكم الحساء التى تمتد سلطته الى العيينة، فارسل يتهدد الشيخ بالقتل اذا لم يرجع عن طريقته ، ولما علم بذلك أنصاره اقبلوا يعرضون عليه أن ينزل بينهم ويكون فى حماهم ، فرحل الى مدينة (الدّرعية) إذ كان أميرها (محمد بن سعود) ، فاعجب الأمير بدعوته واعتنقها ، وآوى اليه محمد ابن عبد الوهاب

كانت (الدرعية) من اكبر بلاد نجد ، فرأى فيها محمد بن عبد الوهاب خير مثابة لنشر دعوته ، وأخذت من ثم تستفيض بين القبائل

وأعلن الامير محمد بن سعود مناصرته للتعاليم الوهابية ، وتعاهد والزعيم على التعاون فى نشر الدعوة على أن يؤيد سيادة الامير بين العرب (سنة **١١٥٧** هـ **١٧٤٤** م)،ومن يومئذ اتخذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب(الدرعية)مقرا له وأخذ يبث منها دعوته وكان يأتى اليه فيها اتباعه ومناصروه يتلقون عنه،وأخذ هو كذلك يوفد الرسل الى البلاد لنشر الدعوة الى التوحيد ، وأيد الأمير محمد بن سعود هذه الدعوة بحد السيف ، فدعا القبائل والبلاد المجاورة الى الأخذ بها او يقاتلهم ، فلم تمض عدة من السنوات حتى عمت الدعوة معظم بلاد نجد ، وحارب الامير قبائل عدة كانت تناوىء الوهابية الى أن توفى سنة **١٧٦٥**

خلفه فى تلك السنة ابنه الأمير (عبد العزيز بن سعود) ، وكان من أشد أنصار الدعوة ، فأصابت فى عهده نموا وانتشارا ، وامتد نفوذه السياسى الى معظم

بلاد نجد وتجاوزها الى بعض انحاء الحجاز واطراف العراق ، وتوفى محمد بن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦ هـ (١٧٩٢ م) بعد أن قويت دعوته واستفاضت بين القبائل

وقد حاول شريف مكة (الشريف غالب بن مساعد) أن يصد دعوة الوهابيين ونفوذهم بقوة السيف والقتال ، و زحف رجاله على نجد لـكنه انهزم أمام قوات عبد العزيز وعاد الى الحجاز

وظلت الدعوة بعد وفاة زعيمها ومؤسسها تنمو وتطرد بفضل تأييد عبد العزيز لها ، وتنكيله بالقبائل التى لا تدين بها ، فامتد نفوذ الوهابيين الى ولاية البصرة ، وزحفوا على (كربلاء) مثابة الشيعية واستولوا عليها (سنة ١٨٠١) ، وأمعنوا فى أهلها قتلا ، ونهبوا المدينة ، وهدموا مسجد الحسين بن على رضى الله عنهما ، وأخذوا ما فى قبته من النفائس والجواهر

ضج المسلمون فى سائر الاقطار وخاصة الشيعية من غزوة (كربلاء) وما ارتـكبه الوهابيون فيها من الفظائع ، فجاء الدرعية شيعى متنكر واغتال الامير عبد العزيز وهو قائم يصلى العصر فى جامع الدرعية (سنة ١٨٠٣)

فخلفه ابنه (سعود) فى الامارة ، واستمر الوهابيون فى قوة ومنعة ، ولم يستطع الولاة الترك الغلبة عليهم لا فى عهد عبد العزيز ولا فى عهد سعود ، فان سليمان باشا والى العراق جرد حملة على (الحسا) لمحاربة الوهابيين فعادت الحملة مدحورة

وصل (سعود بن عبد العزيز) فى فتوحاته الى حدود مسقط ، وامتد نفوذه الى شواطئ الخليج الفارسى ، واعتزم فتح الحجاز ، فجرد جيوشه على الشريف غالب ، وزحف الوهابيون على (الطائف) التى تعد مفتاح مكة فاحتلوها (سنة ١٢١٦ هـ ١٨٠٢ م) ، ثم دخل سعود مكة ظافرا بعد أن جلا عنها الشريف غالب وجنوده الى جدة (محرم سنة ١٢١٨ هـ ـ ١٨٠٣ م)

وكتب (سعود) الى السلطان سليم الثالث سلطان تركيا ينبئه بهـذا الفتح ويخبره انه قد هدم القباب التى فوق القبور ، ويطلب اليه منع مجىء المحمل من دمشق أو القاهرة « فان ذلك ليس من الدين فى شىء »

وفى هـذه الرسالة ، واخراجه من كان بمكة من الترك ، اعلان بتقلص ظل السلطنة العثمانية عن مكة

واستولى الوهابيون على (المدينة) بعـد فتح مكة بسنتين ، ونهبوا نفائس الحرم النبوى وما فيه من الجواهر ، وكانت قيمتها لا تقـدر بمال ، ذكر الجبرتى ما ذاع عن قيمتها فنقل أنهـا « ملأت أربع سحاحير من الجواهر المحلاة بالماس والياقوت العظيم القدر ، من ذلك أربعـة شمعدانات من الزبرجد وبدل الشمعة قطعة ماس مستطيلة يضىء نورها فى الظلام ، ونحو مائة سيف قراباتها ملبسة بالذهب الخالص المطعم بالماس والياقوت ، ونصالها من الزبرجد والبشم ، وسلاحها من الحديد الموصوف ، وعليها دمغات باسم الملوك والخلفاء السالفين »

امتدت دعوة الوهابيين الى (عسير) و (اليمن) واتجهت أنظارهم الى الشام ، فزحفوا عليها ووصلوا فى زحفهم الى حدود فلسطين ، ولـكن دعوتهم لم تلق فى سورية تأييدا لما ارتـكبوه من القسوة والفظائع ومنعهم المحمل الذى يصحبه الحجاج من دخول مكة ، وقد خرج عبد الله باشا العظم الى الشام بالمحمل فمنعه الوهابيون من التقدم وقتلوا جنوده ونهبوا الحجاج

تعطلت مراسم الحج السنوية واضطربت تركيا بازاء امتداد دعوة الوهابيين واستيلائهم على الحرمين الشريفين ومنعهم الحجاج الذين لا يتبعون تعاليمهم من الحج ، وانتصارهم على الولاة فى العراق والشام ، فاستنجدت بمحمد على باشا وطلبت اليه محاربتهم ، وكان نفوذهم فى ذلك الحين قد بلغ أقصى مداه ، ولم تجىء سنة ١٨١١ التى جهز فيها محمد على جيشه لقتالهم حتى كان سلطانهم قد امتد من أقصى الجزيرة الى أقصاها .

معدات الحملة

اتخذ محمد على جهة (القبة) القريبة من القاهرة معسكرا للحملة الى ان يتم تجهيزها ،

وعقد لواءها لنجله (احمد طوسن باشا)، وكان في السابعة عشرة من عمره، ورتب له أبوه حفلة حافلة لالباسه خلعة القيادة وانتقاله الى معسكر الحملة، ولما وقعت مذبحة المماليك بالقلعة في اليوم الذى كان محددا لها (اول مارس سنة ١٨١١) ارجئت الحفلة الى يوم ٣٠ مارس، ففي اليوم المعهود تحرك موكبه من القلعة الى معسكر الحملة بالقبة وأخذت الحكومة تجهزها بالرجال والعتاد وقطعت فى ذلك ستة أشهر ونيفا الى أن صارت على أهبة الرحيل، وبلغ عدد رجالها ٨٠٠٠ مقاتل منهم ستة آلاف من المشاة وألفان من الفرسان بينهم الكثير من البدو .

وتولى ادارة مهماتها السيد محمد المحروقى كبير تجار مصر[1]، وكان له فى اعدادها وتجهيزها ورسم خططها شأن كبير، قال الجبرتى فى هذا الصدد لمناسبة رحيله الى الحجاز «وفيه ١٢ رمضان سنة ١٢٢٦ (٣٠ سبتمبر سنة ١٨١١) خرج السيد محمد المحروقى ليسافر صحبة الركب وخرج فى موكب جليل لانه هو المشار اليه فى رياسة الركب ولوازمه واحتياجاته وأمور العربان ومشايخهم، وأوصى الباشا ولده طوسون باشا امير العسكر بألا يفعل شيئا من الاشياء الا بمشورته واطلاعه، ولا ينفذ أمراً الا بعد مراجعته»

كان خط سير الحملة ان تقلع السفن بالجنود المشاة من ثغر السويس الى (ينبع) ميناء المدينة المنورة، أما الفرسان وعلى رأسهم طوسون باشا فيسيرون برا من طريق برزخ السويس فالعقبة حتى يبلغوا (ينبع) فيلتقوا بالمشاة بها ومن هناك يزحف الجيش الى وجهته[2]

وقد استوجب نقل المشاة والمهمات بحرا انشاء عمارة بحرية من السفن، لأن مصر لم يكن لها الى ذلك الحين اسطول فى البحر الاحمر (ولا فى البحر الابيض) فاعتزم محمد على انشاء اسطول لنقل الحملة، وأبدى فى سبيل ذلك من علو الهمة ما جعله مضرب الأمثال فى قوة الارادة ومضاء العزيمة، ذلك ان كل المهمات

---

(١) هو ابن السيد احمد المحروقى الذى أوردنا ترجمته فى الجزء الثانى ص ٣٠٥

(٢) تجد خط سير الحملة برا مرسوما على الخريطة الملحقة بهذا الفصل

والاخشاب والمواد اللازمة لانشاء الأسطول كانت تنقصه ، فجلب الأخشاب من أشجار مصر ، واستكملها من الخارج وخاصة من الاناضول ، و بادر الى انشاء السفن فى «ترسانة» بولاق ، وجمع لهذا الغرض كل من استطاع جمعهم من صناع المراكب ، وتولى الاشراف بنفسه على العمل ، فأخذ الصناع يقطعون الأخشاب و يفصلونها قطعا يضعون على كل قطعة رقما خاصا بها ، ثم تنقل على ظهور الجمال الى السويس لتركب هناك ، و يقال ان عدد الابل التى استخدمت لهذا الغرض بلغ ثمانية عشر ألفا ، ولم تمض عشرة اشهر حتى انشىء بالسويس ثمانية عشر مركبا كبيرا تسع اكثر ما أعد للحملة من الجنود والمؤن والذخائر والمهمات

و باشر محمد على ترحيل الحملة ومهماتها من السويس ، فاقلعت بها السفن يوم ٣ سبتمبر سنة ١٨١١ قاصدة ينبع ، وعاد هو الى القاهرة ، ثم ارتحل طوسون باشا من بركة الحاج يوم ٦ اكتوبر يقود حملة الفرسان يتبعها عدد كبير من الابل تحمل ما تحمل من المهمات والمؤونة والذخائر

وكان يصحب الحملة طائفة من الصناع من كل حرفة ، وصحبها السيد محمد المحروقى مدير المهمات كما قدمنا ، ومضى معها أربعة من العلماء من ائمة المذاهب الأربعة وهم السيد احمد الطحطاوى الحنفى ، والشيخ محمد المهدى الشافعى ، والشيخ الخانكى المالكى ، والشيخ المقدسى الحنبلى ، وكان مقررا سفر السيد حسن كريت نقيب أشراف رشيد (الذى كان له شأن فى مقاومة الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧) ، والشيخ على خفاجى من علماء دمياط ، ولكنهما اعتذرا عن مصاحبة الحملة فاعفيا من السفر .

وقائع الحملة

قلنا ان الحروب التى خاضت مصر غمارها فى صحارى جزيرة العرب وجبالها من اشق الحروب وأصعبها ، لأن الجيش المصرى واجه قوة الوهابية فى اوجها ، وعلى رأسهم أمير شديد المراس قوى الشكيمة بعيد النظر وهو الامير (سعود بن

عبد العزيز) الملقب بسعود الكبير ، يمتاز موقفه بأنه يحارب حربا دفاعية ، فى بلاده ومفاوزه ، وبين معاقله ورجاله ، على ان الجيش المصرى قد وجد معاضدة من سكان الثغور الحجازية كجدة وينبع ، لأن انقطاع طريق الحج الحق بهم ضررا كبيرا اذ كانت أرزاقهم تأتيهم من الحجاج ، فكانوا ناقمين على الوهابيين ودعوتهم ، وكذلك اشراف مكة وخاصة الشريف غالب فان نفوذ الوهابيين قد محق سلطته وان كانوا سمحوا له بالاقامة فى مكة ، وفضلا عن ذلك فان محمد على ونجليه طوسون وابراهيم استطاعوا ان يستميلوا اليهم بعض رؤساء القبائل من انصار الامير سعود بالعطاء والوعود ، فكانت هذه الوسائل من العوامل التى أيدت مركز الجيش المصرى فى الحملة على الحجاز .

احتلال ينبع

وصلت الحملة بطريق البحر الى ميناء (ينبع) فاحتلتها دون مقاومة تذكر ، ولم يكن بها سوى حامية من ثلثمائة من الوهابيين فر قائدهم و بعض رجاله ووقع الباقون قتلى أو أسرى

احتلال بدر

ثم جاء طوسون باشا بطريق البر يتقدم فرقة الفرسان ، فلما وصلت الفرقة (اكتوبر سنة ١٨١١) وتلاقت وحدات الجيش أمر طوسون بالزحف على (المدينة) ، فتحرك الجيش من ينبع وسار الى (بدر) وكان الوهابيون ممتنعين بها ، فاشتبك بهم فى معركة دامت ساعتين انتهت باحتلال (بدر) وارتد الوهابيون الى وادى (الصفراء) (١) حيث تحصنوا بها واقاموا الاستحكامات استعدادا لملاقاة الجيش المصرى

---

(١) تجد بالخريطة الملحقة بهذا الفصل مواقع البلاد التى يرد ذكرها فى سياق الحديث

هزيمة الصفراء

زحف طوسون على وادى (الصفراء) فى قوة تبلغ ثمانية آلاف من الجنود ، وهاجمها الجند حتى صاروا الى طرق ضيقة يشرف عليها الوهابيون من عل ، فانهالت القذائف على الجنود وفتكت بهم فتكا ذريعا ، فانقلبت الصفوف الأولى منهزمة ووقع الذعر فيما وراءها ، فاختل نظام الجيش وكانت عليه الهزيمة ، وتشتت الجند تاركين مضاربهم واثقالهم ومدافعهم ، وتراجعوا يرمى بهم الرعب قاصدين الساحل .

كانت هذه الواقعة هزيمة كبرى فقد فيها الجيش المصرى نحو ستمائة قتيل ، وفقد معظم مدافعه وذخيرته وارزاقه ، ورجعت فلوله بغير نظام الى ينبع ، وقتل منهم عدة آلاف فى الطريق بحيث لم يبق من الجيش بعد ان رجع الى ينبع غير ثلاثة آلاف ، ولو أن الوهابيين الذين دافعوا عن وادى (الصفراء) كانوا اكثر عددا واكثر دراية بفنون القتال لتعقبوا جيش طوسون باشا بعد الهزيمة وكان من المحقق ألا ينجو منه أحد

بعث طوسون بنبأ هذه الهزيمة الى أبيه ونسبها الى اختلاف قواده وتقصيرهم ، وكان اكثر الجنود والضباط الهاربين من الارناءود ، ثم طلب طوسون المدد كى يسد الفراغ الذى وقع فى صفوف الجيش ، فتأثر محمد على باشا لهذه الهزيمة تأثرا شديدا ، وارسل يستدعى رؤساء الجيش المسؤلين عنها ، وعاد بعضهم الى مصر من تلقاء انفسهم ، فغضب عليهم محمد على واقصاهم عن مراكزهم ونفاهم من مصر ، وكان منهم (صالح قوش) رئيس الجند الارناءود الذى كان له شأن خطير فى مذبحة المماليك بالقلعة

لم تضعضع هذه الهزيمة من عزيمة محمد على باشا ، بل قابلها بالجلد والثبات ، وأخذ يعد العدة لارسال حملة جديدة الى الحجاز قال الجبرتى فى هذا الصدد :

« ولما حصل ذلك لم يتزلزل الباشا واستمر على همته فى تجهيز عساكر أخرى وبرزوا الى خارج البلدة »

واضطر محمد على باشا للقيام بنفقات الحملة الى فرض ضرائب جديدة ، فاستوفى

الضريبة من باقى الاطيان الموقوفة ، وطلب اتاوة من القرى ، وكان الفلاحون بمنزلة من الضنك والفاقة ، فاذن لهم أن يؤدوها غلالا ، وأمكنه أن يموّن منها الجيش المصرى فى الحجاز

موقف طوسون باشا

بقى الوهابيون بعد انتصارهم فى واقعة (الصفراء) فى معاقلهم لا يفكرون فى مهاجمة طوسون باشا بينبع ، واكتفوا بتحصين المدينة ، وانتهز طوسون هذه الغفلة وأخذ فى فترة انتظار المدد من مصر يستميل القبائل الضاربة بين ينبع والمدينة بالمال والهدايا ، وقد رأى أن هذه الوسيلة اعود عليه بالنفع من الانتصار على الوهابيين فى معركة بل معارك ، كما أنها هى الوسيلة الفعالة فى التغلب عليهم ، وقد نجح فعلا فى خطته هذه ، وأرسل له محمد على باشا صناديق الأموال والكساوى لتفريقها على رجال القبائل ، فمهدت له السبيل للاستيلاء على المدينة ومكة

احتلال الصفراء

تلقى طوسون باشا المدد ، فتحرك قاصدا المدينة ، وانضم اليه كثير من القبائل من عرب (جهينة) (وحرب) ، واحتل الصفراء بدون مقاومة بفضل مؤازرة العرب الموالين له .

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « فى ٢٤ رمضان سنة ١٢٢٧ (أول اكتوبر سنة ١٨١٢) وردت هجانة مبشرون باستيلاء الاتراك[١] على عقبة الصفراء والجديدة من غير حرب بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب وتدبير شريف مكة (الشريف غالب) ، ولم يجدوا بها أحدا من الوهابيين ، فعند ماوصلت هذه البشائر ضربوا مدافع كثيرة تلك الليلة من القلعة »

---

(١) كذا يسمي الجيش المصرى ، وكان الجبرتى يعطف كثيرا على الوهابيين ويدافع عنهم وينتقد الحملة عليهم

فتح (المدينة)

تابع الجيش سيره حتى بلغ أسوار المدينة ، وكانت الرحلة اليها شاقة مضنية تكبد فيها الجنود المتاعب والأهوال لوعورة الطرق و بعد المسافات واشتداد الحر، فأمر الجنود أن يسيروا فى الليل و يستريحوا فى النهار، فقطع الجيش فى رحلته ثلاث ليال حتى بلغ المدينة ، فضرب عليها الحصار، وتفادى اطلاق القنابل عليها خشية أن تصيب الحرم النبوى الشريف فاستعاض عن الضرب بوضع لغم تحت سور المدينة استعدادا لنفسه، وأنذر السكان بأن يلزموا بيوتهم حتى لا يصيبهم مكروه ، وفى الموعد المضروب اشعل اللغم فنسف جزءا كبيرا من السور وفتح ثغرة دخل منها الجنود ، فقتلوا من أدركوهم من الحامية الوهابية واحتلوا المدينة ، فكان احتلالها أول انتصار كبير للجيش المصرى فى حرب الحجاز ، وأرسل طوسون مفاتيح المدينة الى أبيه فى مصر و بشره بهذا النصر المبين ، فاذيع الخبر فى العاصمة وأطلقت المدافع من القلعة ابتهاجا بهذه البشرى

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « فى ١٠ ذى الحجة سنة ١٢٢٧ يوم الاضحى وردت هجانة من ناحية الحجاز وعلى يدهم البشائر بالاستيلاء على قلعة المدينة المنورة ، ونزول المتولى بها على حكمهم ، وأن القاصد الذى أتت بشائره وصل الى السويس وصحبته مفاتيح المدينة ، فحصل للباشا (محمد على) بذلك سرور عظيم ، وضربوا مدافع وشنكا بعد مدافع العيد »

وتقدم المصريون فاحتلوا (الحناكية) شمالى المدينة

فتح مكة (يناير سنة ١٨١٣)

عاد طوسون باشا الى ينبع واقلع منها الى جدة فاحتلها ، واستقبله بها الشريف غالب وسار منها الى مكة فدخلها دخول الظافر، وكان لمعاونة الشريف غالب وقبائل عرب الحجاز التى استمالها بالمال اثر كبير فى استيلاء الجيش المصرى عليها

وقد وردت الانباء الى مصر بفتح مكة فزينت المدينة خمسة أيام متواليات ابتهاجا بهذا الفتح المبين

قال الجبرتى « وفى يوم الثلاثاء ٧ صفر سنة ١٢٢٨ (٩ فبراير سنة ١٨١٣) وردت بشائر من البلاد الحجازية باستيلاء العساكر على جدة ومكة من غير حرب، فضربوا مدافع كثيرة ، ونودى فى صبح ذلك بزينة المدينة ومصر وبولاق ، فزينت خمسة أيام أولها الاربعاء وآخرها الأحد »

احتلال الطائف

وبعد أن وطد طوسون باشا مركزه فى مكة تقدم الى (الطائف) فاحتلها فى ٢٩ يناير سنة ١٨١٣

تحرج موقف الجيش المصرى

رأيت مما تقدم مبلغ مانا له الجيش المصرى من الانتصارات المتوالية ، واحتلال المدينة ومكة وأهم مواقع الحجاز ، على أن هاتيك الانتصارات لم تلبث أن اعقبها تحرج مركز الجيش ، ذلك أن الأمير (سعود بن عبد العزيز) ظل منذ نزول الجيش المصرى الى ينبع يرقب تطور القتال دون أن يخاطر فيه ، وترك لبعض انصاره الاشتباك مع الجيش المصرى فى المعارك المتقدمة ، وأخذ هو فى خلال الفترة يدرس أساليب الجيش المصرى فى الحرب ، ويتعرف مبلغ قوته ، ويرسم الخطط ، ويستعد لملاقاته فى الوقت المناسب ، فلما بلغه نبأ احتلال (الطائف) أمر قواته بالزحف ، وكانت مؤلفة من جيشين ، الأول يقوده هو بنفسه ، والثانى بقيادة ابنه (فيصل) ، فزحف الجيشان بجموعها على مكة والمدينة ، وأخذ الوهابيون يقطعون المواصلات بين المدينتين

ادرك طوسون حرج موقفه ، فبادر الى ملافاته ، وشرع فى مهاجمة المراكز التى احتشد فيها الوهابيون

هزيمة الجيش المصرى فى (تَرَبه)

اتخذ فيصل مدينة (تربه) معسكرا له واحاطها بالخنادق ، فانفذ طوسون جيشا بقيادة مصطفى بك أحد قواده لمهاجمته فيها ، فسار اليها مصطفى بك بجنوده وضربوا عليها الحصار ، لكن الوهابيين انقضوا عليهم ، وكانوا بقيادة سيدة من نبلائهم تدعى غالية اثارت فيهم الحمية والحماسة فاعملوا فى الجيش المصرى قتلا الى أن وقعت عليه الهزيمة وارتد بغير نظام الى الطائف بعد ان ترك مدافعه وذخيرته

اخلاء الحناكية

وفى الوقت نفسه أخذ الامير (سعود بن عبد العزيز) فى قوة من عشرين الفا يهاجم (الحناكية) التى كانت ترابط بها حامية من الجيش المصرى بقيادة عثمان كاشف ، وهى تبعد عن المدينة بنحو عشرين فرسخا ، فدافعت عنها الحامية دفاعا شديدا ، لكنها اضطرت للتسليم امام جموع الوهابية ، فاحتل الوهابيون (الحناكية) وساروا قاصدين الزحف على المدينة

تغير الموقف الحربى ، ورجحت كفة الوهابيين ، فان هزيمة الجيش المصرى فى (تربه) واخلاء (الحناكية) قد اضعف مركز طوسون باشا ، وأخذ الوهابيون يهاجمون المخافر الامامية للجيش بدون انقطاع أوهوادة .

خسائر الجيش

وزاد فى حرج الموقف انتشار الأمراض فى الجيش المصرى ، وما أصاب الجنود من الاعياء لشدة القيظ وقلة المؤونة والماء ، ورداءة الطقس والمتاعب الهائلة التى انزلتها بهم المعارك وقطع المراحل الشاسعة فى صحراء الحجاز ، ولم يكن فى الجيش اطباء لمعالجة المرضى وتدبير الوسائل الصحية ، ففتكت بهم الأمراض فتكا

ذريعا ، وقد أصاب الجيش من المعارك والأمراض خسائر فادحة ، بلغت من بدء القتال نحو ثمانية آلاف قتيل ، وفقد الجيش من مؤونته نحو خمسة وعشرين الف رأس من الماشية ؛ وتكلفت الحملة الى ذلك الحين ٣٥٠٠٠ (١) كيس أى ١٧٥٫٠٠٠ جنيه وهذا الاحصاء يدلك على مبلغ ما تكبدته مصر من الضحايا والخسائر الجسيمة فى الدور الاول وحده من الحرب الحجازية .

رأى طوسون باشا بعد تلك الخسائر ان يلزم خطة الدفاع ، واعتصم هو وجيشه بمكة والمدينة وجدة وينبع ، وارسل الى أبيه يطلب المدد

سفر محمد على الى الحجاز (اغسطس سنة ١٨١٣)

تلقى محمد على باشا هذه الانباء بالجلد والثبات ، وأجمع أن يسير بنفسه الى الحجاز لمتابعة القتال الى نهايته والقضاء على الوهابيين و بسط نفوذ مصر فى شبه جزيرة العرب ، فحشد ما وسعه أن يحشد من الجنود فى مصر ، وفرض اتاوات على التجار ، وجرد حملة جديدة وسار الى الحجاز فى شهر اغسطس ١٨١٣ ليقود الجيش المصرى فى تلك الحرب الآكلة

ابحر محمد على من السويس ونزل بجدة ؛ فشدد وصوله من عزائم الجيش لما كان يبعثه فى النفوس من القوة المعنوية ، وأخذ أثناء مقامه فى جدة يدرس الحالة عن كثب ليضع الخطة التى تضمن له الفوز والغلبة ، ثم مضى قاصدا مكة وادى مناسك الحج ، ومن هنا جاء لقبه (الحاج محمد على)

اعتقال الشريف غالب

وكان أول ما اتخذه اعتقاله الشريف غالب ، ذلك انه ارتاب فى اخلاصه ، ورأى منه تراخيا فى معاونة الجيش المصرى مما يحتمل أن يكون سببه رغبته فى اطالة الحرب ليخدم مصالحه الذاتية ، ووقر فى نفسه ان مسلكه كان من أسباب استفحال الدعوة الوهابية وان بقاءه فى مركزه قد يحول دون فوز الحملة وسرعة وصولها الى غايتها ،

(١) احصاء فولا بل فى كتابه مصر الحديثة ج ٢ ص ٥٨

فأمر بالقبض عليه واعتقاله فى نوفمبر سنة ١٨١٣ وبعث به الى القاهرة [١] وولى بدله ابن أخيه الشريف يحيى بن سرور

وطد محمد على مركزه فى مكة ليجعلها بمنجاة من هجمات الوهابيين ، ثم اعتزم السير لمهاجمتهم فى معاقلهم ، فعهد الى ابنه طوسون باشا ان يتخذ (الطائف) قاعدة للزحف ، فسار ومعه جيش من خمسة آلاف من المشاة والف من الفرسان وستة من المدافع ، وفيما هو يعد هـذه المعدات كان سعود يرقب حركات خصمه ، وامتنعت قواته فى (بيشه) و (رَنيه) و (تربه) [٢] ، فسار طوسون باشا من الطائف قاصدا الاستيلاء على (تَرَبه) وضرب عليها الحصار ولـكنه لم ينل منهـا منالا ، وكانت الحملة عليها شاقة منهكة للجنود مضنية لهم فساءت حالتهم ونفدت مؤونتهم

فأكره طوسون على رفع الحصـار عن تربة والارتداد بجنوده . فتعقبهم الوهابيون ورجع الجيش ادراجه الى الطائف بعـد ان احرق خيامه تفاديا من وقوعها فى يد الاعداء

احتلال قنفذه ثم اخلاؤها

وقد رأى محمد على أن أهل العسير يناصرون الوهابيين ويناوشون وحدات جيشه فى الحجاز ، فانفذ حمـلة الى ميناء (قنفذه) فاحتلتها وأمر بتحصينها توطئة للزحف على داخل البلاد ، وابقى بها حامية من الف ومائتى جندى ، ولـكن هـذه الحامية لم تلبث قليلا حتى اضطرت الى اخلائها ، ذلك ان قومندان الحامية فاته ان تحتل عين الماء التى تستقى منهـا البلدة فاحتلها العربان وقطعوا الماء عن الحامية ،

---

(١) وصل الشريف غالب الى القاهرة بعد أن صادر محمد على امواله ، ثم نقل الى سلانيك حيث توفى بها سنة ١٨١٦

(٢) بالقسم الجنوبى من نجد ، بالقرب من حدود الحجاز ، وتقع تربه على بعد ثمانين ميلا من الطائف ، وبيشة على بعد مائة ميل من تربه

فانفذ اليها القومندان كتيبة من الجنود لاستخلاصها ولـكن العرب هاجموهم بقيادة زعيمهم (طامى بن شعيب) وردوهم على اعقابهم فوقع الرعب فى جنود الحاميـة ولم ير قائدهم وسيلة لانقاذهم من الظمأ سوى اخلاء المدينة والرجوع الى جدة فنجا من الحامية من استطاع النجاة بركوب السفن وقتـل الوهابيون عددا كبيرا ممن ادركوهم قبل أن يتمكنوا من الفرار ، وبذلك فشلت الحملة على قنفذه

طلب محمد على المدد من مصر

و بديهى ان هزيمة طوسون فى (تربه) ، واخلاء قنفذه ، ومناوشات الوهابيين المستمرة لوحدات الجيش المصرى ، كان من شأن ذلك كله ان يبعث اليأس والقنوط ، لـكن محمد على باشا كان ذا عزيمة حديدية لا تنثنى أمام الصعاب مهما عظمت ، وهذه العزيمة من اخص صفاته وهى من عوامل عظمته ومجده ، فقابل هذه الهزائم بالثبات وعلو الهمة ، وكان قد أرسل الى كتخدا بك فى مصر (محمد لاظ اوغلى) يطلب اليه ان يوافيه بالمدد و المؤن ، فأمده بسبعة آلاف من الجنود وسبعة آلاف كيس ، وتحملت مصر فى اعداد هـذه الحملة الجديدة تضحيات جسيمة ، فان الـكتخدا بك نزولا على أمر محمد على استولى على املاك الملتزمين (فبراير سنة ١٨١٤) فتذمر الناس من هـذا الارهاق وقصدوا الى المشايخ ليحولوا دون انفاذه ، فذهبت شكاواهم عبثا ، وجمع الـكتخدا سبعة آلاف كيس من المصادرات وفرض الاتاوات ، واستطاع ان يجند السبعة الآلاف مقاتل من مختلف طبقات المجتمع بطريقة التطوع للخدمة العسكرية ، وقد تأخذك الدهشة اذ تسمع فى هـذا المقام عبارة التطوع ، لأن المفهوم ان مثل هـذه الحملات البعيدة كان يحشد لها الناس بالقوة ، ولـكن ما ذكرناه مستفاد من رواية الجبرتى فقد اشار الى هذه الطريقة فى حوادث ربيع الثانى سـنة ١٢٢٩ (مارس سـنة ١٨١٤) بقوله « وفى ليلة الاثنين سادسه حضر مميش اغا من ناحية الحجاز مرسلا من عند الباشا باستعجال

حسن باشا للحضور الى الحجاز ، وكان قبل ذلك بايام أرسل يطلب سبعة آلاف عسكرى وسبعة آلاف كيس ، فشرع كتخدا بك فى استكتاب اشخاص من اخلاط العالم ما بين مغاربة وصعايدة وفلاحى القرى ، فكان كل من ضاق به الحال فى معاشه يذهب ويعرض نفسه فيكتبونه ، وان كان وجيها جعله الكتخدا أميرا على مائة أو مائتين»

وفاة سعود بن عبد العزيز

وصل هذا المدد الى جدة ، وفيما كان محمد على باشا يتأهب للزحف ساعدته العناية الالهية بوفاة خصمه الشديد البأس الأمير (سعود بن عبد العزيز) ، توفى بالدرعية فى ابريل سنة ١٨١٤

تخلفه فى الامارة نجله (عبد الله بن سعود) ، ولم يكن على صفات أبيه من الشجاعة والاقدام وبعد النظر وعلو الهمة ، بل كان على العكس شديد التردد ضعيف الفؤاد لين العريكة لا يميل الى الحرب والقتال ، فكانت وفاة سعود بن عبد العزيز من الاسباب التى ساقتها الاقدار لنجاح محمد على ، وهكذا كان للحظ أثر كبير فى حياة ذلك الرجل العظيم

حصار الوهابيين الطائف

أنفذ محمد على عابدين بك احد قواد جيشه لاحتلال وادى زهران الذى يفصل اليمن عن الحجاز ، فزحف ولم يلق بادىء الأمر كبير مقاومة ، ثم ما لبث الوهابيون ان عادوا يهاجمون الجيش المصرى حتى اضطر الى الانسحاب ونالته الخسائر الفادحة ، فكان انسحابه هزيمة للمصريين، وظفرا للوهابيين، وتعقبه هؤلاء حتى (الطائف) واقبلوا بجموعهم الحاشدة وضربوا عليها الحصار وكان فيها طوسون باشا

بلغ محمد على هذا النبأ وهو فى جدة، فأخذ يعمل فكره لانقاذ ابنه من الحصار ،

فاهتدى الى حيلة حربية تدل على شدة ذكائه وحضور ذهنه ، ذلك انه ركب فى عشرين من رجاله وسار بهم نحو الطائف ، ووقف على جبل يشرف عليها ، فشاهد مركزها وهى محصورة ، وفيما هو كذلك جاءه رجاله بفارس عربى من الوهابيين وقع أسيرا فى ايديهم ، فلما رآه محمد على أخذ يسأله عن قوات الوهابيين فيجيبه على مايسأل ، ثم عرض عليه أن يطلق سراحه على أن يحمل رسالة الى ابنه طوسون فى الطائف ، وأخذ عليه موثقا أن يؤدى الرسالة ، فوفى الرجل بعهده ، وحمل الرسالة الى طوسون باشا فاذا هى تحوى الكلمة الآتية «انى قادم اليك فاحضر والحق بنا فوق الجبل»

رفع الحصار عن الطائف

وقد اطلع الوهابيون على فحوى الرسالة ، فتوهموا أن جيشا عرمرما قد أقبل لنجدة طوسون ، وانهم سيقعون حينئذ بين نارين ، والحقيقة أنها خدعة ابتكرها محمد على لايهام الوهابيين أنه قادم فى قوة كبيرة وقد كان لهذه الخدعة أثرها الفعال فى سير القتال ، فان الوهابيين اجمعوا على الانسحاب و رفعوا الحصار عن الطائف

التأهب لمعاودة القتال

عاد محمد على ونجله طوسون الى مكة (يونيه سنة ١٨١٤) ومنها الى جدة وأخذ فى تدريب السبعة الآلاف من الجنود الذين بعث بهم الكتخدا بك ، و بقى فى جدة ثلاثة أشهر يعد العدة لاستئناف القتال ، وفيما هو يتأهب للزحف ، شبت الثورة فى قبائل البدو الضاربة بين ينبع والمدينة ، وسببها أن حاكم المدينة قتل شيخ قبيلة حرب ، فقامت القبائل للأخذ بالثأر وقطعت السبل بين جدة ومكة وينبع والمدينة وكادت الثورة تستفحل لولا أن عالجها محمد على باشا بالحكمة فسار طوسون الى ينبع ومنها الى بدر حيث التقى برؤساء القبائل فتعهد لهم بعقاب حاكم المدينة عقابا يتكافأ مع جريمته ، فهدأت بذلك حدة

غضبهم، وساعده على تهدئتهم ما بذله لهم من المال فكان من نتائج ذلك أن تخلوا عن وادى الصفراء الذى يحتلونه

وفى خلال تلك الحوادث تلقى طوسون باشا من المدينة نبأ وفاة حاكمها الذى شبت الثورة بين القبائل بسببه ، فاذاع طوسون هذا النبأ بين القبائل وأفهمهم أن اباه هو الذى أمر بقتله عقابا له على فعلته فهدأت القبائل وجنحت الى السلم وكفت عن قطع الطرق ،وكان موسم الحج قد أقبل فصار طريق الحجاج مأمونا ، وحج محمد على للمرة الثانية وأقبل الحجاج من مصر ومن سائر الاقطار الاسلامية وأدوا الفريضة آمنين مطمئنين

واقعة (بِسْل) - (يناير سنة ١٨١٥)

و بعد أن تمت مراسم الحج،تجددت الحرب، وانفذ محمد على جنوده الى (الطائف تمهيدا للزحف، وكان الوهابيون قد جمعوا من المقاتلة نحو عشرين ألفا حشدوهم بقيادة فيصل بن سعود بين (بسل) (وتربه) وكان لهم عدا ذلك احتياطى من نحو عشرة آلاف مقاتل ، فزحف محمد على فى نحو اربعة آلاف مقاتل على (بسل) الواقعة بين الطائف وتربه ،والتقى فيها بجيش الوهابيين (يناير سنة ١٨١٥) فدارت رحى القتال بين الفريقين واستعرت نار الحرب واستمرت المعركة من الفجر حتى المساء، وانتهت بهزيمة الوهابيين وقتل منهم نحو ستمائة وتشتت الباقون ،وتعد واقعة (بسل) من اكبر وقائع الحرب الوهابية بل من أهم المعارك فى تاريخ مصر الحربى

احتلال (تَرَبه) و (ورَنيه) ثم (بيشه)

تابع المصريون زحفهم بعد واقعة بسل فاحتلوا (تربه) ثم احتلوا كذلك (رنيه) و (بيشه) ولقى الجيش خلال هذه الغزوة متاعب هائلة ولم يكن غذاء

الجنود فى الغالب سوى التمر ، وكان محمد على يقاسمهم شظف العيش ليشجعهم على احتماله .

احتلال قنفذة

ثم رجع الى الشاطئ واحتل ميناء (قنفذة) وابقى فيها حامية مصرية وذهب منها الى جدة ومنها الى مكة تحف به أعلام الظفر

احتلال الرَّس

وزحف طوسون من المدينة على القسم الشمالى من نجد متشجعا بتلك الانتصارات ، فبلغ فى زحفه الى الرَّس (١) احدى مدن نجد المهمة فاحتلها ، ثم احتل (الشُّبيبية) الواقعة على طريق الدرعية عاصمةالوهابيين ، واستعد الجيشان فأخذ كل منهما يتأهب لمعركة فاصلة

طلب الوهابيين الصلح

على أن طوسون رأى من المغامرة أن يبدأ بالهجوم لانه ادرك أنه امام قوات تفوقه عدداً ، فتشاور وقواد جيشه واتفقوا رأيا على الانسحاب الى المدينة ، ولكنه لم يكد يستقر رأيه على هذا العزم حتى أوفد اليه الامير (عبد الله بن سعود) رسولا يعرض الصلح والطاعة ، فدهش طوسون لهذه المفاجأة على حين كان يشعر بأن مركز عدوه قوى منيع، لكن ضعف (عبد الله بن سعود) وما جبل عليه من التردد كان من أهم البواعث التى مالت به الى التسليم والخضوع .

---

(١) تبعد عن المدينة نحو ٢٧٠ ميلا شرقا بشمال

فاجاب طوسون على طلب الصلح أنه لا يستطيع ان يجيب الطلب الا بعد عرض الامر على والده ، وأنه يمنح الامير الوهابي هدنة عشرين يوما حتى يراجع والده ، فقبل عبد الله بن سعود ، وتهادن الفريقان ووقفت الحركات الحربية ، و بقى كل جيش مكانه ينتظر الهدنة أن تنتهى

رجوع محمد على الى مصر

وفى غضون ذلك عاد محمد على الى مصر فجأة ، ذلك انه تلقى من مصر أنباء شغلته واهاجت وساوسه ، إذ علم منها ان ثمة مؤامرة دبرها (لطيف باشا) فى غيبته كما سيجىء بيانه ، و بلغه كذلك ان حوادث خطيرة توشك ان تقع فى أوروبا إذ الصراع بالغ أشده بين نابليون والدول المتألبة عليه ، وعلم من الانباء الاخيرة ان نابليون بعد أن هزمه الحلفاء و نفوه الى جزيرة (البا) قد أفلت من منفاه ورجع الى فرنسا واسترد عرشه وسلطته ، فخشى محمد على ان تكون عودة نابوليون سببا فى تجدد الحرب والقتال فى اوروبا واستهداف مصر لحملة جديدة اذ يفكر نابوليون ثانية فى غزوها ، ومع ان هذه الفكرة لم يهجس بها نابليون بعد عودته من منفاه الا أن محمد على كان شديد الحذر كثير الهواجس خوفا على مركزه ، فأسرع بالرجعة الى مصر لكى يتقى المفاجآت التى ليست فى الحسبان وعاد من طريق (القصير) فقنا فالقاهرة ، وذكر الجبرتى نبأ عودته فى حوادث رجب سنة ١٢٣٠ فقال انه حضر الى الجيزة ليلة ١٥ رجب (٢٣ يونيه سنة ١٨١٥)

مؤامرة لطيف باشا

أما مؤامرة لطيف باشا فحكايتها كما يذكرها جمهور المؤرخين انه كان من مماليك محمد على شاب اسمه (لطيف اغا) قربه اليه واختصه وجعله أمين خزانته ، فلما جاءت الانباء باستيلاء الجيوش المصرية على (المدينة) واستخلاصها من أيدى الوهابيين أوفده محمد على الى الاستانة ليزف البشرى الى الديوان العالى ،

فانعمت الحكومة التركية على لطيف اغا برتبة الميرميزان فصار (لطيف باشا) ، فداخله الزهو والخيلاء ، وزين له بعض رجال (المابين) ان يأتمر بسيده ومنوه الامانى ووعدوه بالمساعدة على ان يخلفه فى ولاية مصر ، فقبل لطيف باشا هذه المهمة ، ونخيل له زهوه وغروره أنها فكرة ناجحة ، وخاصة لان محمد على عازم على التوجه الى الحجاز فيكون غيابه خير فرصة لتنفيذ مهمته واعتلائه عرش مصر ، وعاد الى القاهرة ونفسه ممتلئة آمالا كبارا ، وبدا عليه فى مصر من الغطرسة والكبرياء ما جعل الظنون تحوم حوله ، واستشف محمد على بثاقب نظره تغيرا فى اطواره وحركاته ، فارتاب فى أمره ، وما أكثر ما يستهدف الناس للشبهات والريب فى ذلك العصر ، وزاد فى ارتيابه ان كتخداه (محمد لاظ اوغلى) المشهور بكراهيته لجنس المماليك نقم على لطيف باشا كبرياءه وخيلاءه وما ناله من المزايا والرتب ، فالقى فى روع محمد على انه يسرف فى بذل المال ويستكثر من الاتباع والمماليك فعسى أن يتخذهم جندا ويحدث بهم حدثا ، فتزعزعت ثقة محمد على فيه ، ولما مضى الى الحجاز عهد الى محمد لاظ اوغلى أن يرقب حركات لطيف باشا وأطلق له ان يتخذ ما يراه فى شأنه ، وكان الكتخدا معتزما التنكيل به ، فأخذ يؤلب عليه رؤساء الحكومة مثل حسن باشا ، وطاهر باشا ، وطبوز اوغلى ، ومحو بك ، ومحمود بك الدويدار ، وكذلك أوغر عليه صدر اسماعيل باشا ابن محمد على ، وصمم على قتله بعد أن أخذ للامر عدته

وفى اليوم الموعود باغتته بدعوته الى اجتماع يعقد فى القلعة للنظر فى بعض الشؤون ، وخيره بين ان يحضر أو يغادر الديار المصرية ، وكان لطيف يعلم ما وراء هذه الدعوة من المهالك ، فحار فى أمره ، وبينما هو يفكر فى حيلة ينجو بها أبصر فرأى بيته يحاصره نحو الفين من الجنود جاءوا ليقبضوا عليه وأخذوا يطلقون الرصاص على داره ، فعلم أن قد أحيط به ، وفكر فى الفرار ، فاستتر فى مخبأ بداره ومعه نساؤه ومملوك له حتى جن الليل ، فتسلل هو الى بيت خازنداره واختفى فيه

أما العسكر فاقتحم جماعة منهم دار لطيف باشا وكشفوا مخابئها ، وفتشوها تفتيشا دقيقا ، فعثروا على النساء والمملوك ، ولم يجدوا ضالتهم أى لطيف باشا ، ولما كان الغد اراد لطيف أن يغادر بيت خاز نداره خشية ان تقع عليه عيون الرقباء لقربه من بيته، فصعد الى سطح البيت ،واعتزم أن يقفز من سطح الى سطح ليلوذ بالهرب ، و بينما هو يقفز من سطح خاز نداره أبصره أحد الجنود المراقبين له فصاح به لينبه اليه الرقباء ، فرماه لطيف باشا برصاصة جندلته ، ولكنها أيقظت نظر الرقباء فتعقبوه، ولم تمض ساعات حتى القوا القبض عليه فكبلوه وساقوه الى الكتخدا لمحاكمته

فعقد الكتخدا ديوانا من كبار رؤساء الحكومة واتفقوا على اعدامه ، وسيق لطيف باشا الى ساحة الاعدام تحت سلالم سراى القلعة وقطع رأسه

ويلوح لنا أن ماذكره جمهور المؤرخين من ان قتل لطيف باشا يرجع الى ممالأته الحكومة التركية على إنتزاع ولاية مصر من محمد على أمر مشكوك فيه ، ولا يسهل تصديقه ، لأن الوقت لم يكن مناسبا لخلع محمد على وهو منصرف الى توجيه كل قواته لمحاربة الوهابيين ، وحكومة الاستانة لم تكن فى ذلك الحين تخشى بأس محمد على بل كانت فى حاجة اليه لتفرغ من الدولة الوهابيــة التى تنازعها السلطة والسيادة وتتهددها بانشاء دولة عربية قد تنتزع منها الخلافة ، فمحمد على كان وقتئذ مشمولا برضا الحكومة التركيـة ، ولا يتفق منطق الحوادث مع تآمرها عليه فى هذه الظروف

وأغلب الظن ان محمد على وحاشيته قد ساءهم الانعام على لطيف باشا بالباشوية إذ لم يسبق للسلطان ان انعم بها على أحد بعد تولية محمد على غير ابنائه ، وأخذت بطانة الباشا وخاصة كتخداؤه محمد لاظ أوغلى ينظرون بعين المقت والارتياب الى لطيف باشا ، وزادهم مقتا له ما بدا عليه من الغطرسة والخيلاء بعد عودته من الاستانة ، وكان لاظ اوغلى معروفا عنه كرهه للمماليك ، ولطيف باشا كان فى

الاصل مملوكا ، فحقد عليه واعتزم التنكيل به كما تقدم ، واتخذ تهمة المؤامرة وسيلة لانفاذ عزمه

وقد ذكر الجبرتى حكاية المؤامرة ، ولم يؤيدها فى روايته، وكذلك لم يروها مانجان بلهجة تفيد اليقين

مشروع الصلح واخفاقه

فى خلال الهدنة التى عقدها طوسون باشا مع (عبد الله بن سعود) جاءه كتاب من والده ينبئه بأنه سافر الى مصر لشؤون هامة وانه ترك له عددا عظيما من الجند بقيادة خاز نداره ، ويوصيه بالمبادرة الى الزحف على (الدرعية) عاصمة الوهابيين لاستئصالهم والقضاء عليهم

ورد خطاب محمد على الى ابنه فارسل يستدعى الخازندار الى مدينة (الرس) قبل انقضاء أجل الهدنة ، وتشاور طوسون باشا هو وقواد الجيش ورؤساء القبائل الموالية ، واستقر رأيه على قبول الصلح ، واشترط لذلك شروطا اهمها ان تحتل الجيوش المصرية (الدرعية) وان يرد عبد الله بن سعود كل ما أخذه الوهابيون من الحجرة النبوية من النفائس والجواهر ، وان يكون رهن أوامر طوسون باشا حتى اذا طلب اليه السفر الى أى جهة كائنة ما كانت أذعن للأمر ، وان يؤمن سبل الحج ويكون خاضعا لحاكم المدينة ، وألا يتم تمام الصلح الا بعد عرضه على محمد على باشا واقراره

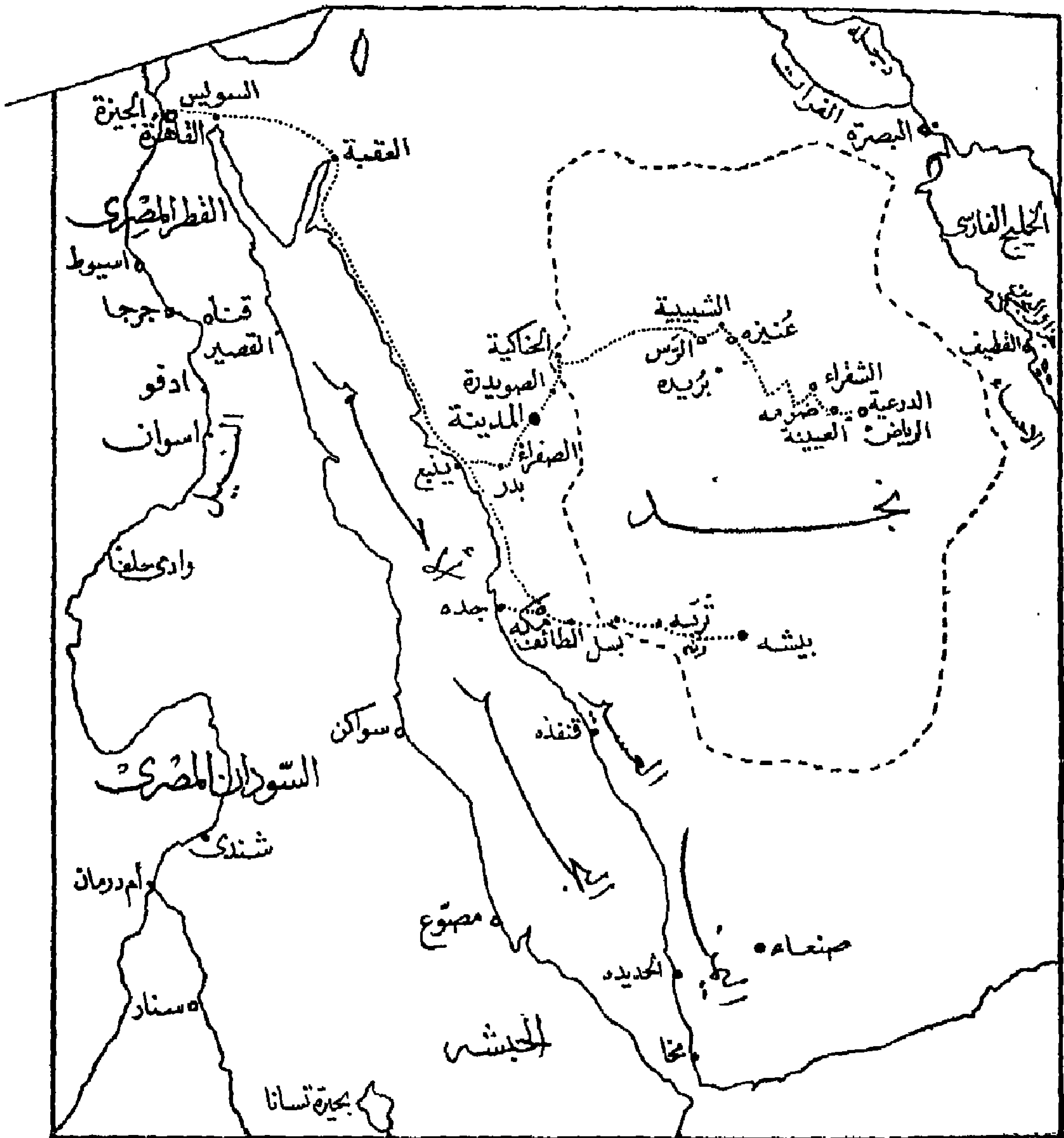
وارسل عبد الله بن سعود وفدا الى القاهرة ليعرض الصلح على محمد على ، ووصل الوفد الى مصر فى سبتمبر سنة ١٨١٥ ، ولكن محمد على اظهر تشددا ولم يرض بالشروط التى عرضها ابنه ، وصمم على معاملة أمير الوهابيين معاملة الخوارج والعصاة ، ولعله كان يرمى الى بسط حكمه على جزيرة العرب ، فرأى فى بقاء ظل لدولة الوهابيين مهما تظاهر عبد الله بن سعود بالخضوع والولاء حائلا

دون استقرار حكمه فى الجزيرة ، فآثر ان يمحق قوته و يأخذه اسيرا ليقضى على دولته القضاء الاخير ، فطلب الى الوفد قبل ان يصفح عن أميرهم ان يرد جميع ما اخذه الوهابيون من نفائس الحرم النبوى وان يسلم الدرعية الى حاكم المدينة وان يحضر بنفسه و يذهب الى الاستانة ليكون رهن أوامر السلطان وليقدم له حسابا عن أعماله ، وكان محمد على يتوقع ألا تقبل شروطه القاسية وخاصة سفر عبد الله بن سعود الى الاستانة لأن معنى ذلك تسليم عنقه الى يد الجلاد ، وقد تحقق ما توقعه فان عبد الله بن سعود لما بلغه نبأ هذه الشروط أرسل يقول انه لم يبق لديه شئ من النفائس التى انتزعها ابوه حتى يرد منها شيئا ، ورضى بأن يعين محمد على نائبا عنه فى الدرعية يتولى قبض الخراج أوأن يحدد الخراج بمبلغ معلوم يتعهد بادائه ، ورفض شرط الذهاب الى الاستانة .

فأرسل محمد على يتهدده بالحرب و ينذره جيشا جرارا يكتسح بلاده ويخربها ، و بذلك اخفقت مفاوضات الصلح ، وتأهب عبد الله بن سعود للحرب والقتال ، وجرد محمد على حملة جديدة على الحجاز بقيادة أكبر أنجاله ابراهيم باشا

رجوع طوسون باشا الى مصر

علم طوسون باشا وهو فى الحجاز بانباء الفتنة العسكرية التى اثارها الجنود الارناءود بالقاهرة وماوقع منهم من النهب والتمرد مما سيجئ بيانه فقرر العودة الى مصر ، وسار من المدينة الى ينبع ، ومنها الى السويس بحرا ، وكان وصوله اليها فى غاية شهر ذى القعدة سنة ١٢٣٠ ، وقدم القاهرة يوم ٥ ذى الحجة (٨ نوفمبر سنة ١٨١٥) وكان الاحتفال باستقباله عظيما بالغا ، قال الجبرتى فى هذا الصدد « فى رابع ذى الحجة سنة ١٢٣٠ نودى بزينة الشارع الاعظم لدخول طوسون باشا سرورا بقدومه ، فلما اصبح يوم الثلاثاء خامسه احتفل الناس بزينة الحوانيت بالشارع ، وعملوا له موكبا حافلا ، ودخل من باب النصر وعلى رأسه الطلخان وشعار الوزارة ، وطلع الى القلعة وضربوا فى ذلك اليوم مدافع كثيرة وشنكا وحراقات »



خريطة الحرب الوهابية

وفيها بيان المواقع التى ورد ذكرها فى الفصل الخامس

استئناف الحرب فى الحجاز

بقيادة ابراهيم باشا

ابدى محمد على همة كبيرة فى تجريد الحملة الجديدة ، وظل ستة أشهر يعد معداتها ، وعقد لواءها لابنه الاكبر ابراهيم باشا(١)، فأمر بجمع المراكب فى ساحل بولاق لنقل المؤونة والذخائر والمدافع والمهمات الى قنا ومنها تنقل برا الى ثغر (القصير) لتقلع منه الى (ينبع) بحرا ، وسار ابراهيم باشا من بولاق يوم ٥ سبتمبر سنة ١٨١٦ قاصدا قنا ، ولما وصل الى اسيوط جند الفين من الفلاحين لينضموا الى الحملة

ولما بلغت الحملة الى قنا نقلت على ظهور الابل الى القصير، واعد ابراهيم باشا ستة آلاف جمل قدمها عرب العبابدة لهذه الغاية ، فمضت الحملة الى ميناء القصير واقلعت بهم سفن الاسطول المصرى الى ينبع، فبلغتها يوم ٢٩ سبتمبر، وكان يصحب ابراهيم باشا ضابط فرنسى من ضباط اركان الحرب وهو المسيو فيسيير Vaissiere وطبيب وجراحان وصيدلى من الايطاليين

ولم يكد يستقر به المقام فى ينبع حتى سار الى المدينة ، فأدى فروض الزيارة النبوية ، وأخذ يستعد للزحف والقتال

وفى اليوم الرابع من عيد الاضحى سار بجيشه وقصد (الصويدره) شمالى المدينة واتخذها معسكره العام ، واخذ يجهز المعدات ويجمع الابل للزحف على نجد ، ولكنه عانى مصاعب كثيرة فى بدء الحملة ، منها أن معظم القبائل كانت ممالئة للوهابيين على محاربة الجيش المصرى ، فأخذوا يناوشون القوافل

---

(١) انعم عليه السلطان بالباشوية مكافأة لابيه على خدماته ، وكان يبلغ من العمر سبعا وعشرين سنة .

بين الصويدره والثغور البحرية ، فأنفذ ابراهيم باشا لمحاربتهم قوة من الفى جندى التقت بهم على مسيرة يومين واوقعت بهم الهزيمة

ثم اخذ العرب يؤثرون الجانب المصرى على الوهابيين لما لم يجدوا من هؤلاء منفعة أو طائلا، فانضموا الى ابراهيم باشاوتعهدوا بتقديم مايطلب من الابل وغيرها

زحف ابراهيم باشا من (الصويدره) وسار الى (الحناكية) وعسكر بها وتحصن فيها ، واتخذها نقطة ارتكاز لزحفه ، ثم تحرك منها قاصدا (الرس) التى اتخذها عبد الله بن سعود معسكرا له ، وكان الوهابيون قد احتلوها بعد عودة طوسون باشا الى مصر

وفاة طوسون باشا

سبتمبر سنة ١٨١٦

رجع طوسون باشا الى مصر كما قدمنا ، وبعد ان استقر به المقام تولى قيادة الفرق التى انفذها محمد على لترابط على فرع رشيد ، وكان غرض محمد على توزيع الجنود فى مختلف انحاء الوجه البحرى حتى لايكون احتشادهم فى القاهرة خطرا على النظام بعد مابدا منهم من التمرد والعصيان، ولكى يلقى فى روعهم انه لايقصد تشتيتهم اومعاقبتهم أمربان يصحبهم فى معسكراتهم الجديدة بعض ابنائه ورؤساء جنده، فتولى طوسون باشا قيادة بعض تلك الفرق كما قدمنا ، واتخذ معسكره فى (برنبال) الواقعة بالبر الشرقى للنيل تجاه رشيد،والتمس بها الراحة من عناء المعارك التى خاضها فى الحجاز ، فاتخذ الموسيقيين والراقصين والراقصات والمغنيات ومجالس اللهو وبقى بها الى أن عاجلته منيته ليلة ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٦ اثر مرض ثاربه فجأة قيل انه نشأ من تهالكه على اللذات ، ولم يمهله اكثر من عشر ساعات ثم فاضت روحه ، فنقلت جثته بطريق النيل الى القاهرة ودفن فى مقابر الامام الشافعى

توفى طوسون وهو فى مقتبل الشباب اذ لم يتجاوز العشرين من عمره ، فجزع ابوه على فقده جزعا شديدا ، وحزن الناس لوفاته لما كان عليه من الشجاعة والجود والميل الى الشعب

حصار (الرّس)

اشتبكت طلائع الجيش المصرى بالوهابيين على مقربة من (الرس) ، فكانت الغلبة للجيش المصرى لما امتاز به من النظام والتسلح بالبنادق الحديثة ومعاونة العربان من قبيلة حرب

هزم الوهابيون ورجعوا القهقرى ، وامتنع عبد الله بن سعود فى (الرس) ، فضرب عليها ابراهيم باشا الحصار وجلب المدافع لرميها ، وأقام الاستحكامات حولها ، لكنها كانت على قوة ومنعة فاستمر الحصار ثلاثة اشهر وسبعة عشر يوما دون أن ينال منها طائلا ، ودافع عنها الوهابيون دفاع الابطال بالرغم من قتالهم جيشا مسلحا بالبنادق الحديثة ، ولم يكن عندهم الا البنادق من الطراز العتيق الذى يطلق بالفتيلة ، ومع ذلك صدوا هجمات الجيش المصرى ثلاث مرات وكبدوه خسائر جسيمة ، وبلغ عدد قتلاه مدة الحصار ٣٤٠٠ جندى على حين لم يقتل من الوهابيين سوى ١٦٠ مقاتلا ، وهذا يدلك على فداحة الخسائر التى أصابت الجيش المصرى فى حصار (الرس)

وقد ادرك ابراهيم باشا ان خسائره ستتفاقم اذا هو استمر فى الحصار ، وان ذخيرته نقصت ومؤونته كادت تنفد ، وأصبح الجيش هدفا للمجاعة ، اضف الى ذلك ماخامر نفوس الجنود من الملل واليأس ، وما قاسوه من الشدائد والاهوال ، ثم انتشار الامراض بينهم وهبوب الزعازع والاعاصير التى كانت تقتلع الخيام فترمى بها فلا يجد الجنود وخاصة المرضى والجرحى مأوى لهم

فاضطر ابراهيم باشا ان يرفع الحصار عن (الرس) ، وان يقبل من عبد الله ابن سعود شروطا لوقف القتال ما كان ليرضاها لو لم تمتنع عليه ، فصالحه على أن يرفع الحصار عن المدينة وان يضع أهلها سلاحهم ويقيموا على الحياد ، والا يدخل

الرس احد من جنود ابراهيم باشا أو ضباط جيشه، ولا يجبر الأهالى على تقديم شىء من المؤونة للجيش ، ولا يؤدوا اتاوة ، وانه اذا استولى الجيش على مدينة (عُنيزة) تسلم له (الرس) بدون قتال، وان لم يفلح يعود القتال ثانية

سار ابراهيم باشا قاصدا (عنيزة) واحتل فى طريقه (الخبراء) بعد ان ضربها بالمدافع عدة ساعات ، واستراح الجيش بها أحد عشر يوما ، ثم سار الى (عنيزة) وحاصرها ستة أيام الى ان سلمها حاكمها محمد بن حسن على ألا تؤسر الحامية الوهابية وان يؤذن لها بالذهاب انى شاءت بشرط أن تتخلى عما لديها من الاسلحة والذخائر والمؤونة ، فرضى ابراهيم باشا بهذه الشروط ودخل المدينة ، ثم أرسل كتيبة من الجند لاحتلال (الرس) طبقا للشروط التى اتفق عليها من قبل

كان لسقوط (عنيزة) بهذه السرعة أثر كبير فى سير القتال ، لأنها من أهم مواقع نجد ، فتراجع عبد الله بن سعود الى (الشقراء) ، واخذ يحصن (الدرعية) مخافة ان تتداعى بتأثير ضربات ابراهيم باشا ، وجنحت القبائل فى بلاد القصيم الى التسليم خوفا من بطش ابراهيم واذعنت له

فتح الشقراء (يناير سنة ١٨١٨)

استأنف ابراهيم باشا الزحف ، فاحتل (بُرَيدة) بعد قتال طفيف ، و بقى بها شهرين تلقى فى خلالها المدد من مصر ، ثم سار فى اواخر ديسمبر سنة ١٨١٧ قاصدا (الشقراء) وهى من امنع بلاد نجد، فوصلها يوم ١٣ يناير سنة ١٨١٨ وضرب عليها الحصار وأخذ يشدد فى حصارها و يضربها بالمدافع حتى طلب أهلها التسليم ورضى منهم ألا يأخذ منهم أسرى وان يؤذن لهم بالذهاب حيث شاءوا على ألا يحملوا السلاح ثانيا لقتال الجيش المصرى ، واذا نقضوا عهدهم استحل دماءهم

ودخل ابراهيم باشا المدينة دخول الظافر يوم ٢٢ يناير سنة ١٨١٨

كان فتح (الشقراء) انتصارا كبيرا للجيش المصرى لما لموقعها من الشأن والخطر ، ولما وصلت الى مصر انباء هذا الفتح قوبلت بابتهاج عظيم

قال الجبرتى فى هذا الصدد

« وفى أواخر ربيع الثانى سنة ١٢٣٣ (فبراير سنة ١٨١٨) حضر مبشر من ناحية الديار الحجازية يخبر بنصرة حصلت لابراهيم باشا وانه استولى على بلدة تسمى (الشقراء) وان عبد الله بن سعود كان بها فخرج منها هاربا الى الدرعية ليلا ، وان بين عسكر الاتراك والدرعيين مسافة يومين ، فلما وصل هذا المبشر ضربوا لقدومه مدافع من ابراج القلعة وذلك وقت الغروب من يوم الاربعاء سادس عشرينه »

فتح الدرعية (سبتمبر سنة ١٨١٨)

انشأ ابراهيم باشا فى الشقراء مستشفى وترك بها فصيلة من الجنود ، وسار قاصدا (الدرعية) عاصمة الوهابيين ، وكانت تبعد عن المدينة المنورة التى اتخذها ابراهيم باشا قاعدة للحركات الحربية بنحو ٤٠٠ ميل ، وهذا يدلك على عظم المراحل التى قطعها الجيش فى الحرب والقتال

فعرج فى طريقه الى (الدرعية) على (ضُرْمَة) اذ علم ان بها كثيرا من المؤونة والجياد ، فامتنعت عليه ، فضربها بالمدافع ودافع حاكمها وأهلها عن مدينتهم دفاعا شديدا وقتلوا كثيرا من المهاجمين ، واستمر القتال حتى طلب الحاكم التسليم على أن يخلى البلد ، فاخلاها وترك الاهالى هدفا لبطش الجيش ، وأمر ابراهيم باشا بقتلهم عقابا لهم على ما كبدوا الجيش من الخسائر ، فقتلوا جميعا

بقى ابراهيم باشا شهرين فى (ضرمه) حيث عاقته الامطار عن الزحف ، ثم غادرها فى ٢٢ مارس سنة ١٨١٨ قاصدا (الدرعية) عاصمة الوهابيين فحط تجاهها يوم ١٦ ابريل فى جيش مؤلف من خمسة آلاف وخمسمائة من المشاة والفرسان مجهزين باثنى عشر مدفعا

تتألف (الدرعية) من خمسة احياء متجاورة يحيط بكل منها سور ، فكانت المدينة محصنة تحصينا منيعا وفيها بعض المدافع يستعملها الوهابيون فى القتال

رتب ابراهيم باشا مواقع جنوده واعد العدة لمهاجمتها ، وعاونه فى رسم خطط الحصار الضابط الفرنسى الذى يصحبه وهو المسيو فيسيير Vaissiare ، وبدأ ابراهيم

يضرب المدينة بالمدافع ، ولكنها امتنعت عليه ودافع عنها الوهابيون دفاع الابطال ، واشترك نساؤهم فى القتال ، فكان دفاعهم مجيدا

استمر الحصار اكثر من شهرين والمدينة مستعصية على الجيش المصرى ، فبدأ مركزه يتحرج ، وزاد فى حرجه أن الطبيعة أصابت الجيش بنكبة كادت تودى به لولا ثبات ابراهيم باشا وعزيمته الحديدية ، فقد هبت عاصفة على معسكر الجيش يوم ٢١ يونيه ١٨١٨ اطارت نارا كان أحد الجنود يوقدها ، فاندلعت النار الى خيمة منصوبة على قرب من مستودع الذخيرة ، فاحترقت الخيمة وامتدت نارها الى المستودع فانفجر لساعته ونسف الانفجار من القنابل والرصاص ما ذهب بنصف ذخيرة الجيش ، فذعر الجنود لدوى الانفجار ولما أصاب الذخيرة من التدمير ، وكادت تحل الهزيمة بالجيش ويختل نظامه لولا أن قابل ابراهيم باشا تلك الكارثة بالشجاعة والجلد ، ومما يؤثر عنه فى هذا الموقف أنه قال لمن حوله « لقد فقدنا كل شىء ولم يبق لدينا إلا شجاعتنا ، فلنتدرع بها ولنهاجم العدو بالسلاح الابيض »

وأخذ يشجع الضباط والجنود ، وارسل يطلب الذخيرة من المواقع التى يحتلها الجيش المصرى كالشقراء ، وبريده ، وعنيزة ، ومكة والمدينة وينبع

وعلم الوهابيون بما حل بذخيرة الجيش المصرى ، فقرروا الهجمة عليه لعلهم يأخذونه من ضعف وهاجموه فعلا اليوم التالى ، ولكن ابراهيم باشا احكم خطط القتال وأمر جنوده بالاقتصاد فى الذخيرة فردالوهابيين على اعقابهم ، واستمرت الحرب سجالا الى ان جاءته الذخائر فسد بها النقص ، وتلقى من أبيه رسالة بأنه ممده بثلاثة آلاف من المقاتلة بقيادة خليل باشا ، فاعتزم ابراهيم ان يضرب الضربة القاضية قبل ان يتلقى المدد لكيلا يشاركه خليل باشا فى فخر الظفر بالوهابية .

رواية الجبرتى

اشار الجبرتى الى تلك الحوادث بقوله :

« وفى منتصف (رمضان سنة ١٢٣٣ – يوليه سنة ١٨١٨) وصل نجاب واخبر

بأن ابراهيم باشا ركب الى جهة من نواحى الدرعية لأمر يبتغيه ، وترك عرضيه (جيشه)، فاغتنم الوهابية غيابه وكبسوا على العرضى على حين غفلة وقتلوا من العساكر عدة وافرة، وأحرقوا الجبخانة (الذخيرة)، فعند ذلك قوى الاهتمام وارتحل جملة من العساكر فى دفعات ثلاث برا وبحرا يتلو بعضهم بعضا فى شعبان ورمضان، وبرز عرضى (جيش) خليل باشا الى خارج باب النصر »

وقال فى حوادث شوال من تلك السنة « وفى ثامنه ارتحل خليل باشا مسافرا الى الحجاز من القلزم وعساكره الخيالة على طريق البر » ومعنى هذا ان المشاة ذهبوا من طريق السويس بحرا وسار الفرسان برا من طريق برزخ السويس الى الحجاز ، فتأمل عظم المراحل التى كان يقطعها الجنود والمتاعب الهائلة التى كانوا يتكبدونها فى تلك الحرب الشاقة

قلنا ان ابراهيم باشا اعتزم ان يضرب الدرعية الضربة القاضية ، فوجه قواته الى كل حى من أحيائها واحدا اثر آخر ، فاستولى على الاول ثم على الثانى ثم على الثالث ، وبذلك ضاق الخناق على الوهابيين ، وكان الحصار قد دام خمسة أشهر ، فرأى عبد الله بن سعود ان ليس فى مقدوره الاستمرار فى المقاومة بعد ان فدحته الخسائر ونالته الأوصاب من طول الحصار واهواله ، فجنح الى الصلح والتسليم ، وارسل يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ رسولا الى ابراهيم باشا يطلب وقف القتال حتى يتم الاتفاق على الصلح

فابتهج ابراهيم باشا لهذه الرسالة ابتهاجا عظيما ، واذن بوقف القتال ، ثم جاء عبد الله بن سعود بنفسه الى معسكر ابراهيم باشا ، فتلقاه القائد العظيم بالحفاوة والاكرام ، وتم الاتفاق بينهما على ان تسلم (الدرعية) الى البطل ابراهيم وانه يتعهد بالابقاء عليها، والا يوقع بالوهابيين أو ينالهم بضرر، وان يذهب عبد الله بن سعود الى مصر ثم الى الاستانة كما هى رغبة السلطان ، فرضى عبد الله بن سعود بهذه الشروط ، واستولى الجيش المصرى على الدرعية بعد حصار دام نحو ستة

اشهر ، و بعد فتح الدرعية لم تلبث المدن الباقية من نجد ان سلمت وخضعت لقائد الجيش المظفر

كان محمد علي فى خلال تلك الوقائع قلقا على مصير الحملة التى يقودها ابنه فى فيافى نجد ووهادها ، وتأخرت عنه أخبارها . فاشتدت هواجسه ومرض بعينه وطلب الى العلماء أن يقرءوا البخارى و يتوجهوا الى الله بدعواتهم مبتهلين أن ينصر جيشه ، قال الجبرتى فى حوادث رمضان سنة ١٢٣٣ (يوليه سنة ١٨١٨) « وانقضى شهر الصوم والباشا متكدر الخاطر ومتقلق ومنتظر ورود خبر يسر بسماعه »

الى أن جاءته البشرى بانتصار ابراهيم باشا و دخوله الدرعية ، فابتهج لهذه البشرى ايما ابتهاج ، واطلقت المدافع من القلعة يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨١٨ ، اعلانا لهذا النصر المبين

انتهاء الحرب الوهابية

انتهت الحرب الوهابية بانتصار الجيش المصرى و بسط نفوذ مصر فى بلاد العرب ، وكانت هذه الحرب من أشق حروب مصر فى عهد محمد علي واكثرها ضحايا واعظمها نفقات ، وقد تخللتها هزائم ومواقف عصيبة كادت تقضى على الحملة المصرية ، فان الجيوش التى جردها محمد علي استهدفت للخطر فى مواطن عدة وخاصة فى هزيمة (الصفراء) الاولى ، وحصار (الرس) عندما استعصت على ابراهيم باشا ، وفى حصار الدرعية ، وعندما التهمت النار ذخائر الحملة تحت اسوارها ، ففى تلك المرات الاربع كادت الحملة المصرية تقع فى الأسر لولا ان القيادة الوهابية كان يعوزها الحزم والكفاية والنظام

ومن الأسباب التى أدت الى اضمحلال قوة الوهابية ضعف عبد الله بن سعود ، والاموال التى بذلها طوسون وابراهيم ومحمد على واشتروا بها ذمم البدو ، فان القبائل التى انحازت الى جانب الجيش المصرى قد عاونته معاونة كبيرة ، ولولا

ذلك لـكانت مواصلاته عرضة للانقطاع ولما استطاع ان يقطع تلك المراحل الشاقة فى بلاد مقفرة ، اضف الى ذلك ان عزيمة محمد على وابراهيم ، وما احتمله الجيش المصرى من الصبر على المشاق والاهوال ، كل ذلك كان له الفضل الاكبر فى ماأدركه من الفوز ، و بفضـل تلك التضحيات الجسيمة أمكن مصر أن تبسط نفوذها فى مفاوز جزيرة العرب تلك التى يصعب على أى دولة ان تخضعها ، وقد ظل هذا النفوذ مبسوطا على انحائها الى ان تقلص ظله فى أواخر عهد محمد على كما سيجىء بيانه

الحفلات الحربية فى عهد محمد على

كان للانباء التى جاءت بفتح الدرعية وانتهاء الحرب الوهابية اثر ابتهاج عظيم فى مصر وقوبلت باحتفالات بالغة وصفها الجبرتى بقوله

« فى سابع ذى الحجة سنة ١٢٣٣ (اكتوبر سنة ١٨١٨) وردت بشائر من شرق الحجاز بمراسلة من عثمان اغا الوردانى أمير الينبع بان ابراهيم باشا استولى على الدرعية والوهابية ، فانسر الباشا لهذا الخبر سرورا عظيما ، وانجلى عنه الضجر والقلق ، وأنعم على المبشر ، وعند ذلك ضربوا مدافع كثيرة من القلعة والجيزة و بولاق والازبكية ، وانتشر المبشرون على بيوت الاعيان لأخذ البقاشيش ، وفى ثانى عشر وصل المرسوم بمكاتبات من السويس والينبع ، وذلك قبيل العصر ، فأكثروا من ضرب المدافع من كل جهة ، واستمر الضرب من العصر الى المغرب بحيث ضرب بالقلعة خاصة ألف مدفع ، وصادف ذلك شنك أيام العيد ، وعند ذلك أمر بعمل مهرجان وزينة داخل المدينة وخارجها و بولاق ومصر القديمة والجيزة ، وشنك على بحر النيل تجاه الترسانة ببولاق »

وتجددت الحفلات فى شهر محرم سنة ١٢٣٤ (نوفمبر سنة ١٨١٨) لمناسبة ورود تفاصيل الانتصارات التى نالهـا ابراهيم باشا ، وأسهب الجبرتى فى وصف تلك الحفلات مما يدلك على فخامتها وبهائها

فقد نودى بزينة المدينة سبعة أيام ، ونصبت السرادقات خارج باب النصر ،

ومن بينها سرادق محمد على باشا وباقى الأمراء لمشاهدة الحفلات ، وهى مناورات حربية تتخللها حركات فروسية قام بها الخيالة والمشاة ، واقترنت باطلاق المدافع بكثرة هائلة « بحيث يتخيل الانسان أصواتها مع أصوات بنادق الخيالة المترامحين رعودا هائلة » ، وفى الليل كانت توقد المصابيح والمشاعل ، وتطلق السواريخ والحراقات ، وتضرب المدافع

وبعد انقضاء السبعة الأيام أعدت حفلات أخرى فى جهة بولاق تختلف فى نظامها وأوضاعها عن حفلات باب النصر ، فهذه كانت برية ، أما حفلات بولاق فكان ميدانها النيل وشاطئيه ، ولعلها لذلك كانت أبدع وأروع ؛ فقد استؤجرت الاماكن المطلة على البحر باجور مرتفعة لتزاحم الناس على مشاهدتها واستجلاء مناظرها ، وكان قوام الحفلات مناورات بحرية تقوم بها السفن والمراكب تمثل فيها المعارك البحرية ، ولبست بولاق حلة من الرونق والبهاء ، واقبل الناس من كل صوب لمشاهدة معالم الزينة «وزين أهالى بولاق أسواقهم وحوانيتهم وأبواب دورهم ، ودقت الطبول والمزامير والنقرزانات فى السفائن وغيرها ، وطبلخانة (موسيقى) الباشا تضرب فى كل وقت ، والمدافع الكثيرة تضرب فى ضحوة كل يوم وعصره وبعد العشاء ، وتوقد المشاعل وتعمل أصناف الحراقات والسواريخ والنفوط ، وتتقابل القلاع المصنوعة على وجه الماء ، ويرمون منها المدافع على هيئة المتحاربين » .

ولعلك تلحظ من التأمل فى وصف الجبرتى لهذه الحفلات أنها فاقت فى جلالها وفخامتها كل ماتقدمها من الحفلات فى مختلف المناسبات ، ولم نجد فيما وصفه بعد ذلك من الحفلات لغاية انتهاء كتابه (سنة ١٨٢١) مايدانيها فى الروعة والبهاء ، وهذا يدلك على عظم تقدير الشعب للانتصارات الحربية وما تستثيره فى النفوس من روح الفخر والعزة ، ولاجرم أن الحفلات الحربية هى مظهر من مظاهر تقدم الشعوب وتقديرها لمفاخرها القومية وتكريم الفضائل والاخلاق الحربية ، فالحفلات التى وصفها الجبرتى تنطوى على هذه المعانى السامية ، وليس عجيبا ان تحتفل مصر بفتح الدرعية .

فان فتحها هو أعظم انتصار نالته فى أول حرب خارجية خاضت غمارها فى تاريخها الحديث ، فالدرعية هى عاصمة الوهابيين ، و بفتحها توجت حرب شاقة دامت سبع سنوات وكللت بالنصر والظفر

مقتل عبد الله بن سعود

جاء عبد الله بن سعود الى مصر أسيرا فنزل القاهرة يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨١٨ وتلقاه محمد على فى قصره بشبرا فاكرم مثواه ، ثم أمر برحيله الى الاستانة ، فوصلها وهناك قتل بأمر السلطان

تخريب الدرعية

لم يف محمد على بعهود ابنه ابراهيم فى شروط الصلح ، فأرسل اليه قبل مغادرته الحجاز يأمره بهدم حصون الدرعية وأسوارها وتخريب منازلها وأن يرسل الى القاهرة اخوة عبد الله بن سعود فنزل ابراهيم على أمر أبيه وأرسل اخوة ابن سعود وخرب الدرعية وأحرقها

عودة ابراهيم باشا الى مصر

بقى ابراهيم باشا بعد سقوط (الدرعية) يوطد نفوذه فى تلك الاصقاع ، وظل كذلك الى ان اعتزم العودة الى مصر ، فرجع من طريق القصير فقنا ، وانحدر فى النيل حتى بلغ الجيزة يوم ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ ، وقابل والده فى قصره بشبرا فضمه الى صدره مفتخرا بابنه العظيم ، ثم دخل ابراهيم القاهرة من باب النصر فى اليوم التالى دخول الظافر ، وشق المدينة من باب النصر الى القلعة فى موكب مهيب ، واحتشدت الجماهير لمشاهدته وتحيته ، وجاء محمد على الى مسجد الغورى وشاهد موكب ابنه اثناء مسيره ، ولما بلغ ابراهيم باشا القلعة استأنف سيره فى موكبه الى مصر القديمة وقصد من هناك الى قصره بجزيرة الروضة ، وزينت

المدينة ابتهاجا برجوع القائد الكبير وظلت فى افراح وزينات سبعة أيام متواليات أو كما يقول الجبرتى « استمرت الزينة والوقود والسهر بالليل ، وعمل الحراقات ، وضرب المدافع فى كل وقت من القلعة ، والمغانى والملاعب فى مجامع الناس سبعة أيام بلياليها ، فى مصر الجديدة والقديمة وبولاق وجميع الاخطاط »

فتح سيوة (فبراير سنة ١٨٢٠)

كان محمد على لا يفتأ يعمل لتوسيع تخوم الديار المصرية والوصول الى حدودها الطبيعية ، فمن ذلك انه جهز تجريدة من ١٣٠٠ جندى بقيادة حسن بك الشماشرجى لفتح واحة سيوة ، فسار اليها حسن بك يقود هذه الحملة ونشب قتال بينه وبين أهلها دام ثلاث ساعات وانتهى بهزيمة الأهلين وخضوعهم وطلبهم الامان واعترافهم بالطاعة والولاء للحكومة المصرية (فبراير سسنة ١٨٢٠) ، وانضمت هذه المنطقة من ذلك الحين الى حظيرة الوطن ، وقد أبدى حسن بك الشماشرجى فى تلك الحملة حزما ودراية

ومما هو جدير بالملاحظة ان فتح سيوة وقع فى أوائل سنة ١٨٢٠ أى قبيل الحملة التى جردها محمد علي لفتح السودان ، وأغلب الظن انه أراد أن يأمن على حدود مصر الغربية قبل الزحف جنوبا

وقد انتظمت شؤون سيوة فى عهد الحكم المصرى ، وقصدها رواد الاكتشاف وجابوا انحاءها لتعرف احوالها واكتشاف آثارها ، وعاونهم حسن بك الشماشرجى فى مهمتهم ، ومن هؤلاء المسيو لينان دى بلفون Linant de Bellefonds كبير مهندسي محمد على ، والمسيو دروفتى Drovetti قنصل فرنسا العام فى مصر ، والمسيو رتشى Ricci من اطباء ايطاليا وغيرهم ، فكان الفتح المصرى ممهدا السبيل للفتح العلمى والحضارة .

الفصل السادس

فتح السودان

(سنة ١٨٢٠ — ١٨٢٢)

السودان جزء لايتجزأ من مصر ، والحدود الجغرافية والقومية لمصر تشمل وادى النيل من منبعه الى مصبه ، فمصر والسودان جزءان لا ينفصلان من وحدة سياسية واقتصادية لاتقبل التجزئة ، تربطها روابط الوطن والتاريخ واللغة والدين ، وصلات الدم والنسب والمرافق المشتركة

والسودان معدود منذ القرون الغابرة جزءا من مصر ، ولقد اثبت (ماسبرو) وغيره من المؤرخين مابين مصر والسودان من الروابط التاريخية القديمة ، وثبت من النقوش الهيرغليفية ان الملك (تحوتمس الاول) توغل حتى انتهى الى منطقة البحيرات واحتل بعض النقط الحربيـة التى كانت على النهر [١] ، واذا كان السودان قد فصل عن مصر فى بعض الأزمنة قديما او حديثا فلم يكن ذلك الا خروجا عن القاعدة الازلية وهى انه جزء لا يتجزأ من مصر

ان ارتباط مصر والسودان ضرورة حيوية لهما ، وخاصة لمصر ، فانها تستمد حياتها من النيل ، فهى هبة النيل كما قال هيرودوت ، أوكما يقول المعاصرون مصر هى النيل ، والنيل هو مصر ، فلا تطمئن على حياتها اذا تملكت منابع النيل دولة أخرى ، ولا يتحقق استقلال مصر التام الا اذا شمل وادى النيل من منبعه الى

---

(١) شابى لونج بك . مصر ومديرياتها المفقودة ص ٤٠

مصبه وصارت هى والسودان وحدة سياسية تتألف منها الدولة المصرية المستقلة

هذه المبادئ وتلك الحقائق التى برهنت على صحتها عظات التاريخ على تعاقب العصور، ونطقت بها الحوادث السياسية فى مدى مائة العام الأخيرة، قد عمل محمد على باشا على تحقيقها، فلم يكد يوطد مركزه و ينال الانتصارات العظيمة التى فاز بها الجيش المصرى فى حرب الوهابيين حتى صحت عزيمته على فتح السودان ونشر علم مصر الخفاق فى اصقاعه وربوعه

ان فتح السودان هو ثالث الحروب التى خاضت مصر غمارها فى عهد محمد على لتأليف وحدتها السياسية، ولو لم تلح عليه تركيا فى المبادرة الى تجريد الجيوش على شبه جزيرة العرب لكان فتح السودان اول حروبه بعد رد الغزوة الانجليزية، لان محمد على لم يكن ليغفل عن اهمية السودان الحيوية لمصر، لكن الضرورات السياسية هى التى شغلته ردحا من الزمن عن فتحه وجعلته يبدأ بحرب الوهابيين

أسباب فتح السودان

يذكر المؤرخون بواعث وأسبابا عدة لفتح السودان، فمنها رغبة محمد على فى اكتشاف مناجم الذهب والماس التى تناقل الناس أنها موجودة فى اصقاع السودان، وخاصة فى سنار، ثم امكان تجنيد السودانيين فى الجيش المصرى النظامى لما اشتهر به الجنود السودانيون من الصبر والشجاعة والطاعة للرؤساء، ثم رغبته فى التخلص من الفرق الباقية من عسكر الارناءود وغيرهم من الجنود غير النظامية (الباشبوزق) ممن لم تهلكهم حروب جزيرة العرب وعادوا الى مصر وظلوا على ما جبلوا عليه من النزوع الى العصيان والتمرد والاخلال بالنظام، فرأى محمد على تخلصا منهم ان يجردهم على السودان وخاصة لانه شرع وقتئذ فى تأسيس الجيش المصرى النظامى كما سيجىء بيانه، ومن أغراضه أيضا القضاء على البقية الباقية من المماليك الذين كانوا لاجئين الى اقليم دنقلة، وهم على ما بلغوا اليه من الضعف

كانوا مصدر قلق لمحمد على ، فاعتزم القضاء عليهم لكى لا يستردوا قوتهم يوما ما ويزحفوا على مصر ، وكان يرمى كذلك الى توسيع ملك مصر من الجنوب ، واكتشاف منابع النيل ، وايجاد الروابط الاقتصادية بين مصر والسودان ، وتوسيع نطاق المعاملات التجارية بينهما إذ لم يكن يقصد السودان من المشتغلين بالتجارة سوى فئة قليلة من التجار المخاطرين بانفسهم من سكان الوجه القبلى ، وكانت أسفارهم فى الغالب عرضة للخطر ، وتحولت معظم متاجر السودان إلى طريق سواكن ومصوع من ثغور البحر الاحمر وكاد ينقطع ورودها الى مصر ، فرأى محمد على ان يبسط نفوذ مصر فى السودان لتكون طريقا لمتاجرها ، وادرك ان فى توسيع نطاق التجارة بين مصر والسودان فائدة لعمران البلدين وتنمية لما تجبيه الحكومة من المكوس على المتاجر فيزداد دخلها ويعوضها بعض ما فقدته من الاموال والنفقات فى الحرب الوهابية

هذه هى الاسباب والبواعث التى يذكرها جمهور المؤرخين لفتح السودان ، وكلها كما ترى اسباب صحيحة وجيهة ، ولكن يلوح لنا ان ضمان سلامة مصر وتأليف وحدتها السياسية والاطمئنان على منابع النيل كانت من أهم البواعث التى حفزت محمد على الى فتح السودان ، فان ما اشتهر به ذلك الرجل العبقرى من بعد النظر وصدق العزيمة لا بد قد جعله يقدر أهمية السودان لمصر ويدرك ان الاستقلال لا يتحقق الا اذا تملكت مصر مجرى النيل من منبعه الى مصبه

قال فى هذا الصدد (سدنى بيل) احد نبلاء الانجليز فى كتابه(١) : كانت العوامل التى حملت محمد على أن يفتح السودان كثيرة ، ولكنه من المعتقدين فى فوائد الرى ومنافعه ، فيرجح كثيرا أن يكون الاطمئنان على سلامة النيل الاعلى أحد اغراضه

ويقول ابراهيم باشا فوزى فى كتابه :

---

(١) ضبط النيل والسودان الحديث ص ١٤١

« فغى سا كن الجنان محمد على باشا محيى الديار المصرية لبانتين من فتح السودان، بل تخلص من ورطتين كبيرتين ، فقد علمتُ من شيخ ذى منصب معاصر لمحمد على باشا أن دولة أوروبية كانت تسعى لمعارضته باحتلال منابع النيل ، فاهتم لهذا الخبر اكبر اهتمام ، واستشار كثيرا من المهندسين الاوروبيين الذين جاء بهم من بلادهم الى هذا القطر ، فاقروا بالاجماع أن وقوع منابع النيل تحت براثن هذه الدولة مما لاتحمد مغبته حيث تصير حياة مصر فى يدها ، فصمم على انفاذ الحملة الى السودان »(١)

وغير خاف أن تلك الدولة التى يشير اليها فوزى باشا فى كتابه هى انجلترا ، فهى التى كانت تناوئ محمد على وتدأب للسعى فى احتلال مصر و بسط نفوذها عليها

ففتح السودان هو اذن حرب قومية بحتة ، والغرض منها من اسمى اغراض الحروب وانبلها قصداً ، إذ كانت الغاية منها تأليف وحدة مصر السياسية والمحافظة على كيانها القومى ، ولا يخفى أن مساحة السودان تزيد عن ضعف مساحة مصر إذ أنه يبلغ مسطح القطر المصرى مرتين ونصفا ، ومساحته تضاهى ربع مساحة القارة الاوروبية ، فبفتح السودان اتسعت رقعة الدولة المصرية فبلغت ثلاثة أمثال ما كانت عليه من قبل ، ووصلت الى معظم حدودها الطبيعية ، فلا غرو أن نعد فتح السودان خير حروب مصر فى عهد محمد على

اعتزم محمد على تجريد الحملة على السودان عقب انتهائه من حرب الوهابيين ، وهذا يدلك على قوة ارادته ومضاء عزيمته ودأبه على توسيع ملك مصر ، فانه لم يكد ينتهى من تلك الحرب الشاقة و يبسط نفوذ مصر على جزيرة العرب حتى بادر الى خوض غمار حرب أخرى أعظم غاية ، وأكثر منفعة ، وأعود بالخير والرفاهية على مصر وعلى الحضارة والانسانية

كانت حرب السودان على كثرة ضحاياها أقل مشقة وأقصر مدة من حرب الوهابيين ، فقد كان الجيش المصرى يواجه فى جزيرة العرب قوما مدربين على

(١) كتاب السودان بين يدى غردون وكتشنر جزء ١ ص ٥٨

القتال ، اشتهروا بشدة البأس ، وعاشوا للكر والفر ، وهم فوق ذلك معتزون بانتصاراتهم على الحملات العثمانية من قبل ، أما الجيش الذى تحرك لفتح السودان فلم يلق أمامه سوى قوات مشتتة عزلاء لاسلاح معها إلا الرماح وما اليها من الاسلحة البائدة ، وهى تجهل أساليب القتال وفنونه ، ولم يلق الجيش المصرى مقاومة تذكر إلا فى بلاد الشايقية وهم قبائل يسكنون جنوبى دنقله ، وفى كردفان التى كانت تابعة لسلطنة دارفور ، وفى مملكة سنار ، والعقبة الكؤود التى اعترضت الجيش المصرى فى فتح السودان هى الحميات والامراض الوبيئة التى حصدت طوائف الجنود ، فكانت أشد خطرا على الجيش من القتال وخوض المعارك

مقدمات الحملة

لجأ بقية المماليك بعد مذبحة القلعة الى جنوبى النوبة فيما يلى شلال اسوان ، واتخذوا مديرية دنقله معقلا لهم ، فأوفد محمد على اليهم بعض حاشيته تدعوهم الى العودة الى مصر والاقامة فيها على شروط أهمها ألا يستوطنوا المدن المصرية إلا باذن منه وأن يحضروا العاصمة يخفرهم بعض ضباطه حتى لاينهبوا شيئا من القرى والبلاد التى يمرون بها فى طريقهم الى القاهرة ، وأن يتنازلوا عن امتيازاتهم القديمة ولا يطالبوا بما أخذ منهم بعد مذبحة القلعة

كان محمد على يدرك أن المماليك لايقبلون هذه الشروط المهينة المذلة ، وبذلك يجد المسوغ لتجريد الحملة للقضاء عليهم ، وقد رفضوا فعلا قبولها ، وأخذوا يتوعدون بالدخول فى حدود مصر ، فلما جاء جوابهم محمد على أمر من فوره بحشد جيش فى مصر القديمة لفتح النوبة ودنقله وعقد لواءه لثالث انجاله اسماعيل باشا

وقبل أن يأمر بالزحف ذهب بنفسه الى حدود مصر العليا فى سبتمبر سنة ١٨١٩ يصحبه حسن باشا قائد الجنود الارناءود ومحمد لاظاوغلى (كتخدا بك) ووصل الى ماوراء شلال اسوان ليرتاد تلك الجهات ويرتب مواقع جنوده ويرسم خطط الزحف ، ثم عاد الى الجيزة فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨١٩ وأخذ يتم معدات الحملة التى أعدها لفتح السودان

معدات الحملة

تتألف الحملة عند بدء الزحف من ٤٠٠٠ مقاتل كما أحصاهم المسيو فردريك كايو العالم الفرنسي الذي صحب الحملة ، وقد تلقى هذا الاحصاء عن عابدين بك رئيس أركان حرب اسماعيل باشا ، من هؤلاء ١٢٠٠ من الفرسان العثمانيين ، و ٤٠٠ من فرسان العرب والمغاربة ، و ٦٠٠ من المشاة ، و ٣٠٠ من رجال المدفعية ، و ٨٠٠ من المشاة العرب والمغاربة ، و ٧٠٠ من عرب العبابدة ، فيكون مجموعهم ٤٠٠٠ (١)

ثم تلقى اسماعيل باشا خلال الزحف مددا من ١٤٠٠ مقاتل فبلغ الجيش ٥٤٠٠ مجهزين باربعة وعشرين مدفعا

وأنفذ محمد على جيشا آخر بقيادة صهره محمد بك الدفتردار لفتح كردفان بلغ عدده ٤٠٠٠ جندى مجهزين بعشرة مدافع ، فيكون مجموع الجيشين اللذين توليا فتح السودان نحو عشر آلاف مقاتل

وصحب الحملة ثلاثة من العلماء مهمتهم دعوة الاهلين فى البلاد التى يبلغها الجيش الى الدخول فى الطاعة والاعتراف بسلطة الحكومة المصرية حقنا للدماء ، وهؤلاء العلماء هم الشيخ محمد الاسيوطى الحنفى ، والسيد احمد البقلى الشافعى ، والشيخ السلاوى المغربى

وصحب الحملة أيضا بعد فتح دنقله ، المسيو فردريك كايو Cailliaud المتقدم ذكره بقصد الاكتشاف والبحث عن مناجم الذهب ، وله فى رحلته بالسودان كتاب ضخم يعد من أهم مراجع فتح السودان (٢)

احتشد الجيش فى مصر القديمة حيث أعد محمد على باشا ثلاثة آلاف مركب

---

(١) فردريك كايو ، رحلة فى مروى والنيل الابيض وفازوغلى جزء ٢ ص ٥٠

(٢) رحلة فى مروى والنيل الابيض وفازوغلى للمسيو فردريك كايو فى خمسة اجزاء

لنقل الجنود والمهمات والذخائر والمؤن بطريق النيل ، وأمر باعداد نحو ثلاثة آلاف من الابل فى (اسنا) للسير منها برا ، وسار فى خدمة الحملة الفان من الاتباع

وقائع الحملة

ركب الجنود المشاة المراكب فانحدروا فى النيل ، وسار الفرسان ورجال المدفعية بالبر الغربى ، وتقدمت الجيش طليعة مؤلفة من خمسمائة من الفرسان ، وتحركت الحملة قاصدة حدود دنقلة

وتحرك اسماعيل باشا وحاشيته فى ٢٠ يوليه سنة ١٨٢٠ بعد سفر الحملة بيومين ، فبلغوا أسوان ، والتقوا فيها ببقية الجنود الذين سبقوهم اليها ، فاقاموا بها ريثما تجتاز المراكب الشلال الاول ، ثم تقدموا جنوبا ، ففر المماليك الذين كانوا بالدر ودانت البلاد لاسماعيل باشا

فتح دنقلة

سارت الحملة من اسوان الى (وادى حلفا) على ظهور المراكب ، اما الفرسان فقطعوا المسافة برا فى اثنى عشر يوما ، وأقامت الحملة فى (وادى حلفا) نحو عشرين يوما (١) حتى اجتازت المراكب الشلال الثانى ثم زحفت على مديرية دنقلة فسارت من وادى حلفا الى (سكوت) ، ومن سكوت الى (دنقلة) ، ولم تلق مقاومة تذكر من المماليك ، فقد استسلم بعضهم ، ورحل البعض الى (شندى) يريدون الالتجاء الى ملكها ، ولكنه لم يقبل ايواءهم ، فتشتتوا بين القبائل السودانية وسلبهم السودانيون اسلحتهم حتى انقطع دابرهم وقضى على البقية الباقية من المماليك

---

(١) كايو . الجزء الثانى ص ٥٢

وسلمت البـلاد التى مر بها الجيش كسكوت و (المحس) و (ارقو) ، فقدم أهلها وحكامها الطاعة ، وكانوا يظنون ان الجيش المصرى راجع الى مصر بعـد تشتيت شمل المماليك اذ كان ظنهم انه جاء لمحاربتهم ، فلم يعدوا لمقاومته فانتهز هذه الفرصة واحتل بلاد دنقلة كلها

معركة كورتى (٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠)

ولما دخل الجيش بلاد (الشايقية) جنوبى دنقله تجمعوا لقتال اسماعيل باشا بالقرب من (كورتى) الواقعة بالشاطىء الغربى للنيـل ، ولم يكن معه من الجنود سوى ٨٠٠ فارس ، اما بقية الحملة فقـد أبطأ قدومها لتأخر المراكب فى اجتياز الشلالات ، فانقض الشايقية على رهط من رجاله وقتلوا منهم ٧٥ مقاتلا ، فاشتبك اسماعيل والشايقية فى معركة دامت ثلاث ساعات (٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠) انتهت بهزيمة الشايقية حيث فتكت بهم نيران البنادق فقتل منهم نحو ٨٠٠ وقتـل من جنود اسماعيل باشا نحو الثلاثين ، وقد أبدى الشايقية بسالة كبرى فى قتالهم ، فأعجب بهم اسماعيل باشا ، وعرض عليهم بعد انتهاء القتال ان ينتظموا فى سلك الجيش المصرى فاستجابوا الى طلبه ، و بذلوا ولاءهم للحكم المصرى وظلوا محافظين على عهدهم على مدى السنين

ثم تقدم اسماعيل بعـد المعركة و بلغ (كورتى) عاصمة الشايقية من أعمال مديرية دنقلة فأحرقها ، وانتظر بها ريثما تـكامل جيشه ثم استأنف الزحف فى ٢١ فبراير سنة ١٨٢١ (١) مجتازا صحراء (بيوضه) يصحبه الفرسان حتى بلغ النيـل تجاه (بربر) وكانت الرحلة اليها شاقة منهكة للقوى احتمل فيهـا الجند متاعب مضنية ، اما المشاة فقد ساروا حذاء النيل

---

(١) كايو جزء ٢ ص ٧٦

من بربر الى أم درمان

فتح الجيش المصرى (بربر) فى ١٠ مارس سنة ١٨٢١ — وقدم ملكها نصر الدين خضوعه، فاقره اسماعيل على بلده، ثم (شندى) يوم ٨ مايو بعد أن قدم ملكها الملك (نمر) ولاءه، وتابع الجيش الزحف جنوبا الى أن بلغ (حلفايه) الواقعة على مقربة من ملتقى النيل الازرق بالنيل الابيض فاحتلها، ثم احتل (ام درمان) الواقعة على النيل الابيض، واجتاز الجنود النيل فبلغوا مكان مدينة الخرطوم (١) التى كانت قبل الفتح محلة صغيرة لا تحتوى اكثر من عشرة بيوت من الغاب ثم انشئت بها مدينة (الخرطوم) التى صارت عاصمة السودان ومبعث الحضارة والعمران فى انحائه

وبعد أن وطد اسماعيل مركزه فى الخرطوم ترك بها حامية عسكرية وسار بباقى جيشه لاتمام فتح مملكة سنار (٢)

فتح سنار

ففتح مملكة (سنار) واحتل (ود مدنى) من أهم مدنها، وقدم ملكها الملك بادى ولاءه، ثم دخل اسماعيل (سنار) عاصمة المملكة فى ١٢ يونيه سنة ١٨٢١ (٣) ودانت البلاد للحكم المصرى من جنوبى وادى حلفا الى سنار

فتح كردفان

قلنا ان محمد على عهد الى صهره محمد بك الدفتردار فتح كردفان، وكانت تلك البلاد تابعة لسلطان دار فور، فبينما كان اسماعيل باشا يزحف على سنار سار جيش الدفتردار الى وجهته بطريق دنقلة وابى قس، وكانت الرحلة الى كردفان شاقة

---

(١) على بعد نحو ١٨٠٠ كيلومتر من اسوان مع حسبان تعاريج النيل
(٢) كانت مملكة سنار تمتد من بربر شمالا الى فازوغلى جنوبا
(٣) كايو الجزء الثانى ص ٢٣٠

مهلكة للجنود لانهم ساروا سبعة أيام متوالية يقطعون الفيافى فى صحراء لا ماء فيها ولا زرع

والتقى الدفتردار بجيش نائب السلطان محمد الفضل سلطان دارفور فاشتبك الفريقان فى واقعة دموية ببلدة (باره) شمالى الابيض (ابريل سنة ١٨٢١) انتهت بانتصار جيش الدفتردار واحتلال (الابيض) عاصمة كردفان

كانت معركة (باره) أشد معركة خاضها الجيش المصرى فى الفتح الاول وقد أبدى فيها جيش كردفان شجاعة كبيرة ، ولكن مدافع الجيش المصرى غلبتهم على أمرهم ، وحاول سلطان دارفور بعد المعركة أن يسترد كردفان وأغار عليها لكنه عاد خائبا

فتك الامراض بالجنود

اعترض الجيش المصرى فى فتح السودان خصم لدود أشد وطأة من الحرب وأهوالها ، وهو فتك الامراض وانتشارها وخاصة أمراض المناطق الحارة ، ولم يكن يصحب الحملة إلا قليل من الاطباء خالين من الكفاءة ففتكت الامراض بالجنود واجتاحت عددا عظيما منهم

قال المسيو كايو الذى صحب الحملة فى سنار [1] ان الجيش الذى سار به اسماعيل باشا لفتح البلاد الواقعة على النيل الازرق مات منه لغاية سبتمبر سنة ١٨٢١ ستمائة مقاتل ، ثم زاد عددهم الى ١٥٠٠ فى اكتوبر [2] وبلغ عدد مرضاه ٢٠٠٠ مريض ، وكان عدد المرضى يزداد كل يوم ، ولما ساءت حالة الجيش من هذه الناحية أرسل اسماعيل الى أبيه يشكو اليه سوء الحال ، قال وكانت حالة الجنود من جهة المأكل والملبس وقلة العناية بهم تدعو الى الاشفاق ، فقد كانوا يأكلون نوعا رديئا من الذرة يضر بصحتهم ، ثم ان ملابسهم بليت فلم يجدوا مايقيهم جو تلك

---

(١) رحلة كايو جزء ٢ ص ٣١٣

(٢) « « ص ٣١٧

الاصقاع ورطوبتها وكثرة امطارها ، وكانوا اذا ناموا يفترشون الارض فتصيبهم رطوبتها ، ولم يكن بالجيش اطباء ولا أدوية ، فكثر عدد المرضى وفشت العدوى واشتدت وطأة الامراض بالجنود فى سنار حتى لم يبق لدى اسماعيل باشا من العسكر الصالحين للخدمة سوى خمسمائة ، وتبرم الجند بهذه الحالة وظهرت بين الاهلين بوادر الانتقاض وراجت الاشاعات السيئة عن حالة الجيش فى سنار وكردفان ، فأخذ اسماعيل باشا يمنى الجنود بان مراكب المؤونة والعتاد قادمة عن قريب من جهة شندى

مجىء ابراهيم باشا ثم عودته

بقى اسماعيل باشا متوقفا عن الزحف قلقا على مصير جيشه الى أن جاءه ابراهيم باشا بطل الحجاز (١) يصحبه بعض الاطباء لمكافحة الأمراض ومعه المؤونة والملابس للجنود ، فانتعش الجيش لقدومه ، ودبت فيه روح الأمل والشجاعة ، ولا غرو فان قدوم بطل الحجاز وقاهر الوهابيين جدير بأن يرد الى الجنود قوتهم المعنوية ، وقد وزع المؤونة والملابس على الجنود ودفع لهم رواتبهم المتأخرة وجاء على أثره مدد من الجند

وأخذ ابراهيم باشا يدبر مع أخيه اسماعيل خطة فتح مابقى من بلاد السودان ، فاتفقا على اقتسام الزحف كل منهما فى ناحية وتوزيع الجيش الى فرقتين ، فرقة بقيادة اسماعيل باشا لفتح البلاد الواقعة على النيل الازرق لغاية اقليم فازوغلى (٢) والاخرى بقيادة ابراهيم باشا ليخترق جزيرة سنار الى بلاد الدنكا على النيل الابيض ويمد فتوحات مصر الى أعالى النيل

---

(١) يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٢١ كما يقول كايو جزء ٢ ص ٣١٨

(٢) سمى باسم الجبل المعروف بجبل فازوغلى جنوبى سنار ويقع على الشاطىء الغربي للنيل الازرق ويمتد حذاء النهر الى بلدة فامكه التى أسسها محمد على واتخذها عاصمة مديرية فازوغلى ، أما عاصمتها القديمة قبل الفتح المصرى فهى قرية صغيرة تدعى (فازوغلى)

فتح فازوغلى

وبعد أن تمت معدات الزحف تركا حامية من الجنود فى سنار واتخذ كل من الاميرين سبيله فى الجهة التى اعتزم فتحها ، ولكن ابراهيم باشا مرض بالدوزنتاريا أثناء الفتح ، ولم يتجاوز فى حملته جبل (القربين) فى وسط الجزيرة ، ثم عاد الى سنار ، ومنها الى مصر

ووصل اسماعيل باشا فى زحفه الى بلاد (فازوغلى) فدانت له (يناير سنة ١٨٢٢) وقدم له ملكها (الملك حسن) ولاءه وخضوعه

وقد تكبد الجيش متاعب هائلة فى تلك الحملات البعيدة ، ونالت منه الجهود والأوصاب ، وبعث اسماعيل الى أبيه يطلب الاذن له بالعودة الى مصر ، ولكنه ارسل يلومه على هذا الطلب وكلفه البقاء فى السودان الى أن يتم مهمته ، وقد أذعن وبقى زمنا يوطد دعائم السيادة المصرية فى تلك الاصقاع ، ثم اشفق محمد على على صحة ابنه فارسل يأذن له بالرجوع الى مصر ، ولكن هذا الاذن لم ينجه من الردى

البحث عن مناجم الذهب

وبعد أن فتح اسماعيل باشا بلاد فازوغلى سار الى جبل (بنى شنقول) جنوبى فازوغلى للبحث عن مناجم الذهب يصحبه المسيو كايو ، فحفر أماكن عدة ، لكنه لم يعثر على ضالته ولم يكتشف إلا شذورا قليلة من التبر ، فقفل راجعا الى سنار

وفى غيبته طارت اشاعات السوء عن جيشه ، وارجف المرجفون أن قد أحيط به وبرجاله ، فبدت بوادر التمرد فى بعض البلاد ، وقتل بعض الضباط فى القرى ، فاضطر اسماعيل أن يعود الى سنار ليوطد سلطته بها (فبراير سنة ١٨٢٢)

وفشت الحميات بين الجنود فى (سنار) لكثرة هطول الامطار ، فانتقل بجنده الى (ود مدنى) لاعتدال مناخها ، وبنى بها قشلاقا كبيرا من الطوب بقيت آثاره الى عصرنا الحاضر

مقتل اسماعيل باشا

مكث اسماعيل زمناً فى سنار يدبر أمر الحكومة التى أسسها ، ثم أرسل أفواجا من الأسرى السودانيين يصحبهم رهط من الجنود الى اسوان لتجنيدهم فى الجيش المصرى النظامى الذى كان محمد على جاداً فى تأسيسه ، واستعد هو أيضا للعودة الى مصر مُصعدا فى النيل

وعلم فى غضون ذلك ان أهالى حلفايه وشندى وما حولها ثاروا فى وجه السلطة المصرية ، وكانت مساوئ الجنود وخاصة الأرناءود من أسباب هياج الاهلين وثورتهم ، فاحتشد الثوار حول حلفايه وشندى وهجموا على قوافل الارقاء السودانيين وانتزعوهم من أيدى الجنود الموكلين بهم ، ورجعوا الى شندى فرحين بهذا النصر المبين

علم اسماعيل باشا بهذا النبأ فقام من فوره قاصدا (شندى) ومعه بقية الجيش ، وكان الملك (نمر) ملك شندى هو المدبّر لهذه الثورة ، فجاء اسماعيل المدينة فجأة فى أواخر اكتوبر سنة ١٨٢٢ ، وأمر باحضار ملك شندى أمامه ، فلما مثل بين يديه أخذ يقرعه ويسرف فى تأنيبه ، ثم تمادى فلطمه على وجهه (بالشبك) ، فلم يجب الملك على هذه الاهانة البالغة ، ولكنه أسرها فى نفسه وعزم على ان يغسلها بانتقام ذريع

اما اسماعيل باشا فقد عفا عنه مقابل غرامة مالية جسيمة يوفيها فى خمسة أيام وألف من الرقيق ، فأظهر الملك نمر الاذعان وقبل أن يحتمل الغرامة ، ثم دعا اسماعيل باشا وبطانته الى وليمة فى قصره بشندى ، وكان من القش ، فأجابوا الدعوة وذهبوا الى القصر واستووا فيه ، ورحب بهم الملك ترحيبا عظيما ، وأمر اعوانه ان يجمعوا ما استطاعوا من الحطب والقش والتبن حول القصر بحجة العلف لخيل الباشا ، ولم يدر بخلد الضيوف ان ثمة مؤامرة رهيبة تدبر لهم ، فلما فرغوا من طعامهم وأكثروا من شراب (المريسة) اخذوا يتأهبون للعودة الى معسكرهم ، فاذا النار

قد طارت فى اكوام الحطب والقش المحيطة بالقصر، واذا هى قد عمتها، واندلعت فيما حولها، فجعلت القصر شعلة من الجحيم ، وحصرت النيران اسماعيل باشا وحاشيته فلم يستطيعوا الافلات من هذا الحصار الجهنمى لهول النار المشتعلة ولاحاطة جنود الملك بهم يرمونهم بالنبل والسهام من كل ناحية ، فسدت المسالك فى وجوههم حتى ماتوا عن آخرهم ، ولم يستطع الجند نجدتهم اذ كانوا فى معسكرهم بعيدين عن مكان المأساة ، ولما وقعت الكارثة انقض عليهم رجال الملك نمر ففتكوا بهم ، ولم ينج منهم الا من هرب به العمر

كانت هذه النازلة كارثة كبرى اثرت تأثيرا سيئا فى مركز الجيش المصرى ، وتصدعت لها هيبته ، فان مقتل قائد الجيش بهذه الطريقة الجنهمية من شأنه ان يبعث اليأس والرعب فى نفوس الجنود

فلما بلغ الخبر محمد على باشا (١) حزن حزنا شديدا لقتل ابنه اسماعيل وخاصة بعد ان فقد منذ اعوام معدودة ابنه طوسون ، على أنه تلقى المصيبة بالجلد والصبر واعتزم المضى فى سبيله

وكان محمد بك الدفتردار وقت هذه الكارثة فى كردفان ، فلما جاءه نبؤها بادر من فوره بالزحف على شندى للثأر والتنكيل بمن اشتركوا فى الواقعة ، وقد خرب شندى، وأسرف فى التنكيل والقسوة بما جعله مضرب الامثال فى الميل الى القتل وسفك الدماء ، وقتل آلافا من الناس ليثأر لصهره، وسبى من الصبيان والنساء آلافا أخرى أرسلهم الى القاهرة، وتعقب الملك نمر لكنه لم يدركه لفراره الى حدود الحبشة

ما ذكره الجبرتى عن فتح السودان

دوّن الجبرتى فى كتابه حوادث مصر لغاية سنة ١٨٢١ ، أى أنه أدرك ابتداء

(١) علم به فى ٩ ديسمبر سنة ١٨٢٢ كما ذكر ذلك مانجان جزء ٢ ص ٢٥٢ ويقول ان اسماعيل باشا لم يمت حرقا بل قتلا، وروايته لا تتفق مع معظم المراجع

فتح السودان ، وذكر عنه شذرات متفرقة خلال يومياته ، تناول فيها الكلام عن مقدمات الحملة ، و بعض وقائعها ، وانتهى الى ذكر فتح سنار ، وقد رأينا تقديرا لهذا المرجع التاريخي القومي الجليل أن نورد هنا ماذكره في هذا الصدد

قال في حوادث ذى الحجة سنة ١٢٣٤ (سبتمبر سنة ١٨١٩) مايأتي

«وفي منتصفه سافر الباشا (محمدعلى) الى الصعيد ، وسافر صحبته حسن باشا طاهر ومحمد اغا لاظ (لاظ اوغلى) المنفصل عن الكتخدائية ، وحسن أغا ازرجانلى وغيرهم من أعيان الدولة »

وهذه هى الرحلة التى سافر اليها محمد على باشا قبل فتح السودان ليرتاد حدود مصر و يرسم الخطط للزحف على النوبة ودنقلة

وقال في حوادث محرم سنة ١٢٣٥

« وفى ٢٧ (١٥ نوفمبر سنة ١٨١٩) حضر الباشا من الصعيد بعد أن وصل في سرحته الى الشلال ، وكان الناس تقولوا على ذهابه الى قبلى أقاويل ، منها أنه يريد التجريد على بواقى المصريين (المماليك) المنقطعين بدنقلة ، فانهم استفحل أمرهم ، واستكثروا من شراء العبيد ، وصنعوا البارود والمدافع وغير ذلك ، ومنها أنه يريد التجريد أيضا وأخذ بلاد دارفور والنوبة ويمهد طريق الوصول اليها ، ومنها انهم قالوا أنه ظهر بتلك البلاد معدن الذهب والفضة والرصاص والزمرد ، وان ذهابه للكشف على ذلك وامتحانه وعمل معدله ومقدار مايصرف عليه حتى يستخرج صافيه ، و بطل كل ماتوهموه وخمنوه برجوعه »

فالجبرتى فى هذه النبذة يذكر عودة محمد على من رحلته الى اسوان ، ويذكر أقاويل الناس فى البواعث لهذه الرحلة ، ومنها (أخذ بلاد دارفور والنوبة) أى فتح السودان ، والبحث عن مناجم الذهب والمعادن الأخرى ، ثم يقول إن ماتوهمه الناس وخمنوه بطل برجوعه ، والواقع أن الجبرتى كان واهما فيما يقول ، فان محمد على إنما رجع لتجهيز الحملة على السودان ، وأن ماتوهمه الناس كان صحيحا

ثم قال فى حوادث ربيع الثانى سنة ١٢٣٥ (يناير سنة ١٨٢٠) « فى أوله

عزل الباشا محمد بك الدفتردار عن امارة الصعيد وقلد عوضه احمد باشا ابن طاهر باشا وسافر فى خامسه »

ويلوح لنا أن لهذا النبأ علاقة بفتح السودان ، لأن محمد على فصل الدفتردار عن حكم الصعيد لينضم الى الحملة ويعاون اسماعيل باشا فى فتح السودان

وقال عن تعيين اسماعيل باشا ابن محمد على لقيادة الحملة وتجهيز معداتها

« وفيه (جمادى الاولى سنة ١٢٣٥ — فبراير سنة ١٨٢٠) قوى عزم الباشا على الاغارة على نواحي السودان ، فمن قائل ، انه متوجه الى سنار ، ومن قائل الى دارفور ، وصارى العسكر (القائد العام) ابنه اسماعيل باشا وخلافه ، ووجه الكثير من اللوازم الى الجهة القبلية ، وعمل البقسماط والذخيرة ببلاد قبلى والشرقية ، واهتم اهتماما عظيما، وأرسل أيضا باحضار مشايخ العربان والقبائل »

نقول واستدعاء مشايخ والقبائل كان الغرض منه تجنيد العربان فى الحملة ، ومن المعلوم أنها كانت تضم فى صفوفها كثيرا من فرسان العرب المصريين كما ذكرناه آنفا

وقال فى حوادث رجب سنة ١٢٣٥ (ابريل سنة ١٨٢٠) « وفى عشرينه سافر محمد اغا لاظ (لاظاوغلى) وهو المنفصل عن الكتخدائية الى قبلى ، بمعنى أنه فى مقدمة الجردة يتقدمها إلى الشلال »

ثم قال فى حوادث رمضان ١٢٣٥ (يونيه سنة ١٨٢٠) « واستهل شهر رمضان بيوم الاثنين ، والاهتمام حاصل ، وكل قليل يخرج عساكر ومغاربة مسافرين الى بلاد السودان ، ومن جملة الطلب ثلاثة من طلبة العلم يذهبون صحبة التجريدة ، فوقع الاختيار على محمد أفندى الاسيوطى قاضى أسيوط ، والسيد احمد البقلى الشافعيين ، والشيخ احمد السلاوى المغربى المالكى »

وقال عن تشتيت شمل المماليك فى دنقلة وتسليم بعضهم

« وفى هذا الشهر (شوال سنة ١٢٣٥ — يوليه سنة ١٨٢٠) حضرت طائفة من بواقى الأمراء المصريين (المماليك) من دنقلة الى بر الجيزة ، وهم نحو الخمسة

وعشرين شخصا ، وملابسهم قمصان بيض لا غير ، فأقاموا فى خيمة ينتظرون الاذن ، وقد تقدم الارسال بطلب الامان عندما بلغهم خروج التجاريد ، وحضر ابن على بك أيوب وطلب أمانا لأبيه،فأجيبوا الى ذلك ، وارسل لهم امانا لاجمعهم ماعدا عبد الرحمن بك الذى يقال له المنفوخ فلا يعطيهم أمانا ، ولما حضرت مراسلة الامان لعلى بك أيوب وتأهب للرحيل حقدوا عليه (أى المماليك) وقتلوه »

وقال أيضا فى هذا الصدد « وفى أوائل ربيع الأول سنة ١٢٣٦ (ديسمبر سنة ١٨٢٠) حضر نحو العشرة أشخاص من الامراء المصرية (المماليك) البواقى فى حالة رثة وضعف وضيم واحتياج ،وكانوا أرسلوا وطلبوا الامان فاجيبوا لذلك»

وقال « وفى أواخر رجب سنة ١٢٣٦ (ابريل سنة ١٨٢١) حضر جماعة من المماليك المصرية الذين كانوا بدنقلة فيهم ثلاثة سناجق أحدهم احمد بك الالفى زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بك الكبير »

وقال عن سفر اسماعيل باشا قائد الحملة ومحمد بك الدفتردار ثم ابراهيم باشا « وفيه (ذى القعدة سنة ١٢٣٥ — اغسطس سنة ١٨٢٠) سافر اسماعيل باشا الى جهة قبلى ، وهو أمير العسكر المعين لبلاد النوبة ، كل ذلك والباشا الكبير (محمد على باشا) على حاله بالاسكندرية »

« وفى ١٧ رجب سنة ١٢٣٦ (ابريل سنة ١٨٢١) ارتحل محمد بك الدفتردار مسافراً الى دارفور ببلاد السودان بعد أن تقدم طوائف كثيرة عساكر أتراك ومغاربة »

وذكر عن سفر ابراهيم باشا فى حوادث ذى القعدة سنة ١٢٣٦ (اغسطس سنة ١٨٢١)

« وبعد سفر الباشا الى الاسكندرية سافر ايضا ابراهيم باشا الى ناحية قبلى قاصدا بلاد النوبة »

وقال عن وقائع الحملة

« واستهل شهر ذى الحجة سنة١٢٣٦(٣٠ اغسطس سنة ١٨٢١)وفيه خرجت

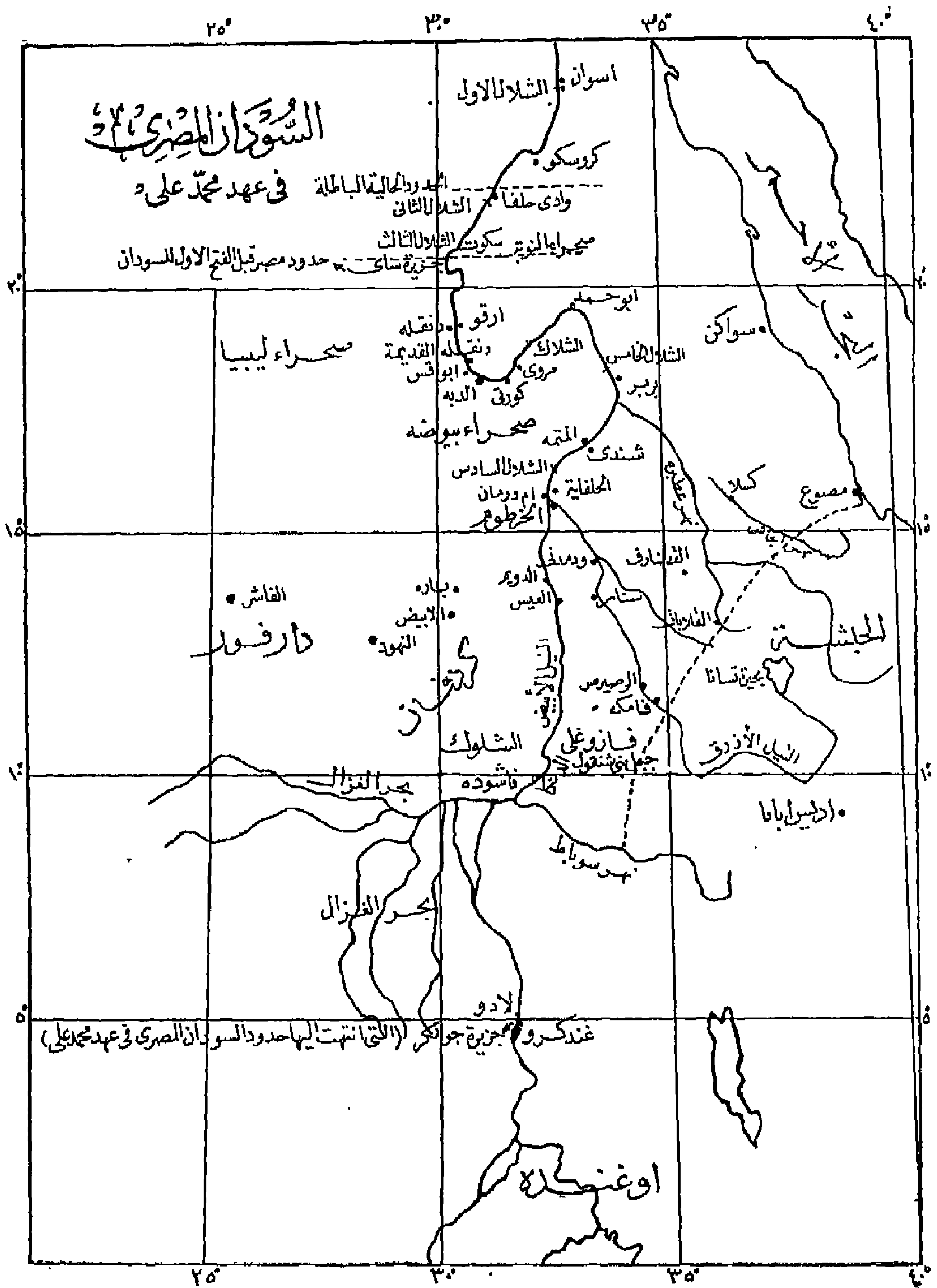
عساكر كثيرة ومعهم رؤساؤهم وفيهم محو بك ومغار بة وآلات الحرب كالمدافع وجبخانات البارود واللغمجية وجميع اللوازم قاصدين بلاد النوبة وما جاورها من بلاد السودان، وفيه أيضا سافر محمد كتخدا لاظ (لاظ اوغلى) المنفصل عن الكتخدائية الى اسنا ليتلقى القادمين ويشيع الذاهبين، وفيه وصلت بشائر من جهة قبلى باستيلاء اسماعيل باشا على سنار بغير حرب ودخول أهلها تحت الطاعة، فضربت لتلك الاخبار مدافع من القلعة »

نظام الحكم فى السودان

جعل محمد على باشا على السودان حاكما يسمى (حكمدار السودان) يجمع فى يده السلطة العسكرية والمدنية ويرجع فى ادارته الى ديوان (وزارة) الداخلية بمصر، ولبعد المسافة بين البلدين وصعوبة المواصلات كان لحكمدار السودان سلطة مطلقة فى ادارته، وجعلت مدينة الخرطوم التى انشئت فى عهده عاصمة السودان ومقر الحاكم العام، ومع الزمن قسمت البلاد الى مديريات لكل منها مدير يحكمها تحت ادارة حكمدار السودان ويتولى قيادة الجند فيها، وقسمت المديريات الى أقسام لكل قسم ناظر، وكانت الادارة تتبع نظام الادارة المصرية، وصار عدد المديريات فى اواخر عهد محمد على سبعا، وهى دنقلة، وبربر، والخرطوم، وكردفان، وكسله وسنار، وفازوغلى

وجعل لكل مدير وكيلا، ومعاونين وكتابا، وبجانبه القاضى والمفتى ومجلس اهلى وضبطية، وابقى حكام البلاد الأقدمين من الاهلين فى مراكزهم كمشايخ النوبة ودنقلة وبربر والحلفاية والرصيرص وفازوغلى، وملك سنار

وكان المديرون ومن اليهم من الموظفين تحت رقابة الحكمدار (الحاكم العام)، ومما لا نزاع فيه ان كثيرا من اولئك الموظفين كانوا ينزعون الى الظلم والعسف مما أدى الى تبرم الاهلين، وقد ظهر عسفهم على الاخص فى حمايتهم لتجار الرقيق الذين كانوا ينتزعون الاهلين من قراهم ويبيعونهم فى اسواق النخاسة


السودان المصري
في عهد محمد علي
اسوان
الشلال الاول
كروسكو
الحدود الحالية الباطلة
وادي حلفا
الشلال الثاني
صحراء النوبة
سكوت
الشلال الثالث
جزيرة ساي
حدود مصر قبل الفتح الاول للسودان
ارقو
دنقله
دنقله القديمة
ابو قس
كورتي
الدبه
الشلال
مروي
ابو حمد
الشلال الخامس
بربر
سواكن
صحراء ليبيا
صحراء بيوضه
المتمه
شندي
الشلال السادس
الحلفاية
ام درمان
الخرطوم
كسلا
مصوع
ودمدني
الدويم
العيس
سنار
الفاشر
باره
الابيض
النهود
دارفور
كردفان
الرصيرص
فامكه
بحيرة تسانا
الحبشة
الشلوك
فازوغلي
النيل الازرق
بحر الغزال
فاشوده
ادليس ابابا
نهر سوباط
لادو
غندكرو
جزيرة جوانكر (التي انتهت اليها حدود السودان المصري في عهد محمد علي)
اوغنده
٢٥°
٣٠°
٣٥°
٤٠°
٢٠°
١٥°
١٠°
٥°

الجيش المصرى بالسودان

يقول المسيو دارنو المهندس الفرنسي الذى أقام بالسودان من سنة ١٨٣٨ الى سنة ١٨٤٢ ان الجيش المصرى المرابط هُناك كان يبلغ (سنة ١٨٣٨) ٦٨٠٠ جندى ، منهم ٦٠٠٠ من الجنود النظامية يتألف منهم الايان ، و ٤٠٠ من الشايقية من سكان البلاد المعروفة باسمهم و ٤٠٠ من المغاربة

وقد زاد بعد تلك السنة حتى بلغ ١٨٠٠٠ احصاؤهم كما يأتى :

١٦٠٠٠	خمس الايات من الجنود النظامية المصرية
١٠٠٠	فرسان من الترك
٤٠٠	مغاربة
٤٠٠	شايقية من أهل البلاد
٢٠٠	مدفعية
١٨٠٠٠	المجموع

ويقول الدكتور بيرون Perron ان الجيش المرابط بالسودان سنة ١٨٤٣ بلغ خمس الايات ، كل الاى مؤلف من ٣٠٠٠ مقاتل ، أى أن عددهم ١٥٠٠٠ ، وهو قريب من احصاء المسيو دارنو

وكانت وحدات الجيش المصرى موزعة على العواصم والمدن المهمة مثل الخرطوم والابيض وباره وود مدنى وسنار وكسلا

وقد دخل فى هذا الجيش عدد كبير من السودانيين أخذ يزداد مع الزمن ، وأثبتت التجارب كفايتهم وولاءهم وحسن ادائهم للخدمة العسكرية ، وصار السودانيون ينتظمون فى الجيش المصرى كالمصريين ، تظلهم راية واحدة هى الراية المصرية ، ويدينون بالولاء لدولة واحدة هى الدولة المصرية

حكمدارو السودان فى عهد محمد على

بقى محمد بك الدفتردار بعد مقتل اسماعيل باشا يتولى حكم السودان، الى أن جاءه الامر فرجع الى مصر، وتعاقب بعده الحكمدارون الذين عهد اليهم محمد على حكم تلك البلاد، واستمر ولاة السودان (الحكمدارون) فى عهده وعهد خلفائه يتولون حكمه على اعتبار أنه جزء لا يتجزء من مصر الى أن فصلته عنها السياسة الاستعمارية الانجليزية سنة ١٨٨٤ بعد شبوب الثورة المهدية

عثمان بك

ففى سنة ١٨٢٣[1] جعل الميرالاى عثمان بك حكمدارا للسودان ولم يكن عهده عهد اصلاح وعمران، فانه عسف الاهلين بما فرضه عليهم من الضرائب الفادحة، وجرد عليهم الجنود لجبايتها، فأسرفوا فى القسوة والقتل والتنكيل مما أدى الى هجرة الكثير من الاهلين ونقص عدد السكان، ومات عثمان بك قبل أن تمضى على ولايته سنتان فكان عهده وعهد الدفتردار من أسوأ أزمنة الحكم فى السودان

محو بك

وأقيم فى مكانه محو بك، فكان عادلا رحيما، أحسن السيرة بين الاهلين، وكف اعتداء الجنود عليهم، وحبب فيه مشايخ البلاد وأهلها بما اشتهر عنه من العدل، وبنى بالخرطوم ثكنة لاقامة الجنود، واحتفر فى الطرق البعيدة عن النيل آبارا يستقى منها الناس والقوافل تعرف الى عصرنا الحاضر بآبار محو بك[2]

خورشد باشا

هو أعظم ولاة السودان شأنا، وأنبههم ذكرا، وأحسنهم سيرة، وأطولهم عهدا

---

(١) اعتمدنا فى بيان هذه السنة على ماذكره اللواء المصرى محمد مختار باشا فى كتابه التوفيقات الالهامية ص ٦١٩

(٢) السودان بين يدى غردون وكتشنر لابراهيم باشا فوزى الجزء الاول ص ٦٥

خلف محو بك فى ولاية السودان سنة ١٨٢٦ ، فسار سيرة عدل واستقامة ، وعنى بإصلاح ما أفسده الدفتردار وعثمان بك ، فبذل همة فى تعمير البلاد وتأمين الأهالى على أموالهم وأرواحهم ، وأذاع منشورا بالامان الى الفارين الذين هاجروا الى دارفور وجبال النوبة ، فعادوا واطمأن الاهلون الى حكمه ، وعمر مدينة الخرطوم كما سيجئ بيانه ، وهو الذى ادخل فى السودان صناعة بناء الدور بالطوب بعد أن كان الاهالى يقيمونها بالغاب والجارد ، وقد أمدهم بالطوب والاخشاب والألواح تيسيرا عليهم وترغيبا لهم فى العمران ، ونظم الدواوين ، ووطد الأمن فى البلاد وانشأ مسجدا فى الخرطوم وآخر فى سنار ، وعنى بالزراعة ، وطلب من محمد على مساعدته فى أسبابها ، فأرسل اليه طائفة من المزارعين المصريين منهم بعض مشايخ البلاد وبعض (الخولة) لتمرين الاهالى على الزراعة

وقد وسع فتوحات مصر فاحتل (القلابات) شرقى السودان ، وكان موقعها هاما من الوجهة الحربية والاقتصادية لوقوعها بالقرب من حدود الحبشة ، فجعل بها حامية عسكرية ثابتة ، وأخضع جبال قلى وغزا قبائل الشلك وقبائل سبدرات

وقد اثنى عليه محمد على وانعم عليه برتبة الباشوية سنة ١٨٣٥ جزاء مابذله من الهمة فى تنظيم شؤون السودان

وبقى فى منصبه الى سنة ١٨٣٧ حيث اعتزله وخلفه احمد باشا ابو ودان

احمد باشا ابو ودان

حذا احمد باشا أبو ودان حذو خورشد باشا فأحسن السيرة بين الاهالى ، وحبب فيه الامراء ورؤساء القبائل من السودانيين ، واتم عمل خورشد باشا فى تعمير مدينة الخرطوم ، وتنظيم المديريات ، وضم اليها العرب الرحل الضاربين فى أوديتها ، وبذلك انتظمت ادارتها ، وجلب من مصر كثيرا من الحيوانات المستأنسة والنباتات النافعة وبذورها فتحسنت الزراعة وارتقت شؤونها ، ونشطت الصناعة فى (ترسانة) الخرطوم ، واستكثر من السفن الاميرية فى النيل ، وزاد من طرق

المواصلات فاتسعت حركة التجارة والمعاملات بين مصر والسودان والبلاد القاصية من أواسط افريقية ، وصارت الخرطوم ملتقى المتاجر ، وكثر ورود التبر وريش النعام والعاج والصمغ اليها ، وفي عهده فتح اقليم التاكا (كسلا) الواقع بين نهر عطبره والبحر الاحمر سنة ١٨٤٠ ، وأسست مدينة (كسلا) وجعلت عاصمة له ، وتوفى ودفن بالخرطوم

احمد باشا المنكلي ثم خالد باشا

وأقيم في مكانه احمد باشا المنكلي فاخمد الثورة التي نشبت في بلاد التاكا والتي أثارها سوء ادارة الموظفين ، وبقى حكمدارا للسودان الى أن عاد الى مصر سنة ١٨٤٥ وخلفه خالد باشا وهو آخر من عين حكمدارا للسودان في عصر محمد علي

رحلة محمد علي في السودان

١٥ اكتوبر سنة ١٨٣٨ — ١٥ مارس ١٨٣٩

اعتزم محمد علي أن يرود بنفسه أصقاع السودان ليتعهد شؤون الادارة المصرية فيها ، وليبحث عن مناجم الذهب ، فسار اليها في اكتوبر سنة ١٨٣٨[١] عن طريق دنقلة ، ثم قصد الخرطوم مارا بطريق صحراء بيوضة ، فبلغها يوم ٢٣ نوفمبر وأقام بها ٢٢ يوما قابل فيها الاعيان وتفقد أحوال الادارة وشؤون البلاد ، ثم زار سنار وقصد الى جبال فازوغلي للبحث عن معدن الذهب ، ولكن البحث لم يفض الى نتيجة يرضاها ، فقفل الى الخرطوم وأقام بها أياما قليلة ثم عاد الى مصر عن طريق صحراء النوبة من (ابو حمد) الى وادى حلفا (مارس سنة ١٨٣٩) وقضى في رحلته خمسة أشهر

وكان يصحبه في رحلته هذه طائفة من المهندسين والباحثين منهم المسيو ليففر Lefevre والمسيو دارنو D.Arnaud والمسيو لامبير Lambert ، وقد قضى

---

(١) في عهد حكمدارية احمد باشا ابو ودان

الاول نحبه أثناء رحلته بحمى اصابته ، وظل الآخران يبحثان و ينقبان

ولمناسبة زيارة محمد على للسودان أمر بالغاء تجارة الرقيق لما رآه من فظاعة النخاسين (تجار الرقيق) وما يرتكبونه من القسوة فى جلب الارقاء وترحيلهم الى مختلف الأمصار ، وأنفذ رسلا يعلنون هذا الإمر فى جميع البلاد، ولكن رغم هذه الاوامر بقى الاتجار بالرقيق دائما الى أن أبطله الخديوى اسماعيل

عمران السودان فى ظل الحكم المصرى

يطيب لبعض الكتاب السياسيين من دعاة الاستعمار الانجليزى ان يرموا الحكم المصرى فى السودان بكل نقيصة ، وينسبوا الحضارة التى دخلت ربوعه الى الادارة الانجليزية ، وهى دعوى باطلة تقوم على أساس الارجاف وتشويه الحقائق

وفى الحق ان الفضل فى حضارة السودان منذ الفتح الاول ثم الفتح الثانى يرجع الى الحكم المصرى ، والى الدماء المصرية ، والسواعد المصرية ، والجهود والاموال المصرية

فلنبين فى هذه العجالة مبلغ ما افاده السودان من الحكم المصرى فى عهد الفتح الأول ، اى عهد محمد على حيث يقتصر موضوع الفصل السادس

ضحى المصريون بأرواحهم و دمائهم فى سبيل فتح السودان واقرار سلطة الامن فى ربوعه ، فقد بلغ عدد من فقدهم الجيش المصرى فى الفتح الاول سواء ممن قتلوا فى المعارك أو الرحلات البعيدة الشاقة أو من اجتاحتهم الامراض نحو ثلاثة آلاف رجل .

لقد حقق الفتح المصرى الوحدة القومية لمصر والسودان ، ثم انه نشر لواء الحضارة و العمران فى اصقاعه ، فقد أسس فى البلاد حكومة منتظمة كان لها الفضل الكبير فى بسط رواق الامن واقامة قواعد العمران فى السودان ، ولم ينظر المصرى الى السودان كمستعمرة للاستغلال، بل نظر اليه كجزء لا يتجزأ من مصر ، فعنى بعمرانه كما يعنى بعمران الغربية أو الدقهلية وسائر مديريات القطر المصرى.

تأسيس المدن

كان تأسيس المدن من أول ما عنى به الحكم المصرى فى السودان فأنشأ مدنا زاهرة صارت مبعث الحضارة والتقدم فى انحائه

الخرطوم

يقول المسيو ديهيران فى كتابه (١) ان المصريين حينما فتحوا السودان لم يختاروا بلدة من بلاده القائمة مثل بربر او سنار او الابيض عاصمة لاملاكهم ، بل انشأوا عاصمة جديدة وهى (الخرطوم) ، ولم يكن فى مكانها قبل الفتح المصرى سوى محلة صغيرة للصيادين ، ففى سنة ١٨٢٢ أسس بها معسكر ثابت للجنود ، وفى سنة ١٨٣٠ اتخذها خورشد باشا حكمدار السودان مقرا للحكم ، فصارت الخرطوم من ذلك الحين عاصمة السودان ، وقد اختار لها المصريون هذا الموقع لأهميته حيث يلتقى النيل الازرق بالنيل الابيض وسميت الخرطوم لأن ملتقى النيلين يشبه رأس خرطوم الفيل ، قال وقد اقيمت فيها المبانى والعمائر منذ انشائها ، وأهمها سراى الحكومة وكانت مبنية بالطوب الاحمر ، ومؤلفة من دورين ، وكان منظرها فخما ، وسراى مديرية الخرطوم مقر مدير المديرية والموظفين ، ومسجدان احدهما كبير بناه خورشدباشا ، والاخر صغير اقيم من بعده ، ودار لاحدى البعثات الدينية المسيحية انشئت سنة ١٠٤٨ اى فى اواخر عهد محمد على (٢) وانشئت بها أيضاً ثكنة كبيرة للجنود شرقى المدينة ، ومستشفى (٣) ، ومعمل للبارود تصنع فيه ذخائر الجيش ، ومخازن للمؤن والمهمات ، ثم ترسانة كبيرة كانت تشمل مسبكا للحديد ومعملا للنجارة ، وفيها بنيت السفن النيلية التى أخذت تنقل الجنود والمتاجر على النيل ، ويتخلل تلك العمائر الكبيرة بيوت للسكن ، وقد اكسب المدينة

---

(١) السودان المصرى فى عهد محمد على ص ١٨٧

(٢) هى التى اتخذها غردون باشا مستودعا للذخائر اثناء حصار المهدى للخرطوم

(٣) ذكره مانجان ج ٣ ص ٤٩٦

موقعها على النيل روعة وجمالا ، وزادتها الحدائق التي انشأها المصريون حوا ليها رونقا ونضرة وكانت هذه الحدائق تشغل مساحات واسعة من الاراضى كما أنها موضع عناية القائمين بها ، ولها منظر بديع ، وكان معظمها يحاذى النيل الازرق ولا يفصلها عنه إلا رصيف ضيق ، وفيها كل ماتنبت الارض من الخضر والتين والبرتقال والليمون والموز والنخيل والدوم ، ويتألف من مجموعها منظر بهيج يدخل السرور فى نفوس القادمين(١)

وبعد أن أسست المدينة صارت ملتقى المتاجر القادمة من انحاء السودان وباطن افريقية أو الواردة اليها من مصر والخارج ، فازدهر العمران فيها ، وصارت محطة من أعظم المدن التجارية في افريقية كما أنها صارت مركزا للرحلات والاكتشافات الجغرافية والعلمية ، ومرسى للسفن النيلية التى تنتقل فى انحاء النيل الازرق والنيل الابيض

وتزايد مع الزمن عدد سكانها ، فقد جاءها الناس من مختلف انحاء السودان كسنار وبربر ودنقله وشندى وغيرها وقدموا اليها المتاجرة ، وأقام فيها الموظفون ورجال الجهادية ، فبلغ عدد سكانها فى عصر محمد على ثلاثين ألف نسمة كما قدرهم المسيو مانجان فى كتابه(٢) واستمر عددهم يطرد فى عهد خلفائه ، فبلغوا اربعين ألفا سنة ١٨٥٤ وخمسين ألفا سنة ١٨٥٦ ، وقدرهم الكولونيل ستوارت من ٥٠ الى ٥٥ ألفا سنة ١٨٨٣ ، ثم جاءت الفتنة المهدية فدكت معالم العمران فيها وفى انحاء السودان

مدينة كسلا

وانشئت أيضا مدينة كسلا التى صارت عاصمة اقليم التاكا من أهم أقاليم السودان بل عاصمة السودان الشرقى ، ذكر ابراهيم باشا فوزى فى كتابه(٣) ان

(١) ديهيران ، السودان المصري على عهد محمد على ص ١٢٠
(٢) تاريخ مصر فى حكم محمد على جزء ٣ ص ١٠٨
(٣) السودان بين يدي غوردون وكتشنر جزء ١ ص ٦٥

احمد باشا ابو ودان حكمدار السودان اسس مدينة (كسلا) وحصنها ، وقال فى موضع آخر ان كسله اسم مدينة هى عاصمة اقليم التاكا الذى بين محافظتى مصوع وسنواكن وحدود الحبشة ، وأغلب سكانها مصريون مثل سائر مدن السودان (١) وكانت محصنة بسور منيع من الحجارة ، وفيه ابراج ، ومعدات الدفاع متوفرة فيها منذ دخلت فى املاك الخديوية المصرية على عهد ساكن الجنان محمد على باشا (٢)

ويقول المسيو ديهيران ان مدينة كسلا انشئت على عهد احمد باشا ابو ودان وذلك أنه أثناء فتح التاكا اتخذ معسكره على نهر (الجاش) بسفح جبل كسلا ، ولما غادرها ترك بها حامية ثابتة من الجنود ، فاقبل عليها الاهالى المجاورون واتخذوها موطنا لهم ، و بذلك تأسست مدينة كسلا التى صارت من أهم مدن السودان (٣)

فامكه

وكذلك انشئت مدينة فامكه على النيل الازرق سنة ١٨٤٠ فى اقليم سنار على بعد ٢٥ ميلا من الرصيرص جنوبا ، وجعلت عاصمة مديرية فازوغلى ، وقد بنى محمد على باشا على نحو خمسة اميال منها جنوبا قصرا ومعملا لاستخراج الذهب بقيت آثارهما الى عصرنا الحاضر

توطيد دعائم الأمن

مهما اختلف الكتاب الافرنج فى تقديرهم للحكم المصرى فى السودان على عهد محمد على فانهم مجمعون على امتداحه والاعتراف له بالفضل فى بسط رواق الامن فى اصقاعه النائية ، كانت الرحلة اليه قبل الفتح المصرى محفوفة بالاخطار

---

(١) وضع فوزى باشا كتابه بعد استرجاع السودان الاخير وطبع سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م)

(٢) جزء ٢ ص ٨٦

(٣) كتاب السودان فى عهد محمد على ص ١٠٩

إذ كانت الطرق مقطوعة ، والأمن فيها مضطرب ، وسلطة الرؤساء ضعيفة ، وكانت قوافل التجار والحجاج تستهدف فى كل وقت للسلب والنهب ، ولكن الحكم المصرى قد قضى على الفوضى الضاربة أطنابها فى البلاد و بسط رواق الأمن عليها

قال المسيو ديهيران فى هذا الصدد : ان ماقام به محمد على من بسط رواق الامن فى مصر هو من اجل أعماله كما يرى المستر بورنج (١) فى تقريره عن مصر ، وهذا الرأى يجب تعميمه ليشمل كل بلد حكمها محمد على ، فحيثما بسط نفوذه وحكمه نهض بالأمن ووطد دعائمه وصانه بعين رعايته ، وعلى العكس اذا تقلص نفوذه عادت البلاد الى الفوضى واختل ميزان الأمن فيها ، خذ لذلك مثلا أنه لما انسحبت قواته من الحجاز سنة ١٨٤١ واستردها سلطان تركيا شعر التجار بأنهم لم يعودوا آمنين على متاجرهم هناك ، وكذلك لما جلا ابراهيم باشا عن سورية اضطرب فيها حبل الأمن وعادت الفتنة بين المسلمين والمسيحيين ، أما البلاد التى يسود فيها حكم محمد على فان الانسان يأمن على نفسه أن يذهب الى أى ناحية بها ، ويقول الكونت بنديتى Benedetti قنصل فرنسا فى مصر ان الاهالى والاجانب على السواء يستطيعون أن يذهبوا انى شاءوا فى البلاد التى يحكمها محمد على سواء أكان ذلك فى وادى النيل الى أقاصى حدود السودان أم فى سورية وجزيرة العرب ، فان صرامة العدل الذى أقام ميزانه فى كل ناحية لاتقبل هوادة ولا ضعفا ، فالسودان قد ساده الأمن كما ساد غيره من البلاد التى حكمها ، ففى كردفان مثلا حيث لم يكن أى تاجر يأمن على نفسه أن يسير منفردا استطاع الرحالة بالم Pallme أن يجتاز البلاد من غير أن يصحبه إلا خادم واحد ، ولم يقع عليه اى اعتداء أو أذى ، وكذلك ساح فيه الرحالة كوتشى Kotchy مطمئنا سنة ١٨٣٩ ، وساح الأمير الالمانى بكلر مسكو Muskau فى السودان الى الخرطوم دون أن يناله سوء ،

(١) سياسى انجليزى ساح فى مصر على عهد محمد على وله عنها تقرير واف

وجاءت عائلة المسيو ملي Melly الى الخرطوم سنة ١٨٥٠ للنزهة كما لو ساحت فى ربوع ايطاليا (١)

وقد كان من نتائج بسط الأمن فى السودان وتأمين طرقه نشاط المعاملات التجارية فى انحائه وبينه وبين مصر وباطن افريقية

ومن نتائجه تنظيم البريد ، وقد جعلت الخرطوم مركزا له ، وكان ينقل فى السفن ثم يحمل على الهجن فيرسل الى مصر وجميع مديريات السودان ، وله فى الطريق محطات تستريح فيها الهجن وتبدل، وكانت الرسائل تصل من مصر الى الخرطوم مرتين فى الشهر وتقطع المسافة بينهما فى خمسة وعشرين او ثمانية وعشرين يوما ، وكان البريد يروح ويغدو ويجتاز تلك المراحل الشاسعة دون ان تنقطع عليه الرحلة ، قال المسيو جومار فى هذا الصدد : « من ذا الذى كان يظن قبل أربعين عاما بل قبل خمسة عشر عاما فقط ان تصلنا الرسائل من ضفاف النيل الأبيض الى ضفاف السين (النهر الذى يمر بباريس) فى اثنين وثلاثين يوما ، وتصلنا من فزنفور (جنوبى فازوغلى) عند الدرجة العاشرة من خط الاستواء فى خمسين يوما ؟ » (٢)

الزراعات واعمال العمران الاخرى

وادخل المصريون فى السودان الزراعات المصرية كالقمح والخضر وغرسوا فيه أشجار الفاكهة المختلفة انواعها كالبرتقال والليمون والرمان والعنب، ونسقوا الحدائق الغناء

قال الكولونل ستوارت Stuart فى هذا الصدد « ان المصرى يميل بطبعه ميلا شديدا الى الزراعة ، ففى السودان ، وفى أى مكان يعسكر الجنود المصريون، لا يمضى على اقامتهم ستة أشهر حتى يكون من المحقق ان ينبت فيه الزرع والخضر »

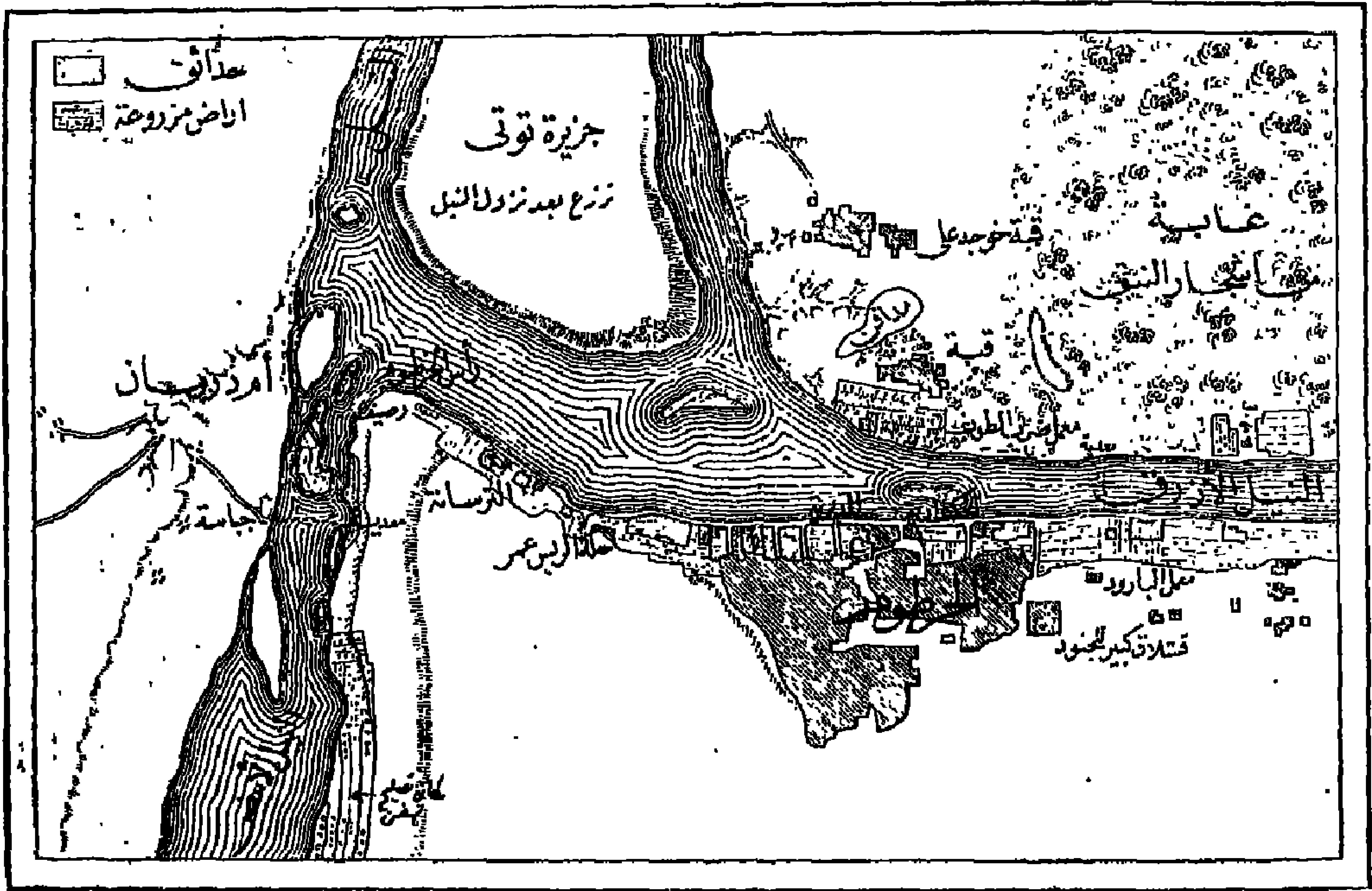
---

(١) ديهيران ص ٢١٥

(٢) انجان الجزء الثالث ص ٤٨١

ومن اعمال العمران التى تمت فى عهد محمد على بناء ديوان للمديرية فى مدينة (سنار) وثكنة للجنود وجامع بها ، وما قام به خورشد باشا من اعمال الاصلاح التى تقدم الكلام عنها

وقد أمر محمد على باحتفار الآبار فى الطريق بين كروسكو وأبو حمد ، وهو طريق شاق يخترق صحراء النوبة ويجتازه المسافر فى تسعة أيام ، فأمر باصلاحه وحفر الآبار فيه تسهيلا للمواصلات بين مصر والسودان



خريطة الخرطوم في عهد محمد على باشا (انظر ص ١٨١)
كما رسمها المهندس الفرنسى داربو الذى
اقام بالسودان من سنة ١٨٣٨ الى سنة ١٨٤٢

الحملات والبعثات الجغرافية

ان للفتح المصرى فضلا كبيرا على العلم والعمران بما شجع العلماء وزواد الكشف والاستطلاع على الرحلات العلمية لاكتشاف اصقاع السودان النائية ، وخاصة منابع النيل ، وقد كان لمحمد على عناية كبيرة بتعضيد الاكتشاف وتشجيع الباحثين والعلماء على الرحلة اليها ، وشملهم برعاية الحكومة وعهد الى جنده حمايتهم فى رحلاتهم ، ولولا تلك المساعدات لما استطاعوا ان يسيروا خطوة فى تلك الجهات ، وقد صارت مدينة الخرطوم مركزا للرحلات الجغرافية التى سارت منها لاكتشاف منابع النيل واواسط أفريقية ، ولعلك تلحظ دلائل عناية محمد على بأعمال الكشف والتنقيب مما رأيته من اصطحاب ابنه اسماعيل باشا بعض المهندسين مثل المسيو فرديك كايو اثناء فتح السودان كما تقدم بيانه ، ومن ان محمد على ذاته قد رحل الى السودان يجوب انحاءه ويتفقد معادنه ، وقد اصطحب فى رحلته بعض المهندسين والباحثين ، ثم إنه لما عاد من رحلته تولى بنفسه تنظيم البعثات والحملات الجغرافية البعيدة المدى للكشف عن منابع النيل ، فللحكم المصرى فى السودان فضل كبير على الاكتشافات الجغرافية التى تمت فى عهده وبإرادته ، وهذه الاكتشافات ذاتها قد مهدت السبيل للرحلات التى جاءت من بعده الى ان تم اكتشاف منابع النيل بأكلها ، ولئن كان تمام اكتشافها فى سنة ١٨٥٨ و ١٨٦٠ و ١٨٦٢ حينما انتهى الرحالتان (اسبيك) و(جرانت) الى بحيرة فيكتوريا نيانزا وشلالات ريبون ، فلا نزاع ان الرحلات والتجاريد فى عهد محمد على قد عبدت الطريق للمكتشفين وانارت لهم السبل وفتحت بلادا ومناطق لم يكن فى مقدورهم ان يجوبوها لو لم يبسط الحكم المصرى رواق الأمن فى انحائها ، فالفتح المصرى فضلا عن نتائجه القومية قد ساعد العلم والحضارة مساعدة كبرى من تلك الناحية ، وقد كان العامل الأول فى الرحلات التى تمت فى عهد محمد على اتجاه فكره وفكر أبنائه الى

اكتشاف منابعه التى كانت الى ذلك العهد مجهولة لعلماء الجغرافية

قال المسيو ديهيران فى هذا الصدد : ان محمد على بانفاذه الرحلات والبعثات لاكتشاف منابع النيل قد حقق الأمل الذى كان يطمح اليه علماء الجغرافية وكافة رجال العلم فى عصره (١)

وقال عن ابراهيم باشا انه كان شديد التطلع الى تحقيق هذه الغاية ، وقد افضى ببرنامجه الى المسيو كايو حينما قابله يوم ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٢١ فقال له « اننا سنكشف النيل الأبيض فى حملة من مراكب مسلحة وعدد كبير من القوارب الخفيفة التى تستطيع أن تمضى فى النهر بسهولة دون ان تعترضها الشلالات ، وستكون وجهة هذه العمارة النيلية ان تنحدر فى النهر وروافده حتى تصل الى منابعه »

وكان اسماعيل باشا ابن محمد على يطمح ايضا الى ما كان يفكر فيه أخوه ابراهيم ، فقد قال للمسيو كايو حينما استأذنه فى العودة الى مصر (١٨ فبراير سنة ١٨٢٢) : « اذا ذهبت الى فرنسا فانشر ماوصلت اليه من المعلومات ، ثم عد الى مصر فانك ستجد أبى لا يقنع بالاكتشافات الضئيلة التى وصلنا اليها ، بل سنبذل جهودا اخرى ، وسأصحبك بنفسى الى منابع النيل الابيض »

وقد شجع محمد على الرحلات الجغرافية فى حوض النيل من يوم ان بسط نفوذه فى السودان ، فساح فيه الرحالتان Hay هاى وهوشت Hocht ، ووصلا سنة ١٨٢٤ الى ما يلى رأس الخرطوم جنوبا ، وفى سنة ١٨٢٧ انحدر المسيو لينان دى بلفون (لينان باشا) فى النيل الى ما يلى الخرطوم ، وفيما بين سنة ١٨٢٨ و١٨٣١ ساح فيه ابراهيم كاشف ونزل النيل الأبيض ووصل الى بلاد الشلوك والدنكا قريبا من بحر الغزال

---

(١) السودان المصرى فى عهد محمد على ص ٢١٨

حملات البكباشي سليم بك قبطان

ولما ساح محمد على فى السودان كان معتزما ان ينفذ الحملات والتجاريد لاكتشاف منابع النيل الابيض ، فعهد بهذه المهمة الى البكباشى المصرى سليم بك قبطان أحد ضباط البحرية المصرية ، وجعل تحت تصرفه قوة من الجنود وعمارة نيلية من المراكب

فاضطلع البكباشى سليم قبطان بهذه المهمة، وقام بثلاث حملات متعاقبة كانت موضع اعجاب علماء الجغرافية و رواد الاكتشاف

الحملة الأولى

تحركت الحملة الأولى من الخرطوم يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨٣٩ برآسة سليم بك قبطان يصحبه سليمان كاشف أحد ضباط الجيش المصرى ورجل فرنسى اسمه المسيو تيبو Thibaut كان يتسمى باسم ابراهيم افندى ، وتتألف قوة الحملة من ٤٠٠ جندى اختيروا من جنود الآلاى الاول والآلاى الثامن المرابطين وقتئذ فى سنار ، وكانت العمارة التى أقلت الحملة مؤلفة كما يقول سليم بك[١] من ثمانى ذهبيات مسلحة كل واحدة بها مدفعان ، ومركبين آخرين و١٥ قاربا ، و بها من الذخائر والمؤونة ما يكفى الحملة لمدة ثمانية أشهر ،وقد وصلت الحملة الى بلدة (العيس) جنوبى الخرطوم[٢]

ثم حالت الموانع فى النهر دون تقدم العمارة ، فعادت الى الخرطوم ، وفى عودتها عرجت بنهر سوباط احد روافد النيل لاكتشافه وانحدرت فيه (١٦ فبراير — ٦ مارس سنة ١٨٤٠) الى أن حالت قلة المياه دون تقدمها ، فرجعت الى الخرطوم

---

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية عدد يوليه سنة ١٨٤٢ ص ٨، رسالة البكباشى سليم بك.

(٢) انظر موقعها على الخريطة الملحقة بهذا الفصل ص ١٧٥

و بلغتها يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٤٠ بعد أن دامت رحلتها ١٣٥ يوما

وقد وضع البكباشى سليم قبطان رسالة ضمنها تفاصيل هـذه الحملة والحق بها جدولا بالارصاد الجوية التى قيدها ؛ فكانت هـذه الرسالة أول مرجع رجع اليه العلماء فى اكتشاف باطن افريقية ، وقدمت هـذه الرسالة الى الجمعية الجغرافيه الفرنسية بباريس بواسطة المسيو جومار رئيس البعثة المصرية بفرنسا ، ونشرت فى مجلة الجمعية الجغرافية (اعداد يوليه واغسطس وسبتمبر سنة ١٨٤٢) فحازت اعجاب علماء الجغرافية بفرنسا،ومهد لها المسيو جومار بمقدمة اثنى فيها على همةسليم بك قبطان وقال فيها

« ان هذه الحملة المؤلفة من ٤٠٠ رجل بقيادة ضابط مصرى وغايتها الاكتشافات الجغرافية هى أول حملة من نوعها ، والتقرير المدون به يوميات الحملة محرر بالاوضاع التى يحررها الرحالة الاوروبيون ، ولا جرم أن هذه الرحلة هى إحدى ثمرات الحضارة التى دخلت مصر منذ ربع قرن »

الحملة الثانية

تحركت الحملة الثانية من الخرطوم يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٠ بقيادة سليم قبطان ، يصحبه أيضا سليمان كاشف قائد القوة البرية ،وصحبه من الاوروبيين المهندسان الفرنسيان دارنو D'arnaud وساباتيه Sabatier والرحالة الألمانى فرن Verne والمسيو تيبو المتقدم ذكره

وقد سارت الحملة فى النيل الابيض ، وتخطت الجهة التى بلغتها الحملة الأولى ، ثم مضت فى سبيلها حتى بلغت يوم ٢٥ يناير سنة ١٨٤١ جزيرة (جونكر) الواقعة على الخط الخامس من خطوط العرض[١] ، فتكون الحملة قد اجتازت نهاية الحملة الاولى بمراحل شاسعة ،والمعلوم أن جزيرة (جونكر) تقع تجاه (غندكرو) التى تبعد

---

(١) انظر موقعها على الخريطة ص ١٧٥

عن الخرطوم نحو ١٠٨٠ ميلا جنوبا ، فهى قريبة من البحيرات التى ينبع منها النيل ، وقد صارت غندكرو وقتاًما عاصمة مديرية خط الاستواء فى عهد الخديوى اسماعيل (١)

ولم يبق بين الحملة و بلوغ منابع النيل إلا مرحلة وجيزة بالنسبة لما قطعته من المراحل ، ولكنها لم تستطع متابعة سيرها لهبوط مياه النيل جنوبى هذه الجهة ولوجود الجنادل والشلالات التى تحول دون تقدم السفن فى ذلك الجزء من النيل ، ولاتزال هذه العقبات تعطل المواصلات النيلية فى هذه الجهة الى عصرنا الحاضر ، فاستقر الرأى على العودة الى الخرطوم ، وفى عودتها عرجت أيضا بنهر سوباط فسارت فيه الى أن تعذر المسير فرجعت وتابعت سيرها الى الخرطوم فبلغتها فى ١٨ ابريل سنة ١٨٤١

وللمسيو دارنو رسالة عن هذه الرحلة نشرت فى مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية (عدد نوفمبر سنة ١٨٤٢) ثم طبعت على حدة

الحملة الثالثة

تحركت الحملة الثالثة من الخرطوم يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٤١ بقيادة سليم قبطان ذاته ، وكان سيرها بطيئا لمعاكسة الريح ، وأصيب بعض البحارة والجنود بالأمراض ومات بعضهم فى الطريق ، على أنها تابعت سيرها ، ولكنها لم تتجاوز النقطة التى بلغتها الحملة السابقه وعادت الى الخرطوم يوم ٦ مارس سنة ١٨٤٢

وكان محمد على ماضيا فى انفاذ فكرته معتزما أن يستأنف حملات الاكتشاف حتى يصل الى منابع النيل ، ويبسط نفوذ مصر فى تلك الأصقاع ، ولكن المرض الذى انتابه فى أواخر عهده بالحكم حال دون اتمام قصده ، على أن هذه الحملات الثلاث قد ادركت نتائج عظيمة ، ولو أن البكباشى سليم قبطان قام بهذه الجهود فى بلد أوروبى ووصل الى هذه النتائج لقدرت له أمته بطولته وخدماته حق قدرها ،

---

(١) قبل ان تصير مدينة (لادو) عاصمة لها

ولشادت بذكره، وساوته وكافأته، وشجعته بمختلف وسائل التعضيد، وبذلك تشحذ الأمم عزائم أبنائها ويكثر فيهم العلماء والمكتشفون والنوابغ فى كل علم وفن، اما فى مصر فقلما تحفل بهم الامة والحكومة، فلا جرم أن تضمحل العزائم ويتعثر التقدم القومى فى سيره .

اكتشفت هذه الحملات بلادا ومناطق كانت الى ذلك الحين مجهولة، ولم يطرقها من قبل سائح أو مكتشف، ودرست جغرافيتها، وعرفت أحوال سكانها ونباتها وأشجارها ومناخها وحيواناتها، فافادت الحضارة والعلم فوائد جمة، ثم انها بسطت فى طريقها نفوذ مصر، فخفقت الراية المصرية لاول مرة فى تلك الاصقاع النائية تحمل فى طياتها رمز الحضارة والتقدم، والسيادة المصرية، فلا غرو ان كان لهذه الحملات فضل كبير من الوجهة القومية، ولقد مهدت السبيل للحملات التى نظمها الخديوى إسماعيل فأكمل العمل الذى قام به محمد على ووصل بحدود مصر الى منابع النيل

حدود السودان المصرى فى عهد محمد على

ان حدود مصر الجنوبية قبل الفتح الاول للسودان كانت تنتهى الى جزيرة (ساى) جنوبى وادى حلفا، فرقعة مصر كانت اذن أوسع مما تقرره الحدود الحالية، تلك الحدود الباطلة التى تجعل حدها الجنوبى شمالى وادى حلفا (أنظر الخريطة ص ١٧٥)

وبفتح السودان فى عهد محمد على انضمت الأقاليم السودانية الى حظيرة الوطن، ووصلت حدود السودان المصرى شرقا الى البحر الأحمر، فقد فتحت الجنود المصرية سنة ١٨٤٠ اقليم التاكا (كسلا) الواقع بين نهر عطبرة والبحر الأحمر أى السودان الشرقى، وجعلت مدينة كسلا عاصمة له كما تقدم بيان ذلك، وكان لفتح هذا الاقليم أهمية كبيرة لخصوبة أرضه وكثرة مراعيه ولكونه صلة الاتصال بين السودان وثغرى سواكن ومصوع

وفتحت الجنود المصرية أيضا (القضارف) بالقرب من حدود الحبشة

و (القلابات) الواقعة على شاطئ نهر عطبره بالقسم الجنوبى من اقليم التاكا فوصلت الى حدود الحبشة شرقا

وكذلك دخلت سواكن ومصوع فى حدود السودان المصرى ، فقد استأجرهما محمد على باشا من سلطان تركيا ، إذ كانتا من قبل من املاك السلطنة العثمانية القديمة ، فلما رأى محمد على ضرورتهما للسودان لأنهما منفذاه على البحر الاحمر وخاصة لاقليم التاكا استأجرهما من السلطان ايجارا دائما مقابل مبلغ سنوى قدره ٥٠٠٠ كيس أى ٢٥٠٠٠ جنيه وبذلك دخلتا تحت ظل الحكم المصرى منذ عهد محمد على

اما من جهة الجنوب فقد بلغت الحملات والتجاريد التى أنفذها محمد على فى النيل الأبيض الى جزيرة (جونكر) تجاه (غوندكرو) كما اسلفنا ، فالى تلك النقطة ينتهى الفتح الأول للسودان ، ولم يتعدها لعدم تخطى الاكتشافات الجغرافية هذه الجهة ، فالفتح الأول قد جعل من النيل نهرا مصريا الى آخر نقطة وصل اليها الاكتشاف الجغرافى ذلك العصر

اما مايلى (جونكر) جنوبا وهو الاقليم المعروف بمديرية خط الاستواء واوغنده ويشمل منطقة البحيرات فقد فتحته مصر فى عهد الخديوى اسماعيل

ومن جهة الغرب قد شمل الحكم المصرى كردفان ، أما سلطنة (دارفور) فلم تفتح الا فى عهد اسماعيل باشا ، ولكنها دخلت رسميا فى املاك مصر على عهد محمد على ، وذلك بمقتضى فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ الذى أسند اليه ولاية أقاليم السودان ، وهى كما وردت فى الفرمان المذكور « النوبة ، ودارفور ، وكردفان ، وسنار وجميع توابعها وملحقاتها »

ولم تكن دارفور قد فتحت بعد ، فاصرار محمد على باشا على دخولها فى الفرمان دليل على أنه يعدها من أملاك مصر الطبيعية ، وغير خاف ان هذا الفرمان قد صدر بتصديق الدول ، فامتلاك مصر للسودان قد حاز الصفة الرسمية والدولية فضلا عن الحق الطبيعى والصبغة القومية

ولو كان محمد على ضاعف عنايته باكمال فتح السودان الى منابع النيل، وبذل فى تثبيت ملكه ونشر لواء الحضارة والعمران فيه ما بذله فى حروب سورية والاناضول، لوطد دعائم الوحدة القومية بالوصول الى منابع النيل ، فان الحدود الطبيعية لمصر والسودان هى وادى النيل وملحقاته من البحر الأبيض شمالا ، الى البحر الأحمر شرقا ، وصحراء ليبيا غربا ، والى منابع النيل والاقيانوس الهندى جنوبا .





خريطة حرب اليونان

وفيها بيان المواقع التى ورد ذكرها فى الفصل السابع

الفصل السابع

حرب اليونان

سنة ١٨٢١ — ١٨٢٨

انتهت حرب السودان ببسط نفوذ مصر فى ربوعه ، وانصرف محمد على وقتا ما الى توطيد دعائم الدولة المصرية العظيمة التى نشأت على ضفاف النيل وامتدت الى شبه جزيرة العرب ، وأخذ يعنى باكمال تنظيم الجيش على الاساليب الحديثة ، وفتح المدارس ، وشق الترع ، وإقامة المصانع ، وتوفير اسباب العمران فى ذلك الملك الواسع ، وبينما هو ماض فى هذا السبيل اذا بالسلطان محمود يدعوه الى حرب جديدة واسعة المدى كثيرة المتاعب ، ميدانها فى البر والبحر ، وهى حرب اليونان ، فكأنه اخماد الثورة الأهلية التى أثارها اليونانيون ورفعوا لواءها بغية تحرير بلادهم من النير التركى وتحقيق استقلالهم القومى

الثورة اليونانية

كانت بلاد اليونان الى أوائل القرن التاسع عشر جزءا من السلطنة العثمانية، يحكمها الولاة الاتراك الذين ترسلهم حكومة الاستانة ، وظلت على هذه الحال الى أن ظهرت فيها بوادر الثورة الاهلية ، فألف أعيانها وشبانها الجمعيات الثورية لتنظيم الثورة وبث تعاليمها فى انحاء البلاد واستمالة الرأى العام فى أوروبا ، واتخذوا مركز هذه الجمعيات فى الروسيا والنمسا لتكون على اتصال بالحكومات الاوروبية وبمنجاة من اضطهاد الحكام الاتراك ، وأهم هذه الجمعيات جمعية كبيرة تسمى (هيتريا) تألفت سنة ١٨١٥ لتحرير اليونان من الحكم التركى وبث روح الثورة

فى النفوس ، وقد انضم اليها كل ذى مكانة فى اليونان من الاعيان والشبان ورجال الدين ، وعضدها كثير من أمراء أوروبا ووزرائها وسراتها وذوى الرأى فيها ، وساعدوها بأموالهم ونفوذهم ، وعضدها قيصر روسيا اسكندر الأول الذى كان يؤيد مطالب اليونان تأييدا كبيرا ، وقرب اليه بعض زعمائهم فاستوزر منهم المسيو كابودستريا Capo D'istria وجعله موضع ثقته ، واستخدم فى الجيش الروسى ضابطا يونانيا يسمى اسكندر ابسلنتى جعله ياوره وكان له شأن أيما شأن فى الثورة اليونانية

والى هذه الجمعية يرجع الفضل الاكبر فى تعميم الدعوة الى الثورة فى بلاد اليونان

وقد ظلت حتى سنة ١٨٢٠ تعمل فى السر وتدأب فى خلال تلك المدة على دعوة الشعب اليونانى الى تأييدها والاندماج فى صفوفها ، ثم تشعبت فروعها فى الاقاليم وفى عواصم ولايات البلقان حتى بلغ أعضاؤها سنة ١٨٢١ نيفا وعشرين الف عضو يحملون السلاح متهيئين للموت فى سبيل الاستقلال

اتصلت هذه الجمعية بقيصر روسيا ، وكان سببها اليه وزيره اليونانى (كابودستريا) والضابط ابسلنتى ، فاعتزت بهذه الصلة وبتعضيد انصارها ، ووضعت بادى الأمر برنامجا واسع النطاق مؤداه استقلال امارات البلقان كلها وطرد الاتراك من اوروبا ، واحياء الدولة البيزانطية القديمة ، وعهدت برياستها الى الضابط اسكندر ابسلنتى المتقدم الذكر

فشبت الثورة بزعامته فى (ياسى) من أعمال ولايتى البغدان والافلاق (رومانيا) فى شهر مارس سنة ١٨٢١ ، واختارت الجمعية تلك الجهة لقربها من الروسيا حتى تمدها بجيوشها

لكن الثورة لم تصادف فى دورها الاول تعضيدا حربيا من الروسيا ، لأنها قامت فى الوقت الذى كان ملوك أوروبا المستبدون ومنهم قيصر الروسيا يأتمرون بالحركات القومية ويتألبون عليها لقمعها ، وكان (مترنيخ) وزير النمسا الأكبر قوام

هذه المؤامرة وله الكلمة النافذة على الحكومات المؤتمرة ، فالثورة التى تولى زعامتها (ابسلنتى) قامت وقيصر الروسيا يتفاوض فى مؤتمر (ليباخ) لاخضاع الثوار فى مملكة نابولى ، فكان من التناقض أن يأتمر بالثورات القومية ثم يشد ازر الثورة فى البلقان ، ومع ان الثورة انما قامت بتحريض قيصر الروسيا فانه اضطر الى انكارها وتخلى عن ابسلنتى واعوانه ، وتركهم وجها لوجه أمام تركيا ، فجردت عليهم جيشا عبر الدانوب وهزمهم ففر ابسلنتى الى المجر حيث اعتقلته الحكومة النمسوية (يونيه سنة ١٨٢١) ففشلت بذلك الثورة اليونانية شمالى البلقان

اعلان الثورة فى الموره

٢٥ مارس سنة ١٨٢١

على ان الثورة لم تكن قاصرة على شمال البلقان ، بل كانت جذورها متأصلة فى بلاد اليونان نفسها ، اى فى شبه جزيرة الموره ، فهبت الثورة فيها ، وكان لها طابع دينى ، فلا غرو ان كان أول من اعلنها ونادى بها على رءوس الاشهاد هو القس جرمانوس أسقف باتراس (شمالى الموره) ، فقد غادر باتراس وسار الى كلافريتا Klavryta يتبعه الانصار والاعوان ، وهناك ، فى يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٢١ ، نادى بالثورة ودعا قومه اليها ، واتخذ شعارها ، الايمان ، والحرية ، والوطن .

فلبى اليونانيون الدعوة ، ورفعوا علم الجهاد فى البر والبحر ، ففى البحر أخذت سفنهم المسلحة تقطع الطريق على المراكب التركية ببحر الأرخبيل وتأسرها او تدمرها ، وتوقع بركابها قتلا وأسرا ونهبا ، وفى البر استولى الثوار على أهم مدن الموره ، واحتلوا (تريبولتسا) عاصمتها ونكلوا بالاتراك المقيمين بها تنكيلا فظيعا ، ثم تألفت (جمعية وطنية) من ستين نائبا يمثلون المقاطعات الثائرة وانعقدت فى يناير سنة ١٨٢٢ [١] واعلنت استقلال الامة اليونانية ، ووضعت لليونان دستورا قوميا .

(١) بمدينة ابيدور Epidaure برآسة اسكندر مافروكورداتو

ثم اتخذت الحكومة الثورية منذ سنة ١٨٢٣ مدينة (نوبلى) عاصمة ومقرا لها، وقد ساعد الثورة فى بداءة عهدها ان الجنود التركية بقيادة خورشد باشا(١) كانت مشغولة بمقاتلة على باشا الثائر الشهير فى يانينا، فلما أخمدت ثورة على باشا وانتهت بقتله زحفت الجنود التركية على المورة وكانت لها الغلبة فى بدء القتال، ثم درات عليها الدائرة وتضعضع الجيش التركى وظهر عليه الثوار، وازداد الثوار جرأة بما نالوه من الفوز فى بحر الارخبيل حيث احرقوا كثيرا من السفن التركية، وعاثوا فى البحر فسادا، وأحيوا عهد القرصنة

استعانة تركيا بالاسطول المصرى

ولما استفحل أمر السفن اليونانية فى البحر أرسل السلطان محمود الى محمد على يعهد اليه أن يجرد أسطوله لتطهير البحر من قرصنة هذه السفن، وكان ذلك سنة ١٨٢١، أى قبل الحملة المصرية على المورة

ذكر المسيو مانجان (٢) أن محمد على أعد الاسطول فى الاسكندرية حيث أقلع منها فى ١٠ يوليه سنة ١٨٢١ بقيادة الاميرال اسماعيل جبل طارق (٣) وكان

---

(١) هو الذى كان واليا على مصر سنة ١٨٠٤ وثار عليه الشعب وخلعه وأجلس محمد على باشا مكانه سنة ١٨٠٥ كما بينا ذلك بالجزء الثانى ص ٣٥٧

(٢) فى كتابه تاريخ مصر فى حكم محمد على ج ٢ ص ٢٤٠

(٣) تذكره بعض المراجع الفرنسية باسم اسماعيل جبل طارق وبعضها باسم اسماعيل الجبل الاخضر، مما يجعلنا نشك فى هذا اللقب الذى ليس من الاعلام المألوفة فى ذلك العصر، فالاسم المرثوق به أنه الاميرال اسماعيل بك، ويقول اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (حقائق الاخبار فى دول البحار ج ٢ ص ٢٣٨) ان الاسطول الذى اقلع لتأديب الثوار اليونان فى ذلك العهد كان بقيادة محرم بك، ويورد امرا من محمد على اليه فى هذا الصدد تاريخه ٢٤ رمضان سنة ١٢٣٦ (يوافق ٢٥ يونيه سنة ١٨٢١) وهذا نصه: قد علم لكم انه احيل تأديب وتربية الاروام الثائرين على الدولة

مؤلفا من ١٦ سفينة كاملة السلاح والعتاد، وبها ٨٠٠ مقاتل بقيادة طبوز اوغلى ، فاتجه الاسطول إلى مياه رودس لمطاردة السفن اليونانية والتقى بالاسطول التركى فى الدردنيل ثم عاد الى الاسكندرية فى مارس سنة ١٨٢٢ ليتأهب لنقل الحملة الى جزيرة كريت

رواية الجبرتى

أشار الجبرتى الى بعض هـذه الوقائع فى حوادث ذى القعدة سنة ١٢٣٦ (أغسطس سنة ١٨٢١) (وهو آخر مادونه فى كتابه) قال

« وفى منتصفه سافر الباشا الى الاسكندرية لداعى حركة الاروام وعصيانهم وخروجهم عن الذمة ، ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر ، وقطعهم الطريق على المسافرين ، واستئصالهم بالذبح والقتل ، حتى انهم أخذوا المراكب الخارجة من استامبول وفيها قاضى العسكر المتولى قضاء مصر ومن بها أيضا من السفار والحجاج ، فقتلوهم ذبحا عن آخرهم ومعهم القاضى وحريمه وبناته وجواريه وغير ذلك ، وشاع ذلك بالنواحى ، وانقطعت السبل ، فنزل الباشا الى الاسكندرية وشرع فى تشهيل مراكب مساعدة للدونانمة السلطانية ، وسيأتى تتمة هذه الحادثة »(١)

العلية على عهدتى ، وبما ان السفن الحربيـة التى جرى استعدادها لغاية الآن قد بلغت أربع عشرة سفينة ، ولو أن قيادتها عائدة علىّ ، الا انه لكثرة أشغالى قد عينتكم بدلا عنى لقيادتها ، فتوكلوا على الله واسرعوا بالاقلاع بها للجهة المقصودة وأدوا الخدمة اللازمة عليكم فى هذه المأمورية بحسب ما تقضى عليكم حقوقها المقدسة ، وقد تحررت صورة من هذا الامر الى مطوش قبودان الذى تعينت سفينته بمعيتكم »

نقول وهذا لا يمنعنا ان نرجح رواية المسيو مانجان لانه عاصر الحوادث التى كتب عنها ، وروايته تؤيدها المراجع الفرنسيه الاخرى ، ويجوز ان محمد على عهد الى الأميرال محرم بك بقيادة الاسطول نيابة عنه كما جاء فى الامر لكن الذى سافر فعلا وقاد الاسطول هو اسماعيل بك كما يقول مانجان

(١) لم يرد ذكر لهذه التتمة لان كتاب العلامة الجبرتى ينتهى بحوادث ذى الحجة سنة ١٢٣٦ (سبتمبر سنة ١٨٢١)

الحملة المصرية على كريت

شبت الثورة فى جزيرة كريت سنة ١٨٢١ كما شبت فى بلاد المورة نفسها وفى جزر الارخبيل ، وظهر الثوار على الحاميات التركية التى اضطرت الى الامتناع فى بعض القلاع بالجزيرة ، فعهد السلطان محمود الى محمد على اخماد الثورة فيها ، فاعد محمد على حملة من ٥٠٠٠ جندى بقيادة حسن باشا واقلعت بهم العمارة المصرية من الاسكندرية قاصدة الى جزيرة كريت فنزل الجنود الى البر فى يونيه سنة ١٨٢٢ ، واستمرت الحرب سجالا الى سنة ١٨٢٣ ، وقاتل المصريون الثوار قتالا شديدا وانقذوا الحاميات التركية المحصورة فى القلاع ، ومات حسن باشا خلال الفتح فخلفه حسين بك فى قيادة الجند ، ودامت الحرب الى أن ظفر المصريون بالثوار وضيقوا عليهم وحصروهم فى جهة من الساحل وشتتوا شملهم وفر الكثير منهم الى الجزر اليونانية الاخرى ، واستتبت السكينة فى الجزيرة

وكذلك اخمد الجنود المصريون الثورة فى جزيرة قبرص

الحملة على المورة

أما فى بلاد الموره ذاتها فقد استمرت الحرب سجالا بين الجيش التركى والثوار الى سنة ١٨٢٣ ، وشعر السلطان العثمانى بعجزه عن اخماد الثورة وادرك ما كبدته اياه من الخسائر الجسيمة ، ورأى فى الوقت نفسه أن محمد على باشا آخذ فى تنظيم جيشه على الطراز الحديث وتثبيت دعائم ملكه العظيم ، فخشى اذا استمر ماضيا فى هذا السبيل أن يقوى على تركيا ويحقق فكرة الانفصال عنها واعلان الاستقلال ، فأراد أن يشركه فى الحرب اليونانية ليحقق بذلك غرضين ، أولهما الاستعانة بالجيش المصرى على اخماد ثورة اليونان ، والثانى صرف محمد علي عن المضى فى تنظيم الجيش ومضاعفة قوته ، فعهد اليه تجريد جيشه على الثوار فى بلاد اليونان وأصدر له فرمانا يدعوه الى ذلك ويخوله ولاية الموره

كان هذا الفرمان بمثابة توسيع لنطاق الدولة المصرية و بسط لنفوذها فيما وراء البحار ، و بالتالى يرفع من شأن محمد على باشا و يزيد من مكانته ، و لم يكن محمد على ليرفض أن يعلو شأنه و يتسع ملكه ، كما أن استنجاد تركيا بجيشه كلما قصرت يدها وعجزت عن مقاومة الثورات سواء فى الحجاز أو فى اليونان مما يزيده فخراً و يوطد مركز الدولة المصرية التى أسسها ، فلم يكن هناك بدٌّ من تلبية دعوة تركيا ، هذا فضلا عن أنه اذا رفض ماعرضه عليه السلطان من التكريم والتكليف فان رفضه يكون حجة فى يد الساعين الى خلعه عن عرشه واظهاره بمظهر الخارج على ارادة السلطان ، وهو لم يكن قد توصل بعد الى تقرير مركز مصر السياسى حيال تركيا ، فقد كان لم يزل (واليا) عينه السلطان ، وللسلطان (رسميا) ان يعزله.

وقد وازن محمد على بين هذه الاعتبارات واستشار أعضاء أسرته وكبار رجال حكومته فاستقر رأيه على أن يجيب دعوة الباب العالى

معدات الحملة

بذل محمد على همة كبرى فى تجهيز معدات الحملة على المورة ، فأعد جيشا بريا من الجيش النظامى الجديد بقيادة نجله الاكبر (ابراهيم باشا) بطل الحجاز وقاهر الوهابيين ، يتألف فى بدء الحملة من ١٧٠٠٠ مقاتل من المشاة ، واربع بلوكات من المدفعية ، وسبعمائة من الفرسان ، وجهزهم بالمدافع والبنادق والذخائر ، وأعدَّ عمارة بحرية مصرية لنقل الحملة ومهماتها يحرسها الاسطول المصرى بقيادة الاميرال اسماعيل جبل طارق ، وكانت القيادة العليا لابراهيم باشا.

تألفت العمارة من ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل(١) واجتمعت

---

(١) اعتمدنا في هذا البيان على احصاء المسيو دروفتى قنصل فرنسا الذى رأى العمارة فى الاسكندرية وكتب عنها الى وزير الخارجية الفرنسية فى رسالة وردت ضمن وثائق المورة التى نشرتها الجمعية الجغرافية وثيقة رقم ١٤

فى ميناء الاسكندرية ، فكان منظرها يأخذ بالالباب ، قل المسيو دريو فى هذا الصدد : قد اشترى محمد على من اوروبا كثيرا من السفن بحيث صار عنده عمارة ضخمة تشبه الارمادا(١) ، ولم ير الشرق حملة تدانيها فى ضخامتها منذ حملة بونابرت ، فكأن الشرق أراد أن يغزو الغرب جوابا على حملة أوروبا عليه ، وهكذا تنقلب الاطوار فى سير التاريخ(٢)

الحرب البحرية على شواطىء الاناضول

اقلعت العمارة المصرية من ثغر الاسكندرية فى شهر يوليه سنة ١٨٢٤ ، ولم تقصد الى شبه جزيرة المورة رأسا ، بل اتجهت الى مياه رودس ، ومنها الى خليج (ماكرى) على شاطئ الاناضول لتلتقى بالاسطول التركى الذى نيط به مطاردة السفن اليونانية فى مياه بحر الارخبيل وتطهير البحر من قرصنتها واخماد الثورة فى الجزر

ولما وصلت العمارة الى خليج (ماكرى) انزل ابراهيم باشا جنوده الى البر وتهيأ للاقلاع باسطوله شمالا ليتصل بالاسطول التركى الذى جاء من الدردنيل بقيادة خسرو باشا ، فالتقى به فى ميناء بودروم (على شاطئ الاناضول) فى أواخر أغسطس ، ولما التقى الاسطولان ظهر الفرق جليا بين نظام الاسطول المصرى وفوضى الاسطول التركى ، وكان هذا الاسطول قد لاقى الأهوال من مهاجمة سفن الثوار اليونان ، فقد كان لهؤلاء مهارة كبيرة فى ركوب البحر وحولوا معظم مراكبهم التجارية الى سفن مسلحة أعدوها لغزو السفن التركية ، وكان أشدها فتكا السفن المعروفة بالحراقات فانها كانت تقذف بنفسها على السفن العثمانية فتحرقها بنارها ، وقد اشتبكت باسطول خسرو باشا واعترضت طريقه فى مياه جزيرة ساموس

(١) هي العمارة الكبيرة التى أعدها فيليب الثانى ملك اسبانيا لمحاربة انجلترا فى القرن السادس عشر .

(٢) دريو ، تاريخ اليونان السياسى ج ١ ص ٢٥٧ .

فاحرقت بارجة الاميرال وسفينتين أخريين ، وتراجعت العمارة التركية جنوبا حتى التقت بالعمارة المصرية فى مياه (بودروم) كما أسلفنا

هاجمت السفن اليونانية العمارتين بالقرب من بودروم ودارت رحى القتال بين الفريقين، فلاذ الاسطول التركى بالفرار من الميدان، أما ابراهيم باشا فقد صمد للسفن اليونانية حتى اضطرها الى التقهقر (سبتمبر سنة ١٨٢٤)

واتصلت العمارتان المصرية والتركية ثانيا وسارتا الى مياه جزيرة (مدللى) ثم تابعت العمارة التركية سيرها شمالا الى الدردنيل

ورجع الاسطول المصرى جنوبا ، فاعترضته السفن اليونانية فى مياه جزيرة (سافز) واشتبكت به فى معركة شديدة افضت الى غرق سفينتين مصريتين (أكتوبر سنة ١٨٢٤) ثم عاد ابراهيم باسطوله الى ميناء (بودروم)

ادرك ابراهيم باشا من هذه الوقائع أن هزيمة اليونان لاتكون على ظهر البحر حيث لهم السفن المسلحة المنبثة فى نواحيه ، وأن خير وسيلة للغلبة عليهم هى القضاء عليهم براً فى شبه جزيرة الموره ، فرجع ادراجه الى ميناء (مرمريس) جنوبا ، ثم أقلع الى جزيرة كريت فى ديسمبر سنة ١٨٢٤ ورسا بالعمارة فى خليج السوده حيث أخذ يتحين الوقت المناسب للاقلاع الى ساحل الموره

ولقد برهن ابراهيم باشا خلال هذه الوقائع البحرية على شجاعته التى امتاز بها فى حروب البر ، فانه صمد عدة أشهر لقتال السفن اليونانية التى اشتهرت بعظيم قدرتها فى خوض غمار البحار ومهارتها فى مهاجمة السفن الحربية ، ولولا عزيمته ورباطة جأشه فى مواجهته المخاطر لتشتتت العمارة المصرية وتبددت امام هجمات السفن اليونانية ، قال المسيو (دوان) فى هذا الصدد[1] :

« مضت خمسة أشهر على مغادرة العمارة المصرية ثغر الاسكندرية ، خمسة أشهر تقضت فى جهود شاقة ، ومتاعب لاهوادة فيها ، ومخاطر تجدد كل يوم ،

---

(١) فى كتابه (فرقاطات محمد على الاولى) ص ١٢

وان ما أبداه ابراهيم باشا فى هذه الظروف من الثبات ورباطة الجأش لما يسترعى النظر ، فان قيادة أسطول بحرى تصحبه عمارة من سفن النقل لمن المهام التى لا يسول الاضطلاع بها ، وان ابراهيم باشا فى قيادته عمارة من مائتى سفينة تقل نحو عشرين الف رجل من جنود وبحارة قد اضطلع بمثل المهمة التى حملها بونابرت من قبل ، مع حفظ النسبة بين الموقفين ، حينما اجتاز البحر الابيض فى أواخر القرن الماضى بعمارة من ٢٨٠ سفينة تقل ٣٨٫٠٠٠ مقاتل ، واذا تذكرنا أن مصر لم يكن لها الى ذلك الحين اسطول منتظم ، ولا تقاليد بحرية ، ولا هيئة من الضباط البحريين الا كفاء ، ولا العدد الكافى من البحارة المدربين ، وكان على ابراهيم باشا أن يبتكر وينظم على الفور كل مايلزم الحملة البحرية من سفن حربية وسفن النقل ورجال وعتاد ، وان يروض نفسه على ركوب البحر والقتال بين امواجه واهواله ، اذ تذكرنا كل ذلك ، فانه يحق لنا أن نعجب كيف ان العمارة التى حشدها محمد على امكنها أن تبقى خمسة أشهر تجوب البحار دون أن تتفكك أوصالها ، وكيف استطاعت أن تثبت أمام الوثبات والهجمات الشديدة التى استهدفت لها وأصابتها من عدو له حظ كبير من المهارة من غير أن تخسر سوى سفينتين حربيتين وبضعة نقالات ، لاشك أن هذه الحقائق تدلنا على مضاء عزيمة ابراهيم باشا وعلو همته ، وتطالعنا بما تحتويه نفسه من صفات العظمة ومزايا الرياسة والقيادة ، كما أن مواقفه فى ميادين القتال ورباطة جأشه فى مغالبة المحن تدل على شجاعة كبرى لايسع أى انسان إلا أن يبادر بالاعجاب بها »

النزول الى برّ الموره

قلنا ان ابراهيم باشا مضى بعمارته الى جزيرة كريت وأخذ يتحين خلو البحر من السفن اليونانية ليقلع الى شواطئ الموره ، وقد تهيأت له الفرصة إذ وقع اضطراب بين بحارة السفن اليونانية لتأخر عطائهم وتنازع زعمائهم من رؤساء الحكومة الثورية ، فأبى البحارة الاستمرار فى القتال ، فلما علم ابراهيم باشا بهذا النبأ انتهز الفرصة فأقلع بعمارته من (خانيه) الى ميناء (مودون) جنوبى الموره وانزل جنوده الى البر

فى فبراير سنة ١٨٢٥ وألفى القوات التركية فى أسوأ حال لغلبة الثوار عليهم بحرا وبراً ولم يبق تحت يد الترك من المواقع سوى (مودون) التى نزل بها ابراهيم باشا ، وميناء (كورون) التى كان يحاصرها اليونانيون

حصار نافارين

أقام ابراهيم باشا فى (مودون) قليلا يدبر شؤون جنده ويرسم خطة الزحف على داخل البلاد ، ثم سار منها مع نخبة من جيشه قاصدا (كورون) لنجدتها ، فغلب اليونانيين وفك الحصار عنها وادخل الى الجنود المحصورة المدد والمؤن ، ثم أنفذ فرقة من جيشه لضرب الحصار على مدينة (نافارين) التى كان الثوار قد استولوا عليها وامتنعوا بها ، وكانت من أهم مواقع المورة ، فحاصرها براً وبحراً ، واشتدت مقاومة اليونانيين وتكبد المصريون الأهوال فى حصار المدينة ، فقام ابراهيم باشا مع بقية جيشه من (مودون) ليشدد الحصار على نافارين ، فهاجمته في طريقه اليها فرقة من اليونانيين يبلغ عددها ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل أتوا لنجدة حامية (نافارين) فهزمهم ابراهيم باشا وأسر قائدهم وبدد شملهم وشدد الحصار على المدينة براً وبحراً وكادت تشرف على التسليم لولا قدوم جيش من متطوعى اليونانيين يبلغ تسعة آلاف مقاتل جاءوا لرفع الحصار عن المدينة وقهر الجيش المصرى

لكن ابراهيم باشا قابل هذا الجيش بشجاعة ونظام بديع ، فصف جنوده على ترتيب محكم ، ولما أصبح الاعداء على عشرة أميال ركب المدافع القوية حول المدينة وترك جزءا من جيشه يتولى حصارها وقام ببقية الجيش والتقى باليونانيين على مقربة من البلد ، فهجم هؤلاء بحماسة عظيمة ، ولكن من غير نظام ، أما ابراهيم باشا فقد أمر جنوده بالثبات فى مواقعهم دون أن يطلقوا النار حتى تصدر اليهم الاوامر بذلك ، فلما صار العدو على مائة متر قابله الجنود المصريون باطلاق النار دفعة واحدة فحصد الرصاص الصفوف المتقدمة حصدا وألقى الرعب فى قلوب المهاجمين ، واختلت

صفوفهم ، ولم يمض قليل حتى قتل معظم جنود اليونانيين وتشتت الباقون فى الجبال وفى انحاء اليونان

كانت هذه الواقعة هزيمة كبرى أصابت اليونانيين وفتت فى عضدهم وزلزلت آمالهم ، كما أنها كانت نصرا مبينا للجيش المصرى ، انتهت بسحق الجيش اليونانى وغنم المصريون فيها غنائم كثيرة وأسروا عدداً عظيما من الأسرى فيهم عدة من الضباط ورؤساء الجند الذين عليهم اعتماد اليونانيين فى تنظيم حركاتهم الحربية

وقد رفعت هذه الواقعة من شأن الجيش المصرى ، فانها أول معركة خاضها فى فى القارة الأوروبية بعد حروبه السابقة فى آسيا وافريقية ، وكانت فاتحة انتصاراته فى حرب الموره ، وقد شهد الجميع للجيش المصرى بالنظام والشجاعة والثبات ، وكان مسلك الجنود فيها حيال اعدائهم مسلكا انسانيا رائعاً ، فلم يرتكبوا شيئاً من الفظائع ، وكانوا يحسنون معاملة الأسرى اليونانيين ، كما أن أطباء الجيش المصرى كانوا يعنون بتضميد جراحهم انفاذا لاوامر ابراهيم باشا

تمكن الجيش المصرى بعد هذه الواقعة من تشديد الحصار على (نافارين) براً ، ولكن المدينة لوقوعها على البحر كان يأتيها المدد والمؤن ، فرأى ابراهيم باشا أن لاسبيل الى منع وصول المدد اليها إلا اذا استولى على جزيرة اسفاختريا التى تحجب المرفأ ليتمكن من تركيب المدافع بها واقفال مدخل الميناء ومنع دخول المدد اليها ، وكان اليونانيون يعرفون ما لهذه الجزيرة من الأهمية ، فحصنوها ووضعوا فيها عدة بطاريات من المدافع ، فكان الاستيلاء عليها من أشق الأمور ، على أن ابراهيم باشا بعد أن شاور أركان حربه رأى ان فتح (نافارين) مستحيل بغير الاستيلاء على هذه الجزيرة فصمم على احتلالها وعهد بهذه المهمة الى سليمان (باشا) الفرنساوى [1] (مايو سنة ١٨٢٥)

---

(١) فولابل ، مصر الحديثة جزء ٢ ص ٣٢١

فاختار سليمان بك نخبة من الجنود ممن مهروا فى النظام الجديد وسار بهم من (مودون) بحراً قاصداً (نافارين) ، ولما علم اليونانيون بان هذه القوة آتية لاحتلال الجزيرة عززوا حاميتها بقوة من شبانهم ومقاتلتهم

فلما صارت السفن المصرية على مرمى المدفع اطلقت قلاع العدو المدافع عليها ، فلم تتزلزل قلوب المصريين ، وأجابوا بضرب المدافع من السفن ، ونزلت العساكر البرية منهم فى الزوارق وقصدوا الجزيرة تحت وابل من القنابل ، فتمكنوا من الوصول الى البر ، وترامى الفريقان باطلاق البنادق ، ثم هجم المصريون هجوم الابطال وكان عددهم ١٢٠٠ مقاتل واحتلوا الجزيرة عنوة بعد أن دافع اليونانيون دفاعاً شديداً عنها ، ولكن المصريين غلبوهم بحسن نظامهم وشجاعتهم ورفعوا العلم المصرى على استحكامات الجزيرة .

استيلاء المصريين على نافارين

مايو سنة ١٨٢٥

كانت نتيجة هذه الواقعة ان شدد الجيش المصرى الحصار على نافارين براً وبحراً ، وقد حاول اليونانيون أن يمدوا المدينة المحصورة بالرجال والعتاد ، فكان ابراهيم باشا يفسد كل محاولة من هذا القبيل ، فلما يئس الجنود المحصورون من وصول المدد اليهم طلبوا من ابراهيم باشا أن تسلم اليه المدينة بقلاعها وما فيها من المؤن والذخائر والاسلحة بشرط أن يؤمنهم على حياتهم ، فاستجاب لهذا الطلب (١٨ مايو سنة ١٨٢٥) ودخل المدينة ، فكان دخول الجيش المصرى اليها من أعظم الانتصارات التى تزين تاريخه الحربى ، وكان لسقوطها أثر بالغ فى الموقف الحربى جعل اليأس يدب فى صفوف اليونانيين ، ووطد مركز الجيش المصرى لأن (نافارين) و (مودون) و (كورون) هى قواعد حربية هامة يتسلط منها الجيش على الموره

نشاط السفن اليونانية

وفى خلال القتال تمكنت السفن اليونانية التى بميناء نافارين من الافلات من الحصار إلا سفينتين وقعتا فى أسر المصريين ، وانضمت الى السفن اليونانية التى تمخر فى بحر الارخبيل فأخذت تنشط لمحاربة العمارة المصرية ، وتمكن الاميرال اليونانى (ميوليس) من الاقتراب من ميناء (مودون) التى كانت العمارة المصرية راسية بها [1] واستطاعت الحراقات اليونانية ان تشعل النار فى السفن المصرية الراسية خارج الميناء ، وكانت الريح شديدة ، فاندلعت النار الى باقى السفن ، فتعذر اطفاؤها ، ولم ينج بحارتها بانفسهم إلا بعدعناء شديد ، وذهب كثير من السفن فى هذا الحريق ، وامتدت النار الى المدينة فالتهمت جزءاً منها ، وتناولت مخازن البارود فنسفتها وتهدم بنيانها وهدمت الاماكن المجاورة لها ، وقد وقعت هذه الحادثة أثناء حصار نافارين ، فلم تفت فى عضد ابراهيم باشا ولم تثنه عن عزمه ، ودأب فى القتال الى أن استولى على المدينة

مهاجمة السفن اليونانية سواحل مصر

وفى غضون الحرب استهدفت السواحل المصرية لقرصنة السفن اليونانية التى أحفظها اشتراك مصر فى الحرب ، فاقبلت ثلاث من حراقات اليونان الى بوغاز الاسكندرية ودخلت واحدة منها الى الميناء ووصلت امام طابية صالح واشعلت نارها تريد احراق الاسطول المصرى الذى كان راسيا أمامها ، وهى الطريقة التى اشتهرت بها الحراقات اليونانية ودمرت بها كثيرا من السفن العثمانية ، ولكن حراس القلعة بادروا الى اطلاق المدافع على السفينة اليونانية و بادرت السفن الحربية المصرية الى ارسال بعض زوارقها المسلحة بالمدافع فهاجمتها واخمدت نارها ، و برهنت

---

(١) ١٧ مايو سنة ١٨٢٥

فى تلك الحركة على مهارتها ويقظتهـا ، فلما رأت السفينتان اليونانيتان الأخريان ما حل بالاولى لاذتا بالفرار

ولما علم محمد على باشا بهذه المحاولة الجريئة أصدر أمره الى محرم بك اميرال الاسطول المصرى ووكيله بلال أغا بالخروج مع خمس سفن حربية لتعقب الحراقتين اليونانيتين ، وخرج محمد على صحبة هذه الحملة على ظهر السفينة الحربية (جناح بحرى) ، ولكن الحملة لم تستطع اللحاق بالحراقتين ، وقد تابع محرم بك تجواله بالاسطول حتى بلغ مياه رودس حيث كانت السفن اليونانية ، فلما أبصرت الاسطول المصرى لاذت بالفرار واقلعت الى مياه الارخبيل

فتح كلاماتا Kalamata

لما سقطت (نافارين) اعتصم الثوار اليونانيون وعددهم نحو خمسة آلاف بقيادة (بيترو بك) فى ميناء (كلاماتا) وكانوا من سكان الجبال المشهورين بالشجاعة وشدة البأس واجمعوا الاستبسال فى مقاومة الجيش المصرى ، فمضى اليهم ابراهيم باشا ، ولما وصل الى (كلاماتا) اشتد القتال بين الجيش المصرى والثوار اليونانيين وانتهى بهزيمة اليونانيين ودخول الجيش المصرى المدينة ، واحتل ابراهيم باشا كذلك القلاع والقرى الصغيرة القريبة من كلماتا بعد مقاومات محلية قتل فيها حاميات تلك القرى أو وقعت فى الأسر وفتح كذلك (اركاديا) الواقعة على البحر غربى الموره (انظر مواقع هذه البلاد بالخريطة ص ١٩٥)

فتح مدينة تريبولتسا Tripolitza

يونيه سنة ١٨٢٥

كانت (تريبولتسا) عاصمة الموره والواقعة فى قلب شبه الجزيرة معقلا منيعا للثوار اختاروها وجعلوها مثابة للمقاومة الاهلية لمنعة موقعها وصعوبة الوصول اليها ، فقرر

براهيم باشا الزحف عليها للقضاء على الثورة فى معقلها فشرع فى اجتياز جبل (تايجنت)

وكان اجتياز مضايق هذا الجبل الوعر من أشق الأمور لوعورة الطرق واستهداف من يجتازها للاخطار، وقد هزم ابراهيم باشا عند مضيق كورشيكا قوات الثوار التى كان يقودها الثائران الشهيران (كولوكترونى) و (بترا كو) وكان غرضهما أن يسدا الطريق امام ابراهيم باشا ويحميا بجموعهما موقع (تريبولتسا) ولكن الجيش المصرى قهر هذه القوات وقتل فى هذه المعركة نحو خمسمائة من اليونانيين ودخل مدينة تريبولتسا فوجدها خالية من السكان اذ أخلاها أهلها بعد أن أضرموا فيها النار قبل رحيلهم وأووا الى الجبال

وبعد أن تم لابراهيم باشا فتح مدينة (تريبولتسا) تابع زحفه لمطاردة القوات اليونانية فقصد وادى إرجوس Argos وقهر حشدا من الثوار بقيادة إبسلانتى، وفى ٢٧ يولية سنة ١٨٢٥ عرج على وادى (لكونيا) حيث كان الثوار يرابطون فى معاقله فهزمهم واستولى على استحكاماتهم، وكذلك احتل باتراس، وبذلك صار شبه جزيرة (موره) فى قبضة الجيش المصرى عدا مدينة (نوبلى) عاصمة الحكومة الثورية فأخذ يتأهب لحصارها

فتح مدينة ميسولونجى

٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦

بينما كان ابراهيم باشا يتأهب لحصار (نوبلى) جاءه نبأ من رشيد باشا قائد الجيوش التركية يطلب منه النجدة والمدد ليعاونه فى حصار ميسولونجى فعدل مؤقتا عن حصار (نوبلى) وولى وجهه شطر (ميسولونجى)

كان رشيد باشا يحاصر هذه المدينة منذ مدة طويلة دون أن ينال منها منالا، وكان موقعها ذا منعة لوقوعها على خليج (باتراس) واتصالها بالبحر حيث كان يجيئها

المدد من طريقه ، ولم تستطع العمارة التركية أن تحصرها من هـذه الناحية لوجود السفن والحراقات اليونانية بقيادة الاميرال (ميوليس) تمنعها الدنو من المدينة

فلما عجز رشيد باشا عن متابعة حصار ميسولونجى واستعصت عليـه ، بعث يستنجد بالجيش المصرى ، فأرسـل ابراهيم باشا لوالده ينبئه بذلك ويطلب منه أن يوافيه بالمدد ، فأرسل له مددا كبيرا من الجند والعتاد .

فلما تلقى ابراهيم باشا ذلك المدد ترك ببلاد (موره) مايكفيها من الحاميات وعهد الى الـكولونل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) قيادة القوات المصرية فى تريبولتسا وسائر بلاد الموره وقام من فوزه فى عشرة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان الى باتراس ثم عبر الخليج وسار (بحرا) قاصـدا مدينة ميسولونجى (فبراير سنة ١٨٢٦) فاشترك مع رشيد باشا فى الحصار واتبع اولا خطة رشيد باشا فأخفقت ورجع عنها منهزما ، فطرح جانبا خطط رشيد باشا ورسم لنفسه الخطة التى نجحت فى حصار (نافارين) بان شدد الحصار عليها برا وبحرا ، وكانت العمارة المصرية البحرية يقودها الاميرال محرم بك ، واحتل الجزر الواقعة على مدخل الميناء وحصنها ليمنع ورود المدد بحرا الى (ميسولونجى) كما فعل فى نافارين

وقـد أراد ابراهيم باشا بادئ الامر ان يتفادى اهوال القتال وسفك الدماء فطلب من المدينة التسليم فأبى أهلها أن يسلموا وأجمعوا امرهم على المقاومة الى النهاية مهما كلفهم من الضحايا ، وارسلوا الى القائد اليونانى (كرايسكاكى) وكان على مقربة من المدينة ينبئونه بانهم عزموا على الخروج جميعا فى ليلة ١٢ ابريل سنة ١٨٢٦ (١) وطلبوا اليـه ان يهاجم الجيش المصرى فى ميعاد حددوه ، فلما خرجوا فى الوقت المعلوم فى هدوء وسكون مستترين فى جنح الظلام قابلهم الجيش المصرى بنار كالصواعق حصدت صفوفهم حصدا فارتدوا الى المدينة من غير نظام وتعقبهم المصريون حتى دخلوا المدينة فى اعقابهم وأعملوا فيهم السيف والنار وقتلوا منهم مقتلة عظيمة .

---

(١) فولابل مصر الحديثة ٢ ص ٣٥١

ولما ضاقت السبل بالبقية الباقية من المدافعين اجتمعوا فى مستودع الذخائر وكان عددهم نحو ألفين ما بين شيوخ واطفال و نساء واتفقت كلمتهم على ان يؤثروا الموت على التسليم ، فوضعوا البارود واشعل فيه رئيسهم النار فانفجر وخر المكان على من فيه وقتلوا جميعا ، وقد احتمل المصريون فى فتح المدينة خسائر جسيمة فقد بلغ عدد قتلاهم فى الهجمة الاخيرة نحو الفى قتيل

حصار أثينا

انفصل الجيش التركى عن الجيش المصرى بعد فتح (ميسولونجى) فعاد ابراهيم باشا الى (موره) وقصد الجيش التركى مدينة (اثينا) لفتحها ، ولم يكن بها من القوة مايكفى لصد هجماته فبادر القائد اليونانى (كرايسكاكى) والكولونل (فافييه) الفرنسى الى نجدة المدينة ولكن رشيد باشا احكم حصارها ومازال يشدد الحصار حتى سلمت (يونيه سنة ١٨٢٧)

اعداد محمد على حملة جديدة

كانت حالة الثورة اليونانية فى أوائل سنة ١٨٢٧ تدعو الى اليأس ، فلم يكن بقى فى أيدى الثوار سوى مدينة (نوبلى) فى بلاد الموره ، واثينا فى الاتيك ، وتمركزت قوة الثورة فى جزيرة (هيدرا) و (اسبتزيا) من جزر بحر الارخبيل ، وقد عاث الثوار فى البحر فسادا ، وازدادت قرصنتهم ، وكثر انتهابهم للمتاجر التى تحملها السفن .

فاعتزم محمد على بعد سقوط ميسولونجى تجريد حملة بحرية جديدة بالاشتراك مع تركيا للقضاء على آخر معقل للثورة اليونانية

فأعد مدداً من عدة آلاف من الجنود حشدهم فى الاسكندرية كى يرسلهم الى ابراهيم باشا ، واجتمع بمينائها معظم الاسطول المصرى وكان قد عاد من مياه اليونان لاصلاح ماعطب من سفنه ، والعمارة التركية التى جاءت للغرض

نفسه ، وانضم اليهما بعض السفن الحربية الجديدة التى كان محمد على أوصى بها من قبل فى ثغور مرسيليا وليفورن وفينسيا (البندقية) ، فكانت الاسكندرية فى ابريل سنة ١٨٢٧ قاعدة لحملة كبيرة برية وبحرية تستعد للاقلاع الى مياه اليونان للقضاء على آخر معقل للثورة فى جزيرة هيدرا واسبتزيا وميناء نوبلى

تدخل الدول

وفى غضون ذلك كانت الدول الاوروبية لاتفتأ تتفاوض لانقاذ الثورة اليونانية ، وترجع مفاوضاتها الى ماقبل سقوط ميسولونجى ، ذلك ان الجمعيات اليونانية المنبثة فى بعض العواصم الأوروبية كانت تحرك الرأى العام الأوروبى وتستصرخه للأخذ بناصر اليونان ، وقد تحرك أيضا نصراء الثورة اليونانية من رجال السيف والقلم فى الروسيا وانجلترا وفرنسا لدعوة الدول الى التدخل لانقاذ الثورة ، ونهض منذ ابتداء الحرب جماعة من أقطاب الشعراء والأدباء أمثال اللورد بايرون وفيكتور هيجو وشاتوبريان وغيرهم يستصرخون الرأى العام الاوروبى ويضربون على الوتر الدينى الحساس لتوجيه ميول الأمم والحكومات فى اوروبا الى نجدة اليونانيين ، وبلغ باللورد بايرون انتصاره لهم أن تطوع فى صفوفهم ومات فى ميسولونجى سنة ١٨٢٤ ، وجاشت العداوة القديمة بين تركيا والروسيا ، فكانت الحكومة الروسية أسبق الدول الى الرغبة فى التدخل ، وخاصة بعد ان تولى عرشها القيصر نقولا الأول خلفا للاسكندر (ديسمبر سنة ١٨٢٥) فانه كان أقوى شكيمة من سلفه ، فاعتزمت الروسيا أن تتدخل بمفردها لصالح اليونان ، لكن انجلترا خشيت أن تنفرد الروسيا بالتدخل فيقوى نفوذها فى البلقان والشرق ، ويعلو على نفوذ انجلترا ، فأوفدت اليها الدوق ولنجتون سفيرا لديها لتوحيد أغراض الدولتين ، وعقدتا اتفاقا مبدئيا فى (٤ ابريل سنة ١٨٢٦) يرمى الى تخويل اليونان استقلالها الداخلى مع بقاء السيادة التركية ، ولما سقطت ميسولونجى كان لسقوطها تأثير كبير فى الرأى العام الأوروبى

لأن البطولة التى أظهرها اهلهـا فى الدفاع عنها زادت من عطف الأوروبيين عليهم ، وتجددت المفاوضات بين الدول ثم اسفرت عن ابرام معاهدة لوندره (٦ يوليه سـنة ١٨٢٧) ، وهى المعاهدة التى اتفقت فيها كل من انجلترا وفرنسا والروسيا على التدخل بين تركيا واليونان لتقرير مصير المسألة اليونانية على قاعدة استقلال اليونان الداخلى مع بقاء السيادة التركية عليها ، وقضت بان تطلب الدول من الجانبين وقف حركات القتال تمهيدا للوساطة بينهما ، واتفقن فيما بينهن على أن يعرضن على الباب العالى هذه الوساطة ، فاذا لم يقبلها فى مدة شهر من ابلاغه نبأها يلجأن الى القوة فى تنفيذ مطالبهن

أما النمسا فلم تشترك فى المعاهدة ولا فى التدخل اتباعا لمبدأ وزيرها الأكبر مترنيخ ، وهو الا يعضد اية ثورة يقوم بها شعب ضد حكومته الشرعية

كانت هذه المعاهدة انقاذاً للثورة اليونانيه لانها أبرمت فى الوقت الذى أشرفت فيه الثورة على الاحتضار وكادت تلفظ النفس الاخير ، وقد تخاذل زعماؤها وسرى اليأس الى نفوس انصارها ، فلماأبرمت المعاهدة ابتهج لها اليونانيون ابتهاجا عظيما ، وعاودهم الامل فى تحقيق مطالبهم بمعونة الدول الاوروبية

وكان الحلفاء يعلمون اصرار تركيا على رفض طلباتهم ، فاتفقوا على ارسال أساطيلهم الى مياه اليونان لتأييد مطالبهم بالقوة ولمنع السفن المصرية والعثمانية من الوصول الى شواطىء اليونان وارسال المدد الى الجيش المصرى والتركى بها

فانفذت انجلترا الى بحر الارخبيل اسطولا مؤلفا من ١٢ سفينة بقيادة الاميرال كودرنجتون Codrington ، وجاء بعده الاسطول الفرنسى وعدده سبع سفن بقيادة الاميرال ريني Rigny أما الاسطول الروسى وعدده ثمانى سفن فقد جاء متأخرا من طريق بحر البلطيق بقيادة الاميرال هيدن ، فانضم الى الاسـطول الانجليزى والفرنسى ، وتولى القيادة العـامة للاساطيل الثـلاثة الاميرال الانجليزى كودرنجتون

اقلاع الحملة المصرية الى مياه نافارين

واتم محمد على تجهيز الحملة التى أعدها لامداد ابراهيم باشا ، فأقلعت العمارة البحرية من الاسكندرية فى أوائل أغسطس سنة ١٨٢٧ بقيادة الاميرال محرم بك ، وكانت مؤلفة من ١٨ سفينة حربية مصرية ، و ١٦ سفينة تركية وأربع سفن تونسية ، وست حراقات وأربعين مركبا لنقل الجنود وعددهم ٤٦٠٠ مقاتل ، وكان الغرض الاول من الحملة محاصرة جزيرة (هيدرا) التى كانت أهم معقل للثورة اليونانية

رست العمارة بميناء نافارين فى ٩ سبتمبر ١٨٢٧ ، وانضمت الى أسطول تركى آخر جاء من الاستانة بقيادة الاميرال طاهر باشا وعدده ٢٣ سفينة ، وتولى ابراهيم باشا القيادة العامة لقوات البر والبحر ، وأخذ يتأهب لحملة بحرية على جزيرة (هيدرا) وحملة برية ينفذها الى شمالى (الموره)

أما أساطيل الحلفاء فقد اتخذت مكانها بادئ الأمر بين جزيرتى هيدرا وترميا وكان الاميرال كودرنجتون لا يفتأ يتجسس اخبار العمارتين المصرية والتركية لمنعهما من الوصول الى سواحل اليونان ، وانزال المدد بالبر ، ولكنهما وصلتا ثغر نافارين دون أن يشعر بهما الحلفاء ، فلم يجدوا سبيلا لمنعهما من دخول الميناء أو انزال المدد ، و بذلك اخفقوا فى خطتهم الأولى

وأخذت السفن المصرية والتركية مكانها فى الميناء ، وبدا الفرق جليا بين الاسطولين ، فقد تفوقت السفن المصرية بحسن نظامها وترتيبها وجودة سلاحها ، وفى هذا الصدد يقول الكبتن فياوز أحد ضباط الاسطول الانجليزى الذى جاء يستطلع اخبار العمارتين فى نافارين « ان السفن الحربية المصرية كانت تبدو فى حالة جيدة جدا »

مقدمات واقعة نافارين البحرية

ساء الحلفاء وصول العمارة المصرية التركية الى نافارين وايواؤها الى مكان حصين، فتحركت سفنهم وقصدت الى تلك الميناء لاملاء شروط الحلفاء على ابراهيم باشا، وكان الاسطول الانجليزي أسبق الاساطيل المتحالفة الى الحضور، فقد وصل قبالة نافارين يوم ١٢ سبتمبر، ثم اعقبه الاسطول الفرنسي فجاء يوم ٢١ منه، اما الاسطول الروسي فلم يجئ إلا في أوائل اكتوبر

وقد بادر الاميرال كودرنجتون بفتح باب الشر، فارسل الى ابراهيم باشا رسولا (يوم ١٩ سبتمبر ١٨٢٧) يبلغه مطالب الحلفاء طبقا لمعاهدة لوندره، ومضمونها وقف حركات القتال برا وبحرا، وأبلغه أن الحلفاء أرسلوا اساطيلهم لمنع وصول السفن الحربية أو القوات البرية الى أي جهة من اليونان أو الى جزائر بحر الارخبيل، ومعنى هذا البلاغ انذار ابراهيم باشا بالكف عن ارسال الحملة البحرية الى جزيرة (هيدرا) أو تحرك جنود البر داخل شبه جزيرة الموره

ولما جاء الاسطول الفرنسي قابل قومندانه الاميرال ريني ابراهيم باشا، وكرر عليه مطالب الحلفاء، ثم قابله مرة أخرى لهذا الغرض يصحبه الاميرال كودرنجتون، وكان القصد من هذه البلاغات والمقابلات ارهاب ابراهيم باشا وتهديده كي يعود باسطوله الى الاسكندرية، لكن البطل ابراهيم قابل تهديد الحلفاء بالثبات ورباطة الجأش، وكان جوابه أنه سيرسل الى والده بالاسكندرية والى الباب العالي بالاستانة يطلب تعليماتهما في الموقف الذي يتخذه، والى أن يتلقى هذه التعليمات فانه يتعهد ببقاء الاسطول في نافارين

لم يكن الحلفاء صادقين في مسلكهم، لأن المعاهدة كانت تقضي بوقف حركات القتال من الجانبين، لكن خطة الحلفاء الحقيقية كانت ترمي الى فرض هذا الشرط على الجانب المصري والتركي فقط، مع ترك اليونانيين احرارا في حركاتهم البحرية والبرية داخل شبه جزيرة الموره أو في بحر الارخبيل، وبذلك يقوى جانبهم

ويتسنى لهم أن يجمعوا صفوفهم من جديد وان يتلقوا المدد ويهاجموا الحاميات المصرية ويوقعوا بها

ولم يفت نظر ابراهيم باشا الثاقب ادراك هذه الخطة ، فقد فطن اليها وتحققها، ومما يؤثر عنه فى هـذا الصدد أنه قال للاميرال رينى خلال حديثه معه « انكم تطلبون منى وقف كل حركات القتال ، وفى الوقت نفسه تتركون الاروام يفعلون مايشاءون ، ان هذا ليس من الانصاف فى شئ »

فسوء النية من ناحية الحلفاء كان أمرا ثابتا لانزاع فيه ، وهو الذى أدى الى معركة نافارين البحرية ، على أن ابراهيم باشا أراد أن يتفادى مسؤولية القتال لأن العلاقات بين تركيا والحلفاء كانت فى الظاهر ودية حتى ذلك الحين ، فتعهد ببقاء أسطوله فى نافارين الى أن ترد التعليمات من محمد على والباب العالى ، ورضى بهذا العهد مع أنه كان على تمام الاهبة لانفاذ الاسطول الى جزيرة هيدرا ، ولو هو سار اليها لسحق آخر معقل لليونان ، ولـكن سياسة الحلفاء أبت عليه ذلك

عقدت اذن هدنة وقتية بين ابراهيم باشا والحلفاء ، ولـكن اليونانيين انتهزوها فرصة وقاموا بحركات عدائية فى خليج كورنت واعتزموا مهاجمة (باتراس) شمالى الموره بمعاونة الحلفاء ، وكان الجيش المصرى يحتلها ، فابلغ ابراهيم باشا الخبر الى الاميرال كودرنجتون كى يمنع هذه الأعمال المنافية للهدنة ، فلم يلق جوابا مقنعا ، فاعتزم امداد (باتراس) وسار اليها بحراً فى عمارة من بعض السفن الحربية

فثارت ثائرة الحلفاء ، وعدوا هذا العمل نقضا للهدنة ، على حين أن ابراهيم باشا انما تعهد بعدم مهاجمة جزيرة هيدرا ، ولم يتعهد بالامتناع عن نجدة الحاميات المصرية فى المورة ، وكان مفروضا أن يحترم الاروام الهدنة ولـكنهم نقضوها بحركاتهم الحربية ، فاضطر ابراهيم باشا الى معاونة الحامية المصرية فى باتراس ، لـكن الاميرال كودرنجتون لم يكن يصغى لحكم المنطق ، بل كانت لديه خطة مدبرة ينفذها ، فتعقب العمارة المصرية باسطوله ، ولحق بها تجاه رأس (باباس) شمالى الموره وتهددها بالحرب اذا لم ترجع عن سيرها ، فاضطرت أن تعود ادراجها الى نافارين

ثم جاء ابراهيم باشا جواب محمد على بانه عرض الامر على الباب العالى، وسيرسل اليه تعلياته النهائية اذا ورد الرد ، وفى انتظار هذه التعليمات يوصيه بالتزام خطة السلم وتجنب الاصطدام مع الدول أو التحرش بها حتى ولو طلب اليه الباب العالى ذلك

ذلك أن محمد على رأى بعين حكمته أن محاربة الحلفاء أمر لاتحمد عاقبته، لانهم أقوى عددا واستعداداً ، وخاصة لانهم مالكون ناصية البحار ، فالتحرش بهم يعرض الاسطول المصرى للدمار

وقد عمل ابراهيم باشا بهذه الوصية ، والتزم فى نافارين خطة الدفاع ، وكان ابراهيم يقدر اساطيل الحلفاء ومبلغها من القوة و يعلم انها وان كانت أقل عددا من العمارة المصرية التركية، إلا أنها ارقى منها نظاما ، و بوارجها أقوى سلاحا ، ومدافعها أشد فتكا وأبعد مرمى ، وقوادها وضباطها اكثر علما وكفاءة ، فكان يرى الحكمة فى تجنب الاصطدام باساطيل الحلفاء ، ووافق رأيه فى هذا الصدد رأى محمد على

لكن قواد الحلفاء انفسهم لم يقنعوا بخطة الدفاع ، بل بيتوا الشر للاسطول المصرى والتركى ، واتفقوا فيما بينهم على تدميره مهما كان مسلك ابراهيم باشا ، ومن هنا وقعت كارثة نافارين ، وهذه المؤامرة قد دبرتها السياسة الانجليزية واوعزت بها الى الحلفاء ، وغايتها منها أن تقضى على العمارة المصرية الفتية التى انشأها محمد على فلا تعود مصر تنافسها السيادة فى البحر الابيض المتوسط، وهكذا كانت انجلترا ولم تزل تتربص بمصر وتدبر لها المكايد فى كل ناحية وتحول دون اخذها باسباب القوة والمنعة فى البر والبحر

واقعة نافارين

٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧

غادر ابراهيم باشا نافارين فى منتصف اكتوبر ، وزحف بجزء من جيشه داخل المورة لانجاد الحاميات المصرية ، وأوصى الاميرال محرم بك قائد الاسطول المصرى

والاميرال طاهر باشا قائد الاسطول التركى بألا يتحرش بالاساطيل الدولية ولا يخرجا ازاءها عن قواعد المودة والمجاملة ، لأن العلاقات بين الحلفاء وتركيا ومصر لم تكن قطعت ولا اعلنت الحرب بين الفريقين

وبعد أن بارح نافرين أرسل اليه قواد أساطيل الحلفاء انذارا يبلغونه فيه أنه نقض الهدنة ، ويلقون عليه تبعة هذا العمل وعواقبه الخطيرة ، جاء الرسول الى نافارين حاملا هذا الانذار يوم ١٨ اكتوبر ، أى قبل الواقعة بيومين ، فلم يلق ابراهيم باشا ، فعاد بالرسالة الى الاميرال كودرنجتون ، ولم تكن هذه الرسالة إلا ذريعة لانفاذ الخطة التى اتفق عليها الحلفاء ، وهى القضاء على اسطول ابراهيم باشا

فاجتمع قواد الحلفاء فى ذلك اليوم وتداولوا فى الأمر ، فاستقر رأيهم على الدخول باساطيلهم ميناء نافارين ليكون ذلك ، فى نظرهم ، ادعى الى اجبار ابراهيم باشا على تنفيذ مطالبهم ، وتظاهروا بانهم يعملون فى حدود معاهدة لوندره ، وانهم لا يقصدون إلا المحافظة على السلم ، ومنع وقوع الحرب ، وهكذا تكذب السياسة فى لغتها وأساليبها ، فهى تبيّت الشر والحرب ، وتهيئ وسائل الخراب والدمار ، وتتظاهر فى الوقت نفسه بالمحافظة على الصلح والسلام !

كانت السفن المصرية والتركية مصطفة داخل الميناء على ثلاثة صفوف شبه متوازية ، كل صف فى شكل نصف دائرة ، يمتد طرفاها من نافارين الجديدة الواقعة على يمين البوغاز الى جزيرة اسفاختريا التى تحجب عن الميناء أمواج البحر ، ووقفت البوارج والفرقاطات الكبيرة فى الصف الأول ، وفى الصف الثانى سفن الكورفيت ، ويليها سفن الابريق وغيرها ، وتجد على الخريطة (ص ٢٢٢) موقع السفن

وكان يحمى مدخل الميناء استحكامات قلعة نافارين وبطاريات من المدافع فى طرف جزيرة اسفاختريا ، يعاونها أيضا سفن خفيفة من الحراقات ، وهى مراكب تندفع والنار مشتعلة فيها على بوارج الاعداء لتحرقها بنارها ، وكان على ظهر بعض السفن المصرية طائفة من الضباط الفرنسيين الذين استخدمهم محمد على لاصلاح

البحرية ، فارسل اليهم الاميرال رينى[1] قومندان الاسطول الفرنسى يدعوهم الى الانسحاب من الدونتمة المصرية حتى لا يحاربوا اخوانهم ومواطنيهم ، فلبوا الدعوة واستأذنوا من الاميرال محرم بك فى مغادرة الاسطول ، فلم يسعه إلا الاذن لهم بما طلبوا ، وتركوا الاسطول المصرى يوم ١٨ اكتوبر فى أشد الاوقات حرجا

وفى صبيحة ١٩ اكتوبر جمع الاميرال كودرنجتون قباطين الحلفاء على ظهر بارجته (آسيا) وأصدر اليهم تعليماته فيما يجب عليهم عمله عند بدء القتال

وأحكم قواد الحلفاء تدابيرهم فى الوقت الذى كان الاميرال محرم بك والاميرال طاهر باشا مطمئنين الى الموقف موقنين أن ليس ثمة حرب ولا قتال

وانقضى يوم ١٩ اكتوبر والحلفاء معتزمون اقتحام البوغاز وتدمير العمارتين المصرية والتركية ، وكانوا يزمعون انفاذ خطتهم ذلك اليوم ، ولكن الريح لم تساعد السفن على دخول الميناء (وكانت السفن الحربية الى ذلك الحين تسير بالشراع لا بالبخار) فارجأوا هجومهم الى اليوم التالى

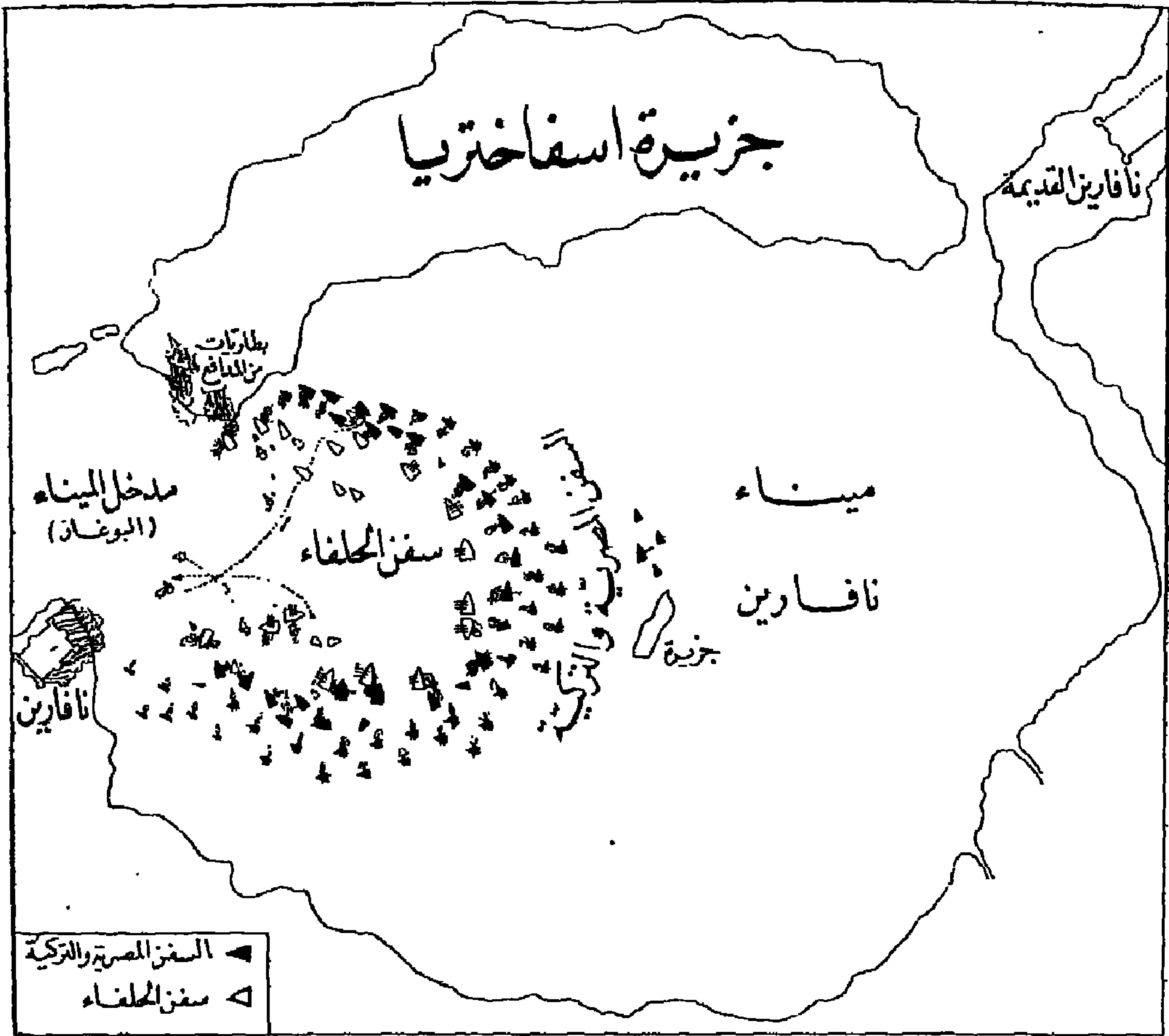
ففى نحو الساعة العاشرة من صبيحة ٢٠ اكتوبر بدأت سفن الحلفاء تتأهب لدخول الميناء عند أول اشارة تصدر اليها ، ففى ساعة الظهر أخذت البارجة (آسيا) التى تقل الاميرال كودرنجتون تتجه على سمت من الخليج تحيط بها بقية السفن الانجليزية ، تتبعها العمارتان الفرنسية والروسية

وفى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر اصدر كودرنجتون أمره الى اساطيل الحلفاء بالتأهب للقتال ، وعند تمام الساعة الثانية اقتحمت البوغاز

فارسل الاميرال محرم بك قائد الاسطول المصرى رسولا الى البارجة آسيا يطلب الى كودرنجتون أن يمنع عمارة الحلفاء من الرسو فى نافارين ، فأجاب الاميرال الانجليزى الرسول فى لهجة جافة بانه لم يجئ ليتلقى أمرا ، بل جاء ليملى أوامره ، وكان

---

(١) يوم ١٧ اكتوبر سنة ١٨٢٧



ميناء نافارين والواقعة البحرية

٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧

هذا الجواب دليلا على نية الشر والعدوان التى تختلج فى نفوس الامبرال الانجليزى وزملائه ، واستمرت البارجة (آسيا) فى طريقها يتبعها بقية الاسطول ، وأخذت سفن الحلفاء مكانها الذى رسم لها من قبل ، فاصطفت تقريبا على شكل نصف دائرة فى مواجهة اسطول ابراهيم باشا ، واقتربت معظم السفن حتى صارت أمام السفن المصرية والتركية وجها لوجه (انظر الخريطة) ، وصار بعضها على مرمى المسدس منها ، فلم يكن ثمة شك فى انها جاءت تتحداها للقتال

ووقفت البارجة الانجليزية دارتموث على رأس الصف لتعطل عمل الحراقات

المصرية الراسية فى مدخل الميناء ، وطلب قومندانها الى احدى هذه الحراقات أن يغادرها بحارتها وجنودها ، أو ان تنسحب من موقعها ، وكان هذا الطلب ذريعةً الى اشعال نار القتال ، فان الرسول الذى حمل هذا الطلب الى السفينة المصرية ذهب اليها فى قارب مسلح متحفزاً متحدياً للقتال ، وقد زعم مؤرخوا الحلفاء أن رصاصةً اطلقت من السفينة المصرية اصابت أحد جنود الحلفاء وكانت السبب فى اضرام نار القتال ، وذلك زعم لايخفى حقيقة الواقع ، وهو أن الحلفاء اقتحموا الميناء بسفنهم مضمرين الشر والعدوان ، وسواء أطلقت تلك الرصاصة أم لم تطلق ، فانهم جاءوا عازمين على تدمير الاسطول المصرى التركى وأخذه غيلة وغدرا ، ولو لم تطلق تلك الرصاصة، ان صح أنها اطلقت ، لما عدموا وسيلة أخرى يتذرعون بها الى اطلاق النار

كانت العمارة المصرية التركية عند ابتداء القتال تتألف من ٦٢ سفينة حربية ، وأساطيل الحلفاء ٢٧ سفينة ، فهى أقل منها عدداً ، ولكن كفة الحلفاء كانت ارجح ، لأن لديهم من البوارج الكبرى عشر بوارج ، فى حين أن المصريين والترك لم يكن لديهم منها سوى ثلاث فقط ، ومعلوم أن البوارج هى قوام الاساطيل البحرية ، لانها عبارة عن قلاع كبيرة متحركة تحطم السفن الحربية الأخرى ، دون أن تتمكن هذه من أن تنالها بسوء ، وخاصةً قبل اختراع المدمرات الحديثة والغواصات، اضف الى ذلك ان الحلفاء جاءوا مستعدين للضرب ، على حين أن الترك والمصريين لم يكونوا متوقعين حربا ولا قتالا ، فلم تطلق مدافع القلاع قنابلها على سفن الحلفاء أثناء اجتيازها البوغاز ، ودخلت آمنة سالمة ، هذا فضلا عن أن سفن الحلفاء كانت أشد بأسا وأقوى سلاحا واكثر استعداداً وأرقى قيادة من سفن الترك والمصريين ، وكانت هذه داخل المرفأ ، فحصرتها سفن الحلفاء فى مكان ضيق لا يسهل عليها فيه الحركة ، ولم تمض برهة على دخول الاساطيل الدولية الميناء حتى ابتدأ القتال، وأطلقت بوارج الحلفاء مدافعها على السفن المصرية والتركية ، وتجاوب الاسطولان الضرب، واستعرت نار الحرب والهيجاء ، فانقلب المرفأ بركانا من الجحيم ، واجتمعت بين

جوانبه أسباب الهلاك والدمار ، وصمت الآذان من قصف آلاف المدافع التى كانت تطلق من الجانبين ، ومن دوى انفجار السفن التى كانت تنسفها قنابل الحلفاء أثناء المعركة ، وغشيت ميدان القتال طبقات متصاعدة من الدخان المتكاثف تتخللها النيران المشتعلة ، فكان المشهد رهيبا مروعا ، ولم تعد السفن تميز بعضها بعضا إلا على ضوء اللهب الذى كان يتصاعد بين آونة وأخرى من السفن المحترقة ، ولم تستطع القيادة العامة متابعة حركات القتال ، فأخذت أساطيل الحلفاء تتبارى فى الفتك بالسفن المصرية والتركية

لم تقصر السفن المصرية والتركية فى الضرب ، وأبدى رجالها بسالة فى القيام بواجبهم ، ولم يسلموا فى أية سفينة من سفنهم ، واشتركت مدافع القلاع فى القتال قدر ما استطاعت ، ولكن ضرب الحلفاء كان أشد فتكا وأقوى أثرا ، فدمر معظم السفن المصرية والتركية

ابتدأت الواقعة فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر ، واستمرت الى نحو الساعة الخامسة مساء ، وانتهت بالقضاء على العمارة المصرية التركية ، فقد هلك معظمها نسفا وغرقا ، وجنحت البقية الباقية على السواحل ، فاحرق البحارة أغلبها حتى لا تقع فى أيدى الاعداء ، وبلغ عدد قتلى المصريين والترك ثلاثة آلاف فى حين لم يخسر الحلفاء سوى ١٤٠ من القتلى و ٣٠٠ من الجرحى

تعد واقعة نافارين من الوقائع القليلة التى يتمثل فيها الغدر ونقض العهود والمواثيق ، فانها وقعت من غير أن تعلن حرب بين تركيا والدول المتحالفة ، وأخذ الحلفاء السفن المصرية التركية غيلة من غير أن تنذرها أو تستعد للقتال ، وكل ذلك مناف لابسط قواعد الحروب المتفق عليها بين الدول المتمدنة

وقد فقدت مصر فى هذه الواقعة أسطولها الذى قضى محمد على السنين الطوال يبذل الجهود العظيمة وينفق الاموال الجسيمة فى انشائه ، فكان معظم الخسارة فى هذه المعركة واقعا على مصر وبحريتها ، وهكذا شاءت السياسة الانجليزية أن تبيت الشر لمصر وأسطولها حتى أوقعت به فى كارثة نافارين

لم يشهد ابراهيم باشا واقعة نافارين، إذ كان أثناء وقوعها داخل بلاد (موره) يعمل على اخضاعها ، فلما بلغه تدمير العمارة المصرية عاد الى (نافارين)وشهد بنفسه آثار الواقعة ، فحزن لها حزنا شديدا ، ثم أمر باعداد بعض السفن التى نجت من الكارثة وتعويم بعض التى غرقت وانفذها الى الاسكندرية ، ثم رأى أن يلزم خطة الدفاع ، فأخلى مدن الموره وامتنع بمعظم جنوده فى ثغرى (كورون) و (مودون) حتى يأتيه امر أبيه

اختلاف وجهة نظر تركيا ومصر بعد الواقعة

اختلفت وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة نافارين

أما تركيا فانها رغم تدمير أسطولها فى المعركة قد أصرت على رفض مطالب الدول المتحالفة ، وطالبتها بتعويض عما لحق أسطولها من الدمار ووقفت موقف الصلابة والعناد بازاء الحلفاء

فاعلنت الروسيا الحرب عليها واحتلت (ادرنه) ، وأرسلت فرنسا الى بلاد اليونان جيشا مؤلفا من ١٨٠٠٠ جندى بقيادة الجنرال(ميزون)لاجلاء المصريين والترك عنها

وانتهت الحرب الروسية التركية بعقد معاهدة ادرنه (١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩) وفيها وافقت تركيا على قرارات الدول فى معاهدة لوندره، فاعترفت باستقلال اليونان استقلالا داخليا والا يكون لها عليها سوى حق السيادة الاسمية ، ثم اتفقت الدول على تخويلها الاستقلال التام (٣ فبراير سنة ١٨٣٠)

أما مصر فقد رأى محمد على أن لافائدة لها من مواصلة القتال بعد أن فقدت اسطولها فى واقعة نافارين وانقطعت مواصلاتها البحرية مع جيوشها فى بلاد اليونان، فلا سبيل الى امدادها ، ولان فرنسا انفذت الى الموره جيشا عهدت اليه تحقيق ما اتفقت عليه الدول بقوة السيف، وتعجيل جلاء الجيش المصري، فأدرك محمد على باشا

ان ليس من مصلحة مصر مشايعة تركيا فى عنادها، وخاصة بعد ان تكبدت خسائر جسيمة فى الارواح والانفس واحتملت نفقات فادحة تنوء بها خزانتها ، وتحقق أيضا أن محاولة استرجاع اليونان عبث لا يجدى ، فرأى من الحكمة ألا يجعل سياسة مصر مقيدة بسياسة تركيا وان يتفق مع الحلفاء على وقف القتال وجلاء الجيش المصرى عن الموره

وقد جنح به الى سلوك هذه الخطة ماتلقاه من قناصل الدول فى مصر عن تصميم الحلفاء على تحرير اليونان، واستهداف مصر لكوارث الحرب اذا هى استمرت على اتباع سياسة تركيا ، وفى غضون ذلك جاء الاميرال كودرنجتون قائد العمارة الانجليزية الى مياه الاسكندرية وأنذر بتخريب المدينة إذا لم يبادر محمد على الى استدعاء ابراهيم باشا من الموره ، وسعى المستر باركر قنصل انجلترا فى مصر الى اقناع محمد على بالكف عن القتال ، فاستمع لهذه النصائح والتهديدات وعقد [1] اتفاقا مع الحلفاء على اخلاء الجيش المصرى لبلاد الموره على شروط وهى :

(اولا) يتعهد محمد على باعادة الاسرى اليونانيين وتحرير من بيع منهم فى مصر [2]

(ثانيا) يتعهد الاميرال الانجليزى بارجاع الاسرى المصريين واعادة السفن المصرية التى اسرت أثناء القتال

(ثالثا) ان تخلى الجنود المصرية الموره وينقلهم محمد على باشا على سفنه

(رابعا) ألا يكره اليونانيون المقيمون بمصر على الرحيل عنها ولا يجبرون على البقاء فيها ، وكذلك يسمح لمن يشاء من اليونانيين أن يصحبوا الجيش المصرى فى عودته لمصر

---

(١) فى اغسطس سنة ١٨٢٨

(٢) يقول المستر باركر قنصل انجلترا فى مصر وقتئذ ان عدد هؤلاء الاسرى ٥٠٠ر٥ وزعوا على بيوت الكبراء فى الاسكندرية والقاهرة ، ولما ابرم هذا الاتفاق لم يقبل منهم العتق سوى اربعمائة واما الباقون ففضلوا البقاء فى مصر

(خامسا) يجوز لابراهيم باشا أن يترك فى (موره) عددا من العساكر لا يزيد عن الف ومائتين للمحافظة على (مودون) و (كورون) و (نافارين) و (باتراس) و (كستل توريزه) ، أما المواقع الاخرى فتخلى فورا

وقد أبلغ ابراهيم باشا هذه الشروط وهو فى اليونان فقابلها بالسخط الشديد لما رأى أن جهود جيشه قد ضاعت فضلا عن الخسائر التى تكبدها وخاصة ضياع العمارة المصريه ، ولكنه اضطر للإذعان، فأصدر أوامره باخلاء المدن اليونانية والسير الى الثغور ، ثم أقلعت بهم السفن الى مصر (اكتوبر سنة ١٨٢٨)

وهكذا رجع الجيش المصرى من اليونان الى الاسكندرية بعد أن أنهكته الحروب والامراض ، وتكبدت مصر فى هذه الحملة متاعب وضحايا هائلة ونفقات جسيمة ، وحسبك أن تعرف أن الجيش الذى جردته فى حرب اليونان بلغ اثنين واربعين ألفا خسرت منه ثلاثين الفاً ، و بلغت نفقات الحملة ٧٧٥ الف جنيه ، وفقدت أسطولها الحربى فى واقعة نافارين ، فكانت خسائرها فى الحملة فادحة وتضحياتها بالغة

نتائج الحرب اليونانية

إن مصر لم تنل من الحرب اليونانية من الوجهة المادية شيئا سوى ضم جزيرة كريت اليها ، فقد عهد السلطان محمود الى محمد على بولاية تلك الجزيرة مكافأة له على خدماته فى حرب الموره فإذا صح القول بأن مصر لم تكسب من ناحية التوسع والفتح فمما لا نزاع فيه أن هذه الحرب قد أكسبتها منزلة معنوية كبيرة ، لان هذه أول حرب أوروبية خاض الجيش المصرى غمارها ، ولقد برهن فيها على كفاءته وأثبت أنه يضارع أرقى الجيوش الأوروبية فى ميادين القتال ، فلا غرو ان ارتفع شأن مصر ونال جيشها شهرة عالمية ، وهذه المكانة تعد من أركان عظمة مصر الحديثة ومن عوامل مجدها الخالد ، والأمم الحية تقدر مجدها الحربى تقديرا كبيرا وتبذل فى سبيله الجهود والتضحيات

هذا فضلا عن أن الجيش المصرى قد اكتسب فى تلك المواقع مرانا على الكفاح، وممارسة لفنون الحرب وخططها وأساليبها الحديثة ، ولا ريب أن خوض الجنود والضباط والقواد غمار المعارك المتوالية مما يغرس فى نفوسهم الفضائل والاخلاق الحربية، ويعظم هممهم ويزيدهم شجاعة واقداما، ويبصرهم بمواقع الحروب ويزيدهم علماً وتجربة .

ولا يخفى من جهة أخرى أن الحرب اليونانية كانت خير اعلان عن قوة الجيش المصرى ، وحسن نظامه ، وكفاءة قواده وشجاعة جنوده ، ولقد ظهر فى تلك الحرب أرفع شأنا وأشد بأساً من الجيش التركى ، فكان لهذه الميزة أثرها فى توطيد دعائم الدولة المصرية الفتيه وإعلاء شأنها حيال تركيا ، بحيث لم يعد يسهل على السلطان أن ينظر الى محمد على كوال من ولاة السلطنة العثمانية ، بل جعلته الحرب نداً له وملكا مهيب الجانب قوى البأس والسلطان ، فلا غرو ان قويت فى نفس محمد على بعد تلك الحرب فكرة اعلان الاستقلال ، تلك الفكرة التى ساورته منذ رسخت قدمه فى الحكم وكان يعمل لها بثبات وحكمة وينتهز الفرص ويهيئ الوسائل ويرسم الخطط لتحقيقها ، فكانت الحرب اليونانية مرحلة شجعته على تحقيق تلك الفكرة الجليلة

وكان من نتائج الحرب اليونانية ان أخذت مصر تكتسب مركزا دوليا ، لان الدول الاوروبية قد فاوضت محمد على رأسا دون وساطة تركيا ، فكسبت بالفعل مركزاً ممتازاً بين الدول ، وهكذا كانت الحرب اليونانية وسيلة لظهور شخصية مصر الدولية، وقد كان لحسن نظام الجيش المصرى وما أبداه من المهارة والشجاعة والكفاية الفضل الاكبر فى ما نالته مصر من المكانة ، اذ خاطبت الدول محمد على لا كما تخاطب واليا من ولاة السلطنه العثمانية، بل مخاطبة الند للند ، وأرسلت اليه الحكومة الانجليزية تبدى شديد أسفها على ما لحق بالاسطول المصرى فى واقعة نافارين ، وتظهر رغبتها فى جعل علاقتها بالباشا علاقة وديه ، وفاوضته فيما يكون مركز انجلترا حيال

مصر اذا نشبت الحرب بين الانجليز والترك ، فتعهدت له بأن يكون موقفها حيال مصر موقف حياد

فالحرب اليونانية قد جعلت من مصر دولة مستقلة فعلا عن تركيا و بذلك نالت مركزا ممتازاً ، وكان من مظاهر هذا المركز أن عقدت والدول اتفاق (أغسطس سنة ١٨٢٨) رأسا مع مصر ، ووقع هـذا الاتفاق بوغوص بك وزير خارجيـة مصر ، وهذه أول وثيقة سياسية ابرمها وزير خارجية مصر مع دولة اجنبية فى عصر محمد على

و يتبين لك مبلغ تصميم محمد على باشا على انفاذ فكرة الاستقلال والانفصال عن تركيا من امتناعه عن مد يد المساعدة لها فى حربها مع الروسيا ، فلقد ألح عليه السلطان فى ارسال المدد لـكنه أصر على الامتناع ، واعتذر ببعد المسافة بطريق البر وعدم توافر السفن التى تنقل الجنود بطريق البحر ، واعتذر ايضا بتفشى الوباء فى مصر والشام ، وكل هذه أعذار ظاهرة ، أما السبب الحقيقى لخطته الجديدة فهو طموحه الى الانفصال عن تركيا وتحقيق استقلال مصر ، ولذلك لم تـكد تنتهى الحرب اليونانية وينفض الجيش المصرى غبار المعارك التى خاضها حتى بدأت مقدمات الحرب ضد تركيا ، إذ أخذ محمد على يتأهب لمنازلتها فى ميادين القتال كى يؤلف الدولة المصرية المستقلة بقوة السيف والمدفع

•×•



خريطة الحرب فى سورية والأناضول (مقابل ص ٢٣٠)

وفيها بيان المواقع والبلاد التى ورد ذكرها فى الفصل الثامن ، وقد بينا على الخريطة خط سير الحملة المصرية برا وبحرا ، ورسمنا بها حدود مصر الشمالية (التقريبية) طبقا لاتفاق (كوتاهية) سنة ١٨٣٣ ، وكانت هذه الحدود تبدأ من مجرى نهر الساجور أحد روافد الفرات وتمتد شمالا بغرب الى مضيق (كولك) بجبال طوروس ثم تنحدر جنوبا الى البحر الابيض

ورسمنا ايضا حدودها الشمالية التى قررتها الدول فى معاهدة لندرة سنة ١٨٤٠ ولم يقبلها محمد على (انظر ص ٣٢٢) وكانت تشمل فلسطين وتبدأ من رأس الناقورة شمالى عكا الى مصب نهر السيسبان فى شمالى بحيرة طبرية ، ثم تتبع الشاطىء الغربى لتلك البحيرة ، فالضفة اليمنى لنهر الاردن ، فالشاطىء الغربى للبحر الميت ، ومن نهايته تمتد الحدود جنوبا على خط مستقيم الى رأس خليج العقبة على البحر الاحمر ، ثم تتبع الشاطىء الغربى لخليج العقبة ثم الشاطىء الشرقى لخليج السويس حتى مدينة السويس ذاتها .

الفصل الثامن

الحرب فى سورية والأناضول

خرجت مصر من الحرب اليونانية دون أن تظفر بفتوحات جديدة ، فى حين أن الحرب الوهابية قد انتهت ببسط نفوذها فى جزيرة العرب وضم اليها فتح السودان الشطر المكمل للدولة المصرية ، فان الحرب اليونانية لم تكسبها فتحا جديدا ، بل انتهت بجلاء الجيش المصرى عن بلاد الموره وعودته الى مصر .

وقد أرادت تركيا أن تعوض محمد على باشا بعض مافقده فى الحرب اليونانية ، فاسندت اليه جزيرة كريت ، لكن هذا العوض لم يكن ذا قيمة اذ لم يكن من السهل أن تحكم مصر تلك الجزيرة أو تبسط سيادتها عليها أو تستفيد منها لنزوع أهلها الى العصيان ولانها كانت ارض فتن وثورات .

فلا غرو ان طمح محمد على الى ضم سورية الى مصر ، ولم يكتم نيته عن الحكومة التركية فانه طلبها منها تعويضا عما تكبده الجيش المصرى من الخسائر فى حرب الموره ، ولكن السلطان لم يجبه الى طلبه ، فاعتزم ان يناله بحد السيف ، ورأى ضرورة ضم سورية الى مصر لانها كحاجز حصين بين الدولة المصرية والدولة العثمانية ، وبها تتقى مصر شر تركيا اذا حدثتها نفسها بغزو مصر

اسباب الحملة على سورية

ان حرب الشام يصح اعتبارها حربا دفاعية ، وحربا هجومية ، أما كونها حربا دفاعية فلأن محمد على كان يعلم أن تركيا لاتفتأ تسعى لاسترداد مركزها فى مصر ما وجدت سبيلا الى ذلك ، وان السلطان محمود لم يكن خالص النية نحوه ، بل كان ينظر بعين الحسد الى تقدم مصر وما كسبته من المكانة العالية ، ولم ينس كذلك

أن مصر امتنعت عن مساعدته فى حربه مع الروسيا (سنة ١٨٢٨) ، فاضطغن السلطان على محمد على باشا ، وأخذ يتربص به لينتقم منه وينتزع منه حكم مصر ، ولم يكن يحول بينه وبين ذلك سوى ارتباك احوال الدولة العثمانية وضعفها ، فاذا ماسنحت الفرصة فانه لايتردد فى التخلص من خصمه ، فطموح محمد على الى فتح سورية كان الغرض منه أن يدافع عن مصر وعن مركزه فيها

واذا تأملت فيما كتبه الدكتور كلوت بك فى هذا الصدد رأيت أنه يعبر عن وجهة نظر محمد على فى الحملة على سورية إذ يقول « ان ضم سورية الى مصر كان ضروريا لصيانة ممتلكات الباشا ، فمنذ تقرر فى الاذهان ان انشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيد المدنية فائدة عامة وجب الاعتراف بانه لا يمكن ادراك هذه الغاية إلا بضم سورية الى مصر ، وقد رأينا فعلا أن موقع البلاد الحربى لايجعلها فى مأمن من الغزوات الخارجية خصوصا عن طريق برزخ السويس ، فاذا استثنينا غزوة الفاطميين المغاربة وغزوة الفرنسيين بقيادة بونابرت نجد أن سائر الغزوات جاءت من طريق سورية كغزوة الفرس فى عهد قمبيز وغزوة الاسكندر والفتح الاسلامى وغزوتى الأيوبيين والأتراك ، وعلى ذلك لا يمكن الاطمئنان الى بقاء مصر مستقلة إلا باعطائها الحدود السورية لأن حدودها ليست فى السويس بل فى طوروس » .

فالحرب السورية من هذه الوجهة كانت اذن حربا دفاعية

لكنها كانت أيضا حربا هجومية ، وكان الغرض منها التوسع فى الفتح والسلطان ، فان محمد على كان يطمح الى ضم سورية منذ سنة ١٨١٠ ، وكان يأمل أن يصل الى حكمها بموافقة السلطان ، كتب المسيو دروفتى قنصل فرنسا فى مصر ، وكان من أكبر أعوان محمد على ، رسالة الى حكومته سنة ١٨١١ يقول فيها « إن محمد على يطمع فى ولاية سورية ، وقد قال لى يوما انه لايستبعد أن ينالها مقابل مبلغ من المال سبعة أو ثمانية ملايين قرش يدفعها لخزانة السلطان ، وقد أخذت فكرة

الإستقلال تزداد رسوخا عنده منذ استظهاره على أعدائه وقمعه فتنة الجند وتخلصه من الارتباكات المالية »

وقد أشار المسيو دروفتى فى رسالة أخرى لحكومته الى معدات الحملة المصرية على الوهابيين فأظهر الشك فيما أضمر محمد على منها وهل يقصد بها الحجاز أم سورية ، قال فى هذا الصدد :

« ان جميع الاستعدادات التى يعدها الباشا تدل على ان الحملة تخترق الصحراء وتصل منها الى سورية ، ولا تزال غايتها الحقيقية سرا مكتوما فى ضميره ، وخطته فى هذا الصدد لم تتغير ، وهى التأنى ثم التصرف مع الاحوال بحسبها »

وقد طلب فعلا من السلطان خلال الحرب الوهابية أن يعهد اليه بولاية الشام وكانت حجته فى ذلك انه فى حاجة الى مدد منها لمعاونته على قتال الوهابيين

ففكرة ضم سورية الى مصر كانت اذن تختلج فى نفس محمد على باشا منذ سنة ١٨١٠ ، ولقد صرفه عنها انهماكه فى الحرب الوهابية ، ثم فتح السودان ، ثم الحرب اليونانية ، فلما انتهى من هذه الاخيرة أخذ يفكر فى انفاذ فكرته القديمة

ومن الراجح الذى تؤيده الحوادث أن مشروع محمد على كان يتناول انشاء دولة عربية مستقلة فى مصر تضم اليها البلاد العربية فى افريقية وآسيا ، ففى افريقية قد استقل بمصر وفتح السودان ، وفى آسيا قد فتح معظم جزيرة العرب و بسط عليها نفوذ الحكومة المصرية ، و بطموحه الى سورية أراد ان يؤسس الدولة المصرية الكبيرة

ويؤيد هذه الفكرة رجحانا بعض تصريحات فاه بها ابراهيم باشا خلال الحرب السورية ، فقد ذكر المسيو كادلفين وبارو فى كتابهما انه بينما كان الحصار مضروبا على (عكا) سئل ابراهيم باشا الى أى مدى تصل فتوحاته اذا تم له الاستيلاء على عكا فقال مامعناه الى مدى ما يتكلم الناس واتفاهم وإياهم باللسان العربى (١)

---

(١) كادلفين وبارو . حرب مصر ضد الباب العالى فى سورية والاناضول سنة ١٨٣١ — ١٨٣٣ ص ٤١٢

وقد قابله البارون (لبو الكونت) بالقرب من طرسوس بالاناضول سنة ١٨٣٣ بعد عودته من كوتاهيه ، وكان له معه حديث طويل ، فذكر عنه « ان ابراهيم باشا يجاهر علنا بانه ينوى احياء القومية العربية ، واعطاء العرب حقوقهم ، واسناد المناصب اليهم سواء أفى الادارة أم فى الجيش ، وان يجعل منهم شعبا مستقلا ويشركهم فى ادارة الشؤون المالية ، و يعودهم سلطة الحكم كما يحتملون تكاليفه ، وتتجلى فكرته هذه فى منشوراته ومخاطباته لجنوده فى الحرب الاخيرة بسورية ، فانه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها التالد ، و يتصل بهذا المعنى مجاهرته بان كل البلدان العربية يجب أن تنضم تحت لواء أبيه ، وقد قال لى ان أباه يحكم مصر والسودان وسورية ، ومن الواجب ان يضم العراق الى حكمه ، وان جزيرة العرب تابعة لابيه الذى يعمل الآن على اتمام فتحها ، وهو فى صلاته مع أهل البلاد يستخدم اللغة العربية ، و يعد نفسه عربيا ، ولذلك لا ينفك يطعن فى الاتراك ، وقد لاحظ عليه ذلك أحد جنوده وخاطبه بتلك الحرية التى كان يشجع رجاله عليها وسأله كيف يطعن فى الاتراك وهو منهم ، فاجابه ابراهيم باشا على الفور « انا لست تركيا ، فانى جئت مصر صبيا ، ومنذ ذلك الحين قد مصرتنى شمسها وغيرت من دمى وجعلته دما عربيا »(١)

فهذه البينات تدلك على ما اتجه اليه فكر ابراهيم باشا من تأسيس دولة عربية مصرية تجمع شمل الناطقين بالضاد وتحيى عهد الفاطميين والايوبيين والسلاطين البحرية والبرجية حين كانت مصر تضم الى رقعتها سورية وجزيرة العرب

وكان لمحمد على فى فتح سورية اغراض اقتصادية ، فانه اراد استغلال مواردها من الخشب والفحم والنحاس ، تلك الموارد التى كانت مصر مفتقرة اليها ، فهى فى حاجة الى الاخشاب للوقود ولبناء السفن الحربية والتجارية ، والى الفحم والنحاس

---

(١) كتاب مهمة البارون لبو الكونت ص ٢٤٨ و ٢٤٩

والحديدلترقية صنائعها وخاصة بعد ان انشأ محمد على المصانع الكبرى (الفابريقات) التى تحتاج ادارتها الى الفحم والحديد والنحاس

وكذلك كان يرمى اذا بسط نفوذ مصر فى سورية ان يجند من سكانها فى الجيش المصرى فيزداد الجيش عددا وقوة

تلك هى الاسباب الحقيقية التى نزعت بمحمد على باشا أن يطمح الى فتح سورية

وقد كانت الظروف فى سنة ١٨٣١ ملائمة لانفاذ مشروعه ، فان تركيا قد خرجت من الحرب اليونانية ، ثم من الحرب الروسية سنة ١٨٢٩ ، مضعضعة منهوكة القوى ، وزاد فى ضعفها كثرة الفتن والاضطرابات الداخلية فيها ، وقد ألغى السلطان محمود سنة ١٨٢٦ فرقة الانكشارية التى كانت قوام الجيش العثمانى ، وذلك لما كانت عليه من الفوضى وأبادهم ، ولكنه لم يجد متسعا من الوقت لينشىء بدلا منهم جيشا جديدا نظاميا ، بل كانت القلاقل والاضطرابات تحول دون انفاذ عزمه ، فى حين ان محمد على كان على تمام الاهبة للدخول فى حومة الوغى معتمدا على الجيش النظامى الذى قضى سنوات عدة فى انشائه وتدريبه ، وعلى الاسطول الذى انشأه فى ترسانة الاسكندرية ، ولم يكن السوريون متعلقين بالحكم العثمانى لكثرة ماعانوا من مساوئه ومظالمه ، فلم يكن متوقعا ان يلقى الجيش المصرى فى زحفه على سورية مقاومة من الاهالى ، وخاصة لان محمد على باشا قد اجتذب اليه الامير بشير الشهابى كبير امراء لبنان منذ سنة ١٨٢٢ وتوثقت بينهما العلاقات من ذلك الحين اذ كانت الحكومة العثمانية قد عزلته من امارة الجبل فلجأ الى محمد على فى مصر فتشفع له لدى الدولة فاصدرت عفوها عنه وحفظ له هذا الجميل ، فكان له عضدا كبيرا فى الحملة السورية ، واستمال ايضا الشيخ حسين عبد الهادى من زعماء نابلس ومصطفى اغا بربر[1] الذى عينه ابراهيم باشا اثناء الفتح متسلما لطرابلس فكان الثلاثة من أعوانه فى الفتح

---

(١) ذكرهما مع الامير بشير الشهابى البارون لبو الكونت فى رسائله عن سورية فى عهد الفتح المصرى ، ص ٢٢٨ من كتاب (مهمة البارون لبو الكونت)

فمحمد علي لم يكن يخشى مقاومة من جانب الاهالي ، اما الجيش العثماني فكان يأمل ان يظهر عليه لتفوق الجيش المصري عليه بحسن النظام والتدريب وكفاية القيادة

الاسباب المباشرة للحملة

تلك هي البواعث الحقيقية للحملة السورية ، والآن فلنعقب عليها بالاسباب المباشرة التي تذرع بها محمد علي باشا للزحف على الشام

وبيان ذلك ان كثيرا من الفلاحين المصريين قد فدحتهم اعباء السخرة والضرائب التي فرضها محمد علي باشا ، فهاجروا جماعات الى الاقطار السورية المتاخمة لمصر فرارا من هذه المكاره ، وتخلصاً من الخدمة العسكرية ، وقد طمّ سيل المهاجرين حتى بلغ عددهم ستة آلاف من الفلاحين ، وخشي محمد علي من عواقب هذه الهجرة وما تفضي اليه من المضار الاقتصادية فطلب من عبدالله باشا والي صيدا (١) ان يرجع المهاجرين المصريين الى بلادهم ، فرفض عبدالله باشا طلبه محتجا بان المصريين من الرعايا العثمانيين ولهم الحق أن يقيموا أنى شاءوا . فغضب محمد علي من هذا الجواب ، وكتب اليه يتوعده وينبئه انه قادم ليعيدهم جميعا يزيدون واحدا وهو عبد الله باشا ذاته

كان عبد الله باشا ذا نفوذ كبير في ولايته فهو حاكم شبه مستقل فيها وتمتد سلطته الى بلاد فلسطين وقسم من الشام

وكان هذا المركز مما جعل لمحمد علي باشا مندوحة في تجريد الحملة عليه ، فلم يكن في الظاهر محاربا لتركيا ولا مجاهرا بعصيانها ، وما فتئ خلال الدور الاول من الحملة يتظاهر باخلاصه ويزعم انه انما يحارب حاكما شبه مستقل خارجا على الدولة ، ومما يجدر ذكره ان محمد علي باشا كانت له يد سابقة على عبدالله باشا هذا ، فقد عزلته الحكومة التركية من ولاية صيدا سنة ١٨٢٢ فتشفع له محمد علي فعفت عنه وابقته

---

(١) ولاية صيدا قاعدتها عكا ولذلك تسمى احيانا ولاية عكا

فى ولايته ، ولكن عبد الله باشا لم يحفظ هذه اليد لمحمد على اذ كان من الباشوات الكثيرى المطامع ، فقد استأثر بالسلطة فى ولاية صيدا وطمع كذلك فى ضم ولاية الشام اليه وكان يخشى على سلطته من امتداد نفوذ محمد على ، فلم يراع جانبه ولم يكترث لغضبه ، وكان فضلا عن ايوائه المهاجرين المصريين يساعد قوافل التجارة على تهريب المتاجر من الجمارك المصرية وتفويتها من طريق صحراء سورية فأضر ذلك بالخزانة المصرية

فلما امتنع عن ارجاع المهاجرين المصريين صمم محمد على أن ينفذ الحملة على سورية

تأليف الحملة

كانت الحملة المصرية على سورية مؤلفة فى بداءتها من ٦ ألايات من المشاة واربعة من الفرسان ، وعدتهم ٣٠٠٠٠ مقاتل بقيادة ابراهيم باشا مجهزين بأربعين مدفعا من مدافع الميدان وعدة من مدافع الحصار ، وما يكفيهم من الذخائر والمؤن ، واحتشد جنود الحملة ، فريق فى ضواحى القاهرة (بالخانكه) ، وفريق فى الاسكندرية

واشتركت العمارة المصرية فى الحملة ، فنقلت جزءا من الجيش بطريق البحر وحملت المدافع الضخمة والذخيرة والمؤونة ، وخاضت فى بعض المواطن غمار القتال ، وكانت مؤلفة من ١٦ سفينة حربية و١٧ سفينة نقل معقودا لواؤها للأميرال عثمان نور الدين بك (باشا) وهو من خريجى البعثات المصرية التى ارسلها محمد على الى فرنسا ونبغ فى الفنون الحربية والبحرية وكان ناظرا للمدرسة الحربية التى انشأها ثم جعله محمد على اميرالا للاسطول المصرى لما عهد فيه من الكفاية والاخلاص ، وسنعود الى الكلام عنه

تمت معدات الحملة فى أوائل سنة ١٨٣١ وكان موعد زحفها فى صيف تلك السنة ، ولكن وقوع الوباء (الكوليرا) فى مصر وقتئذ أخر زحف الحملة ، فقد فتك بالأهالى فتكا ذريعا ، ودام فتكه أربعة وثلاثين يوما ، ومات به نحو ١٥٠ ألف

نسمة ، واستطار فى الجيش فأودى بحياة خمسة آلاف من الجنود[1] ، فتوقفت الحملة عن السير حتى تكافح الحكومة هذا الوباء

سير الحملة

ولما جاء شهر اكتوبر سنة ١٨٣١ أصدر محمد على أوامره بتحرك الحملة ، وكان خط سيرها ان يسير معظم الجيش برا من طريق العريش الى حدود سورية ، وان تقل العمارة ابراهيم باشا القائد العام واركان حربه وجزءا من الجيش والمدافع الضخمة والذخيرة والمؤونة من الاسكندرية الى يافا

ففى اليوم التاسع والعشرين من شهر اكتوبر سنة ١٨٣١[2] بدأ الجيش البرى يتحرك من معسكر (الخانكة) بقيادة ابراهيم باشا يكن[3] قاصدا الحدود السورية ، مارًّا ببلبيس ، فالقرين ، فالصالحية ، فقطيه ، فبئر العبد ، فمسعودية ، فالعريش حيث استراح بها يوما ، ثم دخل التخوم السورية فاحتل خان يونس

احتلال غزة ويافا وحيفا

واحتل (غزة) بعد ان فرت منها الجنود العثمانية ، ثم زحف على (يافا) فأخلتها الحامية التركية واحتلها الجيش المصرى ، وفى غضون ذلك اقلعت العمارة المصرية من الاسكندرية تحمل باقى الجيش وتقل القائد العام ابراهيم باشا يصحبه أركان حربه ومنهم الكولونل سيف (سليمان باشا الفرنساوى وكان لم يزل بك) وعباس حلمى باشا[4]

---

(١) كان عدد الجيش يبلغ وقتئذ نحو ٩٠ الفا

(٢) كما ورد فى كادلفين وبارو ص ٦٢

(٣) هو الذى تعبر عنه المراجع الفرنسية بابراهيم باشا الصغير تمييزاً له عن ابراهيم باشا ابن محمد على

(٤) هو عباس باشا الاول الذى تولى الحكم عقب وفاة ابراهيم باشا

وصلت العمارة الى يافا ثم الى حيفا حيث القت مراسيها وأنزلت بها الذخائر والمدافع ، والتقت القوات التى جاءت براً بالقوات الآتية بحراً ، واتخذ ابراهيم باشا (حيفا) قاعدة للحركات العسكرية وجمع فيها الذخائر والمؤونة وشرع فى مهاجمة عكا

حصار عكا

نوفمبر سنة ١٨٣١

كانت عكا على جانب عظيم من المنعة ، ولا غرو فهى التى أعجزت نابليون منذ نيف وثلاثين سنة عن فتحها ، وقد زاد احمد باشا الجزار فى استحكاماتها القديمة بعد انسحاب الفرنسيين من سورية ، فصارت امنع مما كانت ، فكان عبد الله باشا مطمئنا الى امتناعه بها واثقا من عجز الجيش المصرى عن اقتحامها ، وكانت حامية المدينة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل فاعتزم أن يدافع عنها دفاع المستميت

زحف الجيش المصرى على عكا وضرب عليها الحصار منذ يوم ٢٦ نوفمبر ، واشتركت العمارة المصرية فى حصارها من البحر ، فكان الحصار مضروبا عليها برا وبحرا ، وأطلقت مدافع البر والبحر قنابلها على أسوار عكا وحصونها ، ولكن الحصون جاوبتها بنار حامية وأحدثت اضرارا ببعض السفن المصرية مما اضطرها الى الرجوع للاسكندرية لاصلاح ما اصابها من العطب ، فاستعصت عكا على الجيش المصرى ، وانقضت ثلاثة أشهر دون أن ينال منها منالا ، وأخذ ابراهيم باشا فى خلال هذه المدة يحتل المواقع المهمة فى ولاية صيدا وما حولها ، فاحتلت فرقة من الجنود المصرية بقيادة حسن بك المناسترلى صور وصيدا و بيروت وطرابلس ، واحتلت كتيبة أخرى مدينة (القدس) ، وكان الجيش كلما نزل ببلدة سلمت له بدون قتال

موقف تركيا

اضطربت تركيا أمام زحف الجيش المصرى ، و بادرت فى بادىء الأمر الى ارسال مندوب عنها الى محمد على باشا يطلب اليه الكف عن القتال ، وكان الباشا

يعلم بارتباك أحوال تركيا وعجزها عن حشد جيش يصد زحف الحملة المصرية ، فأخذ يماطل فى الجواب ، وتظاهر بالاخلاص للدولة العثمانية ، وفى الوقت نفسه أرسل الى ابراهيم باشا يأمره بمواصلة الحرب وتشديد الحصار على عكا حتى يفتحها قبل أن يصل الجيش التركى لنجدتها اذا فكرت تركيا فى امدادها

وقد حشد الباب العالى نحو عشرين الف مقاتل تحت قيادة عثمان باشا اللبيب والى طرابلس وعهد اليه رفع الحصار

فزحف الجيش العثمانى يرمى اليها ، وضم اليه كل من لقيهم فى طريقه من جموع الاكراد والعرب

علم ابراهيم باشا بتحرك هـذا الجيش ، فعقد مجلسا حربيا من نخبة ضباطه وأركان حربه ليتدبر فى الأمر ، فاستقر رأيه على أن يترك حول عكا القوة الكافية لمتابعة الحصار ، وأن يتحرك بالجزء الآخر من جيشه ليصادم الجيش التركى فى الطريق ويتغلب عليه قبل أن يصل الى عكا

تقدم عثمان باشا يقود بضعة آلاف من جنوده وانتهز فرصة اشتغال ابراهيم باشا فى حصار عكا فهاجم طرابلس التى كانت تحتلها حامية مصرية ، فدخل المدينة ولكن جنود الحامية ردوا المهاجمين على اعقابهم ، على أن مركزهم لم يلبث أن تحرج بازدياد قوات الاعداء ، وصارت طرابلس مهددة بسقوطها فى يد الترك ، فبادر ابراهيم باشا الى نجدتها وسار اليها بطريق الساحل فلما اقترب منها ارتدعنها عثمان باشا

انتصار المصريين فى (الزرّاعة)

١٤ ابريل سنة ١٨٣٢

تعقب ابراهيم باشا الترك الى حمص ، ثم رأى أن يرجع الى (بعلبك) ليمتار منها بالذخيرة الكافية قبل أن يمضى فى مطاردة الجيش العثمانى ، فوصل الى سهل الزراعة[1]

---

(١) قرية جنوبى حمص ، انظر موقعها على الخريطة الملحقة بهذا الفصل

وقد توهم عثمان باشا أن هذا التراجع علامة الضعف ، فتقدم لمهاجمة الجيش المصرى ، فالتقى به فى سهل (الزراعة)، ومع أن الجيش العثمانى كان اكثر عدداً إلا انه دون الجيش المصرى فى النظام وكفاية القيادة

كان جيش عثمان باشا مؤلفا من فرسان العرب والاكراد ، فهجموا على الجيش المصرى وأحاطوا به من كل جانب ، وخيل لهم انه أصبح فى قبضة يدهم ، لكن ابراهيم باشا بمعاونة سليمان بك (باشا) الفرنساوى رتب الجنود المصرية على هيئة صفوف منتظمة متراصة ووضع وراءها المدافع حتى لا يراها المهاجمون ، فانخدع القائد التركى بهذه الحيلة وهجم بكل قواته على الصفوف المصرية ، فلبثت هذه ساكنة حتى اذا صار الاعداء على مسافة قريبة ارتد المصريون وراء المدافع وانهجرت هذه بقنابلها فحصدت المهاجمين مشاة وركبانا ، فوقعت بهم الخسائر الفادحة واختل نظامهم وتفرق جمعهم ونكصوا الى الوراء فسار المصريون فى اعقابهم حتى دفعوا بهم الى نهر العاصى (١) حيث غرق الكثير منهم ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش التركى وارتد عثمان باشا وجنوده الى مدينة (حماه) ومكث بها كى يتلقى المدد ، أما ابراهيم باشا فقد عاد بعد واقعة (الزراعة) الى بعلبك يتأهب لاستئناف الزحف

وفى خلال ذلك اغتنم عبد الله باشا فرصة نقص القوات المحاصرة لعكا إذ هبطت الى عشرة آلاف فخرج من معاقله ، وهاجمهم وظهر عليهم ، واستولى على الكثير من مدافعهم ، على أن ابراهيم باشا لم يعبأ بهذا النصر الذى ناله عبد الله باشا لوثوقه أن النصر الحاسم هو فوزه على جيش عثمان باشا

فتح عكا

٢٧ مايو سنة ١٨٣٢

ومكث ابراهيم باشا فى بعلبك يرقب حركات الجيش العثمانى مخافة أن يعاود

---

(١) نهر ينبع فى لبنان بالقرب من بعلبك ويمر بحمص وحماه وانطاكية ويصب عند السويدية ، انظر موقعه على الخريطة الملحقة بهذا الفصل

كرّة الهجوم ، ولكنه مالبث ان علم ان عثمان باشا أنفذ يطلب المدد من الاستانة، وهذا دليل على ضعف مركزه ، ولما كان المدد لايمكن أن يصل إلا بعد شهرين اذا أعجله الباب العالى فقد اطمأن ابراهيم باشا من هذه الناحية ، وعاد الى (عكا) وشدد الحصار عليها من البر والبحر ، وساعده فى ذلك العرب والدروز والموارنه الذين أتوه طائعين

حمل ابراهيم باشا على المدينة وأخذ يرمى سورها بالمدافع القوية ، ومازال الضرب مستمرا حتى تصدع السور وفتحت فيه ثغرتان كبيرتان وأخرى صغيرة ، وعندئذ صمم ابراهيم باشا على مهاجمة المدينة بجيشه وحدد للهجوم يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢

ففى صباح ذلك اليوم حملت الجنود المصرية على الثغرات الثلاث، فاستولوا على اثنتين منها وتردد الجنود الذين قصدوا الاستيلاء على الثغرة الثالثة ولقوا مقاومة شديدة ، فارتدوا الى الوراء ، فلما أبصر ابراهيم باشا ارتدادهم بادر الى نجدتهم بجزء من الاحتياطى وتقدم هو الجنود شاهرا سيفه ، فدبت الحمية فى نفوسهم وعادوا الى الثغرة فاقتحموها ، ودار قتال استمر حتى المساء ، ودافعت الحامية دفاعا مجيدا، وأبدى الفريقان شجاعة كبيرة الى أن عظمت خسائر الحامية وكلّت عن مواصلة الحرب ، فطلب عبد الله باشا التسليم وسلم المدينة فى مساء ذلك اليوم

وبذلك انتهى حصار عكا بتسليمها للجيش المصرى بعد ان استمر ستة اشهر، وقد وقعت بالفريقين خسائر فادحة ، فبلغت خسائر الجيش المصرى أربعة آلاف وخمسمائة قتيل ، وخسرت الحامية ١٤٠٠ قتيل، وهى خسارة تدل على شدة ما احتمله الفريقان ، فلا غرو ان كان لفتح عكا دوىٌّ عظيم تجاوب فى الخافقين ، فان عكا هى التى امتنعت على نابليون منذ نيف وثلاثين سنة وعجز عن فتحها وارتد عنها خائبا ، فانتصار ابراهيم باشا فى فتحها هو صفحة مجد وفخار للجيش المصرى

ومن الواجب تقريرا للحقيقة أن ننوه بأن العقبات التى اعترضت نابليون فى حصار عكا كانت أشد وأبلغ مما اعترض الجيش المصرى ، فان نابليون حاصر عكا من البر ، وكان الاسطول الانجليزى يدافع عنها من البحر ويمنع مواصلات الجيش

الفرنسى من هذه الناحية ، ولم يجد نابليون أمامه سوى طريق الصحراء الشاق ، فانقطع عنه المدد ، بينما كان الجزار يتلقى المدد والمؤونة والذخيرة بحراً ، أما الجيش المصرى فقد عاونته العمارة المصرية من البحر ، فكانت المدينة فى حصار محكم براً وبحراً ، فضلا عن أن ابراهيم باشا كان على اتصال مستمر بثغور مصر وسواحلها بواسطة العمارة المصرية ، واستطاع أن يتابع الحصار ستة أشهر كاملة ، فابراهيم باشا كان من هذه الوجهة أكثر توفيقا من نابليون ، على أنه لا يغرب عن البال أن ما أبداه الجنود المصريون من الجلد والصبر على مكاره القتال ، وما امتازت به قيادتهم من الدربة والكفاية ، كل ذلك كان له الفضل الأكبر فى ذلك الفتح المبين

وقد كان لسقوط عكا تأثير ابتهاج عظيم فى مصر فأقيمت الزينات فى القاهرة ثلاثة أيام متواليات

أما عبد الله باشا والى عكا فانه بعد أن سلم نفسه تلقاه ابراهيم باشا بالحفاوة والاجلال ، وأرسله الى الاسكندرية حيث أحسن محمد على مثواه واسكنه فى قصر خصص له وحفه بالرعاية والاكرام(١)

فتح دمشق

١٦ يونيه سنة ١٨٣٢

اعتزم ابراهيم باشا بعد أن أراح جنوده ورتب شؤونه فى عكا أن يمضى شمالا قاصداً فتح دمشق ، فغادر عكا فى يوم ٩ يونيه سنة ١٨٣٢ فى جيش مؤلف من ١٨٠٠٠ من المقاتلة منهم ٩٠٠٠ من الجنود النظامية و ٩٠٠٠ من العربان المصريين والبدو السوريين والدروز ، فلما اقترب من دمشق وقعت مصادمة خارج المدينة

---

(١) يقول الدكتور مشاقه فى كتابه (مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان) ص ١٠٤ ان عبد الله باشا طلب ان يأذن له محمد على بالذهاب الى الحجاز فذهب اليه ومات هناك

بين الجيش المصرى والجيش العثمانى انهزم فيها الترك، وفرّ والى الشام بجنوده

ولم يكن الاهالى معتزمين مقاومة الجيش المصرى لان مساوىء الحكام الاتراك جعلتهم لايميلون الى المقاومة بل كانوا أقرب الى الرغبة فى تغيير حكامهم

فخرج وفد من أعيان المدينة وقابلوا ابراهيم باشا وقدموا طاعتهم ، فدخل المدينة يوم ١٦ يونيه ونصب الجيش خيامه خارج البلد ، واحترم الجنود المصريون أملاك الاهالى وأموالهم ، فكان سلوكهم مدعاة للاعجاب مما حبب الحكم المصرى الى نفوس السوريين وخاصة حينما قابلوا هذا المسلك بما اعتاده الجيش العثمانى من أنواع الاعتداء المنكرة

وأقام ابراهيم باشا فى دمشق ثمانية عشر يوما ، وحضر صلاة الجمعة فى الجامع الاموى ، ورتب الادارة فيها على نظام جديد فعين أحمد بك اليوسف أحد أعيانها متسلما عليها ، وأنشأ (ديوانا) مؤلفا من عشرين من أعيان المدينة سماه (ديوان المشورة) يختص بنظر دعاوى الرعية والحكومة

واقعة حمص

٨ يوليه سنة ١٨٣٢

جزع الباب العالى لسقوط (عكا) فى يد الجيش المصرى ، وكان يظن أنها ترده خائباً كما ردت نابليون من قبل ، فلما واجهته الحقائق خشى على مركزه أن يتزعزع أمام انتصارات المصريين ، وكان قد أعلن عصيان محمد على [1] أثناء حصار عكا وحشد جيشاً مؤلفا من ستين الف جندى لقتاله وأعد اسطولا من خمس وعشرين سفينة للاقلاع من الدردنيل ومحاربة الاسطول المصرى

وعهد بقيادة جيش البر الى السرعسكر حسين باشا قاهر الانكشارية ومنحه

---

(١) فى اوائل مايو سنة ١٨٣٢

لقب (سردار أكرم)، وكان من أكفأ قواد تركيا، ووهب له ولاية مصر وكريت اذا هو قهر الجيش المصرى، فلو كتب له الفوز لوقعت مصر فى وهدة الفوضى التى كانت تتردى فيها فى عصر الولاة الاتراك، ولقضى على الاستقلال المصرى فى مهده، ولكن بطولة الجيش المصرى حالت دون وقوع الكارثة ومنعت عودة مصر الى فوضى الحكم التركى

تقدم جيش حسين باشا ببطء، فلم يصل إلى مضايق جبال (طوروس) إلا فى أوائل شهر يوليه سنة ١٨٣٢، ولم يشأ قائده أن يتقدم بمجموع جيشه لملاقاة الجيش المصرى، بل ظل على مقربة من (انطاكيه) وأنفذ محمد باشا والى حلب وتحت إمرته مقدمة الجيش وأمره بالتحصن فى (حمص)

كان هذا التدبير خطأ حربياً كبيراً، لأن انفصال المقدمة عن باقى قوات الجيش وتورطها فى مقاتلة الجيش المصرى يعرضها للهلاك المحتوم، فلما علم ابراهيم باشا بهذا الخطأ عزم على مواجهة مقدمة الجيش التركى وسحقها، ثم مهاجمة باقى الجيش بعد ذلك، فتقدم من دمشق زاحفا على (حمص)، واستدعى من بعلبك وطرابلس بقية جنده الذين كانوا بقيادة عباس حلمى باشا وحسن بك المناسترلى، فصارت قوة الجيش عند ما بلغ (حمص) نحو ثلاثين الف مقاتل(١) وصار أمام معسكر محمد باشا والى حلب، وهناك وقعت الواقعة المشهورة بمعركة حمص (٨ يوليه ١٨٣٢)

تقع مدينة (حمص) على الشاطئ الايمن من نهر العاصى، وموقعها غاية فى الاهمية لأنها ملتقى عدة طرق، فهى على طريق بعلبك ودمشق جنوبا، وطريق انطاكيه وحلب شمالا

ولقد عسكر محمد باشا قائد الجيش التركى بجنوده على نهر العاصى، جنوبى حمص وتحت أسوارها، ورتب جيشه على صفوف ثلاثة، فوقف المشاة فى الصف الاول، تمتد

---

(١) احصاء مانجان ج ٣ ص ٤٢

ميسرتهم على مقربة من ضيعة متهدمة على مسافة نصف فرسخ ، والصف الثانى من خلفهم ، و يتألف من الايين من المشاة ، وعن يمينهم وشمالهم الايان من الفرسان ، و يليهم الصف الثالث ، ومعظمه من الجنود غير النظامية (الباشبوزق) وتحمى المدفعية جناحه الايمن ، أما الصف الأول والثانى فلم يكن يسندهما سوى عدد ضئيل من المدافع ، وهذا من سوء التدبير

أما الجيش المصرى فقد رابط فى مواجهة الجيش التركى على ثلاثة صفوف ، فوقف فى الصف الاول فريق من المشاة يبلغ عددهم ثلاثة الايات ، وعن يمينهم وشمالهم الايان من الفرسان ، وفى الصف الثانى وقف جنود الحرس والمشاة ، يشد أزرهم من الجانبين الايان آخران من الفرسان و رابط الاحتياطى من الفرسان والمشاة فى الصف الثالث

ونصب ابراهيم باشا مدافعه على ترتيب بديع ، فجعل أمام الصف الأول ثلاث بطاريات ، واحدة فى القلب ، وأخرى على اليمين والثالثة على اليسار ، ووضع بين الصف الثانى والصف الثالث ثلاث بطاريات أخرى ، وفيها المدافع الثقيلة ، و بينها و بين الاحتياطى مهمات الجيش وأمتعته ، وعلى جانبى الصف الثالث فرسان البدو من العرب الهنادى وغيرهم

يدل هذا الترتيب وحده على دقة فى التدبير وكفاية فى القيادة ، ولو تأملت فى خريطة الواقعة لتبينت بداءة ذى بدء مبلغ الفرق بين قيادة الجيش المصرى وقيادة الجيش التركى

ولقد كان ابراهيم باشا أسرع من خصمه الى رسم خطط القتال ، فبينما كان محمد باشا قائد الجيش العثمانى مترددا فى أى طريق يأخذه ، استقر رأى ابراهيم باشا بعد أن استشار خاصة أركان حربه على أن يكون البادئ بالهجوم

فأمر كتائب الفرسان التى ترابط على ميمنة الصفوف الثلاثة بالزحف شرقا لتقوم بحركة التفاف حول ميسرة الترك ، وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة لان على نجاحها يدور مصير المعركة

فتحرك الفرسان وفقاً لهذه الخطة، واجتازوا الضيعة المتهدمة المتقدم ذكرها بنحو ألفين الى ثلاثة آلاف خطوة، وتقدموا لمهاجمة فرسان الترك من الجنود غير النظاميين الذين كانوا على مقربة من الضيعة ، وكان الهجوم شديداً محكم الوضع ، فتراجع الترك أمام قوة الهجمة وشدة الضرب، وتفرقوا بدداً، واحتل المصريون الارض الواقعة بين الضيعة وحدائق حمص ، ثم تقدم الفرسان الترك النظاميون الذين كانوا يرابطون في ميسرة الصف الثالث لصد هجمة المصريين ، فأمد ابراهيم باشا فرسانه بقوة من جنود الحرس والمشاة والمدافع ، فأطلق المصريون مدافعهم و بنادقهم على فرسان الترك فأوقعوا بهم وفرقوا جمعهم، وتراجع هؤلاء الى حدائق حمص ، وهجم المشاة المصريون من القلب هجمة صادقة فتقلقل الترك عن مراكزهم وتقهقروا الى الوراء و بذلك انهزم الجناح الايسر من الجيش التركي بأكمله وتخلى عن مواقعه

وقامت ميسرة الجيش المصري بحركة بديعة ، ذلك أن فرقة منها زحفت غربا واجتازت القناة التي تتفرع عن نهر العاصي، تتبعها المدافع ، واحتلت شاطىء القناة الايسر ، و بذلك سدت الطريق أمام ميمنة الترك، وصار من المتعذر عليهم أن يهموا بالهجوم من هذه الناحية

تحرج مركز الجيش التركي أمام هجمات المصريين، وزاد مركزه حرجا أن المدافع المصرية كانت تطلق قنابلها بمهارة واحكام، فتصيب الهدف وتحصد صفوف الترك حصد النبات ، في حين أن المدافع التركية كانت منصوبة على غير هدى ، وفي مواضع لا تصيب منها الهدف ، فضلا عن قلة الخبرة والدربة في رماتها ، وقد بقي الكثير منها منصوبا في مؤخرة الصف الثالث فلم يعمل عملا في صد هجمات المصريين

ولما رأى محمد باشا قائد الجيش التركي حرج مركزه أمر صفوفه بالهجوم ، ولكن المشاة المصريين من جنود الصف الاول قابلوهم برصاص بنادقهم ففتكت بهم النيران فتكا ذريعا وارتدوا على أعقابهم ، فوقع الذعر في صفوف الترك وولوا الأدبار مدحورين

ولقد كان مظنونا أن يعود الترك القتال بعد أن يلموا شملهم ، اذ كانت قلعة حمص تحمى ظهورهم ، ومرت لحظة توقع المصريون أن يعاود الترك الكرة ويستأنفوا القتال ، وزاد هذا الظن رجحانا أن مدافع القلعة كانت تطلق قنابلها ، ولكن هذا الظن مالبث أن تبدد ، ولم يقو الترك بل لم يفكروا فى معاودة القتال ، وتقدم ابراهيم باشا بجيشه الظافر ، فاحتل المواقع التى كان الترك رابطون بها ، وصف جيشه على شكل مربع ووضع المدافع على زواياه الاربع ، فازداد مركزه قوة ومنعة ، فتابع الترك تقهقرهم منهزمين ، وبذلك انتهت واقعة حمص بانتصار الجيش المصرى بعد أن دام القتال نحو اربع ساعات إذ بدأت وقت العصر وانتهت عند ما أرخى الليل سدوله ، وبادر ابراهيم باشا فارسل الى أبيه ينبئه بهذا النصر المبين

بلغت خسائر الجيش العثمانى فى واقعة حمص ٢٠٠٠ من القتلى و ٢٥٠٠ من الاسرى ، واستولى الجيش المصرى على عشرين من مدافعه وعلى ذخائره وأمتعته ، اما خسائر المصريين فلم تزد عن ١٠٢ من القتلى و١٦٢ من الجرحى ، ودخل المصريون فى اليوم التالى مدينة (حمص)

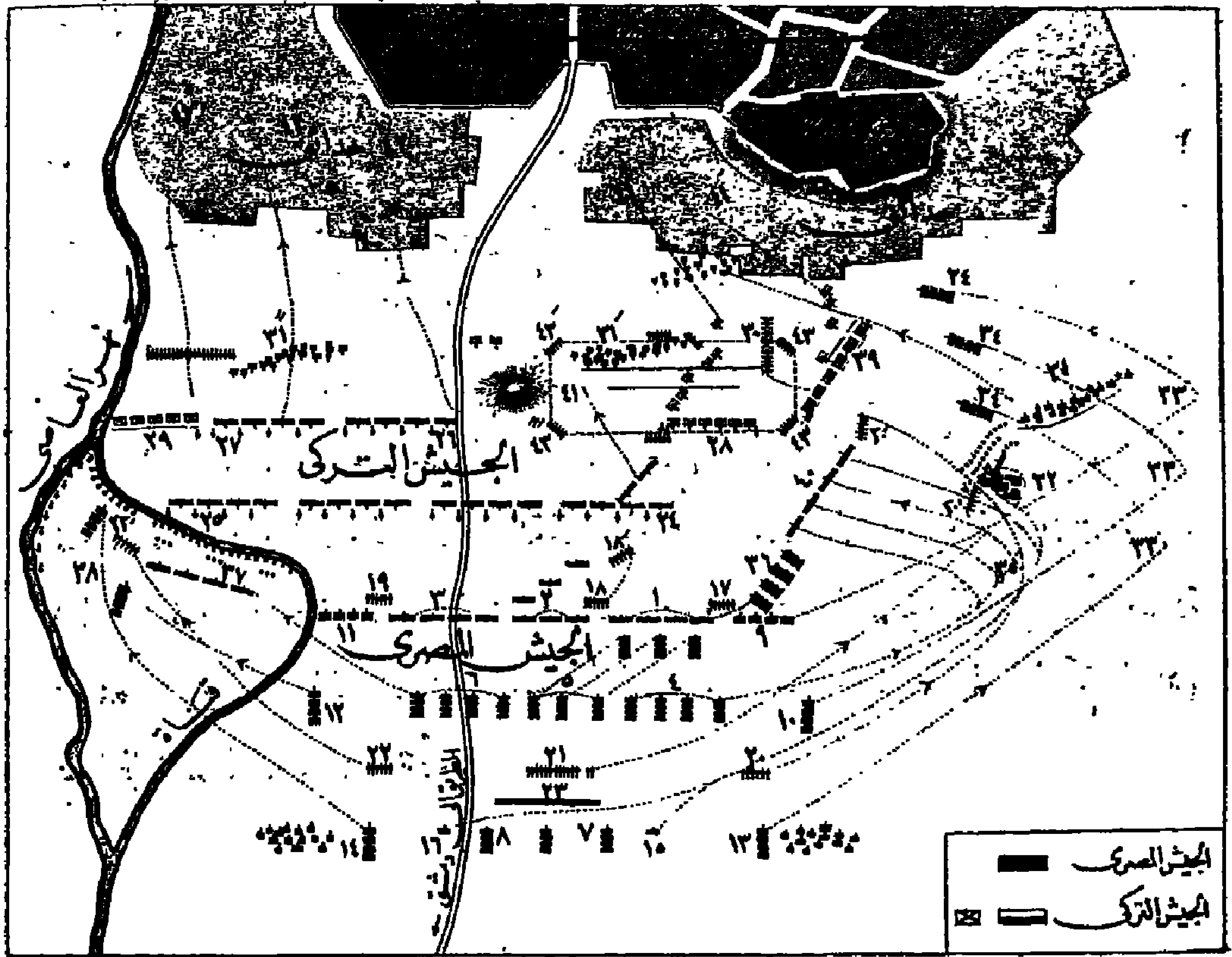
وتعد هذه الواقعة من اهم المعارك التى خاضها الجيش المصرى ، فقد كانت اول معركة كبيرة اقتتل فيها الجيشان المصرى والتركى وجها لوجه [1] وكلاهما يتبع بقدر استطاعته النظام الحربى الحديث ، وكانت قوات الجيشين متعادلة فكلاهما مؤلف من نحو ثلاثين الف مقاتل ، ولكن الجيش المصرى امتاز ببراعة القيادة وحسن النظام وبسالة جنوده والتفوق فى المران العسكرى ، فلا غرو أن كسب المعركة

---

(١) ان حصار عكا وان كان أسبق من واقعة حمص الا أنه لا يعد معركة ، والمقصود من المعركة اصطدام جيشين فى ميدان مكشوف ، أما واقعة (الزراعة) فهى وان كانت أيضا أسبق من معركة حمص الا أنها لا تعد من المعارك الكبيرة بالنسبة لوقائع حمص وبيلان وقونيه ونصيبين

وكان لترتيب الخطط الحربية فضل كبير فى انتصاره ، وهنا تبدو كفاية ابراهيم باشا فى القيادة ومهارته فى الفنون الحربية

وقد دلت معركة حمص على تفوق الجيش المصرى على الجيش التركى فى ميادين القتال ، فكان لهذه الدلالة تأثير كبير فى الأذهان ، لأن أحداً لم يكن يتصورا ان جيش السلطان يُهزم امام الجيش المصرى الذى كان معدودا الى ذلك الحين جزءا من الجيش « الشاهانى » ، وتلك أول مرة ظهر فيها الجيش المصرى على الجيش التركى فى معركة كبيرة ، فمحت هذه المعركة ذكرى هزيمة الجيش المصرى فى معركة (الريدانية) أمام جيوش السلطان سليم فى بدء الفتح العثمانى لمصر ، اى منذ نيف وثلاثة قرون ، وغسلت الذلة التى لحقتها فى تلك الهزيمة ، واذا كانت معركة (الريدانية) قد قضت على استقلال مصر وجعلتها ولاية تركية فلا ريب أن معركة (حمص) والوقائع التى تلتها قد ارجعت لمصر استقلالها وقضت على الحكم العثمانى فيها فلم تقم له بعد ذلك قائمة



خريطة واقعة حمص ٨ يولية سنة ١٨٣٢ وفيها البيانات الآتية

موقع الجيش المصرى

١ و ٢ و ٣	الصف الأول من المشاة مؤلفا من الألاى الثانى عشر (نمرة ١)، والألاى الثالث عشر (نمرة ٢) ، والألاى الثامن عشر (نمرة ٣)
٤ و ٥ و ٦	الصف الثانى من المشاة مؤلفا من الاى الحرس (نمرة ٤) والألاى الخامس من المشاة (نمرة ٥) والألاى الحادى عشر (نمرة ٦)
٧ — ٨	الصف الثالث (الاحتياطى) مؤلفا من الألاى الثامن من المشاة

٩ الآى من الفرسان عن يمين الصف الأول

١٠ « « « « « « الثانى

١١ « « « « يسار « الاول

١٢ « « « « « « الثانى

١٣ و ١٤ الفرسان على جانبى الصف الثالث

١٥ و ١٦ كتيبتان من الرماة على جانبى الصف الثالث

١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ المدافع موزعة أمام الصف الاول و بين الثانى والثالث

٢٣ مهمات الجيش وامتعته

موقع الجيش التركى

٢٤ _ ٢٥ الصف الأول من المشاة

٢٦ _ ٢٧ الصف الثانى من «

٢٨ و ٢٩ و ٣٠ فرسان الترك النظاميون

ا/ب المدافع موزعة هنا وهناك

٣١ و ٣١َ و ٣١ً الفرسان غير النظاميين (الباشبوزق) ومنهم يتألف معظم الصف الثالث

حركات الجيشين

٣٢ الضيعة المتهدمة التى اتجهت فى طريقها ميمنة الجيش المصرى

٣٣ الموقع الذى اتجه اليه الفرسان المصريون للالتفاف بميسرة الترك ومنه تقدموا وهاجموا الفرسان الباشبوزق (نمرة ٣١) قريبا من الضيعة

٣٤ الموقع الذى وصلوا اليه بعد الهجوم المتقدم

٣٥ الموقع الذى تقدمت اليه طوابير الحرس (نمرة ٤)

٣٦ وصول البطارية ٢٠ الى يسار الضيعة واحتلال الرماة المصريين ١٥ و ١٦ تلك الضيعة

٣٦ الموقع الذى اتجه اليه الألاى نمرة ١ لشد ازر جنود الحرس

١٨َ الموقع الذى اتجهت اليه البطارية ١٨ لمعاونة الألاى نمرة ٢ فى هجومه على الترك

وقد تقدم الألاى نمرة ٥ ليحل محل الالاى نمرة ١ وليشد ازر الالاى نمرة ٢ فى هجومه

٣٧ الموقع الذى اتجه اليه الالاى نمرة ٦ لسد الطريق أمام ميمنة الترك

٣٨ الموقع الذى اتجه اليه الالاى نمرة ١٢ ونمرة ١٤ (من الفرسان) لشد ازر الحركة المتقدمة

٢٢َ انتقال البطارية نمرة ٢٢ الى موقعها الجديد للغرض نفسه

٣٩ الموقع الذى تقدم اليه الفرسان الترك نمرة ٣٠ بعد هزيمة الباشبوزق لصد هجمة الفرسان المصريين

٤٠ الموقع الذى وصل اليه جنود الحرس المصريون وعن يمينهم البطارية ٢٠ وضربهم فرسان الترك يعاونهم الفرسان من الموقع ٣٤

٤١ و٤١َ و٤١ً تقهقر ميسرة الترك بعد هزيمتهم

٤٢ و٤٢َ و٤٢ً تقهقر ميمنة الترك

٤٣ و٤٣َ و٤٣ً و٤٣ّ المربع الذى احتله الجيش المصرى بعد هزيمة الترك

الموقف الحربى بعد واقعة حمص

ارتد الجيش العثمانى بعد هزيمته فى واقعة (حمص) قاصداً حلب

أما جيش حسين باشا فكان قد بلغ (انطاكيه) بينما كان جيش محمد باشا والى حلب والجيش المصرى على وشك اللقاء فى معركة حمص ، وهكذا يتبين لك أن انفصال الجيشين العثمانيين بعضهما عن بعض مكن الجيش المصرى من الانقضاض على كليهما واحداً بعد واحد ، ولو كانت القيادة التركية على شيء من الكفاية لما تقدم

جيش محمد باشا وحده ، ولا تنتظر قدوم جيش حسين باشا قبل مواجهة الجيش المصرى ، ولكن عجز القيادة التركية وارتباك حكومة الاستانة كانا من الاسباب التى أفضت إلى هزيمة الجيش التركى

بارح جيش حسين باشا (انطاكيه) قاصداً إلى حمص ، فالتقى فى طريقه بفلول الجنود المهزومة من جيش محمد باشا ، وعرف منهم نبأ هزيمة حمص ، فارتد الجميع إلى (حلب) ليتخذوها قاعدة حربية لقتال الجيش المصرى ، وطلب حسين باشا من أعيانها أن يمدوه بالمؤونة والرجال ، ولكن أهالى حلب كانوا كارهين للحكم التركى وأشفقوا على مدينتهم أن يحل بها الخراب إذا استهدفت للحرب ، فأبوا على الجيش التركى أن يدخل أحد من جنوده إلى مدينتهم ، ولم يسمحوا إلا للجنود الجرحى والمرضى بالدخول ، وأغلقوا أبواب المدينة فى وجه الجيش التركى

وفى خلال ذلك كان ابراهيم باشا يتقدم بالجيش المصرى نحو حلب ، ولم يجد حسين باشا مكانا حصينا يأوى اليه ، فانسحب شمالا إلى مضيق (بيلان) جنوبى الاسكندرونة ، وهو أحد مفاتيح سورية من الجهة الشمالية وحصن فيه مواقعه تحصينا منيعا وساعدته طبيعة تلك المواقع على الامتناع بها

واقعة بيلان

٣٠ يوليه سنة ١٨٣٢ (١)

تقدم الجيش المصرى فاحتل من غير مقاومة (حماه) ثم (حلب) ومكث بها بضعة ايام استراح فيها ، وجاءته بها وفود من (اورفا) و (ديار بكر) تعلن خضوع المدينتين لحكم محمد على ، ثم تأهب لاستئناف الزحف وتابع زحفه حتى صار على مقربة من مواقع العدو فى بيلان

كان الجيش العثمانى الذى يقوده حسين باشا مؤلفا من نحو ٤٥ الفاً من الجنود

---

(١) اعتمدنا في بيان يوم الواقعة علي رواية كادلفين وبارو ص٢٠٦

النظامية لديها السلاح الكافى ويعززها ١٦٠ مدفعاً ، وهى قوة لا يستهان بها ترابط فى مواقع منيعة ، ولكن قيادتها تعوزها الكفاية والخبرة ، وحالة الجنود المعنوية لم تكن على مايرام ، فان ماحل بالجيش التركى من الهزائم المتوالية وما تعاقب عليه من تغيير القواد واندحارهم قد خذل روح الجنود ، وعلى عكس ذلك كان موقف الجيش المصرى فان ذكرى الانتصارات المتتابعة قد ملأت جنوده قوة وحماسة وجعلتهم يركنون إلى قائدهم الباسل ابراهيم باشا الذى سار بهم من نصر الى نصر

تقع مدينة بيلان جنوبى الاسكندرونة وشمالى المضيق والجبل المعروفين باسمها ، ويصل اليها طريقان ، طريق من كليس ، وطريق من انطاكيه ، ويقترب الطريقان فى سفح الجبل بحيث يفصل بينهما نحو ثلاثة آلاف متر ، ثم يلتقيان فى المضيق جنوبى بيلان ، فيصبحان طريقا واحدا يصل الى المدينة ، وترى على الخريطة نقطة تلاقيهما

وقد اتخذ الجيش التركى مواقعه على قمم جبال بيلان ، فاحتشد المشاة فوق هضبة على خط مكسر ، يصل طرفه الأيمن — حيث ميمنة الجيش — إلى طريق يعتزم يخترق الجبل ، آتيا من (خان قرموط) ذاهباً الى بيلان ، وطرفه الايسر (حيث القلب) إلى الطريق الوسط الواصل إلى بيلان نفسها ، أما ميسرة الجيش فكانت ترابط على امتداد ذلك الخط فيما يلى هذا الطريق ، يشد أزرها بعض المدافع المنصوبة على أكمة قريبة من الطريق ، وأقام الترك أمام صفوف المشاة استحكامات نصبوا فيها مدافعهم ، وأمامها الفرسان

أما الجيش المصرى ، فقد عسكر فى السهل المنبسط تحت المضيق ، غربى الطريق الواصل من كليس إلى انطاكيه ، وتجد موقعه بالخريطة (نمرة ١ — ٢) ، واتخذ المشاة مواقعهم فى الصفوف الامامية ، والفرسان من ورائهم ، والمدفعية فى الوسط ، وخلف هذه الصفوف مهمات الجيش وأمتعته

ذلك هو موقع الجيشين قبيل المعركة .

أنعم ابراهيم باشا النظر فى مواقع الترك على جبل بيلان ، فرآها منيعة يصعب على الجيش المرابط فى السهل المنبسط فى سفح الجبل أن ينال منها منالا ، فاجتمع وخاصة قواده وضباطه ، وأخذ يتداول وإياهم الآراء فى الخطة التى تكفل الفوز ، فاستقر رأيه بعد دراسة الموقف ألا يهاجم الترك مواجهة ، لاستحالة ذلك ، ورأى الخطة المثلى أن يدور حول ميسرتهم من الجنب تمهيداً للاحاطة بها ، ثم يحتل أكمات تتسلط على القلب ، فيجعل المشاة الترك هدفاً لنيران المدافع المصرية ، وفى الوقت نفسه يرسل جزءاً من قواته للاحاطة بميمنة الجيش التركى

وعملا بهذه الخطة أنفذ جنود الحرس والألاى الثامن والثامن عشر من المشاة الى طريق كليس — بيلان ، فساروا اليه واحتشدوا وراء أكمة تمتد الى الطريق (نمرة ١٨) ووراءهم الفرسان والمدافع فى بطن الوادى غربى الطريق (نمرة ١٩ و٢٠) ، ثم أخذت كتائبهم تتحرك شرقاً فى اتجاه ميسرة الجيش التركى ، تتبعهم المدافع الكافية

وقد تولى ابراهيم باشا بنفسه قيادة هذه الحركة لان عليها يدور مصير المعركة ، وأنفذ فى الوقت نفسه الالاى الثالث عشر من المشاة بقيادة حسن بك المناسترلى تصحبه بطارية من المدافع ، فزحف صوب الطريق الآخر الذاهب من انطاكية الى بيلان ، ووصل الى الطريق واحتل الموقع الذى انتهى اليه (نمرة ٢١) ، وتبعه الألاى الخامس من الفرسان لتتألف منه قوة احتياطية له فى هجومه على ميمنة الجيش التركى ، فاستقر وراءه (نمرة ٢٢)

كانت هاتان الحركتان ، وخاصة حركة الميمنة التى تولى ابراهيم باشا قيادتها ، تكتنفها مصاعب جمة ، لان المصريين اضطروا أن يسيروا صعدا فى طرق وعرة ، فاحتملوا فى اجتيازها المتاعب والشدائد الهائلة ، ولما لمح الترك تقدمهم صوبوا اليهم مدافعهم وأطلقوا القنابل عليهم ، فأمر ابراهيم باشا بنصب المدافع وراء الأكمة التى احتشد فيها المشاة ، وأطلق القنابل على وجهة الجيش التركى بين القلب والميسرة ، وتبادل الفريقان اطلاق القنابل ...

واستمر المصريون فى زحفهم شرقا ، إلى أن تخطوا مواقع الجناح الايسر من الجيش التركى ، فهاجموه من الامام ومن الجنب هجوما شديداً ، فتقلقل الترك عن مواقعهم واضطروا إلى الارتداد شمالا ، فابتدأت هزيمتهم ، واستمر المصريون يتعقبونهم .

وفى خلال هذه الحركة استولى الرماة المصريون على المدافع المنصوبة على الاكمة التى تحمى الجناح الايسر (نمرة ١٧) ، ووصل المصريون الى مرتفعات (نمرة ٢٤) تشرف على مواقع الترك ، وعلى طريق بيلان ، وركبوا فيها المدافع ، فاستهدفت ميسرة الترك فى انسحابها الى نيران المدافع والبنادق المصرية ، فوقع فى صفوفها الاضطراب والفشل ، وحلت بها الخسائر الجسيمة

وتقدم فريق من جنود الألاى الثامن عشر من مكانهم (نمرة ١٨) واقتربوا من فرسان الترك المحتشدين أمام قلب الجيش العثمانى ، وهاجموهم (بالموقع نمرة ٢٥) وقت احاطة جنود الحرس والألاى الثامن بميسرة الترك

فتحرج مركز الفرسان العثمانيين أمام هذا الهجوم الهائل ، وخاصة بعد أن احتل المصريون المرتفعات المشرفة على مواقعهم ، فلم يقاوموا طويلا ، وسارعوا الى الارتداد شمالا نحو بيلان من غير نظام ، وتفرق شملهم وتبددت جموعهم

ولما ارتدت ميسرة الترك ووصل المصريون فى تقدمهم الى طريق بيلان نفسه تحرج مركز قلب الجيس العثمانى ، إذ رأى ماحل بالميسرة ، وادرك أن خط الرجعة الى بيلان اصبح مقطوعا بوصول المصريين الى الطريق ، فلم تثبت جموعه أمام هجمة المصريين ، ولاذوا بالفرار ، وتخلوا عن مواقعهم وتشتتوا فى الجبال

وأصاب الجناح الايمن مثل ما أصاب القلب ، فقد تقدم المصريون من جنود الألاى الثالث عشر لمهاجمته ، ووصل رماتهم ومعهم المدافع الى أكمة قريبة من أقصى الميمنة (نمرة ٢٧) ، على أن الترك لم يصمدوا للقتال بعد ماعلموا بما أصاب الميسرة ، وتخلوا عن مواقعهم وتقهقروا فى الجبال

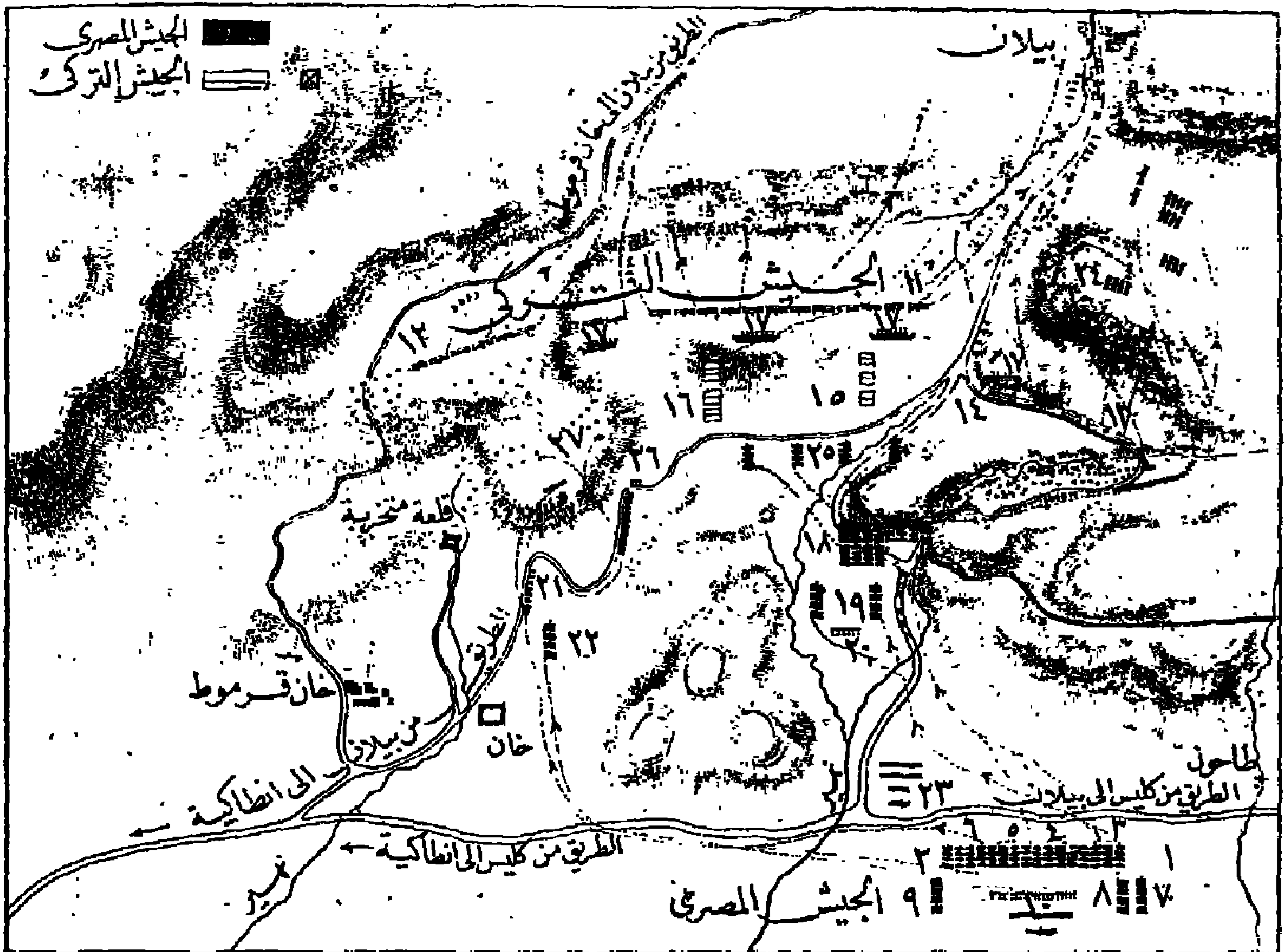
تخلى الترك اذن عن مواقعهم على طول الخط ، فاحتلها المصريون ، و بذلك

انتهت الواقعة بهزيمة الجيش التركى بعد قتال دام ثلاث ساعات ، فقد فيه الترك من رجالهم نحو ٢٥٠٠ من قتيل وجريح وأسر منهم المصريون ٢٠٠٠ أسير وغنموا ٢٥ مدفعا وكثيرا من الدخائر

و بعد انتهاء الواقعة احتل المصريون بيلان تخفق على صفوفهم أعلام النصر والظفر

أما الترك ، فقد فرت فلولهم الى الاسكندرونة لتلجأ الى العمارة التركية ، ولكنهم لم يدركوا العمارة اذ أنها أقلعت من الميناء بعد هزيمة بيلان ، فسار المصريون فى أعقابهم وأسروا الكثيرين منهم واحتلوا الاسكندرونة، ثم تقدم فرسانهم وساروا حذاء الساحل واحتلوا (بياس) شمالى الاسكندرونة وأسروا فيها ١٩٠٠ مقاتل من الجيش التركى ، وسلمت ايضا (انطاكية) و (اللاذقية) و (السويدية)

كانت نكبة الجيش التركى فى هذه الواقعة نكبة ساحقة ، واختفى قائده العام على وجهه متنكرا خوفا من الفضيحة ونجاة بنفسه من القصاص الذى هو لا بد ملاقيه اذا عاد الى الاستانة وفى تبعته هذه الهزيمة



خريطة واقعة بيلان ٣٠ يولية سنة ١٨٣٢ وفيها البيانات الآتية

موقع الجيش المصرى

١ ـ ٢ موقع الجيش المصرى قبل الواقعة على سفح مضيق بيلان ، غربى الطريق الذاهب من كليس الى انطاكية ، وقد اصطفت قواته بالترتيب الآتى :

٣ ألاى الحرس

٤ الالاى الثامن من المشاة

٥ « الثامن عشر من المشاة

٦ « الثالث « « «

٧ الآلاى الثانى من الفرسان

٨ « الرابع « «

٩ « الخامس « «

١٠ المدافع ويليها مهمات الجيش وامتعته تحرسها كتيبة من العرب المصريين

موقع الجيش التركى (١١ ـ ١٢ و ١٣ ـ ١٤)

١١ ـ ١٢ المشاة الترك منتشرون فوق هضبة على خط منكسر ، تصل يسراه الى طريق انطاكية ـ بيلان ، ويمناه الى اكمة تفضى الى طريق جبلى يصل من خان قرموط الى بيلان ، ومن هذا الخط يتألف الجناح الايمن وقلب الجيش التركى

١٣ ـ ١٤ الجناح الايسر

١٥ ـ ١٦ الفرسان الترك

١٧ المدافع منصوبة أمام المشاة

حركات الجيش المصرى قبيل بدء القتال

وقبيل ابتداء الواقعة اتخذ إبراهيم باشا المواقع الآتية للجيش المصرى

١٨ تحركت جنود الحرس والآلاي الثامن من المشاة من مواقعها الأولى (نمرة ٣ و ٤) ووصلت الى الموقع ١٨ وراء الاكمة

١٩ اجتمعت كتائب من الفرسان ببطن الوادى غربى الطريق الذاهب الى بيلان بالموقع نمرة ١٩

٢٠ المدفعية الاحتياطية وراء الفرسان

الألاى الثامن عشر (نمرة ٥) يتبع الالاى الثامن والحرس

٢١ « الثالث عشر من المشاة (نمرة ٦) يتجه نحو الطريق الذاهب من انطاكية الى بيلان ويحتل الموقع نمرة ٢١ على الطريق

٢٢ الالاى الخامس من الفرسان (نمرة ٩) يتبع الالاى الثالث عشر ويحتشد خلف الموقع (٢١) ليكون له بمثابة الاحتياطي فى هجومه على ميمنة الترك

بطارية من المدافع تتبع الالاى الثالث عشر الى الموقع ٢١

٢٣ نقلت مهمات الجيش الى الموقع ٢٣ تحميها فصيلتان من العرب

حركات القتال

زحف جنود الحرس والالاي الثامن من الموقع نمرة ١٨ الى منبع نهير صغير للاحاطة بميسرة الترك ١٣ ــ ١٤ ، وهاجموا الميسرة من الامام ومن الجنب واستولى الرماة المصريون على المدافع التركية المنصوبة على الاكمة ١٧ ، ووصل المصريون الى المرتفعات نمرة ٢٤ ، وتحت تأثير الهجوم ارتدت ميسرة الترك بغير نظام الي بيلان ، وكانت فى انسحابها هدفا لنيران المصريين ، فحلت بها الخسائر الجسيمة

وترى على الخريطة تقدم الالاى الثامن عشر وفريق من الالاى الثامن من الموقع ١٨ الى الموقع ٢٥ لمهاجمة قلب الجيش التركى مع فرسانه وقت احاطة جنود الحرس والالاى الثامن بميسرتهم ، وانسحاب الفرسان الترك من الموقع ١٥ و ١٦ وتشتت شملهم ، ثم ارتداد قلب الجيش التركى بغير نظام وتشتته فى الجبال

وترى زحف الالاى الثالث عشر من المشاة على ميمنة الترك ، فقد تحرك ومعه عدد من المدافع الى الموقع ٢٦ ، ووصل الرماة الى الاكمة ٢٧ تمهيدا لزحف بقية الجند ، ولكن الترك لم يصمدوا للقتال بعد ما علموا بما حل بالميسرة ، فتقهقروا فى الجبال وتخلوا عن معاقلهم كما تخلى بقية الترك عن مواقعهم على طول الخط ، وبذلك انتهت الواقعة

زحف الجيش المصرى فى الاناضول

اجتاز المصريون بعد واقعة (بيلان) حدودسورية الشمالية،ودخلوا ولاية(ادنه) من بلاد الاناضول ، وعبروا نهرى (جيحون) و (سيحون) وواحتلوا (ادنه) وطرسوس ، وأخذ ابراهيم باشا يوطد مركزه .وينظم الولايات التى فتحها قبل أن يزحف بجيشه الى الامام ، واحتشد معظم الجيش فى مدينة (ادنه)إذ كانت مفتاح الزحف على الاناضول وكانت أيضا صلة المواصلات بطريق البحر بين مصر والجيش المصرى ، وانفذ ابراهيم باشا كتائب من جنده فاحتلوا (اورفا)وعينتاب ومرعش وقيصرية

لم تنكسر عزيمة السلطان محمود أمام الهزائم التى حاقت بجيشه ، وأعد جيشاجديدا عهد بقيادته الى الصدر الاعظم محمد رشيد باشا(١) ، كان هـذا الجيش مؤلفا من ٥٣ الف مقاتل(٢) هم خليط من أجناس السلطنة العثمانية لاتربطهم رابطة ولا تجمعهم غاية ، فلا غرو أن يفقد الجيش أهم عامل لقوته المعنوية وخاصة اذا كان الجيش الذى يقاتله قويا بوحدته متماسك الصفوف معتزا بقيادته

كان رشيد باشا من خيرة قواد تركيا ، لكنه دون ابراهيم باشا فى الكفاية والمران ، وقد اشترك معه من قبل فى حروب (الموره) وخاصة أمام مدينة (ميسولونجى) ، ومن تهكم الاقدار أن هذين القائدين اللذين اشتركا معا فى ميدان القتال زمناً ما وكانا يدافعان عن غاية واحدة صارا عدوين لدودين يعمل كل منهما ليسحق الآخر

احتشد الجيش التركى فى الامتانة ، وعرضه السلطان محمود بنفسه ليبث فى قلوب رجاله روح الشجاعة والاقدام ، وزوده ببعض الالايات المشاة النظاميين وعدد وافر من المدافع

---

(١) هو غير مصطفى رشيد باشا الصدر الاعظم فى عهد السلطان عبد المجيد وصاحب الاصلاحات المشهورة

(٢) احصاء كادلفين ص ٢٩٥

ثم تقدم رشيد باشا بهذا الجيش العرمرم فى بطاح الاناضول ليلتقى بالجيش المصرى ، وكان ابراهيم باشا يواصل زحفه فى الاناضول فانفذ قوة من الجند احتلت مضيق (كولك) من مضايق جبال طوروس ، واقصت عنه الترك ، وباحتلال هذا المضيق ذللت عقبة من أكبر العقبات التى تعترض الجيش المصرى فى زحفه على الاناضول ، ثم اعترضتهم عقبة أخرى وهى واد منيع يلى المضيق كان الترك ممتنعين فيه بالقرب من مدينة (شفت خان) فأنفذ ابراهيم باشا قوة اخرى من الجند بقيادة سليم بك الحجازى وابراهيم اغا الجوخدار(١) فهاجموا الترك فى الوادى ونشبت معركة انتهت بانسحاب الترك بعد أن فقدوا ٢٠٠ قتيل وثلثمائة أسير ، وكذلك امتنع الترك فى (اولوقشلاق) وهاجمهم فيها المصريون وأجلوهم عنها ، وبعد هزيمة الترك فى اولوقشلاق جلوا أيضا عن هرقلة (اركلى) فانفتح الطريق امام الجيش المصرى ومضى فى زحفه حتى بلغ (قونيه) التى أخلاها الأتراك من غير قتال ، فاتخذها ابراهيم باشا قاعدة عسكرية وأخذ يتأهب لملاقاة الجيش التركى ويدرب جنوده على التمرينات فى المواقع التى توقع نشوب القتال فيها ، فكان ذلك دليلا على نفاذ بصيرته وبعد نظره وبراعته فى القيادة ، ولئن كان جيشه أقل عددا من الجيش التركى اذ بلغ نحو ثلاثين ألف مقاتل (٢) منهم الف من العرب (البدو) المصريين الا انه يمتاز بحسن النظام وكفاية القيادة والمران على القتال فى المعارك العديدة التى خاض غمارها ، ولا غرو أن بعثت الانتصارات التى أحرزها فى نفوس الجنود روح الامل والثقة ، فكانت هذه الروح من أقوى اسباب النصر والظفر .

---

(١) كادلفين وبارو ص ٢٤٤

(٢) احصاء مانجان ج ٣ ص ٥١ وابكاريوس ص ٧٨

واقعة قونيه

٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢

فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ وصلت طلائع الجيش التركى بقيادة رءوف باشا الى شمالى (قونيه) وكانت مؤلفة فى الغالب من الجنود غير النظامية، فناوشهم ابراهيم باشا ليتحقق مبلغ قوتهم، ولما آنس منهم ضعفا أراد أن يكرههم على القتال، لكن رءوف باشا تجنب الدخول فى معركة، فانقضى يوما ١٨ و ١٩ ديسمبر فى مناوشات حربية استولى فيها المصريون على كثير من الاسرى وغنموا فيها بعض المدافع

وفى صبيحة يوم ٢٠ ديسمبر تقدمت جيوش رشيد باشا الى قونيه، واخذ كل من القائدين يرتب مواقع جنوده

وفى اليوم التالى، يوم الواقعة، كان الضباب يخيم على ميدان القتال من الصباح، فحال دون اكتشاف كل من القائدين موقع الجيش الآخر، على أن ابراهيم باشا كان يمتاز على رشيد باشا بانه درس الجهة التى دار فيها القتال دراسة دقيقة، ومرن جنوده على المناورات فيها قبل اشتباك الجيشين

وقد رابط الجيش المصرى شمالى (قونيه)، وعلى مقربة من ميمنته شمالا بشرق مستنقعات من المياه، وعلى مسيرة فرسخ من ميسرته تقع مدينة سيله، وامامه الجبال، وعلى سفحها يرابط الجيش التركى الذى كان الضباب يحجبه عن انظار المصريين

وكان البرد قارسا، ولاغرو فالمعركة وقعت فى شهر ديسمبر فى أشد ايام الشتاء، فنزلت درجة البرد يوم الواقعة الى ١١ فوق الصفر

واصطف الجيشان فى مواقعهما، يفصل بينهما نحو ثلاثة آلاف متر، ومرت لحظة خفت فيها وطأة الضباب قليلا، فامكن ابراهيم باشا أن يلمح موقع الجيش

التركي ، وقد رتب خطة الهجوم ترتيبا محكما ، فرأى ان الهجوم على ميمنة الترك امر لاتحمد عواقبه ، لانها مرابطة على سفح الجبل فى مواقع حصينة ، بعكس الميسرة التى كانت تستند الى مستنقعات مكشوفة

وقبل أن يبدأ ابراهيم باشا بالهجوم تقدمت صفوف الترك حتى صارت على بعد نحو ستمائة متر من مواقع المصريين ، وأخذت المدافع التركية تطلق القنابل عليهم ، فلم يجب المصريون على الضرب بضرب مثله ، الى أن تعرف ابراهيم باشا على صوت الضرب مواقع الترك ، وتقدم الصف الثانى من المصريين حتى اقترب من الصف الاول تفاديا من فتك القنابل التركية التى كانت تنصب عليه

واتجه ابراهيم باشا الى بئر (نمرة ٢٣ على الخريطة) تقع على يمين الصف الثانى من الجيش المصرى ليزداد علما بمواقع الترك ، وكان يصحبه من خاصة اركان حربه مصطفى مختار بك[١] ، وكانى بك ، واحمد افندى[٢] ، ومعه قوة من ألف وخمسمائة من العرب

وهناك لمح مواقع الترك ، وعرف بثاقب نظره نقطة الضعف التى يصيب منها الهدف ، ذلك ان قوة الفرسان كانت تؤلف ميسرة الجيش التركى ، وقد اخطأت القيادة التركية فى انها لم تحكم الصلة بين الفرسان والمشاة اثناء التقدم ، فحدثت بينهما ثغرة يبلغ طولها نحو الف خطوة جعلت الميسرة فى شبه عزلة عن بقية الجيش (كما تراه على الخريطة)

فانتهز ابراهيم باشا هذه الفرصة ، واعتزم الدخول بقوات الحرس والفرسان فى هذه الثغرة ليخترق صفوف الترك ، وبادر فعلا فاصدر تعليماته بتحرك هذه القوات ، وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة ، فزحفت قوة الحرس يتبعها الفرسان ، واجتازت البئر

---

(١) من خريجى البعثات المصرية وقد درس الفنون الحربية بفرنسا ، وهو الذى تولى فيما بعد رياسة ديوان المدارس اى وزارة المعارف العمومية
(٢) من خريجى البعثات أيضا

بقليل، ثم انعطفت نحو الشمال حيث ميسرة الترك وهاجمتها هجوما شديدا ، وشدت المدفعية ازرها ، فصبت قنابلها على الترك وأخذتهم من الجنب، وكان الهجوم شديدا، والضرب محكما ، فتقلقل الترك من مراكزهم لشدة الهجوم ، وتقهقروا شمالا من غير نظام فى المستنقعات، و بذلك انهزمت ميسرة الجيش التركى

ثم تابع المصريون تقدمهم وتوسطوا ميدان المعركة حيث واجهوا الصف الثالث من مشاة الترك الذين اقتحمو الميدان ووصلوا الى تلك الناحية (نمرة ١٠٧)، فاصلتهم المدافع نارا حامية ، وأحاط بهم المصريون وضربوهم ضربا شديدا واوقعوا بهم حتى سلموا سلاحهم

ولما ادرك الصدر الاعظم ان ميسرته قد وقع فيها الاضطراب والفشل أراد ان يلم شعثها و يبث الحمية فى نفوس رجاله فنزل الى حيث مواقع الجند ، لكنه لم يفز بطائل ، وضل الطريق لكثرة تكاثف الضباب ، و بينما هو يسير على غير هدى وقع فى ايدى العرب المصريين ، فأحاطوا به وجردوه من سلاحه ، واقتادوه أسيرا الى ابراهيم باشا ، وكان قد مضى على نشوب القتال نحو الساعتين

وتابع المصريون من المشاة والفرسان تقدمهم شمالا ، واستاقوا معهم بعض المدافع ، وهاجموا الصف الرابع من مشاة الترك ، فحاقت به الهزيمة وسلم وتمزق شمله ، و بذلك تم للجيش المصرى الفوز على ميسرة الترك والصف الثالث والرابع من مشاتهم

و بينما كانت قوات الحرس والفرسان تقوم بهذه الحركات والهجمات الموفقة تقدم الصف الاول من صفوف الاعداء نحو ميسرة الجيش ، المصرى واتخذوا مواقعهم حولها فى خط منكسر بقصد الاحاطة بها ، واشترك فى هذه الحركة الصف الثانى من صفوفهم، وعاونهم فرسانهم ، فكانت الهجمة هائلة، عنيفة فى شدتها خطيرة فى عواقبها ، ولكن ميسرة الجيش المصرى تلقتها بثبات وشجاعة ، وتحركت مدافع الاحتياطى فشدت ازر المدفعية التى تحمى الميسرة، وصبت المدافع المصرية قنابلها على صفوف الترك ، فحصدت صفوفهم حصدا ، واستبسلت الميسرة فى الضرب

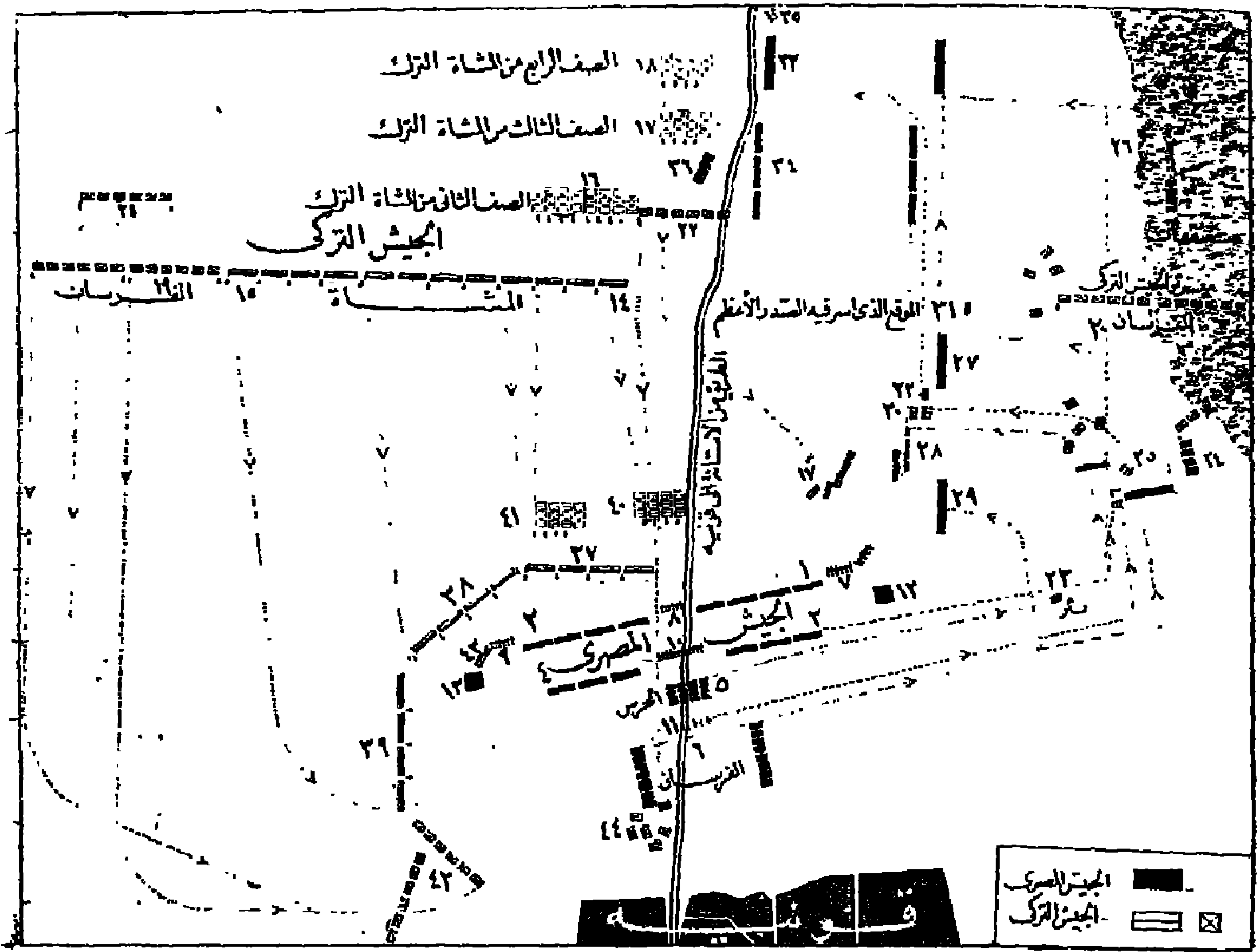
والقتال ، وكان على دفاعها يتوقف مصير المعركة ، واستمرت الملحمة ثلاثة أرباع ساعة، ثم اسفرت عن كسر هجمة الترك وهزيمتهم وتشتيت شملهم فى الجبال

وكأنما أراد الترك أن يبذلوا آخر جهد فى المعركة ، فتحركت قوة من الفرسان ووصلت تجاه الصف الاول من الجيش المصرى ، فلم يحفل بها المصريون لانها كانت سائرة نحو الفشل المحقق ، فمازالت تتقدم حتى وصلت الى ماوراء صفوف الجيش المصرى ، وهناك تشتت شملها وولت الادبار

انتهت الواقعة بهزيمة الجيش التركى ، ودام القتال فيها سبع ساعات إذ بدأت فى الظهر وانتهت بعد غروب الشمس بساعتين ، ولم تزد خسارة المصريين عن ٢٦٢ قتيلا و٥٣٠ جريحا ، أما الجيش التركى فقد أسر قائده ونحو خمسة آلاف الى ستة آلاف من رجاله ، من بينهم عدد كبير من الضباط والقواد ، وقتل من جنوده نحو ثلاثة آلاف ، وغنم المصريون منه نحو ٤٦ مدفعا وعددا كثيرا من الرايات

فلا غرو كانت معركة قونيه نصرا مبينا للجيش المصرى ، وصفحة فخار فى تاريخ مصر الحربى

ولقد كانت من المعارك الفاصلة فى حروب مصر ، لانها فتحت أمام الجيش طريق الآستانة إذ أصبح على مسيرة ستة أيام من البوسفور ، وكانت الطريق مخلاة لا يعترضه فيها جيش ولا معقل ، فلاجرم ان ارتعدت فرائص السلطان محمود بعد هذه الواقعة إذ رأى قوائم عرشه تتزلزل أمام ضربات الجيش المصرى وانتصاراته المتوالية



خريطة واقعة قونيه (٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢) وفيها البيانات الآتية

مواقع المصريين

١ ـ ٢ الصف الأول من صفوف الجيش المصرى يقوده سليم بك المناسترلى

٣ ـ ٤ الصف الثانى بقيادة سليمان بك (باشا) الفرنساوى على بعد ثلثمائة خطوة فقط من الخط الأول ، وقد اقترب منه الى هذا الحد بسبب تكاثف الضباب صبيحة يوم الواقعة وتساقط قنابل الترك عليه

٥ جنود الحرس يقودهم سليم بك الحجازى (١) ويتألف منهم الصف الثالث

(١) ذكره كادلفين وبارو باسم سليم بك فقط ، ولكن ابكاريوس بك ذكره فى كتابه (المناقب الابراهيمية) ص ٧٦ بلقبه الحجازى

٦ الفرسان يقودهم احمد بك(باشا) المنكلى واحمد بك الاستانبولى
٧و٨ و٩ المدافع وقد نصبت فى الميمنة والقلب والميسرة بقيادة سليم بك قائد الطوبجية
١٠ بطاريتان من مدافع الاحتياطى
١١ بطارية من مدافع الاحتياطى مع الحرس
١٢ و١٣ أورطتان فى هيئة مربعين لحماية الجناحين

مواقع الترك

١٤ ـ ١٥ الصف الاول من المشاة
١٦ « الثانى من «
١٧ « الثالث « «
١٨ « الرابع « «
١٩ الايان من الفرسان على يمين الصف الاول من المشاة
٢٠ الايان من الفرسان على يسار الصف الاول من المشاة
٢١ الاى من الفرسان خلف ١٩
٢٢ « « « عن يسار الصف الثانى من المشاة
ء|ء مدافع الترك موزعة أمام صفوف المشاة والفرسان
٢٣ موقع البئر التى اتجه اليها ابراهيم باشا ليستطلع مواقع الترك
٢٤ الموقع الذى وصل اليه الفرسان المصريون لمهاجمة الجناح الايسر للجيش التركى بمعاونة جنود الحرس
٢٥ الموقع الذى وصلت اليه المدافع المصرية لشد ازر هذه الهجمة
٢٦ النقطة التى ارتد اليها الجناح الايسر للجيش التركى فى المستنقعات بعد هزيمته امام هجمة الفرسان المصريين
٢٧ و٢٨ و٢٩ المواقع التى وصل اليها المصريون من الفرسان والحرس فى تقدمهم

واحاطوا بالصف الثالث من المشاة الترك نمرة ١٧ الذى زحف من موقعه الاصلى الى حيث سلم سلاحه فى الموقع نمرة ١٧َ

٣٠ الموقع الذى تقدمت اليه المدافع المصرية الآتية من ٢٦ لتشترك فى الحركة السابقة

٣١ المكان الذى اسر فيه الصدر الاعظم محمد رشيد باشا قائد الجيش التركى

٣٢ المكان الذى كان به ابراهيم باشا حينما وقع الصدر الاعظم اسيرا

٣٣ و ٣٤ المواقع التى وصل اليها المصريون فى تقدمهم شمالا

٣٥ الموقع الذى تقدمت اليه المدافع المصرية آتية من الموقع ٣٠

٣٦ الموقع الذى هزم فيه الألاى التركى نمرة ١٨ امام هجوم المصريين

٣٧ و ٣٨ و ٣٩ المواقع التى تقدم اليها الصف الاول من مشاة الترك نمرة ١٤–١٥ للاحاطة بميسرة الجيش المصرى

٤٠ و ٤١ المواقع التى تقدم اليها الصف الثانى من مشاة الترك نمرة ١٦ للاشتراك فى الحركة السابقة

٤٢ المواقع التى تقدم اليها الفرسان الترك نمرة ١٩ و ٢١ للاشتراك فى الحركة السابقة

٤٣ انتقال المدفعية المصرية من الموقع ١٠ وانضمامها الى مدافع الجناح الايسر حيث اشتركت فى كسر هجمة الترك وتشتيت شملهم

٤٤ المواقع التى تقدم اليها الفرسان الترك نمرة ٢٢ حيث تشتت شملهم

حركات الاسطول المصرى

كان للاسطول المصرى فضل كبير فى معاونة الجيش خلال الحرب السورية من مبدئها الى منتهاها ، فان هذه الحرب لم تقتصر على البر بل تمدته الى البحر ، وانا ذاكرون هنا ماقام به الاسطول من الاعمال الجليلة التى ساعدت الجيش على بلوغ النصر

اشترك قسم من الاسطول فى حصار عكا كما قدمنا ، فقد أصدر ابراهيم باشا تعلياته الى سر عسكر الدونتمة المصرية الاميرال عثمان نور الدين بك بضرب قلاع عكا من البحر ، فتقدم الاسطول (ديسمبر سنة ١٨٣١) واصطفت سفنه امام حصون المدينة وأخذت تضربها بالمدافع

كان عدد هذه السفن تسع بوارج ، تقل ٣٨١٠ من البحارة ، وسلاحها ٤٨٤ مدفعاً ، وهذه اسماؤها كما ذكرها اسماعيل باشا سرهنك[١] ، وهى الفرقاطة (كفر الشيخ) وعليها القومندان برسيك الانجليزى ، والفرقاطة (الجعفرية) وقومندانها برغمه لى احمد قبودان وعليها علم الاميرال الأول قائد الاسطول ، والفرقاطة (البحيرة) وقومندانها عبد اللطف قبودان (الذى صار باشا وتولى نظارة البحرية فيما بعد) وتحمل علم الاميرال الثانى مصطفى مطوش باشا ، والفرقاطة (رشيد) وعليها السيد على قبودان ، والفرقاطة (شير جهاد) وعليها نورى قبودان ، والفرقاطة (دمياط) وعليها هدايت محمد قبودان ، والفرقاطة (مفتاح جهاد) وعليها مصطفى قبودان الجزائرى ، والسفينة (بومبه) وعليها بيجان قبودان ، والسفينة (رهبر جهاد) وعليها على رشيد قبودان

أخذت هذه البوارج تطلق مدافعها على حصون عكا طول النهار ، ولكنها لم تصبها بضرر يذكر لمتانتها ، ثم رست مع باقى سفن الاسطول التى لم تشترك فى

---

(١) فى كتابه (حقائق الاخبار عن دول البحار) ج ٢ ص ٢٤٥

الضرب، وأصيبت بعض السفن المصرية بأضرار اضطرتها الى العودة للاسكندرية

وكان للاسطول المصرى جولات مهمة على ظهر البحار خلال الحرب ، فقد تلقى محمد على باشا من إحدى سفن العمارة المصرية فى شهر يونيه سنة ١٨٣٢ نبأ خروج الاسطول التركى من الدردنيل بقيادة الاميرال خليل باشا رفعت ليشترك فى القتال ، وكان مؤلفا من خمس وثلاثين سفينة حربية ، فاصدر تعلماته الى العمارة المصرية بالاقلاع الى بحر الارخبيل لتبحث عن الاسطول العثمانى وتقاتله ، فسارت الى مياه رودس وكان الاسطول العثمانى قد اتجه فى ذلك الحين الى ثغر الاسكندرونة لامداد الجيش التركى بالرجال والمؤونة والعتاد

فلما وصل الى الاسكندرونة كانت الهزيمة قد حلت بالجيش التركى فى حمص، ثم وقعت هزيمة (بيلان) ، فعاد ادراجه وأقلعت سفنه الى جزيرة رودس تاركة كميات كبيرة من المؤونة لم يستطع الترك حملها لما كانوا فيه من العجلة

أما العمارة المصرية فكانت مؤلفة من سبع وعشرين سفينة حربية معقودا لواؤها للأميرال عثمان نور الدين باشا ، فسارت تمخر العباب باحثةً عن الاسطول العثمانى ، واجتمع الاسطولان بعد واقعة (بيلان) فى مياه قبرص، ومع أن الاسطول التركى كان اكثر عددا وعددا من العمارة المصرية فان قبودانه تجنب الاشتباك فى قتال مع الاسطول المصرى ، وخشى أن يلحقه البوار اذا اصطدم به ، فآثر أن يلزم خطة الدفاع ، وأخذ الاميرال عثمان نور الدين باشا من ناحيته يرقب حركات الاسطول العثمانى ،دون أن يسعى لمهاجمته ، وبقى الاسطولان طويلا فى هذا الموقف، الى أن سار اميرال الاسطول التركى الى ميناء (مرمريس) من ثغور الاناضول ليأوى اليها فتعقبته ، العمارة المصرية ،وحاصرت الميناء ،ولكن هياج البحر واشتداد الانواء فى ذلك الفصل من الشتاء حالا دون استمرار الحصار ، فاتجه نور الدين باشا بالعمارة المصرية الى خليج السوده بجزيرة كريت ، وبعد أن بقى الاسطول التركى فى ثغر مرمريس عشرين يوما اقلع الى مياه الدردنيل ثم رجعت العمارة المصرية الى الاسكندرية

وقد كان للاسطول المصرى عامة فضل كبير فى تسهيل المواصلات البحرية بين مصر وسورية ولولاه لما وجدت مصر من سبيل الى امداد جيشها إلا بطريق البر المحفوف بالمتاعب والاخطار ، ولتعذر عليها الاتصال به وبالبلاد التى فتحتها ، فللاسطول المصرى فضل كبير فى نجاح الحملة على سورية

المسئلة المصرية

وتدخل الدول

استرعت انتصارات الجيش المصرى أنظار الدول الاوروبية ، وفتحت باب المسئلة المصرية على مصراعيه

ان المسئلة السياسية العالمية المعروفة بالمسئلة المصرية بدأت تظهر — فى تاريخ مصر الحديث — منذ الحملة الفرنسية ، فمن ذلك العهد اتجهت المطامع السياسية الدولية الى مصر ، وتعددت المنازع فى شأن مصيرها ، فالحملة الفرنسية أول مثار للمسئلة المصرية إذ أنها كانت صراعا ، بين فرنسا وانجلترا على فتح مصر واستعمارها ، أما قبل ذلك فان التنافس بشأنها كان فى الغالب تنافسا اقتصادياً ، فلما جرّد نابليون حملته على مصر تحول الى صراع سياسى ، وأخذت مطامع انجلترا تتجه نحو فتح مصر والسيطرة السياسية عليها ، ولقد رأيتَ مما فصلناه فى الجزأين الأول والثانى ان الصراع بين فرنسا وانجلترا بشأن المسئلة المصرية استمر طوال الحملة الفرنسية ، وبعد انتهائها ، وان انجلترا لم تكن تحارب فرنسا لاجلائها عن مصر فحسب ، بل لتحل فيها محلها ولكى تحقق مطامعها السياسية والاستعمارية فى وادى النيل (١)

---

(١) انظر الجزء الاول ص ٦٣ والجزء الثانى ص ١٢٨ وص ٤٣٤

واستمرت المسئلة المصرية مثارا للمطامع الانجليزية منذ اسس محمد على الدولة المصرية الحديثة ، فلما اشتبكت مصر وتركيا فى الحرب السورية اقترنت المسألة المصرية بالمسئلة الشرقية ، فاشتدت المنازعات الدولية بشأنها وانبعثت المطامع القديمة التى كانت تسعى لها كل دولة حيال السلطنة العثمانية

فالروسيا نظرت بعين الخوف والوجل الى تقدم الجيش المصرى واقترابه من عاصمة تركيا ، وخشيت اذا اطرد هذا التقدم أن يستولى محمد على باشا على عرش السلطنة ويمد نفوذ الدولة المصرية الى ضفاف البوسفور والدردنيل والبحر الأسود فيؤسس دولة قوية تقوم على انقاض السلطنة العثمانية المتداعية الاركان المختلة النظام ، وليس مما يوافق سياسة الروسيا أن يقع هذا الانقلاب لانه يحول دون تحقيق اطماعها فى الوصول الى البواغيز والبحر الابيض المتوسط ، فبادرت الى التدخل لمعاونة تركيا ، وأوفدت الجنرال مورافييف Mourawief الى السلطان محمود ليعرض عليه استعدادها للدفاع بقواتها البرية والبحرية عن السلطنة العثمانية ، ومعنى هذا الدفاع من الروسيا بسط حمايتها الفعلية على تركيا ، فهال فرنسا وانجلترا أمر هذا التدخل وخشيا على سياستهما ومصالحهما ان تستهدف للخطر اذا بسطت الروسيا حمايتها أو نفوذها فى تركيا ، واتقاءً لهذا الخطر بذلتا جهودهما لوقف تقدم الجيش المصرى حتى لا تجد الروسيا مسوغا لحماية تركيا ، ففرنسا وانجلترا لم تقصدا من تدخلهما فى المسئلة المصرية والمسئلة الشرقية مصلحة مصر ولا مصلحة تركيا ، بل كانتا تعملان لتحقيق اغراضهما الذاتية

واستخدمت فرنسا علاقاتها الودية مع مصر لاقناع محمد على باشا بتسوية الخلاف بينه وبين السلطان ، وأوفدت الى الاستانة الاميرال روسين Roussin سفيرا لها ليسعى فى فض الخلاف بين تركيا ومصر ويمنع التدخل الروسى

وبذلك صارت مصر قبلة انظار الدول الاوروبية ، إذ كان مناط آمالهن اقناع محمد على باشا بتسوية الخلاف مع تركيا حتى لا يؤدى تدخل الروسيا الى أزمة أوروبية قد تنتهى بتحكيم السيف بينهن

فعلى خطة مصر فى ذلك الحين كان يتوقف التوازن الأوربى ، من أجل ذلك وفدت رُسُل التفاهم إلى محمد على باشا من كل صوب

فجاءه الجنرال مورافييف الى الاسكندرية ، وقابله وعرض عليه الوساطة بينه وبين السلطان ، فاكرم محمد على وفادته وأحسن لقاءه ، ولكنه تمسك بوجهة نظره

وكذلك ارسل السلطان بايعازمن السفارة الفرنسية مندوبا عنه وهو خليل باشا ليفاوض محمد على فى حسم الخلاف وديا وارسل الاميرال روسان الى محمد على يطلب اليه ألا يشتطّ فى طلباته حقنا للدماء ، وان يكتفى من فتوحه بولايات صيدا (عكا) وطرابلس والقدس ونابلس

فرفض هذه الشروط وأصر على ضم سورية وولاية أدنه الى مصر ، وقد أصر على الاحتفاظ باقليم ادنه وهو صميم الاناضول لما اشتهر عنه من كثرة مناجمه ووفرة اخشابه ، ولانه ينتهى بجبال طوروس التى اراد محمد على جعلها الحد الفاصل بين مصر وتركيا ، اما تركيا فقد ازدادت خضوعا للروسيا ورضيت ان تحميها بقواتها البحرية والبرية ، فجاء اسطول روسى ورسا فى مياه البوسفور ، ونزلت قوة من الجنود الروس الى الشواطىء التركية الاسيوية لتدفع غزوة الجيش المصرى

وقدرأى محمد على باشا ان الدول انما تسعى الى هضم حقوق مصر ارضاءً لتركيا ، فوقف تجاهها موقفا مشرفا استمسك فيه بحقوق مصر ، وبعث فى هذا الصدد برسائل عدة تدل على قوة يقينه ومضاء عزيمته وأهمها الخطاب الذى ارسله الى البارون روسين سفير فرنسا فى الاستانة بتاريخ ٨ مارس سنة ١٨٣٣ ردا على رسالته اليه ، قال فيه

« تلقيت رسالتكم المؤرخة ٢٢ فبراير التى تسلمتها من ياوركم والتى تعترضون فيها علىّ وتعلنونى بان لاحق لى فى المطالبة بما عدا بلاد عكا والقدس ونابلس وطرابلس الشام ، وأن الواجب علىّ ان اسحب جيشى فورا ، وتنذرونى بانى فى حالة الرفض استهدف لأخطر العواقب ، وقد أضاف ياوركم شفويا بناء على

تعلماتكم بانى اذا بقيت متمسكا بمطالبى فسيجىء الاسطول الانجليزى والروسى الى سواحل مصر

على انى ياجناب السفير إتساءل باى حق تطلبون منى هذه التضحية ؟ ان امتى باجمعها تؤيدنى فى موقفى ، وان فى استطاعتى بكلمة منى ان احرض شعوب الروملى والاناضول على الثورة فيلبوا ندائى ، ويمكننى بتأييد امتى ان افعل اكثر من ذلك ، لقد امتدت سيطرتى على اقطار عدة ، والنصر حليفى فى كل الميادين ، ومع ان الرأى العام يؤيدنى فى امتلاك سورية باكملها فانى قد وقفت زحف جنودى رغبة منى فى حقن الدماء ولكى يتسع الوقت أمامى لأتعرف ميول الدول الاوروبية ، وبمقابل هذا الاعتدال وحسن النية وتلك التضحيات العديدة التى بذلتها امتى ، والتى نلتُ الانتصارات الباهرة بفضلها وبفضل تأييدها لى ، تطلبون منى ان اتخلى عن البلاد التى فتحتها وان انسحب بجنودى الى منطقة صغيرة تسمونها ولاية ! اليس فى هذا حكم علىّ بالاعدام السياسى ؟

« على أن لى ملء الثقة الا تأبى فرنسا وانجلترا الاعتراف بحقوقى ومعاملتى بالانصاف فان ذلك مرتبط بشرفهما ، واذا خاب أملى فليس امامى الا ان اذعن لقضاء الله ، وهنالك اوثر الموت الشريف على احتمال الذل والعار ، وسأبذل نفسى بكل ابتهاج فداءً لقضية امتى ، مغتبطا بخدمة بلادى حتى آخر نسمة من حياتى ، ذلك ماصممت عزمى عليه ، وقد روى التاريخ امثلة عديدة لمثل هذا الاخلاص ، ومهما يكن فان لى وطيد الامل فى انكم ستقدرون عدالة مطالبى وتؤيدون اقتراحاتى الاخيرة التى قدمتها الى خليل باشا ، وفى انتظار تحقيق هذا الامل قد كتبت لكم هذا الخطاب الودى الذى تسلمه منى ياوركم يداً بيد (١)

الاسكندرية فى ٨ مارس سنة ١٨٣٣ — محمد على
والى مصر

---

(١) كادلفين وبارو ص ٣٧٥

احتلال كوتاهيه ومغنيسيا
وإقامة الحكم المصرى فى أزمير

وفى غضون ذلك تقدم ابراهيم باشا بجيشه فاحتل (كوتاهيه) وصار على مسافة خمسين فرسخا من الاستانة ، ثم أنفذ كتيبة من الجنود احتلت (مغنيسيا) بالقرب من أزمير (انظر الخريطة الملحقة بهذا الفصل)، وأنفذ رسولا إلى أزمير ليقيم الحكم المصرى بها ، وقد وصل الرسول اليها ولم يلق بها مقاومة ، وعزل حاكم المدينة (طاهر بك) وأقام بدلا منه أحد أعيانها منصور زاده (فبراير سنة ١٨٣٣) ، ورحبت المدينة بهذا الانقلاب ، ولكن الاميرال روسين سفير فرنسا فى الاستانة تدخل فى الأمر حتى لا يستفحل النزاع وتتخذ الروسيا احتلال أزمير ذريعة الى حماية تركيا ، فأرسل إلى ابراهيم باشا يعترض على مافعله رسوله فى أزمير وينذره بقطع العلاقات ، فلم يسع ابراهيم باشا إلا الاجابة بانه لا يقصد احتلال أزمير ، وبذلك انتهى الخلاف ، وعاد الحاكم القديم إلى منصبه (مارس سنة ١٨٣٣)

اتفاق كوتاهيه (ابريل — مايو سنة ١٨٣٣)

بذلت فرنسا جهدها لحسم الخلاف بين محمد على وتركيا ، وجددت مسعاها بين الفريقين ، وكان ابراهيم باشا يتهدد تركيا بالزحف على الاستانة إذا لم تجب مطالبه ، فاضطر الباب العالى إلى الاذعان وأرسل إلى كوتاهيه ، حيث كان ابراهيم باشا يقيم بها ، مندوبا عنها يدعى رشيد بك(١) يصحبه البارون دى فارين سكرتير السفارة الفرنسية ليقوم بالوساطة بين الطرفين ، وبعد مفاوضة دامت أربعة أيام تم الاتفاق على

(١) هو الذى صار فيما بعد الصدر الاعظم مصطفى رشيد باشا صاحب الاصلاحات المشهورة فى عهد السلطان عبد المجيد

الصلح فى ٨ ابريل سنة ١٨٣٣ ، وهو المعروف باتفاق كوتاهيه ، ويقضى بان يتخلى السلطان لمحمد على عن سورية واقليم ادنه ، مع تثبيته على مصر وجزيرة كريت والحجاز ، مقابل ان يجلو الجيش المصرى عن باقى بلاد الاناضول

وقد صدرت « التوجيهات » السلطانية بمضمون هذا الصلح ، وارسل الصدر الاعظم الى محمد على وثيقة مكتوبة (١) بفحوى هذه التوجيهات ، وفيها اسناد ولاية سورية اليه والحاقها بولاية مصر وكريت

ولكن هذه التوجيهات كان ينقصها اقليم ادنه ، فبان من ذلك ان الباب العالى اراد الرجوع عن اتفاق كوتاهية بالنسبة لهذا الاقليم ، وقد بقيت المسألة موضع خلاف بين الطرفين ، ووقف ابراهيم باشا جلاء الجيش حتى ينفذ الباب العالى ماتم الاتفاق عليه ، فلم يسع السلطان الا ان يسلم بالتنازل عن ادنه ، واصدر فرمانا فى ٦ مايو سنة ١٨٣٣ بمضمون الاتفاق بتمامه ، اعلن فيه تثبيت محمد على باشا على مصر وكريت واسناد ولايات سورية اليه ، وتجديد ولاية ابراهيم باشا على جدة مع مشيخة الحرم المكى أى إسناد إدارة الحجاز إلى عهدته ، وتخويله ادارة اقليم ادنه (٢) .

---

(١) منشورة صورتها الفوتوغرافية باللغة التركية فى كتاب (خلاصة الوثائق التركية فى مصر) للمسيو جان دينى Deny لوحة نمرة ٢٣

(٢) فى الفرمان أنه خول تحصيل أموال الجباية فيها ، ومعنى هذا ادارة الولاية فعلا كما يستفاد من المخابرات الدولية التى تبودلت فى هذا الصدد، وقد أورد البارون دى تستا فى كتابه (مجموعة معاهدات الباب العالى ج٢ ص٣٧٧) رسالة المستر ماندفيل سفير انجلترا فى الاستانه الى اللورد بالمرستون وزير خارجيتها بتاريخ ٤ مايو سنة ١٨٣٣ ينبئه فيها « بأن السلطان خول ابراهيم باشا ادارة ولاية ادنه باسناد تحصيل أموال الجبايه فيها الى عهدته » ، وكذلك رسالة ابراهيم باشا الى السلطان يشكره فيها على « اسناد حكومة ادنه اليه » ، ولذلك كان الحكم المصرى فى اقليم ادنه لايختلف فى حدوده ومظاهره عن مثيله فى الاقاليم السورية

وبمقتضى اتفاق (كوتاهيه) صارت حدود مصر الشمالية تنتهى عند مضيق (كولك) بجبال طوروس، ويسمى بوغاز كولك تبعاً لتسمية الترك المضايق بالبواغيز (وترى موقعه على الخريطة)

وبذلك انتهت الحرب السورية بتوسيع نطاق الدولة المصرية وبسط نفوذها على سورية وادنه وتأييد سلطتها على كريت وجزيرة العرب

ولا يعزب عن البال أن السلطان لم يقبل اتفاق كوتاهيه إلا مرغما ، وكان يضمر السعى لنقضه إذا تهيأت له الفرصة فى المستقبل ، يدلك على ذلك أنه لم يكد يقر صلح (كوتاهيه) حتى عقد سرا مع الروسيا المعاهدة المعروفة بمعاهدة هنكار أسكله سى (٨ يوليه سنة ١٨٣٣) وهى معاهدة دفاعية هجومية التزمت كل دولة بمقتضاها أن تساعد الدولة الأخرى إذا استهدفت لخطر خارجى أو داخلى ، وتعهدت تركيا بأن تأذن للاسطول الروسى بالمرور من البحر الاسود إلى البحر الابيض المتوسط ، وتسد البواغيز فى وجه جميع السفن التابعه للدول الأخرى، ومؤدى هذه المعاهدة تخويل الروسيا مد يدها فى شؤون تركيا وبسط حمايتها الفعلية عليها ، وهذه المعاهدة لم يبرمها السلطان على مافيها من مهانة لتركيا إلا ليسعى فى نقض اتفاق كوتاهيه ، لأن تركيا لم تكن مهددة فى ذلك الوقت بخطر خارجى أو داخلى إلا من ناحية مصر ، فابرام (معاهدة هنكار اسكله سى) غداة اتفاق كوتاهيه معناه أن تركيا لم تكن خالصة النية فى ابرام هذا الاتفاق ولا فى إقراره

الحكم المصرى فى سورية

دخلت الشام فى حكم الدولة المصرية بعد صلح (كوتاهيه) الذى توّج انتصارات الجيش المصرى ، وأصبحت مصر المرجع الأعلى لحكومة الشام ، وصار ابراهيم باشا حاكما عاما للبلاد السورية وقائداً عاما للجيش المصرى

نظام الحكم المصرى فيها

وأخذ ابراهيم باشا فى تنظيم سوريةوتدبير أمورها الاداريةوالسياسيةوالحربية فعنى باقرار الأمن والنظام فى ربوعها ، وأمّن الطرق ومنع اعتداء البدو على غلات الاهالى وأملاكهم وأرواحهم

وأخذ من الوجهة الحربية يعنى بتوطيد مركز مصر فى سورية ، فأمن حدودها الشمالية وعنى بتحصين مضايق جبال طوروس لصد هجوم الترك إذا حدثتهم أنفسهم بالزحف على الشام ، ورمم حصون عكا وأسوارها ، وشيد الثكنات والمستشفيات ، وخطط الطرق الحربية ، واستقرت الحاميات المصرية فى أهم المدن السورية

و بلغ عدد الجيش المرابط فى سورية نحو سبعين الف مقاتل رابط معظمه فى الجهات الشمالية القريبة من الحدود التركية

واتخذ ابراهيم باشا مقره العام فى (انطاكيه) لموقعها الحربى وقربها من التخوم الشمالية

وعيِّن محمد شريف بك (باشا)(١) حاكما عاما على سورية سنة ١٨٣٢(٢) ، ولقب

(١) هو الذى صار وزير مالية مصر فى اواخر عهد محمد على ، وهو غير شريف باشا الكبير رئيس الوزارة فى عهد توفيق باشا وصاحب المواقف المشهودة فى التمسك بالسودان

(٢) العدد ٤٥٥ من (الوقائع المصرية) الصادر فى ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٢٤٨ (نوفمبر سنة ١٨٣٢)

«حكمدار عربستان» وظل فى معظم سنوات الحكم المصرى يتولى ادارة الايالات السورية جميعها

وجعل سليمان باشا الفرنساوى على ايالة صيدا (عكا) ، وعين اسماعيل بك سنة ١٨٣٨ حاكما لولاية حلب ، وعين محمود نامى بك أحد خريجى البعثات المصرية محافظا لبيروت وبقى فى هذا المنصب من سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٤٠

وجُعل على ادارة الشؤون المالية حنا بك بحرى أحد أعيان السوريين فصار صاحب النفوذ الاكبر فى ادارة شؤون الحكومة وأحوالها المالية ، وقد ذكر المسيو جومار أن تعيين أحد السوريين الاكفاء فى هذا المنصب الكبير دليل على رغبة ابراهيم باشا فى اسناد كبار المناصب الى ابناء البلاد ، وهو ما لم يكن مألوفا فى عهد الادارة التركية ، وقال الدكتور مشاقه(١) ، وهو معاصر للحكم المصرى

«لم يمض على حصار عكا زمان حتى ارسل محمد على تفويضا الى حنا البحرى فى بسن النظامات لحكومة سورية على النمط الحديث ، وكان حنا البحرى على جانب عظيم من اصالة الرأى ، وله القدح المعلى فى السياسة المدنية ، وكان العدل والانصاف شأنه والنزاهة زمامه ، لافرق عنده بين القوى المثرى والضعيف الفقير أو المسلم والذمى ، وكان يعاملهم بالقسط والعدل حسب وصية محمد على باشا الذى كان عارفا ان لا قيام للدولة الا بالعدل والانصاف ».

وعين ابراهيم باشا لكل بلد متسلما أى حاكما يتولى ادارتها

وألف فى كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين الف نسمة مجلسا يسمى (ديوان المشورة) يتراوح عدد أعضائه بين ١٢ و٢١ عضوا ينتخبون من بين نبهاء (أعيان) البلد وتجارها ، وتنظر هذه المجالس فى مصالح كل بلدة ومطلوبات الميرى واليها ترفع بعض الدعاوى للفصل فيها

---

(١) فى كتابه (مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان) ص ١٠٢

و وحد الادارة و وطد سلطة الحكومة المركزية ، وأبطل سلطة الامراء والرؤساء الاقطاعيين وخضد شوكتهم ، وضرب على أيدى الاشقياء وقطاع الطرق ، و بسط رواق الامن فى البلاد ، ونظم طرق الجباية ، وعامل الاهلين بالعدل والمساواة من غير تفريق بين الطبقات والمذاهب والاديان ، وكان ذلك من أجل أعمال الادارة المصرية فى سورية

ونشطت التجارة والزراعة فى عهد الحكم المصرى ، فعمم ابراهيم باشا تربية دود القز (الحرير) وأكثر من غرس أشجار التوت لهذا الغرض ، وغرس فى ضواحى انطاكيه أشجار الزيتون ، وازدهرت زراعة العنب ، وعنى باستخراج بعض المعادن ولاسيما الفحم الحجرى فى لبنان ، و راجت التجارة واتسع نطاقها ، وكثرت المعاملات بين سورية ومصر والبلاد الاوروبية

وقد كان دخل الولايات السورية أقل من الخرج أى أن غلاتها تقل عن نفقاتها ، وخاصة لما يقتضيه الانفاق على الجيش الموزع على المدن من المال ، فكانت الخزانة المصرية توازن بينهما فتسد عجز الميزانية وتحتمل مصر هذا الغرم فى مالها

كانت الادارة المصرية فى سورية رغم ما بها من عيوب أصلح من الحكم التركى السابق ، وحسب هذه الادارة فضلا أنها أقرت الأمن فى البلاد واستنقذتها من الفوضى

و يكفيك لتتحقق مبلغ تقدم الادارة السورية فى عهد الحكم المصرى أن تقرأ ما كتبه مؤرخو سورية فى هذا الصدد

قال الاستاذ محمد كرد على بك رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق (١) خلال كلامه عن الفتح المصرى

« كان من أول أعمال ابراهيم باشا الجليلة فى بلاد الشام ترتيب المجالس الملكية

---

(١) فى كتابه خطط الشام ج ٣ ص ٥٧

والعسكرية، واقامة مجالس الشورى وغيرها من النظم الحديثة، وترتيب المالية ، فجعل نظام الجباية الخراج ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل ، لا تفاوت فى طبقاتهم ومذاهبهم ، ولذلك لم يلبث الامراء والمشايخ وأرباب النفوذ أن استثقلوا ظل الدولة المصرية ، وتمنوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء ، وينالهم من ذلك مصة الوشل ، مع أن البلاد رأت فى أيام ابراهيم باشا ابطال المصادرات وتقرير حق التملك ، وتوطد الأمن فى ربوعها، واحييت الزراعة والتجارة والصناعة، وعممت تربية دود القز (الحرير) ، واستخرجت بعض المعادن ولاسيما معدن الفحم الحجرى فى قرنايل (لبنان) ، وفرض على لبنان ٦٧٨٢ كيسا يتقاضى الامير ضعفيها و يدخر فى خزانته الخاصة المال الزائد على المفروض

« وأكد كثيرون أن بعمله هذا استعادت أكثر قرى حوران وعجلون وحماة وحمص وغيرها من أعمال الشام عمرانها القديم ، وأخرب بعض القلاع التى كان يعتصم فيها الثائرون أحيانا مثل قلاع جبل الكام وقلعة القدموس ، وقرب العلماء والشعراء ، ورخص للاجانب فى ارسال معتمديهم الى دمشق ، وكانوا يمنعون من دخولها قبله فينزل وكلاؤهم السواحل مثل صيدا وعكا و بيروت وطرابلس، و يقال على الجملة ان الناس حمدوا دولة محمد على فى الشام ولم يتبرموا بها لو لم يقم ابنه ابراهيم عملا بايعاز أبيه بتجنيد الشبان ولو لم يثقل كاهل الاهلين بالضرائب ، وأقل الضرائب الشخصية ١٥ قرشا وأعظمها خمسمائة قرش ، فان هذا مما نفرت منه بعض القلوب ولا سيما من كان يقع عليهم عبء معظمها مثل أهل حلب وأهل دمشق »

وقال الدكتور اسد رستم احد اساتذة التاريخ بجامعة بيروت الامريكية، لمناسبة الكلام عن محمود نامى بك محافظ بيروت فى عهد ابراهيم باشا.

« لما عزم عزيز مصر على ارسال بعض ضباط بحريته الى فرنسا وانجلترا لاتمام علومهم وممارسة الفنون الحربية انتخب حسن افندى الاسكندرانى و شنان افندى والامير محمود نامى وارسلهم الى فرنسا، فتلقى محمود علومه العالية وتخصص فى الرياضيات ، و لما رجع من فرنسا عينه محمد على باشا محافظا على بيروت و ابقاه

فى هذا المنصب سبع سنوات (١٨٣٣ – ١٨٤٠) تنشقت بيروت فى خلالها نسيما منعشا من الغرب المتمدن ، فاستيقظت من سبات العصور الوسطى ، وخطت خطوتها الاولى فى سبيل رقيها الحديث ، وكان محمد على باشا وابنه ابراهيم وعامله الامير محمود نامى لبيرت اول العثمانيين الذين اخذوا الافكار الحديثة فيما يتعلق بالحكومة والادارة ، وهم اول من وضعها موضع الاجراء والتنفيذ ، نعم ان سلطتهم فى بيروت كانت مطلقة ولكنهم احكموا التدبير واحجموا عن الحكم الاستبدادى فشكلوا فى هذه المدينة من سكانها مجالس تباحثوا مع اعضائها فى جميع أعمالهم المتعلقه بالحكومة ، فكان هناك مجلس للمشورة يدعى مجلس شورى بيروت ، وديوان للصحة وآخر للتجارة (١)»

وقال سليمان بك أبو عز الدين أحد أدباء سورية(٢)

«على انه لا يسع المنصف الا الاعتراف بان المبادىء التى شاء محمد على ان يؤسس عليها الادارة والقضاء فى سوريا كانت صحيحة بوجه عام ، لانها كانت ترمى الى تنظيم الاعمال وتوزيع الاختصاص بين هيئات مختلفة ، ومنع الاستبداد بتقييد الحكام وغيرهم من الموظفين بالنصوص القانونية ، وتدريب الأهلين على ادارة شؤونهم المحلية ، غير ان جهل الحكام كيفية تطبيق القوانين وفطرتهم الاستبدادية وعدم وجود مراقبة فعالة على اعمالهم وعدم مراعاة تقاليد البلاد وعاداتها وكثرة الاضطرابات فى البلاد حالت دون بلوغ الغاية التى وضعت تلك القوانين من أجلها ، ولابراهيم باشا فضل خاص فى السنين الاولى بعد الفتح فى ضبط الاحكام وشدة مراقبة الحكام واجراء العدل بين الاهلين ، وقد كان شديد الوطأة على المستخدمين الذين يحيدون عن السبيل القويم ، فعاقب كثيرين منهم بالطرد والضرب والحبس للاعتداء على أهل البلاد أو عدم النزاهة او غير ذلك مما يخرج

(١) مجلة الكلية (التى تصدر عن جامعة بيروت) مجلد ١٣ ص ١٣٠ .
(٢) فى كتابه (ابراهيم باشا فى سوريا)

عن جادة الاستقامة ، فلو استمرت حكومة محمد على فى سوريا ناهجة هذا المنهج القويم الحكيم لملكت قلوب السوريين » (١)

وقال فى موضع آخر « من التغييرات الاجتماعية التى نشأت عن حكم محمد على فى سوريا اطلاق الحرية الدينية، ونشر روح الديموقراطية بالضرب على أيدى الزعماء والمتغلبين ، ونزع السلطة من أيديهم ، وانشاء العلاقة ما بين افراد الشعب وحكامه مباشرة ، وتأليف مجالس مشورة تمثل الشعب بعض التمثيل ولها حق النظر فى الشؤون المحلية بعد ان كان النظر فى جميع الشؤون منوطا بحكام مستبدين » (ص ٣١١)

ثم قال فى موضع آخر « لم تقم حكومة محمد على فى سوريا باعمال علمية وأدبية ذات شأن ، فالمدارس التى انشأتها كانت قليلة العدد والتأثير ، وكانت فى معظم الأوقات مشتغلة بالفتح وتسكين الاضطرابات وإخماد الثورات ومقاومة الدسائس والاعتداءات الداخلية والخارجية ، على أن قيامها فى سوريا مهد السبيل لنهضة علمية أدبية ، لان تنظيماتها استوجبت اختيار المتنورين لادارة الاحكام والقيام بالاعمال القضائية والمالية والكتابية ، وسهلت قدوم الافرنج من مرسلين دينيين وتجار وغيرهم ، فانشئت بواسطتهم المدارس ، كما ان ارسال بعض الشبان لدرس الطب فى القطر المصرى واستخدام بعض السوريين فى حكومة محمد على باشا انشأ صلة أدبية دائمة بين القطرين ، فامتدت تلك الصلة ونتائجها الى وقتنا الحاضر ، وأدخلت حكومة محمد على روحا علمية الى البلاد فى اعمالها ، فانشأت محجرا صحيا فى بيروت ، وبذلت اهتماما يذكر فى الأمور الصحية ، وكانت تجرى فيها حسب مشورة الاطباء كما فعلت فى دمشق بانشاء مصارف للمياه الراكدة ، واستخدام المهندسين فى ذلك وفى الانشاءات التى تحتاج الى معرفة فنية » (٢)

هذا وقد زار المارشال مارمون (الدوق دى راجوز) سورية سنة ١٨٣٤ فاعجب بما رآه من إقرار السكينة والامن فيها ، وكتب فى رحلته يقول

---

(١) كتاب ابراهيم باشا فى سوريا لسليمان بك ابو عز الدين ص ١٣٩

(٢) ص ٣١٥

« اذا بقيت أعمال محمد على و بقى الأمن الذى بسطه فيما فتحه من البلاد كما صار اليه الآن من الاستقرار الذى يدعو الى الاعجاب فان حالة هذه البلاد سيذيع شأنها وستتطور تطورا كبيرا » (١)

و يقول المسيو لويس بلان المؤرخ الفرنسى فى كتابه (تاريخ عشر سنوات)

« اذا أردنا ان نعرف ماأفادته سورية من انتقالها من الحكم التركى الى حكم المصريين فما علينا الا ان نلقى نظرة على سهول انطاكية التى اكتست باشجار الزيتون ، وضواحى بيروت التى كثرت فيها الكروم ، والنشاط الذى انبعث فى حلب و دمشق ، صحيح ان محمد على أظهر جنفاً وقسوة فى حكم سورية ، ولكن فى ظل هذا الاستبداد العارض الذى كان ضرورة ولزاما حيث سادت الفوضى فى تلك البلاد ، قد نالت سورية النظام والعمران » (٢)

الثورات فى الشام

لكن الادارة المصرية فى سورية لم تلبث أن اصطدمت بثورات محلية نشبت فى مختلف الجهات ورزأت مصر بضحايا كثيرة ، وحملتها متاعب وجهودا كبيرة لاخمادها .

فلنتكلم عن أسباب هذه الثورات

وعد ابراهيم باشا السوريين بأن يعفيهم من التجنيد ويخفض الضرائب ولا يكلفهم إلا دفع الاموال الاميرية ، وقد بر بوعده فى السنوات الاولى من حكمه ، فخفف عنهم بعض الاعباء المالية ، وأخذ فى تنشيط الزراعة والتجارة ، فشعر السوريون بالاطمئنان الى الحكم المصرى وركنوا اليه .

ولكن هذه الحالة مالبثت أن تبدلت لما أصدره محمد على باشا إلى ابنه فى

---

(١) رحلة المارشال الدوق دى راجوز ج٣ ص ٢٨

(٢) تاريخ عشر سنوات الجزء الخامس ص ٤٢١

أواخر سنة ١٨٣٣ وأوائل سنة ١٨٣٤ من الأوامر التى أثقلت كاهل الاهلين باعباء فادحة وهى

(أولا) احتكار الحرير فى البلاد السورية

(ثانيا) أخذ ضريبة الرءوس من الرجال كافة على اختلاف مذاهبهم

(ثالثا) تجنيد الاهالى

(رابعا) نزع السلاح من أيديهم

وقد تبرم الاهالى بهذه المحدثات وتذمروا منها ، لان احتكار الحكومة للحرير من شأنه الحاق الضرر بمنتجيه ومنع تنافس التجار على شرائه وحرمان المنتجين مكاسبهم منه

وقد نفروا كذلك من ضريبة الرءوس وخاصة المسلمين لانهم ما كانوا ملزمين بها من قبل ، وزاد فى تذمرهم تسخير الحكومة للأهالى فى الاعمال العامة

وكان التجنيد ونزع السلاح أهم الاسباب المباشرة التى أفضت إلى الثورة ، فقد نفذ التجنيد بطريقة قاسية تثير الخواطر ، وكان كثير من المجندين يرسلون إلى جهات لا يقع إلى أهلهم شىء من أخبارهم فيها ، وجاء نزع السلاح ثالثة الأثافى ، لان معظم الأهالى كانوا يحملون السلاح ليدفعوا به سطوات البدو الرحل وعدوانهم ، فانتزاع السلاح من ايديهم أمر لا تقبله نفوسهم عن طاعة واختيار ، ومن هنا نشأت الثورات والفتن

وقد كان للدسائس التركية والانجليزية عمل كبير فى تحريك تلك الثورات ، فان الترك والانجليز مافتئوا يستفزون السوريين إلى الثورة و يوزعون عليهم الأسلحة ويحرضونهم على القتال ، ويستميلون اليهم روساء العشائر والعصبيات ، تارة بالمال وطوراً بالوعود ، حتى أفلحوا فى تهيئة البلاد للثورة ، كما أن بعض اصلاحات إبراهيم باشا كانت من أسبابها ، فقد مر بك أنه أبطل سلطة الرؤساء الاقطاعيين وضرب على أيدى الاشقياء وقطاع الطرق الذين كانت لهم سطوة كبيرة فى بعض البلاد ، فهؤلاء وأولئك قد ساءهم انتزاع السلطة من أيديهم ، فكانوا مدفوعين بوازع المنافع الشخصية

إلى تحريض الأهلين على الثورة بالحكم المصرى ، قال الدكتور مشاقه فى هذا الصدد خلال كلامه عن نظام الحكم المصرى فى سورية

« هذا النظام وإن يكن عادلا وشريفاً قد كان باعثا قويا على كره الأمراء والمشايخ للمصريين حيث كفّ يدهم وأوقف مطامعهم عند حد لا يمكن اجتيازه ، وأمات استبدادهم بالشعب ، وجعلهم أمام الشريعة سواء لا امتياز ولا فرق بينهم وبين أفراد الرعية ، فحنقوا على الدولة المصرية وودوا إزالتها وارجاع الحكومة التركية (١) »

وقائع الثورة

ثورة فلسطين

وصلت أوامر محمد على بالمحدثات الجديدة إلى ابراهيم باشا وكان فى (يافا) ، فبادر من فوره إلى إذاعتها بين القبائل وفى انحاء البلاد ، فثقلت هذه الأوامر على الناس وطلبوا رفعها ، فلم يجابوا إلى طلبهم ، فظهرت عليهم بوادر الاضطرابات فى فلسطين

ابتدأت الثورة على شواطىء نهر الأردن بالقرب من (بيت المقدس) فى شهر ابريل سنة ١٨٣٤ ، وتواطأت القبائل فى هذه الجهات على ألا يذعنوا لتلك الاوامر ، وفى هذا اعلانٌ للثورة

فلما علم ابراهيم باشا بنبأ هذا العصيان سار بالجيش من يافا إلى بيت المقدس ، وقد كان لمبادرته تأثير كبير أضعف عزيمة الثوار ، وهناك جمع نبهاء القوم وأكابرهم (ابريل سنة ١٨٣٤) فاستوضحهم مقصدهم ، فأجابوه بأنهم لا يعارضون فى احتكار الحكومة للحرير ، لكنهم يعارضون أشد المعارضة فى نزع السلاح وفى تجنيد شبان البلاد فى الجيش ، وأنهم تلقاء ذلك يؤدون الضريبة ضعفين ويقدمون بعض أولاد المشايخ

---

(١) مشهد العيان ص ١٠٣

رهينة لضمان طاعتهم واخلاصهم ، غير أن ابراهيم باشا أبى أن يتهاون فى تنفيذ أوامر أبيه ، فاستمهلوه مدة يراجعون قومهم وعشيرتهم ، وانفض الاجتماع على غير طائل ، وعاد ابراهيم باشا إلى يافا ينتظر الجواب الاخير الذى وعد المجتمعون بابلاغه إياه بعد مشاورة الأهالى ، ولكى ينتظر ورود النجدات والتعليمات من مصر ، وكان انتشار الوباء فى هذه الجهات مما دعاه إلى التعجيل بمغادرة بيت المقدس فآثر البقاء فى يافا إذ لم يكن الوباء وقع فيها

أخذت الثورة تستفحل ، وخاصة لما ذاع بين الاهالى من أن تركيا تتأهب بجيش جديد لاسترجاع الشام من محمد على ، فجنح البدو الضاربون بجوار (البحر الميت) إلى العصيان ، وامتدت الثورة إلى نابلس

قمع العصيان

كان زعماء العصيان فى تلك الجهات حاكم (نابلس) المسمى الشيخ قاسم الاحمد ، وهو من رؤساء العشائر ذوى العصبيات القوية ، وكان منهم زعيم آخر لا يقل عنه نفوذا ومكانة وهو (أبو غوش) صاحب قرية العنب الواقعة بين بيت القدس ويافا

هاجمت جماعة (أبى غوش) المخافر المصرية المعهود اليها تأمين السبل بين يافا وبيت المقدس من سطو قطاع الطرق ، فقفلت الحامية راجعة إلى يافا لقلة عددها إزاء المهاجمين

وكذلك هاجم العصاة حامية (بيت المقدس)، وكانت تبلغ ألف مقاتل ، فقتل منهم خمسون جنديا واضطر القائد إلى الامتناع فى قلعة المدينة حتى يأتيها المدد .

فلما علم ابراهيم باشا بهذه الواقعة أنفذ الايا من الفرسان بقيادة الميرالاى حسن بك لنجدة الحامية وللتنكيل بقبيلة (أبى غوش) ، ولكن النجدة المصرية لم تقو على مقاومة العصاة ، ورجعت مهزومة مضعضعة بعد أن قتل قائدها ونحو ثلاثين من جنودها ، وتكاثر الثوار على القدس واقتحموا باب داود (من أبواب المدينة)

ودخلوا منه ، ووقع قتال شديد بينهم وبين الحامية المحصورة فى القلعة، ونهبوا حوانيت المدينة وبعض بيوت اليهود ، وكذلك هاجم العصاة (الخليل) وقتلوا حاميتها وكان عددها ٢٠٠ جندى

فلما علم ابراهيم باشا باستفحال الثورة جمع جيشا من ستة آلاف جندى وقام على رأس هذا الجيش ، فسار من يافا فى شهر يونيه سنة ١٨٣٤ ، وزحف على معقل العصاة فى قرية (العنب) التى امتنع بها جماعة (أبى غوش) ، وكانت محصنة تحصينا منيعا ، فحاصرها الجيش المصرى واستمر القتال حولها ثلاثة أيام متوالية ، وفى اليوم الثالث دخل المصريون القرية ، فكان سقوطها فى يدهم سببا فى تشتت العصاة ، واحتل المصريون الطرق المفضية إلى (بيت المقدس) ، وفرق الجيش جموع العصاة ودخل المدينة بعد أن فر كثير من أهلها ممن انضموا الى الثوار ، ووقعت ثلاث معارك بين الجيش المصرى والعصاة كان النصر فيها للمصريين

على أن هذا القتال قد حمّل الجيش خسائر جسيمة ومتاعب هائلة ، فتحصن ابراهيم باشا فى بيت المقدس

وفى غضون ذلك عمل على التفريق بين القبائل وضرب بعضها ببعض على الطريقة التى اتبعها فى حرب الحجاز ، وأفلح فى استمالة بعض القبائل فتفككت عراها ، وعقد سليمان باشا الفرنساوى اتفاقا مع أولاد (أبى غوش) تعهدوا فيه أن يؤمنوه على اجتياز معاقلهم وأن يوالوا الحكومة المصرية على أن تطلق سراح أبيهم الذى كان سجينا فى عكا ، وعلى العفو عنهم ، وبذلك أمنت الطريق بين يافا وبيت المقدس

وفى أثناء ذلك عرض الشيخ قاسم حاكم نابلس على ابراهيم باشا أن يقدم طاعته على ان يُعفى النابلسيون من الخدمة العسكرية ، وجرت بينهما فى هذا الصدد مفاوضات ، فلما تم الاتفاق مع جماعة (أبى غوش) واستوثق ابراهيم باشا من ولائهم قطع تلك المفاوضات

حضور محمد على باشا

لما استفحل أمر الثورة اعتزم محمد على باشا المجئ الى فلسطين ليطمئن بنفسه على الموقف وليشرف على حركات القتال التى كان الغرض منها قمع العصيان ، فحضر الى يافا يصحبه عدد كبير من الجند ، وكان ابراهيم باشا وقتئذ فى القدس ، فذهب لاستقباله فى يافا

وكان العصيان قد امتد الى (صفد) فقطع أهلها الطرق ونهبوا اليهود ، فعهد محمد على الى الامير بشير الشهابى حاكم جبل لبنان ، وكان على ولاء تام للحكومة المصرية ، أن يخمد هذا العصيان ، فصدع بالأمر وزحف على (صفد) وحاصرها وسلمت من غير قتال وأعاد العصاة مانهبوه من اليهود

وقد برّ ابراهيم باشا بوعده لآل أبى غوش فأطلق سراح زعيمهم وعين أحد ابنائه متسلما (حاكما) للقدس

اخماد الثورة

وجرد جيشا لمحاربة (الشيخ قاسم) حاكم نابلس ، فدار قتال شديد بينهما انتهى بهزيمة الشيخ قاسم وفراره مع اتباعه الى (الخليل)

وفى غضون ذلك عاد محمد على باشا الى الاسكندرية بعد أن اطمأن من ناحية الجيش المصرى ومركزه ، فوصل الى الاسكندرية فى يوليه سنة ١٨٣٤

احتل الجيش المصرى قرى (نابلس) ، ثم تعقّب الشيخ قاسم ورجاله الاشداء الى (الخليل) ، وتطاحن الفريقان ثلاث ساعات انكسر بعدها الثوار ، فدخل الجيش (الخليل) وانسحب المنهزمون الى (الكرك) و (السلط) ، فتعقبهم ابراهيم باشا الى (الكرك) ولقى جنوده مشقات هائلة فى هذه الحملة لاشتداد القيظ والعطش ، وسقط منهم نحو ثلثمائة مصابين بالرعن (ضربة الشمس) ، واحتل

الجيش المصرى الكرك ، وحمى القتال حول قلعتها التى اعتصم بها الثوار ، وتكبد المصريون خسائر جسيمة فى هجومهم على القلعة وارتدوا عنها قليلا ريثما تبلغهم المدفعية ، فانتهز الثوار هذه الفرصة واخلوا القلعة وانسلوا منها الى (السلط) ، وتقدم ابراهيم باشا الى السلط فسلم أهلها من غير قتال

وفر الشيخ قاسم ومن معه من زعماء العصيان الى البادية ، ونزلوا على عرب عنزة ، ولكن ابراهيم باشا تعقبهم وما زال بهم حتى أخذهم جميعا وقتلهم ، و بذلك تم اخماد الثورة فى فلسطين ، واذعنت القبائل لسطوة ابراهيم باشا وشدة بأسه

اضطرابات أخرى

وقد هاجت الخواطر فى دمشق لما اوقع التجنيد من الحزن فى نفوس أهالى المجندين ، وفر عدد كبير من الناس الى البادية والى الجبال ، وخشى شريف باشا والى ايالات الشام ان يعم الهياج ، وخاصة بعد ورود انباء ثورة فلسطين ، فكف عن التجنيد ، لكنه جمع السلاح من ايدى الاهالى

وكذلك وقعت اضطرابات فى طرابلس (سنة ١٨٣٤) وائتمر الاهلون بالحامية ، فاضطرت ان تنسحب الى الميناء ، فأرسل ابراهيم باشا المدد الى طرابلس ، وعاقب مثيرى الفتنة باعدام ثلاثة عشر منهم ، وثارت الفتن فى (عكار) و (صافيتا) و (الحصن) ، فأخمدتها القوة المسلحة ، ووقعت كذلك اضطرابات أقل شأنا منها فى (حلب) و (انطاكية) و بعلبك و بيروت

ثورة النصيرية

وشبت الثورة فى بلاد (النصيرية) شرقى اللاذقية فى اكتوبر سنة ١٨٣٤ ، وكانت أهم ثورة بعد ثورة فلسطين ، وهاجم الثوار (اللاذقية) فأمدها ابراهيم باشا وزحفت قواته على بلاد (النصيرية) ونشبت معارك عدة بينها و بين الثوار انتهت

بانتصار الجيش المصرى ونزع السلاح من أيدى الثوار وتجنيد نحو أربعة آلاف من أهل تلك البلاد

وقد نفذ ابراهيم باشا قاعدة نزع السلاح والتجنيد فى البلاد التى اخمد الثورة فيها، واستتب الأمن فى ربوعها ، وكان اللبنانيون يعاونون الجيش المصرى فى اخماد تلك الثورات ، فترك لهم سلاحهم الى سنة ١٨٣٥ ثم عمد الى تجريدهم منه ، وبدأ بالدروز وخادع المسيحيين أنه لا يريد نزع اسلحتهم ، فعاونوه على تجريد الدروز ، وبعد أن تم له ذلك عاد الى اولئك فجردهم من سلاحهم ، واستتبت السكينة فى سورية ولبنان ، فعمدت الحكومة الى تجنيد الاهالى من البلاد كافة ، وترتب على ذلك فرار الكثير من الشبان الى البادية مما أضر بالحالة الاقتصادية ضررا بليغا

ثورة حوران

كان ابراهيم باشا قد اعفى دروز حوران من التجنيد ، ثم تراءى له أن يطبق عليهم نظام التجنيد ، وحجته انه فى حاجة الى زيادة عدد الجيش استعدادا لمقاومة هجوم العثمانيين الذى جاءت الاخبار بقرب وقوعه

فتمرد الدروز على طلب حكومة دمشق ، وكان من ذلك نشوب ثورة خطيرة فى حوران (نوفمبر سنة ١٨٣٧) ، وهى أشد ثورة عاناها الحكم المصرى فى سورية

أنفذ ابراهيم باشا ثلاث حملات لكفاح تلك الثورة واخمادها ، فالحملة الاولى الفها من ٤٥٠ من فرسان الهوارة(١) ، ففازت فى بدء القتال على الثوار فى (بصرى) ولكن الثوار استدرجوها الى الجهات الجبلية الوعرة فى بلاد اللجاة(٢) وامر قائد الحملة بالزحف عليها ، حتى اذا بلغ الوعر وانحصر فيه ، انقض عليه الدروز ، فدارت

---

(١) احصاء الدكتور مشاقه فى كتابه مشهد العيان ص ١١٦

(٢) على حدود حوران جنوبى دمشق بشرق

بين الفريقين معركة بطش فيها الدروز بالحملة المصرية، فقتل قائدها وبادت الحملة قتلا وأسرا وتشريدا

ولما بلغ ابراهيم باشا نبأ هذه الواقعة وكان فى (انطاكية) أجمع لحملة جديدة يقودها بنفسه ، لكنه علم باحتمال تقدم الترك نحو الحدود الشمالية ، فاضطر الى البقاء فى (حلب) وأرسل الى أبيه يستمده ويطلب منه أن ينفذ اليه احمد باشا المنكلى وزير الحربية المصرية لقيادة الحملة ، فجاء هذا على جناح السرعة ، وقاد الحملة الجديدة وكان فيها ٦٠٠٠(١) مقاتل ، وزحف على بلاد حوران ، فأخذ الثوار يستدرجونها كما استدرجوا الحملة الاولى من قبل ، الى ان أوغلت فى الجهات الوعرة ، فقاتلها الثوار فى معركة انتهت بهزيمة الحملة ، وخسرت من رجالها نحو اربعة آلاف بين قتيل وجريح ، وجرح قائدها احمد باشا المنكلى جراحا بالغة

تصدعت هيبة الجيش المصرى بانتصارات الدروز ، واستشرت الثورة من حوران الى (وادى التيم) فثار الدروز فيها بقيادة (شبلى العريان) وقطعوا مواصلات الجيش

وجهز ابراهيم باشا حملة ثالثة من عشرين الف مقاتل أطبق بها على ثوار حوران ووادى التيم

ونشبت الحرب وكانت سجالا ، الى أن انتهت بتسليم دروز (وادى التيم) ، ثم تسليم شبلى العريان ، وانحصار الثورة فى (اللجاة) ثم انتهت باخماد ثورة اللجاة (اغسطس سنة ١٨٣٨)

وبذلك انتهت ثورة الدروز بعد أن استمرت تسعة أشهر تكبد فيها الجيش المصرى خسائر فادحة ، ولقى فيها من الاهوال مالم يلقه فى اخماد الثورات السورية الأخرى

وغنى عن البيان انه كان فى امكان مصر أن تتفادى هذه التضحيات الأليمة

---

(١) احصاء مشاقه ص١١٧

والخسائر الفادحة لو لم يتشدد محمد على باشا فى تجنيد السوريين ونزع اسلحتهم ، إذ لم يكن من الحكمة ولا من حسن السياسة أن تبادر دولة فاتحة الى تجنيد الاهالى فى بلاد حديثة عهد بفتحها ولمّا يستقر بعدُ حكمها فيها ، وخاصة اذا كان أهلها قد اعتادوا من قديم الزمن حمل اسلحتهم ولم يألفوا نظام التجنيد الاجبارى ، ولو أن محمد على جرى على الهُوَيْنا فى كلا الأمرين وترك للزمن تحقيقهما تدريجا لما استهدف الجيش المصرى لهذه الثورات التى أودت بحياة عشرة آلاف مقاتل ونيف ، وذلك أكثر من العدد الذى استطاع تجنيده من السوريين ، وأكثر مما خسرته مصر فى المعارك الحربية بسورية والاناضول ، هذا فضلا عن أن اخماد الثورات بالقوة والجبروت قد أوغر صدور السوريين على الحكم المصرى ، فبعد أن استقبلوه فى بدء الفتح بقبول حسن وفضلوه على الحكم التركى جنحوا بعد ذلك الى قديمهم ولقيت الدعاية التركية بينهم مرعى ومأوى

على أنه يجب ألا يغرب عن البال ما كان للدسائس الانجليزية والتركية من الأثر الكبير فى تحريض السوريين على الثورة كما قدمنا ، ولكن مما لانزاع فيه ان هذه الدسائس ما كانت لتفلح لو لم تلجأ الحكومة المصرية الى اثارة الخواطر بنزع سلاح الأهلين وتجنيدهم جبرا ، ومن جهة اخرى فان الحكومة المصرية رغبةً منها فى منع ورود الاسلحة الى البلاد أمرت بمنع دخول السفن التركية الى الثغور السورية وصدت ورود القوافل من جهات الاناضول ، فأصاب التجارة من هذه وتلك ضرر كبير ، وقد كان للدسائس الانجليزية وسوء الحالة الاقتصادية فى أواخر عهد الادارة المصرية أثر كبير فى الحرب السورية التى شبت بين مصر وتركيا وحلفائها عقب ابرام معاهدة لوندره فان الجيش المصرى قد لقى فيها من مقاومة السوريين مازاد مركزه حرجا كما سيجىء بيانه

الحرب السورية الثانية

وواقعة نصيبين (٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩)

مافتئت تركيا بعد هزيمتها فى معركة (قونيه) وابرامها اتفاق (كوتاهيه) تعد المعدات وتبذل الوسائل لاسترجاع سورية واقليم ادنه الى حوزتها ، فحشدت منذ سنة ١٨٣٤ جيشا فى (سيواس) تأهبا للزحف على سورية عند سنوح الفرصة، وعهدت بقيادته الى رشيد باشا قائد الجيش العثمانى الذى أسر فى واقعة قونيه ، فأخذ يستعد للزحف آملا أن يظفر بالجيش المصرى فيمحو مالحقه من العار والهزيمة فى واقعة (قونيه)

فتصميم تركيا على القتال واعتزامها استرجاع سورية بدأ عقب هزيمتها فى (قونيه) ، ولم يؤخرها عن امتشاق الحسام حتى سنة ١٨٣٩ الا شعورها بأنها أضعف جنداً من مصر ، فأخذت تتحين الفرصة المناسبة للثأر، على انها ما فتئت طول هذه المدة تدس الدسائس لمصر فى سورية وتحرض أهلها على الثورات وخلع ايديهم من الطاعة .

ثم توفى رشيد باشا سنة ١٨٣٦ ، فخلفه فى قيادة الجيش العثمانى محمد حافظ باشا أحد قواد تركيا المشهورين فى ذلك العصر

وفى خلال ذلك حدثت مفاوضات بين تركيا ومصر لتسوية الخلاف بينهما بطريقة ودية ، فأوفد السلطان محمود سنة ١٨٣٧ مندوبه (صارم افندى) ليفاوض فى ذلك محمد على ، لكن هذه المفاوضة اخفقت إذ لم يتفق الطرفان على شروط يقبلانها

محمد على واعلان الاستقلال

ولما اخفقت تلك المفاوضات ورأى محمد على دسائس الاستانة تزداد فى

سورية اعتزم إعلان الاستقلال ليقطع آخر سبب يربط مصر بتركيا، واستدعى وكلاء الدول فى مصر و اعلنهم بعزمه هذا (مايو سنة ١٨٣٨)

وهذه هى المرة الثانية التى اعتزم فيها محمد على اعلان الاستقلال ، فالمرة الاولى سنة ١٨٣٤ عقب الحرب السورية الاولى إذ صارح وكلاء الدول بما صمم عليه ، فرفضت الدول طلبه، وحذرته من العاقبة (١) ، ثم جدد عزمه سنة ١٨٣٨ (٢) معتمدا على حق مصر ، ولان استقلالها هو خير ضمانة لاستتباب السلام فى الشرق

وكان محمد على يعتقد أن الدول لا تعارضه فى اعلان الاستقلال أسوة بما فعلته حيال اليونان ، إذ عضدتها فى تحقيق استقلالها وانفصالها عن تركيا وتأييدها فى مطالبها القومية ، ولكن الدول الاوروبية تنظر الى مصر بغير العين التى تنظر بها الى اليونان ، فاعترضت على ماعزم عليه محمد على وحذرته من جديد عواقب عمله ، و بدا تحيزها لتركيا جليًا ، وظهر تحاملها على مصر مما جرأ السلطان محمود على التحرش بمحمد على ، فأدى ذلك الى وقوع الحرب السورية الثانية

مقدمات الحرب السورية الثانية

كان سفير انجلترا فى الاستانة (اللورد بونسونبى) يحرض الباب العالى على التشدد فى شروطه ، مما ادى الى اخفاق المفاوضة ، وكانت انجلترا لا تفتأ تضع العراقيل أمام سياسة محمد على وتؤلب تركيا والدول الاوروبية على مصر

فمن ذلك انها توصلت فى سنة ١٨٣٨ الى عقد معاهدة تجارية مع تركيا من شروطها الغاء الاحتكار فى جميع انحاء السلطنة العثمانية ، وكان المفهوم ان هذه المعاهدة تسرى على مصر لانها كانت الى ذلك الحين جزءا من السلطنة ، وقد وافقت فرنسا على هذه المعاهدة (نوفمبر سنة ١٨٣٨) لأن ظاهرها يوافق المبادئ الانسانية ، ولم يكن من سبيل الى رفض مثل هذه المعاهدة

---

(١) و (٢) كادلفين وبارو . سنتان من تاريخ الشرق ج ١ ص ٢٢ و ٤٦

وقد فطن محمد على باشا الى ان المقصود من وضعها هو احراجه ، فلم يعلن اعتراضه عليها ولا قبوله إياها ، وتغيب عن مصر ذاهبا الى السودان فى رحلة طويلة ، واظهر انه ماض للبحث عن مناجم الذهب فى فازوغلى وتنظيم حكومة السودان ، ولكنه كان يقصد الغياب حتى لا يواجه طلبات وكلاء الدول

وكانت تركيا تزداد تحفزاً لتجريد جيشها على سورية ، ولم يكن غرضها استرجاع سورية فحسب ، بل كانت ترمى اذا ماظفرت بالجيش المصرى أن تستمر فى زحفها حتى تغزو مصر ، وأخذت حركات الجيش العثمانى تزداد نشاطا بالقرب من التخوم السورية

وفى غضون ذلك بذلت الدول الأوروبية مساعى عدة لحل الخلاف بالطرق الودية بين الدولتين (مصر وتركيا) ، فأخفقت فى مساعيها لأن انجلترا كانت من وراء تركيا تحرضها على القتال

خطة الترك فى الزحف على الشام

حصّن المصريون مضيق (كولك) من مضايق جبال (طوروس) تحصينا منيعا ، إذ هو طريق الزحف على سورية من ناحية الأناضول ، فشيدوا فيه القلاع المحكمة ، وركبوا فيها المدافع الضخمة على الأساليب الهندسية الحديثة ، وبلغ عدد المدافع التى ركبها المصريون فى قلاع المضيق ونواحيه ١١٥ مدفعا(١)

وبلغت الحاميات المصرية فى ولاية ادنة عشرة آلاف مقاتل ، واصبحت مواقع المصريين من المناعة بحيث صار من المتعذر أن يهاجمها الجيش التركى ، فاعتزم قائده حافظ باشا أن يدع اجتياز هذه المضايق ويزحف على الشام من جهات (اورفه) وديار بكر حيث لا تفصلها عن الشام جبال وعرة كجبال طوروس

فلما علم ابراهيم باشا بهذه الخطة حشد معظم جنوده حول مدينة (حلب) ليرقب

(١) احصاء المسيو اوديفير فى مباحثه عن (الحكم المصرى فى بلاد القرمان) التى نشرت بمجلة الشرق الفرنسية سنة ١٨٦٨ ص ٥٩٠

حركات الجيش التركى ويصد هجماته من كل طريق يجئ منه ، وكانت طلائعه ترابط فى عينتاب وكليس القريبة من الحدود التركية

عبور الترك نهر الفرات

ولما أتم حافظ باشا استعداده اعتزم عبور الفرات ليزحف على الشام ، فعهد الى اسماعيل باشا أحد قواده اجتياز هذا النهر عندبيرة جك(١) الىعدوته اليمنى ، فانتقل اسماعيل باشا الى الشاطئ الأيمن يوم ٢١ ابريل سنة ١٨٣٩ ، ووصل هذا النبأ الى ابراهيم باشا ، فأرسل الى والده بمصر يسأله ماذا يكون موقفه اذا هاجمه الاتراك كما تدل الدلائل ، وأخذ فىالوقت نفسه يحشد الجنود فىحلب ويزيد موقفه مناعة فى المدينة وما حولها ، وأرسل الطلائع من العربان لاكتشاف حركات الجيش التركى

ارسال محمد على المدد الى الشام

وكان محمد على قد بلغه تقدم الجنود التركية نحو الحدود ، فعلم أنها الحربُ لامحالة،وأمر بجمع الجند وانفاذهم الىالشام ومعهم الذخائر ، وعهد الى وزير الحربية احمد باشا المنكلى أن يلحق بابراهيم باشا ليعاونه فى الحرب المنتظرة ، فكان سفر المنكلى باشا اعلانا بقرب وقوع القتال ، وقد علم وكلاء الدول بعزم المنكلى باشا على السفر ، فتدخل قنصل فرنسا العام(٢) لدى محمد على لوقف سفر وزير الحربية حتى لاتستعر نار الحرب ثانية بين تركيا ومصر ، فطلب اليه محمد على أن تعطيه الدول،وثقا ألا يزحف الجيش التركىعلى الشام،وفىمقابل ذلك يمنع سفروزيرحربيته بل ويستقدم ابراهيم باشا أيضا ، فضمن له القنصل الفرنسى ذلك ، وارتكن على

---

(١) وتسمى البيرة، وهي واقعة على الضفة اليسرى لنهر الفرات

(٢) المسيو كوشليه

خطاب بهذا المعنى جاءه من سفير فرنسا بالاستانة ، وكان الحديث بحضور قنصل النمسا، فالتفت اليه محمد على وسأله أتؤيد الرسائل الواردة له من السفير النمسوى ما يقوله قنصل فرنسا ؟ فأجاب بالنفى ، فلم يسع محمد على إلا أن صارح القنصلين بانه إزاء هذا التضارب يرى من واجبه أن يتخذ وسائل الأهبة والاحتياط، وانفذ من فوره وزير الحربية الى حلب فوصل اليها بعد تسعة أيام من مغادرته مصر ، وكانت الحرب قاب قوسين أو ادنى

حركات الجيش التركى قبيل واقعة نصيبين

احتشدت طلائع الجيش التركى فى قرية (نصيبين) وحولها ، وهى بلدة واقعة فى الاراضى العثمانية لكنها على مسيرة ساعات قليلة من الحدود التركية السورية(١)

وأخذ حافظ باشا يستعد للزحف ، فاحتلت طلائعه من القرى ما حول مدينة (عينتاب) واجتازت سرية من الجيش التركى نهر الساجور (٢) وهو الحد الفاصل بين سوريا وتركيا ، فتخطت بذلك الحدود المرسومة فى اتفاق (كوتاهيه)، وتقدمت القوات التركية فاحتلت قرية (تل باشر) بعد أن قتلوا وأسروا فريقا من حاميتها التى كانت مؤلفة من خمسمائة من عرب الهنادى

وفى غضون ذلك كان ابراهيم باشا قد أرسل الى أبيه نبأ تخطى الاتراك حدود اتفاق (كوتاهيه) وسأله مايأمر به حيال هذا الاعتداء ولم ينتظر ورود جواب ابيه ، بل قام بجيشه من حلب لاجبار الاتراك على اخلاء (تل باشر) ، ولكن هؤلاء اخلوا البلدة اثر وصول الجنود المصرية (٣ يونيه سنة ١٨٣٩) ، ثم احتل

---

(١) تقع قرية نصيبين على الطريق الواصل بين بيره جك والاسكندرونة ، وموقعها غربي بيره جك القائمة على الضفة اليسرى لنهر الفرات ، وهى غير (نصيبين) التى بالجزيرة

(٢) نهر الساجور ينبع بالقرب من عينتاب ويمر بها ويصب فى الفرات، وهو الحد الفاصل بين املاك مصر وتركيا (انظر موقعه على الخريطة الملحقه بهذا الفصل)

الترك مدينة (عينتاب) واخلتها الحامية المصرية

وفى منتصف يونيه ورد جواب محمد على باشا يعهد الى ابنه بألا يكتفى بارجاع الاتراك الى الحدود ، بل عليه حربهم وسحق جيشهم ماداموا لم يراعوا العهود والمواثيق ، فلما تلا ابراهيم باشا الجواب اطمأن اليه فأصدر أوامره الى قواده بالاستعداد لمهاجمة الجيش التركى الذى احتشد فى (نصيبين)

قوات الطرفين

كان الجيش التركى يتألف من ٣٨ الف مقاتل ويحتل مواقع حصينة ، ولم يكن ينقصه القواد الأكفاء لان فريقا من الضباط الألمان وعلى رأسهم القائد الشهير البارون (دى مولتك) الذى انتصر فيما بعد على الفرنسيين فى الحرب السبعينية كانوا يرافقون القواد الترك ، وهم الذين تولوا تحصين نصيبين حتى جعلوها من أمنع المواقع الحربية ، ولو أن الامر ترك كله للقواد الالمان لكان الحظ فى معركة نصيبين متراوحا بين الجيش المصرى والتركى ، ولكن القواد الاتراك وعلى رأسهم حافظ باشا لم يعملوا بنصائح (دى مولتك) وزملائه أثناء القتال ، فدارت الدائرة على الجيش التركى

اما الجيش المصرى فكان عدده أربعين الف مقاتل (١) ، فالجيشان كانا متقاربين من جهة العدد، لكن الجيش المصرى كان يفوق جيش الترك فى النظام وبراعة القيادة ، ودربة جنوده، ومرانهم على القتال، وثقتهم بانفسهم وبقوادهم الذين خاضوا واياهم المعارك ورفعوا معا علم النصر من قبل ، فكان لهذه الميزة تأثير معنوى كبير فى نفوس الجنود ، هذا فضلا عن أن الجيش المصرى كان مؤلفا من جنس واحد وهم المصريون ، أما الجيش التركى فكان أخلاطا من الأتراك والاكراد وسائر عناصر السلطنة العثمانية

---

(١) احصاء كادلفين وبارو فى كتابهما (سنتان من تاريخ الشرق) ج ١ ص ٢٥٩

واقعة نصيبين

(٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩)

اعتزم ابراهيم باشا ان يتبع خطة الهجوم فى واقعة (نصيبين) ، فحشد الجيش مشاة وركباناً على ضفاف نهر (الساجور) الذى كان يفصل الحدود المصرية والتركية وتحرك يوم ٢٠ يونيه سنة ١٨٣٩ صوب قرية (مزار) ليتخذها قاعدة للهجوم وتقع هذه القرية جنوبى (نصيبين) بغرب ، وهى على ساعتين من معسكر الجيش التركى (انظر خريطة الواقعة ص ٣٠٤)

لم يلق المصريون مقاومة تذكر فى احتلال (مزار) فقد أخلتها الحامية التركية وانسحبت منها الى معسكر الجيش فى نصيبين ، ورتب ابراهيم باشا مواقع جيشه فى ضواحى (مزار) بالعدوة اليسرى من النهر المسمى باسمها

وفى اليوم التالى (٢١ يونيه) استقر رأى ابراهيم باشا على اكتشاف مواقع الاتراك أولا لمعرفة الجهة الضعيفة فيهاجمهم فيها ، فسار يصحبه سليمان باشا لارتياد هذا الاكتشاف ومعهما قوة مؤلفة من الف وخمسمائة من العرب وأربعة ألايات من الفرسان وبطاريتان من المدافع[1] ، واقتربوا من مواقع الاتراك ، فأنفذت القيادة التركية بعض كتائب من الفرسان النظاميين ومن الجنود غير النظامية (الباشبوزق) فاشتبكوا مع طلائع الجيش المصرى فى مناوشة ارتدوا على أثرها الى مواقعهم ، وتعقبهم المصريون ، فأمكنهم اكتشاف التحصينات المنيعة التى أقامها الاتراك أمام (نصيبين) ، فأدرك ابراهيم باشا انه يتعذر بل يستحيل على الجيش المصرى أن يستولى على معسكر الجيش التركى مواجهةً ، وعاد يجهد الفكر فى الخطة التى تكفل له الفوز على خصمه ، فرأى أن خير وسيلة يتبعها هى الدوران حول مواقع الترك ليهاجمهم من الخلف

---

(١) احصاء كادلفين وبارو فى كتابهما (سنتان من تاريخ الشرق) ج ١ ص ٢٤٧

وغداةَ هذا اليوم (**٢٢** يونيه) شرع ابراهيم باشا ينفذ هذه الخطة وأخذ ينسحب من مواقعه الأولى استعداداً لحركة الالتفاف

أما حافظ باشا فقد جمع مجلسا حربيا ليقرر الخطة الواجب اتباعها حيال هذه المناورة ، فكان رأى البارون (دى مولتك) وزملائه الألمان أن يهاجموا المصريين أثناء حركة الالتفاف وقبل أن ترسخ قدمهم فى المواقع الجديدة ، لكن حافظ باشا وزملاءه الاتراك لم يقبلوا هذا الرأى السديد، وأبوا أن يغادروا مواقعهم واستحكاماتهم المنيعة ويغامروا بقواتهم فى مهاجمة الجيش المصرى فى العراء وفى سهل مكشوف خال من الاستحكامات التى تحميهم ، واستقر رأيهم على البقاء فى معاقلهم بنصيبين

أنفذ ابراهيم باشا حركة الالتفاف ، فترك مواقعه الاولى، وسار مشرقا محاذيا نهر مزار ثم نهر كرزين [1] بعد أن يلتقى هو ونهر مزار ، ثم انعطف شمالا حتى بلغ الطريق الموصل من حلب الى بيره جك والمفضى الى ماوراء مواقع العدو فى نصيبين ، فسار فى ذلك الطريق إلى أن بلغ قنطرة (هركون) القائمة على نهر كرزين وأمر الجيش بعبور النهر على هذه القنطرة ، ولو أن حافظ باشا فكر فى مفاجأة الجيش المصرى أثناء هذا العبور حيث كانت قواته موزعة على جانبى النهر لكان محتملا أن تتغير مصائر الواقعة ، لكن القيادة التركية كانت فى غفلة من الجمود وعدم الكفاية ، فتركت هذه الفرصة تفلت من يدها ، وعبر الجيش المصرى باجمعه نهر (كرزين) ليلاً واحتشد على الضفة اليسرى خلف معسكر الجيش التركى ، وبذلك واجهه من الجهة الضعيفة ، فاضطر حافظ باشا أن يدير وجه جيشه ليواجه الجيش المصرى فى مواقعه الجديدة وأقام استحكامات على عجل بدلا من الاستحكامات القديمة التى كانت أمام وجهته القديمة ولم يعد لها عمل بعد أن تغير موقف الجيشين، وانقضى يوم ٢٣ يونيه والجيشان يتأهبان للقتال

---

(١) نهر كرزين هو نهير يصب فى الفرات وتقع نصيبين على ضفته اليسرى

وفى ليلة ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ هاجم حافظ باشا المصريين فى جنح الليل آملا أن يأخذهم على غرة ويوقع الفشل فى صفوفهم، ولكنه ارتد بعد أن فتكت نيران المدافع المصرية بعدد كبير من جنوده ، واستمر ابراهيم باشا تلك الليلة يتأهب لمهاجمة الاتراك فى صبيحة الغد .

الواقعة

فى صبيحة ذلك اليوم ، ٢٤ يونيه ، بدأت المعركة طبقا لخطة الهجوم التى رسمها ابراهيم باشا ، وكان الجناح الايمن للجيش التركى يرتكز على أخوار عميقة لاسبيل الى اجتيازها ، والقلب تحميه الاستحكامات التى أقامها الترك ، أما الجناح الايسر فكان يمتد الى نصيبين ويتجاوزها قليلا مرتكزاً إلى غابة من أشجار الزيتون ، فرأى ابراهيم باشا أن نقطة الضعف إنما هى فى هذه الناحية ، فقرر مهاجمة الجناح الايسر ، وأمر بتقدم الصفوف المصرية لانفاذ هذه الخطة

كان فى هذه الحركة خطر كبير على الجيش المصرى ، إذ لم يكن له من سبيل إلى مهاجمة الجيش التركى من هذه الناحية إلا اذا سار امام جناحه الايمن، ثم امام القلب ، وبذلك تتلقفه نيران الترك اثناء مسيره ، ولكن القيادة التركية لم تغتنم هذه الفرصة وبقى حافظ باشا غارًّا فى معاقله لايبدى حراكا ، وصمم على ان يدخر قوته إلى أن يهاجمه المصريون ، وترك الجيش المصرى ينتقل إلى مواقعه الجديدة ، ولقد رتب ابراهيم باشا خطة الانتقال والهجوم باحكام ودقة وفطنة استدعت اعجاب الضباط الاوروبيين الذين كانوا فى معسكر الجيش التركى ، فقد شهدوا بأن حركات الجيش المصرى كانت تسير طبقا لخطط الجيوش الاوروبية المدربة على أرقى فنون القتال العلمية

ومما دل على براعة ابراهيم باشا فى وضع الخطط الحربية أنه رأى أكمة عالية (نمرة ٢٢ على الخريطة ص ٣٠٤) تجاه ميسرة الاتراك وقد أهملوا احتلالها ، فأمر

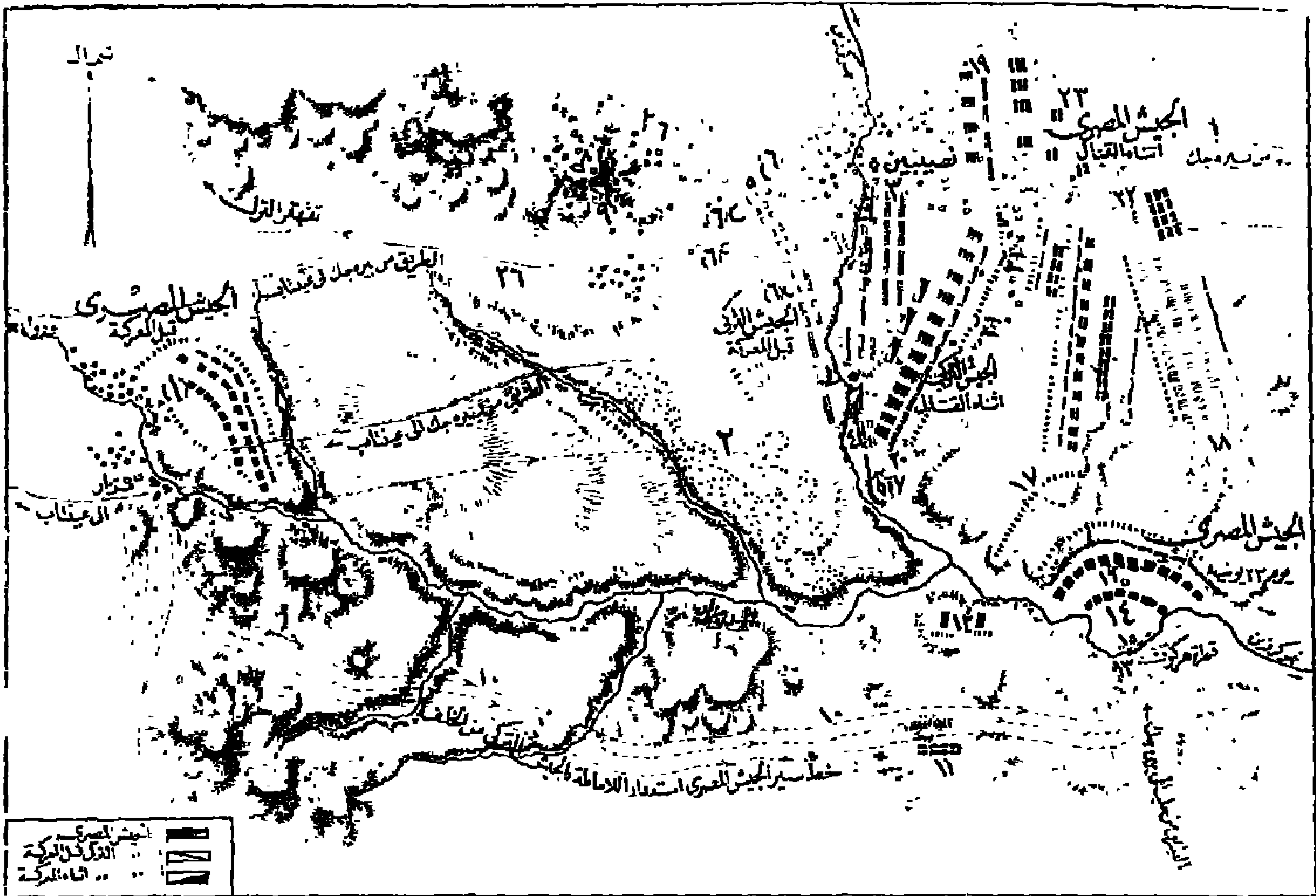
لفوره سليمان باشا الفرنساوى الذى كان على ميمنة الجيش المصرى باحتلال تلك الاكمة ، فبادرها ومعه فريق من الفرسان والمدفعية ونصبوا عليها المدافع ، فانكشفت أمام نيرانها مواقع الترك ، وكانت هذه الحركة مفتاح النصر فى واقعة نصيبين

وقد تنبه الترك إلى خطئهم فى اهمال تلك الاكمة ، وحاولوا أن يحتلوها ، ورماها حافظ باشا بقوة من فرسانه لاقصاء المصريين عنها ، لكنهم عجزوا عن مقابلة النيران التى سلطها عليهم حماة الاكمة وأبطالها ، فارتدوا عنها إلى مواقعهم الاولى

ولما اكتمل الجيش المصرى تجاه الجناح الايسر أمر ابراهيم باشا باطلاق المدافع على ميسرة الاتراك والهجوم عليهم ، فتلقى الترك الهجوم بثبات وشجاعة ، واشتد الضرب بالمدافع والبنادق بين الفريقين ، واستمر نحو ساعة ونصف حمى فيها وطيس القتال واستحرت ناره

وفى أثناء ذلك فرغت ذخيرة الجيش المصرى ، فانتظر جنود المدفعية وهدءوا ريثما ترد اليهم الذخيرة ، بينما كان الترك يصبون عليهم ناراً حامية ، فتقلقل المشاة من الجناح الايمن المصرى ، وارتدوا إلى الوراء ، فصدر الامر إلى الفرسان بالهجوم ، فأقدموا لكنهم اضطروا إلى الارتداد أمام رصاص الترك ، وتقهقروا هم والمشاة ، ولكن ابراهيم باشا تمكن بعد جهد شديد من وقف تيار التقهقر

وفى غضون ذلك وردت الذخائر للمدفعية ، فصبت نيرانها على الترك ، واشترك المشاة والفرسان والمدفعية فى الضرب إلى أن تزلزلت صفوف الجيش التركى والتوت أمام هجمات المصريين ، وظهر الضعف فى اطلاق مدافعهم ، فأخذ الاكراد يفرون متقهقرين ، فشدد ابراهيم باشا الهجوم على الميسرة ، فلم يقو الترك على صد هذا الهجوم ، ولجأوا إلى الفرار تاركين بنادقهم وذخيرتهم ، فاحتل الجيش المصرى مواقعهم ، وغنم جميع مدافعهم وذخائرهم وخيامهم وكل ما فيها من العتاد والميرة إذ لم يتمكن الترك من حمل شىء منها أثناء هزيمتهم ، حتى ان حافظ باشا ترك خيمته المزخرفة وفيها أوراقه وأوسمته ؛ فكانت معركة نصيبين نصراً مبيناً للجيش المصرى .



خريطة واقعة نصيبين (٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩) وفيها البيانات الآتية

١ موقع الجيش المصرى يومى ٢٠ و٢١ يونيه (على نهر مزار)

٢ حركة الاستطلاع التى قام بها ابراهيم باشا لاكتشاف مواقع الترك يوم ٢١ يونيه

٣-٤-٥ موقع الجيش التركى قبل المعركة (على شكل مثلث)

٦ استحكامات لحماية وجهة الجيش التركى

٧ استحكامات لحماية ميسرة الجيش التركى

٨ آلاى من المشاة الترك فى اكمة محصنة تحمى الجناح الايمن

٩ بطارية من المدافع تحمى الاكمة المذكورة

١٠ خط سير الجيش المصرى يوم ٢٢ يونيه وانتقاله من موقعه الاول على نهر مزار الى موقعه الاخير استعدادا للاحاطة بالجيش التركى من الخلف

١١ الايان من المشاة لمصريين احتشدا على يمين الجيش المصرى ومعها بطاريتان مع المدافع لحمايته أثناء انتقاله الى موقعه الجديد

١٢ الايان من المشاة والفرسان المصريين احتشدا على يسار الجيش للغرض المتقدم

١٣ قنطرة هركون التى عبر عليها الجيش المصرى نهر كرزين

١٤ موقع الجيش المصرى يوم ٢٣ يونيه على الضفة اليسرى لنهر كرزين بعد اجتيازه قنطرة هركون

١٥ خيمة ابراهيم باشا القائد العام للجيش المصرى

١٦ خيمة سليمان باشا الفرنساوى

١٧ موقع المدافع التركية ليلة ٢٤ يونيه بعد عبور الجيش المصرى نهر كرزين

١٨ خط سير الجيش المصرى يوم ٢٤ يونيه للاحاطة بالجيش التركى

١٩ــ٢٠ موقع الجيش التركى عند بدء القتال بعد ان ادار وجهه الى الخلف استعداداً لملاقاة الجيش المصرى فى موقعه الجديد

٢١ استحكامات اقامها الترك أمام وجهة جيشهم

٢٢ الاكمة التى قصد اليها المصريون للتسلط على مواقع الترك ونصبوا فيها المدافع الثقيلة

٢٣ الايان من المشاة المصريين وأربعة الايات من الفرسان واربع بطاريات من المدافع الخفيفة فى أقصى الميمنة لحماية هجوم الجناح الايمن على مواقع الترك

٢٤ــ٢٥ موقع الاحتياطى المصرى من المشاة والمدفعية الذين احتلوا الآكام اثناء تقهقر الترك

٢٦ اتجاه تقهقر الترك

نتائج الواقعة

بلغت خسائر الترك فى معركة نصيبين نحو أربعة آلاف بين قتيل وجريح ، وكان من قتلاهم بعض القواد والضباط ، وأسر منهم بين اثنى عشر الف إلى خمسة عشر الف أسير ، واستولى المصريون على نحو عشرين الف بندقية و٤٤ مدفعا، واستولوا فى اليوم التالى على ٣٠ مدفعا فى حصن (بيره‌جك) وكذلك استولوا على خزانة الجيش التى لم يتمكن الترك من أخذها عند الهزيمة ، وكان بها من النقد ماقيمته ستة ملايين فرنك

أما الجيش المصرى فقد بلغت خسائره نحو أربعة آلاف بين قتيل وجريح، وهى خسارة عظيمة ولكنها كانت فداءً للنصر المبين الذى نالته مصر فى هذه الواقعة

قضت هذه الواقعة على قوة تركيا الحربية ، وأنقذت مصر من الخطر الذى كان يتهددها من ناحية تركيا ، وكان فيها اكبر انتصار حازه الجيش المصرى فى حروبه مع تركيا ، وهى أعظم الوقائع التى خاض غمارها من جهة أهميتها الحربية ونتائجها السياسية ، أما من الوجهة الحربية فقد رأيت أنها تفوق المعارك الاخرى فى عظم الجهود والخسائر التى بذلت فيها ، وأما من الوجهة السياسية فلانها حفظت استقلال مصر ، وكانت له بمثابة السياج الذى صانه من الخطر ، فلو أن تركيا فازت فى هذه المعركة لاستمرت فى زحفها على سورية ثم على مصر ، ولقضت على استقلال مصر وردّتها ولاية تركية لاتمتاز عن سائر ولايات السلطنة العثمانية فى شىء

وهذه الواقعة تشبه أن تكون كواقعة (جماب) التى فازت فيها جيوش الثورة الفرنسية على الجيش النمسوى وأنقذت فرنسا من خطر الغارة عليها وصانت كيانها ، وكذلك كان شأن واقعة (نصيبين) بالنسبة لمصر

وكان وقع هذه المعركة أليما شديد المضض على تركيا ، لانها خاتمة الهزائم التى حاقت بجيوشها فى معاركها المتعاقبة مع الجيش المصرى

وفاة السلطان محمود

توفى السلطان محمود فى أول يوليه سنة ١٨٣٩ قبل أن يبلغه نبأ انكسار جيشه ، إذ كان على فراش الموت ، فأسلم الروح دون أن يعلم بالطامة التى حلت بالجيش التركى فى تلك الواقعة الفاصلة ، وخلف بعده السلطان عبد المجيد فى الوقت الذى تزلزلت فيه قوائم السلطنة من ضربات مصر ، ولم تكن سن السلطان الجديد تتجاوز السابعة عشرة ، فلم يدر كيف يأخذ فى أمره ولا كيف يتجه بين العواصف التى هبت على عرشه .

تقدم ابراهيم باشا

أما ابراهيم باشا فانه استمر فى تقدمه عقب انتصاره ، واحتل (بيره‌جك) على ضفة نهر الفرات اليسرى (ثم عينتاب) و (مرعش) و (أورفه)

تسليم الاسطول التركى

وأعقب هذه الواقعة كارثة أخرى أصابت تركيا فى أسطولها ، وذلك أنه لما بدأت الحركات العدائية الاخيرة بين مصر وتركيا صدرت الأوامر للاسطول التركى بالتحرك من بوغاز الدردنيل بقيادة القبودان أحمد باشا فوزى لمنازلة العمارة المصرية ، ولكن فرنسا وانجلترا أرسلتا بعض السفن لمنع التصادم بين الاسطولين تنفيذاً للخطة التى كان عليها العمل بينهما من الحيلولة بين تصادم مصر وتركيا

ولما هزم الجيش التركى فى واقعة (نصيبين) وتولى السلطان عبد المجيد ورأى دعائم عرشه تتزلزل أمام فتوحات الجيش المصرى ، جنح للسلم ، فبعث برسول يدعى (عاكف افندى) إلى مصر يعرض على محمد على باشا عقد هدنة يمكن فى خلالها إجراء

المفاوضات للاتفاق على حل يرضى الطرفين، وعهد اليه أن يأمر فوزى باشا قائد العمارة التركية أن يعود إلى الاستانة ، ولكن فوزى باشا كان قلقاً على مركزه بعد موت السلطان محمود إذ كان مقربا لديه وله اختصاص به ، فلما خلفه السلطان عبد المجيد عين خسرو باشا (١) صدرا أعظم ، وكان بينه و بين فوزى باشا عداء قديم ، فعظمت وساوس فوزى باشا وظن أن استدعاءه إلى الاستانة لم يكن إلا لعزله أو لقتله ، وزين له وكيله عثمان باشا أن يلتجىء الى محمد على باشا خصم خسرو باشا القديم ويسلمه الاسطول التركى بأكمله هدية خالصة ، فينال منه المكافأة وحسن الجزاء ، فأصغى فوزى باشا لهذه المشورة التى تنطوى فى ذاتها على الخيانةوالدناءة ، وأقلع بالعمارة التركية وخرج بها من الدردنيل ومضى إلى الاسكندرية ، وكانت هذه العمارة على شأن من القوة ، مؤلفة من تسع بوارج كبيرة (غلايين) واحدى عشرة سفينة من نوع الفرقاطة وخمس من نوع الكورفت وعلى ظهرها ١٦١٠٧ من الملاحين ، والايان من الجنود يبلغ عددهم ٥٠٠٠ فيكون الجميع ٢١٠١٠٧

فلما وصل فوزى باشا على رأس هذه العمارة إلى رودس أرسل وكيله إلى محمد على باشا بمصر يخبره بعزمه فابتهج محمد على بهذه الفرصة السعيدة ابتهاجا عظيما ، وأنفذ رسولا على السفينة البخارية (النيل) ليبلغه سروره مما أقدم عليه، ثم أقلعت الدونئمة العثمانية من رودس بقيادة فوزى باشا و بلغت الاسكندرية ، وكانت الدونئمة المصرية خارج البوغاز لاجراء التمرينات البحرية بقيادة الاميرال مصطفى مطوش باشا ، فدخلت الدونئمتان إلى الميناء معاً ، وعدد سفنهما نحو خمسين سفينة حربية تقل نحو ثلاثين الف مقاتل ، وعليها نحو ثلاثة آلاف مدفع ، فكان منظر دخول تلك العمارة الضخمة إلى ميناء الاسكندرية يملأ القلب جلالا وروعة ، وصارت

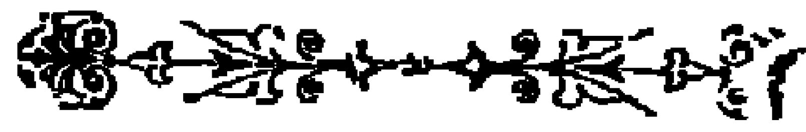
---

(١) هو الذى كان واليا لمصر سنة ١٨٠٣ واشتهر بعدائه لمحمد على

مصر بهذه القوةالبحرية المزدوجة أقوى دولة بحرية فى البحر الابيض المتوسط

ولما علم جنود الاسطول العثمانى بالأمر وكان مكتوما عنهم إلى ذلك اليوم هرب بعضهم على الصنادل وعادوا إلى الاستانة

وتسلم محمد على باشا هذا الاسطول الضخم ، فكان لهذا الحادث تأثير كبير فى سير المسألة المصرية لأن تسليم الاسطول التركى إلى مصر بعد انتصارها فى معركة نصيبين جعل كفتها الراجحة على تركيا فى البر والبحر ، وبلغت مصر فى ذلك الحين أوج قوتها على عهد محمد على



الفصل التاسع

معاهدة لندره

ومركز مصر الدولى

تدخل الدول بعد معركة نصيبين

ان انتصار الجيش المصرى فى معركة (نصيبين) قد وضع المسألة المصرية والمسألة الشرقية ومسألة التوازن الأوروبى عامةً موضع البحث والنظر ، وهذه هى المرة الثانية التى استرعت فيها انتصارات مصر أنظار الدول الاوروبيــة وأوقعتهن فى الحيرة والارتباك ، فالمرة الأولى كما تذكر كانت عقب انتصارات حمص و بيلان وقونيه ، وهذه المرة الثانية بعد نصيبين ، وهذا يدلك على مدى تأثير تلك الانتصارات الباهرة ، وحسبك دليلا على عظمها أنها هزت كيان التوازن الاوروبى هزًّا ، وتداعت لها أركان السلطنة العثمانية ، وفتحت باب المسألة الشرقية فتجددت أطماع الدول المختلفة بشأنها مما جعل السلام مهدداً فى أوروبا ، واذا تأملت صحائف تاريخنا الحديث لم تجد لمصر من التأثير البالغ فى السياسة الدولية الاوروبية مثلما كان لها عقب معركة نصيبين، ولا يغيبنَّ عنك أن هذا يرجع أولَ وهلة إلى انتصاراتها الحربية فى ميادين القتال ، تلك الانتصارات التى هى صفحة فخار لمصر وجيشها وقائده العظيم ابراهيم باشا ، وانك لتلمح عظمة ابراهيم من كونه قاد الجيش المصرى فى ميادين النصر الى حيث جعل تركيا والدول الاوروبية تقف مبهوتةً مضطربةً أمام وثبات ذلك الفاتح الكبير ، كأنما هى أمام القَدَر

ان النتيجة المنطقية لمعركة نصيبين كان يجب أن تكون إقرار مصر فى حدودها التى نالتها بمقتضى اتفاق (كوتاهيه) أى أن تشمل سورية وجزيرة العرب ، واقليم أدنه ، وجزيرة كريت.

ذلك ما يقضى به الانصاف ، لان اتفاق (كوتاهيه) الذى تقدم ذكره قد أبرمته تركيا سنة ١٨٣٣ ، وأقرته الدول الأوروبية ، وكان أساسا للحالة الحاضرة statuquo التى ما فتئت الدول تنادى بوجوب المحافظة عليها ، وقد أرادت تركيا أن تنقض هذا الاتفاق بحد السيف ، فتحرشت بالجيش المصرى وتحدته الى القتال، وهاجمت حدود مصر الشمالية التى رسمها اتفاق كوتاهيه ، وأجبرت مصر على خوض غمار القتال، فوقعت معركة (نصيبين) التى انتهت بهزيمة الجيش التركى ، فالنتيجة العادلة لهذه الهزيمة أن يبقى اتفاق كوتاهيه مرعياً من تركيا ومن الدول، وخاصةً لان سورية أقرب الى الدولة المصرية منها الى تركيا ، اذ هى جزء من البلاد العربية التى جعل محمد على غرضه أن يؤسس منها الدولة المصرية ، فالعدالة ، والمصلحة السياسية والاجتماعية ، والنتيجة المنطقية للمعركة ، كل اولئك يقضى بالاعتراف باستقلال مصر التام وانفصالها عن تركيا وانضمام سورية اليها

ولو أن الدول الأوروبية عاملت مصر بمثل العطف الذى عاملت به اليونان، فى ثورتها على تركيا ، لما كان هنالك شك فى إقرار تلك النتيجة ، لا بل إن مصر أولى باقرارها على مطالبها العادلة ، لانها فازت على تركيا بقوة جيشها وحده ، اما اليونان فقد انهزمت امام تركيا ولم ينجها من آثار الهزيمة سوى مظاهرة الدول الأوروبية وتحالفهن على تركيا ، ومع ذلك فان السياسة الدولية الأوروبية قضت لليونان باستقلالها التام ، أما مصر فقد حكمت عليها أن تبقى تحت السيادة التركية، وان تتخلى عن سورية وجزيرة العرب وادنه وكريت ، وائتمرت بها الدول وحاربتها وقصت اجنحتها وقضت عليها باضعاف قوتها البرية والبحرية كما سيجىء بيانه، وهذه المقارنة تصور لك الفرق بين معاملة أوروبا لأمة غربية ومعاملتها للأمم الشرقية ، وتريك المكيال الواحد يكبر ويصغر، كأن فيه روح شيطان ...

موقف الدول

قلنا ان انتصار الجيش المصرى فى (نصيبين) حرك مسئلة التوازن الأوروبى والمسئلة الشرقيـة ، فوقفت الدول الاوروبيـة مواقف مختلفة تبعا لاختلاف اطماعها ونزعاتها

موقف الروسيا

أما الروسيا فقد انتهزت هـذه الفرصة لبسط حمايتها الفعلية على تركيا بحجة الدفاع عنها

موقف فرنسا

وفرنسا كانت تميل الى اقرار محمد على باشا على سورية وجزيرة العرب طبقا لاتفاق كوتاهية ولما أدت اليه معركة (نصيبين)

موقف انجلترا

واما انجلترا فانها جاهرت بعدائها لمصر ، واعلنت وجهة نظرها فى وجوب المحافظة على كيان السلطنة العثمانية ، وان هـذا الـكيان لايقوم إلا برد سورية الى تركيا ، واخضاع محمد على بالقوة ، وأخذت تؤلب الدول الأخرى على مصر ليشتركن معها فى اخضاعها ، ولم تـكن المحافظة على كيان السلطنة العثمانية هى وجهة نظرها الحقيقية ، بل غايتها الجوهرية هى إضعاف الدولة المصرية لانها ترى فيها اذا قويت مزاحما لها فى سيادتها بالبحر الابيض المتوسط ورقيبا عليها فى طريقها الى الهند ، ومن هنا كانت انجلترا تتمسك بكل عزم وقوة بوجوب رد سورية الى تركيا لان امتداد نفوذ مصر فى البلاد السورية يجعلها دولة بحرية قوية من دول البحر الابيض المتوسط ، ويجعل لها الاشراف على طريق الهند من ناحية الفرات والعراق ، فضلا عن طريق البحر الاحمر وبرزخ السويس.

وكانت تتمسك ايضا برد الاسطول التركى الى الدولة العثمانية لان اندماجه فى الاسطول المصرى يجعل لمصر قوة بحرية كبيرة تخيف انجلترا

ان عداء انجلترا لمصر من القواعد الاساسية لسياستها الاستعمارية ، فمنذ اخفقت فى احتلالها البلاد سنة ١٨٠٧ رأت محمد على يعترضها فى طريق مطامعها الاستعمارية ، فينشئ على ضفاف النيل دولة مصرية قوية ، ويمد نفوذها الى شبه جزيرة العرب ، ويصل الى نهر الفرات وشاطئ الخليج الفارسى ، وسواحل اليمن ، وهذه البلاد كلها واقعة فى طريق الهند ، فلا جرم ان تحنق انجلترا على مصر الفتية القوية وتبغيها الغوائل وتدس لها الدسائس ، فالسياسة الانجليزية هى التى سعت جهدها لتقليم اظفار مصر وقص أجنحتها ، وابقائها تحت السيادة التركية ، وانقاص قوتها البرية والبحرية ، ترمى من ذلك الى اضعافها طبقا لمبدئها القديم وهو ألا تقوم فى مصر دولة قوية تعترض طريقها الى الهند ، كأن استعمارها للهند يقتضى استعباد جميع البلاد التى فى طريقها اليها ، وهذا من أغرب مايقضى به الجشع الاستعمارى

وكان لها من اضعاف مصر غاية أخرى هى التمهيد لامتلاكها ووضع يدها عليها عند ماتحين الفرصة ، ولو بقيت قوة مصر الحربية على ما كانت عليه فى عهد محمد على لتعذر على انجلترا تحقيق هذه الغاية ، فاضعاف قوة مصر هو من اغراض انجلترا الاستعمارية ، وقد ظلت هـذه الغاية من قواعد السياسة الانجليزية طوال القرن التاسع عشر والى اليوم ، وأيدت الحوادث سوء نيتها نحو البلاد ، فانها أخذت تتحين الفرص وتخلق المشاكل حتى احتلتها سنة ١٨٨٢

كانت انجلترا إذن قوام المؤامرة الدولية على مصر فى عصر محمد على ، وقد تولى وزارة خارجيتها فى ذلك العصر سياسى داهية من اكبر ساسة الانجليز وهو اللورد بالمرستون ، وكان مشبعا بروح العداء لمصر عاملا على اضعاف مكانتها وتقليم اظفارها تنفيذا للسياسة التى أوضحناها ، فأخذ يبث مبادئه وافكاره بين الدول الاوروبية ويعمل على انحيازها الى صف انجلترا فى الوقيعة بمصر ، وكان يتولى السفارة الانجليزية بالاستانة فى ذلك الحين سياسى أشد كراهية لمصر من اللورد

بالمرستون ، وهو اللورد بونسو بنى ، كان يجاهر بعدائه لمحمد على باشا ، وما فتىء يدس الدسائس للادارة المصرية فى سورية و يبذل المساعى المختلفة لاحداث الثورات والفتن فيها وتحريض سكانها على الانتقاض على الحكم المصرى ، ويحرض دولته على محاربة محمد على باشا ، فكان لهذين الرجلين ، بالمرستون وبونسونبى ، أثر بالغ فى تدبير المؤامرة الدولية وتأليب الدول على مصر

موقف النمسا وبروسيا

أما النمسا فكان و زيرها المشهور مترنيخ يميل الى تعزيز مركز تركيا لغرضين، أولهما ألا يجعل للروسيا ذريعة للتدخل فى شؤون تركيا و بسط حمايتها عليها ، فان فى ذلك خطراً على النمسا ،و (الثانى) أنه كان ينظر الى قيام محمد على ضد تركيا كثورة على الحاكم الرسمى ، ومبدأ مترنيخ مقاومة الثورات القومية التى يراد منها الخروج على سلطة الحكومات الرسمية .

ولم يكن لبروسيا اطماع خاصة فى هذه الازمة بل كانت ترمى الى المحافظة على السلم اتقاءً للاخطار التى تنجم عن حرب اوروبية ، وكان ملكها يكره فرنسا من ناحية أخرى لاسباب قومية و يميل الى السياسة المناقضة لسياسة فرنسا

موقف تركيا

تولى السلطان عبد المجيد عرش السلطنة بعد وفاة السلطان محمود الثانى وسنه كما قدمنا لاتتجاوز السابعة عشرة ، خلف السلطان محمود والسلطنة تتداعى اركانها تحت ضربات الجيش المصرى ، وتولى زمام الحكم والدولة لاجيش لها ولا اسطول، فرأى من الحكمة أن يجنح الى السلم والمفاوضة رأسا مع محمد على لحسم الخلاف بين الدولتين بالحسنى ، ومع أنه استوزر خسرو باشا المشهور بعدائه القديم لمحمد على وجعله صدرا أعظم إلا أنه هو ووزيره أبديا رغبتهما فى احلال الصفاء والسلام بين

الدولتين محل الجفاء والخصام ، ولم يكد السلطان عبد المجيد يعتلى عرش السلطنة حتى أرسل الى محمد على مندوبا خاصا وهو (عاكف افندى) يحمل كتابا من خسرو باشا يعرب فيه عن عواطف السلطان الودية نحو محمد على ونسيانه ما وقع منه فى الماضى ، ويخوله ملك مصر الوراثى ، ومع أن محمد على كان لايثق بحسن نية خسرو باشا ولا يفتأ يطالب عزله إلا أن من المحقق أنه لوترك الأمر للحكومة التركية وحدها لرضيت بابرام الصلح مع محمدعلى باشا على قاعدة الاعتراف باستقلال مصر واقرار سلطتها فى سورية وجزيرة العرب

مذكرة الدول الى الباب العالى

٢٧ يوليه سنة ١٨٣٩

لكن مطامع الدول أبت على مصر أن تجنى ثمار تضحياتها وانتصاراتها ، فقدم سفراؤها فى الاستانة مذكرة الى الباب العالى فى ٢٧ يوليه سنة ١٨٣٩ يطلبون اليه باسم الدول الخمس ، النمسا ، والروسيا ، وانجلترا ، وفرنسا ، وبروسيا ، ان لايبرم أمرا فى شأن المسئلة المصرية إلا باطلاعهم واتفاقهم ، وكان الكونت مترنيخ وزير النمسا الاكبر هو المقترح لهذه المذكرة ، ووجهة نظره أن يحول دون انفراد روسيا بالتدخل فى المسئلة الشرقية

وقد يبدو غريبا أن تشترك فرنسا فى هذه المذكرة ، وهى التى كانت تنادى بتأييد مصر فى تلك الازمة ، ولكن السياسة الفرنسية كانت فى مسلكها غير مستقرة ولا آخذة بالحزم واصالة الرأى و بعد النظر ، فقد كانت تأمل عبثا من تدخل الدول ان تصل الى التوفيق بين وجهتى نظر مصر وتركيا بطريق الوساطة وكانت تقصد من جهة أخرى الى ان تدخل الدول فى حل الازمة يمنع انفراد الروسيا بحماية تركيا ، ولكنها بتخبطها واضطرابها تركت الميدان للسياسة الانجليزية تملى فيه ارادتها على الدول الأخرى

كانت مذكرة الدول الى الباب العالى بمثابة إلغاء لنتائج معركة نصيبين ، وكانت

من هذه الناحية انتصاراً لوجهة نظر انجلترا ، أما تركيا فقد وضعتها المذكرة تحت وصاية الدول الأوروبية ففقدت بذلك استقلالها الفعلى

وقد انقضت أشهر فى تبادل الآراء بين الدول الأوروبية بقصد التوفيق بين وجهات نظرها ، ولو سلكت فرنسا فى خلال تلك الأشهر خطة الحكمة والحزم لوفرت على مصر كثيراً من الاعباء والخسائر التى احتملتها فيما بعد ، فقد عرض اللورد بالمرستون حلا وسطاً للتوفيق بين وجهة نظر انجلترا وفرنسا ، وهو أن يعطى محمد على الحكم الوراثى لمصر وولاية عكا ماعدا مدينة عكا ذاتها أى جنوبى سورية فرفضت فرنسا هذا العرض وتمسكت بوجهة نظرها ، وكان هذا منها خطأ كبيراً تحملت مصر عواقبه ، فلو أنها قبلته لانتهت الأزمة بخير مما انتهت به بعد ذلك ، إذ أدى رفض فرنسا الى انفراد انكلترا بالعمل وتأليبها الدول الأوروبية لاذلال مصر كما سيجىء بيانه .

وانتهزت الروسيا فرصة الخلاف بين فرنسا وانجلترا فى المسئلة المصرية فتوددت الى الحكومة الانجليزية ووافقتها على وجهة نظرها فى المسئلة ، وأوفدت البارون برينوف Brunow الى لندره لتوكيد العلاقات بين الدولتين ، وأصبح سهلا على انجلترا وقد انضمت الروسيا اليها أن تكسب الى صفها النمسا وبروسيا

تولى المسيو تييرس Thiers رياسة الوزارة الفرنسية ووزارة خارجيتها فى مارس سنة ١٨٤٠ ، وكان متمسكا بوجهة نظر فرنسا فى المسئلة المصرية ، وهى ضم سورية الى مصر وسعى فى أن تنتهى هذه المسئلة بالاتفاق رأساً بين الباب العالى ومحمد على ، وعلم اللورد بالمرستون بهذه المساعى ، فأخذ فى احباطها ، وعارضها بالمفاوضة مع الدول الأخرى الروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا لتقرير الحل النهائى بمعاهدة تضع بها مصر وفرنسا أمام الأمر الواقع

إبرام معاهدة لندره وشروطها

١٥ يوليه سنة ١٨٤٠

كانت نتيجة هذه المفاوضات إبرام المعاهدة الشهيرة بمعاهدة لندره فى ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ بين انجلترا والروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا ، وللمعاهدة ملحق يتضمن الامتيازات التى تعهد السلطان بتخويلها محمد على ، ويعتبر هذا الملحق جزءاً من المعاهدة ، وهاك خلاصة شروط المعاهدة والملحق

(اولا) ان يخول محمد على وخلفاؤه حكم مصر الوراثى ، ويكون له مدة حياته حكم المنطقة الجنوبية من سورية (١) المعروفة بولاية عكا (فلسطين) بما فيها مدينة عكا ذاتها وقلعتها ، بشرط أن يقبل ذلك فى مدة لاتتجاوز عشرة أيام من تاريخ تبليغه هذا القرار ، وان يشفع قبوله باخلاء جنوده جزيرة كريت وبلاد العرب واقليم ادنه وسائر البلاد العثمانية عدا ولاية عكا ، وان يعيد الى تركيا اسطولها

(ثانيا) اذا لم يقبل هذا القرار فى مدة عشرة ايام يحرم الحكم على ولاية عكا ، ويمهل عشرة ايام اخرى لقبول الحكم الوراثى لمصر وسحب جنوده من جميع البلاد العثمانية وارجاع الاسطول العثمانى ، فاذا انقضت هذه المهلة دون قبول تلك الشروط كان السلطان فى حل من حرمانه ولاية مصر

---

(١) حددت هذه المنطقة فى ملحق المعاهدة كما يأتى : يبدأ الحد من رأس الناقورة على شاطىء البحر الابيض المتوسط (شمالى عكا) الى مصب نهر السيسبان فى شمال بحيرة طبرية ، ثم يتبع الشاطىء الغربى لتلك البحيرة ، فالضفة اليمنى لنهر الاردن ، فالشاطىء الغربى للبحر الميت ، ومن نهايته يمتد على خط مستقيم الى رأس خليج العقبة على البحر الاحمر ثم يتبع الشاطىء الغربى لخليج العقبة ثم الشاطىء الشرقى لخليج السويس حتى مدينة السويس ذاتها

(ثالثا) يدفع محمد على باشا جزية سنوية للباب العالى تتبع فى نسبتها البلاد التى تعهد اليه ادارتها

(رابعا) تسرى فى مصر وفى ولاية عكا المعاهدات التى ابرمتها السلطنة العثمانية وقوانينها (الاساسية) ، ويتولى محمد على وخلفاؤه جباية الضرائب باسم السلطان على ان يؤدوا الجزية ، ويتولون الانفاق على الادارة العسكرية والمدنية فى البلاد التى يحكمونها

(خامسا) تعد قوات مصر البرية والبحرية جزءا من قوات السلطنة العثمانية ومعدة لخدمتها

(سادسا) يتكفل الحلفاء فى حالة رفض محمد على باشا لتلك الشروط أن يلجأوا الى وسائل القوة لتنفيذها ، وتتعهد انجلترا والنمسا فى خلال ذلك ان تتخذا باسم الحلفاء بناء على طلب السلطان كل الوسائل لقطع المواصلات بين مصر وسورية ومنع وصول المدد من احداها للاخرى ، وتعضيد الرعايا العثمانيين الذين يريدون خلع طاعة الحكومة المصرية والرجوع الى الحكم العثمانى وامدادهم بكل ما لديهم من المساعدات(١)

(سابعا) اذا لم يذعن محمد على للشروط المتقدمة وجرد قواته البرية والبحرية على الاستانة فيتعهد الحلفاء بان يتخذوا بناء على طلب السلطان كل الوسائل لحماية عرشه وجعل الاستانة والبواغيز بمأمن من كل اعتداء

***

تم ابرام هذه المعاهدة بأن وقع عليها كل من اللورد بالمرستون عن انجلترا ، والبارون نومان السفير النمسوى فى انجلترا عن النمسا ، والبارون بيلوف عن بروسيا ،

---

(١) ومعنى ذلك تحريضهم على العصيان لمناوأة الجنود المصرية داخل البلاد كى لاتتفرغ لمقاومة القوات الانجليزية والنمسوية البحرية والبرية التى اعتزمت الدولتان تعبئتها لمحاربة مصر

والبارون بر ينوف عن الروسيا ، وشكيب افندى وزير تركيا المفوض فى لندره عن الباب العالى ، وقد ابرمت المعاهدة بغير علم مصر وفرنسا ، فقد فوجئت الحكومة الفرنسية بخبرها مفاجأة ، فلما أذيع نبأ ابرامها أدرك المسيو تيير س مافى هذا العمل من التحدى لفرنسا والغض منها ، وكان من نتائجها أن هاجت الخواطر فيها وتوترت العلاقات بينها و بين انجلترا ، وكادت تقع الحرب ، فأرغت فرنسا وأزبدت ، وأخذت تستعد وتحرض محمد على باشا على نبذ قرارات الدول ، لكنها ادركت آخر الأمر أن استعداداتها لا تغير من موقف الدول المؤتمرة ، وانها لاقبل لها بان تخوض غمار حرب أوروبية ، فتراجعت وتركت مصر وحدها أمام الدول المؤتمرة ، فاحتملت مصر نتائج سياسة فرنسا الخرقاء

ان معاهدة لندره تقضى بجعل حكم مصر وراثيا فى أسرة محمد على ، أى باستقلال مصر الداخلى التام ، وارجاع مصر الى حدودها الأصلية قبل حروبها الأخيرة ، وحرمانها حكم جزيرة العرب وسورية وكريت واقليم ادنه ، وتخويل محمد على مدة حياته حكم سورية الجنوبية

ولعلك تلاحظ فى هذه المعاهدة تعهد الدول باتخاذ وسائل العنف والقوة لتنفيذ شروطها فى حالة رفض محمد على قبولها ، وتلاحظ أيضا تعهدها بحماية عرش آل عثمان والدفاع عن السلطنة العثمانية والبواغيز فى حالة مهاجمة قوات محمد على البرية والبحرية لها ، وهذا يصور لك ما بلغته مصر فى ذلك العصر من القوة والبأس مما دعا الحلفاء الى التكاتف والتعاون لاجبارها على احترام معاهدة لندره وحماية تركيا من بأسها

دسائس انجلترا فى سورية

ارادت انجلترا كما قلنا أن تضع مصر بهذه المعاهدة أمام الامر الواقع ، وأرادت أيضا ان تؤيد المعاهدة بالفعل ، فأخذت قبل امضائها تحرض سكان لبنان على خلع طاعة مصر ، ومما بذلته من الوسائل لهذا الغرض ان اللورد (بونسونبى) سفيرها

فى الاستانة أرسل المستر (ريتشارد وود) ترجمان السفارة الانجليزية الى لبنان ، وكان قد تعلم اللغة العربية وجاب انحاء البلاد من قبل ، فأثار اللبنانيين واستمال اليه امراءهم ومشايخهم وكانوا ينقمون على الحكومة المصرية إيثارها الأمير بشير الشهابى حاكم الجبل واختصاصه بالسلطة ، فأيدوا الثورة واتسع بهم مداها ، فعمت انحاء لبنان

فالثورة على الحكم المصرى فى سورية كانت كما ترى من عمل الدسائس الانجليزية ، قال الدكتور مشاقه وهو من معاصرى تلك الحوادث فى هذا الصدد ماخلاصته :

« دخلت سنة ١٨٣٩ والأمور فى سورية على ماروينا ، وبما أن دوام الحال من المحال شاء ربك تغييرا فى البلاد ، فجاءها جاسوس من قبل الدولة السكسونية (الانجليزية) ونزل فى كسروان وانتحل من المعاذير أنه قدم ليتعلم لغة البلاد ، دخل الرجل الذى سميناه جاسوسا ، واسمه الحقيقى وود وكان ترجمانا لقنصل دولته بالاستانة ، وأظهر فى بادئ الأمر ميلا غريبا الى تعلم اللغة العربية ، وتغلب على أمياله لدرس احوال البلاد ونقد الحكومة الحاضرة ، ولكن تظاهره لم يسدل على عيون النقاد وشاحا اعماها عن معرفة غرضه الرئيسى ، ولا مشاحة أن دولة الانجليز اكثر الدول استعمارا ، وكأنها اوجست خيفة من الدولة المصرية التى مع حداثة نشأتها أصبحت فى مصاف الدول المرتقية ، وكأنها لحظت أن محمد على باشا يطمع بعد ضم البلادفى احياء الدولة العربية القديمة وارجاع دولة اسلامية عربية هذا شأنها فى تنظيم أحوال الرعية قامت على أساس العدل وجارت به الدول المتمدنة ولم تغفل بطلها ابراهيم باشا ـ نابوليون مصر ـ بل ذكرته وذكرت كل حسنات دولة مصر الفتاة ، فخافت منها أن تكون مزاحمتها فى الاستعمار ، فرامت مقاومتها ولذلك ارسلت رجلها الذى ذكرناه فأخذ يلقى بذور الشقاق فى قلوب الاهالى ويوغر صدورهم على الحكومة الحالية وجعل مركزه جبل كسروان »[1]

---

(١) مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ص ١٢٦

أخذ الثوار يناوشون الحاميات المصرية وقتلوا بعض الحكام المصريين ، وأعلنوا الامتناع عن أداء الضرائب والمؤن العسكرية ، ولكن ابراهيم باشا بادر بقمع هذا العصيان بما لديه من القوات ، وجاءه المدد من مصر بقيادة عباس باشا فأمكنه اخماد العصيان وأحرق بعض القرى وقبض على رؤساء الفتنة وعددهم ٥٧ رجلا ، وأبعدهم الى الاسكندرية ومنها الى (سنار) باقصى السودان حيث بقوا بها الى أن انتهت الحرب واعيدوا الى بلادهم

ولم تنقطع الفتن فى لبنان وسورية بل ظلت مستمرة خلال الحرب ، وكان لها أثر كبير فى احراج مركز الجيش ، وأخذ سليمان باشا فى تحصين (بيروت) وغيرها من الثغور السورية توقعا لمجئ السفن الانجليزية

ورأت انجلترا فى محمد على عزيمةً على المقاومة ، فقررت تجريد مصر من عمارتها البحرية لكيلا يستطيع محمد على امداد قواته فى الشام بطريق البحر فيعجزه ذلك عن امدادها برا بطريق الصحراء المقفرة التى تفصل مصر وفلسطين ، فأصدرت أوامرها الى الكومودور نابييه Napier قبل امضاء المعاهدة بالاقلاع باسطوله الى مياه مصر والشام ، وعهدت اليه اجبار محمد على تسليم العمارة التركية وكلفته أسر العمارة المصرية أو تدميرها ، وكان بعض السفن المصرية الحربية وقتئذ فى مياه بيروت ، فلما علمت فرنسا بهذا النبأ بادرت بارسال إحدى سفنها الى بيروت لابلاغ ابراهيم باشا الخبر ، فعادت السفن المصرية من فورها الى الاسكندرية وجاء الكومودور (نابييه) الى بيروت فلم يجدها وظل فى عرض البحر يرقب الفرصة السانحة لاخذها

وأخذ محمد على من ناحيته يرصد الاهبة للمقاومة والدفاع ، وأصدر اوامره الى الاسطول بالمرابطة فى ميناء الاسكندرية وعدم الخروج الى عرض البحر كيلا يستهدف للاساطيل الانجليزية ، لان حكومة انجلترا كانت ممضيةً عزمها على تجريد مصر من قوتها البحرية

وفى أوائل شهر اغسطس سنة ١٨٤٠ استفاضت انباء معاهدة لندرة فى الشام

ومصر ، وأصدرت الحكومة الانجليزية أوامرها للاسطول الانجليزى بمحاصرة سواحل الشام ومصر وأسر السفن المصرية حربية كانت او تجارية ؛ فرجع السكومودور (نابييه) الى بيروت واستولى فى طريقه على كل ما صادفه من المراكب وأعلن الجيش المصرى باخلاء بيروت وعكا فى أقرب وقت ، ونشر بين سكان سورية ولبنان منشورات انبأهم فيها بما تم عليه اتفاق الدول فى معاهدة لندره وخاصة ارجاع سورية الى الدولة العثمانية ، ودعاهم الى العصيان ونزع ايديهم من طاعة الحكومة المصرية ، فثار اللبنانيون على الحكم المصرى عوداً على بدء

رفض محمد على باشا
شروط المعاهدة
اغسطس سنة ١٨٤٠

كان محمد على مصمما على التمسك بالبلاد التى فتحتها الجيوش المصرية وأقرته عليها معاهدة كوتاهية ، وصمم ألاّ ينزل عن أى جزء من هذه البلاد ، وهو يعلم قبل إبرام معاهدة لندره ان الدول تأتمر به وأنها لا تحجم عن مهاجمة مصر ذاتها لا كراهها على التسليم ، وتنوى نزع سورية من أملاك مصر ، فأخذ فى الاستعداد للدفاع ، وحشد الجنود فى ثغور مصر ووزع السلاح على عمال المصانع (الفابريقات) وطلبة المدارس الحربية ، وعهد الى ابراهيم باشا أن يكون على أهبة القتال وأن يتفقد ثغور الشام وحصونها وخاصة عكا و بيروت ، وأمد الجيش المصرى فى سورية بالرجال والعتاد

لم تغيّر المعاهدة إذن من موقفه ، واعتزم ألاّ يعمل بها وألاّ يُقرّ شروطها ، وكانت فرنسا تحرضه على رفضها ، وتعده ألا تتخلى عنه ، وتمنيه بأنها تدافع عنه بقوة جيوشها وأساطيلها ، فازداد تمسكا بموقفه ، ولو لم تعده الحكومة الفرنسية بمعاونته إذا حزب الأمر لكان له موقف غير موقفه هذا ، لأن محمد على كان مشهوراً عنه الحكمة و بعد النظر ، وهو لا يفوته أن من وراء الطاقة ومن المتعذر على مصر محاربة دول خمس مجتمعات متألبات عليها ، ولكنه كان مطمئنا الى معاونة

فرنسا الحربية ، فركب الشطط وارتدف العناد ، وخسرت مصر من جراء ذلك حقوقاً ومزايا وتضحيات جسيمة ، ويتبين لك مبلغ هذه الخسائر من المقابلة بين ما أقرته معاهدة لندره وما اضطرت مصر لقبوله بعد حرب شاقة تكبدت فيها متاعب وأهوالا

أرسلت تركيا مندوبها (رفعت بك) الى الاسكندرية لابلاغ محمد على شروط المعاهدة ، فوصل يوم ١١ اغسطس ، والتقى بوكلاء الدول المتحالفة ، واتفقوا على الخطة التى يتخذونها لتنفيذ ما تأمر به الدول

فبدأ رفعت بك بمقابلة محمد على فى سراى رأس التين يوم ١٦ اغسطس ، وأبلغه نبأ المعاهدة ، وطلب اليه العمل بها ، فغضب محمد على وأغلظ له فى الجواب ، وأقسم ألا ينزل عن شبر أرض من أملاكه

فلما رأى رفعت بك أن بلاغه لم يصنع شيئاً طلب الى وكلاء الدول أن يقوموا من ناحيتهم بتبليغ محمد على شروط المعاهدة ، فجاءه قناصل انجلترا والروسيا والنمسا يوم ١٧ أغسطس ، وأبلغوه الشروط ، وعرضوا عليه أن تكون مصر له ولورثته من بعده ، وأن تكون له ولاية عكا أى فلسطين مدة حياته ، وأمهلوه عشرة أيام يتهيأ فيها للقبول ، ودوّنوا له مذكرة عليها توقيعاتهم ، كتبوا فيها ما قالوه ، وحذروه عواقب الامتناع عن تنفيذ المعاهدة

ولما انقضى الموعد ذهب اليه رفعت بك مصحوباً بوكلاء الدول ليتعرفوا ما استقر عليه ، فألفوه على رفضه ، وكان أشد تمسكا بموقفه السابق ، فاعتزم رفعت بك مغادرة الاسكندرية والسفر الى الاستانة ، ولكن وكلاء الدول طلبوا اليه البقاء حتى يتموا الاجراءات التى تقضى بها المعاهدة

وفى اليوم التالى ذهبوا الى محمد على ، وأبلغوه الانذار الثانى ، فاستشاط غضبا وأجابهم بانه سيزحف على الاستانة اذا تجددت الحرب

وإذ قد علم بعزم رفعت بك على السفر التفت الى وكلاء الدول الاربع وقال لهم : « أتعشم أن ترحلوا معه »

فأجابوه بان ليس لديهم تعليمات بمغادرة مراكزهم ، فقال لهم « ولكنى لم يعد

لى ثقة فيكم ، والعوائد المرعية تقضى فى حالة الحرب أن يرحل وكلاء اعدائنا عن البلاد ، فبقاؤكم لا يتفق مع هذه الحالة »

فانصرف الوكلاء من حضرته بعد أن امهلوه العشرة الايام الثانية المذكورة فى المعاهدة ليراجع رأيه ، وأبلغوه انه لم يعد له حق فى ولاية عكا ، ولا تسمح له الدول الا بولاية مصر له ولذريته .

وفى خلال هذه المهلة استدعى محمد على باشا رفعت بك وعرض عليه انهاء الخلاف بينه و بين تركيا دون تدخل الدول الاجنبية ، على ان ينزل عن ولاية ادنه وجزيرة كريت وشبه جزيرة العرب ، وان يكتفى بملك مصر الوراثى وحكم سورية مدة حياته ، وسلمه كتابا بهذا المعنى برسم السلطان ، ولعله أراد أن يتفادى بهذه الوسيلة التقيد بميعاد العشرة الايام التى تقضى بها المعاهدة ، فان كتابه الى السلطان قد يفتح باب المفاوضة ، ثم هو لا يعد رفضا صريحا

ولكن رفعت بك و وكلاء الدول جاءوا فى نهاية الميعاد ، وطلبوا مقابلة محمد على ، فلم يقابلهم ، واستقبلهم بوغوص بك وزير الخارجية ، وسامى بك سكرتير الباشا ، وأبلغاهم بنبأ الخطاب الذى كتبه الباشا الى السلطان ، وان هذا الجواب يعد قبولا للمعاهدة ، فأجاب القناصل : واذا لم يقبل السلطان ان يخول الباشا حكم سورية فماذا يكون موقفه بعد ؟ فقال بوغوص بك وسامى بك انه ليست لديهما تعليمات للرد على هذا السؤال ، فاعتبر القناصل ان هذا الجواب معناه رفض المعاهدة ، وحرروا محضرا بذلك

وغادر رفعت بك الاسكندرية ذاهبا الى الاستانة ليبلغ الباب العالى ماحدث ، وحمل معه خطاب محمد على الى السلطان ، فتشاور الصدر الاعظم مع سفراء الدول فى الاستانة ، واستقر رأيهم على خلع محمد على من ولاية مصر وأصدر السلطان فرمانا بذلك ، أرسل من فوره الى الاسكندرية ، فوصل يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٤٠ ، و بُلِّغ الى محمد على

وفى اليوم التالى غادر وكلاء الدول الاراضى المصرية ، فأصبحت مصر فى حالة حرب مع تركيا وحلفائها

وأخذ محمد على يتأهب للحرب ، وبادر الى تقوية استحكامات الاسكندرية ، وعهد بذلك الى لجنة مؤلفة من نجله سعيد بك (باشا) ، وسليم باشا ، والمسيو موجيل والمسيو هوسار ، ومظهر افندى (باشا)

الحرب بين مصر والدول المتحالفة

وثورة السوريين على الحكم المصرى

انتهزت انجلترا فرصة ابرام معاهدة لندره وأخذت فى تنفيذها بالقوة ، فأمرت عمارتها البحرية بضرب الثغور السورية والاشتراك مع الجنود التركية فى احتلالها ، وكان ابراهيم باشا قد استعد للدفاع عنها فجاء الى بيروت وعسكر فى ضواحيها

وفى خلال سبتمبر سنة ١٨٤٠ جاءت العمارة الانجليزية الى بيروت بقيادة الاميرال (استوبفورد) Stopford للاشتراك مع الكومودور (نابييه) فى ضرب بيروت بالمدافع ، واشترك معها بعض السفن الحربية النمسوية والتركية ، وفى ١٠ منه جاءت الحملة البرية ، وكانت مؤلفة من ١٥٠٠ من الجنود الانجليز و ٥٥٠٠ من العثمانيين ، ونزلت هذه القوة فى ميناء جونيه (١) تحت حماية العمارة الانجليزية

وأرسل الاميرال الانجليزى انذارا الى سليمان باشا باخلاء بيروت فورا ، فطلب سليمان باشا ميعاد اربع وعشرين ساعة كى يراجع ابراهيم باشا فى الامر فلم يقبل طلبه ، وبدأ ضرب المدينة بالمدافع واستمر فى اليوم التالى حتى تهدم اكثر مبانيها ، ولكن الحلفاء لم ينزلوا فى ذلك اليوم جنودهم الى المدينة خوفا من أن يظهر عليهم الجيش المصرى

قلنا ان ابراهيم باشا كان على أهبة الدفاع عن سورية ، وكان لديه من المقاتلة

---

(١) شمالى بيروت وتبعد عنها نحو عشرين كيلو مترا

نحو تسعين ألف جندى ، ولم يكن لدى الحلفاء فى بدء القتال سوى عشرة آلاف مقاتل على الأكثر ، ولذلك تردد قوادهم فى احتلال بيروت رغم ضربها بالمدافع ، وبقيت وقتا ما فى يد الجيش المصرى ، ولكن جَدّ فى الموقف عامل جديد كان له تأثير سيئ فى مركز الجيش المصرى ، ذلك ان الانجليز قد بذروا بذور الثورة فى نفوس السوريين واللبنانيين وألقوا فى روعهم أن الدول المتحالفة مصممة على طرد الجيش المصرى من الشام ، فانضموا اليهم وخاصة بعد ان وزع عليهم عمال الانجليز الاسلحة والذخائر ، وبلغ عدد ما وزعوه عليهم من البنادق نحو ثلاثين ألف بندقية ، فتحرج مركز الجيش المصرى وأدرك أنه صار هدفا لنارين ، نار الحلفاء ونار الثورة ، وهذه كانت أشد وطأة من قوات الحلفاء ، فأثرت تلك الحالة فى نفوس الجنود تأثيرا سيئا نال من قوتهم ، وتقطعت مواصلات الجيش بين مختلف المدن

استيلاء الحلفاء على الثغور السورية

اشتبكت القوات المصرية المبعثرة مع قوات الحلفاء فى بعض المواقع ، واستولى الحلفاء على (جبيل) شمالى بيروت ، ثم على البترون ، وكذلك احتلوا حيفا وصور وصيدا ، ثم سقطت بيروت فى يد الحلفاء (اكتوبر سنة ١٨٤٠) بعد ان التقى المصريون والحلفاء فى واقعة (بحر صاف) وكانت الغلبة فيها للحلفاء

وكذلك جلا المصريون عن طرابلس واللاذقية وادنه من غير قتال ، فصار معظم الثغور فى يد الحلفاء

سقوط عكا (نوفمبر سنة ١٨٤٠)

اعتزم الانجليز احتلال عكا لانها مفتاح فلسطين والشام ، وكان لاحتلالها من الاهمية أكثر مما لبيروت ، فجاءت العمارة الانجليزية وأخذت تضربها بالمدافع

يومى أول و ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٠ ، ولكن ذهب الضرب عبثا وقاومتها الحصون والحامية المصرية مقاومة شديدة ، ثم جاءها مدد من السفن البريطانية ، فاعتزم الاميرال استو بفورد استئناف الضرب يوم ٣ نوفمبر ، فاصطفت السفن الانجليزية فى ذلك اليوم ، وكان عددها نحو عشرين سفينة حربية ، وصبت قنابلها على الحصون وعلى المدينة ، فأجابت الحصون ضربا بضرب مثله ، ولكن حدث أن أصابت القنابل الانجليزية مستودع الذخائر فنسفته وانفجر انفجارا مروعا ، وهدم الانفجار نحو ثلث مبانى المدينة ، وقضى على طابور باكمله من المشاة ، فرأى قائد الحامية المصرية ان استمرار المقاومة لايجدى ، فأخلى المدينة واحتلها الانجليز والترك فى صبيحة اليوم التالى

وعلى أثر تسليم عكا سلمت يافا ونابلس ، فتزلزل مركز الجيش المصرى فى الداخل لما اجتمع عليه من تقدم الحلفاء واحتلالهم الثغور ، وقطعهم المواصلات البحرية ، وثورة الاهلين ، وانفصل عنه الأمير بشير حاكم لبنان لما رأى نجمه آخذا فى الأفول ، وعرض على الحلفاء انضمامه اليهم واستأسر لهم ، فلم يطمئنوا له ، ونفوه الى مالطه (اول نوفمبر سنة ١٨٥٠)

انسحاب فرنسا من الميدان

وفى غضون هذه الحرب تغير مسلك فرنسا حيال مصر تغيرا عظيما ، فبعد ان كان المسيو تيير رئيس الوزارة الفرنسية يشجع محمد على ويطوّع له رفض مطالب الحلفاء ويعده بمعاضدة فرنسا له ، تراجع ونكص على عقبيه ، وتبين لمحمد على عدم استعداد فرنسا للحرب وانها لا تتم تأهبها الا بعد انقضاء ستة اشهر ، وظهر كذلك ان المسيو تيير لم يكن جادًّا فى وعده ، ولو كان جادا لبادر بنجدة اليه فى سورية يتماسك بها الجيش المصرى ، لكن شيئا من ذلك لم يحصل ، وعمد المسيو تيير الى سياسة التسويف فلم يعمل ولكنه سيعمل !! ، ثم أخذ يتراجع فى خطته ، فأوفد رسولا وهو المسيو والسكى الى محمد على باشا ليشير عليه بفتح باب المساومة مع

الباب العالى فى مطالبه ، فاتبع محمد على مشورته وعرض الصلح على قاعدة تخويله حكم مصر الوراثى فى اسرته وحكم سورية مدة حياته ، ونزوله عن كريت وادنه وجزيرة العرب ، ولكن الباب العالى رفض هذا الصلح

فحبط سعى المسيو تيير وأمعن فى تراجعه، فاستدعى الاسطول الفرنسى الذى كان يرقب الاحوال فى مياه الشرق، وأمره بالعودة الى فرنسا ، وهكذا أخفقت سياسة تيير وتخبط من فشل الى فشل وعرض كرامة بلاده للامتهان ، وجنى على مصر بان ورطها فى رفض شروط معاهدة لندره وسول لها ثم تخلى عنها وتركها وحدها ازاء الدول المتألبة عليها ، فأذعنت واضطرت الى قبول شروط أسوأ مما عرض عليها فى المعاهدة ، فلم يجد المسيو تيير تلقاء هذا الفشل الا ان يقدم استقالته فاستقالت وزارته فى اكتوبر سنة ١٨٤٠ ، وليته كان من الممكن أن يستقيل عمله ...

وألف المارشال سول Soult الوزارة الجديدة فنفضت يدها من المسئلة المصرية البتة

وهكذا انسحبت فرنسا من الميدان ، وتركت مصر وجها لوجه امام الدول الاوروبية ، بعد ان ورطتها فى مقاومة قرار الدول المؤتمرة ، وكانت هذه السياسة الخرقاء من فرنسا سببا فى ازدياد ضغط الدول على محمد على وانقاص المزايا التى سوغتها معاهدة لندره لمصر ، ولو لم تحرضه فرنسا وتعده وتغره لقبل شروط المعاهدة فكان لا يضطر بعد ذلك الى قبول شروط اكثر ضررا على مصر وأشد نكاية .

ولقد حاول بعض المؤرخين الفرنسيين ان يبرروا مسلك فرنسا فى أزمة سنة ١٨٤٠ فزعموا ان الحكومة الفرنسية افهمت محمد على من مبدأ الأزمة أنها لا تحارب أوروبا تأييدا لمطالبه وان رسلها طلبوا اليه ان ينزل عن طرسوس وادنه ، وان الملك لويس فيليب وعده تلقاء ذلك ان يسعى لتخويله ولاية مصر والشام له ولورثته من بعده ، ولكن محمد على رفض ماعرضه لويس فيليب ، وسلك خطة

الانتظار والتردد، فتارة كان يعد قناصل الدول بالخضوع للسلطان وطورا كان يبدى الرفض أن ينزل عن شئ.

ويلوح لنا أن هذا الدفاع لا يستند الى وقائع صحيحة فان الثابت ان الحكومة الفرنسية هى التى أغرت محمد على بسلوك مسلك التشدد ثم تخلت عنه فى آخر لحظة ، وهكذا كان انسحاب فرنسا من الميدان سنة ١٨٤٠ شبيها بانسحابها من المسئلة المصرية سنة ١٨٨٢ ، أى بعد نيف وأربعين سنة ، فانها تركت انجلترا فى آخر لحظة تعمل وحدها على تحقيق مطامعها فى مصر.

مهمة الكومودور (نابييه)

ولما تم للحلفاء احتلال الثغور السورية وقطعت مواصلات الجيش المصرى بحرا أنفذ القائد العام لقوات الحلفاء الاميرال استوبفورد Stopford بعض السفن الحربية الانجليزية بقيادة الكومودور السير شارل نابييه Napier الى مياه الاسكندرية للقيام بمظاهرة بحرية امام الثغر لتهديد محمد على باشا واجباره على الاذعان لمطالب الحلفاء

جاء السير شارل نابييه يقود العمارة الانجليزية ، وكان الشتاء قد اقبل ، فرأى ان التظاهر لا يصنع شيئا ، وانه لا بد لاكراه محمد على على التسليم من قوة برية تحتل السواحل المصرية ، ولم يكن على ظهر العمارة الانجليزية جنود بريون ، فضلا عن ان فصل الشتاء يحول دون مرابطة السفن الحربية على مقربة من الشاطىء ، ولم يكن لدى الانجليز وحلفائهم من القوات البرية ما يكفى للنزول الى البر والاستظهار على الجيش المصرى ، لان الجيش كان على تمام الاهبة لردعادية المعتدين ، ولولا ذلك لما ترددت انجلترا فى اغتنام تلك الفرصة لتحقيق اطماعها القديمة واحتلال البلاد كما فعلت سنة ١٨٠٧ ، ثم سنة ١٨٨٢ ، فالقوة التى أعدتها مصر للدفاع عن كيانها هى التى حالت دون مخاطرة الانجليز بانزال جنودهم الى الاراضى المصرية ، وهذا ماجعل محمد على مطمئنا على مركزه ، ومما يذكر عنه فى هذا الصدد ان قنصل

انجلترا (١) فى مصر جاءه بعد التوقيع على معاهدة لندره وقابله بالاسكندرية وتهدده بان الدول مستعدة لاجباره بالقوة على الاذعان لشروطها ، وان انجلترا وحدها كفيلة بذلك ، ففهم محمد على ان القنصل يرمى الى التهديد باحتلال مصر ، فاجابه فى لهجة الحزم « اذا كانت الدول المتحالفة تريد أن تكرهنى بالقوة على الاذعان فلتتفضل بالمجىء ، فانى على استعداد لمقابلتها ، واذا كانت انجلترا تريد ذلك وحدها فانى اكثر استعداداً لمقابلتها ، انى لا أهاجم أحدا ، ولكنى مستعد للدفاع عن البلاد حتى آخر نسمة من حياتى »

وقد تأثر محمد على من هذه المناقشة ، وقال لمن حوله « ان الانجليز يتهددوننى بالنزول الى بر مصر ، فليجربوا ! وليسفذوا وعيدهم ! فسيرون أننا على استعداد لملاقاتهم ، وان الأجنة فى بطون امهاتهم ستشترك فى قتالهم » (٢)

يتبين مما تقدم ان محمد على كان على تمام الاهبة للدفاع عن البلاد ، ولقد ادرك الكومودور نابييه أن لا سبيل الى اخضاعه بالقوة ، فرأى أن يجرب معه خطة المفاوضة والمسالمة ، فاوفد له رسولا يحمل اليه خطابا (٣) يعرض عليه فيه رغبة الدول فى أن تكفل له ملك مصر الوراثى على أن يرد الاسطول التركى الى الباب العالى ، وان يسحب جنوده من سورية ، وأعرب له فى الخطاب عن مقاصده الودية نحوه ، وانه انما يبغى ابداء النصح اليه حقنا للدماء ، ولم يفته فى كتابه ان ينبهه الى الخطر الذى يستهدف له اذا هو أصر على الحرب ، وان مصر ليست فى المناعة التى يعتقدها محمد على ، وأن الاسكندرية يمكن أن تسقط كما سقطت عكا من قبل

كانت هذه الرسالة كلمةً من سلم وكلمةً من حرب ، ثم أعقبتها خطوة أخرى من الكومودور ، ذلك انه جاء بنفسه وطلب مقابلة محمد على ، فاذن له فيها ، فعرض

---

(١) الكولونل هودج Hodges

(٢) مورييه . تاريخ محمد على ج ٤ ص ٢٥٣

(٣) بتاريخ ٢٢ نوفبر سنة ١٨٤٠

عليه الاذعان لمطالب الحلفاء ، وكانت عباراته فى المقابلة أشد من اسلوبه فى الرسالة ، فأصر محمد على باشا على الرفض ، فتهدده نابييه باحراق المدينة ، فلم يعبأ بوعيده ، وأجابه فى هدوء وسكينة « هيا فاحرقوها » ، فانسحب نابييه ، وامهل محمد على اربعا وعشرين ساعة ليقرر رأيه الذى سيستقر عليه .

فكر محمد على فى الموقف مليا ، فرأى من الحكمة السياسية ان يجنح الى السلم و يقبل العرض الذى عرضه الكومودور نابييه ، إذ لا طاقة لمصر بمحاربة الحلفاء مجتمعين ، وخاصة بعد تخلى فرنسا وانسحابها من الميدان ، كما ان انباء الحرب فى سورية تدل على حرج مركز الجيش المصرى هناك ، فان سقوط الثغور وخاصة عكا فى يد الحلفاء ، وانسحاب الحاميات المصرية منها ، وقيام الثورات والفتن فى مختلف النواحى ، مما رجح عنده فكرة الانسحاب من سورية ، فتبادل والكومودور نابييه المفاوضة فى سبيل الصلح ، وانتهت بعقد اتفاق وقعه بوغوص بك وزير خارجية مصر والكومودور نابييه[1]

وهذا الاتفاق يقضى بان يجلو الجيش المصرى عن سورية ، ويرد محمد على الاسطول التركى الى الباب العالى ، مقابل تخويله ملك مصر الوراثى بضمانة الدول

وقد رفض الاميرال استوبفورد قائد القوات البريطانية الاعتراف بهذا الاتفاق بحجة أن الكومودور نابييه لا يملك عقده ، ولم يكن منوطا به اجراء المفاوضة فيه ، وكذلك رفضه السلطان وتشبث بعزل محمد على ، واعترض عليه اللورد بونسونبى سفير انجلترا فى الاستانة وأعلن بطلانه ، لكن اللورد بالمرستون رأى فيه فضا لأزمة خطيرة لم يكن معلوما مدى عواقبها ، فأعلن باسم الحكومة إجازته للاتفاق ، وحمل الدول على قبوله ، فأرسلت انجلترا والنمسا وبروسيا والروسيا الى الباب العالى مذكرة (فى ٣٠ يناير سنة ١٨٤١) تطلب فيها اليه الرجوع عن قرار العزل وتخويل محمد على حكم مصر الوراثى ، فاستجاب السلطان الى طلبات

---

(١) بتاريخ ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠ ، وقد نشرناه فى قسم الوثائق التاريخية

الدول كما سيجيء بيانه ، وفى غضون ذلك ارسل محمد على باشا الى ابنه ابراهيم يأمره بالجلاء عن سورية والعودة الى مصر تنفيذا لاتفاقه مع نابييه

اخلاء الجيش المصري سورية

اذعن ابراهيم باشا للأمر ، وأخذ يتأهب لاخلاء البلاد ، فبدأ رجوع الجيش المصرى فى اواسط ديسمبر سنة ١٨٤٠ واحتشد بالقرب من دمشق تمهيدا للانسحاب جنوبا ، فأخلاها فى ديسمبر سنة ١٨٤٠ ، وكان عدد الجيش المصرى وقتئذ نحو سبعين ألف مقاتل يتبعهم عدة آلاف من افراد الاسر والبيوت المصاحبة للجيش من الموظفين وغيرهم ، ولاقى الجنود والملكيون متاعب هائلة فى انسحابهم لما أصابهم من الاعياء والجوع والعطش والتعب فى قطع المسافات الشاسعة ، وماتحملوه من نقل المهمات والمدافع ، وما استهدفوا له من مناوشات العرب فمات كثير منهم فى الطريق ، وسار الجيش فى انسحابه الى (المزيريب) شرقى بحيرة طبرية ، ومن هناك توزع الى ثلاثة فيالق أخذ كل فيلق طريقا الى مصر ، فالفيلق الأول وهو مؤلف من المشاة والخيالة النظاميين أخذ سبيله بطريق غزة فالعريش ، وكان يتولى قيادته احمد المنكلى باشا ، والفيلق الثانى بقيادة سليمان باشا الفرنساوى وكان مؤلفا من المدفعية ، سار بطريق الحج الى معان ومنها الى العقبة فالنخل فالسويس ، والفيلق الثالث وكان مؤلفا من جنود الحرس وفرسان الهنادى والباشبوزق بقيادة ابراهيم باشا اتخذ سبيله الى غزة ومنها بحرا الى مصر

وقد لقى فيلق المنكلى باشا الاهوال فى طريقه ، وفقد عددا كبيرا من رجاله بسبب الجوع والعطش والاعياء ووعورة المسالك ومناوشات العربان ، وخسر هذا الفيلق نحو نصف رجاله

وسار فيلق سليمان باشا من طريق معان والعقبة ، وكابد كذلك المتاعب المهلكة ، غير أنه لم يلق مالقيه الفيلق الأول وفقد من رجاله نحو الف وخمسمائة

و وصل الفيلق الثالث بقيادة ابراهيم باشا الى غزة بعد مالقى الاهوال فى طريقه ،

ومات عـدد كبير من جنوده ومن الموظفين والنساء والاطفال الذين صحبوه فى الانسحاب

ولما وصل غزه أرسل ابراهيم باشا الى ابيه يطلب اليه امداده بالمؤن والملابس والسفن لتنقل الجيش بحرا الى الاسكندرية ، وأخلى غزة يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٤١ ، و بذلك تم اخلاء الجنود المصرية لسورية

وقد بلغ عدد الجنود الذين عادوا الى مصر نحو أربعين الف مقاتل ، أى ان ما فقده الجيش خلال الانسحاب بلغ نحو ثلاثين الفا ، اما الخسائر من الملكيين فلم يتناولها احصاء دقيق ، وقد أورد المسيو موريبه Mouriez (١) احصاءً مروعا قد يكون فيه ثمة مبالغة ، لكنه يدل على هول الخسائر التى حاقت بالمصريين فى انسحابهم من سورية ، فقد ذكر ان عدد افراد الجيش والملحقين بهم من الملكيين والموظفين وعائلاتهم وحاشيتهم كان قبل الانسحاب ٢٠٠ الف نسمة ، فلم يرجع منهم سوى ستين الفا ، وقال تعليقا على هذا الاحصاء ان هـذا الانسحاب وما اقترن به من الأهوال والضحايا يعد من افظع ماروى عن فجائع تقهقر الجيوش فى التاريخ

رأى مؤرخى سورية فى الحكم المصرى

طويت صحيفة الحكم المصرى فى سورية بجلاء الجيش المصرى عنهـا ، وصار ما له وما عليه ملكا للتاريخ ، ولعلك لاحظت مما فصلناه فيما تقدم ان انتقاض السوريين على الجيش المصرى كان من اهم البواعث التى حملت محمد علي على تقرير الجلاء عن سورية ، ويجمل بنا فى هذا المقام ان نثبت ماذكره مؤرخو سورية عن الحكم المصرى لمناسبة انقضاء عهده ، والمقارنة بينه و بين الحكم التركى ، وما اخذوه على السوريين واللبنانيين من الاستجابة لدسائس الانجليز والترك وقيامهم فى وجه الادارة المصرية والجيش المصرى ، واعتبار هذا المسلك من غلطات سياستهم القومية ، وفى هذا القول شهادة انصاف للحكم المصرى

(١) فى كتابه تاريخ محمد على جزء ٤ ص ٣٧٦

قال الاستاذ محمد كرد على بك رئيس المجمع العلمى العربى فى كتابه خطط الشام[1] مايلى :

« كانت حسنات حكومة محمد على فى الشام اكثر من سيئاتها ، لانها وضعت أصول الادارة والجباية ورفعت أيدى أرباب الاقطاعات واعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية ، ولم يخلص من ذلك إلا الامير بشير الشهابى والى لبنان ، فانه نال ولايته مباشرة من محمد على فى مصر وظل يتصرف بلبنان ، وبذلك رفعت سلطة المشايخ والأمراء المستبدين ، قال مشاقة[2] وكانت الدولة التركية خبيرة بأحوال الشعب اكثر من الدولة المصرية ، فبعثت تدس الدسائس الى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة ليحضوا الشعب على شق عصا الطاعة طمعا بارجاع نفوذهم ، وكان النصيرية أول من شق عصا الطاعة ، وتبعهم الدروز فى حوران ووادى التيم ، فقضى المصريون معظم أيام دولتهم فى الشام فى الحروب والقلاقل

« ومن مآثر الحكومة المصرية التى عددها مشاقة تخفيفها المستنقعات وتصريف الاقذار فى مجار خاصة ، وتحديد اسعار اللحوم ، والعدل بين الرعايا على اختلاف اديانهم وطبقاتهم ، لاتكلف صاحب الحق نفقة لتحصيل حقوقه ، وانفاق كل مال فى وجهه المخصص له ، ومع ذلك ظل الشعب يسومها العداوة ويناقشها الحساب لانه اعتاد ان يكون محكوما لا حاكم نفسه ، عبدا لا حرا »

وقال فى موضع آخر

« اثبتت حكومة محمد على فى فتوحها ان المصرى بل العربى اذا تهيأ له زعيم عاقل لايقل عن الغربيين فى سيرته وجلادته ، وأنه لم يضره فى القرون الماضية إلا فناؤه فى الحكومة التركية ، وكانت حكومة محمد على من أفضل مارأت الشام

---

(١) ج ٣ ص٦٦

(٢) هو الدكتور ميخائيل مشاقة مؤلف كتاب مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان

من الحكومات منذ ثلاثة أو اربعة ، قرون ، بل ان الشام فى القرون الوسطى والحديثة لم تسعد بما يقرب منها فضلا عما يماثلها ، كتب المستر برانت قنصل بريطانيا فى دمشق الى سفير دولته فى الاستانة سنة ١٨٥٨ م. ماتعريبه : لما كانت الايالة تحت حكم محمد على باشا عاد كثير الى سكنى المدن والقرى المهجورة ، والى حراثة الاراضى المهملة ، وهذا ماحدث خاصة فى حوران وفى الارجاء الواقعة حوالى حمص وفى كل الجهات الواقعة على حدود البادية ، وفى هذه الاماكن أكره العرب على احترام سلطة الحكومة ، وجعل السكان بمأمن من إعتدائهم ، وكان الشام باسره تحت ادارة شريف باشا وقيادة الجيش الذى يبلغ عدده زهاء ٤٠ الف جندى من منظم وغير منظم بامرة ابراهيم باشا ، فبحسن ادارة الاول تضاعف نجاح الأهلين وحسنت المالية فى هذه النواحى ، كما أن نشاط ابراهيم وحزمه وطد الأمن ، ومد رواق الثقة ، وقد عدت الحكومة ظالمة لكنها فى الحقيقة لم تكن تستطيع غير ذلك ، إذ كان عليها ان تصلح عدة أمور مختلة ، وان تبدل الفوضى والتعصب والقلاقل التى كانت سائدة بالعدل

« فاصحاب المقامات العالية والافندية والاغوات (رؤساء الجند) امتعضوا كثيرا من ذلك لانهم كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة والحرف وسائر الطبقات العاملة ، وقد سر هؤلاء كثيرا لخلاصهم من الظلم الذى أنوا تحت عبئه طويلا ، واغتبط المسيحيون خاصة وفرحوا لنجاتهم من التعصب الذى أوصلهم الى درجة من الذل لاتطاق ، ولم يكن الفلاحون أقل سرورا منهم لانه وان كانت الضرائب المقررة تستوفى بكل شدة فلم يكن يستوفى منهم بارة زيادة ولا تضبط حاصلاتهم وغلالهم ولا يؤخذ منهم شيء دون دفع ثمنه ، ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل ، وقد فرضت الخدمة العسكرية على المسلمين ، وهذا الامر الجديد كان ينبوع استياء عظيم ، أما المسيحيون الذين كانوا يدفعون الخراج فأعفوا من الخدمة العسكرية ، والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة أسلفوا مالا لاصلاح بيوتهم وتموينها وأعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين ».

« وقصارى القول ان جميع هذه المساعدات بذلت لزيادة الحاصلات ، وكم من مرة ذهبت الجنود بامر ابراهيم باشا لاتلاف بيوض الجراد وما نفق منها ، وبفضل هذا الحكم الحازم العادل المحترم من الجميع أخذت البلاد تترقى فى مدارج النجاح والنماء ، فلو طال عليها الحكم المصرى لاستعادت الشام قسما عظيما من وفرة سكانها القدماء وأصابت شطرا كبيرا من الثروة التى كانت فى الماضى وآثارها لم تزل ظاهرة للعيان فى القرى والمدن العديدة فى جهات حوران ، وفيما وجد فى البادية حيث ترى فيها الطرق التى اختطها الرومانيون

قال : « ولم يكد المصريون يطردون من البلاد ويتقلص ظل سطوتهم — وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد — حتى عاد القوم الى نبذ الطاعة ، وخلفت الرشوة والتبذير فى ادارة المالية النزاهة والاقتصاد ، ومنيت المداخيل بالنقص ، واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان ، فخلت القرى والمزارع المأهولة جديدا بالتدريج ، حتى أمكن القول انه لا يوجد ثمّ ظل للأمن على الحياة والأملاك ، وكل شيء يدل على عودة حالة الفوضى الى هذه البلاد التى تركها المصريون »

ونقل الاستاذ محمد كرد على بك نبذة عن كتاب (بريبه) وما كتبه اطراءً للحكم المصرى ثم قال تعليقا عليه(١)

« هذا هو الانصاف فى الحكم على حكومة ابراهيم باشا ، وما هى فى الحقيقة الا روح محمد على الكبير الذى كان يستمد منه ابنه ، ولا يصدر الا عنه فى الخطوب ، ولا يقطع امرا دون الرجوع الى رأيه حتى جاءت احكام المصريين نموذجا فى الادارة ، ولو أرادت الدولة العثمانية أن تستفيد من هذا الدرس لأرادت عمالها على تطبيق خطط ابراهيم باشا فى الاصلاحات التى قام بها خلال التسع السنين التى قضاها فى هذا القطر ، ولكن العثمانيين ابتلوا بالاهمال والغرور ، لا يعمدون الى حسن الادارة ولا يتظاهرون بالاحسان الا يوم الشدائد ، فاذا زالت عادوا الى طبائعهم

---

(١) خطط الشام ج ٣ ص ٧٠

فى إعنات الرعية والقاء الحبل على الغارب ، ونسوا ما أعطوا من عهود وما وضعوا من القوانين ، وهـذا ما دعا الى ظهور الفروق الـكثيرة بين الادارتين المصرية والعثمانية بعد رحيل جيش ابراهيم باشا عن هذه الديار ؛ وهو الجلاء الذى اقتضته الدول الـكبرى بل الدولة البريطانية التى حملت الدول على موافقتها على رأيها لآمال لها تريد تحقيقها فى مصر والشام، لتـكون هى الحاكمة المتحكمة فى مصالحها لا الدولة المصرية الفتية التى تحب فرنسا وتساهمها سياستهـا احيانا ، وما مصر والشام الا طريق الهند الاقرب بل مفتاحها من البحر المتوسط ، واذا اردنا ان ننظر بعين المؤرخ المنصف نرى بريطانيا العظمى هى التى اقتضت سياستها القضاء على أمانى محمد على بل امانى العرب من انشاء دولة عربية »

وقال فى موضع آخر :

« ولم يلتو القصد على ابراهيم باشا الا لمـا دخلت اصابع الأجانب وأخذوا يثيرون عربان نابلس وسكان كسروان وجبال النصيرية ودروز لبنان ووادى التيم وجبل حوران وكل من عرفوا بالمضاء من سكان الجبال ، واما المدن والسواد الاعظم من الناس فقـد استقبلوه وأخلصوا له وشعروا بحسن ادارته . الى ان قال :

« ولقد تجلى فى وقائع محمد على فى الشام تجليا لامجال للريب فيه ، ان اختلاف المذاهب وتباين التربيـة كان من العوامل القوية فى ابقاء الفتنة بين ابناء هـذا الوطن ، وأن دول اوروبا عند اغراضها تستحل بث بذور الشقاق بين المتآلفين، وتستخدم وسائط غريبة فى تـكدير صفاء الآمنين وتعبث بعقول السذج المساكين، وانها قلما اهتمت لمصلحة أمة من أمم الشرق ، بل تهمها مصلحتها فقط ، ولو كانت تريد الخير للشام لتركته يسعد ويرقى بحكم محمد على الذى كان باقرار رجالها من أرقى ماعهدته البلاد منذ قرون ، ولعـل ابناء الشام أيقنوا بخطأهم فى الانتقاض على الحـكومة المصرية التى هى مثلهم عنصراً ولغـة وعادات وانهم كانوا على ضلال فى الحنين الى حكم العثمانيين ، وما كان من حقهم ان ينسوا فى سنين قليلة كيف كان حكامهم يسارعون فى الاثم والعدوان » وقال فى موضع آخر :

« تبين الفرق بين الادارتين المصرية والعثمانيـة ، ولو طال عهد المصريين اكثر — وكانوا فى صدر الفتح يتخوفون بادرة العثمانيين كل حين — لسعدت البلاد حقيقة وأيقن حتى من كانوا ينعمون من دماء الأمة على العهد العثمانى ان طريقة المصريين فى المساواة بين الطبقات والمذاهب المختلفة ، والشدة فى انفاذ القوانين ، وتقليد الغرب فى كل أمر جوهرى ، أفضل طريقة لراحة البلاد ، وكان يرجى أن يألفوا فى مدة قصيرة ماتأصل فى فطرهم على توالى القرون وتعودوه من حكم ارباب الاقطاعات الذين صدهم المصريون عن تجارتهم الشائنة التى ألفوها زمن العثمانيين ، وهى الاتجار بالجباية يجبونها اضعافا ويسلبون الباقى من دم الامة بمرأى من الحكومة ومسمع ، ولم تـكد تخلى الجنود المصرية بلاد الشام حتى رجعت الى حالتها قبل المصريين وثارت العداوات القديمة فى الصدور وزادت الدسائس الاجنبية »

هذه الشهادة ناطقة بحسنات الحكم المصرى فى سورية ، وبما كان له من الفضل فى نشر لواء الحضارة والعدل والعمران فيها ، وإنه لقول حق ماذكره الاستاذ محمد كرد على بك من أن الدسائس الاجنبية وخاصة الانجليزية هى التى خلقت العراقيل أمام الادارة المصرية فى سورية ، فلولا تلك الدسائس لسعدت سورية بانضمامها الى مصر ولتألفت منهما الدولة المصرية العربية التى كانت على عهد الفاطميين والايوبيين والدولتين البحرية والبرجية ، ولكن المطامع الاستعمارية أحاطت مصر الفتية بالدسائس والفتن ، وهذه الدسائس هى التى اعترضت مصر فى طريق تقدمها ، وناهضتها فى سورية ، وفى كل ناحية ، داخل مصر وخارجها ، وحالت دون تأليف الدولة المصرية الكبرى التى كان محمد على يعمل لها ، ومافتئت انجلترا تدبر المكايد وتخلق المشاكل طوال القرن التاسع عشر حتى أوقعت مصر فى ازمة سنة ١٨٨٢ .

فالسياسة التى رسمتها انجلترا ازاء مصر منذ أواخر القرن الثامن عشر هى التى أملت عليها خططها فى مناهضتها والكيد لها فى الداخل والخارج ، ولم تنل منها فى عهد محمد على بمقدار مانالته فى عهد خلفائه ، ذلك لما كانت عليه مصر على عهده من القوة والمنعة ، فلما تراخت القوة ، وتفرقت الكلمة ، وانفتحت الثغرات ،

تربصت انجلترا بالبلاد حتى احتلتها سنة ١٨٨٢ ، ذلك الاحتلال الذى لانزال نعانيه الى اليوم

لم أكن من جناتها علم الله وانى بحرها اليوم صالى

إخلاء جزيرة العرب

كان محمد على يحرص قبل معاهدة لندره على استبقاء نفوذه وسلطته فى الحجاز لما فى ذلك من اعلاء هيبته فى انحاء العالم الاسلامى باعتباره حاميا للحرمين ، ولذلك مافتئ يعمل منذ الحرب الوهابية على توطيد مركزه فى ربوع الحجاز وفى شبه جزيرة العرب ، وباسناد تركيا ولاية جدة الى ابراهيم باشا قد خولته حقوق السيادة التى كانت لها فى شبه جزيرة العرب ، واتصل امام مسقط بمحمد على بروابط الود والصداقة والولاء

على أن القوات الحربية المصرية التى استقرت هناك كانت دائما عرضة لتوثب القبائل ، وقد نازعه فى بسط نفوذه عامل آخر وهو السياسة البريطانية الاستعمارية ، فان انجلترا بعد أن وضعت يدها على عدن كانت تنظر متوجسة الى القوات المصرية المجاورة لها فى اليمن ، واحتجت بان هذا الجوار مما يثير فى نفوس الاهالى روح التعصب الدينى ، على أن محمد على ظل محافظا على سلطة مصر فى جزيرة العرب رغم مايقتضيه ذلك من النفقات الطائلة الى أن تحرجت الحالة فى ختام سنة ١٨٤٠ ورأى ملك مصر مهددا فى سورية فاسترجع قواته من الجزيرة

فالقوات المصرية بقيت محتلة الحجاز ومعظم جزيرة العرب مدى عشرين عاما تخللتها ثورات عدة احتملت مصر فى سبيل اخمادها متاعب هائلة ونفقات طائلة ، وانا ذاكرون هنا لمعة من تاريخ الحكم المصرى بها وما اعترضه من العقبات

ففى سنة ١٨٢٤ ثار الوهابيون فى بعض البلدان فاشتبكوا فى مناوشات مع القوات المصرية حتى ظهرت عليهم

وفى سنة ١٨٢٧ نشبت ثورة فى مكة حيث قتل الشريف يحيى ابن أخيه

لاتهامه بالائتمار به والتواطؤ عليه مع احمد باشا يكن والى الحجاز من قِبَل محمد على ، ولما كان يتوقعه الشريف من عواقب انتقاضه غادر مكة ولاذ بقبيلة حرب واستصرخها ، فثارت فى وجه السلطة المصرية

فقام احمد باشا يكن لمحاربتها وقصاصها ، لكنه انهزم بالقرب من جبل عرفات واشتد بذلك ساعد الثوار وانضمت اليهم القبائل ، فلما علم محمد على بنبأ هذه الثورة أنفذ الى الحجاز مددا من خمس أورط من الجنود النظامية والف من الفرسان ، وعين الشريف محمد بن عون الذى كان نزيل القاهرة شريفا لمكة بدلا من الشريف يحيى الثائر ، فذهب بن عون صحبة المدد المصرى الى الحجاز ، فتشجع أحمد باشا يكن بهذا المدد واستظهر به ، وضرب الحصار على (الطائف) حيث امتنع الشريف الثائر واتباعه ، ثم توقع الشريف سقوط المدينة فى يد الجيش المصرى ففر منها ، فتعقبه الفرسان وما زالوا على أثره حتى أخذوه هو وثلاثة من أشراف مكة الذين ناصروه فى ثورته ، فجىء بهم إلى القاهرة واستبقاهم محمد على رهائن فى يده ليضمن استقرار الأمن فى الحجاز

وفى سنة **١٨٢٩** ثارت هناك بعض القبائل وامتنعت عن اداء ما كان مضروبا عليها سنويا من البن ومقداره **١٢٠٠** قنطار ، فأنفذ محمد على إلى جدة قوة جديدة لاعادة النظام واقراره .

وفى سنة **١٨٣٢** شبت فى جدة فتنة عسكرية قوامها بعض الضباط من العناصر غير النظامية من بقايا الجيش القديم ، وكان والى الحجاز وقتئذ خورشد بك ، فطالبه الضباط والجنود ومعظمهم من الارناءود والترك بما تأخر من عطائهم ، وساروا بجموعهم إلى مكة يتبعون زعيميهم (زنار اغا) و (تركى بيلمز) ، فتوسط شريف مكة بين خورشد بك والمتمردين واتفقوا على أن يعود هؤلاء إلى جدة و يوافيهم بها خورشد بك ، فذهب اليهم ولكنهم أسروه ، ونادوا بتركى بيلمز واليا على الحجاز ، وكان هذا العمل هو المجاهرة الصارخة بالتمرد والفوضى ، وانضم أهالى مكة إلى المتمردين نكاية بالمصريين ، فشبت نار القتال بين الجنود المتمردة والحامية المصرية ، لكن الحامية ردتهم على أعقابهم

وفى خلال هذه الفتنة ورد الى مكة نبأ استيلاء الجيش المصرى على عكا ، وكانت الحرب السورية الأولى مستعرة ، فأخمد هذا النبأ جذوة المتمردين ، ولما علم الباب العالى بالفتنة ابتهج بها وأرسل فرمانا إلى (تركى بيلمز) يقره والياً على الحجاز نكاية بمحمد على وتشغيباً عليه .

وصل نبأ هذه الفتنة إلى مصر ، فبادر محمد على إلى إنفاذ الألاى السابع من الجنود النظامية و ١٥٠٠ من الفرسان ، فبلغت عدتها نحو ٤٠٠٠ مقاتل ، وعقد لواءها لاحمد باشا يكن (١) وجعله رئيسا لعسكر الحجاز ، وناط به اخماد الفتنة ، وكان محمد على عظيم الاهتمام بتوطيد نفوذ الحكومة المصرية فى الحجاز واليمن لما للحرمين الشريفين من الأهمية السياسية والدينية ، ولأن ثغور الحجاز واليمن هى العتمد الوثيقه فى خيط الاتصال بين مصر ومتاجر الهند وجزيرة العرب

وصلت الحملة المصرية بقيادة أحمد باشا يكن إلى ينبع ، وسارت منها الى جدة فاحتلتها بعد أن انسحب منها تركى بيلمز الى (قنفذة) وكانت بها حامية مصرية ، فلما امتنعت عليه استمر فى انسحابه إلى (الحديدة) من ثغور اليمن ، ثم استقر فى (مخا) ، ولم يقو إمام (صنعاء) على رده ، فعهد محمد على إلى أحمد باشا يكن والى الحجاز بمطاردته ، ففى سنة ١٨٣٣ سار اليه فى خمسة عشر الف مقاتل ، وكان شيخ العسير موالياً للجيش المصرى ، فحاصر (مخا) حتى فتحها عنوة ، وهرب تركى بيلمز والتجأ إلى إحدى السفن البريطانية ، و بذلك انتهت الفتنة ، ولكن شيخ العسير نهب مخا نهباً مدمراً وكانت مستودعا لمتاجر الهند فبارت التجارة الهندية بسبب هذا النهب سنين عدداً (٢) .

وقد أجمع محمد على أن يجتث جذور الثورة فى جزيرة العرب و يستولى على اليمن ، وكانت الحملات والامراض قد ثغرت فى صفوف الجيش المصرى فنقصتها ، وكذلك

---

(١) كان قد انفصل عن ولاية الحجاز الى وقت ثم أعيد إلى منصبه ثانيا وقلده محمد على رآسة عسكر الاقطار الحجازية

(٢) مانجان ج ٣ ص ٦٤ .

وزعت الحاميات العسكرية فى قنفذة والحديدة و بعض بلاد اليمن ، فنقصت قوة الوحدات المتحركة من الجيش ، وقد علم محمد على بهذه الحالة ، فأنفذ قوة جديدة من ثلاثة الايات من المشاة والفين من الفرسان بقيادة ابراهيم باشا يكن الذى جعله سر عسكر اليمن (سنة ١٨٣٦) ، فبلغ عدد الجيش المصرى فى جزيرة العرب ثمانية عشر الف مقاتل ، فمضى ابراهيم باشا يكن يزحف على اليمن يعاونه الشريف عون

سارت الحملة الى بلادالعسير ، وهناك احتمل الجنود مشقات هائلة من وعورة الطرق وسوء المناخ وقلة الماء وفداحة المتاعب ، و وقعت المصادمات والمناوشات بينها و بين القبائل ، فاندحر الجيش المصرى امام البدو وحلت به الخسائر الجسيمة ، و رجع ابراهيم باشا ادراجه الى الحجاز بعد ان فدحته الخسائر ثم استأنف زحفه على اليمن فاحتل الثغور و بعض المواقع فى الداخل

ولما علم محمد على بالانباء الأولى عن حملة اليمن عهد بقيادة جنود الحجاز الى خورشد بك الوالى السابق الذى وقعت فى عهده فتنة تركى بلمز ، و كانت الهزائم التى حاقت بالجيش المصرى قد شجعت الوهابيين على الانتقاض فى نجد فاتجه خورشد بزحفه شمالا و وصل الى الدرعية ، وتخطى فتوحات ابراهيم باشا ، وزحف على الاحساء و وصل الى شاطىء الخليج الفارسى ، وجمع عدة من السفن واحتل جزائر البحرين فى الخليج ، ولما رأت القبائل سرعة زحف الجيش المصرى اقبلت تقدم الطاعة له وامتدت سلطة مصر الى الخليج الفارسى ، ولكن السياسة الانجليزية هالها تقدم نفوذ مصر الى مصب دجلة والفرات والى مياه الخليج الفارسى القريب من الهند وخشيت على سلطانها هناك ان يزعزعه امتداد نفوذ مصر الى حيث بلغ ، كما انها خشيت من نفوذها فى بلاد اليمن لانها على طريقها للهند ، فاحتلت (عدن) وأرسخت قدمها فيها ، و بذلت مساعيها السياسية ومنها تهديد محمد على بان تثير عليه تركيا والدول الاوروبية ، فاضطر الى مجاملة انجلترا اتقاء لشرها ، فاصدر امره الى خورشد بك باخلاء (البحرين) ، اما فى اليمن فقد أعلن

إمام (صنعاء) ولاءه لابراهيم باشا يكن يتقى بولائه بطش الأنجليز بعد ان احتلوا عدن

ولما اوشكت على نهايتها سنة ١٨٤٠ رأى محمد على أن بقاء الجيوش المصرية فى جزيرة العرب يحمّل الخزانة نفقات لاقبل لها بها ، وانه فى حاجة الى حشد جنوده حشداً واحداً حينما تألبت عليه الدول المتحالفة مع تركيا بعد معركة (نصيبين) ، فاستقر عزمه على استدعاء الجند من جزيرة العرب ، ثم اخلاها الى غير رجعةٍ سنة ١٨٤١ تنفيذاً لمعاهدة لندرة ، وبذلك طويت صحيفة الحكم المصرى فى الجزيرة

مركز مصر الدولى

بعد معاهدة لندره

ان معاهدة لندره هى الوثيقة الاساسية لمركز مصر الدولى من سنة ١٨٤٠ الى نشوب الحرب العالمية سنة ١٩١٤ ، فهى التى حددت هذا المركز وجعلت لمصر شخصية دولية مستقلة ، ورفعت مركزها من ولاية كغيرها لاتختلف عن سائر ولايات السلطنة العثمانية الى دولة مستقلة استقلالا مقيدا بقيود السيادة التركية

ان مصر قد حققت استقلالها بالفعل فى الحرب السورية الأولى التى انتهت باتفاق كوتاهية (سنة ١٨٣٣) ، لكنها فى نظر القانون الدولى لم تكن سوى ولاية ليس لها (رسميا) من امتياز عن الولايات العثمانية الاخرى ، لكن معاهدة لندره وان تكن حرمت مصر ثمرة انتصاراتها وقيدت استقلالها بقيود شتى ، إلا أنها قد اعترفت بان لمصر مركزا دوليا مستقلا عن تركيا ، إذ جعلت حكومتها وراثية فى أسرة محمد على ، ومعلوم أن ولاية الحكم ، وخاصة فى ذلك العهد ، هى مظهر السيادة والاستقلال ، ومعنى ذلك ان معاهدة لندرة اعترفت لمصر بالاستقلال مقيداً بالسيادة العثمانية ، ولم يعد لتركيا ولا لغيرها من الدول ، ان تعبث بهذا الاستقلال الذى أصبح مكفولا بمعاهدة دولية

ولم يرد فى معاهدة لندره من القيود العملية التى تحد ذلك الاستقلال سوى دفع جزية سنوية للباب العالى ، وسريان معاهدات تركيا فى مصر ، واعتبار قواتها الحربية جزءا من قوات السلطنة العثمانية

فهذه القيود هى مظاهر السيادة العثمانية التى فرضتها الدول على مصر فى معاهدة لندره

ومن الواجب ان نوضح ابهاما ورد فى أحد بنود المعاهدة وهو البند (٥) من الملحق الذى ينص على أن « معاهدات السلطنة العثمانية وقوانينها تسرى فى مصر » ، فقد يتبادر الى الذهن ان تركيا كان لها بمقتضى المعاهدة حق التدخل فى التشريع بالنسبة لمصر ، وان قوانينها تسرى فيها ، وهذا ليس من الواقع فى شىء ، فان هذا الابهام قد اوضحه فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ وفرمان أول يونيه سنة ١٨٤١ الصادر كلاهما لمحمد على ، وفرمان ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ الصادر للخديوى اسماعيل ، فالفرمان الاول عبّر عن هذه القوانين بالخط الشريف المعروف بالكلخانة والقوانين الادارية للدولة العثمانية ، أى القوانين الاساسية المماثلة له ، وخط الكلخانة هو القانون الاساسى المعروف بالتنظيمات [١] الذى أصدره السلطان عبد المجيد بتقرير حقوق الأفراد فى السلطنة العثمانية وتأمينهم على أرواحهم وأموالهم وشرفهم ومساواتهم أمام القانون والغاء المصادرة والسخرة ، فالمراد من هذا النص فى المعاهدة ان تكفل حقوق الافراد فى مصر كما تكفل فى تركيا طبقا للقانون الاساسى المعروف بالكلخانة

ويؤيد هذا المعنى ماورد فى فرمان أول يونيه سنة ١٨٤١ المكرر والمفسر لاحكام فرمان ١٣ فبراير ، فقد جاء فيه صراحة « ان القواعد المتضمنة لامنية الاشخاص والاموال ، وصون الشرف والعرض ، هى من المبادىء التى قدستها

(١) سمى خط كلخانة لانه قرىء فى الكلخانة ، ومعناها دار الورد ، وهى إحدى دوائر السراى القديمة (طوب قبو) بالاستانة

أحكام ونصوص خطنا الشريف الهمايونى الصادر عن كلخانة ، وكافة المعاهدات المبرمة والتى ستبرم بين الباب العالى والدول المتحابة يقتضى أن تكون جميعها نافذة بكامل احكامها فى مصر ، وكل النظامات التى سنها وسيسنها الباب العالى تكون أيضا مرعية فى ولاية مصر مع ملاحظة الظروف المحلية المختصة بالعدل والحقانية»

وفرمان ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ الصادر للخديوى اسماعيل صريح أيضا فى أن المراد بالقوانين الاساسية الواردة فى فرمانات سنة ١٨٤١ هو خط الكلخانة دون سواه ، فقد جاء فيه :

« ان فرمانى الهمايونى الذى منح نيابة مملكة مصر امتياز التوارث اشترط خلاف ماذكر وهو أن تكون القوانين الاساسية الجارى العمل بموجبها فى كافة أنحاء الممالك العثمانية مرعية الاجراء و نافذة ايضا فى مصر بما يوافق الحق و العدل مع مراعاة عادات الاهلين و اخلاقهم ، اما القوانين الاساسية المذكورة فليكن معلوما انها ان هى الا المبادىء العمومية المنشورة فى تنظيمات «كلخانة» اعنى تأمين الارواح و الاموال والشرف »

هذا هو المعنى الرسمى لكلمة القوانين الواردة فى معاهدة لندرة ، فهى تشبه ان تكون كالتزام دولة ازاء دولة اخرى بان تنفذ تشريع منع الرقيق مثلا ، و ليس فى ذكر هذه الكلمة مايؤخذ منه لاصراحة ولا ضمنا أن لتركيا حق التدخل فى التشريع بمصر ايا كان نوعه ، وهذا ماجرى عليه العمل منذ صدور معاهدة لندره فان حكومة مصر فى عهد محمد على و خلفائه لم تنازعها تركيا يوما مافى حقها المطلق فى التشريع والتقنين بكافة انواعه ، ولم تتدخل البتة فى هذا الصدد اطلاقاً

قيود الفرمانات

ذكرنا القيود التى كانت تحدُّ استقلال مصر فى معاهدة لندره ، ولكن الفرمانات التى اصدرتها تركيا تنفيذا للمعاهدة قد جاوزت فى بعض المواطن القيود الواردة بها ، وظاهر أن السلطان العثمانى اغتنم فرصة تألب الدول الاوروبية على مصر

فاشتطّ فى الفرمانات التى أصدرها لمحمد على وغلّها بالقيود الثقيلة الوطأة ، وخاصة فى الفرمان الاول المؤرخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ مما دعا محمد على الى الاعتراض لدى الدول على تلك الشروط وأدى اعتراضه الى تعديل فيها كما سيجيء بيانه

فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١

وهاك خلاصة الاحكام التى تضمنها فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١

(١) اذا خلا مركز السدّة المصرية يختار له السلطان من يشاء من اولاد محمد على الذكور أو اولاد اولادهم الذكور ، فاذا انقرض نسل الذكور كان للباب العالى ان يختار من يشاء للولاية دون ان يكون لاولاد الاناث حق فيها

(٢) يلزم من يختار للولاية خلفا لمحمد على بالذهاب الى الاستانة ليتلقى فرمان التقليد

(٣) ان ولاة مصر بالرغم من حقهم الوراثى تكون مرتبتهم مماثلة لمرتبة وزراء الدولة فى المخاطبات والمقابلات السلطانية

(٤) المعاهدات التى أبرمها أو سيبرمها الباب العالى وكذلك الخط الشريف المعروف بخط الكلخانه والقوانين الاساسية للدولة العثمانية تنفذ فى مصر

(٥) تكون جباية الضرائب ودخل الحكومة باسم السلطان ويتبع فيها النظام المعمول به فى تركيا لكيلا يقع الضيم باهالى مصر

(٦) يرسل رُبع ايردات الحكومة المصرية الحاصل من دخل الجمارك والخراج والضرائب الى خزانة الباب العالى ، ويخصص الثلاثة الارباع الاخرى لشؤون مصر من نفقات الجباية والادارة العسكرية والمدنية ، وحاجات الحكومة والغلال التى ترسل سنويا الى مكة والمدينة ، وطريقة اداء نصيب الباب العالى من ايراد الحكومة المصرية يعمل بها لمدة خمس سنوات ابتداءً من اول عام سنة ١٢٥٧ (٢٣ فبراير سنة ١٨٤١) ، ويجوز استئناف نظرها بالتعديل تبعاً للظروف والاحوال فى مصر

(٧) لما كان من المقتضى تحقق الباب العالى من مقدار دخل الحكومة المصرية فيلزم تعيين لجنة لمراقبة هذا الدخل تؤلف طبقا للاوضاع التى يقررها السلطان فيما بعد بارادة شاهانية

(٨) تكون السكة (النقود) فى مصر باسم السلطان ، ولا تختلف النقود الذهبية والفضية التى تضرب فى مصر عن نقدى الاستانة فى القيمة والنوع والعيار

(٩) لايزيد عدد الجيش المصرى فى زمن السلم عن ١٨٠٠٠ الف جندى ، وللباب العالى أن يرفعه الى ماشاء فى زمن الحرب ، ويتبع فى مصر نظام التجنيد المعمول به فى تركيا ، وهو يقضى بجعل مدة الخدمة العسكرية خمس سنوات ، وعلى ذلك يكتفى من مقترعى الخدمة الموجودين الآن بعشرين الفا يبقى منهم ١٨٠٠٠ فى مصر ويرسل ٢٠٠٠ الى الاستانة ، ثم يسرح خمس عدد الجيش (أربعة آلاف جندى) كل سنة بطريق القرعة ، ويقترع بدلهم أربعه آلاف مستجدون يبقى من هؤلاء بالقطر المصرى ٣٦٠٠ ويرسل ٤٠٠ الى الاستانة ، والذين يتمون خدمتهم العسكرية يعودون الى بلادهم ولايجوز اقتراعهم من بعد

(١٠) لايختلف شوار الجنود والضباط المصريين وملابسهم واعلامهم وأوسمتهم عن مثلها فى الجيش التركى ، وكذلك ملابس البحارة والجنود والضباط فى الاسطول المصرى واعلام السفن الحربية المصرية .

(١١) لوالى مصر حق منح الرتب العسكرية لضباط البر والبحر لغاية رتبة صاغ قول اغاسى ، اما الرتب العليا فيُرسم بها من السلطان

(١٢) ليس لمصر ان تبنى سفنا حربية الا باذن صريح من الباب العالى

(١٣) لما كان امتياز حكم مصر الوراثى المخول لمحمد على واسرته مقرونا بالشروط السابقة فالاخلال باىٍّ منها يؤدى الى سقوط حقهم فى هذا الامتياز (١)

---

(١) واصدر السلطان فرمانا آخر فى ذلك اليوم (١٣ فبراير) باسناد أقاليم السودان (النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع ملحقاتها) الى محمد على وهو الذى تكلمنا عنه فى الفصل السادس ص ١٩٣

هذه خلاصة شروط فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ، ومن التأمل فيها يتبين مبلغ تجاوزها لاحكام معاهدة لندرة ، فليس في المعاهدة كما قدمنا قيود عملية تحد استقلال مصر التام فيما عدا الجزية السنوية وسريان معاهدات تركيا واعتبار قوات مصر جزءا من قوات السلطنة العثمانية ، ولكن الفرمان مغلّل بالقيود الثقيلة التى لم ترد فى المعاهدة ، فليس فيها مثلا نصوص تقيد عدد الجيش المصرى وتحدده بـ ١٨٠٠٠ أو تحظر على مصر بناء سفن حربية إلا باذن الباب العالى ، أو تقيد حق الحكومة المصرية فى منح الرتب العسكرية ، او تقضى بمراقبة مالية مصر ، فهذه القيود قد فرضها السلطان فى فرمانه دون أن يكون لها سند فى المعاهدة ، وكذلك مما لا يتفق مع روح المعاهدة تقويم الجزية بربع ايرادات الحكومة المصرية ، لان ذلك فضلا عما فيه من الارهاق والاعتساف فانه يستتبع تدخل تركيا فى شؤون مصر الداخلية ومراقبة أحوالها المالية بحجة تعرُّف مقدار دخلها والتحقق من نصيبها فيه ، وكذلك لا يتفق مع روح المعاهدة انتحال السلطان حق اختيار من يشاء من اولاد محمد على أو احفاده لتولى أريكة مصر ، فان جعل حكم مصر الوراثى فى سلالة محمد على ليس معناه تحكم الباب العالى فى اختيار من يشاء منهم ، لان هذا التحكم يضيّع قيمة هذا الحق ويطلق يد السلطان العثمانى فى اختيار من يأنس فيه الضعف والخضوع لارادته من تلك السلالة ، وقد اعترض محمد على لدى الدول على ما ورد فى ذلك الفرمان من الشروط الثقيلة الوطأة ، وطلب تعديله فى نظام وراثة الحكم ومقدار الجزية السنوية وحق منح الرتب العسكرية

فقبلت الدول طلبه وأرسلت الى الباب العالى مذكرة طلبت اليه فيها ان يعامل محمد على طبقا للشروط المدونة فى ملحق معاهدة لندره

لائحة ١٩ ابريل سنة ١٨٤١

فأجاب الباب العالى الدول بمذكرة فى ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ بتعديل شروط الفرمان السابق ، وهاك أهم ماقرره من التعديلات الجوهرية .

(اولا) انه نظم وراثة عرش مصر بان جعل حق الوراثة للاكبر سنا من سلالة محمد على الذكور

(ثانيا) عدل عن تقويم الجزية بربع ايراد الحكومة وجعلها تبعا لتقديره فيما بعد مع النظر لحالة الحكومة

(ثالثا) ان يكون لوالى مصر حق منح الرتب الى رتبة أمير الاى ، أما مايعلوها من الرتب كدرجة امير لواء و فريق فجعل حق منحهما بعد استئذان الباب العالى

فرمان اول يونيه سنة ١٨٤١

ثم اصدر الباب العالى فى أول يونيه سنة ١٨٤١ فرمانا جامعا يحتوى احكام فرمان ١٣ فبراير مع التعديلات المتقدمة ، واصدر فرمانا آخر بتحديد الجزية السنوية بثمانين الف كيس أى ٤٠٠٠٠٠ جنيه

ومما يجدر ملاحظته ان القيود التى وردت فى فرمانات الباب العالى مما لاتنص عليه معاهدة لندرة لم تكن قيودا دولية ولا شرعية ، بل كانت ذات صبغة داخلية بين تركيا ومصر ، بمعنى انها لاترتكز على سند دولى من معاهدة أو اتفاق ، والتحلل منها يكون فيما بين مصر وتركيا ويتم صحيحا بعمل يصدر من جانب احداهما ، لأن هذه القيود أساسها فرمان صدر من جانب واحد وهو تركيا .

ولذلك لم تتقيد مصر بمعظم تلك القيود ، وخاصة فيما يتعلق بعدد الجيش فقد ترك هذا العدد لمقدرة الحكومة المصرية وارادتها ، ولم يكن ثمة مراقبة على عدد الجيش المصرى

وتتبين هذه الحقيقة من التأمل فى احصاء الجيش المصرى ومقدار قوته من من اواخر عهد محمد على الى عهد خلفائه لغاية الاحتلال الانجليزى، وهاك البيان

السنة	قوة الجيش
سنة ١٨٤٧ (فى اواخر عهد محمد على)	٩٤٠٠٠
« ١٨٥٠ (فى عهد عباس باشا الاول)	١٠١٠٠٠
« ١٨٥٩ (فى عهد سعيد باشا)	٨٥٠٠٠
« ١٨٧٣ (فى عهد الخديوى اسماعيل باشا)	٩٢٠٠٠
« ١٨٧٩ (فى اوائل عهد توفيق باشا)	٨٩٠٠٠ (١)

فيتبين من هذا الاحصاء أن مصر لم تتقيد فى عدد جيشها بالفرمانات السلطانية بل كان لها مطلق الحرية فى تحديد عدده.

وكذلك استطاع الخديوى اسماعيل أن يحرر مصر من معظم القيود الاخرى بفرمانات استصدرها رأسا من السلطان من غير مخابرات دولية.

وغنىٌّ عن البيان أيضا أن الباب العالى كان له بمقتضى فرمانات ان يتنازل عن الحقوق التى خولتها له معاهدة لندرة ، والعكس لا يجوز ، أى ليس له ان ينتقص حقوق مصر بفرمانات، لان هذه الحقوق مكفولة بمعاهدة دولية ، فليس للباب العالى ولا لأى دولة أخرى أن تعبث بها ، وهذا ماقال به المسيو دى مارتانس الاستاذ بجامعة سان بطرسبرج إذ يقول « ان فرمانات خاصة قد وسعت الحقوق والمزايا التى نالها نائب الملك (الخديوى) بازاء الباب العالى ، ولكن من البديهى ان هذه

---

(١) رجعنا فى بيان قوة الجيش الى الاحصاءات الواردة فى كتاب تقويم النيل لامين سامى باشا الجزء ٢ ص ٥٦٩ وهى احصاءات مستمدة من الدفترخانة المصرية ، وقد استخرجتها الدفترخانة من دفاتر وكشوفات المعية السنية وديوان الجهادية (الحربية) من سنة ١٨٠٣ الى سنة ١٨٨٢ وهى السنة التى الغى فيها الجيش المصرى القديم عقب الاحتلال بايعاز من الانجليز.

الفرمانات ليس لها قوة الغاء أو انتقاص المركز الدولى المستقل الذى اوجده مؤتمر سنة ١٨٤٠ » (١)

النتيجة

فمركز مصر الدولى قد حددته فى سنة ١٨٤٠ معاهدة لندره التى قضت بارجاع الجيوش المصرية الى حدود مصر القديمة ، وضمان استقلالها مقيدا ومشوبا بالسيادة العثمانية ، ومصر طبقا لهذه المعاهدة أصبحت دولة مستقلة غير مستكملة السيادة ، والاستقلال الذى نالته منذ سنة ١٨٤٠ هو استقلال داخلى تام بكل مظاهره مضافاً اليه بعض مظاهر الاستقلال الخارجى مثل حق مصر فى قبول ممثلى الدول الاجنبية كالقناصل والوكلاء ، وهو من مظاهر السيادة الخارجية

ولا نزاع فى أن قيود السيادة العثمانية التى قيدتها بها معاهدة لندره هى نتيجة تآمر الدول الاوروبية على مصر وانحيازها الى تركيا ، فاذا كانت مصر لم تحقق فى ذلك العصر كل أمانيها وحقوقها الشرعية فى الاستقلال المطلق من كل قيد فانما يرجع ذلك الى الاضطهاد الذى وقع عليها من الدول المتحالفة ، فالاضطهاد الاوروبى هو الذى حرم مصر ثمرة انتصاراتها ووقف كحجر العثرة فى سبيل تحقيق استقلالها التام ، ولو عاملتها الدول الاوروبية سنة ١٨٤٠ كما عاملت اليونان سنة ١٨٣٠ـ٢٦ لما وقع ذلك الاضطهاد ، فمصر واليونان كلتاهما كانت ولاية من ولايات السلطنة العثمانية ثارت ضد السلطان فى اوقات متقاربة ، والفرق بينهما أن اليونان هزمت فى ميدان الحرب ، أما مصر فقد فازت وقهرت الجيوش العثمانية ، ومع ذلك كانت النتيجة أن ساعدت الدول الأوروبية اليونان على تحريرها ، أما مصر فقد حالت اوزوبا دون استقلالها التام ، وهذا من اغرب ماسمع فى معرض الظلم الدولى ، ولا يخفى أن قوام الاضطهاد الذى وقع على مصر انما هو اطماع انجلترا واهواؤها ، فان الحكومة الانجليزية

(١) دى مارتانس ، المسألة المصرية والقانون الدولى سنة ١٨٨٢ ، ص ٥

كما فصلنا ذلك هى التى أملت سياستها على الدول الاوروبية تحقيقا لاطماعها الاستعمارية فى الشرق .

ومن الواجب ان نقول انه لولا حروب مصر المتواصلة وانتصاراتها فى عصر محمد على لما رضيت اوروبا ولا تركيا باستقلال مصر المقيد بالسيادة العثمانية بل لرجعت بها ولاية كسائر ولايات السلطنة العثمانية يتعاقب عليها الولاة الترك كل سنة أو سنتين ، فلولا تلك الحروب وما أظهرته مصر من القوة والمنعة لما احتفظت باستقلالها الذى نالته فى ميادين القتال ، فالجهود التى بذلتها والدماء التى جادت بها والتضحيات التى احتملتها هى التى حفظت ذلك الاستقلال وصانته من الضياع ، فلم يعد فى استطاعة تركيا ولا الدول الاوروبية ان تعيدها الى حالتها القديمة ، ولئن حرمت مصر كل ماتصبو اليه من نتائج انتصاراتها وتضحياتها ، فقد ادركت غايتين من أعظم المقاصد القومية ، فلقد وطدت دعائم استقلالها وحققت وحدتها بضم السودان الى رقعتها ، ثم نالت مركزاً دوليا وطيدا لم يكن لها من قبل ، ومركزاً معنويا رفع من شأنها بين الامم ، واذا كانت الأمة الفرنسية تفخر بمعارك نابليون وحروبه العظيمة مع أنها لم تنل من ورائها سوى الخسران والتراجع الى ماوراء حدودها الاصلية ، وتعدها مع ذلك صفحات مجد زاهية فى تاريخها القومى ، فأجدر بمصر ان تفخر بحروبها فى عصر محمد على ، تلك الحروب التى رفعت ذكرها فى الخافقين وسارت باسمها مسير الشمس ، فضلا عما انتجته من تحقيق استقلالها وتوطيد دعائمه ..

فهذه الحروب هى اذن من أقوى دعائم الدولة المصرية المستقلة ، ومن أعظم أركان القومية المصرية ، وخاصةً فتح السودان وحروب سورية والاناضول ، فان فتح السودان قد أتم الوحدة القومية ، وحروب سورية والاناضول كانت من أقوى المقومات المصرية ، إذ لايخفى انها فتحت اذهان المصريين الى أن لمصر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن القومية التركية ، وجاء قيام محمد على فى وجه تركيا وهى وقتئذ دولة الخلافة الاسلامية تحطيما لفكرة اندماج مصر فى السلطنة العثمانية وعملا بعيد المدى كان له أثر كبير فى تشييد صرح القومية المصرية

الفصل العاشر

دعائم الاستقلال

الجيش

ان الجيش هو الدعامة الأولى التى شاد عليها محمد على كيان مصر المستقلة ، ولولاه لما تكونت الدولة المصرية ولا تحقق استقلالها ، وهو الذى كفل هذا الاستقلال وصانه نيفا وستين سنة ، فلا غرو أن خصه محمد على بأعظم قسط من عنايته ومضاء عزيمته ، وليس فى منشآت محمد على ما نال عنايته مثل الجيش المصرى ، ويكفيك دليلا على مبلغ تلك العناية أن منشآته الأخرى متفرعة عنه ، والفكرة فى تأسيسها أو استحداثها إنما هى استكمال حاجات الجيش ، فهو الأصل وهى التبع ، فتقرير محمد على باشا إنشاء مدرسة الطب مثلا يرجع فى الأصل الى تخريج الاطباء الذين يحتاج اليهم الجيش ، وكذلك دور الصناعة ومصانع الغزل والنسيج كان غرضه الأول منها توفير حاجات الجيش والجنود من السلاح والذخيرة والكساء ، واقتضى اعداد الاماكن اللازمة لاقامة الجنود بناء الثكنات والمعسكرات والمستشفيات ، واستلزم تخريج الضباط انشاء المدارس الحربية على اختلاف انواعها ، وكذلك المدارس الملكية كان الغرض الأول منها تثقيف التلاميذ لاعدادهم على الأخص لان يكونوا ضباطا ومهندسين ، وارسال البعثات الى أوروبا كان الغرض الاول منه توفير العدد الكافى من الضباط ومن الاساتذة والعلماء والمهندسين ممن يتصلون عن بعد أو قرب بالاداة الحربية ، صحيح ان هذه المنشآت وغيرها كان لها اغراض عمرانية أخرى ، لكن خدمة الجيش كانت أول ما فكر فيه محمد على

فالجيش إذن فضلا عن مهمته الأولى من الدفاع عن استقلال البلاد كان أداة لتقدم العمران فى مصر ، فهو من هذه الوجهة من أجلّ أعمال محمد على باشا

وكل ما بذل من الجهود والنفقات فى سبيله قد أصاب حقّه وموضعه ، فلم يكن عبثاً ولم يضع سدًى ، إذ من المحقق أنه لولا قوة هذا الجيش لضاع الاستقلال الذى نالته مصر فى عهده ، ولاستردت تركيا امتيازاتها القديمة فى البلاد واتخذتها ولاية تحكمها مباشرة كما تحكم سائر ولايات السلطنة العثمانية ، أو لاحتلتها انجلترا بجيوشها عند ما ألبت عليها الدول الأوروبية وجردت عليها قواتها البحرية والبرية فى سورية وعلى السواحل المصرية ، ولو لم يكن هذا الجيش متأهبا للقتال ذائدا عن الوطن لاستطاعت انجلترا أن ترمى الكنانة بجنودها ، ولاحتلتها كما فعلت سنة ١٨٨٢ ، حين لم يكن ثمة جيش ولا دفاع ، ولا معاقل لحماية الذمار

مشروع تأسيس الجيش النظامى

أخذ محمد على باشا يؤسس الجيش المصرى النظامى منذ سنة ١٨٢٠ ، وكان الجيش قبل ذلك العهد اخلاطاً من العناصر المفطورة على التمرد والفوضى يطلق عليهم لفظة (باشبوزق) أى الجنود غير النظاميين ، ومثل هذا الجيش لم يكن جديرا بالاعتماد عليه فى رفع هيبة مصر والدفاع عن كيانها وتوسيع حدودها ، لذلك مافتئ محمد على منذ تبوأ عرش مصر يفكر فى انشاء جيش على النظام الجديد

ولكن الظروف لم تكن تؤاتيه ، فكان يؤجل انفاذ فكرته الى أن تحين الفرصة المناسبة ، وقد لاقى صعوبات كبيرة فى تحقيقها ، لأن الجنود غير النظاميين الذين كان يتألف منهم الجيش القديم كانوا معتادين الفوضى والعصيان ، ويكرهون كل نظام

المحاولة الأولى لتنفيذ المشروع واخفاقها

سنة ١٨١٥

ولقد حاول لأول مرة انفاذ فكرته سنة ١٨١٥ بعد عودته من حرب الوهابيين ، ولكن هذه المحاولة أخفقت وكادت تودى بمركزه لولا أن عدل عنها وارجأها الى وقت آخر .

ذلك أنه لما عاد من الحجاز أمر بتدزيب فرقة من جنود ابنه اسماعيل باشا على النظام الحديث ، وذهب هو لهذا الغرض الى بولاق (اغسطس سنة ١٨١٥) ، وأعلن رغبته فى ادخال النظام الجديد فى صفوفهم ، وصارحهم بان من لم يذعن لهذا النظام يعاقب على تمرده ، ولما عاد الى شبرا تذمر الجند من هذه الأوامر وأرجفوا بها ، فانتهز بعض رؤسائهم هذه الفرصة ليأتمروا بمحمد على ويسعوا فى خلعه ، وكادت تفلح المؤامرة لولا أن القوم أفضوا باتفاقهم الى عابدين بك أحد رؤساء الارناءود وكان قد عاد من الحجاز مريضا ، فتوسم فيه المتآمرون الموافقة على مؤامرتهم ، واجمعوا على أن يهاجموا محمد على فى قصره بالازبكية ، فأفضى عابدين بك الى محمد على بهذا السر ، فبارح قصره وذهب الى القلعة منتصف الليل ، ودخلها من طريق باب الجبل ، وبالرغم من ذلك توافى المتمردون الى ميدان الازبكية وتبادلوا وحرس السراى اطلاق الرصاص ، فوقعت فتنة تشبه فتنة الجند سنة ١٨٠٧ ، غير أنها كانت اوسع مدى واعظم خطرا ، فلما لم يجدوا بغيتهم ذهبوا الى ميدان الرميلة ، ومن هناك انحطوا على الاسواق ينهبون ويسلبون (٣ اغسطس سنة ١٨١٥) ، وقد تذرع محمد على بالحزم والحكمة فى معالجة هذه الفتنة حتى اخمدها ، وأرجأ النظام الجديد فى الجيش الى وقت حتى يهيىء له وسائله ويبتغى ذرائعه .

رواية الجبرتى

ذكر الجبرتى نبأ محاولة محمد على ادخال النظام الجديد فى الجيش فى رواية طويلة نوردها لما فيها من تأييد لما قلناه ، وتفصيل لما أجملناه ، قال فى حوادث **٢٥ شعبان سنة ١٢٣٠ (٣ اغسطس سنة ١٨١٥)**

« أمر الباشا جميع العساكر بالخروج الى الميدان لعمل التعليم والرماحة خارج باب النصر حيث قبة العزب ، فخرجوا من ثلث الليل الأخير ، وأخذوا فى الرماحة والبندقة المتواصلة المتتابعة مثل الرعود ، على طريقة الافرنج ، وذلك من قبيل الفجر الى الضحوة ، ولما انقضى ذلك رجعوا داخلين الى المدينة فى كبكبة عظيمة ، حتى زحموا الطرق بخيولهم من كل ناحية ، وداسوا أشخاصا من الناس بخيولهم ، بل وحميراً أيضا ، وأشيع أن الباشا قصده إحصاء العسكر وترتيبهم على النظام الجديد وأوضاع الافرنج ، ويلبسهم الملابس المقمطة ، ويغير شكلهم ، وركب فى ثانى يوم الى بولاق وجمع عساكر ابنه اسماعيل باشا وصفهم على الطريقة المعروفة بالنظام الجديد ، وعرفهم قصده ، وفعل ذلك بجميع العساكر ، ومن أبى ذلك قابله بالضرب والطرد والنفى بعد سلبه حتى ثيابه ، ثم ركب من بولاق وذهب الى شبرا ، وحصل فى العسكر قلقلة ولغط ، وتناجوا فيما بينهم ، وتفرق الكثير منهم عن مخاديمهم وأكابرهم ، ووافقهم على النفور بعض أعيانهم ، واتفقوا على غدر الباشا ، ثم إن الباشا ركب من قصر شبرا وحضر الى بيت الازبكية ليلة الجمعة ثامن عشرينه ، وقد اجتمع عند عابدين بك بداره جماعة من أكابرهم فى وليمة وفيهم حجو بك وعبد الله اغا صارى جلة ، وحسن أغا الازرجانلى ، فتفاوضوا بينهم فى أمر الباشا وما هو شارع فيه ، واتفقوا على الهجوم على داره بالازبكية فى الفجر ، ثم إن عابدين بك غافلهم وتركهم فى انسهم ، وخرج متنكرا مسرعا الى الباشا ، وأخبره ورجع الى أصحابه ، فأسرع الباشا فى الحال الى الركوب فى سادس ساعة من الليل ، وطلب

عساكر طاهر باشا فركبوا معه ، وأحاط المنزل بالعساكر ، ثم أخلف الطريق وذهب الى ناحية الناصرية ومرمى النشاب ، وصعد الى القلعة ، وتبعه من يثق به من العساكر ، وانخرم أمر المتوافقين ، ولم يسعهم الرجوع عن عزيمتهم ، فساروا الى بيت الباشا يريدون نهبه ، فمانعهم المرابطون وتضاربوا بالرصاص والبنادق وقتل بينهم اشخاص ولم ينالوا غرضا فساروا الى ناحيـة القلعة واجتمعوا بالرميلة وقراميدان »

ثم ذكر الجبرتى تفاصيل تمرد الجند وانسيابهم فى الاسواق ونهبهم الدكاكين والمتاجر وإحداثهم من الشغب والاعتداء على أموال الناس و بضائعهم واخلالهم بالنظام ماجعل سكان العاصمة يضجون من مساوئهم

موقف محمد على ازاء الجيش القديم

قلنا ان محمد على باشا قابل هـذه الحركة بالحلم والاناة ورجاحة العقل ، وقد استغلها لخدمة مشروعه فى انشاء جيش على الطراز الحديث قوامه النظام والطاعة ، ذلك أنه بادر الى اظهار استيائه مما أحدثه الجنود المتمردون ، وقرر دفع تعويض لجميع التجار الذين نهبت دكاكينهم ، وعهد بتقدير ذلك الى السيد محمد المحروقى كبير التجار ، ودفعت الحكومة فعلا التعويضات(١) لمن وقع بهم النهب والاعتداء ، فلهج الشعب بالثناء على محمد على باشا وسخطوا على الجنود المتمردين ، وكان فى هذا العمل اكبر دعاية للنظام الجديد ، وأخذ الباشا يهيئ الوسائل لادخال ذلك النظام ، ولكنه لم يبدأ به إلا سنة ١٨٢٠ ، وهذا يدلك على أناته و بعد نظره ، وقد مهد لذلك بتشتيت الجنود غير النظامية واخراجهم من العاصمة حتى لايكون احتشادهم فيها مدعاة لتمردهم وتجديد الفتن ، فوزعهم على الثغور الواقعة على البحر

---

(١) يقول مختار باشا فى كتابه التوفيقات الالهامية ص ٦١٥ أنها بلغت نيفا و ١٥٠٠٠ جنيه

الابيض كرشيد ودمياط ، وبعض البلاد القائمة على فرعى النيل ، لكيلا يسبق الى قلوبهم أنه يقصد تشتيتهم أو معاقبتهم أمر بان يرافقهم فى معسكراتهم الجديدة بعض أبنائه كطوسون باشا واسماعيل باشا ، ورؤساء جنده مثل محو بك وغيره ، وأمر باقامة ثكنات فى البلاد التى أعدها لاقامتهم

رواية الجبرتى

قال الجبرتى فى هذا الصدد « وفى عاشر محرم سنة ١٢٣١ - ١٢ ديسمبر سنة ١٨١٥ رجع الباشا من غيبته من الاسكندرية ، وأول ما بدأ به إخراج العساكر مع كبرائهم الى ناحية بحرى وجهة البحيرة والثغور ، فنصبوا خيامهم بالبر الغربى والشرقى تجاه الرحمانية ، وأخذوا صحبتهم مدافع و بارودا وآلات الحرب، واستمر خروجهم فى كل يوم ، وذلك من مكايده معهم ، وابعادهم عن مصر جزاء فعلتهم المتقدمة ، فخرجوا أرسالا، واستهل شهر ربيع الأول سنة ١٢٣١ وفيه سافر طوسون باشا واخوه اسماعيل باشا الى ناحية رشيد ، ونصبوا عرضيهما عند الحماد وناحية أبى منضور (١) ، وحسين بك دالى باشا وخلافه مثل حسن اغا ازرجنلى ومحو بك وصارى جله وحجو بك جهة البحيرة ، وكل ذلك توطين وتلبيس للعساكر بكونه أخرج حتى اولاده العزاز للمحافظة ، وكذلك الكثير من كبرائهم الى جهة البحر الشرقى ودمياط »

وقال عن بناء الثكنات للجنود الذين شتتهم محمد على بالأقاليم « ان الباشا أمر ببناء مساكن للعسكر الذين أخرجهم من مصر بالاقاليم يسمونها القشلات بكل جهة من أقاليم الارياف لسكن العساكر المقيمين بالنواحى لتضررهم من الاقامة الطويلة

---

(١) هى التى يقال لها اليوم ابو مندور من اعمال مركز دسوق والتى كان لها شأن فى وقائع الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ انظر ص ٥٧

بالخيام فى الحر والبرد واحتياج الخيام فى كل حين الى تجديد وترقيع وكثير خدمة ، وهى جمع قشلة بكسر القاف وسكون الشين ، وهى فى اللغة التركية المكان الشتوى لان الشتاء فى لغتهم يسمى قش بكسر القاف وسكون الشين ، فكتب مراسيم الى النواحى بسائر القرى بالأمر لهم بعمل الطوب اللبن ثم حرقه وحمله الى محل البناء، وفرضوا على كل بلد وقرية فرضا وعددا معينا ، فيفرض على القرية مثلا خمسمائة ألف لبنة أوا كثر بحسب كبر القرية وصغرها ، فيجمع كاشف الناحية مشايخ القرى ثم يفرض على كل شيخ قدرا وعددا من اللبن عشرين ألفا أو ثلاثين ألفا أو اكثر أو أقل ، ويلزم بضربها وحرقها ورفعها ، وأجلهم مدة ثلاثين يوما ، وفرضوا على كل قرية أيضا مقادير من أفلاق النخل ومقادير من الجريد ، ثم فرضوا عليهم أيضا اشخاصا من الرجال لمحل الاشغال والعمائر يستعملونهم فى نقل أدوات العمارة فى النواحى حتى الاسكندرية وخلافها ، ولهم أجرة أعمالهم فى كل يوم لكل شخص سبعة أنصاف فضة لاغير ، ولمن يعمل اللبن أجرة أيضا ، ولثمن الافلاق والجريد قدر معلوم لكنه قليل »

البدء فى تنفيذ المشروع

سنة ١٨٢٠

عاد محمد على الى تحقيق مشروعه سنة ١٨٢٠ ، فاعتزم فتح مدرسة حربية فى (أسوان) لتخريج ضباط الجيش ، وكان من الضرورى لادخال النظام الجديد أن يختار ضباطا ومعلمين على بَصَرٍ بأساليب ذلك النظام ، ولامندوحة أن يكونوا من الاوروبيين ، لأن هذه الاساليب كانت مجهولة فى الشرق الى ذلك الحين ، وقد وجد محمد على عضدا كبيرا فى ضابط فرنسى عظيم من ضباط الامبراطورية النابليونية وهب نفسه لخدمة مصر وتقدمها وهو الكولونل سيف Seves الذى عرف بعد ذلك بسليمان باشا الفرنساوى ، فاليه يرجع الفضل الاكبر فى معاونة

محمد على ومؤازرته فى تأسيس الجيش المصرى على النظام الجديد ، بحيث صار يضارع أرقى الجيوش الأوروبية وبرهن فى ميادين القتال على أنه لا يقل عنها دربة وكفاية

سليمان باشا الفرنساوى

سنة ١٧٨٧ — ١٨٦٠

هو الكولونل سيف Seves وهو فرنسى الاصل ولد فى ليون سنة ١٧٨٧ (١) وكان ابوه صاحب مصنع فى المدينة ودخل فى مهنة البحرية وحضر واقعة الطرف الاغر ثم انتظم فى سلك الجيش البرى وقاتل فى حروب نابليون وارتقى فى المراتب العسكرية حتى بلغ رتبة كولونل (اميرالاى) ، ولما انتهى عهد نابليون قضى على الكولونل سيف بالخروج من الجندية وانقطع للتجارة والزراعة ، ثم طلب الى صديق له وهو الكونت دى سيجور السعى لدى شاه العجم فى ان يعهد اليه تنظيم جيشه ، فنصحه بالذهاب الى مصر ، فجاءها سنة ١٨١٩ وقابل محمد على فاعجب به وعهد اليه تنظيم الجيش المصرى على الاساليب الحديثة ، فكان له الفضل الكبير فى الاضطلاع بهذه المهمة كما تراه مفصلا فى سياق الكلام ، وقد اعتنق الاسلام في مصر واختار لنفسه اسم سليمان فصار يعرف بسليمان بك .

واشترك فى حرب المورة ثم فى حرب الشام والاناضول كما فصلناه فى موضعه ، وانعم عليه محمد على سنة ١٨٣٤ بالباشوية عقب الحرب السورية الاولى فعرف من ذلك الحين بسليمان باشا الفرنساوى ، واشترك فى الحرب السورية الثانية ، وقد عين رئيسا عاما لرجال الجهادية أى للجيش المصرى واحتفظ بهذا المنصب فى عهد ابراهيم وعباس الى سعيد باشا ، وتوفى فى سنة ١٨٦٠ ، وهو المقام له تمثال فى ميدان سليمان باشا بالقاهرة

(١) كادلفين وبارو — سنتان من تاريخ الشرق (سنة ١٨٣٩ — ١٨٤١) ج ١ ص ١٦٨

المدرسة الحربية الاولى باسوان

جاء الكولونل سيف الى مصر كما قدمنا فلما آنس منه محمدعلى باشا الكفاءة لتحقيق مشروعه أنفذه سنة ١٨٢٠ الى اسوان لتكوين النواة الأولى من الجيش، وبدأ فى العمل بان قدم اليه خمسمائة من خاصة مماليكه ليدربهم على أن يكونوا ضباطا فى النظام الحديث، وطلب الى بعض رجاله أن يحذوا حذوه ويقدموا من عندهم من المماليك، فاجتمع لدى الكولونل (سيف) ألف من هؤلاء واولئك أخذ يدربهم مدة ثلاث سنوات على فنون الحرب وأساليبها الحديثة، فصاروا نواة الجيش النظامى إذ تكونت منهم الطائفة الأولى من الضباط

وقد اختار محمد على (اسوان) لتخريج الطائفة الأولى من ضباط الجيش رجاة ان ينفذ مشروعه بعيدا عن الدسائس والانظار معا، ولكى يتم فى رهينة وسر دون أن يلتفت اليه الناس، فاذا نجح فالنجاح، وان اخفق لايكون لاخفاقه رد فعل يزعزع مركز محمد على، وكان ذلك من دلائل بعد نظره وفراسته، ومما رغبه أيضا عن القاهرة خشيته أن يكون تعليم التلاميذ على يد ضابط أوروبى مثاراً لهياج الخواطر فيها، وخاصة بين الجنود غير النظاميين الذين كانوا ينفرون من كل نظام جديد، ثم ليكون التلاميذ بمنجاة من أسباب اللهو بعيدين عن أماكنه فلا يفسد عليهم الاخلاق الحربية، فاختار لهم كما قلنا مدينة (اسوان)، وأنشأ بها اربع ثكنات فسيحة لاقامتهم بها ولتكون مدرسة لهم، وقد عنى محمد على بأمر هذه المدرسة وتنظيمها وإمدادها بما تحتاجه من الأدوات والاسباب، فهى أول مدرسة حربية انشأها لتكوين الجيش المصرى النظامى

وقد ذكر المسيو فولابل[١] وكلوت بك[٢] أن الكولونل (سيف) لقى صعوبات

---

(١) فى كتابه مصر الحديثة جزء ٢ ص ٢٤٩

(٢) فى كتابه (لمحة عامة الى مصر) ج٢ ص ٣١٩

كبيرة فى تدريب اولئك الشبان على الاساليب الحديثة ، لان قوام هذه الاساليب النظام والطاعة المطلقة للرؤساء ، والمماليك اعتادوا الصخب والضوضاء والاخلال بالنظام ، ولم يألفوا من الحركات العسكرية سوى الكرّ والفرّ ، فكان النظام والسكون اللذان لا مندوحة عنهما أثناء المناورات والتمرينات العسكرية مما لا يروق لهم ، أضف الى ذلك انهم لم يعتادوا أن يتعلموا فنون الحرب على ضباط أوروبيين (مسيحيين) ، فجاشت نفوسهم بفكرة التمرد والعصيان ، ودبروا المؤامرات للفتك بالكولونل سيف على مثال مؤامرات المماليك لاغتيال بكواتهم القدماء ، فبينما كان ذات يوم يمرن اولئك الشبان على ضرب النار اذا بأحدهم قد رماه برصاصة كادت ترديه لولا أنها انحرفت ومرت بجانب اذنه ، وسمع صفيرها ، فلم يتزعزع ولم يفقد شيئا من شجاعته ورباطة جأشه ، بل استمر فى عمله وأمر التلاميذ باطلاق النار كرّة جديدة

وحدث مرة أخرى أن نزع تلاميذه الى العصيان وتهددوه بالقتل ، فطلب اليهم أن يبارزوه متعاقبين واحداً تلو الآخر حتى لا يدنسوا انفسهم بالخيانة والغيلة ، فكان لهذه الشجاعة والبطولة وسعة الصدر تأثير سحرى فى نفوس اولئك الفتيان الذين مهما يكن ما اتصفوا به من الغدر فانهم يقدرون الشجاعة حق قدرها ، فبعد ان كانوا ناقمين عليه صاروا من خاصة اوليائه يحيطونه باعجابهم واجلالهم ، فتمكن الكولونل (سيف) من إتمام تعليمهم فى مدى ثلاث سنوات

واستمر على هذا النحو الى ان تكونت من تلاميذه الهيئات الأولى من الضباط

وقد كان ابراهيم باشا يصحب أحيانا الكولونل سيف فى اسوان ، وكان لوجوده تأثير كبير فى حمل الشبان على الطاعة واتباع النظام الجديد

يؤخذ من البيانات المتقدمة ان أول مدرسة حربية للجيش النظامى هى مدرسة اسوان ، وقد ذكر العلامة على باشا مبارك(١) ضمن كلامه عن مدينة اسوان

---

(١) الخطط التوفيقية الجزء ٨ ص ٦٧

مايلى « وعلى نحو ثلثى ساعة من جهتها البحرية قصر و بستان من انشاء محمد بك لاظ اوغلى سنة ١٢٣٨ ه مدة اقامته بها من العساكر الجهادية الذين جعل العزيز محمد على عليهم سليمان باشا الفرنساوى لتعليمهم القوانين الافرنجية العسكرية ، وكان بقرب ذلك البستان قشلاق لاقامة ضباط العساكر ، ثم جعل مكتبا للتلامذة على طرف الميرى »

فالقشلاق الذى ذكره على باشا مبارك هو المدرسة الحربية باسوان التى تكونت فيها نواة الجيش النظامى

التجنيد

و بعد أن توافر العدد الكافى من الضباط أخذ محمد على يفكر فى حشد الجنود وتنظيم صفوفهم ، وهنا نشأت صعوبة جديدة ، وهى طريقة اختيار الجنود ومن أى الطبقات يحشدهم

لم يشأ فى المبدأ أن يجند الاتراك ولا الارناءود فى النظام الجديد ، لما فطروا عليه من حب الشغب والنفور من النظام والرغبة عن الطاعة ، فأعرض عنهم ، ولم يشأ أيضا ان يفاجىء المصريين بتجنيدهم حتى لا يثير الهياج فى البلاد لانهم لم يعتادوا التجنيد من عهد المماليك ، فخشى اذا هو عجل بحشدهم ان يعدوا ذلك عبئاً جديدا يثقل كاهلهم فوق اعباء الضرائب والاتاوات التى كانوا ينوءون بها ، وخشى من جهة اخرى أن يؤدى تجنيدهم الى حرمان مصر من قيامهم على الزراعة فتسوء حالة البلاد الاقتصادية وتزداد ضنكا على ضنك ، ففكر أولا فى تجنيد السودانيين من سكان كردفان وسنار ، وقد تقدم القول بان من بواعث فتح السودان تجنيد اهله فى الجيش المصرى ، ولقد عهد الى ابنه اسماعيل باشا وصهره الدفتردار ان يرسلا اليه حشدا من السودانيين يجمعان له ما وسعهما الجمع ، فجاءه منهم نحو عشرين الفا

وأنفذهم الى بنى عدى [١] حيث بُدِئ فى تدريبهم هناك على النظام الحديث على يد الضباط المماليك الذين تخرجوا من مدرسة اسوان ، واعدت الحكومة لاقامتهم وتدريبهم الثكنات الكافية والمؤن والمستشفيات والاسلحة والملابس ، وبذل محمد على فى هذا السبيل كل ما أوتى من قوة العزيمة والقدرة على التنظيم

وقد اشار على باشا مبارك الى هذه الثكنات فى كلامه عن بنى عدى[٢] بقوله « وبها أثر قصر كان بناه محمد لاظ اوغلى مدة اقامته هناك بالعساكر بعد قيامهم من ناحية اسوان » ، فلابد أن يكون هذا القصر الذى بقى اثره الى حين تأليف الخطط التوفيقية (١٣٠٥ هـ ١٨٨٧) أحد المبانى التى اقيمت فى بنى عدى حينما شرع محمد على فى اتخاذها مكانا لتدريب الجنود على النظام الحديث ، ومحمد لاظ اوغلى الذى يذكره على باشا مبارك هو كتخدا (وكيل) محمد على باشا فهو اذن قد اقام هذا القصر بأمر من مولاه

على أن تجربة تجنيد السودانيين لم تصادف النجاح المرغوب ، فان معظمهم وقع فيهم الموتان لعدم موافقة جو مصر لمزاجهم وصحتهم ، ولأنهم لم يطيقوا أعباء الخدمة العسكرية ، فأخذ محمد على يفكر فى الالتجاء الى تجنيد المصريين ، وانشأ ثكنات لتمرين المجندين منهم فى فرشوط عدا ما أنشأه فى اسوان و بنى عدى

وفى يناير سنة ١٨٢٣ تألفت الاورط الست الأولى من الجيش النظامى ، وجُعل المماليك الذين تخرجوا من مدرسة اسوان ضباطا لها ، ومضت سنة ١٨٢٣ ثم الاشهر التالية الى يونيه سنة ١٨٢٤ فى اتقان تدريب تلك الاورط ، فاغتبط محمد على بهذه النتيجة الأولى ، وأراد أن يشهد بنفسه مبلغ نجاح مشروعه ، فأمر بنزول الاورط النظامية الى القاهرة وعرضها فى (الخانكه) ، وكانوا عدة آلاف من المشاة (البيادة) شاكى السلاح كاملى العدة قاموا بمناورات حربية اثبتوا فيها

---

(١) بالقرب من منفلوط وهى التى ذكرناها فى الجزء الاول ص ٤٢٠ وتسمى الآن بنى عديات

(٢) الخطط التوفيقية جزء ٩ ص ٩٤

دربتهم وحسن نظامهم ، فاعجب بهم محمد على واغتبط بنجاح مسعاه ، وانشأ معسكرا عاما للجيش فى (الخانكه) كان يحتوى دواما من ٢٠ الى ٢٥ الفا من الجنود النظاميين ، وصارت الخانكه وابو زعبل مباءة للتعليم العسكرى وما اليه ، ففى ابى زعبل انشئ المستشفى العسكرى الأول ثم مدرسة الطب ، وانشئت المدرسة الحربية للمشاة ومدرسة اركان الحرب فى الخانكه

واعتزم تجربة جنوده النظاميين فى ميادين القتال ، فأنفذ الاورطة الاولى الى الحجاز حيث كانت الثورات لاتخمد جذوتها ، والثانية الى السودان ، والأربع الاخرى الى بلاد (الموره) لمحاربة اليونانيين تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا

ومن الحق أن نعترف أن محمد على لاقى صعوبات جمة فى تجنيد الاهلين، وحدث بسبب تذمرهم من التجنيد فتن تغلب عليها بالحزم والحكمة ، ففى سنة ١٨٢٤ (١٢٤٠ هجرية) جاء القصير مغربى يسمى احمد بن ادريس قادما من الحجاز فوقعت مشادة بينه وبين عمال الجمرك على مكوس فرضوها على امتعته ، فسار الى قنا ثم الى اسنا ، وحرض الاهالى هناك على الفتنة وكانوا مستعدين للهياج لتذمرهم من التجنيد وانضمت اليه الجموع الصاخبة وسار بهم الى فرشوط ، وكادت تستفحل الفتنة لولا أن الحكومة جردت عليهم القوات الكافية فشتتت جموعهم وطاردتهم الى الجهات الصحراوية

وترجع المصاعب فى تجنيد الاهالى الى أنهم كما قدمنا لم يألفوا الخدمة العسكرية ولم يكونوا مكلفين بها فى عهد المماليك ، وهذا نقص كبير فى اخلاق الشعب الحربية، فانه مامن أمة تنزع الى الاستقلال وتقدس الحرية إلا وتجعل الخدمة العسكرية فرضا حتما على ابنائها فى طبقاتهم كافة ، فلما شرع محمد على فى تجنيد المصريين قابل الفلاحون هذا المشروع بالنفور والسخط، ولم ينتظموا فى صفوف الجندية إلا مكرهين ، فكانت الحكومة تقبض على المجندين وتسوقهم قسرا الى المعسكرات ، ومن الأسف انه مازالت كراهية التجنيد باقية فى نفوس معظم طبقات الشعب الى عصرنا هذا ، فالمتعلمون يكرهون التجنيد و يفرون منه ، والسواد الاعظم من الامة

يتحاماه و يمقته ، وكل من يطلب للتجنيد يودُّ أن يفتدى نفسه بما يستطيع من المال ، ولا يمكن تدارك هـذا النقص إلا اذا تقدمت الطبقات المتعلمة واعطت المثال للطبقات الاخرى فى احترام التجنيد والاقبال عليه باعتبار أنه واجب وطنى عام ، ومالم يتقدم المتعلمون والموسرون الى الانتظام فى سلك التجنيد فلا يجمل بنا أن نلوم الفلاحين على نفورهم منه لانهم إذ يرون المتعلمين يترفعون عن الخدمة العسكرية فلهم العذر أن يتوهموا أنها سخرة تبتلى بها الطبقات الفقيرة ، وهـذا الوهم يفسد الروح القومية والحربية فى طبقات الشعب

ولا يغيبنّ عنك أن نجاح تجربة تجنيد المصريين فى عهد محمد على وما برهن عليه الجيش من الكفاية والنظام يدل على مبلغ استعداد الامة المصرية لأن تكون أمة حربية ، ويكفيك أن تتأمل فى ما كان عليه الجيش من الفوضى والتأخر حينما كان مؤلفا من الارناءوط وغيرهم من اخلاط السلطنة العثمانية ، وكيف استعصى على محمد على أن ينشىء من تلك العناصر جيشا نظاميا ، وكيف انقاد له ذلك حينما اعتمد على المصريين دون سواهم ، فألف منهم الجيش الذى تردد ذكره فى الخافقين لما ناله من الانتصارات الباهرة فى ميادين القتال

وجد إذن محمد على صعوبة كبيرة فى تطبيع المصريين على نظام التجنيد ، على أنه وفق فى مسعاه بفضل المثابرة وقوة العزيمة ، ولأن الفلاحين بعد ان كانوا متهيبين من التجنيد رأوا الحياة العسكرية أرفه وأحسن حالا من معيشتهم فى القرى طعاماً ولباساً ومظهراً ، فأخذوا يألفونها و يعتزون بها

قال المسيو موريه Mouriez فى هذا الصدد « لما انتظم الفلاحون فى صفوف الجيش النظامى الفوا بسرعة حياتهم الجديدة ، و بعد ان كانوا معتادين الذل والمسكنة فى قراهم استشعروا تحت راية الجيش بكرامتهم الانسانية ، وأخذوا يفخرون بانهم جنود محمد على و يقابلون غطرسة الترك بمثلها ، ولم يقبلوا أن يسموا فلاحين وعدوها تصغيرا لشأنهم لان هـذه التسمية كانت تشعر (وقتئذ) بشىء من المهانة ، ونالوا من الحكومة أمراً أن لا ينبزهم أحد بكلمة فلاحين »

ولما اتسعت دائرة التجنيد استدعى محمد على من فرنسا طائفة من كبار الضباط ليعاونوه على تنظيم الجيش المصرى ، فتكونت طوائف الضباط المصريين على يد المعلمين الاوروبيين ، وأرسل طائفة من الشبان الى اوروبا لاتمام دروسهم الحربية هناك ، فعادوا الى مصر بعد أن حذقوا العلوم والفنون العسكرية ، وحلوا فى المدارس الحربية محل المعلمين الاجانب ، واذا تأملت فى البعثات التى أوفدها محمد على الى اوروبا وجدت معظم أفرادها قد تخصصوا للفنون الحربية وما اليها من الهندسة والرياضيات

المدارس الحربية

مدرسة اسوان

قلنا ان مدرسة (اسوان) هى أول مدرسة حربية أسسها محمد على باشا على النظام الحديث ، وقد أسست مدرسة حربية أخرى فى فرشوط ومثلها فى النخيلة وأخرى فى أبار (جرجا)

مدرسة قصر العينى

وانشئت سنة ١٨٢٥ مدرسة اعدادية للتعليم الحربى بقصر العينى ، كانت تعرف بالمدرسة التجهيزية الحربية ، وعدد طلبتها نحو ٥٠٠ تلميذ يعدون لدخول المدارس الحربية والمدرسة البحرية ثم للمدارس العاليــة الأخرى ، ونقلت الى ابى زعبل بعد أن خصص قصر العينى لمدرسة الطب ، وقد زارها المارشال مارمون سنة ١٨٣٤ فالفى بها من التلاميذ ١٢٠٠ تلميذ(١) .

ويقول المسيو مانجان(٢) ان بهذه المدرسة مكتبة كانت تحوى (سنة ١٨٣٧) ١٥٠٠٠ مجلد

---

(١) رحلة مارمون ج ٣ ص٣١٢ (٢) ج ٣ ص ١٣١

مدرسة المشاة بالخانكه ثم بدمياط ثم بابى زعبل

وجه محمد على عنايته لتنظيم فرق المشاة (البيادة) فى الجيش المصرى ، وانشأ لتخريج ضباط هـذه الفرق مدرسة حربية فى (الخانكه) على احدث نظام ، بلغ تلاميذها ٤٠٠ تلميذ قسموا الى ثلاثة بلوكات ، يتعلمون فيها التمرينات والادارة الحربية، واللغات العربية والتركية والفارسية ، ثم نقلت المدرسة الى دمياط سنة ١٨٣٤ وكان ناظرها ضابط من مقاطعة البيمونت بايطاليا واسمه المسيو بولونيني Bolognini كان من ضباط الامبراطورية النابليونية فاستخدمه محمد على ورقاه الى رتبة قائمقام، ثم نقلت المدرسة الى أبى زعبل سنة ١٨٤١

مدرسة الفرسان بالجيزة

ذكر كلوت بك فى كتابه أن تشكيل فرق الفرسان فى الجيش المصرى لم يبدأ بحسب النظام الجديد إلا بعد عودة الجيش من حرب المورة ، ذلك أن ابراهيم باشا قد شاهد فى خلال هـذه الحرب حسن نظام الخيالة الفرنسيين فأدرك أهمية تنظيم الفرسان ، وعلى أثر عودته الى مصر شرع فى تشكيل فرق الخيالة على النظام الاوروبى، واستدعى لهذا الغرض عددا من المعلمين الاوروبيين

أنشئت المدرسة الحربية للفرسان بالجيزة فى قصر مراد بك[٢] فحول الى ثكنة جميلة للفرسان ، وتولى تنظيم المدرسة المسيو فاران Varin من ضباط الامبراطورية النابليونية ياور المارشال جوفيون سانسير Gouvoin Saint Cyr ، وتلاميذها من الشبان يتعلمون مناورات الفرسان وحركات المشاة ويلبسون أكسية تطابق ملابس الفرسان الفرنسيين ماعدا القبعة ، ويتولى التدريس فى هذه المدرسة ضباط لقيادتهم ومدرسون يدرسون لهم اللغتين العربية والتركية

---

(١) لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٣٢٤

(٢) انظر ما كتبناه عن هذا القصر بالجزء الاول ص ١٤٦ و ٢١٨

وكانت المدرسة تتبع نظام مدرسة سومور Saumur الحربية بفرنسا إلا بعض تعديلات طفيفة استلزمتها الظروف المحلية ، وفيها اساتذة لتعليم اللغة الفرنسية والرسم والمبارزة وترويض الخيل ، وفيها رئيس للادارة الحربية ، ويتعلم فيها الطلبة فوق ماتقدم استعمال النفير وسائر ضروب الموسيقى المستعملة فى فرق الفرسان ، وطلبتها خليط من الشبان المصريين والترك يتخرجون منها ضباطا لفرق الفرسان ، وكان لهذه المدرسة ناظر يقوم على النظام فيها وله توقيع الجزاءات على من يستحقون العقاب من مرؤوسيه ، وتوزيع الاغذية والعلف ، يتصل بناظر الحربية و يتبع أوامره

وقد زار المارشال مارمون هذه المدرسة سنة ١٨٣٤ وكان بها إذ ذاك ٣٦٠ تلميذا فاعجب بها وكتب عنها فى رحلته مايلى(١)

« عند ماشاهدت هؤلاء الطلبة فى الميدان يقومون بالمناورات خُيِّل لى انى أمام طابور من أرقى الايات الخيالة عندنا ، ولئن كان ينقص المدرسة لتصل الى درجة الكمال بعض دروس فى اللغة والرسم وغير ذلك ولكن مما لانزاع فيه أنها من جهة تنظيم فرق الفرسان لاينقصها شيء ، فالطلبة يجيدون ركوب الخيل ، والمناورات التى يقومون بها تجرى بخفة ودقة واحكام ، ونظامهم وهندامهم على أحسن ما يكون ، والروح المعنوية فيهم على مايرام ، فهم جنود بكل معانى الكلمة ، وحملة الابواق يؤدون عملهم باتقان »

مدرسة المدفعية بطُره

شكلت المدفعة النظامية فى الوقت الذى نظمت فيه المشاة على الطراز الحديث ، وتولى تنظيمها جماعة من الضباط الفرنسيين ، وعاونهم فى العمل ضباط من المصريين وفى مقدمتهم الضابط القدير ادهم بك (باشا) الذى اسس ترسانة القلعة وتولى ادارة المهمات الحربية ثم رآسة ديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية)

---

(١) رحلة المرشال مارمون ج ٣ ص ٢٨٨

وانشئت فى (طره) مدرسة حربية للطوبجية (المدفعية) تولى اداراتها ضابط اسبانى يدعى الكولونل (الميرالاى) الدون انطونيودى سيجيرا Seguera ، وهو الذى عرض على محمد على انشاءها لتخريج ضباط المدفعية للجيش المصرى ، وعرض مشروعه ايضا على ابراهيم باشا قائد الجيش العام فنال تأييده ، ومن ثم انشئت المدرسة على الوضع الذى اقترحه الميرالاى سيجيرا ، وقد ذكر العلامة على باشا مبارك هذه المدرسة فى كلامه عن (طره) فقال « وكان بطرا مدرسة الطوبجية وهى مدرسة جليلة من انشاءات العزيز محمد على تربى بها جملة من الامراء برعوا فى فنون الطوبجية » [1] ، ثم نقل ما كتبه الدوق دى راجوز (المارشال مارمون) عنها مما سنذكره فى موضعه

وقد اختير لهذه المدرسة من التلاميذ ثلثمائة من خريجى مدرسة قصر العينى الاعدادية اخذوا يتلقون فيها الدروس الحربية ، واللغتين العربية والتركية والحساب والجبر والهندسة والميكانيكا والرسم والاستحكامات ، ويتمرنون على الرمى بالمدافع على يد معلمين حربيين ، وكان الكولونل سيجيرا نفسه يعلمهم دروس الرياضة والرسم ، وقد تقدموا فى علومهم وبرهنوا على كفايتهم فى الحرب السورية [2] ، وتبارت المدفعية الثقيلة والمدفعية الخفيفة فى النشاط والجدارة ، قال مانجان : وضباط المدفعية المتخرجون من هذه المدرسة متعلمون مثقفون

ولم يغرب عن بال محمد على باشا اهمية هذه المدرسة فأراد ان يرى بنفسه سير التعليم فيها فزارها واختبر شؤونها فأبدى ارتياحه وسروره من اساتذتها وتلاميذها ومعداتها ، وكافأ الكولونل سيجيرا بالانعام عليه برتبة البكوية مع لقب لواء ، والحق بالمدرسة اورطة للمدفعية المشاة وأورطة اخرى للمدفعية الركبان ، وانشىء لها ميدان لضرب النار والتلاميذ وضع به اربع وعشرون بطارية من المدافع للتمرين عليها

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٣٢

(٢) مانجان ج ٣ ص ١٢٩

وكان للمدرسة مستشفى خاص يديره طبيب يساعده صيدلى لمعالجة المرضى

مدرسة اركان الحرب بالخانكه

انشئت هذه المدرسة بالخانكه بناء على اقتراح عثمان نور الدين باشا بالقرب من المعسكر العام للجيش.

وقد ذكرها المسيو دور فى كتابه عن التعليم العام بمصر (١) وكلوت بك (٢) ولم يذكرا تفصيلات عنها ، ويسميها رفاعة بك رافع (٣) مكتب الرجال بالخانقاه.

مدرسة الموسيقى العسكرية

قرر محمد على تنظيم الجيش المصرى على مثال الجيوش الأوروبية من كل وجه ، فأمر باعداد طائفة من الموسيقيين لكل ألاى ، وأحضر من اوروبا ما يلزم الجيش من الآلات الموسيقى ، وكذلك أحضر المدرسين الأوروبيين لتعليم المصريين الموسيقى الافرنجية الحربية ، فأنشأ فى (الخانكه) معهدا لتعليم الموسيقى يسع ١٣٠ تلميذا تولى التدريس فيه اربعة من الموسيقيين الفنيين ، وعين المسيو كاريه Carré مديرا له ، وكانت تدرس فيه ايضا اللغة العربية على يد اساتذة مصريين.

وقد ابدى التلاميذ المصريون اتقانا وبراعة ونبوغا فى فنون الموسيقى شهد بها الافرنج ، قال المسيو مانجان فى هذا الصدد « ان اولئك الشبان الفلاحين قد أبدوا من السهولة فى توقيع الالحان الصعبة من النوتات ماأدهش العارفين بالفن وخاصة الافرنج الذين اجتذبتهم الى وادى النيل شهرة محمد على » (٤)

---

(١) ص ٢١١ (٢) ج ٢ ص ٥١٠ ، لمحة عامة الى مصر

(٣) فى كتابه مناهج الالباب المصرية ص ٢٤٧ طبعة ثانية

(٤) مانجان ج ٣ ص ١٣٠

وهذه المدرسة كانت تخرج الموسيقيين الذين يحتاج اليهم الجيش المصرى ، ولكن الدكتور كلوت بك لاحظ فى كتابه (١) أن برنامج المدرسة قام على قاعدة خاطئة ، ذلك أنه تضمن نقل الموسيقى الاوروبية بنغماتها واناشيدها الاوروبية الى بيئة شرقية لم تتعود الالحان الاوروبية ، فلم تؤثر فى نفوس التلاميذ التأثير الفنى المطلوب ولم تتحرك لها قلوبهم ، وان الواجب كان يقضى باحضار فنانين عارفين بالموسيقى العربية ليؤلفوا منها ومن الالحان الاوروبية موسيقى خاصة تتأثر لها نفوس المصريين ، ويقول ان الحكومة فى عهد محمد على ذاته قد الغت معهد الموسيقى بالخانكه مع انه خرّج عددا لا بأس به من الموسيقيين القادرين واستعاضو عنه بان جعلوا لكل الاى من الجيش معلما اوروبيا ، ولكن لم يكن من الميسور لمعلم واحد ان يضطلع بهذه المهمة ولذلك لم تصل الموسيقى الحربية فى مصر الى مجاراة الموسيقى الاوروبية

المدرسة البحرية بالاسكندرية

تكلمنا عنها فى الفصل الحادى عشر

مصانع الاسلحة والمدافع بالقلعة

رأى محمد على بثاقب نظره ان إنشاء جيش يحمى الذمار أمر لاقوام له الا بان يجد كفايته من السلاح والذخيرة والمدافع فى داخل البلاد ، إذ الاعتماد على جلب السلاح من الخارج يعرض قوة الدفاع الوطنى للخطر ويجعل الجيش والبلاد تحت رحمة الدول الاجنبية ، لذلك بذل جهده فى انشاء مصانع الاسلحة فى مصر ، فأسس قائد المدفعية ادهم بك ترسانة القلعة لصنع الاسلحة وصب المدافع ، وتولى ادارتها

وقد حدث فى القلعة حريق هائل سنة ١٨٢٤ امتد الى مخزن البارود فخرب

---

(١) لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ١٢٤

معظم الترسانة وتخرب نحو خمسين منزلا من المنازل المجاورة للقلعة ومات في هــذه الــكارثة نحو اربعة آلاف نفس(١)

ويقول المسيو مانجان (٢) ان ترسانة القلعة لم تــكن شيئا مذكــورا الى سنة ١٨٢٧ ، ولــكنها عظمت واتسعت ارجاؤها بمضى الزمن فصارت معاملها تمتد من قصر صلاح الدين الى باب الانــكشارية الذى يطل على ميدان الرميلة وكان بها ٩٠٠ من العمال لصنع الاسلحة ، ويصنع فيها كل شهر من ٦٠٠ الى ٦٥٠ بندقية ، تتــكلف كل بندقية اثنى عشر قرشا مصريا ، ويدفع لرؤساء العمال مرتبات ثابتة ، اما العمال الآخرون فتدفع لهم أجور يومية

وكان بهــا قسم خاص لصنع زناد البنادق ، والسيوف والرماح للفرسان ، وحقائب الجنود ، وحمائل السيوف ، وكل ما يلزم لتسليح الجنود من المشــاة والفرسان ، وحلية الخيل من اللُّجُم والسروج وما اليها ، وفيها مصنع واسع لعمل صناديق البارود ومواسير البنادق ، ومصنع آخر لصنع ألواح النحاس التى تستخدم لوقاية السفن الحربية

معمل صب المدافع

وكان أهم مصانع الترسانة واكثرها عملا وأولاها باسترعاء النظر معمل صب المدافع ، تصنع فيه كل شهر ثلاثة مدافع او اربعة من عيار اربعة وثمانية ارطال ، وتصنع فيه أحيانا مدافع الهاون ذات الثمانى بوصات ومدافع قطرها ٢٤ بوصة

ولا يقل عمال هــذه الترسانة عن ١٥٠٠ عامل وتستهلك فيها كل شهر كمية عظيمة من الفحم والحديد(٣)

---

(١) رسالة المسيو دروفتى المؤرخة ٣٠ مارس سنة ١٨٢٤ الواردة في وثائق حرب المورة وثيقة رقم ٦

(٢) مانجان ج ٣ ص ١٣٢

(٣) مانجان ج ٣ ص ١٣٣

مخازن البارود والقنابل

أما مخازن البارود والقنابل فقد أعدلها محمد على مكاناخاصا على سفح المقطم

رأى المارشال مارمون فى ترسانة القلعة

وقد زار المارشال (مارمون) ترسانة القلعة سنة ١٨٣٤ وأعجب بنظامها وأعمالها، وكتب عنها فى رحلته مايلى « زرت دار الصناعة بالقلعة وعنيت بها فحصاً وتقصياً، فألفيت البنادق التى تصنع فيها بالغة من الجودة مبلغ ما يصنع فى معاملنا ، وهى تصنع على الطراز الفرنسى ، ويتخذ فيها الاحتياطات والوسائل التى نستعملها نحن لضمان جودة الاسلحة ، وتتبع النظام نفسه الذى نتبعه نحن فى تصريف العمل وتوزيعه والرقابة عليه ، وكل مايصنع فيها يعمل قطعةً قطعةً ، ومعمل القلعة يضارع أحسن معامل الاسلحة فى فرنسا من حيث الاحكام والجودة والتدبير » (١)

ابراهيم أدهم باشا

تقدم القول بان أدهم بك (باشا) كان فى مقدمة الضباط الاكفاء الذين نهضوا بالمدفعية المصرية ، وانه تولى ادارة المهمات الحربية ، وأسس دار صناعة (ترسانة) القلعة لصنع الاسلحة وصب المدافع

وأدهم بك هذا هو من خيرة رجال محمد على ومن أصدق من بذلوا جهودهم فى تأسيس الجيش النظامى ، وهو أيضا ممن حملوا لواء نهضة التعليم فى مصر ، فقد تولى ادارة ديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية) عشر سنوات ونيفا

وقد ذكره العلامة على باشا مبارك فقال عنه انه « كان من أشهر رجال الحكومة ، صادقا فى القيام بوظائفه مع الاجتهاد »

---

(١) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ٢٨٣

وذكر عن ترجمته ماخلاصته[1] ان أصله من الاستانة ثم استوطن مصر فى عصر محمد على باشا حين تأليف الجيش النظامى ، فجعله ضابطا فى المدفعية،وكان ملما باللغات الفرنسية والعربية والتركية والتشكيلات العسكرية ، وتنظيم المهمات ، وقد جعله محمد على ناظرا للمهمات الحربية [2] «فبذل فيها جهده وحمدت مساعيه » وأقام بهذه الوظيفة زمنا ثم ترقى الى رتبة أميرالاى ، وكان يتلقى عنه الهندسة جماعة من رجال الحكومة مثل ابراهيم بك رأفت وكيل ديوان المدارس ، ومصطفى راسم مدرس الهندسة بمدرسة القصر العينى ، وحسن افندى الغورى مدرس الهندسة بمدرسة المدفعية بطره

وقد وشى فى حقه أحد حساده سنة ١٢٤٩ وأوغر عليه صدور رؤسائه ، ففصل عن وظيفته ، وأقيمت عليه قضية استمرت نحو ثمانية أشهر وظهرت براءته منها ، وكان خلال ذلك لايفتأ يؤدى واجبه نحو البلاد ببذل النصح والارشاد الى من يقصدونه من محبى العلم

قال على باشا مبارك فى هذا الصدد « وكان المعلمون فى الورش يحضرون اليه بمنزله ويستفهمون منه عن العمل فى البنادق والمدافع ونحو ذلك وهو يفيدهم بجد واجتهاد رغبة منه فى خدمة الديار المصرية »

ولما عاد ابراهيم باشا من الحرب السورية سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) اثنى عليه عند محمد على باشا وذكر نصحه واجتهاده فى خدمته فأنعم عليه برتبة أمير لواء وأعيد الى وظيفته ، وبعد وفاة مصطفى مختار بك أضيفت اليــه شؤون المدارس فصار مدير ديوان المدارس (وزير المعارف العمومية) وتولى هذا المنصب نحو عشر سنوات (١٨٣٩ — ١٨٤٩)

وفى زمن عباس باشا الاول تولى وزارة المعارف بضعة أشهر (اكتوبر

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ٥

(٢) جاء فى العدد ٤٣٢ من الوقائع المصرية انه امير اللواء ادهم بك مفتش المهمات الحربية

سنة ١٨٤٩ — مايو سنة ١٨٥٠) ثم نقل مديرا للمهمات الحربية وجعل له نظر أوقاف الحرمين الشريفين ، وانعمت عليه الحكومة جزاء خدماته بارض مساحتها ٥٨٠ فدانا فى جهة (سبرباى) بمديرية الغربية

وفى زمن سعيد باشا جعل (محافظ مصر) وانعم عليه بالباشوية فصار يعرف بادهم باشا واحيل عليه قلم الهندسة مع المهمات الحربية

وتولى من جديد فى عهد اسماعيل باشا وزارة المعارف العمومية عدة أشهر (يناير — يوليه سنة ١٨٦٣) ثم اعتزل الخدمة ، وكانت وفاته سنة ١٨٦٩

قال عنه على باشا مبارك « وكان رقيق القلب ، رحيما ، كثير الصدقة ، يباشر المصالح بنفسه بلا تعاظم ولا تكبر ، ويلاطف اصحاب الحاجات حتى يقف على حقيقة شكواهم ، ويقوم بنصرة المظلوم ، واعتنى بالمدارس واجتهد فى أسباب الرغبة فيها ، فكان يجل المجدين من التلامذة والمعلمين ، ويسعى فى ترقيتهم ليجتهد غيرهم ، فظهرت النجابة فى جميعهم أو اكثرهم وحصلوا فى وقته تحصيلا جما ، ومن انشائه مكتب (مدرسة) السيدة زينب رضى الله عنها ، ومكتب بولاق ومكاتب أخرى ، وبالجملة فكان كالوالد لابناء المدارس وله اصلاحات أيضا بالجامع الازهر زمن نظارته على الاوقاف »

وقد التقى به المارشال مارمون خلال زيارته لمصر واعجب به وبكفاءته فقال عنه « انه تعلم اللغة الفرنسية بقوة ارادته على غير استاذ ، وأنه يتكلمها بلهجة صحيحة ، وتبحر فى الرياضيات ، وفنون المدفعية ، وصار فى نظرى يضارع أحسن ضباط المدفعية واكفأ مديرى مهماتها ، وهو من أقوى من عرفتهم فى حسن الادارة ، وان اختيار محمد على لمثل هذا الرجل لمعاونته لدليل على صدق نظره وفراسته وحسن توفيقه فى اختيار رجاله (١) »

---

(١) رحلة الدوق دى راجوز (المارشال مارمون) ج ٣ ص ٢٨٣

مصنع البنادق فى الحوض المرصود

لم يكتف محمد على بمصنع البنادق فى القلعة بل انشأ فى الحوض المرصود حوالى سنة ١٨٣١ معملا آخر لصنع البنادق ، وكان من قبل معدا للنسيج ، وقد تكلم عنه المسيو مانجان (١) ، فقال ان محمد على عهد بإدارته الى رجل ايطالى من (جنوه) يسمى المسيو مارنجو وقد تسمى باسم على افندى ، قال عنه « وقد اكتسب خبرته بعمله فى ترسانة القلعة تحت امرة ادهم بك ، وقد اشتغل بجد وعزيمة وتخرج على يديه طائفة من الصناع مهروا فى طريقة صنع البنادق على اختلاف طرازها »

وبلغ عدد عمال الحوض المرصود (حوالى سنة ١٨٣٧) ١٢٠٠ بين صناع ورؤساء عمل يصنعون فى الشهر نحو ٩٠٠ بندقية من مختلف الانواع والاشكال ، فمنها ماهو للمشاة ، ومنها ماهو للفرسان والطوبجية على الطراز المتبع فى الجيش الفرنسى ، وكذلك الحال فى معامل القلعة

ومتوسط ماتتكلفه البندقية اربعون قرشا ، أى بازيد مما تتكلفه البندقية التى تصنع بترسانة القلعة بثمانية وعشرين قرشا ، وقد سأل المسيومانجان عن سبب هذا الفرق ، فقيل له ان ذلك راجع الى الفرق فى عدد العمال وكمية الفحم والحديد فى كلا المصنعين ، على أنه لم يقنع بهذا السبب

وكانت تعمل تجربة للمدافع فى كل اسبوع ، وقد لاحظ المسيو مانجان ان الحديد الذى كانت تصب منه المدافع التى شاهدها سنة ١٨٣٧ من نوع غير جيد ، فكانت النتيجة أن يُستغنى عن خمس عدد المدافع المصنوعة لانه لم يحتمل التجربة ، قال واذا كان الحديد من النوع الجيد الواجب استعماله لا تتجاوز الكمية الملغاة منه السدس

ويقول ان البنادق التى تصنع فى معامل القلعة والحوض المرصود كانت صناعتها جيدة ، ولا يستطيع الانسان أن يلحظ عيبا فى صناعتها إلا اذا كان على خبرة بسر الصنعة ، والعيوب آتية على الارجح من نوع الحديد لامن عدم مهارة الصناع

---

(١) مانجان ج ٣ ص ١٣٣

وذكر المارشال مارمون فى رحلته(١) انه شاهد مصنعاً ثالثا للاسلحة فى ضواحى القاهرة، وان المصانع الثلاثة تصنع فى السنة ٣٦ ألف بندقية عدا الطبنجات والسيوف

معامل البارود

واقيم معمل للبارود فى المقياس بطرف جزيرة الروضة، وكان بناؤه فسيحا ومناسبا وبعيدا عن المساكن، وقد تولى ادارته المسيو مارتل Martel الذى كان من قبل مستخدما فى معمل البارود بمدينة سان شاماس Saint Chamas وتولى العمل تحت ادارته تسعون عاملا موزعين على اقسام المعمل، منهم ١٨ عاملا كانوا يشتغلون فى خلط الكبريت والفحم وملح البارود، و ٢١ عاملا يشتغلون فى تقليب البارود فى الطواحين وعددها عشرة، ولكل طاحون عشرون مدقة، تحركها عشر آلات تديرها البغال ويقودها عشرة رجال، واربعون عاملا يشتغلون فى صنع الرش ويصنع منه كل يوم ٣٥ قنطارا

وكان يصنع البارود بطريقة التبخير، وهذه الطريقة أوفر من طريقة النار

وقد تعددت معامل البارود فى مصر وكانت تسمى (كهرجالات) وهاك اسماءها ومقدار الناتج منها سنة ١٨٣٣(٢)

معمل القاهرة	٩٦٢١ قنطار
« البدرشين(٣)	١٦٨٩ »
« الاشمونيين	١٥٣٣ »
« الفيوم	١٢٧٩ »
« اهناس	١٢٥٠ »
« الطرانه	٤١٢ »
الجملة	١٥٧٨٤

(١) ج ٣ ص ٢٨٤ (٢) مانجان ج ٣ ص ٢٢٤

(٣) ذكر العلامة على باشا مبارك بالجزء التاسع من الخطط التوفيقية ص ١٤ فى

ملابس الجند ومرتباتهم

وصف كلوت بك[1] ملابس الجند فى عهد محمد على ، فقال انها غاية فى البساطة تتألف بالنسبة للجنود من الطربوش الاحمر ، وصدار ، و بنطلون ، وهو يشبه السروال الواسع يُشدُّ بتكة على الوسط ، و يُربط على الركبة برباط الساق (القلشين) ويتمنطق الجنود على خواصرهم بحزام ، وملابسهم فى الشتاء من الجوخ ، وفى الصيف من قماش القطن السميك ، اما الفرسان ورجال المدفعية والحرس فيلبسون فى الشتاء صدارا ازرق اللون ، وغيرهم يلبس صدارا احمر ، ويرتدى رجال الجيش جميعهم فى الصيف الملابس البيضاء ، و يحتذون باحذية من الجلد الاحمر (مراكيب)

ولا يختلف رداء الضباط عن رداء العساكر ، الا فى نوع الجوخ وما يزينه من التطريز ، واللون الاحمر يميز الضباط عن سواهم ، أما الشارات التى تميز بعضهم عن بعض بحسب مراتبهم ، فهى كما يلى :

يحمل الاونباشى شريطا واحدا على الصدر ، والجاويش شريطين ، والباشجاويش ثلاثة ، والملازم الاول يحمل على صدره من ناحية اليمين نجمة فضية ، واليوزباشى نجمة وهلالا فضيين ، والصاغ هلالا من الذهب ونجمة فضية ، و البكباشى هلالا ونجمة من الذهب ، والقائمقام هلالا من الذهب و نجمة من الماس ، والميرالاى هلالا و نجمة من الماس ، و امير اللواء نجمتين فى هلال كلها من الماس ، و الفريق (الميرميران) ثلاث نجوم فى هلال كلها من الماس

ويقول كلوت بك ايضا ان عطاء (مرتب) الجندى البسيط ١٥ قرشا فى الشهر ،

كلامه عن البدرشين ما يأتى « وفى جهتها البحرية معمل بارود من زمن العزيز محمد علي مستعمل الى قبيل تولية الخديوى محمد باشا توفيق كانت تجلب له الاسباخ من منية رهينة وتلول مصر العتيقة » .

(١) لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٣٣١ (٢٢٣ الاصل الفرنسى)

ومرتب الاونباشى ٢٥ قرشا ، والجاويش ٣٠ قرشا ، والباشجاويش ٤٠ قرشا ، والصول ٦٠ قرشا ، والملازم الثانى ٢٥٠ قرشا ، والملازم الاول ٣٥٠ قرشا ، واليوزباشى ٥٠٠ قرش ، والصاغ ١٢٠٠ قرش (١٢ جنيها) ، والبكباشى ٢٥٠٠ قرش (٢٥ ج .) والقائمقام ٣٠٠٠ قرش (٣٠ ج) ، والميرالاى ٧٠٠٠ قرش (٧٠ جنيها) والميرلواء ١١٠٠٠ قرش (١١٠ ج .) ، والميرميران ١٢٥٠٠ قرش (١٢٥ ج .)

ومرتبات كبار الضباط جسيمة كما ترى مما تقدم ، وقد لاحظ كلوت بك ان السبب فى ذلك ان محمد على باشا اراد استمالة الاتراك الى النظام الحديث على أثر ماأبدوه من النفور الشديد منه فضلا عن ان الرؤساء فى الجيش تدعوهم طبيعة مراكزهم الى بسط اليد بالنفقة

الادارة الحربية

انشأ محمد على نظارة للحربية كانت تعرف بديوان الجهادية ، عهد اليها قيادة الجيش وادارة شؤونه وناط بها جميع ما يجلب للجيش من سلاح ومهمات وثياب ، وهى التى تجلب من مخازن الحكومة مايلزمه من الذخائر والمؤن والادوية وما اليها

وقد نظمت الجيوش المصرية على نمط الجيوش الفرنسية ، وكذلك ادارتها الصحية ، وبكل اورطة العدد اللازم من الموظفين والادوات لاقامة المستشفيات الخاصة بالاورط

الروح الحربية

ان تأليف الجيوش النظامية والمران على الحياة العسكرية وخوض غمار القتال كل ذلك مما قوى الروح الحربية فى نفوس الشعب

صحيح ان المصريين لم يعتادوا الانتظام فى سلك الجيش منذ الفتح العثمانى ، ولكنهم لم يفقدوا الروح الحربية فى عهد المماليك ، اعتبر ذلك بالمقاومة المستمرة البعيدة المدى التى قام بها المصريون قاطبة فى وجه الحملة الفرنسية ، مما بسطنا الكلام

عنه فى الجزأين الاول والثانى، وهم وإن كانوا لم يألفوا الاندماج فى سلك الجيوش النظامية ولم يقبلوا على التجنيد الذى رسم محمد على قواعده طائعين ، بل سيقوا اليه مكرهين ، الا ان الفلاحين الذين انتظموا فى سلك الجيش مالبثوا كما قلنا أن رأوا فى حياة الجندية نظاما ارقى من حياتهم الفردية ،فأخذوا يألفونه مع الزمن، وقد أفادهم الفوائد العظيمة ، فلا يعزب عن البال ان تنظيم الجيش كان له آثار بعيدة المدى فى حالة البلاد السياسية والاجتماعية ، فان تأليف جيش قومى خاض غمار الحروب فى ميادين عدة من شأنه ان يغرس فى النفوس فكرة القومية ، إذ هو نفسه جسم هذه الفكرة

قال المسيو مانجان فى هذا الصدد « ان محمد على بهدمه الجيش غير النظامى ، وتجنيده الفلاحين على النظام الأوروبى قد اكسب شعبه تقدما عظيما ، ورد الى مصر قوميتها »

ويقول كادلفين وبارو فى كتابهما(١)

« ان العرب (يريد المصريين) من سكان وادى النيل لم يكن لهم منذ الفتح العثمانى حق الانتظام فى الجيش، ولكن محمد على قد اعاد اليهم هذا الحق، وهو بتجنيدهم — ولو أن ذلك كان على كره منهم — قد رفع من شأنهم وانتشلهم من الوهدة التى نزلوا اليها ، وقد استردوا سمعتهم بما اظهروه من الشجاعة فى ميادين الحروب التى خاضوها »

ولاشك فى ان انضواء الجنود والضباط تحت علم الجيش مما يعودهم حب النظام، والنظام هو من العوامل الرئيسية لارتقاء الامم وتقدمها ، فليس ثمة نهضة من غير أن يكون النظام رائدها ، وكذلك من خصائص الحياة العسكرية ان تبث الشجاعة فى نفوس الأمة وتغرس فيها مبدأ افتداء الوطن بالنفس والنفيس ، ذلك المبدأ الذى هو من أقوى دعائم الاستقلال والحرية ، فالروح الحربية المصرية قد تجلت تحت راية الجيش النظامى وساعدت على تأليفه ، كما أن تكوين الجيش نفسه كان له أثر فعال فى نمو تلك الروح وبروزها واكتمالها

---

(١) حرب محمد على ضد الباب العالى ص٥٦

هذا فضلا عما فطر عليه المصرى من الايمان والقناعة والطاعة ، والصبر على المكاره ، والاطمئنان الى قضاء الله وقدره ، كل هذه الصفات جعلت من الفيالق المصرية النظامية جيوشا ضارعت ارقى الجيوش الاوروبية فى الدربة والكفاية والشجاعة ، ولقد برهنت على هذه المزايا فى ميادين القتال التى خاضت غمارها

شهادة الثقات للجيش المصري

ويكفيك ان تقرأ فى هذا الصدد شهادة الثقات لتزداد اعتقادا بصحة هذه الحقائق

رأى سليمان باشا الفرنساوى

فقد شاهد البارون (بو الكونت) الجيش المصرى فى سورية سنة ١٨٣٣ وقابل الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) فقال له يصف الجنود المصريين :

«ان العرب (يريد المصريين) هم خير من رأيتهم من الجنود ، فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب مع انشراح النفس وتوطينها على احتمال صنوف الحرمان ، وهم بقليل من الخبز يسيرون طول النهار يحدوهم الشدو والغناء ، ولقد رأيتهم فى معركة (قونيه) يبقون سبع ساعات متوالية فى خط النار محتفظين بشجاعة ورباطة جأش تدعوان الى الاعجاب دون ان تختل صفوفهم أو يسرى اليهم الملل أو يبدو منهم تقصير فى واجباتهم وحركاتهم الحربية »(١)

رأى كلوت بك

وقال كلوت بك فى كتابه (٢)

« ربما يعد المصريون أصلح الامم لأن يكونوا من خيرة الجنود (٣) ، لانهم على الجملة يمتازون بقوة الاجسام وتناسب الاعضاء والقناعة والقدرة على العمل ،

---

(١) رسائل البارون بو الكونت ص ٢٤٠

(٢) لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٢٢٦ (الاصل الفرنسى)

(٣) Les Arabes sont peut être les hommes les plus propres à devenir de bons soldats

واحتمال المشاق ، ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للأوامر والشجاعة ،والثبات عند الخطر ، والتذرع بالصبر فى مقابلة الخطوب والمحن ،والاقدام على المخاطر ، والاتجاه الى خط النار وتوسط معامع القتال بلا وجل ولا تردد »

وذكر كلوت بك حوادث عدة تأييدا لتلك الحقيقة ، وقال انه يكتفى منها بالحوادث الآتية :

حدث فى معركة (حمص) ان جنديا من الأورطة السابعة من الفرسان يدعى (منصور) فصلت ذراعه من جسمه بقنبلة ، فأبى وهو فى هذه الحالة التراجع عن ميدان القتال ، بل تقدم رجال كتيبته حاملا على العدو بأشد البأس وأروع البسالة وظل يحارب الى ان مات(١)

وحدث فى معركة (قونيه) أن ترك جميع الجرحى القادرين على حمل السلاح أسرّتهم فى المستشفى ونفروا الى ميدان القتال ليشاطروا اخوانهم مجد الانتصار أو شرف الموت

وفى تلك المعركة سقط جندى من الاورطة الرابعة من الفرسان عن ظهر جواده مجروحا ، فلما شهده أمير لوائه احمد المنكلى بك دفع اليه جواده ليرجع به الى الساقة ، فأبى الجندى قائلا انه يفضل البقاء فى ميدان القتال ليشهد اخوانه منتصرين ولو لقى الموت(٢).

وفى احدى المعارك أصيب شاب يحمل النفير من جنود الاورطة الخامسة عشرة بجرح ، ورأى ان رفاقه فى فصيلته قد هزمهم العدو وشتتهم ، فعلى الرغم من خطورة جرحه واحتدام نار القتال حوله لم يكف عن النفخ فى بوقه باشارة الاستمرار على الحملة ومتابعة الهجوم ، ولم يتراجع خطوة واحدة الى الوراء ، ولما شاهد زملاؤه الفارون فعله عراهم الخجل من رؤيته وهو فتى صغير يضرب لهم أمثال الشجاعة البطولة فحمى دمهم وتوافى بعضهم الى بعض ، ثم كروا الى القتال ليثأروا لشرفهم الذى ثلمه العدو لحظة من الزمن »

---

(١) ذكر كادلفين وبارو هذه الحادثة فى كتابهما (حرب محمد على ضد الباب العالى) ص ١٨٩ ونقلها عنهما كلوت بك

(٢) ذكر كادلفين وبارو هذه الحادثة ص ٣١٣

ثم ذكر كلوت بك حادثة أخرى قال عنها انها من أهم الحوادث وأخصها بالذكر، وهى أن سليمان باشا الفرنساوى كان ذات يوم يعرض اورطة وصلت اليه حديثا ، فوقع نظره على فتى ضاو نحيل فى السادسة عشرة من عمره يدعى الحاج على ، فهمّ سليمان باشا ان يردّه معترضا بانه لا يصلح أن يكون جنديا كفئاً، فأبى (الحاج على) إلا أن يبقى فى السلاح قائلا لسليمان باشا ان الحكم عليه انما يكون فى عمله ومتى سنحت الفرصة تبيّن الحكم ، فلما ضرب الجيش المصرى الحصار على (عكا) خرجت الحامية يوما فاستظهرت على المشاة المصريين وردت جنود الاورطة الثامنة المقاتلة فى الجبهة على أعقابها ، فتقدمت الاورطة الثالثة من الفرسان التى كان (الحاج على) منتظما فى سلكها لتعزيز جانب اولئك الجنود ، وحملت حملة باهرة صدت فيها المحصورين والجأتهم الى مواقعهم ، ولم يكتف الحاج على أن شاطر رفاقه مجد فوزهم بل انقذ بيده يوزباشيا كان على وشك الوقوع فى أسر العدو ، ثم انقض على ضابط تركى فأسره ، وجاء بالضابطين المصرى والتركى الى سليمان باشا وقال له « اقترى انى جندى لا اصلح لشىء ؟ »

قال كلوت بك : وكان الاتراك لما يشعرون به من الغطرسة والكبرياء ينظرون بعين الزراية الى المصريين ولا يكترثون بهم ويعتقدون فيهم العجز عن مجاراتهم ، ولكن حرب (المورة) اثبتت لهم بالبرهان القاطع ان ذلك الشعب الحيّ المنكمش الذى ارهقه الضغط والعسف قدير على استرداد مجده القديم وأهلٌ لمنازعتهم فخر النجاح والفوز فى القتال ، ولقد اثبت لهم فتح الشام وانتصارات (حمص) و (بيلان) و (قونيه)(١) تفوقهم عليهم باعتبار كونهم افرادا ، كما اثبتت كفايتهم باعتبارهم مجموعا اذا وجدوا القيادة الصالحة

---

(١) ونصيبين

ولكن كلوت بك لاحظ ان المصريين لم يكن لهم نصيب فى القيادة ، ومع انه أطراهم بوصف كونهم جنودا فانه يقول انهم لم يضطلعوا بالمهام التى اقتضتها مراكز القيادة فى الجيش ، وبرر عمل محمد على فى اقصائهم عن المراتب السامية فى الجندية واسنادها الى الاتراك والمماليك ، بقوله

« انهم في المراتب العالية لا يقدرون كرامة مراكزهم الجديدة ووجاهتها ، فهم يغايرون العثمانيين والمماليك في الاهلية للقبض على زمام القيادة ، وسرعان مايتحولون الى عاداتهم القديمة بما اضطر محمد على باشا وابنه ابراهيم على الرغم منهما الى الكف عن ترقيتهم وترفيعهم الى المراتب السامية فى الجندية ، ومن هذا النقص ، أسندت الى المماليك والاترك فى الجيش المناصب العليا »

هذا ماقاله كلوت بك ، ولم يذكر لنا تفصيل التجربة التى جربها محمد على باشا فى اسناد المراتب العالية فى الجيش للمصريين والتى ظهر فيها عدم اهليتهم ، وأغلب الظن انه لم يجربها اصلا حتى يقام لهذا الرأى وزن ، ولو أنه عوّد المصريين تقلد المناصب الرئيسية فى الجيش لاضطلعوا بها ولظهرت فيها كفايتهم ومقدرتهم مع الزمن والممارسة ، هذا فضلا عن ان رأى كلوت بك فى هذه المسألة ليس له كبير اعتبار لان المماليك والاتراك قد اندمجوا فى الكتلة الوطنية كما سيجىء بيانه

رأى المارشال مارمون

على ان المارشال مارمون يبدى فى رحلته رأيا يتعارض ورأى الدكتور كلوت بك فى هذا الصدد ، فقد ذكر ان مناصب ضباط الجيش كانت فى مدى سنوات عدة تسند الى الترك والمماليك لان محمد على لم يشأ بادىء الامر ان يستسلم للاهلين ويجعل نفسه تحت رحمتهم ، ولكن لما رسخت سلطته واطمأن الى اخلاص الجيش بدأ يسند مناصب الضباط الى العرب فبرهنوا على ذكاء وافر ونشاط كبير ، والذين ارتقوا من بينهم الى سلك الضباط صاروا أحسن وأكفأ من الترك ، والآن

— سنة ١٨٣٤ — لم يعد يعترض تقدمهم فى المناصب العسكريه أى مانع وانفتح أمامهم سبيل المراتب العالية(١)

وقد شهد المارشال سنة ١٨٣٤ فيالق الجيش المصرى على اختلاف وحداتها واطنب فى صفاتها الحربية وأعجب بكفاءتها وحسن نظامها ، فقال عن المشاة (٢)

« كان لواء المشاة المؤلف من الألاى التاسع والألاى العشرين فى طريقه الى السويس للابحار منها الى الحجاز لنجدة الجيش المصرى فيه ، وعرضت بنفسى هذا اللواء ، فقام أمامى بمناورات دامت ثلاث ساعات فى سهل (القبة)، فاعجبت به أيما اعجاب ، وإذ كان عساكره فى مقتبل السن وحديثى عهد بالانتظام فى صفوفه فقد لاحظت مبلغ تأثير القائد الاعلى للجيش فى تشكيله ونظامه ، والحق ان العساكر الذين عرضتهم يجمعون الى الدقة والنظام الدراية بالفنون العسكرية ، وقد رأيت فى قائد اللواء وضباطه دلائل العلم والكفاءة ، وشهدت أيضا الألاى السادس من الفرسان ولم يكن مضى على جنود فى الخدمة اكثر من عشرة اشهر ومع ذلك رأيتهم فيما عدا بعض ملاحظات طفيفة يستحقون كل الثناء »(٣)

وقال عن جنود المدفعية الذين يتمرنون فى مدرسة المدفعية بطره : « قامت أورطة المدفعية الراكبة امامى بمناورات تدل على المهارة والنشاط والنظام والدقة وكانت مؤلفة من ستة بلوكات رجالها على مايرام من الجمال والتعليم ونظام الحركات العسكرية ، كما أن مركبات المدافع متقنة منتظمة رغم كون الجياد التى تجرها صغيرة الجسم شأن خيل القطر المصرى ، ورجال المدفعية مجهزون بما يلزمهم تجهيزا حسناً،

---

(١) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ٢٩٣
(٢) « « « ج ٣ ص ٢٩٤
(٣) « « « ج ٣ ص ٢٩٥

اكفاء فى الرماية ، يصيبون الهدف بدقة وسرعة ، فالمدفعية المصرية جامعة لشروط الكفاية ، تضارع مدفعيات الجيوش الأوروبية ، وأميرالايها رجل كفء ممتلىء نشاطا وغيرة

اما أورطة المدفعية المشاة فتتألف من ١٨ بلوكا ، وقد قامت بمناوراتها فكانت مدافعها تصيب الهدف باحكام ، اما مدافع الهاون فهى أقل ضبطا واحكاما ، ولا يسع المشاهد لهذه المدفعية الا الاعجاب بالقوة التى حولت الفلاحين الى جنود على جانب عظيم من الكفاءة » (١)

رأى المسيو مريو

وقد احتفظ الجيش المصرى بسمعته بعد انقضاء عصر محمد على وبعد أن تناقص عدده ، فقد أحسن المسيو مريو(٢) الذى جاء مصر فى عهد سعيد باشا الشهادة فى حقه بقوله

« إن كفاءة الفلاح المصرى فى فهم النظام الحربى واتباعه ، وما اشتهر به من الثبات والشجاعة فى مواجهة الاعداء كل هذه الميزات قد قامت عليها البينات لا فى ميادين القتال بجزيرة العرب وسورية فى عصر محمد على فحسب ، بل بحسن دفاع الجيش المصرى عن سلستريا فى حرب القرم الاخيرة »

القلاع والاستحكامات

عنى محمد على عناية كبيرة باقامة القلاع والاستحكامات للدفاع عن ثغور البلاد وعاصمتها ، فأصلح قلعة صلاح الدين بالقاهرة ، وشحنها بالمدافع ، وبنى على مقربة منها قلعة أخرى على ذروة المقطم تعرف بقلعة (محمد على) وتشرف على الأولى ،

---

(١) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ٢٨٥

(٢) فى كتابه « مصر الحديثة من سنة ١٨٤٠ الى ١٨٥٧ »

واصلح قلاع الاسكندرية وانشأ غيرها ، واستدعى من فرنسا لهذا الغرض مهندسا حربيا فى فن الاستحكامات يسمى المسيو جليس Galice وانعم عليه برتبة البكوية فصار يعرف بجليس بك ، وعهد اليه اختبار سواحل مصر ووضع مشروع لحصونها واستحكاماتها وجعله باشمهندس الاستحكامات

ولكى تعرف مبلغ عناية محمد على بالدفاع عن مصر نورد هنا احصاءً ذكره اسماعيل باشا سرهنك(١) عن كشف قديم من أوراق حسن باشا الاسكندرانى مدير ترسانة الاسكندرية ، يتضمن عدد قلاع الاسكندرية وابوقير والبرلس ورشيد ودمياط وعدد مابها من المدافع سنة ١٨٤٨ اى السنة التى تولى فيها ابراهيم باشا حكم مصر

حصون الاسكندرية

اسماء الحصون	مدافع	أهوان	جبخانة
طابية قايتباى (او قلعة برج الظفر)	١١٠	٦	١
« الأطة	٥٧	٧	٢
« الفنار	٥٧	٦	٢
« « الصغيرة	١		١
« التراب (وتسمى الهلالية) (٢)	٦١	١٢	٣
« الاسبتالية الجديدة	١٣	١٠	١
« « القديمة	٢٥		١
« ظهر منزل الفرنسيس	٦	٦	١
« المفحمة	٨		١

(١) فى كتابه حقائق الاخبار عن دول البحار جزء ٢ ص ٢٥٩

(٢) محلها الآن (سنة ١٩٣٠) حلقة السمك بالانفوشى

تابع حصون الاسكندريه

أسماء الحصون	مدافع	أهوان	خبخانه
طابية مسلة فرعون (١)	٩		١
« قبور اليهود القديمة	١٠		١
« « « الجديدة	٢٠		١
« برج السلسلة	١١	١	١
« باب شرقى (٢)	٦		
« كوم الناضورة	١٠	١	١
« الدخيلة	٣		١
« السلمية (٣)	٢٠	٢	١
« المكس	٤٠	٩	١
« القمرية (٤)	٩	١	١
« أم قبيبة (كبيبة) (٥)	٥٦	٤	٢
« الملاحة القديمة	١٤	١	١
« « الجديدة	٣٤	١	١
« صالح اغا (٦)	١٣		٢
« باب سدرة	٨		١

(١) مكانها الآن المستشفى الاميرى
(٢) موجود بعض آثارها الى اليوم فى شارع باب رشيد
(٣) بين المكس والدخيلة
(٤) و(٥) بالقبارى
(٦) المعروفة الآن بطابية صالح بالقبارى

تابع حصون الاسكندرية

اسماء الحصون	مدافع	اهوان	جبخانة
طابية كوم الدماس[١]	٩	٢	١

حصون ابوقير

اسماء الحصون	مدافع	اهوان	جبخانة
قلعة ابوقير	٤٨	٣	٢
طابية كوم الشوشة	٤٧	٣	١
« كوم العجوز	٢٤	٢	١
« السد نمرة (١)	١٠		١
« السد نمرة (٢)	١٠		١
« « « (٣)	١٠		١
« « « (٤)	١٠		١

حصون رشيد

اسماء الحصون	مدافع	جبخانة
طابية التبنى	٦	١
« العباسى	٦	١
« الطواجنية	٥	١
« المنزلاوى	٣	
« محل الشركة	١	
« برج رشيد	١٤	١
« قلعة البوغاز	١٨	١
الطابية الشرقية	١٠	١

---

(١) بجوار مسجد النبى دانيال ، ويضاف الى حصون الاسكندرية طابية العجمى بجزيرة العجمى فقد كانت موجودة فى عهد محمد على

« الغربية	١٠		١

البرلس

قلعة البرلس	٦		١

حصون دمياط

اسماء الحصون	مدافع	اهوان	جبخانة
القلعة القديمة	٢٠		١
الطابية الشرقية	١٠		١
« الغربية	١٠		١

احصاء الجيش المصرى

فى عهد محمد على

كان الجيش المصرى مؤلفا فى اوائل حكم محمد على من نحو ٢٠٠٠٠ من المقاتلة ، جميعهم من الجنود غير النظاميين (باشبوزق) ، فلما ادخل النظام الحديث فى الجيش واتبع طريقة التجنيد على ما مر بك بيانه تألف الجيش النظامى وصار يضارع فى قوته وعدده وكفايته احدث الجيوش الاوروبية

احصاء سنة ١٨٣٣ .

جاء البارون بو الكونت Boislecomte الى مصر منتدبا من الحكومة الفرنسية فى مهمة سياسية لدى محمد على باشا ، وله عن مهمته رسائل مطولة طبعت أخيرا فى كتاب مستقل (١) ، وقد استقصى احوال مصر فى ذلك العصر ، فذكر عن الجيش أنه تلقى بيانا من محمد على نفسه عن عدده فى تلك السنة (١٨٣٣) ،

(١) مهمة البارون بو الكونت ، من مطبوعات الجمعية الجغرافية

ومن هذا البيان الرسمي يتضح أنه يتألف من ١٩٤٠٣٢ من المقاتلة بما فيهم ٢٥١٤٣ من البحارة وعمال الترسانات البحرية

فيكون مجموع جنود البر ١٦٨٨٨٩ جندى موزعين بحسب الاحصاء الآتى :

٢٢ الايا من المشاة وعددهم	٧٠٣٣٧	جندى
٣ الايات من الطوبجية	٦٣٥٧	»
١٣ الايا من الفرسان النظاميين	٧٩٦٢	»
فرقة الهندسة	٣٩٤٢	»
الفرسان غير النظاميين	٣٤٣٥	»
البدو	٥٣٧٠	»
طلبة المدارس الحربية	٣٤٨٨	»
الرديف و رجال الشرطة	٦٧٩٩٨	»
مجموع جنود البر سنة ١٨٣٣	١٦٨٨٨٩ (١)	

احصاء سنة ١٨٣٩

وقد بلغ الجيش المصرى اوجه من جهة العدد سنة ١٨٣٩ وقد اعتمدنا فى احصاء هذه السنة على ماورده الدكتور كلوت بك فى كتابه (لمحة عامة الى مصر) ، وهو وان اختلف عن احصاء المسيو مانجان عن سنة ١٨٣٧ (٢) وزاد عنه الا اننا نعتقد أن كلوت بك لمكانته فى الحكومة قد توفر له من وسائل التحقيق والتمحيص اكثر مما توافر للمسيو مانجان

ونتيجة احصاء الدكتور كلوت بك (٣) أن الجيش المصرى يتألف من الجنود الآتية

(١) مهمة البارون (بو الكونت) ص ١١٣ ، وهذا الاحصاء يختلف قليلاً عن احصاء المسيو مانجان عن سنة ١٨٣٣ فى كتابه ج ٣ ص ١٣٦ ، على انه قريب منه

(٢) بحسب احصاء مانجان (ج ٣ ص ١٤٠) عن سنة ١٨٣٧ يكون العدد ١٠٥٩٣٠٠ مقاتل (٣) ج ٢ ص ٣٥٦

١ — جنود نظامية من مشاة وفرسان ومدفعية ١٣٠ر٢٠٢ جندى
٢ — جنود غير نظامية او باشبوزق ٤١ر٦٧٨ »
٣ — الرديف ٤٧ر٨٠٠ »
٤ — عمال (الفابريقات) المدربون على القتال وكانوا يقومون بالتمرينات العسكرية ١٥ر٠٠٠ »
٥ — طلبة المدارس الحربية المستعدون منهم للقتال ١ر٢٠٠ »

٢٣٥ر٨٨٠ مجموع جنود البرسنة ١٨٣٩

تفصيل للاحصاء المتقدم

١ — الجنود النظامية

وهاك عدد الجنود النظامية مع بيان الجهات التى يقيمون فيها

بيان الجيوش	محل الاقامة	عدد الجنود
الالاى الاول من طوبجية الحرس	حماه	١٣٧٢
« الثانى « المشاة	الاسكندرية	٢٣٤٩
« الثالث « «	حلب	١٩٤٩
« الاول « الفرسان	حمص	٠٩٨٢
« الثانى « «	دمشق	١٠٠٧
اربع فصائل من طوبجية متفرقة	عكا	٣٣٧
الاورطة الاولى من المدفعية	الحجاز	٣٧٩
الألاي الاول من مشاة الحرس	عينتاب	٣٠٤٨
« الثانى « «	مرعش	٢٦٤٥
« الثالث « «	حلب	٢٤٣٥
« الأول من المشاة (الأورطة الخامسة)	السودان	٤٥٤٧

بيان الجيوش		محل الاقامة	عدد الجنود
الألاى الثانى	من المشاة	عينتاب	٢٢٥١
« الثالث	»	اليمن	١٥٢٦
« الرابع	»	مرعش	٢٥٩٣
« الخامس	»	ادنه (الاناضول)	٢٦٢٩
« السادس	»	كليس	٢٣٦٢
« السابع	»	الحجاز	٢١٩٢
« الثامن	»	السودان	٣٣٩٦
« التاسع	»	حلب	٢٣٠٤
« العاشر	»	»	٢٠٥٤
« الحادى عشر	»	أورفا	٢٣٣٨
« الثانى »	»	عينتاب	٢٣٢٦
« الثالث »	»	الحجاز	١٢٢٥
« الرابع »	»	حلب	١٩٨٨
« الخامس »	»	الدرعية (نجد)	٢٥٥٥
« السادس »	»	قنديا (كريت)	٣١٤٩
« السابع »	»	أورفا	٢٣٦٩
« الثامن »	»	عكا	٢٠٤٩
« التاسع »	»	الحجاز	٢٣٤٩
« العشرون	»	اليمن	٢٦٧٧
« الحادى و »	»	الحجاز	٢٣٦٣
« الثانى و »	»	أورفا	٢٢١٢
« الثالث و »	»	ينبع	٢٣٤٢

بيان الجيوش		محل الاقامة	عدد الجنود
الألاى الرابع والعشرون	من المشاة	انطاكية	٣١٣١
« الخامس والعشرون	«	بيت المقدس	١٧٥٥
« السادس والعشرون	«	القاهرة	٣٣١٨
« السابع والعشرون	«	الحديدة (اليمن)	٢١٢٩
« الثامن والعشرون	«	« «	٢٤٤٦
« التاسع والعشرون	«	ادنه	٣١٧٢
« الثلاثون	«	حماه	٢٩٢٥
« الحادى والثلاثون	«	حلب	٢٤٠١
« الثانى والثلاثون	«	القاهرة	٣٣١٨
« الثالث والثلاثون	«	الاسكندرية	٢٦٠٤
« الرابع والثلاثون	«	كليس	٢٥٦٤
« الخامس والثلاثون	«	القاهرة	٣٣١٨
« الاول من فرسان الحرس		اللاذقية	٧٩٦
« الثانى من الحرس المدرعين		بيسان	٨٤٤
« الاول من الفرسان		أورفا	٨٢٥
« الثانى « «		زانبه	٨٣٠
« الثالث من الفرسان فى الطريق الى		الاسكندرية	٨٤٧
« الرابع من الفرسان		ادنه	٦٧٨
« الخامس من الفرسان فى الطريق الى		الاسكندرية	٨٣٢
« السادس من الفرسان		دمشق	٧٧٠
« السابع « «		طرسوس	٧٤٢
« الثامن « «		دمشق	٧١٢
« التاسع من الفرسان فى الطريق الى		الاسكندرية	٨١٦

بيان الجيوش	محل الاقامة	عدد الجنود
الالاى العاشر من الفرسان	عكا	٧٦٨
« الحادى عشر » »	كليس	٧٥٦
« الثانى عشر » »	طرسوس	٦٦٢
« الثالث عشر » »	اورفا	٨٠٦
أورطة المتقاعدين	القاهرة	٣٩٨٠
ألالاى الاول من البلطجية	عكا	٨١٢
الاورطة الاولى من المتقاعدين	الاسكندرية	٧٩١
أورطتان من المتقاعدين	طرابلس	١٦٤١
اورطة من المتقاعدين	دنقلة	٨٥٥
« من فرقة المهندسين	ادليب	٧٥٨
« من البلطجية	اسكندرية	٨٠٨
فصيلة من اللغامين	القاهرة	٩٤
الاساس	القاهرة	٢٨٥
١٦ بلوكا من العساكر المتقاعدين	مراكز القطر	١٦٧١
رجال الالعاب النارية والسواريخ	مصر العتيقة	١٨٥
الاى من حملة القرابينات حرس القائد العام ابراهيم باشا		١١٥٢
فصيلة من حملة القرابينات	الحجاز	١٠٦
بلوكان من العساكر المتقاعدين	»	٢٠٠

مجموع الجنود النظامية ١٣٠٫٢٠٢ (١)

---

(١) صححنا بهذا الرقم عملية الحساب الواردة فى كاوت بك ج ٢ ص ٢٣٢ (الاصل الفرنسى) كما صححنا عملية الحساب الواردة فى كتاب البارون (بوا لكونت)

٢ — الجنود غير النظامية

فى الحجاز

	ضباط	عساكر
فرسان اتراك	٤	١٥٨٠
مشاة اتراك	١	٣٩٥
فرسان مصريون	٩	٩٤٥
مشاة مصريون	٥	٣٣٩
مدفعية	—	٧٨٧
المجموع	١٩	٤٠٤٦

فى القطر المصرى

	ضباط	عساكر
فرسان اتراك	١٠	٢٧٨٥
مشاة اتراك	٧	٢٧٧٥
فرسان مصريون	٧	١٦٦٠
مدفعية	—	١٢٩٩
المجموع	٢٤	٨٥١٩

فى اليمن

	ضباط	عساكر
فرسان اتراك	٥	١٩٧٠
مشاة اتراك	٩	٧٦٠
مدفعية	—	٢٠٠
المجموع	١٤	٢٩٣٠

فى قنديا (جزيرة كريت)

	ضباط	عساكر
فرسان اتراك	٢	٤٥٠
مشاة اتراك	٦	٢٤٠٥
مدفعية	—	٢٨٠
المجموع	٨	٣١٣٥

فى المدينة المنورة

فرسان اتراك	٣	٣٠٢٠
مشاة اتراك	١٠	٣٧٥٠
مدفعية	—	٢٢٥
مصريون	١٦	١٢٢٥
المجموع	٢٩	٨٢٢٠

فى السودان

فرسان اتراك	١٧	١١٧٠
فرسان مصريون	٤	١٢٨٠
مشاة مصريون	١٠	٩٥٠
مدفعية		٠١٨٦
المجموع	٣١	٣٥٨٦

فى سورية

فرسان اتراك	١٤	٤١٢٥
مشاة اتراك	٥	١٩٣٠
فرسان مصريون	٦٣	٤٩٨٠
المجموع	٨٢	١١٠٣٥

فيكون مجموع الجنود غير النظامية كما يأتى

ضباط	٢٠٧
عساكر	٤١٤٧١
	٤١٦٧٨

وكانت قبائل العربان فى القطر المصرى كقبائل اولاد على والجميعات والجوادى والهنادى وولد سليمان والزوفة وجهينة والهوارة والعبابدة والمعازة وغيرهم كالمدد المدّخَر فى الرجال والخيل والجمال وأسباب القتال ، وكل ذلك تقدمه لاول اشارة من الحكومة

٣ — الرديف

الاسكندرية	ألايان	٦٨٠٠	جندى
البرلس ورشيد	الاى واحد	٣٤٠٠	»
دمياط	»	٣٤٠٠	»
القاهرة	ثمانية ألايات	٢٧٤٠٠	»
مصر القديمة	الاى واحد	٣٤٠٠	»
بولاق	»	٣٤٠٠	»
		٤٧٨٠٠	»

خلاصة الاحصاء المتقدم

جنود نظامية	١٣٠,٢٠٢
جنود غير نظامية	٤١٦٧٨
رديف	٤٧٨٠٠
عمال الفابريقات	١٥٠٠٠
طلبة المدارس الحربية	١٢٠٠
مجموع جنود الجيش البرى سنة ١٨٣٩	٢٣٥,٨٨٠

الفصل الحادى عشر

الاسطول

النواة الاولى للاسطول سنة ١٨١٠

بدأت عناية محمد على باحياء البحرية المصرية منذ شرع فى خوض غمار الحرب الوهابية ، فقد رأى ان انفاذ الجنود الى الحجاز يقتضى اعداد السفن لنقلهم عن طريق البحر الاحمر ، فبادر إلى إنشاء ما استطاع من السفن فى دار صناعة (ترسانة) بولاق بعد أن عمر هذه الترسانة ، فأمر بتجهيز القطع اللازمة من الخشب فيها ثم بنقلها على ظهور الابل الى السويس لتركب هناك وتنزل الى البحر ، فكانت هذه السفن هى النواة الأولى للاسطول المصرى فى عهد محمد على

فالبحرية المصرية ابتدأ ظهورها وتكوينها فى تاريخ مصر الحديث أوائل سنة ١٨١٠ ، ولقد كان لهذه العمارة فضل كبير فى نجاح الحملة الوهابية لانها كانت صلة الاتصال بين مصر وجنود الحملة فى الحجاز ، وهى التى مكنت مصر من السيطرة على البحر الاحمر وثغوره

ويقول المسيو (مانجان) ن محمد على عند ما اعتزم انشاء بحرية فى خليج السويس جلب الى بولاق الاخشاب اللازمة لصنع السفن من ثغور الاناضول[1] ، وكذلك المهمات والأمراس (الحبال) واستحضر العمال فأعد الاخشاب وهيأ المواد اللازمة لتركيب السفن ونقل كل ذلك الى السويس على ظهور الابل ، وكان هذا العمل شاقا وطويل المدى ، وقد إستخدم فى ذلك عشرة آلاف من الابل ، ومات كثير منها فى الطريق من ثقل ما حملت وطول ما أرهقت ، فكان

---

(١) ومن القطر المصرى ايضا

لايهلك بعير الا جاء بغيره ، و بذلك تيسر له انشاء ثمانى عشرة سفينة كبيرة كاملة العدة وانزالها الى الماء فى مدة عشرة أشهر

رواية الجبرتى

وهاك ماقاله الجبرتى فى هذا الصدد : « و استهل شهر ذى الحجة بيوم الاحد سنة ١٢٢٤ (٧ يناير سنة ١٨١٠) وفيه شرع الباشا فى انشاء مراكب لبحر القلزم (البحر الاحمر) ، فطلب الاخشاب الصالحة لذلك ، وأرسل المعينين لقطع اشجار التوت و النبق من القطر المصرى القبلى و البحرى و غيرها من الاخشاب المجلوبة من الروم (الاناضول) ، وجعل بساحل بولاق ترسخانة و ورشات ، وجمعوا الصناع و النجارين والنشارين فيهيئونها وتحمل اخشابا على الجمال ويركبها الصناع بالسويس سفينة ثم يقلفطونها ويبيضونها ويلقونها فى البحر ، فعملوا اربع سفائن كبارا احداها يسمى الابريق [1] وخلاف ذلك (داوات) لحمل السفار والبضائع »

ترسانة بولاق وإنشاء السفن

انشئت اذن العمارة البحرية الاولى فى ترسانة بولاق ، وهى الترسانة التى اعتمد عليها محمد على فى صنع السفن الكبيرة الى ان اسس ترسانة الاسكندرية الحديثة التى سيرد الكلام عنها

فترسانة بولاق كان لها فضل كبير على البحرية المصرية ، و فيها انشئت السفن التى استخدمتها مصر فى الحملة الوهابية ، وانشئت بها ايضا السفن التجارية التى استخدمتها الحكومة لنقل المتاجر والمهمات على النيل وعلى شواطىء البحر الابيض

---

(١) سميت كذلك لانها شبه الابريق ويسميها الافرنج بريك وهى سفينة بسارتين وقلوع مربعة

وقد ذكر الجبرتى هذه الترسانة غير مرة فى تاريخه مما يدل على عظم شأنها وذكر ما بنى فيها من السفن

فقال فى حوادث سنة ١٢٢٧(١) «ومنها ان الباشا عمل ترسخانة عظيمة بساحل بولاق ، واتخذ عدة مراكب بالاسكندرية لجلب الاخشاب المتنوعة وكذلك الحطب الرومى من اماكنها على ذمته ويبيعه على الحطابين بما حدده عليهم من الثمن ، ويحمل فى المراكب المختصة به باجرة محددة ايضا ، واستمر ينشىء المراكب الكبار والصغار التى تسرح فى النيل من قبلى الى بحرى ومن بحرى الى قبلى ولا يبطل الانشاء والاعمال والعمل على الدوام وكل ذلك على ذمته ومرمتها وعمارتها ولوازمها وملاحوها باجرتهم على طرفه لا بالضمان كما كان فى السابق ، ولهم قومة ومباشرون متقيدون بذلك الليل والنهار »

وذكر ايضا من حوادث تلك السنة « ان الباشا أرسل لقطع الاشجار المحتاج اليها فى عمل المراكب مثل التوت والنبق من جميع البلاد القبلية والبحرية ، فانبث المعينون لذلك فى البلاد فلم يبقوا من ذلك الا القليل لمصانعة اصحابه بالرشا والبراطيل حتى يتركوا لهم مايتركون ، فيجتمع بترسخانة الاخشاب لصناعة المراكب مع ماينضم اليها من الاخشاب الرومية شىء عظيم جدا يتعجب منه الناظر من كثرته ، وكلما نقص منه شىء فى العمل اجتمع خلافه اكثر منه »

وقال فى حوادث سنة ١٢٣١ (سنة ١٨١٦) « والعمل والانشاء بالترسخانة مستمر على الدوام والرؤساء والملاحون يخدمون فيها بالاجرة ، وعمارة خللها وأحبالها وجميع احتياجاتها على طرف الترسخانة ، ولذلك مباشرون وكتاب وامناء يكتبون ويقيدون الصادر والوارد ، وهذه الترسخانة بساحل بولاق بها الاخشاب الكثيرة

(١) هذه السنة توافق سنة ١٨١٢ ميلادية ، وقوله سنة ١٢٢٧ فيه نظر ، لان العمل فى الترسانة بدأ سنة ١٨١٠ (١٢٢٤هـ) عند ابتداء الحرب الوهابية كما ذكره الجبرتى نفسه فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢٢٤ ، فلزم التصحيح

والمتنوعة ومايصلح للعمائر والمراكب ، ويأتى اليها المجلوب من البلاد الرومية (التركية) والشامية ، فاذا ورد شئ من انواع الاخشاب سمحوا للخشابة بشئ يسير منها بالثمن الزائد ورفع الباقى الى الترسخانة »

الدونمة المصرية

فى البحر الابيض المتوسط

منذ بنى محمد على العمارة المصرية الأولى فى البحر الاحمر وتبين له مزايا الاساطيل البحرية اعتزم انشاء اسطول قوى يمخر عباب البحر الابيض المتوسط وأخذ يتحين الفرص لانفاذ هذا المشروع

وقد رأى انه وإن كانت مصر مستعدة لبناء السفن عامة إلا أنها لم تكن على تمام الاهبة لصنع السفن الحربية ، وكان يرى بثاقب نظره أن قوة مصر الحربية لاتكون كافية للدفاع عن استقلال مصر وبسط نفوذها فى الخارج إلا اذا عاونها على ظهر البحار اسطول حربى قوى ، لذلك جاء تنظيم البحرية المصرية عقب تشكيل الجيش المصرى النظامى بزمن يسير

أخذ محمد على ينشئ الدونمة المصرية بشرائه بعض السفن الحربية أو توصيته بانشائها فى الثغور الاوروبية ، كمرسيليا وليفورن وتريستا ، وقد سلحها بالمدافع وعهد بقيادتها الى قباطين السفن التجارية من الاسكندريين والاتراك ، وجعل ملاحيها ونوتيتها من المتطوعين ، وجعل بها بعض الضباط من فرنسيين وايطاليين لتعليم البحارة وتدريبهم

وكان بالاسكندرية ترسانة قديمة تبنى فيها بعض السفن على الطراز القديم ، وقد عهد برآسة الهندسة فيها الى رجل يدعى شاكر افندى الاسكندرى يعاونه فى ذلك مهندس بارع من أهالى الاسكندرية اسمه (الحاج عمر) ، وهو من مشاهير المعلمين فى فن بناء السفن ، فجعله محمد على رئيسا للانشاء وعمارة السفن ، وجعل على مناظرة

بناء السفن موظفا يدعى الحاج احمد اغا ؛ وحضر فى ذلك الحين ـ سنة ١٨٢١ ـ قبطان فرنسى يسمى المسيو بيسون Besson كان من ضباط السفن الحربية الفرنسية ، فعرض على الحكومة المصرية خدماته فجعلته ملاحظا للسفن التى أمرت بصنعها فى ترسانات أوروبا ، وقد نال ثقة محمد على وأخذ يرتقى الى أن نال رتبة البكوية فصار يعرف بالفيس اميرال بيسون بك

فتكونت الدونمة المصرية الأولى فى البحر الابيض ، وانشأ محمد على ادارة خاصة للاساطيل المصرية جعل على رأسها صهره محرم بك مع بقائه محافظ الاسكندرية

وقد اشتركت تلك الدونمة فى حرب (الموره) وعاونت الجيش المصرى على محاربة اليونانيين كما بيناه فى الفصل السابع

تجديد الاسطول بعد وقعة نافارين

سنة ١٨٢٩

ولكن هذه الدونمة قضى عليها بالدمار فى واقعة نافارين البحرية (١) وقد حزن محمد على حزنا شديدا على ضياعها غدرا فى تلك الواقعة ، لكنه لم يدع لليأس سبيلا الى قلبه ، بل عزم على انشاء اسطول جديد يعوض مصر اسطولها القديم ، وشرع فى تكوينه من السفن الحربية التى كان أمر بصنعها فى الثغور الاوروبية

انشاء دار الصناعة الكبرى بالاسكندرية

ثم اعتزم ان ينشىء اسطولا جديدا بأيد مصرية ، لكيلا تكون مصر عالة على البلاد الاوروبية فى انشاء تلك السفن ، فوجه همته الى تأسيس دار صناعة (ترسانة) كبرى بالاسكندرية لبناء السفن الحربية ، وقد استعان لتحقيق هذا المشروع بمهندس فرنسى على جانب عظيم من المهارة والصدق يدعى المسيو سريزى Cerisy ، وهو مهندس بحرى فرنسى من ثغر طولون اشتهر بالكفاية والخبرة

---

(١) ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ انظر تفصيل ذلك بالفصل السابع ص ٢١٧ وما بعدها

فى فنون البحرية وخاصة فى فن بناء السفن والاحواض والترسانات ، وقد كان عهد اليه من قبل بانشاء سفينتين حربيتين فى مرسيليا ، فعرض عليه أن يحضر الى مصر ليستعين به فى احياء البحرية المصرية

سريزى بك

قدم المسيو دى سريزى بك الى مصر فى ابريل سنة١٨٢٩ ، وكانت اذ ذاك بالاسكندرية سفن قليلة العدد وهى البقية الباقية من العمارة المصرية التى نجت من واقعة نافارين ، ذكر منها كلوت بك سفينة من نوع الفرقاطة بها ستون مدفعا انشئت بثغر البندقية ، واخرى انشئت فى ثغر ليفورن ، وجملة سفن من طراز الكورفيت والابريق ،و كانت هذه السفن مفتقرة الى مهمات القتال ومعداته لانها منشأة فى ثغور تجارية لاحربية فجهزها المسيو سريزى بجهازها وانشأ فيها مخازن للبارود لجعلها صالحة للقتال

فطلب محمد على الى المسيو سريزى ان يضع له تصميما لاقامة ترسانة كبرى

ولم يكن بالاسكندرية وقتئذ سوى الترسانة القديمة وكانت تصلح أن تكون نواة لها ، وهى مظلات من الخشب فى مكان قريب من البحر ، وقد بنيت فى تلك الترسانة سفينة من طراز (الكورفيت) ، وأخرى من طراز الابريق، وثالثة ذات حجم كبير حولت فيما بعد الى فرقاطة

الحاج عمر

قلنا ان محمد على عهد برآسة هندسة السفن وبنائها فى الترسانة القديمة الى الحاج عمر ، وهو من أهالى الاسكندرية ، وقد تردد اسمه كثيرا فى المراجع الافرنجية والعربية وفى جريدة الوقائع المصرية ،إذ كان مهندسا بارعا فى فن بناء السفن ، فلما انشئت الترسانة الجديدة كان نعم المساعد للمسيو دى سريزى فى انشاء السفن الحربية الجديدة

وقد ذكره الدكتور كلوت بك فى كتابه(١) فقال عنه : كان يرأس اشغال بناء الاساطيل وترميمها مصرى طاعن فى السن يدعى الحاج عمر ، وهو رجل يجمع بين الشهامة والكفاءة فى بناء السفن ، فاعجب المسيو سريزى به و بكفاءته وجعله عضده الايمن فى تحقيق برنامجه ، وكان يصحبه رجل تركى الجنس (وهوشاكر افندى المتقدم ذكره) يقول عنه كلوت بك انه يزعم العلم بالهندسة ولكنه خلو منها ، فاستغنى عنه المسيو سريزى وفصله من وظيفته و بقى الحاج عمر يعاون سريزى بك فى عمله خير معاونة

وقال على باشا مبارك(٢) « وقبل حضور المهندس سريزى بك المذكور كان الرئيس على انشاء وعمارة السفن بتلك الميناء رجلا من الاهلين يسمى الحاج عمر ، وكان صاحب ادارة ومعرفة طبيعية ، واقدم على هذه الاعمال مع الاصابة ، فلما حضر المسيو سريزى بك اتحد معه وساعده فى جميع اعماله »

وكان للحاج عمر المذكور شخصية محبوبة بين معاصريه ، فقد تضمنت (الوقائع المصرية) ثناءً عليه(٣) لمناسبة بنائه إحدى السفن الحربية وقالت عنه ما يلى :

« الحاج عمر يوزباشى من اهالى الاسكندرية رئيس المعاريين فى ترسانة الاسكندرية ، لم يكن له نصيب من علم الهندسة ، ومع ذلك زاول اعمال سفن التجارة مدة ، وصار كأنه مهندس رياضى بكثرة المزاولة فى الاعمال و بسبب قوة ذكائه وفطانته ، والآن تم انشاء سفينة الفركطون الذى شرع فى انشائه بمعرفة المرقوم ، وطولها من قر بينتها ١٣٢ قدما ، ومن كورتها ١٤٧ قدما وعرضها ٣٧

---

(١) لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٣٥٤ (٢٣٧ من الاصل الفرنسى)

(٢) الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٥٢

(٣) بالعدد ١١٢ الصادر فى ٢٧ شعبان سنة ١٢٤٥ (فبراير سنة ١٨٣٠)

قدما ، وعمقها ٣١ قدما ، و بطاريتهـا الاولى تسع ٢٨ مدفعا ، وكذلك بطاريتها الثانية ، ودوارديها تسع مدفعين ، فنزلت في يوم الاثنين الموافق ١٥ شعبان المعظم، ولما رآها موسيو سريزى الذى جاء من فرنسا وهو مهندس ماهر فى انشاء السفن المنصورة تعجب من حال المعمار المرقوم حيث انشأ تلك السفن من دون علم بالهندسة وبا كمل جميع مايحسن لها »

كيف اسست الترسانة

درس المسيو سريزى مشروع انشاء ترسانة كبيرة بدل الترسانة القـديمة ، وبعد أن تم دراسته وضع تصميمها وقدم الرسوم اللازمة لانفاذ المشروع الى محمد على فى ٩ يونيه سنة ١٨٢٩ ، فأمعن النظر فيها ثم وافق عليها ، وشرع من فوره يخرج المشروع الى حيز العمل ، ولم تمض هنيهة على اقراره حتى كان عدة آلاف من الجند يحفرون الاساس للمبانى اللازمة ، واشترى بعض اماكن على شاطىء الميناء بخط (الصيادين) من اصحابها والحقها بمشروع الترسانة ، واستدعى من سائر انحاء القطر الشبان والعمال الذين يعهد اليهم العمل فى اتمام الترسانة والتوفر على الاعمال البحرية ، فكان منهم النجارون والحدادون والقلافطة والسباكون والميكانيكيون ، وتألفت هذه الفرق تدريجاً ، وأخذ المسيو سريزى هو والحاج عمر فى تدريب الشبان على التعليم البحرى حتى تخرج منهم الاونباشية والجاويشية والضباط ممن امتازوا بالهمة والنشاط والذكاء ، وصاروا تحت ملاحظة الحاج عمر المذكور ، وتم بناء الترسانة سنة ١٨٣١ ، ووجد المسيو سريزى من ذكاء المصريين وحسن استعدادهم وحذقهم الصناعات من قبل بيئة صالحة لاتمام بناء الترسانة وانشاء السفن الحربية فيها ،

وقدجعله محمد على باشمهندس الترسانة ورقاه الى رتبة البكوية فصار يعرف بسريزى بك ، ثم رقاه الى درجة لواء ، وتولى تدريب العمال على مباشرة الاعمـال كل فى

الصناعة التى اختير لمزاولتها ، و بذلك سار العمل فى اقامة المبانى وتدريب العمال على مختلف الصناعات سيرا مطردا

وكان محمد على لا يألو جهدا فى تنشيط العمل وتشجيع العمال فكان كثيرا مايحضر بنفسه الى دار الصناعة ويستحث الصناع على العمل و يعطيهم المثل فى الجد والمثابرة ، وكذلك كان يفعل ابراهيم باشا ، فكان لعملهما تأثير كبير فى تقدم العمل حتى تم فى يوم ٣ يناير سنة ١٨٣١ انشاء بارجة حربية ذات مائة مدفع نزلت الى البحر تتهادى ، فابتهج محمد على باشا لهذه النتيجة العظيمة ، ورأى أن مشروعه فى احياء البحرية المصرية بعد واقعة نافارين قد خطا الخطوة الأولى فى النجاح ، واطرد العمل ونما حتى صار لمصر فى عدة من السنين اسطول حربى عوضها مافقدته فى (نافارين) وزادت قوتها على ما كانت عليه

اقسام الترسانة

وصارت ترسانة الاسكندرية من أعظم المنشآت الحربية والبحرية ، كما كانت معهدا لتعليم الشبان المصريين بناء السفن وترميمها وما يلزمها من الآلات، فكانوا يوزعون على اقسامها ليتخصص كل جماعة فى فرع من فروع هذه الصناعة ، ويكفيك لتتبين مبلغ عظمها القاء نظرة على اقسامها والمصانع (الورش) التى تتألف منها فقد ذكر المرحوم اسماعيل باشا سرهنك(١) انها تتألف من الاقسام الآتية:

١ ــ ورشة الحبالة أو التيالة لعمل الحبال ٢ ــ ورشة الحدادين لصناعة الحديد ٣ ــ ورشة القلوع لعمل أشرعة السفن ٤ ــ ورشة السوارى لعمل ساريات السفن ٥ ــ ورشة البوصلات والنظارات ٦ ــ ورشة الدكمخانة لصب الآلات وسبك الحديد ٨ ــ ورشة البوية لصنع الدهانات ٨ ــ ورشة المخرطة لعمل البكرات وغيرها واعمال النقش والخرط ٩ ــ ورشة الترزية لعمل الاعلام والرايات

---

(١) فى كتابه حقائق الاخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٤٢

١٠ — ورشة الفلائك لصنع الزوارق ١١ — ورشة النجارين لعمل النجارة اللازمة للسفن ١٢ — ورشة الطلومبات ١٣ — ورشة القلافطية لقلفطة السفن ١٤ — ورشة البورغوجية لثقب الاخشاب ١٥ — مخازن الذخائر والمهمات (١)

وانشئ بالترسانة خمسة مزلقانات لبناء السفن عليها ، واهتم المسيو سريزى بك والحاج عمر بتعميق البحر من ناحية الترسانة الجديدة حتى جعلاه فى عمق كاف لرسو اكبر السفن الحربية

واتسعت اعمال الترسانة وكثر عمالها حتى بلغ عددهم نحو ٨٠٠٠ عامل من الاهالى حذق منهم ١٦٠٠ صناعة بناء السفن فاستغنت مصر عن ابتياع السفن من الخارج

اخشاب السفن

وإذ كان محمد على راغبا فى الاستكثار من انشاء السفن الحربية فكّر فى وسيلة فعالة لجلب الاخشاب من الخارج ليكمل بها ماتنتجه اشجار القطر المصرى من الخشب الذى يصلح لبناء السفن ، فحصل على اذن من حكومة الاستانة يجيز له قطع الاخشاب اللازمة من غابات الاناضول ، وعهد بذلك الى طائفة من العمال والصناع برآسة كل من الحاج حسن بك كبير نجّارى الترسانة ، والسيد احمد احد عمالها ،

---

(١) ذكر الدكتور كلوت بك فى كتابه ج ٢ ص ٣٧٠ أقسام الترسانة عا لايخرج فى مجموعها عما ذكره اسماعيل باشا سرهنك غير ان بيان سرهنك باشا جاء اوفى واكثر تفصيلا ، ولاغرو فكتابه ظهر بعد كتاب كلوت بك بنيف وخمسين سنة ، وفى كتاب كلوت بك انه انشئت برشيد فابريقة لنسج قماش الاشرعة ومصانع أخرى للحدادة كى يستعان بها عند الضرورة لتكملة أعمال ترسانة الاسكندرية ، وكانت فابريقات القاهرة ومعاملها تشتغل أحيانا لهذا الغرض ، قال وكان المسيو سريزى لايميل الى حصر الصنائع فى مكان واحد ، فدرب جماعة من المصريين على صناعة حبال السفن وأمراسها ، ثم اعادهم الى بلدانهم ليتفرغوا بها لصناعتها

وبذلك أخذت الاخشاب ترد الى الاسكندرية لتصنع منها السفن فى الترسانة ،

تذليل العقبات

وقد لقى المسيو سريزى عقبات شتى فى المضى فى عمله ، ذكرها كلوت بك فى كتابه (١) ، من ذلك انه استعان فى بدء الأمر بجماعة من الصناع الاوروبيين الفنيين للقيام بالاعمال الفنية التى لم يكن المصريون قد حذقوا فيها بعد ، وكان اقدامه على انشاء الترسانة قد ازعج بعض البيوت التجارية الاوروبية التى كانت تربح الارباح الوفيرة من وساطتها فى التوصية فى الخارج على بناء السفن الحربية لمصر ، فأخذت تدس الدسائس للمسيو سريزى وتثبط العزائم وتذيع اشاعات السوء عن فشل مشروعه بين العمال الأوروبيين الذين يتولون رياسة الاقسام الصناعية فى الترسانة ويدربون العمال المصريين ، وسعت الى تحريضهم على الشغب والعصيان ، ووقعت فى بعض الورش والمعامل بالترسانة بسبب ذلك فتن أفضت الى الارتباك والخلل فى العمل حتى لقد حدث عند الشروع فى دفع السفينة الثانية من منشآت الترسانة الى البحر ، ان انقطعت حبائلها المثبتة لها فى مكانها قبل الأجل المعين ، وكان ذلك بفعل فاعل يقصد اتلافها ، وكان العمال المالطيون والليفورنيون يحرضون زملاءهم من عمال ترسانة (تولون) الذين كانوا يعملون معهم فى ترسانة الاسكندرية ويحضونهم على التمرد ، وكان المسيو سريزى قد جاء بهم فى السنة التالية لتعيينه ليتولوا رئاسة الاقسام المختلفة ، لكن هذه العقبات لم تدخل اليأس الى قلب المسيو سريزى ، ولم ينزعج لها ، بل قابل دسائسهم وأفاعيلهم بجأش ثبت وإرادة قوية ، أما محمد على باشا وهو صاحب العبقرية العالية فى كل شأن فقد اهمل الوشايات التى احيط بها المسيو سريزى فمهد له بذلك سبيل التفرغ لاعماله والاهتمام بانجازها من غير توان ولا امهال ، ومن الصعب ان نتصور مبلغ العقبات التى اضطر ذلك المهندس

---

(١) ج ٢ ص ٣٦٤ (ص ٢٤١ من الاصل الفرنسى)

الخبير الى مكافحتها ليتمكن من انجاز ماعاهد نفسه على تنفيذه من المشروعات ، وكانت ظروف الاحوال قد الجأته فى بادئ الأمر الى استخدام الجم الغفير من الاوروبيين لتسليح السفن التى كانت تبنى بسرعة مدهشة ، فأدت معالجته هذا الأمر الى وقوع فتن واضطرابات لم يلبث أن تغلب عليها بفطنته ، وما انفك يهتم ايضا بمنع السرقات وبحسم ما يقع من الشقاق والنزاع بين العمال الوطنيين ، ومعاقبة المقصرين فى اداء أعمالهم ، سواء أكان هذا التقصير عن اهمال او خطأ ، أم سوء نية ، وقد وفق الى تعليم المصريين تدريجاً الصناعات التى حذقوها حتى ضارعوا الاوروبيين فيها ، فاستطاع محمد على الاستغناء عن فريق كبير من هؤلاء بحيث ان الاعمال صار ينجز الشطر الاوفى منها بايدى العمال الوطنيين ، ولم يحتفظ من الاوروبيين إلا بفئة صغيرة من المعلمين الفرنسيين ، قصد ببقائهم فى الخدمة الاشراف على كيفية استعمال المواد اللازمة لبناء السفن ، قال ومما هو جدير بالذكر ان امتثال المصريين للأوامر وانكبابهم على العمل فضيلتان كبيرتان عاونتا المسيو سريزى على أداء المهمة التى وكلت اليه على خير مايرام

ولم تنقطع دسائس التجار الاوروبيين بعد انتظام العمل فى الترسانة ، فانه بعد ان صارت تخرج السفن الحربية وبعد ان استغنت الحكومة عن ابتياع السفن من الخارج كانت مع ذلك مضطرة الى جلب المهمات والادوات التى تدخل فى انشائها من الخارج ، كالاخشاب والحديد والنحاس ، فكان التجار الافرنج يتغالون فى اثمانها ويوردون الاصناف الرديئة منها ، فالخشب مثلا كانوا يستوردونه من الاناضول وايطاليا غير مستوف شرائط الجودة والمتانة ، ولذلك كثيرا ماسرى العطب الى السفن التى كانت تصنع منه فتحتاج الى الاصلاح والترميم بعد زمن قليل ، على ان محمد على لم تفتر عزيمته عن مغالبة تلك العقبات ومتابعة انشاء السفن بهمة لاتعرف الملل ، وألف مجلسا نـ ط به كل مايلزم لاعمال السفن وجعل المسيو سريزى رئيسا له

السفن التى انشئت او رممت

فى ترسانة الاسكندرية

أورد كلوت بك فى كتابه (١) بيانا عن السفن التى انشئت اورممت فى ترسانة الاسكندرية اثناء وجود سريزى بك على رأسها ، وهـذا البيان يعطينا فكرة عن عظمتها وضخامة العمل الذى قامت به

فقد بنيت بها البارجتان (مصر) و(عكا) وهما بحجم السفن الفرنسية ذات الثلاثة السطوح المعروفة فى ذلك العصر الا انهما لم توضع بهما البطارية الرابعة ، والسطح الاول لـكل منهما يحمل ٣٢ مدفعا طويلا من عيار ٣٠ والسطحان الآخران يحملان ٦٨ مدفعا قصيرا من عيار ٣٠

وأربع بوارج من ذات مائة مدفع ، وهى المعروفة باسماء (المحلة الكبرى) (والمنصورة) و(الاسكندرية) و (حمص) ، وفى كل من هذه السفن ٣٢ مدفعا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الأولى ، و ٣٤ مدفعا قصيرا من عيار ٣٠ فى البطارية الثانية ، و٣٤ مدفعا من الزهر (كارو ناد) من عيار ٣٠ فى مقدم السفينةومؤخرها

والبارجة (ابوقير) ذات ٧٨ مدفعا ، منها ٢٨ مدفعا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الأولى ، و٣٠ مدفعا قصيرا فى البطارية الثانية ، و٢٠ مدفعا من الزهر من عيار ٣٠ فى مقدمة السفينة ومؤخرها

والكورفيت (طنطا) وفيها ٢٤ مدفعا قصيرا من عيار ٣٢ انجليزى

والجوليت (عزيزية) وفيها عشرة مدافع من عيار ٤ ،وقوطر النزهة وفيه ٤ مدافع من عيار ٤

وسفينة لمدافع الهاون ، وسفينة نقالة لحمل اخشاب الساريات

وقد تولت الترسانة تسليح البارجة (بيلان) ذات ٨٦ مدفعا ، فركب فيها

---

(١) ج ٢ ص ٣٧٣ (٢٤٣ من الاصل الفرنسى)

٢٨ مدفعا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الأولى ، و٣٠ مدفعا قصيرا فى البطارية الثانية ، و ٢٨ مدفعا من الزهر فى المقدمة والمؤخرة

وكان العمل جاريا (١) فى بارجتين من البوارج الضخمة ذات المائة مدفع من عيار ٣٠ ، وهما (حلب) و (دمشق) وفى فرقاطة كبيرة ذات ستين مدفعا من عيار ٣٠

واستنتج كلوت بك من البيان المتقدم ان المسيو سريزى قد عنى بالتوحيد بين عيارات السفن الحربية الكبرى ، وهو الامر الذى كثيرا ما طالب به الخبراء البحريون فى أوروبا على ذلك العهد

أما سفن الدونمة التى اقتضى ترميمها وتعهدها فى الترسانة من الوقت والعمل اكثر مما كانت تقتضيه السفن المنشأة حديثا ، فهى الفرقاطة (الجعفرية) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٣٢ انجليزى وكان انشاؤها بميناء (ليفورن) بايطاليا

والفرقاطة (البحيرة) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ وكان انشاؤها فى ثغر مرسيليا

و (رشيد) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٢٤ ، و٢٨ مدفعا من الزهر من عيار ٣٦ ، وكان انشاؤها بمدينة البندقية (فينسيا) و (كفر الشيخ) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٣٢ انجليزى ، واربعة وعشرين مدفعا من عيار ١٢ وقد انشئت فى ثغر (اركانجل) بالروسيا للنقل واكمل انشاؤها فى (لندره) كفرقاطة حربية

(وشيرجهاد) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ ، وكان انشاؤها فى ثغر ليفورن ثم عدلت فى الاسكندرية تعديلا يعد انشاءً جديدا

و (دمياط) وهى ذات اربعة وعشرين مدفعا من عيار ٢٤ ، وثلاثين مدفعا من الزهر من عيار ١٨ ، وكانت سفينة كبيرة وحولت فى ترسانة الاسكندرية الى فرقاطة حربية

---

(١) وقت تأليف كتاب كلوت بك سنة ١٨٣٩

و (موستاجهاد) وهى ذات ثمانيــة وعشرين مدفعا من عيار ١٨ ، و ثمانية وعشرين مدفعا من عيار ١٢ ، وكانت فرقاطة جزائرية اهدتها فرنسا لمصر

والسفن (جناح بحرى) وأصلها من ثغر جنوه بايطاليا و (جهاد بيكر) وأصلها من جنوه ايضا ، و (فوه) وأصلها من الاسكندرية ، و (بلنك جهاد) وأصلها من مرسيليا ، وكلها من طراز الكورفيت ذات ٢٢ مدفعا من عيار ٢٤ و (واشنطون) وأصلها من بوردو ، و (فولمينان) وأصلها من (ليفورن) ، و(الفشن) وأصلها من الاسكندرية و(شاهين دريا) واصلها من تركيا ، وكلها سفن من طراز الابريق الكبير وتحمل كل منها اثنين وعشرين مدفعا من الزهر ، و (سمند جهاد) وأصلها من مرسيليا ، و (شهباز جهاد) وأصلها من سيوتا ، و (التمساح) وأصلها من مرسيليا ، و (بادئ جهاد) وأصلها من الاسكندرية ،و(امريكان) وأصلها من الولايات المتحدة ، وهى سفن من طراز الابريق الصغير ، وتحمل كل منها من ستة عشر مدفعا الى ثمانية عشر مدفعاً من مدافع الزهر

وأربع سفن نقالة حمولة كل منها ٤٠٠ طن

وفرقاطة ، و ابريق ، وقوطر من السفن العثمانية التى غنمت اثناء الحرب السورية

وكذا جملة سفن صغيرة ، وباخرة تسمى (النيل) اصلها من لندره تسير بالبخار

وقد راعى المسيو سريزى فى بناية السفن الحربية الاصلاحات والتعديلات التى كان الضباط الفرنسيون يطالبون بادخالها على السفن الفرنسية ، وكذا الاصلاحات التى اهتدى اليها بخبرته أثناء قيامه بالعمل فى ثغور فرنسا ، والملاحظات التى لاحظها فى انجلترا ورأى من الافضل العمل بها لفائدة البحرية ، ولذلك بنيت السفن التى انشئت فى ترسانة الاسكندرية بمقتضى التصميمات التى وضعها بنفسه .

وختم كلوت بك بيانه بقوله من المستطاع التحقق بان قسما عظيما من التنسيقات والترتيبات المرعية فى بناية السفن الحربية الفرنسية وجدت فى السفن التى انشئت بالقطر المصرى قبل وجودها فى فرنسا بزمان طويل ، أى ان ترسانة الاسكندرية سبقت ترسانات فرنسا الى الوسائل الحديثة فى بناء السفن

ولما ظهر استعمال البخار أمر محمد على دار الصناعة بانشاء سفن حربية بخارية (وكانت السفن الحربية قبل ذلك تسير بالشراع)، فصنعت عدة بواخر منها وابور (النيل) الذى ذكره كاوت بك و (اسيوط) و (رشيد) و (جيلان) خصصها لحمل البريد وجعل لها ادارة خاصة سماها القومبانية المصرية

سفن النقل

وشيدت فى الترسانة عدا السفن الحربية سفن عديدة للنقل جعل لها ادارة خاصة تولى رآستها محمد قراقيش قبودان ثم خلفه محمد راشد بك ثم خلفه اوزون احمد قبودان

حفلات نزول السفن الحربية الى البحر

وكانت السفن التى يتم انشاؤها تقام لها حفلات فخمة ابتهاجا بنزولها الى البحر كالحفلات التى تقيمها الحكومات الاوروبية فى ثغورها البحرية لمناسبة انشاء البوارج الجديدة ، وكان محمد على باشا يحضر بنفسه معظم هذه الحفلات تقديراً لها واعلاء لشأن الاسطول ، قال رفاعة بك رافع فى هذا الصدد :

« وكان محمد على يديم النظر فى السفن عند صناعتها ، ويصوّر الغرض منها ، وكلما شارفت الاتمام ازداد فرحا وسرورا ، واذا نزلت سفينة فى البحر لم يتمالك نفسه مع ما كان عليه من كمال الهيبة وحفظ ناموس الوقار ان يظهر امارة السرور ، فلهذا كملت عنده دوننمة ملوكية طبق مرامه ، وطقّمها بالمدافع والعساكر ، ونظمها على نسق نظام العساكر البرية ، وأنشأ مدرسة بحرية بثغر اسكندرية ليخرج منها من الضباط ماتحتاج اليه هذه الدوننمة ، وترجم العلوم البحرية وصار لها كتب كافية كسائر العلوم الاخرى » (١)

---

(١) مناهج الالباب المصرية للعلامة رفاعة بك رافع ص ٢٤٦ طبعة ثانية

وانا ذاكرون هنا ما جاء بالوقائع المصرية(١) فى وصف احدى تلك الحفلات ننقله بنصه لتعرف منه تفاصيل الحفلة ، ولتطلع على نموذج من لغة الجريدة الرسمية فى ذلك العصر

« ان الغليون(٢) ذا الهيئة السنية ، المحلى باسم الاسكندرية ، تعريف انشاء آلاته البهية وعمل ادواته الحربية ، ووصف ابعاده الثلاثية ، قد تقدم ذكره الشائع ، واندرج فى سلك السطور والوقائع ، والمراد ذكره الآن قطع حبال تعلقاته من القطر البرى ، ليطير باجنحة العنقاء الى العالم البحرى ، وقد وافق هذا غرة شعبان المعظم فى الساعة الرابعة من النهار ، حيث تجلت مشاهد الانوار ، وكان ذلك بحضرة جميع الامراء والعظماء ، وزمرة الصلحاء والعلماء ، وقناصل الدول المستأمنين ، وقاطبة الاهلين ، مع جملة اولادهم الكبار ، وعيالهم الصغار ، وكانوا لدى ساحة الترسانة الواسعة الارجاء ، منتشرين كنجوم السماء ، واما سعادة افندينا ولى النعم فانه ركب الفلك بحرا ، وهلم جرا ، واستصحب بمعيته أحد رجال الدولة العلية ، المأمور بتشريف الديار المصرية ، اعنى به مصطفى افندى نظيف ، حتى وضع لدى موضع الترسانة قدمه الشريف ، وكان الغليون إذ ذاك قد بادر الى قطع اكثر العلائق ، ووداع الخلائق ، بحضور المهندس الذى هو لكل منقبة حاوى ، الخواجه سريزى الفرنساوى ، فتقدم الموما اليه لدى ساحة مكارم ولى النعم ، واشار الى أن هذا هو وقت الدعاء ، من زمرة العلماء ، فتقدموا الى جهة الغليون الراسى كالطود المتين ، ولدى دعائهم قال الحاضرون آمين ، فتلا حينئذ لسان حال الغليون ، عمّ يتساءلون ، ثم نبذ باقى العلائق ، وانشد بمحضر الخلائق

لستُ اخشى عسف الرياح اذا ما ‌ ‌ ‌ بِنْتُ عن ساحل ووسَّطتُ بحرا »

---

(١) عدد ٣٤٠ الصادر فى ١١ شعبان سنة ١٢٤٧ (يناير سنة ١٨٣٢).

(٢) المركب الحربى

استقاله سريزى بك

خلا مكان سريزى بك فى دار الصناعة باستقالته من منصبه ، وترجع استقالته الى ائتمار التجار الاوروبيين به كما قدمنا ، فمازالوا يحرجونه حتى استقال ، على ان أعمال الترسانة سارت بعد استقالته فى تقدم مستمر بفضل ادارة مهندسيها المصريين ، وبذل حسن بك السعران ومحمد بك راغب من خريجى البعثة البحرية همة كبرى فى تنظيم العمل حتى بلغت العمارة الحربية المصرية درجة تفوق كثيرا من الدول الاوروبية

المعسكر البحرى للتعليم برأس التين

وانشأ محمد على باشا معسكرا لتعليم البحارة من الجنود الأعمال البحرية ليكونوا بحارة الاسطول وجنوده ، انتقاهم من كل المديريات وأعد لاقامتهم وتدريبهم الجهة الشمالية الشرقية من رأس التين بحيث تسع عشرة آلاف نفس ، واعد لهم مركبا فوق البر بسواريها وقلوعها لتعليمهم استعمال الشراعات ، ولما تم تدريب البحارة ، وُزعوا على السفن الحربيـة ، فانتظمت طوائف الجنود والبحارة ، وصار نظامهم يضارع النظامات البحرية بالاساطيل الأوروبيـة ، ونقل من كان بتلك السفن من النوتية غير النظامية الى سفن النقل

وانشأ محمد على مستشفى للبحرية فى شبه جزيرة رأس التين وآخر فى الترسانة

مدرسة بحرية على ظهر البحر

وكذلك انشأ مدرسة بحرية لتخريج الضباط البحريين على ظهر احدى السفن الحربية ، ولما اتسع نطاقهـا قسمت الى فرقتين كل واحدة بسفينة ، وكان ناظرها حسن بك القبزسلى ، وبعد وفاته جعل مكانه كنج عثمان بك ، ويشرف عليهـا ناظر البحرية ، وقد نبغ من هـذه المدرسة كثير من

الضباط البحريين الذين اشتهروا فى الاعمال والحروب البحرية ورفعوا علم مصر عاليا فوق ظهر البحار أو تولوا الادارات البحرية فى مصر ، ذكر اسماعيل باشا سرهنك (١) بعض من عثر على اسمائهم فآثرنا ان نثبتهم هنا لنعرف بعض ضباط البحر ممن ازدان بهم تاريخ الاسطول المصرى :

خير الدين قبودان ، عبد اللطيف قبودان ، أحمد نورى قبودان الملقب بالجوخدار ، حسين شرين قبودان(٢) ، جعفر مظهر قبودان ، حافظ خليل قبودان (وهؤلاء ترقوا الى رتبة الباشوية) :

حافظ قبودان مصطفى ، برغمه لى احمد قبودان، مصطفى قبودان الـكريدلى ، حاجو قبودان ، حافظ قبودان الشيرازى ، بودرملى احمد خوجه قبودان ، عارف قبودان ، اسماعيل قبودان ، أمين قبودان الملقب بالطويل ، بوزجه اطه لى خليل قبودان ، خورشد قبودان ، هدايت محمد قبودان ، بابا سليم قبودان ، احمد شاهين قبودان ، خورشد قبودان الملقب بابى فصادة ، محمد راشد قبودان ، سليم قبودان ، مرجان قبودان ، وسيل قبودان ، ابراهيم قبودان الملقب بكره كوز ، عثمان قبودان الملقب بقاح ، عثمان قبودان الملقب باليوتى ، سليمان قبودان الملقب بالبيرقدار ، مصطفى قبودان الملقب بالبلاوجى ، بوغجه اطه لى أمين قبودان ، بوغجه اطه لى سليمان قبودان ، مطوش قبودان

البعثات البحرية

لم يكتف محمد على باشا بانشاء المدرسة البحرية بل كان يختار بعض الضباط البحريين

---

(١) حقائق الاخبار ج ٢ ص ٢٤٣

(٢) هو حسين شرين باشا من مشاهير قواد البحر فى عهد محمد علي واسماعيل ووكيل وزارة البحرية فى اوائل عهد توفيق باشا ، وهو جد صديقينا النبيلين اسماعيل شرين بك وحسين شرين بك

ويرسلهم الى فرنسا وانكلترا لاتمام علومهم بها وممارسة الفنون البحرية على ظهر السفن الحربية الاوروبية ، فمن هؤلاء عثمان نور الدين افندى (باشا) الذى سنترجم له فيما يلى ، وحسن افندى الاسكندرانى (باشا) ، وشنان افندى ، ومحمود افندى نامى[1] ، وهؤلاء ارسلوا الى فرنسا ضمن البعثة العلمية الأولى

وعبد الحميد افندى ، ويوسف اكاه افندى ، وعبدالكريم افندى ، وهؤلاء ارسلوا الى انجلترا ضمن البعثة العلمية الثالثة

ولما اتموا علومهم وتجاربهم عادوا الى مصر ووزعوا على السفن الحربية المصرية

ومن الذين أرسلهم محمد على باشا كذلك الى اوروبا تلميذان آخران لتعلم فن انشاء السفن ، وهما حسن افندى (بك) السعران ، وهذا سافر الى فرنسا ، ومحمد راغب افندى (بك)[2] ، وهذا سافر الى انجلترا ، وبعد ان اتقن التلميذان المذكوران فن الهندسة البحرية عادا الى مصر وعينا رئيسين لقسم الهندسة وانشاء السفن بترسانة الاسكندرية ، وتوليا العمل الذى كان يقوم به سريزى بك فى دار الصناعة

وقد ادّى خريجو المدرسة والبعثات البحرية خدمات جليلة للبحرية المصرية : فعين بعضهم قباطين للسفن الحربية لقيادتها وتدريب بحارتها على الاعمال البحرية ، وترجم بعضهم مؤلفات عدة عن البحرية ذكرها اسماعيل باشا سرهنك[3] فترجم جركس محمود نامى قبودان كتابا فى فن الحرب البحرية ، وترجم عبد الحميد بك الديار بكرلى مؤلفا فى مقاس السفن ، وترجم محمد شنان افندى قانون البحرية

وترجم عثمان نور الدين باشا كتاب القواعد واللوائح البحرية المتبعة فى فرنسا ، وآخر فى قانون العقوبات البحرية

وترجم احمد خليل افندى المهندس قانون البحرية وكتابا فى فن الطوبجية البحرية ، وترجم هؤلاء ايضا وغيرهم كثيرا من القوانين واللوائح والنظامات البحرية

---

(١) تجد ترجمتهم فى فصل البعثات

(٢) ضمن البعثة العلمية الثالثة انظر الفصل الثانى عشر

(٣) ج ٢ ص ٤٧

المستعملة فى سفن اساطيل فرنسا وانجلترا ، ونشرت هـذه المؤلفات بين ضباط البحرية واتبعت احكامها فى الدونتمة المصرية ، فازدادت نظاما وقوة وصارت فى زمن قليل تحاكى أعظم بحريات اوروبا

اصلاح الميناء

بذل محمد على جهداً كبيراً فى توسيع ميناء الاسكندرية وتعميقها واستحضر لهذا الغرض الكراكات من اوروبا حتى صارت السفن ترسو على الشاطئ بعد ان كانت ترسو بعيدة عنه ، واذن للسفن الاوروبية التجارية والحربية بالدخول فى الميناء الغربية بعد أن كان غير مباح لها من عهد المماليك ان ترسو إلا فى الميناء الشرقية ، فلما اذن لها محمد على بالرسو فى الميناء الغربية أخذت السفن الاجنبية تتوافى الى الاسكندرية واتسعت حركة التجارة فيها ، وأنشأ رصيفا داخل الميناء لرسو السفن عليها ، وملأ المتخلف بين الارصفة والشاطىء بالاحجار والاتربة فاتسع الشاطىء وأنشأ فى ذلك الفضاء ماتحتاج اليه الميناء من المخازن وابنية الجمرك ومساكن الموظفين(١) ، وكان المباشر لذلك شاكر افندى المتقدم ذكره الى أن توفى فخلفه مظهر باشا المهندس الماهر الذى تخرج من البعثة العلمية ، وكذلك وضع علامات فى بوغاز الاسكندرية كى يهتدى بها ربابين السفن فى دخولهم الى الميناء وخروجهم منها

انشاء حوض لترميم السفن

وأنشأ محمد على فى الميناء حوضا لترميم السفن مما لاتستغنى عنه الثغور الكبيرة فجاء وفق المرام وقد تم انشاؤه على يد موجيل بك المهندس الفرنسى سنة ١٨٤٤ واشترك فى انشائه مظهر باشا وبهجت باشا المهندسان المصريان اللذان تخرجا من بعثات فرنسا

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٥٢

وبعد أن أنشأ رصيفا للشحن فى الميناء مد سكة حديدية تصل مستودعات البضائع والغلال بالرصيف لتسهيل نقلها الى السفن

فنار الاسكندرية

أنشأه المهندس مظهر باشا احد خريجى البعثات بشبه جزيرة رأس التين لارشاد السفن القادمة الى الميناء والخارجة منها وهو من أجل اعمال العمران التى تمت فى عصر محمد على ، وقد كتب عنه كلوت بك(١) مايلى

« لقد احرزت هـذه البناية الجليلة فى كلياتها وجزئياتها اعجاب من شاهدوها من السياح وهو مما يكلل بالفخر المهندس المصرى مظهر افندى الذى تلقى العلم فى فرنسا ويوجب مدحه والثناء عليه »

البحرية المصرية كما وصفها شهود العيان

زيارة المارشال مارمون للترسانة

زار المارشال (مارمون) ترسانة الاسكندرية سنة ١٨٣٤ فاعجب بنظامها وضخامتها ، وبهرته دقة اعمالها وكفاءة عمالها المصريين ، وكتب عنها مايلى (٢)

« زرت الترسانة والاسطول ، وكنت شديد اللهفة لزيارة هـذه المنشآت المدهشة التى لم يكن يتصور العقل تأسيسها ، ففى سنة ١٨٢٨ لم يكن بالاسكندرية الا ساحل مقفر ، ولكن هـذا الساحل أصبح فى سنة ١٨٣٤ مغطى بترسانة كاملة بنيت على مساحة واسعة ، وأحواض للسفن ، ومخازن ومعامل ومصانع لكل نوع ، ومما استوقف نظرى ورشة الحبال التى يبلغ طولها ١٠٤٠ قدما اى فى طول ورشة الحبال بثغر طولون ، وقد شاهدت فى الترسانة عمالا يعملون فى مختلف معاملها ، ولهم مهارة فى كل مايعهد اليهم من الاعمال البحرية ، وهم جميعا من المصريين

(١) ج ٢ ص ٧٥٣ (٢) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ١٧١

ويسود بينهم النظام والعمل والنشاط ، وهذه الترسانة التى لم يمض على انشائها اكثر من ست سنوات قد صنع فيها عشر بوارج سلاح كل منها مائة مدفع ، وقد تم تسليح سبع منها تمخر العباب الآن ، اما الثلاث الاخرى فلا تزال بالحوض على وشك نزولها الى الماء ، هـذا عدا السفن التى من نوع الفرقاطة والكورفت والابريق ، مما جعل عدد الاسطول يزيد عن ثلاثين سفينة حربية ، وقد تمت هـذه المنشآت ووصلت البحرية المصرية الى هذه النتائج المدهشة فى ذلك الزمن القصير فى بلاد ليس فيها اخشاب ولا حديد ولا نحاس ، ولم يكن فيها عمال ولا بحارة ولا ضباط مجربون ، أى انها كانت مفتقرة الى كل العناصر اللازمة لانشاء اسطول ، وهذه همة لانظير لها فى التاريخ ، والفضل فى هذا العمل الجليل راجع الى كفاية المسيو سريزى والى عزيمة محمد على الحديدية التى تغلبت على كل الصعاب ، وقد كان العمل يتولاه الرجال الفنيون ، ولكن محمد على كان يقضى أياما باكلها وسط العمال ، فكان حضوره يبعث فى نفوسهم روح النشاط والهمة ، ويذلل العقبات التى تعترض العمل ويحمل كل واحد من العمال على بذل كل ما فى طاقته من الجهود »

رأيه فى كفاءة المصريين

وقال المارشال مارمون يصف كفاية المصرى

« ان العربى – يريد المصرى – له حظ عظيم من المقدرة على التقليد تبلغ درجة النبوغ ، وهو متصف بالاستقامة والنشاط والغيرة مع المرونة والطاعة ، وبهذه الصفات يمكن الوصول الى تحقيق كل مايريده الانسان ، وبفضل هـذه المزايا صار العمال الذين خرجوا من صفوف الفلاحين اخصائيين فى الفروع والفنون التى توفروا عليها كل فيما خصص له

«ولم يقتصر الأمر على تدريبهم على اعمال الخشابين والنجارين والحدادين

بل تخصص منهم كثيرون لاعمال بلغت غاية الدقة فنجحوا فى صنع آلات البحرية كالبوصلات والنظارات

« وقد شاهدت بنفسي المعامل التى تصنع فيها هذه الآلات ، والعمال الذين يصنعونها ، ورأيت الاتقان فى صنعها ، والعمال الفنيون الذين يصنعونها لم يمض عليهم سنتان فى التمرن على تلك الاعمال ، ومن الحق ان يقال انه لا ينتظر الوصول الى هذه النتيجة بمثل هذه السرعة من عمال اوروبيين يؤخذون من صفوف الفلاحين مهما كانت الأمة التى يختارون منها »(١)

زيارته للاسطول

وقال يصف زيارته للاسطول المصري سنة ١٨٣٤ (٢)

« نزلت الى الميناء لزيارة البوارج المصرية الراسية بها ، وكان عددها سبعا عادت حديثا من جولة فوق ظهر البحار على سواحل اسيا (سوريا والاناضول) قضت فيها ستة اشهر ، وكل بارجة منها مسلحة بمائة مدفع ، ومدافعها كلها من عيار واحد ، وقذائفها من حجم واحد ، ولا شك ان وحدة العيار لها فائدة كبرى عند ما تشتبك البوارج فى القتال ، ومن المدهش ان هذه الميزة السهلة فى ذاتها لم تلتفت لها الدول البحرية الكبرى وان ابتكارها يجىء على يد دولة حديثة تبدأ عهدها بالحضارة »

وقال عن زيارته لبارجة الاميرال مصطفى مطوش باشا قائد الدونمة :

« استقبلني مطوش باشا بالتعظيم المعتاد وعلى قصف المدافع فوق ظهر بارجته (عكا) التى كان يركبها ، وكان يصحبني الاميرال بيسون Besson ، وقد تفقدت البارجة ، وامعنت النظر فيها بعناية خاصة ، فلم ار إلا ما يستوجب الاعجاب بنظامها وترتيبها ، وهذه البارجة كغيرها من البوارج الكبري هى المنشآت البديعة التى اخرجتها ترسانة الاسكندرية ، وقد اشتركت فى الحرب مرتين على ظهر البحر »

---

(١) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ١٧٣ (٢) ص ١٧٨

رأى كلوت بك

وانظر ما كتبه كلوت بك عما بلغته البحرية المصرية من القوة والتقدم[1] :

« مما لاريب فيه ان ايجاد ترسانة وانشاء اسطول على ذلك الوجه من السرعة لما يقضى بالعجب ، ويدل على قوة العبقرية ، فقد كان شاطئ البحر بالاسكندرية كالصحراء الخالية من كل اثر لكائن ، فلم تمض سنوات اربع حتى عمر بترسانة كاملة الادوات مستجمعة لشتات اللوازم والتجهيزات ، فمن قواعد منحدرة لانشاء السفن عليها وتزليجها الى البحر ، وورش ومخازن ، ومصنع للحبال تمتد بنايته طولا الفاً واربعين قدما اى كطول مصنع الحبال فى ثغر طولون ، وانشئت خلال تلك المدة دونانمة مؤلفة من ثلاثين سفينة وسلحت وجهزت بالعدد والرجال ، وجربت للمرة الأولى من انشائها فى مطاردة احد الاساطيل العثمانية

« وما هى الا فترة قصيرة من الزمن حتى أدهشت البحرية المصرية أساطين علم البحر وثقاته سواء بدقة حركات السفن وضبطها أو بدربة البحارة وحسن قيامهم على الاعمال المنوطة بهم ، وقد أصبح المصريون ، وهم شعب مفطور على الامتثال ومحامد الخصال ، كأنهم خلقوا لممارسة البحر ، ولقد سبق لنا ذكر فضائلهم الحربية ومناقبهم العسكرية ، ونقول الآن إنه بالنظر الى سكناهم شواطىء النيل وهو النهر الذى بلغ من السعة فى نظرهم مادعاهم الى تسميتهم اياه بالبحر ، كانوا من أقدر الناس على السباحة وأميلهم الى معاناة فنون الملاحة ، ومن المناقب التى توافرت فيهم غير ماتقدم تأثرهم الشديد بعوامل المناظرة وحبهم ألا يحرز قصب السبق سواهم ، « ومعلوم أن ثغر الاسكندرية تتردد عليه باسم الزيارة سفن كثيرة تخفق عليها اعلام دول مختلفة ، فكان منظر هذه السفن يبعث فى نفوس الشبان المنتظمين منهم فى سلك البحرية روح الغيرة والحماسة ويستفزهم

---

(١) لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٣٨٤ (٢٥١ من الاصل الفرنسى) .

الى الرغبة فى اطلاع الخبيرين فى الفن كل يوم على ماحذقوه من الحركات فى المناورات ، ونما بذلك فى نفوسهم إحساس الشمم ، وتنبه الشعور بالكرامة ، فكانت هـذه المظاهر من أقوى العوامل على تنافسهم في إحراز أوفر قسط من العلوم والفنون ، ويؤخذ من آراء الاخصائيين فى حالة البحرية المصرية أن الفرق بينها وبين بحرية الاستانة كالفرق بين جيوش محمد على البرية وجيوش الباب العالى

« وامتازت بحرية محمد على أول وهلة بالتفوق فى شبه جزيرة (موره)، وكان من دلائل تفوقها العظيم أن الحراقات اليونانية التي طالما هلعت لمرآها قلوب أهل الاستانة وقبعت بسببها اساطيلهم ، لم تخش بأسها السفن المصرية التى كان يقوم على امرها فى ذلك العهد ربان السفينة الفرنسى المسيو لوتللييه ، ولقد شرف الاسطول المصرى الجديد مصر ورفع ذكرها اثناء حملة الشام ، اذ قامت سفنه بمراقبة سواحل الشام ومنعت الاتراك من النزول اليها ، وقبضت فى انحائها على بعض السفن العثمانية ، وساعدت المصريين على حصار عكا ، واقتفت اثر الدونتمة العثمانية التى كانت اكثر منها عددا واوفر مددا حتى حصرتها فى مرسى (مرمريس) ثم دفعتها امامها حتى مضيق الدردنيل التى اشرفت ان تجتازه لولا مداخلة الدول الأوروبية التى حالت دون تحقيق هـذه البغية مدفوعة بما هو معروف من عوامل السياسة »

كفاية عمال الترسانة المصريين

وذكر كلوت بك (١) عن كفاءة العمال المصريين ومهارتهم وحسن استعدادهم ما يأتى :

« ان العمال المصريين هم الذين كانوا ينجزون أعمال انشاء السفن ، وقد أظهروا فيها من الاهلية والدراية ما يوجب الدهش ، وكان يشتغل منهم بالترسانة

(١) ج ٢ ص ٣٧٨ (٢٤٦ من الاصل الفرنسي)

من ستة آلاف عامل الى ثمانية آلاف ، اما العمال الاتراك فلم يبد منهم مايستوجب ارتياح المسيو سريزى ورضاه عنهم ، لانهم كانوا من الازدهاء بنفوسهم والنزوع الى العصيان والتمرد بما يحول دون صلوحهم لاجادة مايناط بهم من الاعمال ،فكانوا من هذا الوجه على نقيض المصريين الذين كانوا يدركون بسهولة سر الصنعة مما كان ينجز امامهم من الاعمال ويتفهمون دقائقها بما عهد فيهم من الذكاء ودماثة الاخلاق والامتثال للرؤساء ، هذا فضلا عن انهم فطروا فى فهم ما يعجم عليهم فهمه على تحكيم النظر اكثر منه على الذكاء والعقل ، حتى ان الرسم البسيط يرشدهم الى فهم حقائق الاشياء بمجرد النظر اليه قبل امعان الفكر والروية فيه ، إلا ان المصرى مع هذا سريع النسيان لما يتعلمه ، فضلا عن انه اذا بلغ من التعلم درجة ما لايرغب فى تجاوزها الى مابعدها ، وهذا النقص يحول بلا ريب دون سعيه الى الكمال »

« وهم أميل الى مزاولة الصناعات التى أساسها تقليد الاشكال والنماذج الثابتة، ومن ثم تراهم يجيدون صناعة البكر وقماش الاشرعة والحبال والبراميل والنجارة الدقيقة ، ويحسنون ثقب الثقوب وقلفطة المراكب ، وانما لايمكن الاعتماد عليهم فيها اذا مست الحاجة الى تغيير الاحجام واستنباط اشكال تخالف ما عهدوه عليه من المُثُل ، كما يتفق احيانا فى مصانع الآلات والحدادة والسبك ، ما لم يراقبهم أثناء ادائهم إياها الرؤساء الأوروبيون ، فانهم فى هذه الحالة يقومون بما هو مطلوب منهم على خير مايرام

« وترسانة الاسكندرية التى يصنع فيها كل شئ بأيدى المصريين وتناظر لهذا السبب جميع ترسانات الدنيا ، دليل ناطق على مبلغ مايمكن الاستفادة به من العمال المصريين ، ويقينى ان عامة الشعب فى اوروبا لايستطيعون ان يؤدوا من جلائل الاعمال مايؤديه العمال المصريون فى مثل الوقت القصير الذى يقومون بها فيه»

قواد الاسطول المصرى

نأتى هنا على لمة من تاريخ القواد الذين تولوا رآسة الاسطول المصرى فى عهد محمد على تخليداً لذكراهم وتبيانا لما قاموا به من جلائل الاعمال

الاميرال اسماعيل بك

هو الذى قاد العمارة المصرية فى اوائل الحرب اليونانية كما بينا ذلك فى الفصل السابع[1] ، وهو الذى تسميه المراجع الفرنسية اسماعيل جبل طارق و بعضها يسميه اسماعيل الجبل الاخضر، وقد توفى اثناء الحرب اليونانية

الاميرال محرم بك

أصله من قوله ثم اتخذ مصر وطنا له ، فاتصل بمحمد على باشا واستخدمه فى كثير من مهام الحكومة ، ورأى فيه من الصدق والاخلاص وحميد الصفات ماجعله يقربه إليه وزوجه بكريمته تفيدة هانم ، وجعله حاكما للجيزة ، ثم محافظا للاسكندرية ، فاحسن ادارتها ، و بعد ان انشأ الاسطول المصرى الاول جعل محرم بك اميرالا له سنة ١٨٢٦ ، وتولى قيادته فى الدور الثانى من حرب اليونان ، وحضر واقعة نافارين البحرية وشهد نكبة الاسطول فيها كما فصلنا ذلك فى الفصل السابع [2]

ولما عاد الى مصر بقى فى وظيفته الأولى محافظا للاسكندرية وانفرد بهذا المنصب الى ان توفى بها فى ١٧ محرم سنة ١٢٦٤[3] (٢٠ ديسمبر سنة ١٨٤٧) فأسف عليه الناس اسفا كبيرا لجميل سيرته وحبه للخير ، وباسمه سمى الحى المشهور فى الاسكندرية بحى « محرم بك »

---

(١) ص١٩٩ و ٢٠٢ (٢) ص ١٩٩و٢٠٢و٢١٦ ومابعدها

(٣) عدد ٢٧ محرم سنة ١٢٦٤ من الوقائع المصرية

الاميرال عثمان نور الدين باشا

أصله من جزيرة مدللى(١) ولحق بمصر واتخذها وطنه وخدمها خدمات جليلة ، دخل فى مدارسها الحربية ثم الحق بالبعثة التى ارسلها محمد على باشا الى أوروبا واتقن فيها العلوم الحربية والبحرية ، ولما عاد صار له شأن كبير فى المهمات التى اسندت اليه وفى تنظيم البعثات الكبرى التى تدفقت نحو فرنسا ، فقد كان عضوا عاملا من اعضاء اللجنة التى الفت سنة ١٨٢٢ لوضع برنامج التعليم العسكرى بالمدارس الحربية المصرية على النظام الحديث ، فكان ثالث الثلاثة الذين تألفت منهم تلك اللجنة ، وزميلاه فيها هما الكولونل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) واحمد افندى المهندس ، وهو الذى أسس المدرسة الاعدادية الحربية بقصر العينى ، ومدرسة اركان الحرب بالخانكه ، وقد اثنى عليه كلوت بك فى كتابه وجعله فى مقدمة من اشاد بذكرهم من خريجى البعثات

وقد نال منزلة كبيرة لدى محمد على باشا لما آنسه فيه من الاخلاص والكفاءة ووصل الى رتبة سر عسكر وجعل رئيسا للاسطول المصرى سنة ١٨٢٧ بدلا من محرم بك ، وانعم عليه برتبة الباشوية وبنى له محمد على باشا منزلا على ساحل الميناء غربى سراى رأس التين ليكون قريبا من السراى الخديوية ومن سفن الاسطول بالميناء ، وجعله رئيس الجهادية فى البر والبحر ووصل من المنزلة والمكانة الى ان صار ثالث رجل فى الدولة بعد محمد على وابراهيم

وقد كان له فضل كبير فى إيفاد البعثات الكبرى الى فرنسا ، ذلك انه اثناء تلقيه العلوم بها تعرف بالمسيو جومار Jomard أحد اعضاء لجنة العلوم والفنون الذين اصطحبهم نابوليون فى مصر اثناء الحملة الفرنسية (٢) ، وكان وقتئذ مكلفا

---

(١) انظر موقعها بالخريطة ص ١٩٥

(٢) انظر ترجمته بالجزء الاول ص ١٢٦

من قبل الحكومة الفرنسية اخراج كتاب (تخطيط مصر) الذى وضعه علماء الحملة ، فنال لديه عثمان نور الدين مكانة سامية واقترح عليه وهو فى فرنسا ان يرغب الى محمد على باشا عند عودته لمصر إرسال بعثات كبيرة الى فرنسا لتلقى مختلف العلوم والفنون فيها ، وعرض ان يتعهد هذه البعثات بعنايته واشرافه ، وان يبذل قصارى جهده فى تخريج تلاميذها دون مقابل

فلما عاد عثمان افندى نور الدين الى مصر سنة ١٨٢٠ رأى محمد على باشا من كفاءته ونبوغه مارغبه فى ارسال طائفة من الشبان الى اوروبا وعرض عليه هو فكرة المسيو جومار ، فتلقاها بالقبول والارتياح وشرع فعلا فى إيفاد البعثات الى فرنسا سنة ١٨٢٦ كما سيجئ بيانه

وقد تولى قيادة الاسطول المصرى فى الحرب السورية الاولى وخاصة فى حصار عكا كما سبق بيان ذلك فى موضعه (ص ٢٣٦ و ٢٦٩)

وكان له فضل كبير فى ترقية شأن الاسطول المصرى بما كان يعنى به من تطبيق النظم البحرية الحديثة على شؤونه وحث قباطين السفن على تنفيذ أوامره بالدقة حتى ساد النظام فى سفن الاسطول ، وكان يخرج بالسفن الحربية فى الصيف من الميناء لاجراء المناورات وتدريب الجنود والبحارة على الحركات البحرية ويتجول مدة ثلاثة اشهر رافعاً علم مصر فوق ظهر البحار

وفى سنة ١٨٣٣ ارتحل محمد على الى جزيرة كريت لتنظيم الحكم المصرى بها ، وكان فى معيته عثمان نور الدين اميرال الاسطول ، فاقر بالجزيرة عدة إصلاحات ادارية واجتماعية ولكنه اعتزم تجنيد اهلها ، وكان ينوى اتخاذ ميناء (السودة) ثغرا حربيا ليكون قاعدة للإسطول المصرى فى جولاته بالبحر الابيض ، فلم يكد يعود الى مصر ويذاع فى الجزيرة نبأ العزم على تجنيد الكريتيين حتى شبت الثورة بينهم وحمل السلاح نحو ستة آلاف من الفلاحين وقصدوا الى حيث كانت الحامية المصرية ترابط فى ثكناتها ، فامتنعت الحامية فى معاقلها وارسل حاكم الجزيرة (مصطفى باشا الارناءوطى) نبأ الثورة الى محمد على ، فانفذ قوة من الجند

برآسة عثمان نور الدين باشا لاخماد الفتنة ، فلجأ عثمان باشا الى اخذ الثوار باللين ، ولكنهم اصروا على عنادهم، فاشتبكوا مع الحامية فى قتال فرقتهم فيه نيران المدافع ، ووقع ثلاثون منهم فى أسر الجيش المصرى ، فارتأى عثمان باشا ان يعفو عنهم املا فى ان يكسب الثوار ويفل من حدهم ووعدهم بالعفو ، وارسل يطلب الى محمد على باشا تعليماته فى هذا الصدد ، ولكن الباشا رفض العفو عنهم وأمر بقتلهم ، فكبر على عثمان باشا ان لا يؤبه لرأيه ويُرفض العمل به ، ولم يجد وسيلة يخرج بها من هذا الموقف سوى الاستقالة من خدمة الحكومة ، فارتحل من الجزيرة فى اواخر سنة ١٨٣٣ وكتب الى بوغوص بك ناظر خارجية مصر ينبئه انه اعتزل خدمة الباشا وذهب الى جزيرة مدللى ومنها الى الاستانة حيث مات بها بعد قليل ، وقد أرسل محمد على باشا يأمر باعدام زعماء الفتنة فى كريت وادخال الشبان من اهلها قهرا فى الخدمة العسكرية، فاشتعلت فيها نيران الفتنة ثانيا ، ثم اخمدت سنة ١٨٣٤ ، وبقى الحكم المصرى قائما فيها الى ان اعيدت الجزيرة للدولة العثمانية بمقتضى معاهدة لوندره سنة ١٨٤٠

الاميرال مصطفى مطوش باشا

اصله من قوله ، و كان قبودانا فى السفن التجارية ، ولما قدم الى الديار المصرية استخدمه محمد على باشا فى الدونمة المصرية ، وكان يثق به ويعرف مقدار معارفه البحرية فجعله وكيلا للدونمة (فيس اميرال) التى بعث بها لمساعدة الدولة العثمانية فى حرب اليونان ، وحضر واقعة نافارين البحرية ثم عين اميرالا ثانيا للعمارة التى ارسلت لضرب عكا تحت قيادة الاميرال عثمان نور الدين باشا فى الحرب السورية الاولى ، وعين وزيرا للبحرية وكان يسمى (ناظر السفائن) ، ثم جعله محمد على باشا قائدا عاما للدونمة المصرية بدلا من عثمان نور الدين سنة ١٨٣٣ م وجعل بيسون بك Besson الفرنسى وكيلا له ، وعين مصطفى بك الكريدلى فى

وظيفة رياله (أى كنتراميرال) وقد بقى مطوش باشا رئيسا للدونانمة المصرية الى ان توفى سنة ١٨٤٣ ، وكان من خيرة قواد البحر الذين زانوا تاريخ البحرية المصرية

محمد سعيد باشا

ابن محمد على باشا ، وهو الذى ارتقى عرش مصر خلفا العباس باشا الاول ، وقد خصصه ابوه لتعلم الفنون البحرية ، وهذا يدلك على مبلغ عنايته بالاسطول ، فلما نال حظا من الفنون البحرية (وكان وقتئذ سعيد بك) عينه ابوه معاونا لمطوش باشا سر عسكر الدونانمة وناظر البحرية ، وأصدر امره اليه بان يمتثل لأوامره ويؤدى له التعظيم العسكرى بوصف كونه رئيسا له ، وكان ذلك من سداد رأى محمد على باشا إذ عود ابناءه على احترام النظام الذى هو اساس التقدم والعمران ، وقد جعله ابوه قبودانا للسفينة الحربية (دمنهور) برتبة صاغقول اغاسى ، وجعل فى معيته المسيو كوتليك واليوزباشية عرفان قبودان الذى صار عرفان باشا ، وذو الفقار قبودان (الذى صار ذو الفقار باشا ناظر الخارجية) وسر هنك قبودان والد اسماعيل باشا سرهنك صاحب كتاب حقائق الاخبار عن دول البحار ، وما زال يرتقى حتى صار قائدا عاما للدونانمة المصرية (سر عسكر) بعد مصطفى مطوش باشا ، وكان فى الوقت نفسه قومندانا للبارجة (بنى سويف) واحتفظ بمنصب رآسة الدونانمة فى عهد عباس باشا الأول ، ولكن البحرية المصرية اهمل شأنها وبدأ تقهقرها فى عهد عباس

احصاء الاسطول المصرى فى عهد محمد على

لدينا ثلاثة احصاءات عن سفن الاسطول المصرى تختلف باختلاف مصادرها ، والسنين التى عملت فيها ، وقد راينا ان نضع امام القارئ صورة من هذه الاحصاءات الثلاثة لانها مع تقاربها تدل على التقدم المحسوس فى قوة الاسطول على مر السنين

احصاء سنة ١٨٣٧

للمسيو مانجان

قال المسيو مانجان (١) ان عدد السفن الحربية المصرية بلغ سنة ١٨٣٧ ٢٨ سفينة حربية ، منها ١٠ بوارج كبيرة و٦ فرقاطات و ٤ سفن من نوع الكورفيت و ٨ من نوع الابريق ، وهاك اسماء السفن التي وردت في هذا الاحصاء (٢) وعددها ٢٤ أما البقية وعددها اربعة فكان العمل لا يزال جاريا لاتمامها وتسليحها

اسم السفينة	ضباط اركان الحرب	عدد الضباط والجنود والبحارة	عدد المدافع
١ — مصر	٣٣	١١٧٢	١٣٦
٢ — عكا	٣٤	١٢٠٨	١٠٠
٣ — المحلة الكبرى	٣٣	١١٠٢	١٠٠
٤ — المنصورة	٣٣	١١٠٢	١٠٠
٥ — اسكندرية	٣٣	١١٠٢	١٠٠
٦ — ابوقير	٣٢	٨٠٣	٨٤
٧ — رشيد	١٧	٥٢٩	٦٠
٨ — البحيرة	١٧	٥٢٩	٦٠
٩ — شيرجهاد	١٧	٥٢٩	٦٠
١٠ — كفر الشيخ	١٧	٥٢٩	٦٠
١١ — واسطة جهاد	١٧	٥٢٩	٦٠
١٢ — دمياط	١٧	٥٠٠	٥٢

(١) ج ٣ ص ١٤٤ (٢) مانجان ج ٣ ص ١٤٦

	اسم السفينة	ضباط اركان الحرب	عدد الضباط والجنود البحارة	عدد المدافع
١٣	سمند جهاد	١٣	٢٤٢	٢٤
١٤	طنطا	١٣	٢٤٢	٢٤
١٥	جناح بحرى	١٣	٢٤٢	٢٢
١٦	جهاد بيكر	١٢	٢٠٠	٢٠
١٧	واشنطن	١١	١٧٧	٢٠
١٨	شاهين دريا	١١	١٧٧	٢٠
١٩	الصاعقة	١١	١٧٧	٢٠
٢٠	تمساح	١١	١٧٧	٢٠
٢١	شاهد جهاد	١١	١٣٨	١٦
٢٢	شهباز جهاد	١١	١٣٨	١٦
٢٣	بادئ جهاد	١١	١٣٨	١٦
٢٤	امريكان	١١	١٣٨	١٤
		٤٣٩	١١ر٨٢٠	١٢٠٤

احصاء سنة ١٨٣٩

للدكتور كلوت بك

وقد أحصى الدكتور كلوت بك عدد السفن الحربية سنة ١٨٣٩ وهى السنة التى وضع فيها كتابه (١) واحصاؤه يختلف قليلا عن احصاء المسيو مانجان وفيه زيادة ظاهرة فى عدد السفن

---

(١) طبع الكتاب سنة ١٨٤٠ لكن لابد أن يكون قد انتهى المؤلف من تأليفه سنة ١٨٣٩

ـ احصاء اجمالى ـ

فقد ذكر ان الدونمة المصرية تتألف من السفن الآتية(١)

١١ بارجة كبيرة
٧ فرقاطات
٥ سفن من طراز الكورفت
٩ من طراز الابريق
٣٢ قطعة

وان مجموع جنودها بلغ ١٦٠٠٠ رجل، وهذا بيان احصائه لاسماء السفن وعدد رجالها

اسم السفينة	عدد رجالها
١ — مصر	١٠٩٧
٢ — عكا	١١٤٨
٣ — المحلة الكبرى	١٠٣٤
٤ — المنصورة	١٠٣٤
٥ — الاسكندرية	١٠٣٤
٦ — ابو قير	٧٣٦
٧ — رشيد	٥١٠
٨ — البحيرة	٥١٠
٩ — شيرجهاد	٥١٠

(١) لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٣٧٦ (٢٥٢ من الاصل الفرنسى)

(كفر الشيخ) غـير موجودة فى احصاء كلوت بك لأنها اسرت اثناء حرب الاناضول سـنة ١٨٣٩ إذ اسرتها العمارة التركية فى مياه قبرص

(واسطه جهاد) غير موجودة فى احصاء كلوت بك

١٠ — دمياط	٤٧٠
١١ — سمند جهاد	٩٧
١٢ — طنطا	١٨٣
١٣ — جناح بحرى	١٥٩
١٤ — جهاد پیکر	١٥٩
١٥ — واشنطن	١١٥
١٦ — شاهين دريا	١١٥
١٧ — الصاعقة	١١٥
١٨ — تمساح	٩٧

شاهد جهاد (غير موجودة فى احصاء كلوت بك)

١٩ — شهباز جهاد	٩٧
٢٠ — بلنك جهاد	١٥٩

امريكان (غير موجودة فى احصاء كلوت بك)

بيان السفن الواردة فى احصاء كلوت بك ولم ترد فى احصاء المسيو مانجان

اسم السفينة	عدد رجالها
٢١ — حمص	١٠٣٤
٢٢ — بيلان	٩٠٠
٢٣ — حلب	١٠٣٤

اسم السفينة	عدد رجالها
٢٤ — الفيوم	١٠٣٤
٢٥ — بنى سويف	١٠٣٤
٢٦ — المنوفية	٥٥٨
٢٧ — وابور النيل	١٥٢
٢٨ — دمنهور	٢٦٢
٢٩ — وابور الجوكا	٥٢
٣٠ — الوابور الجديد	٢٧
٣١ — وابور بولاق	١٧
٣٢ — قوطر نمرة ١	٢٩
٣٣ — قوطر نمرة ٢	٣١
	١٥٥٤٣

احصاء سنة ١٨٤٣

لاسماعيل باشا سرهنك

وأورد اسماعيل باشا سرهنك (ج ٢ ص٢٥٣) احصاءً أوفى من الاحصائين المتقدمين ، يتضمن بيان السفن الحربية فى عهد سر عسكرية سعيد باشا أى سنة ١٨٤٣ ، ومحل انشائها وتاريخه واسماء قباطينها وعدد مدافعها وعدد رجالها ومقاساتها وابعادها ، وقد ذكر أنه اخذ هذا البيان من وثيقة مكتوبة بيد المرحوم حسن باشا الاسكندرانى ناظر ترسانة الاسكندرية وجدها عند ابنه محسن باشا ، وهاك احصاءه وقد رتبنا اسماء السفن بحسب ترتيب احصاء مانجان وكلوت بك لسهولة المقابلة

اسم السفينة	محل انشائها	اسم قبودانها فى زمن اميرالية سعيد باشا	عدد المدافع	عدد رجالها
١ ـ مصر	الاسكندرية	شنان قبودان (١)	١٠٦	١٠٩٧
٢ ـ عكا	«	عثمان بك قاح.	١٠٦	١١٤٨
٣ ـ المحلة الكبرى	«	بوزجه اطه لي خليل بك	١٠٠	١٠٣٤
٤ ـ المنصورة	«	طاهر قبودان	١٠٠	١٠٣٤
٥ ـ الاسكندرية	«	جركس محمود « (٢)	١٠٠	١٠٣٤
٦ ـ ابو قير	«	حافظ خليل «	٨٤	٧٣٦
٧ ـ رشيد	تريستا	السيد على «	٦٠	٥١٠
٨ ـ البحيرة	«	كاورخوشد «	٦٠	٥١٠
٩ ـ شيرجهاد	ليفورن	نورى قبودان بك	٦٠	٥١٠

كفر الشيخ (لم ترد فى احصاء اسماعيل باشا سرهنك لانها أسرت كما أسلفنا)

١٠ ـ واسطة جهاد	جزائر الغرب	دلى محمد خورشد قبودان	٢٨	١٨٦
١١ ـ دمياط	اسكندرية	محمد هدايت قبودان	٥٦	٤٧٠
١٢ ـ سمند جهاد	مرسيليا	احمد شاهين قبودان	١٨	٨٩
١٣ ـ طنطا	اسكندرية	دلى خسرو قبودان	٢٨	١٨٦
١٤ ـ جناح بحرى (٣)	جنوه	زينل قبودان	٢٤	١٨٥
١٥ ـ جهاد بيكر	جنوه	حسن اباظه قبودان	٢٤	١٨٥

واشنطن (غير موجودة فى احصاء اسماعيل باشا سرهنك)

(١) احد خريجي البعثات

(٢) لعله محمود نامى بك أحد خريجى البعثات لانه كان يلقب بجركس ، وقد ذكرنا فى الفصل الثانى عشر انه كان محافظا لبيروت لغاية سنة ١٨٤٠ فى عهد الحكم المصرى

(٣) كانت معدة لتعليم تلاميذ البحرية

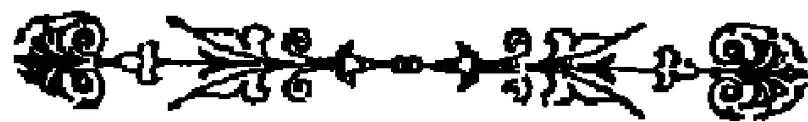
اسم السفينة	محل انشائها	اسم قبودانها	عدد المدافع	عدد رجالها
١٦ ـ شاهين دريا (غير موجودة فى احصاء سرهنك باشا)				
١٧ ـ صاعقة	ليفورن	طاهر قبودان	٢٤	٨٨
١٨ ـ تمساح	مارسليا	غير معروف	١٦	٨٨
١٩ ـ شاهد جهاد	اسكندرية	ابراهيم قبودان	٢٤	١٨١
٢٠ ـ شهباز جهاد	مارسيليا	حسن الارناءود قبودان	١٨	٨٨
٢١ ـ بادئ جهاد	امريكا	غير معروف	٢٤	٨٩
امريكان (غير واردة فى احصاء اسماعيل باشا)				
السفن الواردة فى احصاء سرهنك باشا ولم ترد فى احصاء مانجان ووردت فى احصاء كلوت بك				
٢٢ ـ حمص	اسكندرية	عثمان بوتى بك	١٠٠	١٠٣٤
٢٣ ـ بيلان	«	حسين شرين بك	٨٦	٩٠٠
٢٤ ـ حلب	«	ازميرلى محمد قبودان	١٠٠	١٠٣٤
٢٥ ـ الفيوم	«	عبد اللطيف بك	١٠٠	١٠٣٤
٢٦ ـ بنى سويف	«	الامير محمد سعيد باشا	١٠٢	١٠٣٤
٢٧ ـ منوف	«	عثمان بوتى قبودان (١)	٦٤	٥٥٨
٢٨ ـ النيل	انجلترا	غير معروف	٦	٥٢
٢٩ ـ دمنهور	اسكندرية	مرجان قبودان	٢٦	١٨٦
٣٠ ـ غوات جديد (نوطر ٢)	«	سرهنك قبودان	١٢	٥٢
			٥٩٦	٥٨٨٤

(١) اسم مكرر ، فقد ورد انه قبودان البارجة حمص ، ولعله اسم لعلمين لانه مذكور بلقب بك بالنسبة لحمص ومن غير هذا اللقب بالنسبة لمنوف .

السفن الواردة فى احصاء سرهنك باشا ولم ترد فى احصاء مانجان ولا فى كلوت بك

اسم السفينة	محل انشائها	اسم قبودانها	عدد المدافع	عدد رجالها
٣١ ـ الجعفرية	ليفورن	برغمه لى احمد قبودان	٦٠	٥١٠
٣٢ ـ رهبر جهاد	مارسليا	على رشيد قبودان	٣٠	٢٠٠
٣٣ ـ بومبه	تريستا	بيجان قبودان	٤٥	٣٠٠
٣٤ ـ بلنك جهاد	مارسليا	(غير معروف)	٢٤	١٨٥
٣٥ ـ فوه	اسكندرية	مرجان قبودان	٢٤	١٨٥
٣٦ ـ ابريق نمرة ٢	امريكا	الياس قبودان	١٨	٨٩
		المجموع	١٨٥٧	١٦٨٠١

ويتبع هذا الاحصاء ثلاث بواخر وهى الوابور (پرواز بحرى) والوابور (اسيوط) والوابور (جيلان)



الفصل الثانى عشر

التعليم والنهضة العلمية

اذا ذكرت حسنات محمد على كان من أجلّ أعماله توجيهه جزءا كبيرا من جهوده الى احياء العلوم والآداب فى مصر ، وذلك بنشر المدارس على إختلاف درجاتها، وارسال البعثات العلمية الى اوروبا ،وقد اتبع فى هذا السبيل تلك الفكرة التى اتبعها فى انشاء الجيش والاسطول ، ذلك انه اقتبس النظم الأوروبية الحديثة فى نشر لواء العلم والعرفان ، فأسس المدارس الحديثة، وأخذ من الحضارة الأوروبية خير ماانتجته العلوم والقرائح ، فنهض بالافكار والعلوم فى مصر نهضة كبرى كانت أساس تقدم مصر العلمى الحديث

عنى محمد على بنشر التعليم على اختلاف درجاته من عال وثانوى وابتدائى ، ويتبين من مقارنة تاريخ المنشآت العلمية،أنه عنى اولا بتأسيس المدارس العالية وايفاد البعثات ، ثم وجه نظره الى التعليم الابتدائى ، ونعم ما فعل ، لأن الأمم انما تنهض اولا بالتعليم العالى الذى هو أساس النهضة العلمية

وقد اراد بادئ الأمر أن يكوِّن طبقة من المتعلمين تعلما عاليا يستعين بهم فى القيام باعمال الحكومة والعمران فى البلاد ، وفى نشر التعليم بين طبقات الشعب، وهذا هو التدبير الذى برهنت التجارب على انه خير ماتنهض به الامم ، وقدساعد على تكوين طبقة تعلمت تعلما عاليا قبل انشاء المدارس الابتدائيـة والثانوية ان الازهر كفل امداد المدارس العالية والبعثات بالشبان المتعلمين الذين حازوا من الثقافة قسطاً يؤهلهم لتفهم دروس المدارس العالية فى مصر أو فى أوروبا ، فكان الازهر خير عضد للتعليم العالى

مدرسة الهندسة بالقلعة

ويبدو لنا أن اول مافكر فيه محمد على من بين المدارس العالية مدرسة الهندسة ، وهذا يدلك على الجانب العملى من تفكيره ، فانه رأى البلاد فى حاجة الى مهندسين لتعهد اعمال العمران فيها ، فبدأ بتعليم الهندسة

وظاهر مما ذكره الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٦ م) أن أول مدرسة للهندسة بمصر يرجع عهد تأسيسها الى تلك السنة ، وذلك أن أحد « ابناء البلد » على حد تعبير الجبرتى ، واسمه حسين شلبى عجوة ، اخترع آلة لضرب الارز وتبييضه ، وقدم نموذجها الى محمد على، فأعجب بها وانعم على مخترعها بمكافأة ، وأمره بتركيب مثل هذه الآلة فى دمياط ، وأخرى فى رشيد ، فكان هذا الاختراع باعثا لتوجيه فكره الى انشاء مدرسة للهندسة ، فأنشأها فى القلعة

رواية الجبرتى

قال الجبرتى : ان الباشا لما رأى هذه «النكتة» من حسين شلبى هذا قال ان فى اولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف ، فأمر ببناء مكتب (مدرسة) بحوش السراية (بالقلعة) ، ورتب فيه جملة من اولاد البلد ، ومماليك الباشا ، وجعل معلمهم حسن افندى المعروف بالدرويش الموصلى ، يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير والقياسات ، والارتفاعات ، واستخراج المجهولات مع مشاركة شخص رومى (تركى) يقال له روح الدين افندى ، بل واشخاصا من الافرنج ، وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من اشغال الانجليز يأخذون بها الابعاد والارتفاعات والمساحة ، ورتب لهم شهريات وكساوى فى السنة ، واستمروا على الاجتماع بهذا المكتب ، وسموه مهندسخانة فى كل يوم من الصباح الى بعد الظهيرة ، ثم ينزلون الى بيوتهم

ويخرجون فى بعض الايام الى الخلاء لتعلم مساحات الاراضى وقياساتها بالاقصاب وهو الغرض المقصود للباشا »

فهذه بعينها هى مدرسة الهندسة أو المهندسخانة بما فيها من دروس الرياضة والهندسة وما اليها ، وتلاميذها يتعلمون مجانا وترتب لهم رواتب شهرية وكساوى ، ولها اساتذة من امثال حسن افندى الدرويش الموصلى وروح الدين افندى « بل واشخاص من الافرنج » كما يعبر الجبرتى

وقد عاد الجبرتى الى الكلام عن هذه المدرسة فى ترجمة حسن افندى الدرويش المتوفى سنة ١٢٣١ فقال

« لما رغب الباشا فى انشاء محل لمعرفة علم الحساب والهندسة والمساحة تعين المترجم رئيسا ومعلما لمن يكون متعلما بذلك المكتب ، وذلك انه تداخل بتحيلاته لتعليم مماليك الباشا الكتابة والحساب ونحو ذلك ، ورتب له خروجا وشهرية وتجب تحت يده المماليك فى معرفة الحسابيات ونحوها ، وأعجب الباشا ذلك فذاكره وحسن له بان يفرد مكانا للتعليم ، ويضم الى مماليكه من يريد التعليم من اولاد الناس ، فأمر بانشاء ذلك المكتب وأحضر اليه اشياء من آلات الهندسة والمساحة والهيئة الفلكية من بلاد الانكليز وغيرهم ، واستجلب من أولاد البلد ما ينيف على الثمانين شخصا من الشبان الذين فيهم قابلية للتعليم ، ورتبوا لكل شخص شهرية وكسوة فى آخر السنة ، فكان يسعى فى تعجيل كسوة الفقير منهم ليتجمل بها بين اقرانه ، ويواسى من يستحق المواساة ، ويشترى لهم الحمير مساعدة لطلوعهم ونزولهم الى القلعة ، فيجتمعون للتعليم فى كل يوم من الصباح الى بعد الظهر ، واضيف اليه آخر حضر من اسلامبول له معرفة بالحسابيات والهندسيات لتعليم من يكون اعجميا لايعرف العربية مساعدا للمترجم فى التعليم يسمى روح الدين افندى ، فاستمرا نحوا من تسعة اشهر ومات المترجم وانفرد برياسة المكتب روح الدين افندى »

هذا ماذكره الجبرتى ، ومنه يؤخذ قطعا ان اول مدرسة للهندسة انشئت سنة ١٨١٦ بالقلعة ، وبذلك تكون هذه المدرسة اول مدرسة عالية انشئت فى

عصر محمد على ، لان المدارس الأخرى انشئت بعد ذلك التاريخ ، ويؤخذ من كلام الجبرتى ان التعليم فيها كان مجانيا ، وكانت الحكومة تؤدى رواتب شهرية لتلاميذها ، وكذلك كان شأنها فى كل المدارس التى انشأتها ، ويفهم ايضا من كلام الجبرتى ان انشاء هذه المدرسة راجع الى ماظهر من المصريين من المواهب فى الكفاءة والابتكار ، فان مارآه محمد على من حسين شلبى إذ وفق الى هذا الاختراع ، او « النكتة » كما يقول الجبرتى ، جعله يفكر فى انشاء المدرسة ، فحسن استعداد المصريين وذكاؤهم الفطرى كانا من اعظم ماحفز همة محمد على الى إنشاء المدارس فى مصر

ويحصل من رواية الجبرتى أن مدرسة الهندسة كان بها مدرسون من الافرنج ، ولعل هذه المدرسة هى التى يشير اليها الأمر الصادر من محمد على باشا بتاريخ ٤ ذى الحجة سنة ١٢٣٥ (١٢ سبتمبر سنة ١٨٢٠) الى كتخدا بك بتعيين احد القسس لاعطاء دروس فى اللغة الطليانية والهندسة لبعض تلامذتها وان يخصص له محل للتدريس فى القلعة ، واليها ايضا يشير الامر الصادر بتاريخ ١٦ سبتمبر من تلك السنة بتعيين الخواجه قسطى مدرسا بمدرسة المهندسخانة لتدريس الرياضة والرسم بها

مدرسة المهندسخانة ببولاق

والظاهر ان مدرسة القلعة لم تف على مر السنين بحاجات البلاد الى المهندسين ، او ان برنامجها لم يكن وافيا بالمرام ، فانشأ محمد على فى سنة ١٨٣٤ مدرسة اخرى للمهندسخانة فى بولاق ، وعين ارتين افندى احد خريجى البعثات العلمية وكيلا لها ، ثم تولى نظارتها يوسف حاككيان افندى احد خريجى البعثات ايضا ، وفى سنة ١٨٣٨ اسندت نظارتها الى المسيو لامبير بك لغاية سنة ١٨٤٩ إذ تولاها على مبارك بك (باشا) ، وهذه المدرسة من اجل وانفع المدارس التى انشأها

محمد على باشا ، ومنها تخرج عدد كبير من المهندسين الذين خدموا البلاد خدمات جليلة ، ومن اشهر اساتذتها فى ذلك العهد طائل افندى ، ومحمد بيومى افندى ، ومحمد بك ابو سن ، ومحمود باشا الفلكى ، ودقلة بك ، وابراهيم بك رمضان ، واحمد بك فايد وسلامة باشا

مدرسة الطب

اسس محمد على مدرسة الطب سنة ١٨٢٧ اجابةً لاقتراح الدكتور كلوت بك ، وكان مقرها فى اول عهدها بابى زعبل لوجود المستشفى العسكرى بها من قبل ، فانشئت المدرسة بالمستشفى إذ كان أليق مكان فى ذلك الحين لا يواء المدرسة لتوافر وسائل التعليم الطبى والتمرين ، والغرض منها تخريج الاطباء المصريين للجيش ، ثم صار الغرض عاما بان صار الاطباء يؤدون الاعمال الصحية للجيش وللبلاد عامة

واختارت الحكومة للمدرسة مائة تلميذ من طلبة الازهر ، وتولى ادارتها وادارة المستشفى الدكتور كلوت بك ، فاختار لها طائفة من خيرة الاساتذة الاوروبيين ومعظمهم من الفرنسيين يدرسون علوم التشريح والجراحة ، والامراض الباطنية ، والمادة الطبية ، وعلم الصحة ، والصيدلة ، والطب الشرعى ، والطبيعة ، والكيمياء ، والنبات ، وكان فيها اساتذة آخرون لتدريس اللغة الفرنسية للتلاميذ الازهريين

وقد بذل كلوت بك جهودا صادقة للنهوض بالمدرسة والسير بها الى ذروة النجاح ، واعترضته صعوبات جمة واهمها لغة التعليم ، فقد كان المقرر جعل التعليم باللغة العربية ، ولكن الاساتذة كانوا يجهلون تلك اللغة ، فاختير لهم مترجمون يجيدون اللغتين الفرنسية والعربية ، فكان المدرس يأتى الى الفرقة ، ومعه المترجم فيلقى الدرس بالفرنسية وينقله المترجم الى العربية ، ويكتبه التلاميذ بخطوطهم فى كراريسهم

ثم صار المترجمون يُختارون من بين أوائل تلاميذ المدرسة الذين تعلموا اللغة الفرنسية فى ساعات فراغهم وفى معهد الحق خصيصا بالمدرسة لتعلم تلك اللغة لكن هذا المعهد لم يلبث ان ألغى

وألحق بالمستشفى حديقة للنبات فيها كل ماتنبت الأرض من العقاقير والنباتات النادرة

وبعد خمس سنوات من انشاء المدرسة تخرجت الطائفة الأولى من تلاميذها ، فوُزعوا على المستشفيات وفيالق الجيش ، واختير من بينهم المتفوقون على اقرانهم وهم عشرون ، فأبقى منهم ثمانية فى المدرسة فى وظيفة معيدين للدروس ، وأرسل الاثنا عشر الباقون الى باريس لاتقان علومهم واتمامها ، فلما عادوا عينوا اساتذة فى المدرسة ، وهم الذين تألفت منهم البعثة العلمية الرابعة كما سيجىء بيانه

ذكر المسيو (مانجان) ان عدد تلاميذ مدرسة الطب بلغ (سنة ١٨٣٧) ١٤٠ طالبا و ٥٠ طالبا فى مدرسة الصيدلة ، ووصف مستشفى ابى زعبل ، فقال إنه احتوى ٧٢٠ سريرا ، وان غرفه منسقة تنسيقا بديعا ، يتخللها الهواء الطلق ، وتسودها النظافة حيث عهد الى مدرسى مدرسة الطب ملاحظة خدمة المستشفى فجمعوا بين التدريس وملاحظة المستشفى

ثم نقلت المدرسة ونقل معها المستشفى الى مصر سنة ١٨٣٧ ، واختير لها (قصر العينى) فصارت المدرسة والمستشفى أقرب الى القاهرة وادعى الى نشر التعليم الطبي ومعالجة المرضى

مدرسة الصيدلة ومدرسة الولادة

والحقت بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة ، ثم مدرسة للقابلات والولادة واختيرت لهذه الاخيرة طائفة من السودانيات والحبشيات تعلمن فيها اللغة العربية وفن الولادة والحق بمدرستهن مستشفى صغير للنساء ثم نقلت المدرسة من ابى زعبل الى القاهرة

كلوت بك

هو كما ترى صاحب الفضل الكبير على النهضة الطبية الحديثة فى مصر ، ولد فى مدينة جرينوبل بفرنسا سنة ١٧٩٣ من ابوين فقيرين ، ولما ترعرع اكب على الدرس على ما كان فيه من عوز وفاقة، وتعلم الطب واضطر ان يشتغل صبياً عند حلاق بمرسليا ليتابع دروسه، ولم يزل مكباً على تعلم الطب الى ان اخذ اجازته وعين طبيبا ثانيا فى مستشفى الصدقة بمرسيليا، ثم انفصل عن هذا المنصب ومارس مهنة الطب فى تلك المدينة إلى ان تعرف الى تاجر فرنسى كان محمد على عهد اليه بان يختار له طبيبا للجيش المصرى، فرغب اليه قبول هـذه المهمة فرضى بها وجاء مصر سنة ١٨٢٥ ، وكان على اخلاق فاضلة وعزيمة صادقة ، فعهد اليه محمد على تنظيم الادارة الصحية للجيش المصرى المنشأة حوالى سنة ١٨٢٠[1] ، وجعله رئيس اطباء الجيش ، فعنى بتنظيم هذه الادارة عناية تامة ، ولما كانت (الخانكه) حين مجيئه الى مصر مقرا للمعسكر العام للجيش اشار على محمد على باشا بانشاء مستشفى عسكرى بابى زعبل بجوار المعسكر العام ، فأنفذ محمد على اقتراحه و نشأ المستشفى الذى صار فيما بعد مستشفى عاما لمعالجة الجنود وغيرهم ونموذجا للمستشفيات التى انشئت من بعده ، ثم خطر له ان ينشئ بجوار المستشفى المذكور مدرسة لتخريج الاطباء من ابناء البلاد ، فعمل محمد على باقتراحه وانشأ بابى زعبل سنة ١٨٢٧ مدرسة الطب التى صارت مبعث النهضة الطبية فى مصر ، وتولى كلوت بك ادارتها ثم نقلت المدرسة ومعها المستشفى الى قصر العينى سنة ١٨٣٧ كما رأيت فى سياق الـكلام ، ولكلوت بك كثير من المؤلفات الطبية ترجم معظمها خريجو مدرسة الطب ، وقد أسس مجلسا للصحة على النظام الفرنسى كان له فضل كبير فى النهوض بالحالة الصحية للبلاد ، وعنى بتنظيم المستشفيات وانشأ مجلس الصحة البحرى فى الاسكندرية

---

(١) كما ذكر ذلك الدكتور نيرتسوس بك Neroutsous bey فى كتابه (نظرة تاريخية فى تنظيم الادارة الصحية بمصر) طبع سنة ١٨٨٠ ص ٣

وقد بذل جهودا صادقة فى ترقية حالة البلاد الصحية ومقاومة الامراض ، وهو الذى أشار باستعمال تطعيم الجدرى لمقاومة انتشار هذا المرض فى القطر المصرى بعد ان كان يودى بحياة نحو ستين ألفا من الاطفال كل عام ، وكافح هو وتلاميذه وباء الكوليرا الذى وقع بمصر سنة ١٨٣٠ ، وقد سر محمد على لما بذله من جهود فى مقاومة هذا الوباء فانعم عليه بالبكوية فصار يعرف بكلوت بك

وبذل ايضا جهودا كبيرة فى مقاومة الطاعون الذى حل بالبلاد سنة ١٨٣٥ وانعم عليه لهذه المناسبة برتبة أمير لواء

ولما تولى عباس باشا الأول اضمحلت مدرسة الطب وعاد كلوت بك الى فرنسا ، ثم اقفلت المدرسة فى عهد سعيد باشا وانتظم تلاميذها فى سلك الجيش ، غير ان سعيد باشا عاد واعتزم فتحها فاستدعى كلوت بك من فرنسا واعيد فتح المدرسة سنة ١٨٥٦ باحتفال فخم ، غير ان كلوت بك قد ضعفت صحته فارتحل الى فرنسا سنة ١٨٥٨ وأقام بها الى أن وافته منيته فى اغسطس سنة ١٨٦٨

مدرسة الالسن

انشئت سنة ١٨٣٦ مدرسة (الالسن) بالازبكية (مكان فندق شبرد الآن) وهى التى تولى نظارتها رفاعة بك رافع وسيجىء الكلام عنها فى ترجمته

بقية المدارس العالية والخصوصية

مدرسة المعادن بمصر القديمة أسست سنة ١٨٣٤

مدرسة المحاسبة بالسيدة زينب أسست سنة ١٨٣٧

مدرسة الفنون والصنائع (وتسمى مدرسة العمليات) أسست سنة ١٨٣٩ وتولى نظارتها يوسف حككيان بك

مدرسة الصيدلة بالقلعة أسست سنة ١٨٢٩

مدرسة الزراعة بنبروه ، ثم نقلت الى (شبرا) سنة ١٨٣٦ ، ثم ألغيت سنة ١٨٣٩

مدرسة الطب البيطرى ، انشئت أولا برشيد ثم نقلت الى ابى زعبل بالقرب

من مدرسة الطب ، ثم الى شبرا وتولى ادارتها المسيو هامون
المدرسة التجهيزية (الثانوية) بابى زعبل ، ثم نقلت الى الازبكية
المدرسة التجهيزية بالاسكندرية

المدارس الحربية والبحرية

تكلمنا عنها فى الفصل العاشر والحادى عشر

ديوان المدارس
(وزارة المعارف العمومية)

لما تقدمت المدارس العالية والخصوصية التى انشأها محمد على واتسع نطاقها رأى ان ينشىء لها ادارة خاصة سميت (ديوان المدارس) سنة ١٨٣٧ ، وكان موجودا من قبل باسم (مجلس شورى المدارس) ، وقد ساعد على تنظيم هذه الادارة تخرج نوابغ أعضاء البعثات وعودتهم الى مصر ، فرأى محمد على أن يهيىء لهم الفرصة للانتفاع بمواهبهم فى تنظيم نهضة التعليم فأسس (ديوان المدارس) ، واسند رياسته الى أمير اللواء (مصطفى مختار بك) أحد خريجى البعثة الأولى ، فكان هذا الديوان أول وزارة للمعارف فى مصر ، وقد توفى مختار بك سنة ١٨٣٨ وخلفه سنة ١٨٣٩ أمير اللواء أدهم بك (باشا) وهو ذلك الضابط القدير الذى كان مديرا لترسانة القلعة ، وتكلمنا عنه آنفا ، و بقى يتولى هذا المنصب الى سنة ١٨٤٩

وكان لديوان المدارس مجلس مؤلف من مصطفى مختار بك رئيسا ، ومن الاعضاء الآتية اسماؤهم : كلوت بك ، كيانى بك ، ارتين بك ، اسطفان بك ، حككيان بك فارين بك ، رفاعة رافع بك ، محمد بيومى افندى ، لامبير بك ، هامون بك ، دوزول و بعض هؤلاء الاعضاء من خريجى البعثات المصرية

وقد قرر هذا المجلس تنظيم التعليم بالمدارس ، ووضع لائحة لنشر التعليم الابتدائى تشمل ٢٧ مادة ذكر فيها ضرورة انشاء خمسين مدرسة ابتدائية ، منها ٤ بالقاهرة ، وواحدة بالاسكندرية ، والباقى فى انحاء القطر المصرى لنشر التعليم بين

طبقات الأمة ، وقضت هذه اللائحة بان يكون عدد التلاميذ بكل مدرسة بمصر والاسكندرية ٢٠٠ تلميذ ، وبكل مدرسة من مدارس الاقاليم ١٠٠ تلميذ

فديوان المدارس إذن هو مبتكر نظام التعليم الابتدائي في مصر ، ولذلك يلاحظ ان معظم المدارس الابتدائية (وتسمى مكاتب) انشئت سنة ١٨٣٧ أو بعدها

المدارس الابتدائية

وهاك اسماء المدارس الابتدائية التي انشئت في عصر محمد على مرتبة بحسب المديريات(١)

البحيرة

مدرسة الرحمانية ، مدرسة النجيلة وشبرا خيت ، مدرسة دمنهور (ثم احيلت على مدرسة الرحمانية)

الغربية

مدرسة ابيار ، مدرسة المحلة الكبرى ، مدرسة زفتى ، مدرسة شربين ، مدرسة طنطا ، مدرسة فوه ، مدرسة الجعفرية ، مدرسة نبروه

المنوفية

مدرسة اشمون جريس ، مدرسة شبين الكوم ، مدرسة منوف (ثم احيلت على مدرسة اشمون جريس)

الدقهلية

مدرسة المنصورة ، مدرسة ميت غمر ، مدرسة المنزلة ، مدرسة صهرجت ، مدرسة فارسكور ، مدرسة محلة دمنه

---

(١) راجع كتاب (التعليم العام في مصر) ليعقوب ارتين باشا (بالفرنسية) ص ١٧٦ طبعة سنة ١٨٩٠ ، وكتاب (التعليم في مصر) لامين سامي باشا ص ٣٤ ملحق ٥

الشرقية

مدرسة الرقازيق ، مدرسة العزيزية ، مدرسة بلبيس ، مدرسة كفورنجم ، مدرسة ميت العز

القليوبية

مدرسة بنها ، مدرسة قليوب ، مدرسة الخانكه (ثم نقلت الى السيده زينب) مدرسة ابى زعبل ، مدرسة طوخ

الجيزة

مدرسة حلوان

الفيوم

مدرسة الفيوم

بنى سويف

مدرسة بنى سويف ، مدرسة بوش

المنيا

مدرسة المنيا ، مدرسة الفشن ، مدرسة بنى مزار

اسيوط

مدرسة اسيوط ، مدرسة ابو تيج ، مدرسة الساحل ، مدرسة ساقية موسى ، مدرسة سنبو ، مدرسة ملوى ، مدرسة منفلوط

جرجا

مدرسة اخميم ، مدرسة جرجا ، مدرسة سوهاج ، مدرسة طهطا .

قنا واسنا

مدرسة قاموله ، مدرسة قنا ، مدرسة فرشوط ، مدرسة اسنا

ويلاحظ ان معظم المدارس الابتدائية قد الغيت فى اواخر عهد محمد على

وكان التعليم فى المدارس كافة عالية وتجهيزية وابتدائية مجانيا ، والحكومة تنفق على التلاميذ من مسكن وغذاء وملبس ، وتجرى على كثير منهم الارزاق والمرتبات ، ولكن لم يكن الاهالى فى بدء افتتاح المدارس راضين عن ادخال ابنائهم فيها ، بل كانوا نافرين منها نفورهم من الجندية ، فكانت الحكومة تدخلهم المدارس فى غالب الاحيان بالقوة ، ولكن مالبث الاهلون أن رأوا ثمرات التعليم فكفوا عن المعارضة فى تعليم ابنائهم فى المدارس وأقبلوا عليها

وذكر كلوت بك (١) ان عدد التلاميذ بمدارس القطر المصرى قاطبة بلغ على عهد محمد على ٩٠٠٠ تلميذ تتولى الحكومة الانفاق على تعليمهم وسكناهم وغذائهم وملبسهم وتؤدى لهم رواتب ضئيلة

البعثات العلمية

وجه محمد على همته الى ايفاد البعثات المدرسية الى اوروبا ليتم الشبان المصريون دراستهم فى معاهدها العلمية ، وهذه الفكرة تدل على ناحية من نواحى عبقرية محمد على باشا ، فهو لم يكتف بان يؤسس المدارس والمعاهد العلمية بمصر ليتلقى فيها المصريون العلوم التى تنهض بالمجتمع المصرى ، بل اعتزم ان ينقل الى مصر معارف أوروبا وخبرة علمائها ومهندسيها ورجال الحرب والصنائع والفنون فيها ، وأراد ان تضارع مصر أوروبا فى مضمار التقدم العلمى والاجتماعى ، فقصد من إرسال البعثات تكوين فئة من المصريين المثقفين لايقلون عن أرقى طبقة مهذبة فى أوروبا

---

(١) ج ٢ ص ٥١٩

وأراد من جهة أخرى أن تجد مصر من خريجى هذه البعثات كفايتها من المعلمين فى مدارسها العالية ، والقواد والضباط لجيشها وبحريتها ، ومهندسيها والقائمين على شؤون العمران فيها وادارة حكومتها لكيلا تكون مع الزمن عالة على أوروبا من هذه الناحية

ولو تأملت مليا فى العصر الذى نشأت فيه هذه الفكرة واختلجت فى نفس محمد على لعجبت لعبقريته كيف انبتت هذا المشروع ، ففى ذلك العصر لم يفكر حاكم شرقى ولا حكومة شرقية فى ايفاد مثل هذه البعثات ، وهذه تركيا وسلطانها كان يملك من الحول والسلطة أكثر مما يملك محمد على لم تفكر حينذاك اصلا فى ايفاد البعثات المدرسية الى المعاهد الاوروبية ، فصدور هذه الفكرة ، فى ذلك العصر ، وفى الوقت الذى كان محمد على مشغولا فيه بمختلف الحروب والمشاريع والهواجس ، يدل حقيقة على عبقرية نادرة وهمة عالية .

الارساليات الاولى

ابتدأ محمد على يرسل الطلبة المصريين الى أوروبا حوالى سنة ١٨١٣ وما بعدها ، وأول بلاد اتجه اليها فكره ايطاليا ، فأوفد الى ليفورن وميلانو وفلورنسا وروما وغيرها من المدن الايطالية طائفة من الطلبة لدرس الفنون العسكرية وبناء السفن وتعلم الهندسة وغير ذلك من الفنون

وافراد هذه الرسالة لم يتناولهم الاحصاء الدقيق ، وانما يعرف منهم (نقولا مسابكى) افندى الذى أوفده الى روما وميلانو سنة ١٨١٦ بواسطة المسيو روستى قنصل النمسا فى مصر ليتعلم فن الطباعة وما اليها من سبك الحروف وصنع قوالبها ، فأقام اربع سنوات ثم عاد الى مصر فتولى ادارة مطبعة بولاق سنة ١٨٢١ وبقى مديرا لها الى أن توفى سنة ١٨٣١

ثم اتجه نظر الباشا الى فرنسا فارسل اليها طائفة من الطلبة

وكذلك أرسل الى انجلترا بعض التلاميذ لتلقى فن بناء السفن والملاحة ومناسيب الماء وصرفه ، والميكانيكا

وبلغ عدد هؤلاء جميعا ٢٨ طالبا ، ولم يعرف افراد هذه الارساليات ، وانما عرف من افراد بعثة فرنسا شاب كان له شأن كبير فى تنظيم البعثات الكبرى التى أخذت تتدفق نحو فرنسا وهو عثمان نور الدين افندى الذى صار اميرالا للاسطول المصرى وترجمنا له فى الفصل السابق .

البعثات الكبرى

أرسل محمد على أول بعثة من البعثات الكبرى سنة ١٨٢٦ ، وهى مؤلفة من أربعين تلميذا ، ولحق بهم أربعة تلاميذ آخرون فصار عددهم سنة ١٨٢٨ اربعة واربعين طالبا ، واستمر يرسل الطلاب الى فرنسا فيضمون الى البعثة الأولى

وفى سنة ١٨٤٤ أوفد بعثة كبرى من الطلبة لتلقى العلوم والفنون الحربية مؤلفة من سبعين تلميذا اختارهم القائد سليمان باشا الفرنساوى من بين تلاميذ المدارس المصرية ، ثم لحق بهم غيرهم ، وكان بينهم اربعة من الامراء ، منهم اثنان من أبناء محمد على وهما الامير عبد الحليم والامير حسين ، واثنان من ابناء ابراهيم باشا وهما (الخديوى) اسماعيل والامير احمد ، ولهذه البعثة الأخيرة انشئت المدرسة المصرية التى تولى ادارتها اسطفان بك واستمرت تؤدى عملها وهو تأهيل الطلبة لاتقان اللغة الفرنسيه ومماشاة المدارس العليا بفرنسا الى ان اقفلت سنة ١٨٤٨ [1] ، وقد أوفد بعثة صغيرة سنة ١٨٤٧ الى فرنسا من طلبة الازهر لتلقى علم الحقوق فتعلم هؤلاء جميعا بارشاد المسيو جومار [2] وتحت رقابته ، وأرسل غير هؤلاء بعض التلاميذ الى انجلترا والنمسا

---

(١) اعيدت فى عهد اسماعيل باشا ثم اقفلت لمناسبة الحرب السبعينية

(٢) راجع ترجمته بالجزء الاول ص ١٢٦

قلنا ان الرسالات الثلاث الأولى لم يتناول الاحصاء الدقيق بيان اعضائها ، ولذلك صار مألوفا تعداد البعثات ابتداء من بعثة سنة ١٨٢٦ ، ويعد العلامة على باشا مبارك بعثة تلك السنة « اول رسالة ارسلت الى اوروبا من الديار المصرية فى زمن المرحوم العزيز محمد على » (١)

عدد طلبة البعثات وما انفق عليهم

وقد بلغ عدد الطلبة جميعا الذين أوفدهم محمد على الى أوروبا من سنة ١٨١٣ الى سنة ١٨٤٧ — ٣١٩ تلميذا منهم ٢٨ فى الرسالات الثلاث الأولى ابتداء من سنة ١٨١٣ الى سنة ١٨٢٥ ، و ٢٩١ فى البعثات الكبرى ابتداء من سنة ١٨٢٦ ، فيكون مجموعهم ٣١٩ تلميذا ، وهو عدد عظيم إذا قيس بدرجة الثقافة التى بلغتها مصر فى ذلك العصر ، وعظيم فى نتائجه لان هذه البعثات كان لها أوفر قسط فى نهضة مصر الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والحربية والسياسية

وكما أن عدد تلاميذ هذه البعثات مما يسترعى النظر فانه مما يحسن معرفته مبلغ النفقات التى تكلفتها ، فقد دل الاحصاء على انها بلغت ٣٠٣٫٣٦٠ من الجنيهات ، من ذلك ٣٠٫٠٠٠ قيمة ما انفق على الرسالات الأولى و ٢٧٣٫٣٦٠ قيمة ما انفق على البعثات الكبرى التى ارسلت من سنة ١٨٢٦ الى سنة ١٨٤٧ ، بما فى ذلك نفقة الامراء انجال محمد على باشا واحفاده ممن التحقوا بالبعثة الخامسة ، وهو مبلغ ضئيل بالنسبة للخيرات التى نالتها مصر على أيدى خريجى تلك البعثات

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٦٨

عناية محمد على باعضاء البعثات

ونموذج من رسائله اليهم

وكان محمد على شديد العناية والاهتمام باعضاء البعثات ، يتقصى انباءهم ويتتبع احوالهم ، ويكتب لهم من حين لآخر رسائل يستحثهم فيها على العمل والاجتهاد وينبههم الى واجباتهم ، وقد اورد رفاعة بك رافع نموذجا من رسائله ، وهو كتاب بعثه الى طلبة البعثة الأولى فى سبتمبر سنة ١٨٢٩ يدلك على مبلغ عنايته بشأنهم وحثه اياهم على الجد والاجتهاد ، قال فيه مانصه حرفيا : (١)

« قدوة الاماثل الكرام ، الافندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون ، زيد قدرهم ، ننهى اليكم انه قد وصلنا اخباركم الشهرية ، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة اشهر مبهمة لم يفهم منها ماحصلتموه فى هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئا ، وانتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياساً على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الامر غمنا غماً كثيرا ، ، فيا افندية ماهو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت ان كل واحد منكم يرسل لنا شيئا من ثمار شغله وآثار مهارته ، فاذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم الى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم انكم تعلمتم العلوم والفنون فان ظنكم باطل ، فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة ، فكيف تقابلونهم اذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغى للانسان أن يتبصر فى عاقبة أمره ، وعلى العاقل الا يفوت الفرصة وان يجنى ثمرة تعبه ، فبناء على ذلك انكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة ، وتركتم

---

(١) نقلا عن تخليص الابريز ص ١٥١ .

انفسكم للسفاهة ، ولم تتفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك ، ولم تجتهدوا فى كسب نظرنا وتوجهنا اليكم لتتميزوا بين امثالكم ، فان اردتم أن تكتسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون ، و بعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ، و يبين زيادة على ذلك درجته فى الهندسة والحساب والرسم وما بقى عليه فى خلاص هذه العلوم ، و يكتب فى كل شهر مايتعلمه فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق ، وان قصرتم فى الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه ، وهو إما من عدم اعتنائكم ، أو من تشويشكم ، وأى تشويش لكم ، هل هو طبيعى أو عارض ؛ وحاصل الكلام انكم تكتبون حالتكم كما هى عليه حتى نفهم ماعندكم ، وهذا مطلوبنا منكم ، فاقرءوا هذا الامر مجتمعين ، وافهموا مقصود هذه الارادة ، قد كتب هذا الأمر فى ديوان مصر فى مجلسنا فى اسكندرية بمنه تعالى ، فمتى وصلكم امرنا هذا فاعملوا بموجبه ، وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه » (٥ ربيع الاول سنة ١٢٤٥)

البعثة الاولى

سنة ١٨٢٦

أرسلت هذه البعثة الى فرنسا فى يوليه سنة ١٨٢٦ ، وأخذ اعضاؤها ينتظمون فى سلك المدارس الفرنسية و يتلقون العلوم والفنون باشراف المسيو جومار ، وكان عدد البعثة أول ما أرسلت اربعين تلميذا ، ثم لحق بهم اربعة آخرون فصار عددهم ٤٤ طالبا

رجع منهم خمسة قبل أتمام دروسهم لضعف صحتهم او نقص كفاءتهم ، ووزع الباقون على مختلف العلوم والفنون ، وقد احصاهم المسيو جومار فى رسالته المنشورة بالمجلة الاسيوية Journal Asialique (١) وعنه نقلنا اسماءهم

---

(١) عدد أغسطس سنة ١٨٢٨ ص ١٠٩

وسنذكر هنا عددهم و بيان اسمائهم والفروع التى تخصصوا فيها والالقاب التى حازوها فى المناصب التى تقلدوها بعد تخرجهم من البعثات

٤ — لدراسة الادارة الملكية أو الحقوق

عبدى شكرى (باشا) * (١)	ارتين (بك) *
سليم افندى	محمد خسرو افندى

٤ — لدراسة الفنون الحربية والادارة العسكرية

مصطفى مختار (بك) *	راشد افندى
أحمد (بك) *	سليمان افندى

٢ — للعلوم السياسية

اسطفان (بك)*	خسرو افندى

٣ — للملاحة والفنون البحرية

حسن (باشا) الاسكندرانى*	محمود نامى (بك)*
محمد شنان (بك) *	

٣ — للهندسة الحربية

محمد مظهر (باشا) *	سليمان افندى البحيرى
على افندى	

٢ — للمدفعية

عمر افندى	سليمان لاظ افندى

٢ — للطب والجراحة

على هيبة *	الشيخ محمد الدشطوطى

٢ — للزراعة

يوسف افندى *	خليل محمود افندى

---

(١) * هذه العلامة تدل على أنه سيرد الكلام عن ترجمة صاحب الاسم

٣ ـ للتاريخ الطبيعى والمعادن

علي حسين افندى   احمد النجدلى افندى   احمد افندى

٢ ـ لهندسة الرى

مصطفى بهجت (باشا) المعروف اصلا بمصطفى محرمجى افندى *

محمد بيومى افندى*

١ ـ للميكانيكا

الشيخ احمد العطار

١ ـ امام البعثة

الشيخ رفاعة (بك) رافع الذى صار انبه رجال البعثة ذكرا وارفعهم شأنا *

٢ ـ لصنع الاسلحة وصب المدافع

امين (بك) الـكرجى*   احمد حسن حنفى

٢ ـ للطباعة والحفر

حسن افندى الوردانى *   محمد اسعد افندى

٤ ـ للـكيمياء

عمر التكونى   احمد يوسف *

احمد شعبان   يوسف العياضى

٢ ـ بدون تخصيص

امين افندى   احمد افندى

٢ ـ سافرا الى مرسليا وطولون

حسين افندى   قاسم الجندى

٣ عادوا لمصر لاسباب صحية او لعدم أهليتهم

الشيخ محمد الرقيق   ابراهيم وهبه   الشيخ العلوى(١)

(١) كما وردت اسماؤهم فى رسالة المسيو جومار ص١١٢ عدد اغسطس سنة ١٨٢٨ من المجلة الاسيوية

البعثة الثانية

سنة ١٨٢٨

ارسلتها الحكومة الى فرنسا أواخر سنة ١٨٢٨ ، وكانت مؤلفة من ٢٤ تلميذا تخصص معظمهم فى الهندسة والرياضيات ، وتخصص بعضهم فى الطبيعيات وبعضهم فى الحربية أو العلوم السياسية او الطب

وهاك اسماء من تناولهم الاحصاء .

٤ ــ للهندسه والرياضيات

ابراهيم رمضان (بك) * احمد دقلة (بك) *

احمد طائل افندى احمد فايد (باشا) *

١ ــ للطبيعيات

حسنين افندى على البقلى *

٢ ــ للادارة الملكية

حسن جركس افندى حسين جركس افندى

٢ ــ الحربية

خليل جراكيان افندى (عين وكيلا للمدرسة المصرية التى انشئت للبعثة الخامسة بباريس) عثمان نورى افندى

١ ــ للعلوم السياسية

عابدين افندى (توفى أثناء تعلمه)

١ ــ للطب والترجمة

محمد افندى عبد الفتاح *

٢ ــ واحد من الاحباش وهو واوى بن كلهو ، وواحد من امراء السودان وهو سلطان ابو مدين

البعثة الثالثة

سنة ١٨٢٩

هـذه البعثة تغلب عليها الصبغة الصناعية ، فمعظم أفرادها ارسلو للتخصص فى مختلف الصناعات ، ذلك حين اتجهت عزيمة محمد على الى انشاء الصناعات الكبرى واقتباس العلوم والفنون الخاصة بالصناعة من المعاهد الأوروبية

ارسلت الحكومة هـذه البعثة سنة ١٨٢٩ ، وهى مؤلفة من ثمانية وخمسين تلميذا ، أرسلوا الى فرنسا والنمسا وانجلترا ، وهاك توزيعهم بحسب الفروع التى تخصصوا لها كما ورد فى (الوقائع المصرية) عدد ٧٣ (١)

التلاميذ الذين ارسلوا الى فرنسا وعددهم ٣٤

٢ ـ لتعلم صناعة بصم الشيت	٢ ـ لتعلم صناعة الآلات الجراحية
٢ ـ لتعلم الرى	٢ ـ لتعلم صناعة الساعات
٢ ـ لتعلم صناعة الصياغة والجواهر	٢ ـ « « شمع العسل
٢ ـ « « نسيج الاقمشة الحريرية	٢ ـ « « النقش والدهان (٢)
٢ ـ « « صبغ الاجواخ	٢ ـ « « السراجة (السروجية)
٢ ـ « « صنع السيوف	٢ ـ « « الشيلان
٢ ـ « « البنادق والطبنجات	٢ ـ « « الاحذية
٢ ـ « « انشاء السفن	٢ ـ « « شمع الاختام
٢ ـ « « الاجواخ .	

---

(١) الصادر فى ٢٦ ربيع الاول سنة ١٢٤٥ (١٥ اكتوبر سنة ١٨٢٩) ولم تذكر اسماؤهم فيه

(٢) هما محمد افندى مراد ومحمد افندي اسماعيل وقد تكلمنا عنهما فى تراجم نوابغ البعثات

التلاميذ الذين ارسلوا الى فينا وعددهم ٤

٤ ــ لتعلم صناعة نسيج الاجواخ والأكسية المعروفة بالعباءات

التلاميذ الذين ارسلوا الى انجلترا وعدددهم ٢٠

٢ ــ لتعلم صناعة آلات البوصلة وميزان الهواء والنظارات ومقاييس الابعاد وآلات الدوائر المنعكسة وغير ذلك من الآلات الفلكية

٢ ــ لتعلم صناعة الآلات الهندسية   ٢ ــ لتعلم صناعة التنجيد والفراشة

١٠ ــ « « الميكانيكا   ٢ ــ « « الصينى والفخار

٢ ــ « « صب المدافع والقنابل ومايتبعها

٥٨

وقد أرسل طلبة هذه البعثة الى اوروبا بمعرفة بوغوص بك وزير التجارة والشؤون الخارجية

وقد لحق بالتلاميذ العشرين الذين ارسلوا من هـذه البعثة الى انجلترا طلبة آخرون منهم

٣ ــ لتعلم الفنون البحرية وهم

عبد الحميد (بك) الديار بكرى* يوسف اكاه افندى* عبد الكريم افندى*

١ ــ لتعلم صناعة بناء السفن وهو

محمد راغب (بك)*

١ ــ للهندسة وهو

يوسف حككيان (بك)

١ ــ لتعلم صناعة السجاجيد وهو   اسماعيل حنفى افندى

البعثة الرابعة

أو البعثة الطبية الكبرى سنة ١٨٣٢

عدد اعضائها اثنا عشر تلميذا ، وقد نبغ معظمهم وخلدوا اسماءهم بما قاموا به من جلائل الاعمال ، وتجلى نبوغهم فى نشر العلوم الطبية فى مصر وخاصة بمدرسة الطب تدريسا وترجمة وتأليفا ، وفى الاضطلاع بالاعمال الصحية فى البلاد

وهم من اوائل خريجى مدرسة الطب المصرية بأبى زعبل ، فكانوا باكورة ثمرتها ، واختارهم الدكتور كلوت بك ليتمموا علومهم فى باريس ، حتى اذا عادوا عينوا اساتذة فى مدرسة الطب ، قال كلوت بك فى هذا الصدد :

« وكان هذا هو الغرض الذى اقصده ، إذ كان من الواجب لاقامة علم الطب فى مصر على دعائم ثابتة وطيدة من صبغه بالصبغة المصرية ، وهو ما لم يكن متيسرا الا بتكوين اساتذة من المصريين يلقون الدروس من غير حاجة الى مساعدة المترجمين ، ثم إننى أردت بارسال الاثنى عشر طالبا الى باريس لاتمام علومهم فيها أن أبين الدرجة التى وصلوا اليها من التعليم فى مدرسة ابى زعبل ، وأن أدحض ماتذرع به الوشاة والقادحون من الاكاذيب والتخرصات لذم هذه المدرسة والحط من قدرها ، وقد كان من حسن الحظ أن أقام اولئك التلاميذ فى امتحانهم فى اللغة الفرنسية أمام الاكاديميه الباريسية الدليل على حذقهم وتفوقهم حتى استحقوا أن ينالوا لقب الدكتوراه من جامعة الطب بباريس »[1]

وهاك اسماءهم ، وسنترجم لبعض النابغين منهم فيما يلى

١ ـ محمد على (باشا) البقلى *　　٢ ـ ابراهيم النبراوى (بك) *
٣ ـ محمد الشافعى (بك)　　٤ ـ محمد الشباسى (بك) *

---

(١) لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٦٢٣

٥ ـ مصطفى السبكى (بك) *
٦ ـ احمد حسن الرشيدى (بك) *
٧ ـ عيسوى افندى النحراوى *
٨ ـ الشيخ حسين غانم الرشيدى *
٩ ـ محمد افندى السكرى
١٠ ـ حسين الهيهاوى افندى
١١ ـ محمد منصور افندى
١٢ ـ احمد نجيب افندى

البعثة الخامسة

سنة ١٨٤٤

هى اكبر البعثات التى ارسلت الى فرنسا واعظمها شأنا ، وهى آخر بعثة كبرى أوفدها محمد على باشا ، وكان فيها بعض انجاله واحفاده ، ولذلك يسميها على باشا مبارك فى بعض المواطن (بعثة الانجال)

وقد انتخب القائد سليمان باشا الفرنساوى تلاميذها من نوابغ طلبة المدارس المصرية العالية بمصر ، وانتظم فى سلكها بعض المعلمين والموظفين .

قال على باشا مبارك ـ وكان أحد أعضاء هذه البعثة ـ يصف تأليفها وسفرها وابتداء عهدها بالدراسة فى فرنسا

« وفى سنة ١٢٦٠ انتخب سبعة من متقدمى الفرقة الأولى من مدرسة المهندسخانة ببولاق للسفر مع انجال العزيز محمد على باشا الى بلاد فرنسا لتعلم العلوم العسكرية ، فكنت انا من جملتهم ، وكذلك أخذ من غير هذه المدرسة كمدرسة الطوبجية بطره ، ومدرسة السوارى (الفرسان) بالجيزة ، والمكتب العالى بالخانقاه ، ومدرسة الألسن بالازبكية ، غير من طلب التوجه برغبته من الدواوين (موظفى الحكومة) وخلافها ، فسافرنا ، وأفرد لنا محل مخصوص بباريس ومن يلزم من الضباط والمعلمين ، فأقمنا فيه جميعا ، وبعد سنتين انتقل المتقدمون منا فى العلوم الى المدارس الخصوصية » (١)

(١) الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ١٠

وقال فى موضع آخر «فى سنة ١٢٦٠ عزم العزيز (محمد على) على ارسال انجاله الكرام الى مملكة فرنسا ليتعلموا بها، وصدر أمره بانتخاب جماعة من نجباء المدارس المتقدمين ليكونوا معهم، وحضر المرحوم سليمان باشا الفرنساوى الى المهندسخانة فانتخب عدة من تلامذتها، فكنت فيهم، وكان ناظرها يومئذ لامبير بك، فسافرنا الى تلك البلاد، وجعل مرتبى كل شهر مائتين وخمسين قرشا ماهية كرفقتى، فجعلت نصفها لاهلى يصرف لهم من مصر كل شهر، وكانت هذه سنّى معهم منذ دخلت المدارس، فأقمنا جميعا بباريس سنتين فى بيت واحد مختص بنا، ورتب لنا المعلمون لجميع الدروس، والضباط والناظر من جهادية الفرنساوية لان رسالتنا كانت عسكرية، وكنا نتعلم التعليمات العسكرية كل يوم» (١).

... فالبعثة كما ترى كان الغرض منها تخصيص اعضائها فى العلوم الحربية، وعددهم فى مبدئها ٧٠ تلميذا ثم لحق بهم غيرهم، وقد بلغت نفقات اعضائها ٩٤٫٦١٥ جنيها، وهاك اسماء انبههم شأنا

من انجال محمد على

١ ـ الامير عبد الحليم ٢ ـ الامير حسين (توفى اثناء تعلمه)

من انجال ابراهيم باشا

٣ ـ الامير احمد (٢) ٤ ـ الامير اسماعيل (الخديوى اسماعيل باشا) *

٥ ـ الشيخ نصر ابو الوفا (امام البعثة) وصاحب كتاب (المطالع النصرية للمطابع المصرية فى الاصول الخطية) وكتاب (تسلية المصاب على فراق الاحباب)

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٤٠

(٢) هو احمد باشا الذى غرق فى حادثة كفر الزيات المشهورة وكان ولى عهد سعيد باشا

بقية من تخصصوا للفنون الحربية

٦ ـ محمد شريف (باشا) * ٧ ـ على مبارك (باشا) *

٨ ـ على ابراهيم (باشا)* ٩ ـ حماد عبد العاطى (باشا)*

١٠ ـ حسن افلاطون (باشا) ، وكيل وزارة الحربية فى عهد توفيق باشا

١١ ـ عثمان صبرى (باشا) رئيس محكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٨٨٩

١٢ ـ على شريف (باشا) رئيس مجلس شورى القوانين

١٣ ـ اباظه مراد حلمى (باشا) ١٤ ـ محمد عارف (باشا)

١٥ ـ محمد راشد (باشا) ١٦ ـ حسن نور الدين (بك) *

١٧ ـ مصطفى مصطفى مختار افندى ١٨ ـ عبد الفتاح افندى

١٩ ـ حسين كوجك (باشا)* ٢٠ ـ ولى حلمى (بك)

٢١ ـ سليمان نجاتى (بك) مأمور المدارس الحربية ثم قاض بمحكمة اسكندرية المختلطة ثم وكيل محكمة الاستئناف الاهلية سنة ١٨٨٣

٢٢ ـ محمد افندى ٢٣ ـ محمد شاكر افندى

٢٤ ـ احمد عجيله (بك) ٢٥ ـ شافعى رحمى (بك)

٢٦ ـ احمد راسخ (بك) مدير الوقائع المصرية ثم مستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٨٧٦ وتوفى سنة ١٨٨٥

٢٧ ـ احمد اسعد افندى ٢٨ ـ منصور عطيه افندى

٢٩ ـ قيصرلى احمد افندى ٣٠ ـ خليل افندى

٣٣ ـ احمد نجيب (باشا) ٣٤ ـ حنفى هند (بك)

٣٥ ـ شحاته عيسى (بك) ناظر مدرسة اركان الحرب فى عهد اسماعيل باشا

٣٦ ـ فريد افندى ٣٧ ـ محمد اسماعيل افندى

٣٨ ـ خورشد افندى ٣٩ ـ صالح افندى

٤٠ ـ محمد خفاجى (بك) ٤١ ـ حسين سلمان افندى

٤٢ ـ كوجك على افندى ٤٣ ـ حسن شكيب افندى

٤٤ ـ صادق سليم (بك) ناظر المهندسخانة فى عهد اسماعيل وتوفيق

٤٥ ـ خورشد برتو افندى

٤٦ ـ احمد بك السبكى * ٤٧ ـ مصطفى حليم افندى

٤٧ ـ محمد شوقى افندى ٤٨ ـ لطفى افندى

٤٩ ـ سعيد نصر (باشا) رئيس محكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٩٠٣

٥٠ ـ اباظه راشد افندى ٥١ ـ احمد حلمى افندى

٥٢ ـ على فهمى (بك) ٥٣ ـ محمد مصطفى افندى

٥٤ ـ احمد خير الله (بك) فيما بعد قاض بالمحكمة المختلطة

٥٤ ـ شاكر افندى ٥٥ ـ محمد حسن افندى

من تخصصوا للطب والطبيعيات

٥٦ ـ احمد ندا (بك) *

٥٧ ـ عبد العزيز الهراوى (باشا) مدير دار الضرب فى عهد اسماعيل باشا

٥٨ ـ عبد الرحمن الهراوى (بك) مدرس بمدرسة الطب

٥٩ ـ ابراهيم السبكى افندى ٦٠ ـ محمد الفحام افندى

٦١ ـ مصطفى الواطى (بك) تخصص لطب الاسنان و بعد عودته ترأس قسم ترجمة الطبعيات بفروعها فى قلم الترجمة وصار وكيل مدرسة الطب

٦٢ ـ عثمان ابراهيم افندى تخصص لطب الاسنان وعهد الى الاثنين تدريس طب الاسنان فى مدرسة الطب ومعالجة المرضى فى المستشفى

٦٣ ـ محمد افندى يونس ٦٤ ـ محمد افندى الشرقاوى

٦٥ ـ بدوى سالم افندى مدرس الكيمياء والصيدلة بمدرسة الطب

٦٦ ـ حسن بك هاشم

٦٧ ـ محمد ابراهيم افندى تخصص في التعدين

٦٨ ـ على عيسى افندى « « «

٦٩ ـ ابراهيم جركس (بك) مدرس بمدرسة الطب البيطرى

٧٠ ـ عبد الهادى اسماعيل افندى ناظر مدرسة الطب البيطرى فى عهد الخديوى اسماعيل

٧١ ـ بترو افندى

علوم اخرى

٧٢ — محمد صادق (باشا)* ٧٣ — عبد الله السيد بك *

٧٤ — نوبار افندى (هو غير نوبار باشا الوزير المشهور)

٧٥ — اوهان اسطفان افندى ٧٦ — يوسف اسطفان افندى

٧٧ — بولص لابى افندى ٧٨ — اسطفان خشادور افندى (١)

٨٠ — عبد الرحمن محو افندى ٧٩ — ارتين خشادور افندى (١)

٨١ — حسن الشاذلى افندى

البعثة السادسة

ارسلت الى النمسا سنة ١٨٤٥

طب العيون

حسين عوف (باشا)* ابراهيم دسوقى افندى *

الكيمياء الصناعية

مصطفى المجدلى (بك) مدرس بمدرسة قصر العينى

---

(١) عين احدهما مستشارا لمحكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٨٧٥ وتوفى سنة ١٨٧٦ كما ورد فى الكتاب الذهبى المحاكم المختلطة

البعثة السابعة

سنة ١٨٤٧

هى بعثة مؤلفة من خمسة من طلبة الازهر ، ارسلت الى فرنسا لتعلم الحقوق والوكالة فى الدعاوى (المحاماه) وقد ذكرت هذه البعثة فى الوقائع المصرية دون بيان اسماء اعضائها

البعثة الثامنة

سنة ١٨٤٧

هى بعثة مؤلفة من واحد وعشرين نجارا أرسلوا الى انجلترا على ظهر السفينة الحربية المسماة (الشرقية) التى تم إنشاؤها فى ترسانة الاسكندرية صحبة محمد راغب بك ناظر الترسانه لاتقان فن بناء السفن الحربية ، وقد ذكر إسماعيل باشا سرهنك عن هذه البعثة مايلى (١) « انه لما أتمت دار الصناعة المصرية بناء الفرقاطة المسماة (الشرقية) سنة ١٨٤٧ صدر أمر الباشا الى محمد بك راغب الاستانبولى مدير بناء السفن بدار الصناعة بالاسكندرية أن يسافر عليها الى انجلترا لتصفيحها وتركيب آلاتها البخارية ، وأرسل معه واحدا وعشرين نجارا من نجارى دار الصناعة ليتقنوا فن النجارة هناك مدة وجود الفرقاطة المذكورة بانجلترا ثم عادت وعاد معها هو والنجارون فى السنة المذكورة ، وقد ركبت لها آلات بخارية قوة خمسمائة وخمسين حصانا » .

---

(١) ج ٢ ص ٢٥٦

البعثة التاسعة

سنة ١٨٤٧

عدد أعضاء هـذه البعثة ٢٥ طالبا اختيروا من طلبة مدرسة المهندسخانة المتقدمين لارسالهم الى انجلترا للتخصص فى الميكانيكا و بعضهم الى فرنسا واليك اسماؤهم

حسن افندى ذو الفقار — اسماعيل ارناءوط

احمد افندى المهدى — على صادق (باشا) فيما بعد وزير المالية

عثمان عرفى (باشا) فيما بعـد قاض بمحكمة الأسكندرية المختلطة ثم محافظ الاسكندرية — على افندى صالح

على افندى حسن الاسكندرانى — عبد الله افندى بيرون

غانم عبد الرحمن — ابراهيم سامى (باشا) فيما بعد عضو بقومسيون السكة الحديد

احمد طلعت افندى — سليمان افندى سليمان

عثمان يوسف افندى — اسماعيل بوشناق افندى

سلامه افندى الباز — عمر على افندى

عثمان القاضى افندى — عثمان دكورى (بك)

سليمان موسى (بك) — جوده عوض (بك)

كلاهما تعلم بانجلترا و وصل الخط التلغرافى على يدهما الى السودان

عباس عبد العزيز — على الفداوى افندى

سليمان طه افندى — خطاب عبد المغيث افندى

عيسى جاهين افندى



رفاعة بك رافع الطهطاوى

(١٨٠١ - ١٨٧٣)

زعيم نهضة العلم والادب فى عصر محمد على

مقابل ص ٤٧٠

تراجم طائفة من اعضاء البعثات

وما أدوا لمصر من خدمات

نذكر هنا تراجم طائفة من أعضاء البعثات ليكون لدينا فكرة عامة عن تاريخهم وشخصياتهم وما أدوا لمصر من جليل الخدمات ، ولسهولة التبويب رتبناهم طوائف بحسب العلوم والفنون التى تخصصوا لها لا بحسب ترتيب البعثات

التاريخ والجغرافية والادب

رفاعة بك رافع الطهطاوى

زعيم نهضة العلم والأدب

فى عصر محمد على

ولد سنة ١٨٠١ وتوفى سنة ١٨٧٣

مصرىّ صميم ، من اقصى الصعيد ، نشأ نشأة عادية من ابوين فقيرين ، قرأ القرآن ، وتلقى العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم فى عصره ، ودخل الازهر كما دخله غيره ، وصار من علمائه كما صار الكثيرون ، لكنه بذّ الاقران ، وتفرد بالسبق عليهم ، وتسامت شخصيته الى عليا المراتب ، ذلك انه كان يحمل بين جنبيه نفساً عالية ، و روحا متوثبة ، وعزيمة ماضية ، وذكاء حادا ، وشغفا بالعلم ، واخلاصا للوطن و بنيه ، تهيأت له أسباب الجد والنبوغ ، فاستوفى علوم الازهر فى ذلك العصر ، ثم صحب البعثة العلمية الأولى من بعثات محمد على ، وارتحل الى معاهد العلم فى باريس ، واستروح نسيم الثقافة الاوروبية ، فزادت معارفه ، واتسعت مداركه ، ونفذت بصيرته ، لكنه احتفظ بشخصيته ، واستمسك بدينه

وقوميته ، فأخذ من المدينة الغربية أحسنها ، ورجع الى وطنه كامل الثقافة ، مهذب الفؤاد ، ماضى العزيمة ، صحيح العقيدة ، سليم الوجدان ، عاد وقد اعتزم خدمة مصر من طريق العلم والتعليم ، فبرّ بوعده ، ووفى بعهده ، واضطلع بالنهضة العلمية تأليفا وترجمة وتعليما وتربية ، فملأ البلاد بمؤلفاته ومعرباته ، وتخرج على يديه جيل من خيرة علماء مصر ، وحمل مصباح العلم والعرفان يضيء به ارجاء البلاد ، وينير به البصائر والاذهان ، وظل يحمله نيفا واربعين سنة ، وانتهت اليه الزعامة العلمية والأدبية فى عصر محمد على ، وامتدت زعامته الى عصر اسماعيل ، ذلك هو رفاعة رافع الطهطاوى

فلنستعرض تاريخ تلك الشخصية الكبيرة التى ازدان بها عصر محمد على ، والتى لها الفضل الكبير على النهضة العلمية والادبية فى تاريخنا الحديث

نشأته الأولى

هو السيد رفاعة بن بدوى بن على بن محمد بن على بن رافع ، يتصل نسبه بمحمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ ، فهو من نسل الحسين ، وامه يتصل نسبها بالانصار

ولد فى طهطا بمديرية جرجا ، ولذلك سمى الطهطاوى ، وكانت ولادته سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ ميلادية)

كان اجداده من ذوى اليسار ، ثم اخنى عليهم الدهر ، فلما ولد المترجم كانت عائلته فى عسر ، فسار به والده الى (منشأة النيدة) بالقرب من مدينة جرجا ، وأقاما فى بيت قوم كرام من أقاربه يقال لهم بيت ابى قطنة من ذوى اليسار والمجد ، فأقاما هناك ، ثم انتقلا الى قنا ، ثم الى فرشوط ، وفى خلال ذلك كان المترجم يحفظ القرآن ، ولما عاد الى طهطا أتم حفظه ، وأخذ يتلقى مبادئ العلوم الفقهية ، فقرأ كثيرا من المتون المتداولة فى ذلك العصر على اخواله وهم بيت علم من الانصار

الخزرجية ، وفيهم جماعة من أفاضل العلماء كالشيخ عبد الصمد الانصارى، والشيخ ابى الحسن الانصارى ، والشيخ فراج الانصارى والشيخ محمد الانصارى

ثم توفى والده فجاء رفاعة الى القاهرة ، وانتظم فى سلك طلبة الازهر سنة ١٨١٧م (١٢٣٢ هـ)(١)

دراسته بالازهر

وميله الى الأدب

بدت عليه مخايل الذكاء والنباهة من صباه ، وكان محبا للعلم والتحصيل ، ذا عزيمة قوية ، فجاهد فى المطالعة والدرس ، وأخذ العلم عن شيوخ عصره ، وفى جملة من تلقى عنهم المترجم الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الازهر ، فقد أحبه لما آنسه فيه من الذكاء والاكباب على العلم ، وقربه اليه ، وحفه برعايته ، وكان الشيخ رفاعة يتردد عليه كثيرا فى منزله ، ويأخذ عنه العلم والأدب والجغرافية والتاريخ

وكان الشيخ حسن العطار من علماء مصر الاعلام ، وامتاز بالتضلع فى الادب وفنونه والتقدم فى العلوم العصرية(٢) وكان هذا نادرا بين علماء الازهر ، فاقتبس منه المترجم روح العلم والأدب ، فكانت تلك الميزة من اسباب نبوغه ، ذلك أن الأدب قد فتح ذهنه الى البحث والتفكير وهداه الى سداد الرأى وحسن الديباجة وسلامة المنطق.

---

(١) رجعنا فى هذه البيانات الى (حلية الزمن) للسيد صالح مجدى بك وهى فى مجموعها لا تختلف عما ذكره على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٣

(٢) يقول رفاعة بك عن الشيخ حسن العطار انه كان له خط فى العلوم العصرية حتى العلوم الجغرافية ، وانه وجد بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لابى الفداء ، وهوامش أخرى على اكثر كتب التاريخ وطبقات الاطباء وغيرها ، وكان يطلع على الكتب المعربة وله ولع شديد بسائر المعارف البشرية وله بعض تآليف فى الطب وغيره (عن مناهج الالباب المصرية لرفاعة بك ص ٣٧٦ طبعة ثانية) .

من هنا نشأت ميول رفاعة بك منذ نشأته العلمية الى العلوم العصرية ، والى الأدب والانشاء ، ويتبين من ذلك فضل الشيخ حسن العطار على المترجم ، فانه أول من وجه الفقيد الى الاغتراف من ينبوع الأدب الفياض ، وقد بادر الشيخ رفاعة الى الارتواء من منهله العذب ، وهو بعد فى الازهر ، فقرأ كثيرا من كتب الأدب ومهر فى فنونه ، واذا تأملت فى رحلته (تخليص الابريز) وهى أول كتاب ألفه فى باريس ، شهدت فيها مايدلك على سعة مادته من بدائع الادب العربى فى النثر والنظم

والشيخ العطار كما يقول رفاعة بك(١) هو الذى أشار عليه قبل رحيله الى فرنسا ان يدون رحلته فى تلك الاقطار ، فكانت هذه الرحلة (تخليص الابريز) باكورة مؤلفاته ، فالشيخ العطار كما ترى له يد طولى فى تكوين الفقيد وهو الذى اختاره اماما للبعثة كما سيجىء بيانه

تدريسه فى الازهر

لم يمض على المترجم بالازهر بضع سنوات حتى صار من طبقة العلماء ، وتولى التدريس فيه سنتين ، وكان يتردد بين حين وآخر على طهطا ويلقى بعض الدروس بجامع جده ابى القاسم ، فامتازت دروسه بجاذبية كانت تحببه الى المستمعين وترغبهم فى الاستزادة من بحر علمه ، وهنا ظهرت خاصية جديدة فى المترجم ، وهى مقدرته ونبوغه فى التعليم والتثقيف ، وليس كل عالم ينال هذه الموهبة ، بل هى ميزة تحتاج الى جاذبية معنوية ، وكفاءة ممتازة ، ومما يذكر عنه ان علماء طهطا شهدوا له بالسبق فى هذا المضمار ، وكانت دروسه تحفل بالسامعين وطلبة العلم

قال صالح مجدى بك فى هذا الصدد (٢) « وكان رحمه الله حسن الالقاء ، بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخذ عنه ، وقد اشتغل فى الجامع الازهر بتدريس

---

(١) تخليص الابريز ص ٣

(٢) فى رسالته (حلية الزمن بمناقب خادم الوطن) وهى ترجمة حياة رفاعة بك بقلم السيد صالح مجدى أحد تلاميذه

كتب شتى فى الحديث والمنطق والبيان والبديع والعروض وغير ذلك ، وكان درسه غاصا بالجم الغفير من الطلبة ، وما منهم إلا من استفاد منه ، وبرع فى جميع ما أخذه عنه ، لما علمت من انه كان حسن الاسلوب ، سهل التعبير ، مدققا محققا ، قادرا على الافصاح عن المعنى الواحد بطرق مختلفة ، بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقة ولا تعب ، ولا كد ولا نصب ،

اتصاله بالجيش

قضى الشيخ رفاعة ثمانى سنوات فى الازهر ، وصنف وألف ودرس وهو ابن احدى وعشرين سنة ، وكان الى ذلك الحين فقيرا رقيق الحال إذ كانت والدته تنفق عليه مما تبيعه من الحلى والعقار ، وكان يستعين على معاشه باعطاء دروس لحسين بك نجل المرحوم طبوزاوغلى ، وكان كذلك يلقى بعض الدروس بالمدرسة التى انشأها محمد لاظ اوغلى

وفى سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ م) عين واعظا واماماً فى أحد الايات الجيش المصرى النظامى الذى أسسه محمد على ، فانتظم فى سلك الاى حسن بك المناسترلى ثم انتقل الى الاى احمد بك المنكلى ، وكلاهما من اعظم قواد الجيش المصرى فى عصر محمد على ، وظل الشيخ رفاعة مضطلعا بوظيفة الامامة من سنة ١٢٤٠ الى شعبان من السنة التالية

بدأت حياة المترجم العملية بالتدريس فى الازهر ، ثم بتقلده وظيفة الامامة فى الجيش ، فانتقل بذلك من بيئة الازهر الى بيئة جديدة ، وهى الجيش النظامى ، ونعتقد ان هـذا الانتقال قد أحدث تطورا فى حياته وفى سيرته وذهنيته ، لانه بدأ يتصل بالحياة العسكرية ، ويألف نظاما لا عهد له به من قبل ، وعيشة فتحت ذهنه الى نواح جديدة من الحياة والتفكير ، ولا بد ان تكون الحياة العسكرية التى اتصل بها عن كثب قد افادته بما فيها من احترام للنظام ، وتقدير لمزاياه وايلاف لاوضاعه ، واحساس بالدفاع عن الذمار

والكفاح فى سبيل الوطن ، ومواجهة للاخطار ، مما يغرس فى النفس روح الوطنية والشجاعة والاقدام

ويلوح لنا ان هذه المعانى قد انطبعت الى حد كبير فى نفس المترجم ، فقد عاش طوال عمره ذا أنفة واباء ، يكره الذل ، ولا يقيم على الضيم ، محبا لبلاده يبذل فى سبيلها راحته ووقته وعلمه وذكاءه ، وعاش كذلك محبا للنظام فى كل عمل تولاه ، فى تلقى العلوم ، وفى التأليف والتعريب ، وفى حسن تنظيم المعاهد التى تولى ادارتها

انتظامه فى سلك البعثات

وحياته فى باريس

ولما جاء عهد البعثات العلمية كان من حسن توفيق المترجم ان اختاره محمد على ضمن اعضاء البعثة الاولى التى سافرت الى فرنسا سنة ١٨٢٦ م

ويقول على باشا مبارك (١) « ان محمد على باشا طلب الى الشيخ العطار (شيخ الجامع الازهر) ان ينتخب من علماء الازهر أماماً للبعثة الأولى يرى فيه الاهلية واللياقة ، فاختار الشيخ رفاعة لتلك الوظيفة »

فهو اذن لم يكن مرسلا بصفته طالبا ، بل كان اماما للبعثة ، وتقرر له مرتب يوزباشى (٢)

وهنا يبدأ عهد جديد من حياة المترجم ، بل قل ان باب النبوغ قد انفتح أمامه على مصراعيه ، فقد أخذ يستثمر المواهب الدفينة فى نفسه ، وأهمها الذكاء ومضاء العزيمة ، وقوة العارضة ، وسلامة المنطق وحب العلم ، والمثابرة فى الأكباب عليه ، فوصل بجده وذكائه الى مكانة عالية من العلم والثقافة .

لم يكن مطلوباً من أمام البعثة أن يتعلم « علوم الفرنسيس » وانظمتهم ، بل يكفيه أن يؤدى وظيفة الامامة لاعضاء البعثة ، وما اليها من الوعظ والارشاد

---

(١) فى الخطط التوفيقية ج١٣ ص٥٤ (٢) كانت الرتب العسكرية سارية فى السلك المدنى

ولقد كان معه ثلاثة أئمة آخرون للبعثة ، فلم تتحرك نفس أحد منهم الى الاغتراف من مناهل العلم فى فرنسا ، ولم يتجاوزوا حدود الوظيفة ، أما الشيخ رفاعة فكان ذا نفس طامحة الى العلا ، فأخذ يدرس اللغة الفرنسية ، وعكف عليها من تلقاء نفسه رغبة منه فى تحصيل علومها وآدابها

ويدلك على مضاء عزيمته وولعه بالدرس انه — كما يقول عنه على باشا مبارك « شرع عند ركوب الباخرة من الاسكندرية فى تعلم مبادىء اللغة الفرنسية بهمة عالية وعزيمة صادقة ، واتخذ له بعد وصوله الى باريس معلما خاصا على نفقته » ، ولما استقر به المقام فى باريس أكب على العلوم يغترف من مناهلها ، وتعرف الى العلماء يقتبس منهم الحكمة والمعرفة ، قال على باشا مبارك « وما لبث فى هذه البلاد حتى عرفه أعاظم العلماء وأكابرهم ، وكان للعالم المشهور مسيو جومار عليه فضل التعهد بالارشاد والتعليم ، والمحبة الخصوصية ، وقد ساعده مساعدات جمة فى هذه البلاد ، وكذلك حاله مع العالم الشهير (المستشرق) البارون دى ساسى ، وفى مدة أقامته بباريز من سنة ١٢٤١ الى سنة ١٢٤٦ (١٨٢٦ — ١٨٣١) نبغ فى العلوم والمعارف الاجنبية ، وعلى الخصوص فن الترجمة فى سائر العلوم على اختلاف اصطلاحاتها من حيث الاستعمال والمفردات ، وأكب كل الاكباب على ادامة النظر واستعمال الفكر والحرص على التحصيل والاستفادة »(١)

ويقول رفاعة بك عن نفسه(٢) انه ابتدأ يتعلم مبادئ الفرنسية وهو فى مارسليا واستمر فى دراستها بباريس الى أن أتم تعلمها فى ثلاث سنوات (٣)

وقد اتجهت ميوله الى دراسة التاريخ والجغرافية ، وكذلك درس الفلسفة والآداب الفرنسية ، فنال حظا وافرا منها ، وقرأ مؤلفات فولتير وجان جاك روسو

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٤

(٢) فى كتابه تخليص الابريز ص ٣٦

(٣) تخليص الابريز ص ١٥٨

ومونتسكيو وراسين ، فاتسعت مداركه وارتقت افكاره ، ومما ذكره عن مونتسكيو قوله « وقرأت أيضا مع مسيو شواله جزأين من كتاب يسمى (روح الشرائع) ، مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له منتسكيو وهو اشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ، ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين ، ويلقب عندهم بابن خلدون الافرنجى ، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا منتسكيو الشرق ، أى منتسكيو الاسلام[1] »

وقرأ أيضا بعض الكتب فى علم المعادن وفن العسكرية والرياضيات ومالت نفسه اثناء دراسته بباريس الى التأليف والتعريب ، فكان ينتهز أوقات فراغه فيعرب ويؤلف ، فوضع رحلته وسماها « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » وعرّب نحو اثنتى عشرة رسالة وهى (١) نبذة فى تاريخ اسكندر الاكبر مأخوذة من تاريخ القدماء . (٢) كتاب أصول المعادن . (٣) تقويم سنة ١٢٤٤ من الهجرة ألفه مسيو جومار لاستعمال مصر والشام متضمنا شذرات علمية وتدبيرية (٤) كتاب دائرة العلوم فى اخلاق الأمم وعوائدها (٥) مقدمة جغرافية طبيعية (٦) قطعة من كتاب العلامة ملطيرون فى الجغرافية (٧) ثلاث مقالات من كتاب لجندر فى علم الهندسة (٨) نبذة فى علم الهيئة (٩) قطعة من عامليات الضباط (١٠) أصول الحقوق الطبيعية التى تعتبرها الافرنج أصلا لاحكامهم (١١) نبذة فى الميثولوجيا يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم (١٢) نبذة فى علم سياسة الصحة

وترجم فى باريس كتابه « قلائد المفاخر فى غريب عوائد الاوائل والأواخر » وقد بدأ يترجم جغرافية ملتبرون كما رأيت ضمن رسائله الاثنتى عشرة

وكان يجتمع بطائفة من العلماء والمستشرقين ، فاقتبس منهم واتصل بهم بصلات الود والصداقة ، وبديهى أن اتصاله بهم يدل على ماجبل عليه من الميل الى العلم والعلماء والرغبة فى الاستزادة من المعارف ، وقد نشر فى رحلته

---

(١) ص ١٦٠

(تخليص الابريز) رسالتين من المستشرق المشهور البارون سلفستر دى ساسى تدلان على مانااله من المكانة فى نفسه ، كتب الأولى لمناسبة اهداء المترجم رحلته اليه وكتب الثانية قبل ان يغادر رفاعة بك باريس عائدا الى مصر قال فيها

« بعد اهداء السلام الى مسيو رفاعه ، يحصل لى حظ عظيم اذا جاء عندى يوم الاثنين الآتى فى الساعة ٣ ان امكنه ان يسرنى برؤيتى له لحظات لطيفة ، ويحصل لى أيضا غاية الانبساط اذا بعث لى اخباره بعد وصوله الى القاهرة ، فاذا لم يتيسر لى رؤيته طلبت له طريق السلامه ، ولا أزال أتذكر دائما آثاره واستنشق اخباره مع انجذاب قلب وانشراح صدر ، البارون سلوستر دى ساسى »

فمثل هذه الرساله لا تكتب للشيخ رفاعة إلا اذا كان قد نال فى نفوس علماء فرنسا مكانة سامية ، وهذه المكانة قد احرزها بذكائه واكبابه على العلم ، ومساجلته العلماء فى مجالسهم ومعاهدهم مما حببه الى نفوسهم وجعل له عندهم ذلك المقام الممتاز

مباحثه فى الدستور

قد تعجب ان يكون لرفاعة بك مباحث فى الدستور ، فالمعروف ان هذه المباحث حديثة العهد فى تاريخ مصر القومى ، لكن الواقع ان رفاعة بك هو فيما نعلم أول من كتب من المصريين فى المباحث الدستورية ، ذلك انه درس اثناء اقامته بباريس نظام الحكم فى فرنسا ، وعرب فى كتابه (تخليص الابريز) دستور فرنسا فى ذلك الحين[1] وما تضمنه من نظام المجلسين ، واختيار اعضائهما ، وحقوق الأمة أفرادا وجماعات ، وهذا يدلك على ميله الفطرى الى العلوم السياسية ، ولا يتجه فكر المرء فى ذلك الحين الى خوض هذه المباحث إلا اذا كان ذا رأس مفكر وقلب يخفق بحب الوطن

---

(١) هو الدستور سنة ١٨١٤ الذى استمر معمولا به الى سنة ١٨٣٠

وهو لا يكتفى بالتعريب فحسب ، بل له على مواد الدستور الفرنسى تعليقات تدل على فهم صحيح لاحكامه ومبادئه ، وميل فطرى الى النظم الحرة

فقد قال تعليقاً على نصوص الدستور(١)

« ومن ذلك يتضح لك أن مَلِك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وان السياسة الفرنساوية هى قانون مقيَّد بحيث أن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور فى القوانين التى يرضى بها أهل الدواوين (البرلمان) وأن ديوان البير(٢) يمانع عن الملك ، وديوان رُسل العمالات (٣) يحامى عن الرعية ، والقانون الذى يمشى عليه الفرنساوية الآن (سنة ١٨٢٧) ويتخذونه أساساً لسياستهم هو القانون الذى ألفه لهم ملكهم لويز الثامن عشر ، ولا زال متبعاً عندهم ومرضياً لهم ، وفيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل »

وقال فى موضع آخر (ص ٨٠) : « قوله فى المادة الأولى إن سائر الفرنسيس متساوون قدام الشريعة ، معناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع ، لا يختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون ، حتى أن الدعوى الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر الى هذه المادة فانها لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظراً الى إجراء الأحكام ، ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية ، وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية وتقدمهم فى الآداب الحضرية »

---

(١) تخليص الابريز ص ٧٢

(٢) مجلس الشيوخ Chambre des pairs وقد نقل كلمة بِر Pairs الفرنساوية كما هى

(٣) رسل جمع رسول أى نائب ، والعمالات جمع عمالة أى مديرية ، يريد مجلس النواب ، ويسميهم أحياناً « نواب الرعية » وأيضاً « أمناء الرعية »

وقال تعليقاً على المادة الثانية الخاصة بالمساواة فى الضرائب :

« وأما المادة الثانية فانها محض سياسة ، ويمكن أن يقال إن الفِرَد (جمع فِرْدة أى ضريبة) ونحوها لو كانت مرتبة فى بلاد الاسلام كما هى فى تلك البلاد لطابت النفس خصوصاً إذا كانت الزكوات والفيء والغنيمة لا تفى بحاجة بيت المال ، أو كانت ممنوعة بالكلية ، وربما كان لها أصل فى الشريعة على بعض أقوال مذهب الامام الأعظم ، ومن الحِكَم المقررة عند قدماء الحكماء ، الخراج عمود الملك ، وفى مدة إقامتى بباريس لم اسمع أحداً يشكو من المكوس والفِرَد (الضرائب) والجبايات أبداً »

وقال تعليقاً على المادة الثامنة الخاصة بحرية الرأى والنشر : « وأما المادة الثامنة فانها تقوى كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه ، وسائر ما يخطر بباله ، مما لا يضر غيره ، فيعلم الناس سائر ما فى نفس صاحبه»

وامتدح الصحافة ، وهو يسمى الصحف «الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات»(١) وقال عنها «ان الانسان يعرف فيها سائر الاخبار المتجددة سواء كانت داخلية أو خارجية ، اى داخل المملكة أو خارجها ، وان كان قد يوجد فيها من الكذب مالا يحصى الا أنها ربما تتضمن اخبارا تتشوف نفس الانسان الى العلم بها ، على انها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق أو تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة سواء كانت صادرة من الجليل او الحقير ، لانه قد يخطر ببال الحقير مالا يخطر ببال العظيم ، ومن فوائدها ان الانسان اذا فعل فعلا عظيما أو رديئاً وكان من الامور المهمة كتبه أهل الجرنال ليكون معلوما للخاص والعام لترغيب صاحب العمل الطيب ، وردع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك اذا كان الانسان مظلوما من انسان كتب مظلمته فى هذه الورقات ، فيطلع عليها الخاص

---

(١) جمع كازيطة مأخوذة من الكلمة الفرنسية Gazette

والعام ، فتعرف قضية المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ، وتصل الى محل الحكم (المحكمة) ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة ، فيكون مثل هـذا الامر عبرة لمن يعتبر »

وقال عن المادة التاسعة (الخاصة بحرمة الاملاك) « وأما المادة التاسعة فانها عين العدل والانصاف ، وهى واجبة لضبط جور الاقوياء على الضعاف »

وقال تعليقا على المادة الخامسة عشرة (التى تنص على ان السلطة يتولاها الملك ومجلسا النواب والشيوخ): « وفى المادة الخامسةعشرة نكتة لطيفة ، وهى ان تدبير امر المعاملات لثلاثة مراتب ، المرتبة الاولى للملك ووزرائه ، والثانية مرتبة البيرية الحامية للملك ، والثالثة مرتبة رسل العمالات ، الذين هم وكلاء الرعية والمحامون عنهم حتى لا يظلم أحد ، وحيثما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها ، وعلى كل حال فهى مانعة للظلم عن نفسها بنفسها ، وهى آمنة بالكلية »

ثم ذكر تعديل الدستور الذى اعقب ثورة سنة ١٨٣٠ وأسهب فى الكلام عن تلك الثورة التى شهدها فى باريس ، وظاهر من كلامه مبلغ عطفه على الثورة وقضيتها ، ومما قاله فى هـذا الصدد

« فلما كانت سنة ١٨٣٠ واذا بالملك قد اظهر عدة أوامر ، (١) ، منها النهى عن ان يظهر الانسان رأيه وان يكتبه أو يطبعه بشروط معينة خصوصا الكازيطات (الجرائد) اليومية فانها لابد لطبعها من ان يطلع عليها أحد من طرف الدولة(٢) فلا يظهر فيها الا ما يريد اظهاره ، مع ان ذلك ليس حق الملك وحده فكان لا يمكنه

---

(١) هى الاوامر الشهيرة Ordonnances التى أصدرها الملك شارل العاشر وكانت سببا لقيام ثورة سنة ١٨٣٠

(٢) الرقيب على الصحف

عمله الا بقانون ، والقانون لا يصنع الا باجتماع آراء ثلاثة ، رأى الملك ، ورأى اهل ديوانى المشورة(١)، فصنع الملك وحده مالا ينفذ الا اذا كان صنعه مع غيره»

فهذا كلام يدل على أن صاحبه يفهم روح الدستور والنظم الدستورية حق الفهم ، ويعرف معنى سلطة الأمة ، ويؤمن بان الأمة مصدر السلطات

وأدل على ذلك ، رايه فى موقف الملك شارل العاشر لما قامت الثورة فى باريس ، قال

« فلما اشتد الامر وعلم الملك بذلك وهو خارج ، أمر بجعل المدينة محصرة حكما ، وجعل قائد العسكر اميراً من اعداء الفرنساوية ، مشهورا عندهم بالخيانة لمذهب الحرية ، مع ان هـذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دلهم هذا على ان الملك ليس جليل الرأى ، فانه لو كان كذلك لاظهر امارات العفو والسماح ، فان عفو الملك أبقى للملك ، ولما ولى على عساكره الا جماعة عقلاء ، احباباً له وللرعية غير مبغوضين ولا اعداء ، ولكنه اراد هلاك رعاياه حيث أنزلهم بمنزلة اعدائه ، مع ان استصلاح العدو أحزم من استهلاكه ، ويحسن قول بعضهم

عليكَ بالحلم وبالحياءِ والرفْق بالمذنب والاغضاءِ
إن لم تُقِلْ عثرة من يُقالُ يوشك أن يصيبك الجهّالُ

« فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ، وبنظير ما نواه لأضداده ، فلو أنعم فى اعطاء الحرية لأمة بهذه الصفة حرِيَّة ، لما وقع فى مثل هذه الحيرة ، ونزل عن كرسيه فى هذه المحنة الأخيرة ، لا سيما وقد عهد الفرنساوية بصفة الحرية وألفوها واعتادوا عليها ، وصارت عندهم من الصفات النفسية ، وما أحسن قول الشاعر :

وللنــاس عادات وقد ألِفُوا بها لهــا سنن يرعونها وفروض

---

(١) البرلمان

فمن لم يعاشرهم على العرْف بينهم فذاك ثقيل عندهم وبغيض »(١)

فتأمل فى هذا الكلام ! وتدبر معانيه ، واذكر أنه كتب سنة ١٨٣٠ ، أى منذ مائة سنة ، تجدْ إنه كلامٌ عليه طابع المبادىء الدستورية العصريه ، تتمشى فيه روح الحرية والديمقراطية ، ولا يصدر إلا عن نفس أشربت روح الأنفة والشعور بالحقوق القومية ، ولولم يكن رفاعة بك يمثل هذه الصفات لما صدر عنه مثل هـذا القول ، بل أغلب الظن انه كان يضرب صفحا عما شاهده فى باريس من ثورة الشعب على الحكم الاستبدادى ، وما كانت هذه الثورة تترك فى نفسه من أثر سوى استنكار قيام الرعية على ولى الامر ، ولكن روح رفاعة كانت روحا حرة متطلعة الى المثل العليا ، فى العلم ، والاخلاق ، والسياسة ، فلا غرو ان صادفت مبادئ حقوق الشعب موضع الاقناع من نفسه

وتأمل فيما ذكره المترجم عن الجنرال لافابيت أحد زعماء الثورة ، تجده يقول :

« وفى اليوم التاسع والعشرين فى الصباح ملك أهل البلد ثلاثة أرباع المدينة ، ووقع أيضا فى ايديهم قصر طويلرى ولوور فملكوها ، ونشروا عليهما بيرق الحرية ، فلما سمع بذلك سر عسكر (قائد الجند) المأمور بأدخال أهل باريس فى طاعة السلطان (الملك شارل العاشر) رجع ، فكان هـذا تمام نصرة أهل البلد ، حتى ان العساكر دخلت تحت بيرق الرعية ، ومن هذا الوقت ترتب حكم وقتى وديوان مؤقت لنظم البلاد حتى ينحط الرأى على تولية حاكم دائم ، وكان رئيس هـذا الحكم المؤقت سر عسكر المسمى لافييته ، وهو الذى قتل فى الفتنة الأولى للحرية أيضا (٢) وهذا الرجل شهير بانه يحب الحرية ، ويحامى عنها ، ويُعَظَّم مثل الملوك بسبب اتصافه بهذا الوصف ، وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد فى البوليتيقة (السياسة) »

---

(١) تخليص الابريز ص ١٧٢

(٢) يريد الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٩٨

فرفاعة بك يمجد فى الجنرال لافاييت دفاعه عن الحرية ، وثباته على مبدئه السياسى ، وعدم تقلبه مع الاهواء ، وهى محامد وصفات اشتهر بها لافاييت فى كل أدوار جهاده ، فوصل بذلك الى المنزلة السامية التى نالها ، وصار كما يقول المترجم يكرم و يعظم كما يعظم الملوك ، وهذا من ابدع مايقال فى تمجيد الوطنية الصادقة والجهاد الخالص لوجه الله والوطن

وقد ظل رفاعة بك بعد عودته الى مصر متأثرا بالتعاليم الدستورية التى تلقاها فى باريس ، وحسبك دليلا على بقائه محتفظا بتلك المبادىء السامية على مدى السنين أنه عدّ اكبر عمل للخديوى اسماعيل انشاءه مجلس شورى النواب(١) فقد قال عنه فى معرض الثناء عليه « ولو لم يكن له من المآثر إلا كونه حمل الاهالى على أن يستنيبوا عنهم نوابا ذوى فكرة ألمعية ، ليتذاكروا فى شأن مصالحهم(٢) المرعية لكفاه ذلك شرفا ومجدا ، وعزا وسعدا ، حيث صار مستوليا على أمة حرة الرأى ، باستشارتها فى حقائق التراتيب والتنظيمات التى يراد تجديدها لاجلهم(٣) »

عودته الى مصر

عاد رفاعة بك الى مصر سنة ١٨٣١ ، فكأنه قضى فى باريس نحو ست سنوات مكبا على الدرس والتحصيل ، يطالع ، و يقرأ ، و يكتب و يعرب ، و يجالس العلماء و يساجلهم البحث والمناظرة ، و ينعم النظر فى أحوال الشعوب الأوروبية وتاريخها وأسباب حضارتها وتقدمها ، واستقر عزمه وهو فى باريس على أن يخدم

---

(١) سنة ١٨٦٦
(٢) أى مصالح الاهالى
(٣) مناهج الالباب المصرية ص ٣٢٣ طبعة ثانية

بلاده من طريق نقل علوم الافرنج الى مواطنيه فتتسع مداركهم ، وتسمو افكارهم ، ويسلكون سبيل الشعوب التى هذبها العلم والعرفان ، ومالت نفسه الى التعريب آخذا بنهج الدولة العباسية إذ بدأت نهضة العلوم والمعارف فى عهدها بترجمة كتب اليونان الى اللغة العربية ، قال فى هذا الصدد وهو بعد فى باريس « وبالجملة فقد تكفلنا بترجمة علمى التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئته تعالى وبهمة صاحب السعادة محب العلوم والفنون حتى تعد دولته من الازمنة التى تؤرخ بها العلوم والمعارف المتجددة فى مصر مثل تجددها فى زمن خلفاء بغداد »(١)

ولقد بر بوعده فملأ البلاد علما وحكمة ، وحمل لواء النهضة العلمية وخدمها بتآليفه وتعاريبه وتلاميذه الذين تخرجوا على يده فى مدرسة الألسن وغيرها

اعماله بعد عودته

كانت البلاد عند عودة رفاعة بك فى حاجة الى التعريب لنقل العلوم الأوروبية الى لغة البلاد ، فتولى منصب الترجمة وتدريس اللغة الفرنسية فى مدرسة الطب بابى زعبل

وفى سنة ١٨٣٣ م (سنة ١٢٤٩ هـ) انتقل من مدرسة الطب الى مدرسة المدفعية (الطوبجية) بطره ، وعهد اليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية ، وله فيها رسالة مترجمة فى الهندسة العادية ، وهى من الرسائل التى كانت تدرس فى المدرسة الحربية بسان سير بفرنسا

وفى غضون ذلك وقع وباء بالقاهرة سنة ١٢٥٠ فسافر الى طهطا وترجم بها مجلدا من جغرافية ملتبرون التى بدأ بتعريبها فى باريس ، ثم عاد به الى القاهرة وقدمه الى محمد على فنال اعجابه ، واجزل له العطاء ، وانعم عليه برتبة صاغ قول اغاسى واستمر بمدرسة طره الى سنة ١٢٥١

---

(١) تخليص الابريز ص ٢٠١

مدرسة الالسن

ثم رأى المترجم ان البلاد فى حاجة الى طبقة من العلماء الأكفاء فى الآداب العربية وفى آداب اللغات الاجنبية ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب الافرنكية وخاصة الفرنسية وليكونوا صلة الاتصال بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية وينهضوا بالأداة الحكومية فى المناصب التى تعهد اليهم ، فاقترح على محمد على باشا انشاء مدرسة الألسن ، وكان من مزايا محمد على انه يحسن تقدير الاقتراحات والآراء السديدة التى تعود على البلاد بالخير والتقدم ، فبادر الى انفاذ الاقتراح وانشأ مدرسة الالسن بالقاهرة سنة ١٨٣٦ ، واختارلها سراى الالفى بالازبكية بجوار قصر زينب هانم كريمة محمد على (حيث فندق شبرد الآن) ، وهذا يدلك على مبلغ عنايته بشأنها ، وكانت تعرف حين انشائها بمدرسة الترجمة ، ثم عرفت بعد ذلك بمدرسة الألسن ، وعهد بنظارتها فى السنة التالية الى الشيخ رفاعة ، وهنا تهيأت فرصة جديدة لظهور نبوغ المترجم كعالم محقق ، ورئيس قدير ، ومعلم كفء ، ومربٍّ لا يشق له غبار ، فلقد قام بادارة تلك المدرسة خير قيام ، واختار لها التلاميذ من مدارس الارياف والاقاليم ، ومن طلبة الازهر ، فبلغ عددهم فى بداءة عهدها خمسين تلميذا ، ثم زاد حتى صار ١٥٠ ، وعنى بتثقيفهم وتنشئتهم النشأة الصالحة حتى تخرج منها نخبة من العلماء والشعراء والادباء ممن ازدان بهم تاريخ النهضة العلمية والأدبية

كانت مدرسة الألسن عبارة عن كلية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الاجنبية وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ثم الايطالية والانجليزية ، وعلوم التاريخ والجغرافية ، والشريعة الاسلامية ، والشرائع الأجنبية ، فهى أشبه ماتكون بكلية للآداب والحقوق فلاغرو ان كانت اكبر معهد لنشر الثقافة فى مصر

وكان رفاعة بك يتولى التدريس فيها بنفسه ، يعاونه طائفة من خيرة المصريين والاجانب ، ذكر على باشا مبارك من اساتذتها الوطنيين الشيخ محمد الدمنهوري ، والشيخ على الفرغلى الانصاري (ابن خال رفاعة بك) ، والشيخ حسنين حريز الغمراوي ، والشيخ محمد قطة العدوي ، والشيخ احمد عبد الرحيم الطهطاوي ، والشيخ عبدالمنعم الجرجاوي ، وكلهم من علماء ذلك العصر

واشتهر رفاعة بك بغيرته على تثقيف تلاميذ المدرسة بلا كلل ولا هوادة ، وكان فى بعض الاحيان كما يقول على باشا مبارك « يمكث نحو ثلاث ساعات أو اربع ساعات يلقى الدرس واقفا على قدميه فى دروس اللغة أو فنون الادارة أو الشرائع الاسلامية والاجنبية ، وكذلك كان دأبه معهم فى تدريس فنون الآداب العالية »

وأحيل عليه فى سنة ١٢٥٧هـ علاوة على نظارة مدرسة الألسن نظارة المدرسة التجهيزية التى كانت بابى زعبل ثم نقلت الى الازبكية وألحقت بمدرسة الألسن ، وأساتذتها من تلاميذ هذه المدرسة ، ومعهد للفقه والشريعة الاسلامية ، ومدرسة محاسبة ، ومدرسة ادارة افرنجية ، فكان رفاعة بك يدير هذه المعاهد مجتمعة ، أى انه كان بمثابة مدير جامعة ، وأحيل عليه تفتيش مدارس الاقاليم ، واسندت اليه وقتا ما رآسة تحرير (الوقائع المصرية)

وفى سنة ١٢٥٨هـ شكل قلم الترجمة من أول فرقة خرجت من مدرسة الألسن ، ونال المترجم بعد سنة ونصف من انشاء هذا القلم رتبة القائممقام ، ونال سنة ١٢٦٢هـ رتبة أمير الاى لمناسبة انتهائه من ترجمة مجلد آخر من جغرافية ملطبرون ، فصار يدعى رفاعة بك بعد ان كان الشيخ رفاعة ، وكانت هذه الرتب بمثابة مكافأة معنوية له على ما أداه من الخدمات فى المناصب التى عهدت اليه ، كما أنها دليل على حسن تقدير الحكومة فى ذلك العصر للعلماء العاملين ، وتشجيعهم على متابعة جهودهم وابحاثهم ، ومن الحق أن نقول إن تنشيط الحكومة لرفاعة بك كان له دخل فى وفرة انتاجه العلمى ، فقد كان موضع رعاية ولاة الامور ومعاونتهم ، فانعم عليه محمد على

بـ ٢٥٠ فدانا ، وأقطعه ابراهيم باشا « حديقة نادرة المثال فى الخانقاه تبلغ ٣٦ فدانا » على مايقول على باشا مبارك(١) ، وانعم عليه سعيد باشا بمائتى فدان ، واسماعيل باشا بـ ٢٥٠ فدانا ، فيكون مجموع ذلك نحو ٧٠٠ فدان ، ولاشك أن هذه الانعامات الكبيرة من الوسائل التى تنهض بدولة العلم والادب

رفاعة بك فى منفاه بالخرطوم

لم يزل رفاعة بك ناظرا لمدرسة الألسن مع نظارة قلم الترجمة الى أن اقفلت المدرسة على عهد عباس باشا الأول سنة ١٨٥١ ، ولم يكتف عباس باقفالها بل أمر بارسال رفاعة بك الى السودان بحجة توليته نظارة مدرسة ابتدائية أمر بانشائها فى الخرطوم

وغريب أن عباس باشا الذى يقفل المدارس فى القطر المصرى يعنى بانشاء مدرسة ابتدائية فى الخرطوم ، نعم ان فتح المدارس فى السودان قاطبة أمر مطلوب ومرغوب فيه لذاته ، فما السودان الا جزء من مصر ، ونشر لواء العلم والمعارف فى انحائه واجب على الحكومة ، ولكن اقفال المدارس فى مصر ينم على محاربة عباس باشا للعلم والتعليم ، فكيف تتفق هذه النزعة مع التفكير فى فتح مدرسة ابتدائية بالخرطوم يرسل اليها جماعة من اركان النهضة العلمية فى مصر وعلى رأسهم زعيم هذه النهضة رفاعة بك ، وفيهم محمد بيومى افندى كبير اساتذة الهندسة والرياضيات فى مدرسة المهندسخانة وقد توفى فى منفاه بالخرطوم ، واحمد طائل افندى استاذ الرياضيات ، وغيرهم ، ولا يقبل المنطق ان يكون الغرض من ارسال هؤلاء الاقطاب الى السودان نشر العلم فى ربوعه إذ لو كان عباس يقصد خدمة العلم بانشاء « مدرسة ابتدائية بالخرطوم » لما كان معقولا ان يقع الاختيار على كبير علماء مصر فى ذلك العصر ليتولى نظارتها ، ولا إن يعهد بتدريس الحساب فيها الى كبير علماء الرياضيات

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٤

بين اساتذة مدرسة المهندسخانة، فلابد أن يكون للأمر سر آخر غير الرغبة فى انشاء المعاهد العلمية

وقد يكون سره الحقيقى رغبة عباس باشا فى اقصاء علماء مصر الى السودان ، فكما أنه اقفل مدارس مصر تراءى له ان يبعد عنها علماءها الاعلام ، وقد وشى له فى حق رفاعة بك فاتسع صدره للوشاية ، ولم ير وسيلة للتخلص من رفاعة بك إلا ارساله الى السودان ، وكان الذهاب الى السودان فى ذلك العصر يعد نفيا مقصودا به العقاب والقصاص وخاصة لمن كان فى منزلة رفاعة بك ، ولم أتبين ماهية هذه الوشاية من اقوال من ترجموا له (١) ، أما رفاعة بك ذاته فلم يزد فى هذا الصدد عن قوله « وفى سنة ١٢٦٧ كنت سافرت الى السودان بسعى بعض الامراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم فلبثت نحو الاربع سنين بلا طائل وتوفى نصف من بمعيتى من الخوجات المصريين(٢) »

ويلوح لى ان لكتابه (تخليص الابريز) سببا يتصل بنفيه ، إذ لايخفى انه طبع للمرة الثانية سنة ١٢٦٥ هـ أى فى أوائل عهد عباس باشا والكتاب كما مر بك يحوى آراء ومبادئ لا يرغب فيها الحاكم المستبد ، وعباس باشا الأول كان فى طبعه مستبدا غشوما ، فلابد أن الوشاة قد لفتوا نظره الى ما فى كتاب رفاعة بك مما لا يروق لعباس ، فرأى ان يبعده الى الخرطوم ليكون السودان منفى له ، ولاغرابة فى ذلك فلو أن هذا الكتاب ظهر فى تركيا على عهد السلطان عبد الحميد لكان من المحقق ان يكون سببا فى هلاك صاحبه ، فمن الجائز

---

(١) ترجم له من المتقدمين على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٣ ، وصالح مجدى بك فى رسالته حلية الزمن بمناقب خادم الوطن ، ومن المعاصرين جرجى زيدان بك فى كتابه (تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر) ج ٢ ص ١٩ ، ومحمد الصادق حسين بك فى مجلة السياسة الاسبوعية السنة ٢ عدد ٦٤

(٢) مناهج الالباب المصرية ص ٢٦٥ طبعة ثانية

ان يكون عباس باشا قد رأى نفى رفاعة وامثال رفاعة الى السودان ليبعدهم ويبعد افكارهم وثقافتهم عن مصر ، واتخذ لنفيهم صورة ظاهرة وهى انشاء مدرسة بالخرطوم ، والله اعلم

كان رفاعة بك يشعر فى الخرطوم بانه فى منفى سحيق ، ويعلم ان الحكومة انما اقصته الى السودان لتتخلص منه لا لتفتح مدرسة ابتدائية ، ولقد احس بغضاضة النفى فى بدء عهده به ، ولكنه قابل المصاب بالصبر والجلد ، وعاودته عزيمته التى لاتعرف الكلال ، فأخذ يسرى عن نفسه هم النفى والعزلة بتعريب كتاب تلماك(١) ، وانك لتلمح من مقدمة كتابه مبلغ تألمه مما جوزى به على جليل خدماته للعلم والنهضة العلمية ، والوطنى فى محنته يذكر ما أداه لوطنه من خدمات ، كأنما يراجع نفسه ويحاسبها ليتعرف اسباب محنته ، فلا يزداد يقينا الا أنه جوزى جزاء سنمار، وقوبل على احسانه بالاساءة والنكران ، وكذلك فعل رفاعة بك ، فقد جمع فى كلمات وجيزة مافصله التاريخ من خدماته الجليلة ، قال فى مقدمة كتاب تلماك

« أما بعد فيقول المرتجى أن يكون لوطنه خير نافع ، رفاعة بدوى رافع ، ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس ، قد تقلدت بعناية الحكومة المصرية ، الفائقة على سائر الامصار ، فى عصر المدة المحمدية العلوية ، السامى على سائر الاعصار ، بوظيفة تربية التلاميذ مدةً مديدة ، وسنين عديدة ، نظارةً وتعليما ، وتعديلا وتقويما ، وترتيبا وتنظيما ، وتخرج من نظارات تعليمى من المتفننين رجال لهم فى مضمار السبق وميدان المعارف وسيع مجال ، وفى صناعة النثر والنظم أبهر بديهة وأبهى روية وأزهى ارتجال ، وحماةٍ صفوف لا يُبارَوْن فى نضالٍ ولا سجال ، وعربت لتعليمهم من الفرنساوية المؤلفات الجمة ، وصححْت لهم مترجمات الكتب المهمة ، من كل كتاب عظيم المنافع ، وتوفق حسن تمثيلها فى مطبعة الحكومة وطبعها ، ومالت طباع الجميع الى مطبوع ذوقها وطبعها ، وسارت بها الركبان فى

---

(١) مواقع الافلاك فى اخبار تلماك

سائر البلدان ، وحدا بها الحادى فى كل واد ، وقصدها القصّاد كأنها قصائد حسان ، وكان زمنى الى ذلك مصروفا ، وديدنى بذلك معروفا ، مجاراةً لامير الزمن (١) على تحسين حال الوطن ، الذى حبُّهُ من شُعَب الايمان ، وفى مدة نحو ثلاثين سنة لم يحصل لهمتى فتور ولا قصور .

فاذا ملكتَ مُجِدْ فان لم تستطع فاجهدْ بوسعك كله أن تنفعا

« وانما فقط لما توجهتُ بالقضاء والقدر ، الى بلادِ السودان وليس فيها قضاء الله مفرّ ، أقمتُ برهةً خامدَ الهمة ، جامد القريحة فى هذه الملمة ، حتى كاد يتلفنى سعير الاقليم الفائر بِحَرِّه وسمومه ، ويبلعنى فيلُ السودان الكاسر بخرطومه ، ومع ذلك فكنتُ فى الوقت الحاضر مصداق قول الشاعر

فما انا للايام غير محارب أصاحبها مستبشرا متهللا
فان كان حظى راجحا كنت راجحاً وان كان حظى اعزلا كنت اعزلا

فكيف وان لى نصيبا فى السعود المقبلة ، والعهود المستقبلة ، وحظاً من الاوقات المفيدة ، وسهما من العدالة اباعد به عنى وجوه هذه البلاد البعيدة ، فما تسليت الا بتعريب تلماك ، وتقريب الرجاء بدور الافلاك »

اقول ، ولرفاعة بك بعض العذر فى تبرمه من الاقامة فى السودان ، فانه فضلا عن شعوره بانه لم يذهب اليه بارادته واختياره وانه انما كان مضطهدا منفيا على غير ذنب جناه ، فقد شهد فى منفاه مصرع زميله محمد بيومى كبير علماء الرياضيات فى عصره ، والظاهر ان صحته وبنيته لم تحتملا غضاضة النفى وسوء المناخ فعاجلته منيته فى الخرطوم ، فهذا الحادث الاليم كان له اثر عميق فى نفس رفاعة بك جعله يشكو ويتململ من طول اقامته فى منفاه ، ولولا ذلك لما افاض فى الاعراب عن ألمه الى الحد الذى اخرجه عن جادة الصبر والاعتدال ، فما ذنب « وجوه تلك البلاد البعيدة » التى يطلب الى العدالة أن تباعد به عنها ؟ انه لاشك كان فى شدة

---

(١) يريد محمد على

المحنة حتى ضاق صدره بما يعانيه من الألم ، على انه ما لبث ان استمسك بخصاله الحميدة من الصبر على المكاره ومغالبة الشدائد ، فراض نفسه على احتمالها والصبر على آلامها ، وانك لتتبين نفسيته وما جبل عليه من قوة العزيمة وصدق الايمان فى قوله « فما انا للأيام غير محارب الخ » فان هذا القول يدل على قوة نفس كبيرة ارتضت مغالبة الايام ومقاومة المحن ، ويتصل بهذا المعنى قوله عن نفسه

رفاعةٌ خَمَّس المنظوم مرتجلاً   قريضَهُ وهو بالخرطوم قد وَجِلا
قولت هَواتفه بالله كن رجلا   فان جَدَّك (طه) للخطوب جَلَا

فأمر خطبك هذا الحد يحسمه

والحق ان رفاعة بك كان فى منفاه رجلا بكل معانى الرجولة ، فلم يستسلم لليأس ، ولم تفتر عزيمته ، ولا جمدت قريحته ، وحسبك دليلا على قوة ارادته انه ترجم فى منفاه كتاب تلماك وهو يقع فى نحو سبعمائة صفحة من القطع الكبير ، كما انه رتب مدرسة الخرطوم احسن ترتيب وادارها أحسن ادارة وتخرج منها طائفة من الشبان تولوا مهمة التدريس فى المدارس التى انشأتها الحكومة فى السودان على عهد الخديوى اسماعيل ، وقد امتدح رفاعة بك اخلاق السودانيين فاشاد بقابليتهم « للتمدين الحقيقى لدقة اذهانهم ، فان أكثرهم قبائل عربية لاسيما الجعليين والشايقية وغيرهم ، واشتغالهم بما الفوه من العلوم الشرعية هو عن رغبة واجتهاد ، ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم ، حتى ان البلدة اذا كان بها عالم شهير يرحل اليه من البلاد المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير ، فيعينه اهل بلدته على ذلك بتوزيع المجاورين (الطلبة) على البيوت بحسب الاستطاعة فكل انسان من الاهالى يخصه الواحد او الاثنان فيقومون بشؤونهم مدة التعلم والتعليم » (١)

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦٢ طبعة ثانية

رجوعه من منفاه والمناصب التى تولاها

ولما توفى عباس باشا الأول سنة ١٨٥٤ وتولى سعيد باشا الحكم عاد رفاعة بك من السودان ، فاسندت اليه المناصب المختلفة ، فجعل ناظرا للقلم الافرنجى بمحافظة مصر تحت رآسة ابراهيم ادهم باشا ، ثم عهد اليه سعيد باشا سنة ١٨٥٥ وكالة المدرسة الحربية بالحوض المرصود التى كان يتولى نظارتها سليمان باشا الفرنساوى رئيس رجال الجهادية ، وبعد قليل تولى نظارة المدرسة الحربية التى انشأها سعيد باشا بالقلعة ، وجمع بين هذا المنصب ونظارة قلم الترجمة ، ومدرسة المحاسبة والهندسة الملكية ، ومدرسة العمارة ، ونال رتبة المتمايز

وفى سنة ١٨٦٠ الغيت هذه المدارس كما الغى قلم الترجمة فبقى رفاعة بك بغير منصب الى عهد اسماعيل باشا ، إذ هبت على العلم والتعليم نسمة الحياة ، فاعيد قلم الترجمة بوزارة المعارف العمومية وعهد الى رفاعة بك برياسته سنة ١٨٦٣ وعين عضوا فى (قومسيون المدارس) الذى يشبه أن يكون مجلس المعارف الاعلى والذى كان له فضل كبير فى تنظيم التعليم على عهد اسماعيل

وكان له فضل كبير فى نشر العلوم بحثه الحكومة على طبع طائفة من امهات الكتب العربية على نفقتها كتفسير الفخر الرازى ومعاهد التنصيص وخزانة الادب والمقامات الحريرية وغير ذلك

فضل رفاعة بك فى نهضة المرأة

ان رفاعة بك هو أول من دعا الى نهضة المرأة والى تعليم البنات وتثقيفهن أسوة بالبنين ، وتتجلى لك فكرته من كونه وضع كتابا مشتركا لتثقيف البنات والبنين على السواء وسماه (المرشد الأمين للبنات والبنين) ، وهو كتاب فى الاخلاق والتربية والآداب وضعه كما يقول فى مقدمته بحيث « يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية »

ودعا فى هذا الكتاب الى وجوب تعليم البنات واعدادهن من طريق التربية والتعليم للعمل والقيام بواجبهن فى المجتمع ، قال فى هذا الصدد :

« ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معا لحسن معاشرة الازواج فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فان هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ، ويجعلهن بالمعارف اهلا ، ويصلحهن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأى ، فيعظمن في قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال مافيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها ، وليمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الاشغال والاعمال مايتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، فكل مايطيقه النساء من العمل يباشرنه بانفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فان فراغ ايديهن عن العمل يشغل السنتهن بالاباطيل ، وقلوبهن بالاهواء وافتعال الاقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لايليق ، ويقربها من الفضيلة ، واذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء »

فالدعوة الى نهضة المرأة في مصر ترجع كما ترى الى رفاعة بك ، ثم جاء من بعده المرحوم قاسم بك امين فجددها ووسع نطاقها ، وكتاب رفاعة بك طبع لاول مرة سنة ١٢٨٩ هـ أى سنة ١٨٧٢ ميلادية ، وقد أسست أول مدرسة لتعليم البنات في مصر سنة ١٨٧٣ م وهي المدرسة التي انشأتها جشم آفت هانم احدى زوجات اسماعيل بالسيوفية ، على أن دعوة رفاعة بك ترجع الى ماقبل ظهور كتابه ، فانه كما تعلم كان عضوا في مجلس ديوان المدارس سنة ١٨٣٧ ، وقد ذكر يعقوب ارتين باشا(١) ان هذا المجلس قدر مالتعليم المرأة من الفضل في النهوض بالمجتمع المصرى فاقترح ادخال تعليم البنات في مصر ، ولكن الاقتراح لم يخرج الى حيز العمل في عهد محمد على باشا لأن المجتمع كما يقول ارتين باشا لم يكن يألف تعليم البنات في المدارس فاكتفى محمد على بمدرسة الولادة التي انشأها لتخريج طائفة من القابلات المتعلمات ، على أن فكرة تعليم المرأة لاقت من ذلك الحين تقديرا من الطبقات العالية فأخذت العائلات الكبيرة تعلم بناتها في البيوت على يد اساتذة من معلمين ومعلمات فظهرت طبقة من سلالة البيوت الكبيرة نالت حظا وافرا من العلم والثقافة ، ومن هذه الطبقة نبغت

---

(١) في كتابه التعليم العام في مصر (بالفرنسية) ص ١٢٨

الكاتبة الشاعرة عائشة هانم تيمور[1] كريمة اسماعيل باشا تيمور من كبار الحكام في عصر عباس وسعيد واسماعيل ، وقد بقيت فكرة تعليم البنات قاصرة على البيوت الى أن انشئت مدرسة البنات بالسيوفية كما قدمنا

فضله في نهضة القضاء والقانون

ولرفاعة بك فضل كبير في نهضة القضاء والقانون ، فان الحكومة حينما فكرت في اصلاح النظام القضائي على عهد اسماعيل مهدت الى ذلك بتعريب القوانين الفرنسية المعروفة بالكود (قانون نابليون) وهي مهمة شاقة تحتاج الى اطلاع واسع في القوانين الفرنسية واحكام الشريعة الاسلامية لاختيار المصطلحات الفقهية المطابقة لمثيلاتها في القانون الفرنسي وتحتاج أيضا الى علم غزير وصبر على العمل والمام تام باسرار اللغتين الفرنسية والعربية ، فلم تجد الحكومة من يضطلع بهذه المهمة سوى رفاعة بك وتلاميذه ، فعرب هو وعبد الله بك السيد[2] القانون المدني الفرنسي ، واشترك معهما عبد السلام افندي احمد، واحمد افندي حلمي، واذا لاحظت ان هذا القانون اوسع مدى من القانون المدني المصري المقتبس منه لانه يشمل عدا المعاملات المدنية احكام الأحوال الشخصية عرفت مبلغ الجهد الذي بذله رفاعة بك ومساعدوه في تعريبه، وحسبك أنه يقع في ٢٢٨١ مادة طبعت[3] في مجلدين كبيرين، يقع الأول في نيف وثلثمائة صفحة ، والثاني في مائتي صفحة من الورق الكبير ، وعرب قانون المرافعات عبد الله ابو السعود افندي، وحسن افندي فهمي ، وعرب محمد قدري باشا قانون العقوبات ، وصالح بك مجدي قانون تحقيق الجنايات :

---

(١) ولدت سنة ١٨٤٠ وتوفيت سنة ١٩٠٢ ، راجع ديوانها (حلية الطراز) وانظر ترجمتها المسهبة للآنسة (ميّ)

(٢) من تلاميذ مدرسة الالسن وقد ترجمنا له فيما يلي

(٣) سنة ١٢٨٣ هـ ١٨٦٦ ميلادية

وهم من تلاميذ رفاعة بك ، ومن هذه القوانين قد استمد الشارع المصرى معظم أحكام قوانين المعاملات المدنية والمرافعات والعقوبات تلك القوانين التى بنى على اساسها النظام القضائى الحديث ، ومن ذلك يتبين فضل رفاعة بك وتلاميذه فى إقامة صرح العدالة فى مصر

روضة المدارس

ومن أجل أعماله انه تولى رآسة تحرير مجلة (روضة المدارس) التى انشأها العلامة على باشا مبارك سنة ١٨٧٠ حين كان وزيرا للمعارف العمومية فى عهد اسماعيل ، وهى مجلة علمية أدبية اجتماعية ، انشأتها وزارة المعارف كما قدمنا لاحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة وتولى رآستها رفاعة بك ويباشر تحريرها ابنه على بك فهمى رفاعة مدرس الانشاء بمدرسة الادارة والألسن وقتئذ

وكان المترجم يتولى تحرير ابواب المجلة يعاونه فى ذلك نخبة من العلماء والادباء امثال على باشا مبارك ، وعبد الله بك (باشا) فكرى ، والشيخ حسين المرصفى ، والمسيو بروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم ، واسماعيل بك (باشا) الفلكى ، ومحمد قدرى بك (باشا)، ومحمود باشاالفلكى ، والدكتور محمدبك بدر ، واحمد بك ندا العالم النباتى الشهير ، والشيخ عبد الهادى نجا الابيارى ، وصالح مجدى بك ، وابو السعود افندى محرر جريدة وادى النيل ، والشيخ عثمان مدوخ أحد اساتذة اللغة العربية بالمدارس التجهيزية ، ورأيتُ فيها بعض المباحث الفقهية للشيخ حسونه النواوى ، وبعض شذرات لغوية للشيخ حمزة فتح الله «من افاضل ثغر الاسكندرية» ، فكانت المجلة ميدانا يتبارى فيه فطاحل الكتاب فى ذلك العصر ، وفيها المباحث الطريفة فى العلم والادب والاجتماع والتاريخ والرياضيات ، وكانت تصدر مرتين فى الشهر ، وقد صدر العدد الاول منها فى ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧ هـ (سنة ١٨٧٠) واستمرت تصدر بانتظام فافادت الثقافة فائدة

كبرى ، وقد ذكرها المسيو دور مفتش التعليم العام على عهد اسماعيل فى كتابه (١) فقال عنها « وهذه المجلة كانت توزع مجانا على التلاميذ وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف لانها عودت الطلبة ملكة المطالعة والبحث ، وفتحت صحائفها للنابهين منهم لنشر ابحاثهم القيمة ، فكان ذلك مما يشجعهم و يستحث هممهم على المباحث والجهود المستقلة عن دروسهم »

وقد أصاب المسيو دور فى قوله فان المجلة كانت تنشر مباحث طريفة لبعض نبهاء التلاميذ ، وقد رأيتُ فيها قصائد رقيقة من نظم المرحوم اسماعيل باشاصبرى تتجلى فيها روح الشعر الحديث وكان وقتئذ « الشاب النجيب اسماعيل افندى صبرى أحد تلامذة مدرسة الادارة »

فمنها قصيدة فى مدح الخديوى اسماعيل بالعدد ٢٠ من السنة الاولى (٢) قال فى مطلعها

سَفَرت فلاح لنا هلال سُعود ونمى الغرام بقلبىَ المعمودِ

وقصيدة اخرى بالعدد ٥ من السنة الثانية (٣) يقول فى مطلعها

أغرّتُك الغراء أم طلعةُ البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر

وشعرك ام ليلٌ تراخى سدوله وثغرك ام عقد تنظم من درّ

وأخرى بالعدد ٢٣ من السنة الثانية (٤) استهلها بقوله

لا والهوى العذرىِّ والوجْدِ عَذْلُ عذولى فيك لا يُجْدى

إنى مع الصدِّ وطولِ الجفَا باقٍ على الميثاقِ والعهدِ

و يتبين من ذلك أن مدرسة الشعر الحديثة قد بدأت باكورتها تظهر فى روضة المدارس على عهد رفاعة بك

---

(١) التعليم العام فى مصر ص ٢٥٣ (٢) غاية شوال سنة ١٢٨٧
(٣) ١٥ ربيع الاول سنة ١٢٨٨ (٤) ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٨

وفاة رفاعة بك

واستمر رفاعة بك يشرف على تحرير المجلة ويكتب فيها ويتولى نظارة قلم الترجمة مع مثابرته على التأليف الى ان ادركته الوفاة سنة ١٨٧٣م (سنة ١٢٩٠ هـ) وله من العمر ٧٥ سنة، ونشر نعيه فى الوقائع المصرية، وفى روضة المدارس بالعدد ٧ من السنة الرابعة [١] وكتب نجله على بك فهمى رفاعة[٢] مباشر تحرير المجلة عن نعيه الكلمة الآتية:

« انه ليحزننى ان انقل من عدد الوقائع المصرية الاخير، ما كتبه حضرة محررها الاستاذ الشهير [٣] ايذانا بوفاة والدى رفاعة بك رافع طاب ثراه، وجعل الجنة متقلبه ومثواه، وحيث كانت دموع الاسف على فقده، شاغلة لى عن القيام بحقوقه الواجبة على من بعده، فليس فى وسعى الآن، الا الدعاء له بالرحمة والرضوان»

وكانت المجلة تنشر تباعا آخر مؤلفات المترجم وهو كتاب نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز) فى تاريخ الرسول عليه الصلاة والسلام فاستمرت تنشر تتمة الكتاب بعد وفاة المترجم

صفاته واخلاقه

وصف صالح مجدى بك استاذه رفاعة بك بقوله:

« كان قصير القامة، عظيم، واسع الجبين، متناسب الاعضاء، اسمر اللون، ثابت السكون، وكان فيه دهاء وحزم، وجرأة وثبات عزم، واقدام ورياسة، ووقوف تام على أحوال السياسة، وتفرس فى الامور، وكان حميد السيرة، حسن السريرة»

هذا ما كتبه أقرب الناس اليه واعرفهم باخلاقه وصفاته، ويلوح لنا أن من

---

(١) ١٥ ربيع الآخر سنة ١٢٩٠

(٢) الذى صار على باشا رفاعة وكيل نظارة المعارف العمومية

(٣) الشيخ احمد عبد الرحيم

أخص صفات المترجم الصبر على المكاره وقوة العزيمة والاباء والشهامة ، أما الصبر فقد برهن عليه بما احتمل من مضض النفى فى الخرطوم بشجاعة وثبات ، وتتجلى لك قوة عزيمته من مثابرته طول حياته على التأليف والترجمة على مايقتضيه ذلك من الجهد والعناء ، ومن كونه عرب كتابا من خيرة كتبه وهو فى منفاه ، فالنفس التى لايحول النفى دون مثابرتها على العمل هى نفس يزينها الايمان ومضاء العزيمة ، ورفاعة بك فى عمله بمنفاه يشبه الفيلسوف الفرنسى (كوندورسيه) الذى ألف وهو مطارد كتابا من خيرة مؤلفاته .

ومن أخص مزايا الفقيد كما قلنا الشمم والاباء والشهامة ، وقد تكون هذه المزايا مما عرقل تقدمه فى مناصب الحكومة ، اذ أنه على ماعرف به من عظيم الكفاءة لم يتجاوز « نظارة قلم الترجمة » بوزارة المعارف العمومية ، و « نظارة قلم الترجمة » على مالها من المكانة العلمية أقل ممايستحقه رفاعة بك من رفيع المناصب ، وكذلك يلاحظ انه لم ينل رتبة الباشوية مع أن اقرانه ومن هم دونه مرتبة ومنزلة نالوها ، ولايمكن تعليل كل ذلك من ناحية الكفاءة والجدارة فان كفاءة رفاعة بك كانت منقطعة النظير ، وجدارته معترف بها من الجميع ، فبقاؤه فى « نظارة قلم الترجمة » وعدم بلوغه مرتبة الوزارة وهى النهاية التى يتطلع اليها من ينتظمون فى سلك المناصب الحكومية لا بد ان يكون ذلك راجعا الى ما اتصف به رفاعة بك من الشمم والاباء ، فان هذه الصفات على كونها من اسمى الفضائل ليست محببة الى الرؤساء وولاة الأمر ولاترغبهم كثيرا فى اصحابها ولا تميل بهم الى اسناد المناصب الرفيعة اليهم

واشتهر رفاعة بك أيضا بالكرم والجود ، والزهد فى الفخفخة والخيلاء ، وفى ذلك يقول تلميذه صالح بك مجدى « وكان فيه زيادة كرم وسماحة ، ومزيد بلاغة وفصاحة ، كثير التواضع جم الأدب ، محبا للخير ، وكان كلما ارتقى الى اسنى المناصب وجلس على اسمى المراتب ازداد تواضعه للرفيع والوضيع ، وتضاعف سعيه فى قضاء حوائج الجميع ، ولم يغتر بزينة الدنيا وزخرفها ، وكان قليل النوم كثير الانهماك فى التأليف والتراجم حتى انه ما كان يعتنى بملابسه »

وطنيته

لقد أشربت نفس رفاعة بك الوطنية منذ نعومة اظفاره ، تلقاها من ايمانه الصادق (وحب الوطن من الايمان) ومن فطرته السليمة وحبه للخير ، وقد استثار رحيله عن الديار تلك العاطفة الشريفة ، فحركت الغربة فى نفسه الحنين الى الوطن ، وجادت قريحته باشعار تدل على وطنية عميقة ، ولا غروفا العواطف الانسانية تنشأ فى قرارة النفس ثم تبدو وتظهر كلما استثارتها الحوادث والمناسبات

وكان لاقامة رفاعة بك فى باريس أثر كبير فى تكوين وطنيته ، فقد رأى فى تلك الديار مظاهر اخلاص الفرنسيين لوطنهم وشهد ثورة الشعب سنة ١٨٣٠ ورأى مفاداة الناس للوطن و بذلهم أرواحهم ودماءهم فى سبيله ، فاثرت هذه المشاهد الرائعة فى نفسه الحساسة وصادفت منها موضع الاعجاب والاقناع ، وغرست فى قلبه الفضائل والمبادئ الوطنية التى كان يميل اليها بفطرته الطيبة ، وانك لتلمح ضوء الوطنية الساطع من قصيدة له بباريس قالها فى الحنين الى مصر وأهلها والاشادة بذكرها ، قال فيها :

ناحَ الحمام على غصون البانِ ... فأباح شيمةَ مغرمٍ ولْهان
ماخلتهُ مذ صاح الا أنه ... اضحى فقيدَ أليفه ومعانى
وكأنه يُلقى الىَّ اشارةً ... كيف اصطبارى مذ نأى خلانى
مع اننى والله مذ فارقتهم ... ماطاب لى عيشى وَصفْوُ زمانى
لكننى صَبٌّ أصون تَلَهُّفى ... حتى كأنى لست باللهفان
وبباطن الاحشاء نارٌ لو بدت ... جمراتها ماطاقها الثقلان
ابكى دَماً من مهجتى لفراقهم ... واود لو لم تشعر العينان
لى مذهب فى عشقهم وارَيْته ... ومذاهبُ العُشّاق فى اعلان
ماذا علىَّ اذا كتمتُ صبابتى ... حتى لو ان الموت فى الكتمان

وانتقل الى التغنى بمصر وذكر محاسنها فقال :

هـذا لعمرى ان فيها سادةً قـد زُيِّنوا بالحسن والاحسانِ
يايهـا الخافى عليكَ فخارها فاليك ان الشاهد الحسنان
ولئن حلَفتُ بأنَّ مصر لجَنَّةٌ وقطوفهـا للفائزين دوانى
والنيل كوثرها الشهىّ شرابه لأبرُّ كلَّ البرِّ فى أيمانى
دارٌ يحق لهـا التفـاخر سيما بعزيزها جَدوى بنى عثمان

وامتدح محمد على وابراهيم باشعار نهج فيها منهج الاشادة بالمفاخر القومية قال:

من كان مثل أميرنا فقرينه اسكندرٌ او كِسْرَ نُوشِيرْوانِ
فى وجهه النصرُ المبينُ على العدا لاحت بشائره لـكل معانى
فى كَفِّه سيفانِ سيفُ عنايةٍ والشّهمُ ابراهيمُ سيفٌ ثانى(١)

وله قصائد ومنظومات وطنية قالها فى مناسبات مختلفة ، فتأمل فى القصيدة الآتية تجدها تعبر عما يجيش فى نفسه من انبل العواطف ، وقد قدمها هو للقارئ بقوله « وقلتُ أيضا وطنيةً »

مذهب

ياصاح حُبُّ الوطن حلية كل فطن

دور

محبةُ الاوطان من شُعَب الايمان
فى انفر الاديان آيةُ كل مؤمن

مذهب

ياصاح حُبُّ الوطن حلية كل فطن

دور

مساقط الرءوس تلذ للنفوس

---

(١) تخليص الابريز ص ٤٨

تذهب كلّ بوس عنا وكلّ حزن

دور

ومصر ابهى مولدِ لنا وازهى محتد
ومربعٍ ومعهدِ للروح أو للبدن
شُدت بها العزائم نيطت بها التمائمُ
لِطَبْعنا تلائم فى السر او فى العلن
مصرُ لَها أيادى عُليا على البلاد
ونخرُها يُنادى ما المجد الا ديدنى
الكونُ من مصراقتبسْ نوراً وماعنه احتبس
وما نخارها التبسْ الا على وَغْدٍ دَنى
نخرُ قديمٌ يؤثَرُ عن سادة ويُنشرُ
زهور مجـد تنثَر منهـا العقول تجتنى
دارُ نعيم زاهيـهْ ومعـدنُ الرفاهيهْ
آمرةٌ وناهيهْ قدْما لـكل المدن
تحنو على القريب تحلو لدى الغريب
ترنو الى الرقيب شزراً بسهم الاعين
طولَ المدى وَلودُ وللهـدى ودود
ما أمّهـا جحود الا انثنى بالوهن
قوة مصر القاهرهْ على سواها ظاهرهْ
وبالعمار زاهره خُصّت بذكرٍ حسَن

منازل رحيبة وبالمنى خصيبة
وللهنا مجيبة وهى اعز موطن

عُلومُها حقائق فهومها دقائق
رموزها رقائق تحلو لاهل الفِطَن

اما ترى الاهالى ترقى ذرا المعالى
هم سادةٌ موالى جمالُ وجهِ الزمنِ

ابناؤها رجال لم يثنهم مجال
ولا بهم أوجال فى ليل وقع دجنِ

وذوقهم مطبوع وقدرهم مرفوع
وصيتهم مسموع بِشَرَف التمدن

وجُندُهم صنديدُ وقلبه حديدُ
وخصمه طريد بل مُدرجٌ فى كفن

كل فتى جليل يعشق وادى النيل
كم فيه من نزيل يقول مصر وطنى

فان ترم اسعادا يا سعد دع سُعادا
ولذ بمن اعادا لمصر فخرها السنى

صادق وعدٍ محسن(١) وذكره يُستحسنُ
ولا تزال الألسنُ تشدو بذكر المحسن

رَبُّ عُلاً وحَسب عن جده وعن أب

---

(١) الاشارة هنا الى الخديوى اسماعيل

فقل لمصر انتسبى　　الى جزيل المنن
ادامه رب العلا　　أميرَ عز وَوَلا
بجاه طه من علا　　بالعدل جور الفتن(١)

وقال يصف الجيش المصرى ويشيد بمفاخره

نُنَظِّم جندَنا نَظْما　　عجيبا يُعجز الفهما
بأُسْدٍ تُرعب الخصما　　فمن يقوى يناضلنا

رجالٌ مالها عددُ　　كمال نظامها العُددُ
حُلاها الدرع والزردُ　　سنان الرمح عاملنا

وهل لخيولنا شَبهٌ　　كرائم ما بها شُبهٌ
اليها الكل منتبهٌ　　وهل تخفى اصائلنا

لنا فى الجيش فرسان　　لهم عند اللِّقا شان
وفى الهيجاء عنوان　　تهيم به صواهلنا

فيها الميدان والشقرا　　سقت أُذْن العدا وَقْرا
كأنا نرسل الصقرا　　فمن يبغى يراسلنا

مدافعنا القضا فيها　　وحكم الحتف فى فيها
واهونها وجافيها　　تجود به معاملنا

لنا الرؤساء ابطالُ　　رجالٌ أينما جالوا
بصولة عيلم صالوا　　يفوق الحد صائلنا

لنا فى المُدْن تحصينُ　　وتنظيمٌ وتحسينُ
وتأييدٌ وتمكينُ　　منيعات معاقلنا

---

(١) مواقع الأفلاك فى وقائع تلماك ص ١٢

ولعمرى ان هـذه الابيات لمن خير ماقيل فى وصف الجيش المصرى ، ولا شك ان رفاعة بك قد استلهم شعره من مفاخر الجيش فى عصر محمد على ، فهو يصور العصر الذى عاش فيه تصويرا صحيحا لا مبالغة فيه ولا اغراق ، وان قصيدته لتشبه ان تكون صورة يخيل للقارئ انه يلمح فيها كتائب الجيش المصرى تسير الى ميادين الحرب تحف بهـا أعلام النصر والظفر ، وتخوض غمار القتال بقلوب ملؤها الشجاعة والاقدام ، وتجابه الاخطار قوية الايمان ثابتة الجنان ، مجهزة بالسلاح والمدافع «تجود بها معاملنا» تلك التى كانت قائمة فى عصر محمد على ، ولولم يشهد رفاعة بك مفاخر الجيش المصرى فى ذلك العصر لما جادت قريحته بهـذا الشعر ، وهكذا يتأثر الشاعر والاديب بالعصر الذى يعيش فيه والبيئة التى تحيط به ويصور الحياة على عهده ، فكأنما هو قطعة من عصره ، او مرآة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية والاجتماعية ومظاهر الحالة الفكرية والخلقية

وانك لتلمح ايضا عظمة الجيش المصرى من قول رفاعة بك فى قصيدة اخرى يخاطب فيها الجنود :

يايها الجنـودُ	والقادة الاسودُ
إن أمكم حسودُ	يعودُ هامِى المدمعِ
فكم لَكُمْ حروبُ	بنصركم تؤوبُ
لم تَثْنِكم خطوبُ	ولا اقتحامُ مَهْيعِ
وكم شهدتم من وغى	وكم هزمتم مَن بَغَى
فمن تعدّى وطغى	على حماكم يُصْرعِ

وتتجلى لك روحه الوطنية فى تعريبه نشيد فرنسا القومى (المارسليز) ، فان النفس لاتميل الا الى ماهو محبب اليها ، فهـذا النشيد قد استثار ولاشك اعجاب رفاعة بك حتى مالت نفسه الى تعريبه واظهار ما احتواه من العواطف الوطنية الفدائية فى حلة عربية قشيبة ، وتتبين ايضا وطنيته من انك تراه يكثر من عبارات

الوطن وخدمة الوطن والوطنية فى مؤلفاته ، وهو أول من استعمل هـذه الـكلمات فى نثره ونظمه ، فتأمل فى فصول كتابه الممتع (مناهج الألباب المصرية) تجد انه جعل عنوان مقدمته « فى ذكر هذا الوطن وماقاله فى شأن تمدينه ارباب الفطن » وتجده يقول عن سبب تأليف الكتاب انه القيام بواجبه نحو الوطن (ص ٤) ويتكلم عن الترغيب فى حب الوطن (ص ٧) ويشيد بمفاخر مصر فى فصول متعددة ، على انه لا يتملق الجماهير فيما يكتب بل يخلص النصح والارشاد لبنى وطنه ، وبذلك برهن على وطنية صادقة خالية من شوائب التغرير والتضليل

وافرد فى كتابه (المرشد الامين للبنات والبنين) فصلا بعنوان (فى ابناء الوطن وما يجب عليهم) وتكلم عن لزوم اتحاد الكلمة بين اهل الوطن « لان الله سبحانه وتعالى انما اعدهم للتعاون على اصلاح وطنهم ، وان يكون بعضهم بالنسبة الى بعض كاعضاء العائلة الواحدة ، فكأن الوطن انما هو منزل آبائهم وامهاتهم ومحل مرباهم فليكن ايضا محلا للسعادة المشتركة بينهم » ، وقال ايضا « فالوطنى المخلص فى حب الوطن يفدى وطنه بجميع منافع نفسه ، ويخدمه ببذل جميع مايملك ، ويفديه بروحه ، ويدفع عنه كل من تعرض له بضرر كما يدفع الوالد عن ولده الشر ، فينبغى ان تكون نية ابناء الوطن دائما متوجهة فى حق وطنهم الى الفضيلة والشرف ، ولا يرتكبون شيئا مما يخل بحقوق اوطانهم واخوانهم فيكون ميلهم الى مافيه النفع والصلاح ، كما ان الوطن نفسه يحمى عن ابنه جميع مايضر به »

وضرب المثل بما بلغته الأمة الرومانية من العظمة حينما كان ابناؤها مستمسكين باهداب الوطنية وقال (ص ٩٥) « فمن هذا يفهم أن امة الرومانيين كانت متشبثة بحب وطنها ، ولهـذا تسلطت على بلاد الدنيا بأسرها ، ولما انسلخت عنها صفة الوطنية حصل الفشل بين اعضاء هذه الملة وفسد حالها وانحل عقد نظامها »

(استدراك)

سقطت كلمة (الهامة) من السطر ١٦ بالصفحة ٤٩٨ فلزم التصحيح ، والصواب هكذا « كان قصير القامة ، عظيم الهامة »

اسلوبه

من التأمل فيما نقلناه من شعر رفاعة بك ونثره نستطيع أن نتبين مبلغ تقدم اللغة والاسلوب فى إنشائه تقدما نسبيا عن العصر الذى سبقه ، وخاصةً اذا قارناه باسلوب رجال المدرسة القديمة كالجبرتى والمهدى والخشاب وغيرهم ، وهذا التقدم هو نتيجة النهضة الادبية والعلمية التى ظهرت فى عصر محمد على باشا واعقبت حركة الركود التى اصيبت بها العلوم والآداب فى عصر المماليك(١)

فاسلوب رفاعة بك قد تحلل من قيود الركاكة القديمة ، وامتاز بصحة العبارة والتأثر من الثقافة الاوروبية ، وهو وان كان قد تقيد فى بعض المواطن بقيود السجع المتكلف والبديعيات اللفظية الا انه خطا باللغة والانشاء خطوة فى طريق التقدم ، وفى بعض شعره ونثره تلمح روح البلاغة ونسيم الترسل والسهل الممتنع

فرفاعة بك هو اول من نهض بالشعر والادب فى العصر الحديث ، ويعدُّ شعره دور الانتقال الى دولة الادب الجديدة التى حمل لواءها البارودى واسماعيل صبرى وشوقى وحافظ ومطران وغيرهم من اعلام الادب ، نعم اننا اذا وضعنا شعره الى جانب « شوقيات » امير الشعراء « ووطنياته » لجاء فى المرتبة الثالثة او الرابعة من جهة الروح والاسلوب والبلاغة وابتكار المعانى ، ولكن يجب الا ننسى ان رفاعة بك نشأ فى عصر كانت اللغة العربية وآدابها فى دور تأخرها واضمحلالها ، فله على النهضة الادبية والعلمية فضل لاينكر ، واغلب الظن انه لو تفرغ للادب والشعر دون التعريب والتأليف العلمى لبلغ فى دولة الادب شأوا اعظم مما ادركه

تلاميذ رفاعة بك

ان الكلام عن رفاعة بك يستتبع الكلام عن تلاميذه الذين تخرجوا على يده فى مدرسة الألسن، لانهم ثمرة هذه المدرسة وأثرها الخالد ، على ان من الواجب

---

(١) انظر الجزء الاول ص ٤٤.

ان ننوه بانه من يوم ان تولى منصب الترجمة فى مدرسة الطب ، ثم فى مدرسة المدفعية بطره ، صار له تلاميذ ومريدون ، وممن تلقوا عنه فى مدرسة الطب الدكتور محمد علي البقلي باشا ، فقد نقل عنه صالح مجدى بك (١) أنه اخذ هو وزملاؤه عن رفاعة بك بعض العلوم الأولية بمدرسة الطب بابى زعبل سنة **١٢٤٧هـ** وانه شهد له شهادة اوجبت اختياره ضمن اعضاء البعثة الطبية الاولى التى ارسلت الى فرنسا ، ومعلوم ان البقلى باشا هو من اعلام الطب فى عهد محمد على وعهد اسماعيل ، ولم يفتأ بعد عودته واسناد كبرى المناصب اليه يذكر لرفاعة بك فضله عليه

ثم جاء عهد مدرسة الألسن ، فكثر عدد تلاميذه وتخرج على يديه نخبة من العلماء و الادباء ممن اضطلعوا بمهمة التعريب والترجمة والانشاء سواء فى الادب والتأليف أوفى دواوين الحكومة .

وقد ذكر السيد صالح مجدى بك اسماء النوابغ والنابهين منهم و رتبهم الى ثلاث طبقات بحسب دخولهم المدرسة

فذكر من الطبقة الأولى عبد الله ابو السعود افندى ، وهو العالم الناثر محرر جريدة وادى النيل اول صحيفة سياسية حرة ظهرت فى مصر على عهد اسماعيل ، واكبر رجال قلم الترجمة ثم ناظره ، ومدرس التاريخ العام بدار العلوم ، وصاحب المباحث الشيقة فى مجلة روضة المدارس

وخليفة افندى محمود مترجم كتاب (اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات فى بلاد اوروبا) و كتاب (اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شارلكان) فى ثلاثة مجلدات ، ومحمد افندى مصطفى البياع الموظف بالتحريرات الافرنجية ، ومحمد افندى عبد الرازق مترجم كتاب (غاية الارب فى خلاصة تاريخ العرب) للمسيو سديليو ، وعبد الجليل بك من كبار موظفى المعية السنية ، وشحاته عيسى بك من نوابغ البعثات العلمية وناظر مدرسة اركان حرب فى عهد اسماعيل ، وابراهيم بك مرزوق

---

(١) فى رسالته حلية الزمن ص ١١

الشاعر الاديب، وحنفي افندى هند من نوابغ من تخصصوا في الفنون الحربية بفرنسا، وحسن بك فهمي المصري وكيل سكك الحديد بالوجه القبلي ثم القاضي بالمحكمة المختلطة واحمد بك عبيد وكيل المحكمة التجارية بالقاهرة ثم قاض بمحكمة الاسكندرية المختلطة وله تراجم في القوانين العسكرية وترجم تاريخ بطرس الاكبر

ورمضان افندى عبد القادر مترجم بديوان البحرية وله تراجم عسكرية عديدة، ومحمد افندى الحلوانى، وعبد الرحمن افندى احمد وله تراجم طبية وتاريخية لم تطبع، وحسن افندى الجبيلي مترجم بديوان الاوقاف وله تراجم في التاريخ، وسعد افندى مجدى، ومحمد افندى السمسار مترجم ضبطية مصر وله تراجم غير مطبوعة، ومحمد افندى على القوصي مأمور التذاكر الافرنجية باسكندرية، وحسين افندى على الديك مدرس الحساب بمدرسة المحاسبة وله كتاب قيم في مسك الدفاتر، والسيد عثمان افندى الدويني قاضي محكمة الواسطة الشرعية، وحسن افندى الشاذلي من خريجي البعثات، واحمد افندى عياد المترجم باسكندرية، وعطيه افندى رضوان، ومصطفى افندى رضوان كاتب المجلس الصحي ومدرس اللغة الفرنسية بمدرسة الطب، ومحمد افندى زهران مدرس بمدرسة الطب

ومن الطبقة الثانية وهي التي دخلت المدرسة سنة ١٢٥٢هـ: عبد الله بك السيد من نوابغ البعثات وقد ترجمنا له فيما يلي، ومصطفى بك السراج وقد شرع في عمل قاموس فرنسي عربي لم يتمه، وصالح مجدى بك صاحب رسالة (حلية الزمن) في ترجمة رفاعة بك ومؤلف كثير من الكتب، ومحمد رشدى بك، ومحمد افندى الطيب مدرس اللغة الفرنسية بمدرسة المحاسبة والمساحة، ومحمد افندى البحيرى مدرس اللغة الفرنسية بالمدرسة التجهيزية، ومحمد افندى سليمان مدرس اللغة الانجليزية بالمدارس الحربية وأول من برع في الترجمة من الانجليزية، وخورشد افندى فهمي من خريجي البعثات، وعلى افندى سلامة مدرس اللغة الفرنسية والجغرافية، وحسين خاكي افندى، وعبد السلام سلمى افندى، وعلى افندى شكرى، وقاسم افندى محمد، ومحمد افندى لاظ، ومصطفى افندى صفوت، ومصطفى افندى الكريدلى، ومحمد

افندى زيور ، واحمد افندى صفى الدين ، وعثمان فوزى باشا ، والسيد عمارة افندى ، ومنصور عزمى افندى ، وبحر افندى احمد ، وحسن افندى قاسم ، وقاسم افندى اسعد ، واسماعيل سرى افندى ، وحسن عيسوى افندى ، والدكتور مصطفى ابو زيد ومراد مختار افندى ، وحسن افندى وفائى الخطاط الشهير

ومن الطبقة الثالثة : محمد قدرى باشا العالم المشرع الكبير صاحب الكتب الثلاثة الخالدة فى جمع وترتيب أحكام الشريعة الاسلامية فى المعاملات المدنية والاحوال الشخصية والوقف على مذهب الامام الاعظم ابى حنيفة وصوغها فى قالب القوانين الحديثة ، وهى كتاب (مرشد الحيران الى معرفة احوال الانسان) فى المعاملات الشرعية ، وكتاب (الاحكام الشرعية فى الاحوال الشخصية) وكتاب (قانون العدل والانصاف فى القضاء على مشكلات الاوقاف) وهذه الكتب الثلاثة هى مرجع رجال القضاء والقانون الى اليوم والى ماشاء الله فى المحاكم الاهلية والشرعية والمختلطة ، وقدرى باشا هو أيضا مؤلف كتاب (تطبيق ماوجد فى القانون المدنى موافقا لمذهب ابى حنيفة) ووزير الحقانية ثم المعارف فى عهد توفيق باشا

ومحمد عثمان جلال بك الشاعر الناثر والاديب الكبير صاحب كتاب « العيون اليواقظ » عربه عن لافونتين ورواية « الشيخ متلوف » ورواية « بول وفرجينى »

ومحمد شيمى بك مأمور التشهيل بالاسكندرية ثم قاض فمستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة (١)

وعبد السميع افندى عبد الرحيم ، واحمد خير الله بك المترجم بمحافظة الاسكندرية ثم قاض بالمحكمة المختلطة ، واحمد محمود افندى ، وبحر عبدالله افندى ، وعبد الله محفوظ افندى ، وحسن يوسف افندى ، وعمر صبرى افندى ، وعلى رشاد افندى ، واحمد حلمى افندى ، وعبد الله يوسف افندى ، ومتولى محمود افندى مترجم ديوان الاسكندرية

هذا وقد ذكر العلامة محمد قدرى باشا احد خريجى مدرسة الألسن ان تلاميذ

---

(١) كما جاء فى الكتاب الذهبى للمحاكم المختلطة

هـذه المدرسة قد عربوا نحو الفى كتاب أو رسالة فى مختلف العلوم والفنون ، وان جميع الذين نبغوا فى الترجمة والتعريب على عهد محمـد على واسماعيل هم تلاميذ رفاعة بك أو تلاميذ تلاميذه ، وظاهر مما كتبه قدرى باشا(١) عن هـذه المدرسة أن مستوى الترجمة قـد هبط فى مصر بعد اقفالها ، ولم يخلفها معهد آخر لتخريج العلماء الا كفاء فى التعريب ، ولذلك استعانت الحكومة كما يقول قدرى باشا بالاجانب ، واقترح لهـذه المناسبة انشاء مدرسة خاصة لتعليم اللغات الاوروبية والشرقية ، والذى نعرفه ان هـذا الاقتراح لم يلق تنفيذا وتقديرا ، فالمعروف ان مدرسة الالسن بعـد أن اقفلت فى عهد عباس باشا اعيدت فى عهد اسماعيل سنة ١٨٦٨ باسم مدرسة الادارة التى كانت تسمى مدرسة الادارة والالسن ، ثم عرفت بمدرسة الادارة فقط ، ثم تطورت منذ سـنة ١٨٨٦ الى مدرسة الحقوق ، فمدرسة الحقوق هى خليفة مدرسة الالسن ، ولكن فن الترجمة وما يقتضيه من تخريج المترجمين العلماء الا كفاء لم يكن موضع العناية لا فى مدرسة الادارة ولا فى مدرسة الحقوق

مؤلفاته

نشأ رفاعة بك فى فجر النهضة العلمية والادبية الحديثة ، وكان هو اول من حمل لواءها ، استوفى العلوم الازهرية ونال حظا كبيرا من العلوم العصرية الاوروبية ، فكان منهاجه العلمى أن ينقل الى بنى وطنه علوم الافرنج فى التاريخ والجغرافيـة والرياضيات والقانون وكان طليعة حركة التعريب فى النهضة الحديثة

وقد اقترن انتاجه بنزعة وطنية قوية تلقاها كما اسلفنا من فطرته الطيبة وكرم اخلاقه وما اثارته مشاهد الثورة الفرنسية سنة ١٨٣٠ فى نفسه من عواطف وطنية صادقة ، فاتجه انتاجه الى تهذيب النفوس وارشادها الى مافيه رفعة الوطن ومجده

وكانت له نفس شاعرة جادت بشعر تترقرق فيه معانى الوطنية ، وله قلم جمع بين الادب العربى والثقافة الاوروبية ، ولم يقف انتاجه عند حدود التعريب بل ألف وابتكر صحائف وكتبا ممتعة فى التاريخ والادب والتربية والاخلاق

---

(١) فى كتابه (معلومات جغرافية) المطبوع سنة ١٨٦٩ .

ويضاف الى هذه الخصائص والمزايا ايمان ثابت وعقيدة دينية صادقة ، وعزيمة ماضية ، وصبر طويل ، وجلد على العمل انفرد به عن النظير وكان له اكبر الاثر فى خصب انتاجه العلمى والادبى ، فمن هـذه العناصر تتكون شخصية رفاعة بك من ناحية التأليف والتعريب ، وسنذكر هنا على ضوء هـذه الملاحظات مؤلفاته ومعرباته ، وسنجتهد فى ترتيبها بحسب ظهورها

(١) فأول تآليفه رحلته الى فرنسا المعروفة (بتخليص الابريز فى تلخيص باريز) تتضمن مشاهداته فى رحلته وما انطبع منها فى ذهنه اثناء اقامته بباريس ، وفيها وصف احوال فرنسا ونظام الحكم فيها واخلاق اهلها وعاداتهم وعلومهم وفنونهم وآدابهم وعقائدهم وصنائعهم واحوالهم المعاشية والسياسية والاجتماعية ، وفى هذه الرحلة يتبين اتجاه المترجم الى الابحاث التاريخية والجغرافية ، فانه يجعلها الغاية الأولى من مشاهداته ، فما من بلد مر به أو أقام فيه الا ويذكر لمعة من ماضيه وحاضره ، ويتبين منها ايضا وفرة مادته من الادب واللغـة ، وميله الى التعمق فى البحث والاستقصاء ، ودقة ملاحظاته ونفاذ بصيرته ، وتمسكه باهداب الدين مع سعة الفكر والرغبة فى الاخذ باسباب تقدم الأمم الأوروبيـة ، ويدلك على شغفه بالعلم اسهابه فى وصف علوم فرنسا وعلمائها ومكاتبها وجمعياتهـا العلمية ومدارسها ومعاهدها وثروتها العلمية من الـكتب والمجلات والصحف

وهذه الرحلة كما قدمنا هى اول رحلة مصرية باوروبا فى تاريخ مصر الحديث ، وقد طبعت ببولاق وسر لها محمد على سرورا كبيرا وامر بقراءتها فى قصوره وتوزيعها على الدواوين والوجوه والاعيان وقراءتها فى المدارس المصرية

(٢) وعرب وهو فى باريس كتاب (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الاوائل والاواخر) طبع ببولاق سنة ١٨٣٣ بعد عودة المترجم من فرنسا — (٣) واخذ وهو فى فرنسا يعرب كتاب المسيو ملتبرون Maltbrun فى الجغرافية فعرب الجزء الاول منه بعنوان (الجغرافية العمومية) ثم عرب فى مصر جزءا آخر — (٤) وله فى الجغرافية العمومية كتاب آخر اسمه الـكنز المختار فى كشف الاراضى والبحار — (٥) وكتاب

(التعريبات الشافية لمريد الجغرافية) وهو كتاب ضخم عربه عن عدة كتب فرنسية واضاف اليه ايضاحات واسعة و يتناول جغرافية مصر وسائر بلدان العالم وقد عرضه على محمد على باشا فأمر بطبعه ونشره لتعميم نفعه وطبع ببولاق سنة ١٨٣٨

(٦) وله فى الرياضيات والطبيعيات كتاب (مبادئ الهندسة) عربه عن لوجندر وطبع سنة ١٨٤٣ وكتاب (تعريب المعلم فرادر) فى المعادن النافعة لتدبير المعايش طبع سنة ١٨٧٣ ـ (٨) وعرب وهو بالخرطوم كتاب (مواقع الافلاك فى وقائع تليماك) لمؤلفه لافونتين وقد تكلمنا عنه

(٩) وله فى النحو كتاب (جمال الاجرومية) طبع سنة ١٨٦٣ ـ (١٠) والتحفة المكتبية فى تقريب اللغة العربية ، جمع فيها قواعد النحو ، طبعت سنة ١٨٦٨

(١١) وظهر له سنة ١٨٦٦ (تعريب القانون المدنى الفرنسى) المعروف بالكود (قانون نابليون) وهو عمل ضخم يدل على علو كعب رفاعة بك فى العلم والفقه والقانون والتعريب وقد اسلفنا الكلام عنه ـ (١٢) وعرب (قانون التجارة الفرنسى) وظهر سنة ١٨٦٨

(١٣) وفى سنه ١٨٦٩ ظهر كتابه الممتع (مناهج الالباب المصرية فى مباهج الاداب العصرية) وهو فيما نعلم اجل مؤلفاته واوفاها بيانا واعمها نفعا واغزرها مادة ، يشتمل على وصف مصر وبيان حضارتها وأخلاقها وعلومها وصنائعها وحكومتها وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ويتضمن مباحث قيمة فى التاريخ والجغرافية والآداب والاخلاق والمواعظ والحكم ، وفيه نبذ ممتعة عن الحقوق والواجبات الوطنية

(١٤) روضة المدارس ، وهى المجلة التى تولى الاشراف على تحريرها وله فيها مباحث قيمة فى الادب والتاريخ وقد سبق الكلام عنها

(١٥) وظهر له سنة ١٨٧٢ كتابه القيم (المرشد الامين للبنات والبنين) وهو كتاب إخلاق وتربية للمتعلمين والمتعلمات وقد تكلمنا عنه واقتبسنا منه ـ (١٦) وظهر له سنة ١٨٦٥ الجزء الاول من كتاب (انوار توفيق الجليل فى اخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل) طبع ببولاق فى تاريخ مصر ولم يصدر منه الا الجزء الاول وفيه تاريخ مصر القديم وتاريخ العرب قبل الاسلام ، ويقول صالح مجدى بك انه اخرج الجزء

الثانى ولكننا لم نعثر عليه وليس فى دار الكتب الا الجزء الاول ـ (١٧) وله رسالة (الكواكب النيرة ، فى ليالى افراح العزيز المقمرة) فى تهانى الخديوى اسماعيل بافراح انجاله ـ (١٨) وآخر مؤلفاته كتاب (نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز) وهو تاريخ الرسول عليه الصلاة والسلام وقد نشر تباعا فى مجلة روضة المدارس بالعدد ٤ من السنة الثالثة والاعداد التالية من السنة الثالثة والرابعة والخامسة

وعدا هذه المؤلفات قد نقح وهذب مؤلفات اخرى لتلاميذه ، وذكر صالح مجدى بك فى رسالته حلية الزمن مؤلفات اخرى لرفاعة بك لم تطبع ولم اعثر عليها ، وهى (رسالة فى الطب) و (مختصر معاهد التنصيص) و (مجموع المذاهب الاربعة) و (شرح لامية العرب) و (ترجمة منتسكيو)

وعن (ترجمة مونتسكيو) قرأتُ للاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان رسالة يقول فيها انه سمع من ابن رفاعة بك ان اباه عرب هذا الكتاب ، ورأيتُ فى قصيدة رفاعة بك فى (مناهج الالباب المصرية) مايؤيد ذلك إذ يقول عن نفسه

على عدد التواتر معرباتى تفى بفنون سِلْم او جهاد
و (ملطبرون) يشهد وهو عدلٌ و (منتسكو) يقر بلا تمادى (١)

هذا ماوسعه المقام فى الكلام عن مؤلفات رفاعة بك ، عليه الرحمة والرضوان

على مبارك باشا

هو العالم الجليل ، ابو التعليم فى عصر اسماعيل وتوفيق ، وناظر المعارف والاشغال والاوقاف ، وصاحب الخطط التوفيقية

كانت البعثة التى التحق بها بعثة عسكرية هندسية تخصصت فى العلوم الحربية والرياضيات ، ولكن نبوغه اتجه الى التربية والتعليم والى الجغرافية والتاريخ اكثر من اتجاهه الى الحربية والرياضيات ، ولذلك جعلناه قرينا لرفاعة بك

وقد عاد من البعثة بعد وفاة محمد على باشا ، ونظراً لأن معظم سنى حياته العلمية والقومية اقترنت بعصر اسماعيل وتوفيق فقد ارجأنا ترجمته والكلام عنه الى الجزء الرابع

---

(١) مناهج الالباب ص ٢٦٦ طبعة ثانية

الهندسة والرياضيات

مصطفى بهجت باشا

المعروف اثناء دراسته بمصطفى محرجى افندى ، هو مصطفى بهجت باشا المهندس المشهور ، تلقى علومه بمدرسة قصر العينى ، وكانت اعدادية للمدارس الحربية والعالية(١) وأقام بها ثلاث سنوات ، ثم التحق بمدرسة المهندسخانة بالقلعة ، وسافر الى فرنسا ضمن اعضاء البعثة الأولى ، وأقام بباريس عشر سنوات أتقن فى خلالها العلوم الرياضية والفنون الهندسية ، ولما أتم دروسه عاد الى مصر فعين ناظرا لمدرسة قصر العينى المذكورة ، وبقى فى هذا المنصب سنتين ، ونال رتبة بكباشى ، ثم عين ناظرا لمدرسة المدفعية بطره ، ثم باشمهندس الجفالك ، وعهد اليه وضع مشروع لتسهيل الملاحة فى الشلالات ، فقدم مشروعا فى هذا الصدد لم ينفذ ، ونال رتبة ميرالاى ، ثم اشترك مع المهندس الفرنسى موجيل بك فى بناء القناطر الخيرية ، ثم عين مفتشا لهندسة المنوفية والغربية ، وعهد اليه عباس باشا بوضع تصميم لتجديد الجامع الاحمدى بطنطا فقام بمهمته خير قيام الى أن تم بناؤه فى عهد اسماعيل ، وباشر انشاء السكة الحديدية من بنها الى كفر الزيات سنة ١٨٥٧ ونال رتبة لواء ، وعين مفتش هندسة الوجه القبلى مدة ثلاث سنوات ثم اعتزل العمل

وفى عهد الخديوى اسماعيل عين مفتشا لهندسة الوجه القبلى ثانيا ، ومن أعماله أنه خطط تصميم الترعة الابراهيمية من أسيوط الى جسر كوم الصعايدة الفاصل بين مديريتى المنيا وبنى سويف(٢) ، وعين ناظرا لديوان المدارس (وزير المعارف العمومية) من سبتمبر سنة ١٨٧٠ الى مايو سنة ١٨٧١ ، ثم كلف بالاقامة بالقناطر الخيرية وموالاة مظهر باشا بالرسوم والتفاصيل التى يطلبها منه اثناء اقامة الاخير بباريس مع موجيل بك والاخصائيين من كبار المهندسين الفرنسيين لاصلاح العيون التى ظهر بها خلل بقناطر فرع دمياط الى أن ادركته الوفاة ، ويعد من كبار المهندسين فى تاريخ مصر الحديث

---

(١) انظر ص ٣٦٧ (٢) الخطط التوفيقية ج ١٦ ص ٥٦

محمد بيومى افندى

كبير الاساتذة بمدرسة المهندسخانة ، ومن نوابغ علماء الرياضيات ، ولد بمصر ، وأصله من (دهشور) بمديرية الجيزة ، ذهب الى فرنسا ضمن البعثة الأولى سنة ١٨٢٦ وأقام بها تسع سنوات اتقن فى خلالها دراسة الهندسة والعلوم الرياضية فى مدرسة الهندسة ونال اجازتها (الدبلوم) ونبغ فى الرياضيات

ولما عاد من فرنسا عين مدرسا بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، وكان استاذا ومرجعا لكثير من نوابغ المهندسين المصريين ، امثال سلامة باشا ، ومحمود باشا الفلكى ، وطائل افندى ، ودقلة افندى ، واسماعيل باشا محمد ، وعامر بك حمودة ، وغيرهم ، وصار كبير الاساتذة بمدرسة المهندسخانة فى عهد نظارة المسيو لامبير بك فكان « المرجع اليه والمعول عليه » كما يقول على باشا مبارك فى ترجمته (١)

ثم انتقل من التدريس فى مدرسة المهندسخانة الى قلم الترجمة بديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية) واشترك مع رفاعة بك رافع فى العمل

وله جملة مؤلفات فى الهندسة والرياضيات ومنها كتاب (جر الاثقال) وكتاب (الجبر والمقابلة) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٠ ، و (ثمرة الاكتساب فى علم الحساب) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٦ ، وكتاب (الهندسة الوصفية) فى مجلدين ، و (جامع الثمرات فى حساب المثلثات) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٧

وعين فى عهد عباس باشا الاول مدرسا للحساب بالمدرسة الابتدائية بالخرطوم وتوفى بها فى منفاه

قال عنه على باشا مبارك «وكان من أعظم رجال تلك الرسالة ، حسن الاخلاق ، مهيبا جليلا ، ذا رأى حسن »

محمد مظهر (باشا)

من تلاميذ البعثة الأولى ، اقام بباريس عشر سنوات ، وتخصص لدراسة

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٦٨

الرياضيات والهندسة ، ونبغ فى العلوم الهندسية والرياضية ، وقد امتدحه المسيو جومار فى رسالته عن اعضاء البعثات وقال عنه « ان نبوغ مظهر افندى فى الرياضيات لما يسترعى النظر (١) » ولما عاد الى مصر عين ناظراً لمدرسة المدفعية (الطوبجية) بطره ، ونال رتبة بكباشى ، وتولى وظائف هندسية متنوعة ، وهو الذى بنى فنار الاسكندرية الكبير القائم بطرف شبه جزيرة رأس التين وهو من اجل اعماله ، و كان وقتئذ مظهر افندى ، واشترك مع المسيو موجيل بك فى بناء القناطر الخيرية ، واختص بالاشراف على انشاء قناطر فرع رشيد ، ونال رتبة ميرالاى ، ونال فى عهد اسماعيل باشا رتبة الباشوية (ميرميران) ، ولما ظهر خلل فى بعض عيون هذه القناطر أرسل الى فرنسا ليجتمع بموجيل بك الذى كان مشرفا على بنائها و بعض الاخصائيين للنظر فى امر اصلاحها

ابراهيم رمضان بك

من كبار المهندسين ، عاد قبل أن يتم دراسة بعض العلوم الرياضية ، وعين فى وظيفة معيد مدرس لمظهر (باشا) ناظر مدرسة المدفعية ، فاستطاع استكمال مانقصه ، ثم عين مدرسا بمدرسة المهندسخانة ببولاق، وله مؤلفات عديدة فى الرياضيات منها (القانون الرياضى فى فن تخطيط الاراضى) طبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٤، وكتاب (اللآلى البهية فى الهندسة الوصفية) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٥، و (المنحة اللدنية فى الهندسة الوصفية) طبع بمطبعة المهندسخانة سنة ١٨٥٢

احمد دقلة بك

هو من بلدة (بسيون) غربية مركز كفر الزيات ، نشأ فى مدارس مصر وارسل ضمن طلبة البعثة الثانية سنة ١٨٢٨ ، وتخصص فى العلوم الرياضية، وعاد سنة ١٨٣٥ وعين معيدا للاستاذ محمد بيومى افندى كبير الاساتذة بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، ثم عين بعد ذلك مدرسا لعلوم الجبر ، وهندسة الرى والقناطر والجسور ، ثم وكيلا

(١) المجلة الأسيوية Journal Asiatique عدد اغسطس سنة ١٨٢٨ ص ١٠٥

للمدرسة مع القائه الدروس بها ، وانتقل سنة ١٨٤٩ الى قلم الهندسة وتوفى سنة ١٨٥٦ قال عنه على باشا مبارك(١) « وأكثر المهندسين الموجودين الآن (سنة ١٣٠٥ هـ) تلقوا عنه ، وكان حسن الالقاء ، يجتهد فى التعليم ، ويحث على الفهم ، وكان من أعظم المهندسين » ، وله من المؤلفات كتاب (رضاب الغانيات فى حساب المثلثات) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٣

احمد طائل افندى

هو من بلدة بلتان قليوبية مركز طوخ ، نشأ نشأته الأولى بمدارس مصر ، والتحق بالبعثة بمدارس فرنسا الهندسية ، وعاد منها سنة ١٨٣٥ ، وعين بمدرسة المهندسخانة مساعد مدرس ومعيداً لدروس للاستاذ محمد بيومى افندى ، ثم عين بعد ذلك مدرسا للعلوم الميكانيكية والجبر ، ثم مهندسا للركاب العالى سنة ١٨٤٢ ثم ارسل للخرطوم مدرسا بالمدرسة الابتدائية التى انشأها عباس باشا الأول ، فذهب اليها صحبة رفاعة بك رافع والاستاذ بيومى افندى ، وعاد من منفاه فى أول حكم سعيد باشا مصابا بالحمى ، وتوفى بعد وصوله الى بولاق بليلتين ، قال عنه على باشا مبارك(٢) « وكان قصير القامة صغير الجسم كثير الفهم لا يبالى بأكثر الأمور ، وله جرأة على الأمراء واقدام ، وكان محبا للتلامذة يرغب فى تعليمهم ، وأخذ عنه أكثرهم أو جميعهم »

احمد فايد (باشا)

نشأ نشأته الأولى بمدارس مصر ، وأقام بفرنسا عشر سنوات يتلقى العلوم بمدارسها ، وعين بعد عودته مدرسا للرياضيات بمدرسة المهندسخانة ، وصار من

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٦٥ (٢) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٧٨

كبار اساتذتها ثم وكيلا لها ، وتخرج على يده كثير من المهندسين المشار اليهم بالبنان ، وله مؤلفات فى الهندسة والرى ، منها كتاب (الاقوال المرضية فى علم بنية الكرة الارضية) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤١ ، و (تحرك السوائل) طبع سنة ١٨٤٧ ، و (الدرة السنية فى الحسابات الهندسية) طبع سنة ١٨٥٢

محمود باشا الفلكى

لم يكن محمود باشا الفلكى من تلاميذ بعثات محمد على لانه التحق بالبعثة فى عهد سعيد باشا ، لكنه تعلم علومه الأولى فى مدارس محمد على وهو من زملاء العلماء المتقدم ذكرهم ، على أن حياته العامة ترتبط بعصر اسماعيل ، لذلك ترجمناله فى الجزء الرابع

احمد بك السبكى

من اعضاء البعثة الخامسة ، وهو من (سبك الثلاث) منوفية ، ترجم له العلامة على باشا مبارك لمناسبة الكلام عن سبك الثلاث [1] فقال «ومن هذه البلدة ايضا الأمير احمد بك السبكى ابن احمد ابن سليمان عجيلة من عائلة تسمى العجايلة يقال ان اصلهم من بيت عجيل من مديرية الشرقية» ، وذكر عنه انه دخل صغيرا مكتب (مدرسة) منوف سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) «ضمن اولاد المكاتب الذين جلبهم العزيز المرحوم محمد على باشا من البلاد ، ثم نقل الى مدرسة قصر العينى ، ثم الى مدرسة ابى زعبل ، ثم الى المهندسخانة ببولاق ، ثم سافر ضمن بعثة الانجال الى فرنسا ، فاقام بباريس سنتين ، ثم دخل مدرسة الفرسان الحربية ، وبعد تمام تعليمه حضر الى مصر فى عهد ابراهيم باشا فجعل ضابطا من ضباط الفرسان بالالاى الأول برتبة ملازم اول سنة ١٢٦٤ ، (١٨٤٧م) ، وجعل مدرسا فى ذلك الالاى ، وبعد سبع سنوات خرج من خدمة الألاى والحق بالمهندسين الذين عهد اليهم رسم خريطة قنال السويس برتبة يوزباشى فى عهد سعيد باشا ، وبعد انتهاء هذه المهمة عهد اليه معاونة العالم الكبير محمود باشا الفلكى فى رسم خريطة الوجه البحرى

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ٩

وبعد انتهائها انعم عليه برتبة صاغقول اغاسى ، ونال رتبة البكباشى فى اوائل عهد اسماعيل ، وألحق بديوان (وزارة) الاشغال ، ونال رتبة قائمقام ، وندب لمهمات عديدة ، وصحب محمود باشا الفلكى الى دنقله لرصد الكسوف الكلى للشمس سنة ١٢٧٦ ، (١٨٥٩م) وسافر الى سواكن بمعية اسماعيل باشا الفلكى لاكتشاف موضع يوافق انشاء سكة الحديد من سواكن الى شندى بالسودان ، فأقام فى هذه المهمة نحو أربعة اشهر فى عمل الرسوم ثم اتضح عدم امكان انفاذ المشروع وقتئذ لما كان فى الطريق من الاودية والعقبات ، وعهد اليه مرة اخرى فى رسم خريطة الوجه القبلى من اسيوط الى القاهرة ، فاستوفاها رسما وميزانية ، وايضا فى وضع تصميم ترعة تخرج من القناطر الخيرية الى بحيرة مريوط ، فوضع لها الرسوم والميزانيات وبالجملة كان من كبار المهندسين الذين انتفعت البلاد من خدماتهم

حسن بك نور الدين

هو من (سنهور) غربية ، ومن زملاء على باشا مبارك فى بعثة الانجال ، ترجم له فى كلامه عن سنهور[1] فقال عنه ماخلاصته ان مولده سنة ١٢٣٧ (١٨٢٢ م) وتلقى التعليم الأولى فى مكتب (كفر مجر) القريبة من سنهور ، وانتقل بعد سنتين الى مدرسة طنطا فأقام بها سنة ، ثم التحق بمدرسة قصر العينى بمصر ، وانتقل منها الى مدرسة ابى زعبل ، ثم الى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، وكان فى فرقة على باشا مبارك فأقام بالمدرسة خمس سنوات أتم فيها دراسة العلوم الرياضية النظرية والعملية ، وكان من ضمن السبعة الأوائل من الفرقة الأولى الذين اختارتهم الحكومة فى بعثة الانجال لاتقان العلوم الحربية ، فسافر ضمن هذه البعثة ، ودخل مدرسة المهندسخانة بباريس ، واستمر بها سنتين ، ثم انتقل الى مدرسة القناطر والجسور ، فأقام بها أربع سنوات ، وكان يجمع بين العلم والعمل ، فيقضى كل سنة ثمانية أشهر فى تلقى العلوم وأربعة اشهر فى مشاهدة الاعمال الهندسية فى المدن

(١) الخطط التوفيقية جزء ١٢ ص ٦٠

والاقاليم والثغور ، كالقناطر والموانى والسكك الحديدية والمصانع

وعاد الى مصر سنة ١٨٥٤ وتقلد المناصب الفنية ، وكان من نوابغ المهندسين وله أعمال وخدمات جليلة فى السكك الحديدية والمالية ، منها ، انه رسم تصميم سكة الفيوم الحديدية ، وانشأ سكة حديد دسوق ، وخط الصالحية ، وعين باشمهندس سكة حديد القاهرة وتنقل فى مناصب عدة ، قال عنه على باشا مبارك انه « انسان حسن السير والسيرة ، ديّن صالح ، محب للصلحاء والعلماء »

الطب والجراحة

محمد على البقلى باشا

ناظر مدرسة الطب ، وكبير أطباء وجراحى مستشفى قصر العينى ، وهو من (زاوية البقلى) مركز منوف ، ومن أنبغ نوابغ البعثات العلمية ، ترجم له العلامة على باشا مبارك فوصفه « بالعالم النحرير ، والعلم الشهير ، السيد محمد على باشا الحكيم » ، ولد فى زاويه البقلى سنه ١٨١٥ ، وقد اشتهرت هذه البلدة بمن نبغ من ابنائها ، قال على باشا مبارك عنها (١) « وهذه القرية وان كانت صغيرة لكنها اختصت دون غيرها بمزية كثيرة من ترقى منها فى الوظائف السنية والخدمات الميرية ، من علماء الشريعة والرياضة والحكمة والطبيعة »

ترعرع المترجم فأدخله أهله مكتبا ببلده ، فتعلم الكتابة وشيئا من القرآن الحكيم وفى التاسعة من عمره أدخله احمد افندى البقلى مكتب ابى زعبل فلبث فيه ثلاث سنين وأتم قراءة القرآن ، ثم دخل مدرسة ابى زعبل التجهيزية ، فمكث بها ايضا ثلاث سنين ، وبدت عليه مخايل الذكاء ، واشتهر بحسن السير ، فكان أول فرقته ثم دخل مدرسة الطب ، وكان ناظرها الدكتور كلوت بك ، فاشتهر بالنبوغ وتوقد القريحة ، وبذل جهده فى الدرس والتحصيل ففاق أقرانه ، ولما اتم دراسة الطب

(١) الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٨٤

اختاره كلوت بك ضمن البعثة التى ارسلت لفرنسا للتبحر فى العلوم الطبية ، فالتحق بمدرسة الطب بباريس «وبذل غاية جهده فى تحصيل العلوم الطبية والجراحية، وشهد له جميع اساتذتها بالتفوق على من معه مع كونه أصغرهم سنا»

وكان باراً باهله ، ذكر عنه على باشا مبارك ان مرتبه حين الحق بالبعثة كان مائة وخمسين قرشا ، فترك لوالدته خمسين ، وأبقى لنفسه المائة ، وأتم مع زملائه امتحانات الطب بمدرسة باريس ، ولم يبق عليه سوى تأليف الرسالة الطبية التى ينال بها دبلوم الطب ، فألف رسالة طبية فى الرمد الصديدى المصرى ، وحصل على الدبلوم ، وعاد الى مصر سنة ١٨٣٨ ، فعين مدرسا للجراحة والتشريح بمدرسة الطب وكبيرا لجراحى المستشفى ، ونال رتبة صاغقول اغاسى ، ثم بعد قليل اعطى رتبة البكباشى ، وفى عهد عباس باشا الأول انتقل من منصبه بالقصر العينى ، وعين طبيبا فى أحد اقسام القاهرة وهو قسم قيسون وذلك « لمنافسة حصلت بينه و بين بعض اطباء المستشفى الأوروبيين » ، ولما ناله من الشهرة صار مقصد المرضى من جميع الجهات ، وقل الوارد على مستشفى قصر العينى ، وظلت شهرته فى اتساع ، ومكث كذلك نحو خمس سنين ، ثم نال رتبة قائمقام وعين كبيراً لاطباء الالايات السعيدية ثم عاد لمنصب كبير جراحى مستشفى قصر العينى وعين وكيلا للمدرسة ومدرس الجراحة بها ، ثم انعم عليه برتبة اميرالاى ، وجعله سعيد باشا طبيبه الخاص ، مع ابقاء وظائفه وأخذه فى معيته ، وانعم عليه برتبة المتمايز واصطحبه فى رحلته بأوروبا

وفى عهد الخديوى اسماعيل باشا عين ناظراً لمدرسة الطب ورئيسا لمستشفى قصر العينى ورغب اليه الخديوى أن يؤلف الكتب لاحياء العلوم الطبية ، ونال الرتبة الأولى ، ثم عين رئيسا لاطباء الحملة الحربية التى جردها الخديوى اسماعيل على الحبشة بقيادة السردار راتب باشا ، فأدى خدمات جليلة لجنود الحملة ، واستشهد هناك سنة ١٨٧٦ ، فكانت وفاته فى ساحة الواجب والجهاد

ومما يذكر له انه بذل جهدا كبيرا فى مكافحة الكوليرا التى انتابت مصر

سنة ١٨٦٥ ، وكافأته الحكومة على جهوده بالنيشان المجيدى من الرتبة الثالثة

وأظهر ناحية فى شهرته أنه كان نابغة الجراحين ، وكان باراً بالناس ، محبا للخير ، يعطف على الفقراء من المرضى ، فلا يطلب منهم أجراً ، وله فى الطب تآليف قيمة ، كتاب فى الجراحة الصغرى سماه « روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى » طبع سنة ١٨٤٣ وكتاب « غرر النجاح فى اعمال الجراح » فى جزأين طبع سنة ١٨٤٦ و « نشر الكلام فى جراحة الاقسام » لم يطبع ، وكتاب فى العمليات الجراحية الكبرى فى مجلدين سماه « غاية الفلاح فى أعمال الجراح » طبع سنة ١٨٦٠ ، وأصدر سنة ١٨٦٥ مجلة « اليعسوب » بالاشتراك مع الدكتور ابراهيم دسوقى بك وهى أول مجلة طبية عربية ظهرت فى مصر

ابراهيم بك النبراوى

هو من (نبروه) بمديرية الغربية ، تلقى التعليم الأولى فى مكتب البلد ، ثم ترك المكتب وتعلق بالبيع والشراء والتجارة ، وسافر الى مصر للتجارة فخسر فيها فدخل الازهر ، واشتغل بطلب العلم الى أن اختارت الحكومة من الازهر بعض تلاميذه لالحاقهم بمدرسة الطب بأبى زعبل ، فرغب المترجم الالتحاق بها فانتظم فى سلكها ونال بها رتبة ملازم ، ونبغ فيها ، فكان أحد أعضاء البعثة الطبية الذين اختارهم الدكتور كلوت بك لاتمام علومهم فى فرنسا ، فسافر ضمنها وأقام بفرنسا ١٣ سنة وأتم علومه وعاد سنة ١٨٣٣ ، وارتقى الى رتبة يوز باشى ، وعين استاذا بمدرسة الطب وكانت قد انتقلت الى (قصر العينى) وبعد قليل نال رتبة صاغ قول اغاسى ، وذاع صيته ، واشتهرت كفاءته ، فاختاره محمد على طبيبا له ، وقربه وأغدق عليه من المنح والانعامات ، ونال رتبة اميرالاى ، وكان مقصد الامراء والبيوت الكبيرة فى العلاج ، واصطحبه محمد على فى رحلته بأوروبا سنة ١٨٤٨ ، واختاره عباس باشا الأول أيضا طبيبا له بعد ولايته الحكم ، واصطحبته والدة عباس باشا فى رحلتها الى الحجاز ، ولما رجع المترجم من الحج وجد زوجته الافرنجية التى تزوج بها أثناء

دراسته بأوروبا قد توفيت ، فتزوج باشراقة من جوارى والدة عباس باشا انعمت بها عليه ، ومازال فى عز ونعمة الى أن توفى سنة ١٨٦٢ ، وقد وصفه العلامة على باشا مبارك الذى نقلنا عنه معظم هذه الترجمة بانه كان انسانا كريم الشيم ، رفيع الهمة ، يغلب عليه الفرح والانبساط ، فكنت تراه دائما مستصحبا للمغانى وآلات الطرب ، قال : وهو أعجب من اشتهر فى الجراحة ، ذو اقدام على مالم يقدم عليه غيره ، فمن ذلك انه كان يشق على ادرة الرجل ويعمل فيها العمليات المنتجة للصحة ولم يسبقه فى ذلك غيره(١)

وله من المؤلفات (الاربطة الجراحية) ترجمه عن الفرنسية وطبع سنة ١٨٣٨ ، ونبذة فى (الفلسفة الطبيعية) تأليف كلوت بك ترجمها الى العربية ، ونبذة فى (أصول الطبيعة والتشريح العام) لكلوت بك أيضا ترجمها الى العربية

احمد حسن الرشيدى بك

هو من نوابغ خريجى مدرسة الطب المصرية والبعثات ، ومن اركان النهضة الطبية العلمية بتآليفه وتراجمه ، واكثر علماء الطب تأليفا وترجمة وتعريباً ، نشأ فى الازهر ، وانتقل منه الى مدرسة الطب فى ابى زعبل ، وأتم العلوم الطبية فى فرنسا ضمن أعضاء البعثة الرابعة ، وبعد عودته عين استاذا فى مدرسة الطب ، وأخذ فى الترجمة والتأليف بهمة لاتعرف الكلال وكفاءة ومقدرة ومتانة فى اللغة فاق فيها زملاءه وانداده ، وقد بلغت مؤلفاته تسعة فى عهد محمد على ، ثم ركدت حركة العلم والتأليف فى عصر عباس وسعيد ، فلما صارت الاريكة الخديوية الى الخديوى اسماعيل قربه اليه وحثه على العمل فألف كتاب (عمدة المحتاج لعلمى الأدوية والعلاج) وتوفى سنة ١٨٦٦ وهاك مؤلفاته ١ ـ (رسالة فى تطعيم الجدرى) ترجمها عن كلوت بك وطبعت سنة ١٨٣٦ ، ٢ ـ كتاب (الدراسة الأولية فى الجغرافية الطبيعية) طبع سنة ١٨٣٨ ، ٣ ـ (ضياء النيرين فى

---

(١) الخطط التوفيقية ج١٧ ص ٣

مداواة العينين) معرب عن الفرنسية طبع سنة ١٨٤٠، ٤ـ (طالع السعادة والاقبال فى علم الولادة وأمراض النساء والاطفال) ترجمه على هيبه افندى الحكيم وصححه الرشيدى فى جزأين طبع سنة ١٨٤٢، ٥ـ نبذة فى (تطعيم الجدرى) طبع سنة ١٨٤٣، ٦ — (بهجة الرؤساء فى امراض النساء) طبع سنة ١٨٤٥ ، ٧ ـ (نزهة الاقبال فى مداواة الاطفال) طبع سنة ١٨٤٥ ، ٨ ـ (الروضة البهية فى مداواة الامراض الجلدية) فى مجلدين طبع سنة ١٨٤٧ ، ٩ ـ (نخبة الاماثل فى علاج تشوهات المفاصل ، ١٠ ـ (عمدة المحتاج فى علمى الادوية والعلاج) وهو اهم كتبه وهو دائرة معارف طبية فى اربعة مجلدات كبيرة طبع سنة ١٨٦٧ بعد وفاة المؤلف

محمد الشافعى بك

من اعضاء البعثة الرابعة ، ولما عاد من فرنسا عين استاذا بمدرسة الطب ، ثم ناظرا عليها ، وهو استاذ سالم باشا سالم الطبيب المشهور وله فى التأليف والترجمة كتاب ١ — (احسن الاغراض فى التشخيص ومعالجة الامراض) طبع سنة ١٨٤٣ فى جزأين، ٢— (الدرر الغوال فى معالجة امراض الاطفال) لمؤلفه كلوت بك عربه المترجم وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٤، ٣ — (السراج الوهاج فى التشخيص والعلاج) طبع سنة ١٨٦٤ فى اربعة مجلدات

محمد الشباسى بك

من اعضاء البعثة الرابعة ، أقام بفرنسا ١٣ سنة لاتمام العلوم الطبية ، ولما عاد الى مصر عين استاذا للتشريح بمدرسة الطب

وله فى التأليف كتاب (التنوير فى قواعد التحضير) ألفه بارشاد الدكتور كلوت بك وطبع سنة ١٨٤٧ — وعرب كتاب (التنقيح الوحيد فى التشريح الخاص الجديد) طبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٥

مصطفى بك السبكى

من اعضاء البعثة الرابعة ، ومدرس الرمد بمدرسة الطب ومن مشاهير اطباء العيون — توفى سنة ١٨٤٤

عيسوى افندى النحراوى

من اعضاء البعثة الرابعة ، استاذ علم التشريح بمدرسة الطب ومترجم كتاب (التشريح العام) المطبوع بمطبعة بولاق سنة ١٨٣٥

حسين غانم الرشيدى افندى

من اعضاء البعثة الرابعة ، كان قبل سفره الى فرنسا من مصححى الكتب الطبية بمدرسة الطب ، سافر الى فرنسا سنة ١٨٣٢ واقام بها ١٣ سنة ، واتقن علم الصيدلة ، وبعد عودته عين استاذا لهذا الفن بمدرسة الطب ، ثم عين مديرا لمعمل الصيدلة فى عهد محمد على ، وهو مؤلف (الدر الثمين فى فن الاقرباذين) طبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٨ ، وقد أشاد كاوت بك بذكره هو والسيد احمد حسن الرشيدى وعدهما من نوابغ البعثات المصرية

محمد عبد الفتاح

من خريجى البعثة الثالثة ، ترجم كتبا عدة فى الطب والتاريخ الطبيعى ، منها كتاب ١ ـ(نزهة المحافل فى معرفة المفاصل) ، طبع سنة ١٨٤١ ، و ٢ ـ(مشكاة اللائذين فى علم الاقرباذين) طبع سنة ١٨٤٤ ، و ٣ ـ (البهجة السنية فى اعمار الحيوانات الاهلية) طبع سنة ١٨٤٤ ، و ٤ — (المنحة لطالب قانون الصحة) طبع سنة ١٨٤٥

على هيبه

من خريجى البعثة الأولى ، ومن كبار الاطباء ، ترجم كتاب (طالع السعادة

فى فن الولادة) الذى صححه احمد حسن الرشيدى — وكتاب (اسعاف المرضى فى علم منافع الاعضا) ترجمه عن الفرنسية وطبع ببولاق سنة ١٨٣٦

حسين عوف باشا وابراهيم دسوقى بك

طبيبا العيون

كلاهما من تلاميذ البعثة السادسة ، وكلاهما أتم دراسة الطب والجراحة بمدرسة قصر العينى ، وبلغ رتبة يوزباشى ، ثم ارسل الى النمسا سنة ١٨٤٥ للتخصص فى الرمد على الدكتور بجر الاختصاصى فى الرمد بمدينة (بج) ونال كلاهما شهادة التخصص من الاستاذ المذكور ، ولما عادا الى مصر أمر محمد على باشا باقامتهما بالقاهرة للانتفاع بفنهما وعلاجهما أمراض العيون ، واختارت الحكومة بعض التلاميذ للتخرج على يدهما والتخصص فى الرمد لارسالهم الى البنادر المهمة للقيام بمهام أطباء الرمد

وانعم على كل منهما برتبة صاغقول اغاسى ، وقد وصل حسين عوف الى رتبة الباشوية ، وكان من كبار أساتذة الطب ، وتخرج على يده كثير من الاطباء ، وكان ابراهيم دسوقى بك ايضا من اساتذة المدرسة المذكورة

مصطفى الواطى بك

من تلاميذ البعثة الخامسة، أتم الطب فى مدرسة الطب المصرية ، وارسل الى باريس وأقام بها سنتين ونصفا للتخصص فى صناعة طب الاسنان ، وترأس فى مصر قسم ترجمة الطبيات بفروعها فى قلم الترجمة ثم صار وكيلا لمدرسة الطب

عثمان افندى ابراهيم

من تلاميذ البعثة الخامسة ، وكان زميلا لمصطفى الواطى ، ولما عاد الاثنان أصدر محمد على باشا أمره بابقائهما بالمستشفى لتدريس هذا الفن للتلاميذ ومعالجة المرضى

رجال الدولة والسياسة

الأمير اسماعيل (الخديوى اسماعيل باشا)

كان من تلاميذ البعثة الخامسة ، ودرس الفنون الحربية بفرنسا ، وتولى اريكة مصر بعد وفاة سعيد باشا ، وقد خصصنا الجزء الرابع للكلام عن عصر اسماعيل

محمد شريف باشا

من تلاميذ البعثة الخامسة ، وهو الوزير الكبير شريف باشا مؤسس النظام الدستورى فى مصر ، وصاحب الموقف المشرف فى الدفاع عن وحدة مصر والسودان ، والمستقيل من رآسة الوزارة اعتراضا على سلخ السودان عن مصر ، والقائل كلمته الخالدة « اذا تركنا السودان فالسودان لايتركنا » ، ولما كانت حياته العامة قد اقترنت بعهد اسماعيل وتوفيق فقد ترجمنا له فى الجزء الرابع

الحربية والادارة العسكرية

مصطفى مختار بك — مدير ديوان المدارس

من تلاميذ البعثة الاولى ، وكان من قبل موظفا بديوان محمد على ، وتخصص لدراسة الفنون الحربية ، وكان هو وعبدى شكرى (باشا) وحسن (باشا) الاسكندرانى بمثابة الرؤساء الثلاثة للبعثة الأولى ، وقد خصهم رفاعة بك الذى زاملهم فى الدراسة بالذكر فقال عنهم[1] «قد بعث صاحب السعادة (محمد على باشا) فى السفر الى بلاد فرنسا ثلاثة رؤساء من اكابر ديوانه السعيد ، وجعلهم ارباب نظر عام على من عداهم ، وهم على هذا الترتيب ، فأولهم صاحب الرأى التام ، والمعرفة والاحكام ، حائز فضيلتى السيف والقلم ، والعارف برسوم العرب والعجم ، حضرة

(١) فى كتابه تخليص الابريز ص ٢٠

عبدى افندى المهردار ، والثانى صاحب الرأى السديد ، والطالع السعيد ، من خلع فى حب المعالى العذار ، حضرة مصطفى مختار افندى الدويدار ، والثالث الحاوى بين العلم والعمل ، واليراع والأسل ، حضرة الحاج حسن الاسكندرانى »

وقد عاد المترجم من فرنسا بعد أن أتم دراسته سنة **١٨٣٢** ونال رتبة بكباشى ولقب بك ، واشترك فى الحرب السورية الأولى وكان فيها من خاصة اركان حرب ابراهيم باشا وياورا له(١) ، ثم عين بعد ذلك رئيس مجلس شورى المدارس ثم مدير (ديوان المدارس) ، فهو أول وزير للمعارف فى تاريخ مصر الحديث ، وعين رئيسا للمجلس العالى فى عهد محمد على باشا خلفا لعبدى شكرى باشا ، وكانت الاعمال الهندسية محالة الى عهدته ، فكان وزيرا للمعارف والاشغال وتوفى سنة **١٨٣٨**

امين بك الكرجى

من تلاميذ البعثة العلمية الأولى ، اتقن فى فرنسا فن صب المدافع وصنع الاسلحة ، وعين بعد عودته بالطوبخانة المصرية (معمل الاسلحة والمدافع) برتبة يوزباشى ، وأخذ يتدرج الى ان صار ناظر الكهرجالات (معامل البارود) فى عهد محمد على ونال رتبة ميرالاى ، وقد ذكره كاوت بك فى كتابه وعده فى مقدمة نوابغ البعثات المصرية ويسميه (امين بك مدير فابريقة ملح البارود)

احمد بك

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص فى فرنسا لدراسة الفنون الحربية ، وقضى فى دراستها ست سنوات ، واشترك فى الحرب السورية الأولى ، وكان من اركان حرب ابراهيم باشا ، وقد عهد اليه بعد صلح كوتاهيه بتحصين مضايق جبل طوروس التى انتهت اليها حدود مصر الشمالية فاضطلع بهذه المهمة وقام بها خير قيام واشترك معه فيها الكولونل سليم بك ، ولازم ابراهيم باشا فى واقعة نصيبين

---

(١) رسائل البارون (بو الكونت) ص ٢٤٤

على باشا ابراهيم

ناظر المعارف العمومية في عهد توفيق باشا ، تعلم بمدارس مصر ، وسافر الى فرنسا سنة ١٢٦٠ ضمن البعثة الخامسة ، واقام بباريس سنتين ، ثم نقل الى مدرسة الطوبجية بمدينة (متس) Metz وأقام بها سنتين ودرس بها فن الاستحكامات والفنون الحربية الأخرى ، والحق بالالايات الفرنسية ، وفي سنة ١٢٦٦ امر عباس باشا الاول بعودة جميع طلبة البعثة ، فعاد المترجم الى مصر ، ونال رتبة يوز باشى ، وعين مدرسا لالهامى باشا ابن عباس باشا (١) ، ثم الحق باركان حرب سليمان باشا الفرنساوى (الكولونل سيف) وصار ناظرا للمدرسة التجهيزية سنة ١٨٦٤ ثم ناظرا لدروس المدارس الحربية ، ثم مستشارا بمحكمة الاستئناف المختلطة ، ثم ناظرا للمعارف العمومية

حماد عبد العاطى (باشا)

اصله من (دير الجنادلة) مركز ابو تيج ، يسميه على باشا مبارك « الامير الجليل حماد بك ابن عبد العاطى ، كان له جد شهير يسمى عيسى له زاوية هناك تسمى زاوية عيسى » (٢)

نشأ نشأته العلمية الأولى في مدرسة ابو تيج سنة ١٢٤٩ ، ثم انتقل منها الى مدرسة قصر العينى ، ثم مدرسة ابى زعبل ، ثم الى مدرسة المهندسخانة ببولاق ثم انتخب ضمن تلاميذ البعثة الخامسة لتعلم الفنون الحربية بفرنسا ، فدخل مدرسة المدفعية بمدينة (متس) ودرس بها فن الاستحكامات والفنون الحربية الاخرى ، وخدم في الالايات الطوبجية الفرنسية نحو سنة ، ثم عاد الى مصر ، وتدرج في وظائف عدة ، منها التدريس بالمدارس الحربية ، ونظارة قلم الهندسة بديوان الاشغال ، ونال رتبة البكباشى ، ثم الميرالاى ، وصار مستشارا بمحكمة الاستئناف المختلطة (٣) سنة ١٨٧٩

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٤٥ (٢) الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٧١

(٣) كما ذكر في الكتاب الذهبى للمحاكم المختلطة

الملاحة والعلوم البحرية وبناء السفن

الاميرال عثمان نور الدين باشا

هو من اول من أرسلهم محمد على الى اوروبا لتلقى العلوم ، وقد ترجمنا له فى الفصل الحادى عشر (ص ٤٢٨)

الاميرال حسن باشا الاسكندرانى

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص لدراسة فنون الملاحة والهندسة البحرية فى فرنسا ، وكان يبلغ من العمر حين سفره بهذه البعثة ٣٧ سنة ، وعاد من فرنسا سنة ١٨٣١ ، فالتحق بالاسطول المصرى ، وبرهن على كفاءته ومهارته ، وارتقى فى المناصب الى ان صار رئيس ترسانة الاسكندرية وناظرا للبحرية ونال رتبة الباشوية

وقد تولى قيادة الاسطول المصرى الذى حارب الروسيا فى حرب القرم سنة ١٨٥٣ فى عهد عباس باشا الأول وسعيد باشا ، وكان هذا الاسطول مؤلفا من ١٢ سفينة حربية ، واظهر شجاعة ودراية ، وغرق فى تلك الحرب سنة ١٨٥٥ مع السفينة (مفتاح جهاد) التى كانت تقله وغرق معه معظم جنود وضباط السفينة ، وكانت هذه آخر الحملات التى قامت بها السفن الحربية من الاسطول الضخم الذى انشأه محمد على الكبير

محمد شنان بك

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص لدراسة العلوم والفنون البحرية ، وبعد عودته خدم الاسطول ، وتولى قيادة السفينة الحربية (البحيرة) من سفن الاسطول المصرى الذى كان يقوده الاميرال حسن باشا الاسكندرانى فى حرب القرم كما تقدم ذكره ، وغرق مع السفينة المذكورة

محمود نامى بك

من تلاميذ البعثة الاولى وزميل حسن (باشا) الاسكندرانى وشنان (بك) فى البعثة المذكورة ، وبعد عودته عينه محمد على محافظا لبيروت اثناء الفتح المصرى ، فبقى بهـذا المنصب سبع سنوات من سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٤٠ وسار سيرة عدل واصلاح مما حببه الى نفوس الاهلين ، وهو جد الداماد احمد نامى بك رئيس حكومة سورية سابقا

محمد بك راغب

من تلاميذ البعثة الثالثة ، تخصص فى انجلترا لتعلم فن بناء السفن وعين مع حسن بك السعران لرآسة قسم الهندسـة وانشاء السفن فى ترسانة الاسكندرية وتوليا العمل الذى كان يقوم به المسيو سريزى بك فى الترسانة

عبد الحميد الديار بكرلى ويوسف اكاه افندى وعبد الـكريم افندى

تعلموا الفنون البحرية فى انجلترا وصاروا من أمهر ضباط الاسطول المصرى

الحقوق والعلوم السياسية

عبدى شكرى باشا

من تلاميذ البعثة الأولى وهو ابن حبيب افندى كتخدا محمدعلى ، وقد التحق بالبعثة وعمره ٢٩ سنة،وتخصص لدراسة الحقوق والادارة الملـكية ،وعاد من فرنسا سنة ١٨٣٠ ثم عين ،أمورا للبعثة بفرنسا وترقى فى المناصب الى أن صار رئيسا للمجلس العالى فى عهد محمد على ونال رتبة الباشوية،وعين مديرا لديوان المدارس أى وزيرا للمعارف العمومية فى عهد عباس باشا الاول وقد ذكره الدكتور كاوت بك ضمن نوابغ خريجى البعثات

ارتين بك

من تلاميذ البعثة الأولى ، عاد من فرنسا بعد أن أتم دراسة الحقوق والادارة الملكية ، وعين وكيلا لمدرسة المهندسخانة ببولاق ، ثم سكرتيرا أول وترجمانا لمحمد على باشا ، وهو الذى تولى ابلاغ وكلاء الدول بمصر (ابريل سنة ١٨٣٩) . بلاغ محمد على قبل الحرب السورية الثانية انه كتب الى ابراهيم باشا الا يخوض غمار الحرب الا اذا تحقق من زحف الجيش العثمانى، وقد صار وزيرا للتجارة والخارجية خلفا لبوغوص بك ، وبعده الدكتور كلوت بك من نوابغ البعثات المصرية ، وهو والد يعقوب ارتين باشا وكيل نظارة المعارف العمومية سابقا

اسطفان بك

من تلاميذ البعثة الأولى ، وقد عين مديرا للمدرسة المصرية التى انشئت للبعثة العلمية الخامسة بباريس ، ويعده الدكتور كلوت بك من نوابغ البعثات ، وكان من كبار موظفى الحكومة فى عهد عباس باشا الاول ووزيرا للخارجية فى عهد سعيد باشا

عبد الله بك السيد

من تلاميذ البعثة الخامسة ، وهو من العجميين بالفيوم، تعلم فى مدرسة الالسن واتقن علومها والتحق بالبعثة الخامسة ، وتخصص فى فرنسا لدراسة الحقوق وبعد عودته تقلد المناصب فى الحكومة وآخرها انه عين رئيسا للمحكمة التجارية بالاسكندرية ثم مستشارا بمحكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٨٧٥ وتوفى سنة ١٨٧٦ (١)

---

(١) كما جاء فى الكتاب الذهبى للمحاكم المختلطة

الطبيعيات و الزراعة

احمد يوسف افندى

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص فى دراسة العلوم الكيماوية ، وعين بعد عودته ششنجيا بدار الضرب سنة ١٨٣٢ ، وقد صحب محمد على باشا فى رحلته بالسودان للكشف عن مناجم الذهب ، وذكره فى هذا الصدد رفاعة بك رافع و يسميه احمد افندى يوسف الجشنجى (١) ورحل ايضا الى بلاد المكسيك بامريكا لزيارة مناجم الذهب بها ، ثم عين مديرا لدار الضرب وكانت من المناصب الكبيرة فى ذلك العهد.

حسنين افندى على البقلى

من تلاميذ البعثة الثانية وهو اخو محمد على باشا البقلى ، تعلم بمدرسة قصر العينى ثم التحق بالبعثة الثانية و بعد عودته عين جشنجيا بدار الضرب بالقلعة ومدرس الكيمياء والطبيعة بقصر العينى وتوفى سنه ١٨٥٣ ، قال عنه على باشامبارك (٢) انه « كان من احسن الناس خلقا وخلقا وله وقوف تام على صنعته »

احمد بك ندا

من تلاميذ البعثة الخامسة ، تخصص فى العلوم الكيماوية واتقن صناعة الصابون وشمع العسل وعين بعد عودته استاذا فى مدارس الطب والمهندسخانة واركان الحرب ، وله مؤلفات جليلة منها (الاقوال المرضية فى علم الطبقات الارضية)

---

(١) مناهج الالباب المصرية ص ٢٥٦ طبعة ثانية

(٢) الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٨٩

طبع ببولاق سنة ١٨٧١ و (حسن البراعة فى علم الزراعة) ترجمه من الفرنسية عن فيجرى بك طبع ببولاق سنة ١٨٦٦ و (حسن الصناعة فى علم الزراعة) وهو من تأليفه طبع ببولاق سنة ١٨٧٤ و (الآيات البينات فى علم النباتات) طبع ببولاق سنة ١٨٦٦ ، و (الحجج البينات فى علم الحيوانات) ترجمه من الفرنسية طبع ببولاق سنة ١٨٦٧ ، وله مباحث جليلة فى علم النبات نشرت بمجلة روضة المدارس

عبد الهادى اسماعيل

من تلاميذ البعثة الخامسة ، اتم دراسته بمدرسة الطب البيطرى بمصر ثم بفرنسا وعين بعد عودته مدرسا بمدرسة الطب البيطرى وآخر المناصب التى تولاها أن عين ناظراً لمدرسة الطب البيطرى فى عهد الخديوى اسماعيل

يوسف افندى

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص لعلوم الزراعة وعين بعد عودته مديرا للحدائق وناظراً لمدرسة الزراعة بنبروه

الفنون الجميلة

حسن افندى الوردانى

من تلاميذ البعثة الأولى ، اتم فى فرنسا دراسة الرسم والزخرفة والفنون الجميلة، وعين بعد عودته مدرسا لفن الرسم والنقش بمدرسة المهندسخانة ببولاق بدل الاستاذ الفرنسى الذى كان بها ، ونبغ فى فنه وتخرج على يده كثير من التلاميذ ، وقد اشاد الدكتور كلوت بك بذكره فى كتابه وعده من نوابغ البعثات المصرية

محمد افندى مراد

من تلاميذ البعثة الثالثة ، عين بعد عودته استاذا فى الرسم والنقش والزخرفة وكان نابغاً فى فنه،وقد امتدحه الدكتور كلوت بك فى كتابهوعده من نوابغ البعثات

محمد افندى اسماعيل

من تلاميذ البعثة الثالثة أيضا ، قضى فى اوروبا ٢١ سنة ،وعين بعد عودته استاذا بمدرسة المدفعية (الطوبجية) فى طره وكان ماهرا فى الرسم والنقش والزخرفة وقد اثنى عليه الدكتور كلوت بك فى كتابه

حسين باشا كوجك

هو حسين باشا فهمى المعمار ، كان من تلاميذ البعثة الخامسة ، ونبغ فى فنون الهندسة والرسم والزخرفة ، وتولى وظيفة وكيل ديوان الأوقاف ، وهو واضع رسم ومقاسات مسجد الرفاعى بالقاهرة بناء على تكليفه من قبل والدة الخديوى اسماعيل باشا (١) وقد تم بناء المسجد بعد وفاته

محمد صادق باشا

اتم فى فرنسا دراسة الرسم والزخارف وعين بعد عودته مدرسا للرسم بالمدارس ثم بالمدرسة الحربية بالقلعة فى عهد سعيد باشا

الطباعة والصحافة والنشر

ان الكلام عن الطباعة يتصل بالنهضة العلمية ، فهى من أهم أسباب هذه النهضة إذ هى الوسيلة العملية لنشر العلوم والمعارف،ولم يفت محمد على باشا توجيه عنايته اليها،فقد تقدم القول بانه أرسل الى روما وميلانو نقولا مسابكى افندى سنة ١٨١٦ للتخصص فى فن الطباعة(٢) ، وقد اعتزم من ذلك الحين انشاء مطبعة بولاق تلك المؤسسة الجليلة التى مازالت قائمة الى اليوم تشهد بما أداه محمد على للنهضة العلمية من جليل الخدمات

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ١١٤

(٢) راجع ما كتبناه عن الطباعة في عهد الحملة الفرنسية بالجزء الاول ص ١٤٤

اسست المطبعة فى نوفمبر سنة ١٨٢١ ، وُجعل نقولا مسابكى افندى مديرا لها وأمدها محمد على باشا بكل مايلزمها من الحروف والمكابس والآلات حتى استوفت حظا كبيرا من الاتقان ، وأعدها لطبع لوائح الحكومة ومنشوراتها ولطبع الكتب العلمية فى الطب والرياضيات والآداب والتاريخ والعلوم الفقهية وغيرها

ومما يدل على شديد عنايته بها انه اختار للقيام بتصحيح مطبوعاتها طائفة من علماء الازهر ، والتصحيح فنٌ دقيق ينبنى عليه اخراج الكتب والمؤلفات صحيحة خالية من الاغلاط المطبعية التى تشوهها ، ولعلك تلاحظ فى الكتب التى كانت تطبع فى ذلك العصر خلوها من الاغلاط وهذا راجع الى حسن اختيار المصححين فى مطبعة بولاق

ففى هذه المطبعة ظهرت باكورة الكتب المترجمة والمؤلفة فى بدء النهضة العلمية الحديثة، فلاغرو ان كانت من دعائم هذه النهضة، وقدعنى خريجو المدارس والبعثات بنقل العلوم التى نقلوها الى اللغة العربية ثم بالتأليف فيها ، ومن هنا نشأت نهضة الترجمة والتأليف التى ازدان بها عصر محمد على واخذت العلوم والمعارف تنتشر تدريجا بين طبقات الشعب ، وكان لحسن تنشيط الحكومة لهذه النهضة اثر فعال فى اظهارها ، فان محمد على كان يستحث العلماء والمؤلفين على الترجمة والتأليف ويكافئهم مكافآت سخية ويستثير فى نفوسهم روح الهمة والعمل ويأمر بطبع مؤلفاتهم على نفقة الحكومة وتوزيعها فى المدارس والدواوين

ومما يُروى عنه فى هذا الصدد انه لما عاد اعضاء البعثة الأولى الى مصر استقبلهم بديوانه بالقلعة وسلم كلا منهم كتابا بالفرنسية فى المادة التى درسها باوروبا، وطلب اليهم أن يترجموا تلك الكتب الى العربية، وأمر بابقائهم فى القلعة والا يؤذن لهم بمغادرتها حتى يتموا ترجمة ماعهد به اليهم ، فترجموها فعلا وامر بطبعها فى مطبعة بولاق وتوزيعها على المدارس التى وضعت لها تلك الكتب ، ونظرا لان المترجمين فى بدء النهضة كانوا فى حاجة الى من يراجع كتبهم قبل طبعها لضبط عباراتها فقد اختار محمد على طائفة من « المحررين » من علماء الازهر مهمتهم مراجعة عبارات

الكتب قبل طبعها وضبط ألفاظها ومصطلحاتها ، وقد قام بهذا العمل وقتاما اساتذة مدرسة الألسن وتلاميذها ، ومن المحررين الذين مهروا فى عملهم الشيخ محمد عمر التونسى صاحب « الشذور الذهبية فى الألفاظ الطبية » وهو معجم للمصطلحات الطبية ، والشيخ محمد عمر الهراوى ، والشيخ مصطفى حسن كساب وغيرهم

وقد ذكرنا فى تراجم أعضاء البعثات نموذجا من الكتب المعربة والمؤلفة التى طبع معظمها فى مطبعة بولاق

وعدا هذه المطبعة كان يوجد مطابع أخرى صغيرة ، منها مطبعة بمدرسة المدفعية بطره ، وأخرى فى أبي زعبل ، وثالثة فى مدرسة الفرسان بالجيزة ، وكانت هذه المطابع تخرج لوائح ومطبوعات هذه المدارس و بعض مؤلفات تلاميذها

وفى مطبعة بولاق كانت تطبع (الوقائع المصرية) وهى الجريدة الرسمية للحكومة ، أسست سنة ١٨٢٨ وصدر أول عدد منها فى ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٢٤٤ (٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨) وكانت تصدر بالعربية والتركية ثم اقتصرت على اللغة العربية ، وتنشر اخبار الحكومة ودواوينها ومصالحها و بعض الانباء الخارجية ، وهى أول جريدة عربية أسست فى مصر ، ولم يسبقها الى الظهور جريدة أخرى فى تاريخ مصر الحديث ، إذ أن الجرائد التى ظهرت على عهد الحملة الفرنسية كانت تنشر باللغة الفرنسية ، اما « سلسلة التاريخ » التى كان يحررها السيد اسماعيل الخشاب فلم تكن جريدة وان كان بعض المؤلفين يسميها خطأ جريدة الحوادث اليومية ، بل كانت سجلا لمحاضر جلسات الديوان والحوادث الهامة ، وكذلك صحيفة « التنبيه » التى اعتزم الجنرال منو اصدارها بالعربية لم تصدر فعلا كما بيناه فى الجزء الثانى من الكتاب(١)

وقد ظلت (الوقائع المصرية) الجريدة الرسمية للحكومة المصرية حتى اليوم فهى اقدم الصحف العربية وأطولها عمرا

---

(١) راجع الجزء الاول ص ١٤٥ والجزء الثانى ص ٢٢٣ و٢٢٨

الفصل الثالث عشر

اعمال العمران

والحالة الاقتصادية

من القواعد الاساسية فى نهضة الامم ان إنماء ثروة البلاد والمحافظة على كيانها المالى من أكبر دعائم الاستقلال ، لان العمران مادة التقدم ، والثروة الاهلية هى قوام الاستقلال المالى ، ولا يتحقق الاستقلال السياسى مالم يدعمه الاستقلال المالى والاقتصادى ، تلك الحقائق التى اجمعت الآراء على صحتها ووجوب العمل بها ، كان محمد على اول من قدرها قدرها ، فقد اتجهت انظاره منذ أوائل حكمه الى إصلاح حالة البلاد الاقتصادية وانشاء اعمال العمران فيها لتنمو ثروتها القومية ، ولم تفتر عزيمته عن متابعة جهوده من هذه الناحية حتى خلف اعمالا ومنشآت يزدان بها تاريخه

منشآت الرى والزراعة

سد ترعة الفرعونية

فمن أول أعماله سد ترعة الفرعونية ، وقد ذكره الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٢١ (١٨٠٦ م) ذى الحجة سنة ١٢٢٣ (يناير سنة ١٨٠٩) وذكر اتمامه فى شهر ربيع الأول سنة ١٢٢٤ (ابريل سنة ١٨٠٩)، وذكر المسيو لينان (باشا) دى بلفون[1] كبير مهندسى الرى فى عصر محمد على عن هذه الترعة انها كانت تصل بين فرعى النيل بادئة من بير شمس ومارة بمنوف ثم تصب فى فرع رشيد، وكان الغرض منها تغذية هذا الفرع من مياه فرع دمياط ، وأن هذه الترعة

(١) فى كتابه (مذكرات عن اهم اعمال المنفعة العامة التى تمت فى مصر) ص ٣٤٣

قد أضرت بالبلاد والاراضى القائمة على فرع دمياط والتى تروى منه وخاصة من المنصورة وما يليها شمالا ، لان الترعة كانت تستنفد الكميات الكبيرة من هذا الفرع فيقل ماؤه ، و يطغى عليه البحر فيختلط بماء النيل و يفسده بملوحته الى قبلى فارسكور ، فتحرم زراعة الأرز فى تلك الجهات من ماء الرى العذب ، وقد شكا أهلها على توالى السنين ماتجلبه عليهم هذه الترعة من المضار ، فسدها محمد على بجسر من الاحجار ليمنع انسياب مياه فرع دمياط الى الفرع الآخر ، وانشأ ترعا أخرى تعوض جهات البحيرة ما كان يجيئهم من ترعة الفرعونية قبل سدها

فتح ترعة المحمودية

ومن أعماله الجليلة شق ترعة المحمودية (ترعة الاسكندرية القديمة أو خليج الاشرفية) [1] ، وكانت الاتربة والرمال قد طمرتها ، فشرع فى حفرها وجعل فتحتها من (العطف) بعد ان كانت الترعة القديمة تأخذ مياهها من الرحمانية ، ولم يجعل فتحتها عند الرحمانية لما كان بها من تراكم الردم والرمال

وقد عنى بفتح هذه الترعة عناية كبيرة ، فكان يتعهد الاعمال فيها بنفسه ، و بذل همة عالية فى سبيل اتمامها ، وكان غرضه من شقها إحياء الاراضى الزراعية فى مديرية البحيرة ، وجعل الترعة طريق المواصلات النيلية بين الاسكندرية وداخل البلاد ، وكانت المواصلات من قبل بطريق رشيد ، ولكن صعوبة اجتياز البوغاز كانت تعطل المواصلات من هذا الطريق ، وكان ذلك من أهم البواعث التى حفزت محمد على باشا الى انشاء الترعة ، وقد عهد بتصميم حفرها الى مهندس فرنسى ، وهو المسيو كوست Coste ولما تم حفرها افتتحها فى ٢٤ يناير سنة ١٨٢٠ وذهب خصيصا الى الاسكندرية لحضور الافتتاح مصحوبا بابنه ابراهيم باشا وصهره الدفتردار ، وطبوزاوغلى

---

(١) كانت الترع تسمى فى ذلك العصر خلجانا فيقال خليج الاشرفية عن ترعة الاشرفية .

وقد اقتضى حفر هـذه الترعة بذل مجهودات هائلة ومتاعب جسيمة وضحايا كثيرة احتملها المصريون واحتسبوا فيهـا وصابروا وصبروا ، و يكفيك لتعرف مبلغ الضحايا التى بذلت فى هذا السبيل ما كتبه فى هذا الصدد المسيو (مانجان) الذى كان شاهد عيان لحوادث مصر فى ذلك العصر ، فقد ذكر انه مات من الفلاحين الذين اشتغلوا فى حفر ترعة المحمودية اثنا عشر الفا فى مدة عشرة اشهر ، وان هؤلاء الموتى دفنوا على ضفتى الترعة تحت اكداس التراب الذى كانوا يرفعونه من قاعها ، وقال ان معظمهم مات من قلة الزاد والمؤونة أو من الاعنات فى العمل ، وكذلك من سوء المعاملة التى كانوا يلقونها من الجنود القساة المنوط بهم حراستهم ، فقد كانوا يجبرونهم على العمل المهلك بدون انقطاع ولا هوادة من الفجر الى الليل ، وقال ان عدد من اشتغلوا فى حفرها بلغ ٣١٣٫٠٠٠ من الفلاحين جيء بهم من مديريات البحيرة ، والغربية ، والشرقية ، والدقهلية ، والمنوفية ، والقليوبية ، والجيزة

وقد أتت هذه الترعة بثمرات عظيمة، فمن جهة المواصلات صارت تجرى فيها السفن بين الاسكندرية والداخل تحمل حاصلات البلاد أو وارداتها ؛ وكانت سبباً فى عمران البـلاد التى مرت بها فى اقليم البحيرة واحياء أراضيها ، وأفاد عمران الاسكندرية منها فائدة كبرى إذ جعلتها الترعة ملتقى المتاجر الذاهبـة الى داخل البلاد أو الآتية منها ، فاتسعت حركة التجارة والعمران فيها ، فضلا عن أن مياه الترعة قد ساعدت على الاكثار من الزرع وغرس الاشجار والحدائق فى ضواحى المدينة ، فاتسع نطاق العمران ، وابتنى الاغنياء القصور وأنشأوا البساتين على ضفاف الترعة فى جهات كانت من قبل مقفرة جرداء

وقد زار المارشال (مارمون) هذه الجهات سنة ١٨٣٤ فاستوقفه ماشاهده من الحدائق الغنـاء المنشأة بعد فتح ترعة المحمودية ، وكان يعرف حالة الاسكندرية وضواحيها مذ كان قومندانا للثغر فى عهد الحملة الفرنسية، فاستطاع أن يدرك الفارق العظيم بين حالتها القديمة وما أوجدته الترعة من العمران والتقدم

وأفرد الجبرتى نبذا عديدة لفتح ترعة المحمودية ، وهذا يدلك على أنها كانت

عملا جليلا من أهم أعمال العمران فى ذلك العصر ، فذكر بدء حفرها فى حوادث جمادى الثانية سنة ١٢٣٢ (ابريل سنة ١٨١٧) ، وألمع الى استمرار العمل فيها فى حوادث شعبان سنة ١٢٣٢ (يونيه سنة ١٨١٧) ثم انقطعت أخباره عنها ، والظاهر أن انهماك محمد على فى الحرب الوهابية إذ كانت فى دورها الاخير أدى إلى انقطاع العمل فى حفر الترعة وقتا ما ، وعاد الجبرتى إلى ذكر اهتمام الباشا بأمر الترعة وحفرها فى حوادث ربيع الثانى وجمادى الاولى سنة ١٢٣٤ (يناير وفبراير سنة ١٨١٩) ، وتكلم فى حوادث شوال سنة ١٢٣٤ (اغسطس سنة ١٨١٩) عن ضحايا الترعة ، ولعمرى إن وصفه ليعطينا فكرة جلية عن مبلغ ما قاساه الفلاحون من الاهوال فى حفرها ، وكثرة من مات منهم من الشدائد التى عانوها

فاذا قرأتَ ماذكره الجبرتى فارجع بفكرك إلى الماضى ، واذكر أن الاراضى الواسعة والبلاد العامرة التى تمر فيها الآن ترعة المحمودية من منبعها إلى مصبها كانت صحراء قاحلة لا ينبت فيها زرع ، ثم تحولت بعد حفرها الى مزارع تزدهر بالحياة والعمران ، واذا ذهبتَ يوما الى دمنهور وأخذت الطريق الزراعى المعبّد الذى يصل بك الى الاسكندرية ، رأيتَ ترعة المحمودية تنساب بمنظرها البديع ومائها الرقراق بين بلدان عامرة ، وحدائق غناء ، ومزارع نضرة ، وأشجار باسقة ، وطيور تحلق زرافات فى السماء أو تغرد فوق الاغصان المتهدلة على جانبى الطريق ، ووجدتَ على امتداد البصر مناظر تملأ النفس بهجة وسرورا ، وكلما سرت فى الطريق رأيته مكتظا بالمركبات والدواب تنقل الناس من مختلف البلاد ، وتحمل حاصلاتهم ومتاجرهم ، وترى الترعة ذاتها لا ينقطع فيها عبور المراكب والصنادل والبواخر حاملة المتاجر ذاهبة وآتية بين الاسكندرية ودمنهور ، فحيثما ذهبتَ تجد معالم العمران لمترامى مداه ، وتلمح دلائل الحياة والنشاط والتقدم مرتسمة على كل ما يقع عليه نظرك من مشاهد الطبيعة والخلائق ، فاذا سرحت الطرف فى تلك المناظر البهجة فاذكر أن الفضل فى ذلك العمران يرجع لمن حفروا بأيديهم ترعة المحمودية ، وبذلوا مهجهم وأرواحهم حتى جرى ماء النيل فى تلك النواحى حاملا الى الخلائق والناس

والاراضى عناصر الخصب والحياة، واذا تأملت فى كل ذلك فاذكر تضحيات الآباء والاجداد ، ومبلغ مابذلوه فى سبيل رفاهية الاجيال والاعقاب ، وتمهل فى سيرك قليلا واستمطر الرحمة على من استشهدوا فى سبيل ذلك العمران وتمثل بقول المعرى

خفف الوطأ ماأظن أديم الأ رض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهـــد هوان الآباء والاجداد

قال الجبرتى فى وصفه «وكان الباشا سافر الى الاسكندرية بسبب ترعة الاشرفية ، وأمر حكام الجهات بالارياف بجمع الفلاحين للعمل ، فاخذوا فى جمعهم ، فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم المراكب ، وتعطلوا عن زرع الدراوى الذى هو قوتهم ، وقاسوا شدة بعد رجوعهم من المرة الأولى بعد ماقاسوا ماقاسوه ، ومات الكثير منهم من البرد والتعب ، وكل من سقط أهالوا عليه تراب الحفر ولو فيه الروح ، ولما رجعوا الى بلادهم للحصيدة طولبوا بالمال، وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن، وكيلة قمح ، وكيلة فول ، وأخذ مايبيعونه من الغلة بالثمن الدون ، الكيل الوافر ، فماهم إلا والطلب للعود الى الشغل فى الترعة ونزح المياه التى لا ينقطع نبعها من الارض، وهى فى غاية الملوحة ، والمرة الأولى كانت فى شدة البرد ، وهذه المرة فى شدة الحر وقلة المياه العذبة ، فيقلونها بالروايا على الجمال مع بعد المسافة وتأخرى الاسكندرية » ، وذكر انتهاء حفر الترعة فى حوادث ربيع الأول سنة ١٢٣٥ (ديسمبر سنة ١٨١٩) وختم كلامه بقوله «ورجع المهندسون والفلاحون الى بلادهم بعد ماهلك معظمهم». وذكر سفر محمد على باشا الى الاسكندرية للاحتفال بفتح الترعة فى جوادث ربيع الثانى سنة ١٢٣٥ (يناير سنة ١٨٢٠)

الترع الاخرى

وشق محمد على ترعا أخرى فى مختلف المديريات ، وكان يعنى بتطهيرها وصيانتها، وهاك بيان أهم الترع التى أنشئت فى عهده

(فى البحيرة) المحمودية ، والخطاطبة

(فى الغربية) امتداد ترعة الجعفرية ، وترعة مسجد الخضر (الخضراوية) ، وبجيرم
(فى الدقهلية) البوهية ، والمنصورية ، والشرقاوية ، وأم سلمة ، ودويدة
(فى المنوفية) النعناعية ، والسرساوية ، والباجورية
(فى الشرقية) ترعة الوادى ، والمسلمية ، وبحر مشتول ، والصادى ، وبحر الرمل ، وترعة بردين ، ومصرف بلبيس
(فى القليوبية) الزعفرانية ، والباسوسية ، والشرقاوية ، والقرطامية ، والبولاقية القبلية ، وترعة قنبه ، ومصرف العموم
(فى بنى سويف) ترعة البرانقة
(فى المنيا) ترعة الفشن
(فى جرجا) ترعة السبخة ، والمرعشلى
(فى قنا واسنا) ترعة الشنهورية ، وتوسيع ترعة بلاجيا ، والرمادى ، والعقيلى ، والشال ، والنايه

الجسور

ومن أعماله انشاء الجسور على شاطئ النيل من جبل السلسلة الى البحر الأبيض لمنع طغيان المياه على الضفتين ، وقد اشتركت البلاد والقرى فى اقامة هذه الجسور بنسبة مايخص زمامها ، وانشأ جسورا أخرى فرعية ، منها جسر الرقة فى بنى سويف ، وجسر الطهنشاوى ، والقيسى ، والبرانقة فى المنيا ، وجسر دنهيا ، وجسر قاو ، وبنى كلب والمحرق ، وكودية باسيوط ، وجسر مشطا ، والشباسات ، والواديه ، والمنشاة فى جرجا ، وجسر فرشوط ، وجسر ابو دياب فى قنا

القناطر

وانشأ قناطر عديدة على الترع لضبط مياهها تيسيرا للانتفاع بالرى منها ، وأهمها القنطرة الكبرى ذات العيون التسع على بحر مويس بالزقازيق ، وقناطر المسلمية ، وبحر مشتول ، والصفراء ، والعلاقمة ، وفاقوس بالشرقية

وقناطر البريجات والمحمودية (فى البحيرة) ـ وقناطر البوهية ، والمنصورية (فى الدقهلية) ـ وقناطر السنطة ، والراهبين ، ودميرة ، وتيره ، و بيلة ، ونشرت (فى الغربية) ـ وقناطر النعناعية ، والقرينين والسرساوية ، والباجورية ، وميت عفيف (فى المنوفية)ـ وقناطر الشرقاوية ، والزعفرانية ، وابى المنجى (فى القليوبية)ـ وخزان طامية وسنورس (فى الفيوم)ـ وقناطر جسر شوشة فى بنى سويف ـ وقنطرة الرقة فى الجيزة

وقناطر منبال ، والجرنوس ، وسنشتاد ، والطحاوية ، والطهنشاوى (فى المنيا)

وقناطر العتامنه بمنفلوط ، وقطع أبو عفريته بملوى ، وعلى بك بالقرب من ابنوب ، و بسره ، واسيوط ، و بنى سميع ، وقلاى فى مديرية (اسيوط) ـ وقنطرة السوهاجية ، وقنطرة الشباسات ، وسمهود ، والمصالحة فى مديرية (جرجا) ، وقنطرة المراشدة بفرشوط فى مديرية (قنا)

اصلاح جسر أبو قير

ومن أجل أعماله اصلاح سد أبو قير القديم الذى كان متهدما ، وسد فتحة بحيرة أبو قير بجسر من الاحجار يقيها تسرب مياه البحر اليها و يقى ترعة المحمودية طغيان المياه الملحة عليها ، ومن ذلك الحين أخذت بحيرة أبو قير تجف تدريجا حتى صارت الآن أراضى زراعية

قال المسيو لينان دى بلفون [1] إن اقامة جسر أبو قير وسد فتحة البحيرة كان عملا شاقا اقتضى عدة سنين لعمق المياه فى داخل خليج أبو قير ، إذ كان عمقها خمسة أمتار فى ناحية الجسر ، وطول هذا الجسر ١٢٤٣ متراً ، وقد ذكر الجبرتى نبأ هذا الاصلاح فى حوادث سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٦م) وعده « من محاسن الافعال »

سد أشتوم الديبة فى بحيرة المنزلة

وكذلك سد فتحة الديبة من فتحات بحيرة المنزلة بالاحجار ، والغرض منه تقليل

---

(١) مذكرات عن أهم اعمال المنفعة العامة التى تمت فى مصر ص ٣٤٢

تسرب مياه البحر الى البحيرة لأن هذه المياه كانت تطغى على الأراضى المجاورة لها فتتلفها ، ويقول لينان باشا (١) ان الفتحة القريبة من دمياط وفتحة الطينة قد انسدتا من ذاتهما فلا يدخل منهما الا القليل من مياه البحر ، وكذلك فتحة أم مفرج ، ولم يبق من فتحات البحيرة سوى أشتوم الجميل

القناطر الخيرية

كانت اراضى الوجه البحرى الى أوائل القرن الماضى تروى بطريق الحياض كرى الوجه القبلى ، فلا يزرع فيها الا الشتوى ، ولا يزرع الصيفى الا على شواطىء النيل أو الترع القليلة المشتقة منه ، وقد أخذ محمد على فى تغيير هذا النظام تدريجاً إذ اخذ فى شق الترع وتطهيرها واقامة الجسور على شاطىء النيل ليضمن توفير مياه الرى فى معظم السنة ، وصارت الترع تروى الاراضى فى غير أوقات الفيضان جهد المستطاع ، ولاسيما بعد اقامة القناطر عليها

وقد توج محمد على اعمال الرى التى اقامها بانشاء « القناطر الخيرية » ، واسمها يغنى عن التعريف ، فانها قوام نظام الرى الصيفى فى الوجه البحرى ، وهى وان كانت آخر أعماله فى الرى الا أنها أعظمها نفعا وأجلها شأنا وابقاها على الدهر أثراً

وقد فكر فيها بعد ماشاهد بنفسه فوائد القناطر التى انشأها على الترع المتقدم ذكرها ، ورأى أن كميات عظيمة من مياه الفيضان تضيع هدرا فى البحر ، ثم تفتقر الاراضى الى مياه الرى فى خلال السنة فلا تجد كفايتها منها ، فاعتزم ضبط مياه النيل للانتفاع بها زمن التحاريق ولاحياء الزراعة الصيفية فى الدلتا وذلك بانشاء قناطر كبرى فى نقطة انفراج فرعى النيل المعروفة ببطن البقرة

عهد محمد على بدراسة هذا المشروع الى جماعة من كبار المهندسين ، منهم المسيو لينان دى بلفون (لينان باشا) كبير مهندسيه ، فوضع له تصميما وشرع فى العمل وفقا لهذا التصميم سنة ١٨٣٤ (٢) ، ثم ترك لوقت آخر ، وعندما اعتزم محمد على استئناف

---

(١) ص ٣٤٥ (٢) مذكرات عن أهم أعمال المنفعة العامة فى مصر ص ٣٨١

العمل استرشد بمهندس فرنسى آخر وهو المسيو موجيل بك Mougel اذ أعجبته منه مقدرته الهندسية فى انشاء حوض السفن بميناء الاسكندرية ، فعهد اليه وضع تصميم إقامة القناطر الخيرية ، فقدم مشروعا يختلف عن تصميم المسيو لينان

فالمسيو لينان كان يرى انشاء القناطر على الأرض اليابسة بعيداً عن المجرى الأصلى للفرعين ، واختار لذلك قطعتين بين ملتويين من ملتويات فرعى النيل حتى إذا تم انشاؤها حوّل الفرعين اليها بحفر مجريين جديدين ، ولكن مشروع موجيل بك يقتضى اقامة القناطر مباشرة فى حوض النهر

ويتألف المشروع من قنطرتين كبيرتين على فرعى النيل يوصل بينهما برصيف كبير ، وشق ترع ثلاث كبرى تتفرع عن النيل فيما وراء القناطر لتغذية الدلتا ، وهى الرياحات الثلاثة المعروفة برياح المنوفية ورياح البحيرة ورياح الشرقية الذى عرف بالتوفيقى لأنه أنشىء فى عهد الخديوى توفيق باشا

وقد شُرع فى العمل على قاعدة تصميم موجيل بك وبمعاونة مصطفى بهجت (باشا) ومظهر (باشا) المهندسين الكبيرين المتخرجين من البعثات العلمية

ووضع محمد على باشا الحجر الأساسى للقناطر الخيرية فى احتفال فخم يوم الجمعة ٢٣ ربيع الثانى سنة ١٢٦٣ (سنة ١٨٤٧) وكانت مدة حكمه الى ذلك العهد ٤٣ سنة ، ولكن العمل كان قد بدأ قبل ذلك ، واستمر العمل لانفاذ المشروع ، ثم اعتراه البطء والتراخى لما أصاب همة الحكومة من الفتور فى أخريات أيام محمد على ، ثم توقف العمل بعد وفاته أثناء ولاية عباس الأول بحجة أن حالة الخزانة لا تسمح ببذل النفقات الطائلة التى يتكلفها انفاذ المشروع ، وارتأى عباس توفيراً للنفقات أن تؤخذ الأحجار اللازمة للبناء من الهرم الكبير ، ولكن المسيو لينان أقنعه بخطأ هذا الرأى بفكرة أن اقتلاع الأحجار من الهرم يقتضى من النفقات ما يزيد عن نفقات اقتلاعها من المحاجر[1] وقد تم بناء القناطر وانشىء رياح المنوفية فى عهد سعيد باشا .

(١) فى كتاب (مذكرات عن أهم أعمال المنفعة العامة فى مصر) ص ٤٢٠ أن الفكرة نبتت أولا فى رأس محمد على فاقنعه لينان بالعدول عنها

ويقول المسيو شيلو Chelu (١) « ان مشروع القناطر الخيرية كان يعد فى ذلك العهد أنه أكبر أعمال الرى فى العالم قاطبة ، لأن فن بناء القناطر على الأنهار لم يكن بلغ من التقدم ما بلغه اليوم ، فاقامة القناطر الخيرية بوضعها وضخامتها كان يعد اقداماً يداخله شيء من المجازفة »

وقال المسيو باروا Barois (٢) « ان هذه أول مرة أقيمت فيها قناطر كبرى من هذا النوع على نهر كبير »

وقد ظهر خلل فى بعض عيون القناطر فى عهد اسماعيل سنة ١٨٦٧ فأصلح الخلل طبقاً لآراء موجيل بك (وكان قدغادر مصر الى فرنسا) وبهجت باشا ومظهر باشا ، ثم أصلح بناء القناطر ثانية فى العصر الحديث لتقويتها ، وتمت أعمال الاصلاح والتقوية سنة ١٨٩١ حتى بلغت شأوها الحالى ، ورجعت الحكومة الى رأى موجيل بك فى هذا الاصلاح ، وجاء مصر وكان قد بلغ الخامسة والسبعين من سنه ، فعينته الحكومة مهندساً مستشاراً للقناطر فتم الاصلاح وفقاً لرأيه ، وبذلك تسنى لهذا المهندس الكبير أن يكون على يده انشاء القناطر من ابتداء العمل فيها الى تمام بنائها

توسيع نطاق الزراعة

.. كانت الحاصلات التى تزرع فى مصر هى القمح والشعير والارز والفول والعدس والحمص والذرة والترمس والزعفران والبرسيم وقصب السكر والتيل (القنب) والكتان والنيلة والقرطم والدخان والحناء والبصل والسمسم والسلجم والعصفر والخضر والفواكه وقليل من القطن الردىء ، ففكر محمد على فى توسيع نطاق الزراعة بابتكار أنواع جديدة زادت فى ثروة مصر الزراعية

---

(١) كبير مهندسى السودان المصرى فى كتابه (النيل والسودان ومصر) طبع سنة ١٨٩١ ص ٣٩٤

(٢) السكرتير العام لوزارة الاشغال فى كتابه (الرى فى مصر) طبع سنة ١٩١١ ص ٣١٦

غرس أشجار التوت

فعني بغرس أشجار التوت لتربية دود القز (الحرير) واختار لهذا المشروع اراضي وادي الطميلات بالشرقية ، فخصص ثلاثة آلاف فدان ليغرس فيها أشجار التوت ، وخصص لخدمتها ألفين من الفلاحين جهزهم بستة آلاف رأس من المواشي ، واحتفر نحو الف ساقية للري ، وجلب من سورية ولبنان خمسمائة مزارع وصانع من الاخصائيين للقيام على تربية دود الحرير ، ثم عمم غرس اشجار التوت في الدقهلية والمنوفية والغربية والقليوبية ودمياط ورشيد والجيزة وبلغ عدد ماخصص لغرس اشجار التوت ثلاثة آلاف فدان في وادي الطميلات وسبعة آلاف في المديريات الاخرى ، وبلغ عدد أشجار التوت في القطر المصري ثلاثة ملايين شجرة باعتبار ٣٠٠ شجرة في كل فدان (١) وبلغ محصول الحرير سنة ٣٢ — ١٨٣٣ (١٢٠٠٠) أقة (٢) .

وذكر الجبرتي البدء في غرس اشجار التوت بوادي الطميلات في حوادث سنة ١٢٣١ (سنة ١٨١٦ م .) وذكر في حوادث جمادى الاولى سنة ١٢٣٢ (مارس سنة ١٨١٧) انفاذ المشروع واتمام انشاء السواقي وغرس الاشجار ، وايفاد الفلاحين الى الوادي لتعميره وبناء الكفور والمساكن لهم ؛ وجلب العمال والمزارعين الاخصائيين في تربية دود القز من الشام ولبنان ، وقال في حوادث رجب سنة ١٢٣٥ (ابريل سنة ١٨٢٠) إن الباشا « توجه لناحية الوادي لينظر ماتجدد به من العمائر والمزارع والسواقي ، وقد صار هذا الوادي إقليما على حدته وعمرت به قرى ومساكن ومزارع » .

يتبين مما تقدم ان تجربة دود القز في البلاد التي غرست فيها أشجار التوت قد نجحت نجاحاً عظيما ، ولكنها أصيبت بعد ذلك بمرض انتاب دود الحرير في أوروبا ومصر فقل الانتاج وأفسد تقاوي الدود وأهملت تربيته في أواخر عصر محمد علي .

---

(١) مانجان ٣ ص ١٨٨ (٢) احصاء كادلفين في كتابه (مصر والنوبة) ج ١ ص ٧٣

غرس الاشجار

وقد غرس محمد على فى بعض انحاء القطر العدد الوفير من الاشجار على اختلاف انواعها لاستخدام اخشابها فى بناء السفن واعمال العمران ، وذلك بعد أن قطع كثيرا من الاشجار المغروسة لاتخاذ اخشابها فى اقامة السواقى وصنع عربات المدافع والسفن الحربية

زراعة القطن

كان القطن المألوف زرعه الى سنة ١٨٢١ من صنف ردئ لا يصلح إلا للتنجيد ، وكان هناك صنف نادر يزرع فى بعض الحدائق و يفوق القطن القديم فى طول تيلته ونعومته ، ومحصول هـذا النوع ضئيل لانه يزرع كاشجار الفاكهة و يغزله النساء فى البيوت ، ففى سنة ١٨٢١ حدث فى مصر انقلاب فى زراعة القطن بها ، ذلك ان المسيو جومل Jumel الذى استقدمه محمد على من فرنسا لتنظيم مصانع النسيج شاهد فى حديقة محو بك(١) هذا النوع الجيد من القطن ، فاعجبته رتبته وأشار على محمد على باشا أن يعمم زراعته فى الاراضى الزراعية بعد أن كان زرعه مقصورا على الحدائق ، وقد فطن محمد على الى ماينال مصر من الأرباح الوفيرة اذا اكثر من زراعته ، فاعتزم تعميمه ، وأنشأ السواقى اللازمة لرى الاطيان التى تزرعه ، واشتراه باثمان مرتفعة ليشجع الفلاحين على زرعه ، فلم تمض عدة سنوات حتى انتشر هذا النوع من القطن وصار يعرف باسم قطن محو بك أو قطن جومل ، ثم ادخل محمد على نوعا آخر وهو قطن (سى ايلاند) الأمريكى ، ومن ثم أخذ القطن المصرى ينافس قطن البنغال وأمريكا ، وأقبلت على طلبه مصانع النسيج فى فرنسا وانكلترا ، وتقدمت زراعته وأخذ محصوله يزداد سنة فسنة ، ولم تمض سنوات معدودة حتى صدرت مصر من

---

(١) أحد كبار الحكام فى عصر محمد على وحكمدار السودان فترة من الزمن

هذا القطن سنة ١٨٢٧ ـ ٣٤٤ الف قنطار، وأصبح القطن على توالى السنين أساس ثروة مصر الزراعية

وقد احتكرت الحكومة بيع قطن القطر المصرى بأكمله طبقا لنظام الاحتكار الذى سنتكلم عنه فيما يلى ، فكان الفلاح الذى يزرع القطن لا يتصرف فى محصوله الا بالبيع للحكومة ، والحكومة تشترى القنطار الذى زنته ١٢٠ رطلا بثمن يتراوح بين ١١٢ و ١٥٠ او ١٧٥ قرشا ، وعلى البائع ان ينقل قطنه الى المخازن (الشون) التى انشأتها الحكومة لهذا الغرض فى عواصم المراكز والمديريات، ويخصم من الثمن قيمة ما على الفلاح من الضرائب اذا لم يكن وفاها من قبل ، وقد أقبل الفلاحون على زراعة القطن بعد أن رأوا الحكومة تشترى القنطار من النوع الجيد بـ ١٧٥ قرشا ، فان الفدان كان يغل من الريع أكثر مما تنتجه زراعة الحبوب والغلال ، وشجعت الحكومة زراعة القطن بما انشأته من السواقى فى القرى ، وبما فتحت من الترع وأقامت من القناطر والجسور، فتوافرت مياه الرى اللازمة لزراعة القطن، ويقول المسيو مانجان ان الحكومة انقصت سعر مشترى القطن حوالى سنة ١٨٣٧ مما حدا بالفلاحين الى التراخى فى زراعته

زراعة الزيتون

كانت زراعة الزيتون قبل عصر محمد على نادرة فى مصر ، فلم تكن تغرس اشجاره الا فى مديرية الفيوم وفى بعض الحدائق بضواحى القاهرة ، ففكر فى الاستكثار من اشجار الزيتون لاستخراج الزيت من ثمره ، ولكونه غذاء صالحا للجنود ، وخاصة بحارة الاسطول

فأمر بغرس كثير من اشجار الزيتون فى الوجه البحرى والوجه القبلى ، وحذا ابراهيم باشا حذو أبيه ، فغرس آلافا عدة من الأشجار فى اطيانه الواسعة ، ويقول المسيو مانجان ان اشجار الزيتون تثمر فى مصر بعد ثلاث سنوات أى فى أسرع مما تثمر فى البلاد الاخرى ، وهذا يدل على صلاح معدن الاراضى فى مصر ومناخها لهذا النوع من الشجر

زراعة النيلة

كانت زراعة النيلة معروفة فى مصر وبقيت على حالتها القديمة لغاية سنة ١٨٢٦ الى أن جلب محمد على في تلك السنة بزور النيلة الهندية ، واستحضر بعض الهنود الاخصائيين فى زراعتها ، فأخذت زراعتها فى النمو والتقدم ، وبلغ ماتنتجه الاطيان المخصصة لزراعتها ، ٧٧٫٣٠٠ أقة فى السنة ، وقد احتكرت الحكومة تجارتها و بيعها لطالبيها ، وانشأت الفابريقات الخاصة بها

زراعة الخشخاش (الافيون)

واستحضرت الحكومة من أزمير بعض الأرمن الذين مارسوا زراعة الافيون وخصصتهم لزراعته فى مصر ، وقد بلغت حاصلاته سنة ١٨٣٣ — ١٤٥٠٠ أقة ، واحتكرت الحكومة بيع المحصول ، فكانت تبيع الأقة بـ١١٠ قرشا صاغا ويستخرج من بزرة الافيون زيت للوقود ، وحاولت الحكومة زراعة البن اليمنى فى اراضى مصر ولكن المحاولة اخفقت رغم تكرارها ، ووسع محمد على نطاق زراعة القنب (التيل) فنجحت زراعته واستخدم ثمره لصنع التيل والحبال

منشآت الصناعة

ان الكلام عن الصناعة فى عهد محمد على يقتضى التمييز بين الصناعات الكبرى والصناعات الصغرى ، أما الصناعات الصغرى فيمكن القول اجمالا بانها تقهقرت فى هذا العهد بسبب نظام الاحتكار الذي سنتكلم عنه فى موضعه بالفصل الرابع عشر ، فان الاحتكار قد شمل الصناعات التى كانت قائمة وهى الصناعات الصغرى فاضر بها و بأصحابها ضررا كبيراً ، وأما النهضة الصناعية التى حدثت فى ذلك العهد فهى نهضة الصناعات الكبرى التى استحدثها محمد على بانشاء الفابريقات اى المصانع الكبيرة التى تدار بالآلات

وقد أسلفنا الكلام عن المصانع الحربية والبحرية التى تعد من أعظم المنشآت الصناعية فى ذلك العصر كما بيناه فى موضعه بالفصل الحادى عشر والثانى عشر ، ونحن ذاكرون هنا معامل الصناعات الاخرى كالغزل والنسيج وما اليها ومعامل الحديد والنحاس

مصانع الغزل والنسيج

مصنع الخرنفش

من أول المصانع التى انشأها محمد على باشا فابريقة الغزل والنسيج بالخرنفش ، أنشئت سنة ١٨١٦ (١) ، واستدعى لها عمالا فنيين من فلورانس بايطاليا ، تخصصوا فى غزل خيوط الحرير لصناعة القطيفة والساتان الخفيف ، و بعد قليل من الزمن نقلت الانوال الخاصة بصناعة الحرير الى فابريقة أخرى ووضعت بدلها مغازل القطن وما كينات لصنع الاقمشة القطنية ، فركب بها مائة دولاب ، عشرة منها للغزل السميك ، وتسعون دولابا للغزل الرفيع ، أى بنسبة دولاب للخيوط السميكة إلى تسعة للخيوط الرفيعة وهى النسبة المتبعة عادة فى معامل الغزل ، وتحمل الدواليب الاولى ١٠٨ مغزلا على خط واحد ، والتسعون الثانية ٢١٦ مغزلا ، وفى الفابريقة سبعون ماكينة ، وعدد يوازيها من العدد الاخرى لتجهيز القطن قبل غزله

وعدا دواليب الغزل ومغازله كان يوجد بالفابريقة قسم للنسيج به ثلثمائة نول تنسج من خيوط القطن أقمشة مختلفة أنواعها كالبافتة والموسلين والبصمة والشاش والباتست ، والاقمشة التى تنسج فى هذه الفابريقة كانت ترسل لتبييضها فى المبيضة التى أنشئت لهذه الغاية على شاطىء النيل بين بولاق وشبرا ، ثم تعاد الى مخازن الخرنفش لتباع لمن يطلبها ، و يوجد بالفابريقة وُرَش للحدادين والسباكين والخراطين والنجارين لاصلاح الآلات التى يصيبها العطب

(١) مانجان ج ٣ ص ١٩٥

فابريقة مالطة ببولاق

وأنشأت الحكومة فى بولاق فابريقة أخرى سميت فابريقة (مالطة) وسميت بهذا الاسم نسبة إلى العدد الكبير من العمال المالطيين الذين كانوا يشتغلون فيها ، وعهد بادارتها إلى المسيو جومل ، وقد أعدت لغزل القطن ثم نسجه أقمشة مختلفة الانواع ، وكان فيها من دواليب الغزل ٢٨ دولابا و٢٤ عدة ، وآلات تجهيز القطن ، وتدور هذه الآلات كما فى فابريقة الخرنفش بواسطة أربعة عشر طنبورا تحركها عدة يجرها ثمانية من الثيران ، وكل دولاب يشتغل عليه رجل وثلاثة أطفال يعقدون الخيوط التى تقطعها حركة العدة ، ويبلغ عدد الانوال فى فابريقة مالطة ٢٠٠ نول تنسج خيوط القطن ويصنع منها البافتة والبصمة والباتست والموسلين

وفيها ورشة تحتوى عمالا من سائر الحرف معدين لاصلاح آلاتها واصلاح آلات مصانع الوجهين البحرى والقبلى ، وفيها ورشة للنجارة يشتغل فيها صناع فرنسيون وأروام يصنعون نماذج وأشياء أخرى دقيقة الصنع ، وفيها أيضا ورشتان للخراطة بكل منهما آلة ضخمة تحركها ثمانية من الثيران ، واحدى هاتين الورشتين اذا تحركت دواليبها تتحرك لها صوانى وأقلام من الفولاذ للتضليع والتخريم والتثقيب ومحافر ومناشر لنشر الخشب والنحاس، ومخارط عديدة، وفى الورشة الاخرى مخرطة كبيرة ومرازب ومطرقة ومنفاخان كبيران

وكان بالقرب من فابريقة (مالطة) ثمانون ورشة حدادة لصنع مراسى المراكب وكل مايلزم لبناء السفن ، وما يستهلك من الحديد والفحم فى هذه الورش عظيم جداً ، ويلحق بالفابريقة معمل لسبك الحديد ، وقد لاحظ عليه المسيو مانجان (١) بعض العيوب فقال ان أفرانه ليست محكمة الوضع وتستهلك من الوقود أكثر مما يلزم ، والرمل المستعمل لم يكن مدقوقا دقا جيدا ، وفى غالب الاحيان

---

(١) ج ٣ ص ٢٠٠

كان يفسد العمل لاهمال العمال ولكونهم لا يدعون القوالب تجف الجفاف المطلوب ، وفى هذا المسبك ثمانية أفران كانت تعمل باستمرار، وعمالها مصريون يعملون تحت ادارة رؤساء من السوريين

فابريقتا ابراهيم اغا والسبتية

وكان بالقرب من فابريقة مالطة مصنعان آخران لغزل القطن يعرف أحدهما بفابريقة ابراهيم اغا ، والآخر بفابريقة السبتية ، وفيهما تسعون دولابا لغزل القطن وستون ماكنة لتجهيز القطن للمغازل ، ولم يكن فى هاتين الفابريقتين سوى ورش الغزل وليس فيهما ورش للصنائع الأخرى كما فى فابريقة مالطة ، وهذه الفابريقة تمدها بكل ما يلزم لاصلاح عددها وآلاتها وتستورد القطن الذى تغزله من مستودع الحكومة للاقطان كما تفعل الفابريقات الاخرى ، وأجور العمال فيها تساوى أجورهم فى تلك الفابريقات

المُبيِّضَة

وقد انشىء فيما بين بولاق وشبرا على شاطىء النيل مبان ومنازل خاوية وحظيرة واسعة أطلق على ذلك كله اسم (المُبيِّضَة) وفيها كانت تبيض الاقمشة التى تصنع فى الفابريقات بالأساليب الصناعية الحديثة ، وتطبع فيها ثياب البصمة (الشيت) بواسطة الألواح او الاسطوانات ، وتطبع فى الشهر نحو الثمانمائة مقطع من البصمة ، ويقول المسيو مانجان الذى نقلنا عنه هذه البيانات [1] ان البصمة التى تصنع فى مصر قد امتازت بجودتها واتقانها ودقة صنعها ومتانتها وجمال رسومها وتنوع أشكالها وثبات الوانها على الغسيل ، فصار الجمهور يفضلها على أنواع الشيت الواردة من المانيا وانجلترا حتى قل الوارد منها ، وانشىء ايضا فى شبرا شهاب (بالقليوبية) وشبين والمحلة الكبرى والمنصورة مبيضات أخرى ، والأثواب المعدة للبيع تُلمَّع فى

(١) ج٣ ص٢٠٢

هـذه المبيضات ثم تطوى ، وتطبع المبيضات المناديل التى تزين بها النساء رءوسهن ويستعمل لهـذا الغرض اربعمائة ثوب من الموسلين فى الشهر

مصنع نسيج البركال

وبالقرب من مبيضة بولاق انشىء بناء جميل تم فى سنة ١٨٢٣ لنسج البركال (نوع من الشيت الرفيع) ركب فيه ١٥٠ نولا للنسيج ، منها تسعة فقط تشتغل ، وهى تدار بواسطة آلة بخارية ، وكل نول ينسج فى الاسبوع اربعة اثواب من البركال ، وطول الثوب اربعون ذراعا فى عرض ذراع ونصف ، وكان فى هـذا المصنع أربعة من الصناع الانجليز يتولون تعليم العمال المصريين صناعة هـذا النسيج ، والطابق العلوى لهذا المصنع خاص بالغزل

مصنع امشاط الغزل بحى السيدة زينب

وانشىء فى حى السيدة زينب معمل لصنع امشاط الغزل يخرج فى كل شهر ثلاثين مجموعة من الامشاط التى تستعمل للغزل ، ويدرب الصبيان على هـذا النوع من العمل ، وكان المصنع يورد لفابريقات الغزل الامشاط اللازمة ويتولى أيضا اصلاح مايعطب منها ، وفى هذا المصنع قسم للنسيج به ثلثمائة نول وخمسمائة عامل ويخرج فى الشهر ١٢٠٠ ثوب تقريبا طول الثوب ٣٢ ذراعا فى عرض ذراعين ، والعامل ينسج ثمانية اذرع فى اليوم من أيام الصيف وستة فى أيام الشتاء

مصنع الجوخ فى بولاق

وأنشأت الحكومة مصنعاً للجوخ على شاطىء النيل فى بولاق ، وقد لقى فى مبدأ أمره عقبات عديدة فانقضت عدة سنوات وهو لا يؤتى ثمرة ، وكلف الخزانة أموالا طائلة ، على أن إرادة محمد على باشا لم تنثن أمام هذه الصعاب ولم يتراجع عن عزمه فى انجاح هذا المصنع لما كان ينتظره من النفع فى سد حاجات الجنود من جهة

الملبس ، ورأى أن أساس النجاح هو فى اختيار الخامات وفى مهارة العمال الذين يعهد اليهم بالعمل ، فأمر وكلاءه فى مرسيليا أن ينتخبوا له رؤساء ماهرين للعمل تتوافر لديهم من الكفاءة أكثر ممن سبقوهم ليعهد اليهم تدريب العمال والتلاميذ على إتقان العمل كلٌ فيما يخصه ، فاختار خمسة فرنسيين من رؤساء العمل فى مصنع الجوخ بلاجندوك Languedoc قضوا أربع سنوات فى تخريج التلاميذ فى مصنع بولاق وتعليمهم أسرار الصناعة وإدارة الآلات الحديثة ، وبذلك تكوَّن فى مصنع بولاق طائفة من الغزالين والنساجين والكباسين والقصاصين والصباغين والعصارين

ولم يكتف محمد على باشا بذلك بل أنفذ الى فرنسا طائفة من المصريين الأذكياء وألحقهم بالبعثة العلمية وتعلموا هذه الحرف المتنوعة فى معامل ريمس Reims وإلبيف Elbœuf حيث أرسلهم اليها مدير البعثة المصرية اتباعاً لأوامر محمد على ، وكان فى المعمل مائة نول لنسيج الجوخ تدور بعدتين يحرك كلا منهما ثمانية ثيران وتحرك العدتان تسع عجلات ، ويحتوى المعمل على كثير من العدد ، وآلات الكبس والعصر وغيرها من الجهازات والاسطوانات ، وفى مصبغة المصنع ست خوابى (قزانات) منها واحدة من القصدير ، والألوان التى تستعمل لصبغ الجوخ هى الأزرق الأدكن والأزرق السماوى ، والأحمر ، والبنى ، والأخضر الأدكن

وكان الجوخ ينسج أيضاً فى دمنهور وفى بعض المصانع الأخرى بالقاهرة ، ويستعمل فى نسجه الصوف الردىء ويعمل منه الكبابيت ويرسل ما يصنع منها الى مصنع بولاق لدهنه وصبغه وكبسه ، ويبلغ ما تخرجه هذه المصانع فى الشهر نحو عشرين ألف ذراع تقريباً ترسل الى الاسكندرية وتستهلك فى ملابس بحارة الأسطول ، وقد امتاز الجوخ الذى يصنع فى مصنع بولاق بالجودة ، وكان من خير الملابس للجنود والضباط

مصنع الحرير

كان ينسج فى مصر من الاقمشة الحريرية قبل عصر محمد على باشا القطنى

والالاجة وبعض انواع الحرير والقطن ، ولكن محمد على اكثر من غرس اشجار التوت ليكثر من انتاج الحرير واحضر من الاستانة عمالا متخصصين فى الحرير لنسجه وصنع الاقمشة الحريرية منه على اختلاف انواعها كما ينسج فى الاستانة وفى الهند ، وأنشأ لهـذا الغرض مصنعا من الحرير فى الخرنفش وتولى اولئك العمال الاخصائيون تدريب العمال المصريين على اتقان نسج الحرير ، فلقى المصنع نجاحا وصار به مائتا نول لنسج الحرير الخام الوارد من الشام او من تربيـة دود القز فى مصر ، ولنسج الاسلاك الذهبية المعروفة بالمقصب ، وقد بلغت زنة الحرير الذى نسج فى مصر سنة ١٨٣٣ أربعة آلاف أقة ، وعمال هـذه الصناعة يشتغلون بالمقطوعية وكانوا فى غاية من الحـذق ولهم ذوق فى تحليته بالالوان والرسوم الجميلة ، ولـكن منسوجاتهم فى الحرير لم تصل الى مرتبـة المنسوجات الايطاليـة فى ثبات الوانها

مصنع الحبال

وانشأت الحكومة فى القاهرة مصنعا للحبال ترسل مصنوعاته الى الاسكندرية لاستخدامها فى ترسانة الثغر وفى السفن الحربيـة والتجارية وتصنع الحبال فى هـذا المصنع من القنّب

نسيج الصوف

وصنعت فى القاهرة منسوجات الصوف وكانت تعمل منها ملابس البحارة المصريين وأغطية النوم (البطانيات) ويستعمل لهذا الغرض الصوف السميك الوارد من الوجه القبلى و بلغت أنوال نسيج الصوف الموجود منها من قبل وما أنشىء فى ذلك العصر ٤٠٠٠ نول

فابريقة الطرابيش فى فوه

كانت فابريقة الطرابيش التى أنشأها محمد على فى فوه من أنفع وأهم المصانع التى أسسها سواء فى نظامها أو فى قلة نفقاتها أو جودة مصنوعاتها ، وأول مدير لها تاجر

مغربى استدعى لها الصناع من تونس المشهورة بصناعة الطرابيشى ، وقد تدرب العمال المصريون على يد أولئك الصناع فصاروا معلمين بعد ان كانوا تلاميذ ، واتقنوا طريقة تحضير الصوف ونسجه طرابيش وكبسها وصبغها ، ويستورد الصوف المستعمل فى هذه الصناعة من (أليكانت) وثمن الأقة منه ٢٥ قرشا ، ومن الصنف الجيد الرفيع ٣٠ قرشاً ، ولا يغسل هذا الصوف قبل نسجه لنظافته ونصوع بياضه

وكان يصنع كل طربوش من خيط واحد لا من خيوط متعددة ، وبغير ذلك لا يمكن كبسه جيداً ، وعند ماتوضع الطرابيش فى المكبس تترك به ثلاثة أيام بلياليها مع صب الماء المغلى عليها باستمرار ، ثم يصب عليها مخلوط الصابون الذى يصنع فى الفابريقة نفسها ، ثم تمر فى الماء البارد لتنظيفها

وكانت الطرابيش تصبغ بالقرمز والعفص والطرطير والشبة

وتصنع فابريقة فوه كل يوم ستين دستة (٧٢٠ طربوشا) مختلفة أنواعها وأثمانها ، وتصنع الطرابيش الرديئة من الصوف المخلوط ، ويستورد الجيش المصرى من مصنع فوه ما يطلبه من الطرابيش للجنود ، واذا ما استكمل الجيش حاجته منها يباع ما زاد الى التجار من الاهلين

مصانع الغزل والنسيج فى الوجه البحرى

قليوب

أنشئت فى الوجه البحرى عدة مصانع لغزل القطن ونسجه ، وأول هذه المصانع مصنع قليوب ، وكان واسعا مستوفى العدد والآلات تصنع فيه الدواليب والامشاط ويشتغل فيه عدد كبير من العمال ، وبه عدة عمال من الافرنج يرأسون بعض الاقسام ، وبه سبعون دولابا ، وثلاثون محلاجا (مشطا) تحركها ثلاث عدد ، ويغزل القطن فى هـذا المصنع من نوع الغزل الذى تصنعه فابريقات القاهرة ، وبقليوب مسبك للحديد ولـكنه كان غير منتظم وبه عيوب عديدة

شبين الكوم

وفى شبين الكوم مصنع آخر لغزل القطن به سبعون دولابا وثلاثون محلاجا (مشطا) يحركها عدتان وترسل مصنوعاته من الغزل الى القاهرة

المحلة الكبرى

وانشئ فى المحلة الكبرى مصنع كبير لغزل القطن به مائة وعشرون دولابا وستون محلاجا يحركها ثلاث عدد تدور كل عدة بواسطة ثمانية من الثيران ، وبه مائتا نول تنسج عليها الاقمشة من الخيوط التى تغزل فيه ، ويحتوى هذا المصنع على مسبك وورش للحدادة والبرادة والخراطة تصنع فيه دواليب الغزل وأمشاطه وغيرها من الآلات التى ترسل للمصانع الاخرى

زفتى وميت غمر

وانشئت فى زفتى فابريقة لغزل القطن بها ٧٥ دولابا و ٥٠ محلاجا بملحقاتها تحركها ثلاث عدد ويستورد هذا المغزل من مصنع المحلة مايلزمه من المهمات والخامات ، وفى ميت غمر مغزل يشبه مغزل زفتى فى عدد دواليبه ومحالجه

المنصورة

وانشئت فى المنصورة فابريقة للغزل والنسيج ولها مخزن يلحق بها ، وبها أربع عدد تحرك ١٢٠ دولابا وثمانين محلاجا ، والخيوط التى تغزلها هذه الدواليب والمحالج تنسج فى الفابريقة على ١٦٠ نولا ، وفى هذه الفابريقة مسبك للحديد ومصنع للحدادة والبرادة والخراطة

دمياط

وكان فى دمياط قبل عصر محمد على مغزل صغير ، فانشئت فيها فابريقة للغزل والنسيج على مثال فابريقة المنصورة

دمنهور

وانشئ في دمنهور مصنع للغزل به ١٠٠ دولاب وثمانون محلاجا ، وفابريقة أخرى لغزل الصوف ونسجه تصنع فيها الكبابيت وأغطية النوم (البطانيات) اللازمة لجنود البر والبحر ، وترسل مصنوعاتها الى مصنع الجوخ في القاهرة ببولاق حيث تضغط وتلوّن وتكبس

فوه

وفي فوه مصنع لغزل القطن فيه ٧٥ دولابا للغزل وار بعون مشطا تحركها عدتان تدير كل واحدة منها ثمانية من الثيران

رشيد

وفي رشيد مصنع للغزل به ١٥٠ دولابا للغزل و ٨٠ محلاجا يحركها اربع عدد ، وتنسج فيه قلوع المراكب ، وبها مصانع للحدادة لعمل الحدايد اللازمة للسفن ، وقد انشأ بها المستر توماس جالويه وهو ميكانيكي انجليزي آلة بخارية لتدير طواحين تبييض الأرز

مصانع الغزل في الوجه القبلي

بني سويف

وانشئت عدة مصانع لغزل القطن في الوجه القبلي ، ففي بني سويف مصنع كبير به ١٢٠ دولابا وثمانون محلاجا تحركها ثلاث عدد

أسيوط

وفي اسيوط مصنع للغزل به من العدد والآلات مثل مافي مصنع بني سويف ، والقطن المغزول في هذين المصنعين يرسل الى القاهرة لنسجه في فابريقاتها و بيعه

بقية مصانع الغزل

واسس محمد على عدا المصنعين السابقين مصانع لغزل القطن فى المنيا ، وفرشوط ، وطهطا ، وجرجا ، وقنا ، فكانت تشتغل ولكن فى حالة غير مرضية ، ولم ترسل الى الحكومة شيئا من مصنوعاتها

نظرة عامة فى مصانع الغزل والنسيج

كان بمصانع غزل القطن كافة ١٤٥٩ دولابا للغزل منها ١٤٥ دولابا للغزل السميك و١٣١٤ للغزل الدقيق ، وتصنع الاولى ١٤٫٥٠٠ رطل من الخيوط فى كل يوم من أيام الصيف و١٠٫١٥٠ رطلا فى أيام الشتاء ، وتصنع الثانية (دواليب الغزل الدقيق) ١٣٫١٤٠ رطلا فى كل يوم من أيام الصيف و٨٫٥٤٠ رطلا فى أيام الشتاء

وكان يصدر جزء من القطن المغزول الى ثغور البحر الادرياتى وثغور التوسكان (بايطاليا) ومن هناك يرسل الى داخل ايطاليا والمانيا ، اما باقى القطن المغزول فانه ينسج اقمشة فى مصر فتباع الاقمشة المنسوجة فى المدن والقرى بالقطر المصرى ، ويصدر بعضها الى سورية والاناضول وجزر بحر الارخبيل ، قال المسيو مانجان وكان يمكن أن تزاد مصنوعات الفابريقات بمقدار الخمس اذا ضاعف رؤساء العمل رقابتهم على العمال واذا دفعت اجور هؤلاء بانتظام

وقد راجت الاقمشة التى صنعتها الفابريقات المصرية فى الاسواق رواجا اضر بالواردات الاجنبية التى من نوعها وخاصة المصنوعات الرخيصة كالبصمة (الشيت) فان وارداتها قلت عن ذى قبل ، والبفتة الهندية بعد ان كانت تغمر الاسواق المصرية انقطع الوارد منها لما حلت محلها البفتة المصرية ، وكذلك حصل لاقمشة البنغال

ولكن العيب الجوهرى فى مصانع الغزل والنسيج التى أنشأها محمد على انها كانت قائمة على نظام الاحتكار ، وهذا النظام لا يتفق والتقدم الصناعى ، وقد انتقده المسيو مانجان الذى عاينه وخبره فقال فى صدده إن الصناعة الحرة هى التى

توافق مصلحة الأهلين ومصلحة الحكومة معاً ، وكان من الأوفق ترك الصناعة حرة في يد الأهالى ما عدا بعض مصانع غزل القطن التى يمكن الحكومة أن تربح من بقائها ، وقال ان كثيراً من الأيدى العاملة التى تستخدمها الحكومة فى معاملها كانت تعود على البلاد بفائدة أكبر لو اشتغلت فى الزراعة

والواقع ان معظم المصانع التى أنشأها محمد على قد أقفلت فى أواخر عهده وأقفل باقيها فى عهد عباس باشا الأول ، وسبب اضمحلالها أن إدارتها كانت فى يد موظفى الحكومة ، فانعدمت فيها الادارة الحرة التى هى مناط ارتقاء المشروعات الصناعية والاقتصادية ، ولم يكن الموظفون أمناء ولا أكفاء لادارتها ولا غيورين على عملهم فيها ، فأدى سوء الادارة فى معظم تلك المصانع وضعف الرقابة على الموظفين الى اضمحلالها ، وكانت الحكومة تستورد الفحم والآلات من أوروبا وتنفق على إدارة المصانع النفقات الطائلة ، فكانت النتيجة أن إيراداتها قلت على مر السنين عن مصروفاتها وتسبب عنها خسارة على خزانة الحكومة ، كما أن إنقاص الجيش والبحرية فى أواخر عهد محمد على قد عطل المصانع التى تصنع حاجات الجيش لعدم الحاجة الى مصنوعاتها

ولكن مما لا نزاع فيه ان انشاء مصانع الغزل والنسيج كان اساسا لنهضة صناعية كبيرة وتجربة جليلة يمكن الاستفادة منها لاقامة النهضة الصناعية على قواعد صحيحة

مصانع نسيج الكتان

كانت الاقمشة الكتانية تصنع فى مصر قبل عصر محمد على ، ومصانعها موزعة فى مختلف المديريات وقد بلغت ماتنتجه فى ذلك العصر كل سنة ثلاثة ملايين مقطع يستهلك اكثرها فى مصر ويصدر قسم منها الى (تريستا) و (ليفورن) وكان فى مصر ثلاثون ألف نول لنسيج اقمشة الكتان

معمل سبك الحديد

أقيم فى بولاق مسبك للحديد وهو بناء مشيد تشييدا فخما وله منظر رائع ، وكان يؤدى أعظم الخدمات ، وقد تكلف البناء وحده نحو ستين ألفا من الجنيهات ، وضع تصميمه المستر جلو يه المهندس الميكانيكى الانجليزى الذى كان يشتغل فى خدمة الحكومة ، وجعله على نموذج مسابك لندره ، وكان يتولى رآسة العمل فيه رئيس انجليزى يعاونه خمسة من العمال الانجليز وثلاثة من المالطيين واربعون تلميذا مصريا موزعين على جميع أقسام المسبك ، ورئيسه القائد ادهم بك الذى تكلمنا عنه آنفا

وكان يصب فى هذا المسبك كل يوم خمسون قنطارا من الحديد المعد لصابورة السفن والآلات اللازمة للمعامل والفابريقات

مصنع الواح النحاس

وانشأت الحكومة مصنعا لعمل ألواح النحاس التى كانت تبطن بها السفن ، وتولى ادارته المستر جالويه الميكانيكى الانجليزى يعاونه أربعة رؤساء عمل ، اثنان للاسطوانة ، وثالث لمراقبة الآلة البخارية ، والرابع للسبك وتنقية النحاس من المواد الغريبة

وكان فى المصنع عشرون عاملا مصريا من العمال الفنيين موزعين على الاعمال المختلفة ، منهم واحد للسبك ، وثلاثه للاسطوانة ، يشتغلون فى اخراج ألواح النحاس ، وعملية السبك الواحدة تقتضى ٣٥ قنطارا من النحاس ، والاسطوانات تخرج كل يوم من سبعين الى مائة لوح من النحاس مختلفة المقاس والسمك

معامل السكر فى الوجه القبلى

أسست الحكومة سنة ١٨١٨ معملا للسكر فى (الريرمون) (١) على مثال

(١) الان من بلاد مركز ملوى بمديرية أسيوط

مصانع السكر فى جزائر الانتيل بامريكا تولى ادارته فى اول امره انجليزى ثم خلفه صاحب مصنع فى جزيرة كورسيكا ، وقد اشتهر هذا المعمل بحسن الادارة والنظام والاقتصاد، فاتسعت اعماله وتقدمت حاصلاته وانتشرت مقطوعيته فى البلاد ، ولكن استيراد السكر المكرر من معامل اوروبا منذ سنة ١٨٢٦ أضر بانتاج معمل الريرمون وفضل الناس السكر الوارد من اوروبا لجودته ورخص اسعاره

وبلغ انتاج معمل الريرمون (سنة ١٨٣٣) ١٢ر١٩٥ قنطارا من السكر الخام ، وأنشأت الحكومة معملين آخرين للسكر أحدهما فى (ساقية موسى) والثانى فى الروضة (مركز ملوى) ، وقد كرر من السكر الخام فى المعمل الاول ٥ر٢٠٠ قنطار واستخرج الروم من مصنع الريرمون واستعمل لهذا الغرض ٤ر٨٠٠ قنطار من العسل

مصانع النيلة

وأنشئت مصانع للنيلة فى شبرا شهاب ، والعزازنة ، وميت غمر ، والمنصورة ، ومنوف ، وابيار ، والأشمونيين ، وبركة السبع ، والمحلة الكبرى ، والجيزة ، وأبوتيج ، وملوى ، ومنفلوط ، وطهطا ، وأسيوط ، والفشن ، وهذه المصانع تستنفد سدس محصول القطر المصرى ، وكانت النيلة ترسل من المصانع الى القاهرة حيث تبيعها الحكومة وتصدر منها للخارج بعد استنفاد حاجة المستهلكين

مصانع اخرى

وانشئت مصانع اخرى مختلفة ، منها مصنع للصابون ، ومدبغة للجلود برشيد ، ومصنع للزجاج والصينى ، وآخر للشمع ، وانشىء مصنع للورق ولكنه لم ينجح فى تجربته وأهمل العمل فيه(١) ، ومعاصر للزيت وكانت موجودة من قبل

---

(١) كما يقول كادلفين فى كتاب (مصر والنوبة) ج ١ ص ١٣١

اعمال العمران الاخرى

وقد عنى محمد على بعمران المدن بما استحدثه فيها من المبانى العامة كالقصور والمصانع ودور الحكومة وما اليها ، فمن ذلك انه انشأ بالقلعة قصره الشهير الذى كان مقر الحكم فى عهده ، وقصر شبرا ، وسراى رأس التين بالاسكندرية وهى اعظم قصوره وأفخمها ، وابتنى القصور فى بعض عواصم المديريات ليقيم بها اثناء تجواله بالاقاليم

وانشأ الدفترخانة بجوار القلعة لتحفظ بها وثائق الحكومة ودفاترها وسجلاتها ، وهى من اجل منشآته ولا تزال قائمة تؤدى الغرض منها ، وقد حفظت وثائق الحكومة طوال هذه السنين بعد ان كانت تبدد و يعفى اثرها قبل ذلك العهد

واصلح قنطرة المجراة التى كانت تنقل المياه من النيل بمصر القديمة الى القلعة ، وفتح طريقا واسعا محفوفا بالاشجار بين مصر وشبرا ، وهدم كثيرا من التلال والكيمان التى تحيط بالقاهرة أو تتخللها وتثير الرياح ما بها من الاتربة والقاذورات وتهيلها على المدينة فتفسد الجو وتضر بصحة الناس وابصارهم

واصلح بركة الازبكية واحتفر حولها قناة تنصرف اليها مياه البركة فظهرت ارضها وتحولت الى بستان كبير ، وهو البستان الذى انشئت فى وسطه حديقة الازبكية الحالية على عهد اسماعيل

و بنى جامعه الكبير بالقلعة وأوصى أن يدفن فيه

وانشأ داراً للرصد (رصدخانة) فى بولاق ولكن ادارتها لم تنتظم فأقفلت فى اواخر عهده ، واصدر امرا بمنع خروج الآثار القديمة من مصر وتأسيس دار للآثار فى منزل الدفتردار ، وعنى باستخراج الاحجار والرخام من المحاجر المصرية

وعنى بعمران الاسكندرية التى تقدمت تقدما عظيما فى عهده بفضل وصول ترعة المحمودية اليها وانشاء الترسانة والاسطول بها ولانها صارت ملتقى التجارة بين

مصر والخارج وكان يطيل الاقامة بها كل سنة ، وقد فتح شارعا كبيرا مرصوفا بالاحجار بين باب رشيد وسراى رأس التين

وانشأ مدينة الزقازيق لمناسبة بناء قناطر بحر مويس ، وعنى بشؤون البلاد الصحية كما بيناه فى الكلام عن كلوت بك وانشأ المستشفيات والمحاجر الصحية على النظام الاوروبى

ورتب البريد يُحمل برًّا على ايدى السعاة يقطعون المراحل على متون الجياد وبحراً على ظهر السفن

وانشأ خطوطا تلغرافية بان اقام أبنية مرتفعة على شكل ابراج ممتدة على خط واحد ، واقام على كل بناء آلة التلغراف على طريقة (شاب) القديمة فكانت الانباء تنقل من مرحلة الى اخرى الى ان تصل الى الجهة المقصودة ، وتستغرق الرسالة التلغرافية بهذه الطريقة من الاسكندرية الى مصر خمسا وثلاثين دقيقة (١) اما التلغراف الحالى فقد ادخله سعيد باشا

وشرع فى انشاء سكة حديدية من القاهرة الى السويس بطريق الصحراء ولكن المشروع لم يدخل فى دور التنفيذ وعدل عنه محمد على ، واستخدمت القضبان التى اعدت له فى مد سكة حديدية قصيرة بمحاجر طره (٢) لنقل الاحجار الى شاطئ النيل كى تستعمل فى بناء القناطر الخيرية

التجارة

اتسع نطاق تجارة مصر الخارجية فى عصر محمد على لازدياد حاصلاتها وخاصة القطن ، وقد ربحت الحكومة منها ارباحا وفيرة لانها كانت تحتكر التجارة الخارجية باجمعها .

وقد ساعد انشاء الاسطول فى البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط على توسيع نطاق المواصلات البحرية بين مصر والبلدان الاخرى ، وكان لاصلاح ميناء

---

(١) كما قدرها كادلفين فى كتاب (مصر والنوبة) ج ١ ص ٨٧

(٢) لينان (مذكرات عن اهم اعمال المنفعة العامة فى مصر) ص ٥٤٠

الاسكندرية فضل كبير فى هذا الصدد ، فنشطت التجارة الخارجية نشاطا عظيما ، ومنذ انشىء أسطول مصر فى البحر الاحمر فكر محمد على فى اعادة طريق التجارة بين الهند واوروبا عن طريق مصر بعد أن تعطلت زمنا طويلا لاكتشاف راس الرجاء الصالح (١) فبسط سيادة مصر فى البحر الاحمر وطهره من القرصان الذين كانوا يتهددون السفن التجارية فيه ، ومد طريقا لسير قوافل التجارة بين السويس والقاهرة وانشأ به المحطات و بسط الامن فى مراحله لتأمين القوافل على متاجرها ، وأنشأ لذلك ديوانا سمى ديوان المرور كان مقره بالازبكية ، وكانت المتاجر القادمة من البحر الاحمر ترسل من السويس الى النيل ثم الى الاسكندرية ، فأعاد جهد المستطاع سبيل المواصلات القديم بين الشرق واوروبا عن طريق مصر

وقد لفت هذا الطريق انظار الشركة الهندية الانجليزية ورأته آمن واقصر من طريق رأس الرجاء الصالح وطريق البصرة والفرات وحلب والاسكندرونة ، فاتفقت مع الحكومة المصرية على نقل طرود البريد والمسافرين عن طريق السويس ، وكان المستر (توماس واجهورن) أحد كبار موظفيها واسطة هذا الاتفاق ، وقد لقى من محمد على باشا تعضيدا كبيرا فكانت السفن التجارية تسير من عباى الى السويس ثم ينتقل منها البريد والسياح الى الاسكندرية عن طريق القاهرة ومن الاسكندرية الى مرسليا بحرا ومنها الى انجلترا

الصادرات والواردات

تتألف صادرات مصر فى ذلك العهد من القطن ، والارز ، والحبوب ، والصمغ ، والانسجة الكتانية ، والصودا ، والتمر ، والخضر الجافة ، والافيون ، والحناء ، وغير ذلك

وكانت تستورد من الخارج الانسجة القطنية ، والاجواخ ، والطرابيش ، والانسجة الصوفية ، والاثواب الحريرية ، والاخشاب ، والحديد ، والاوانى ، والخردوات ، والنحاس ، والسكاكين ، والورق ، والعقاقير ، واصناف العطارة ،

---

(١) انظر الجزء الاول ص ٥٠

والفحم ، والقرمز ، والسكر ، والزجاج ، والمرايا ، والزيوت ،والانبذة ، والمشروبات الروحية ، وغير ذلك ، واحصى الدكتور كلوت بك تجارة مصر الخارجية مع اوروبا وتركيا سنة ١٨٣٦ فبلغت بحسب احصائه(١)

٢ر١٩٦ر٠٠٠ جنيه للصادرات و ٢ر٦٧٩ر٠٠٠ جنيه للواردات

واورد على باشا مبارك(٢) احصاءً عن صادرات وواردات الاسكندرية دون سواها من سنة ١٨٢٣ الى سنة ١٨٤٢ استخلصنا منه البيان الآتى :

	الصادرات	الواردات
سنة ١٨٢٣	١ر٥٨٤ر٧٦٤ ج	٨٠٤ر٥١٩ ج
سنة ١٨٤٢	١ر٨٠٦ر٨٨٠ ج	٢ر٤٧٠ر٩٢٠ ج

(١) لمحة عامة الى مصر ج٢ ص ٣٢٧ من الاصل الفرنسى
(٢) الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٥٩

الفصل الرابع عشر

نظام الحكم

النظام السياسى

كانت الحكومة المصرية على عهد محمد على حكومة مطلقة تسود فيها قاعدة حكم الفرد، لكن الفرق بينها وبين ما كانت عليه فى عصر المماليك، ان محمد على باشا وضع نظاما لادارتها، فحل هذا النظام محل الفوضى والارتباك، فهو وان كان يعد من دعاة الحكم المطلق (وهذه نقطة ضعف فى تاريخه)، الا أن ميزته انه كانت لديه فكرة النظام والاصلاح كما انه كان يميل الى مشاورة مستشاريه فى الامور قبل ابرامها

الدواوين

ومن هنا جاءته فكرة تأسيس بعض المجالس أو الدواوين التى كان يرجع اليها فى مختلف الشؤون

فقد ألف مجلسا للحكومة يسمى (الديوان العالى) ومقره القلعة، وكان يتداول مع اعضائه فى الشؤون المتعلقة بالحكومة قبل الشروع فى تنفيذها، ورئيس هذا الديوان يلقب بكتخدا بك او كتخدا باشا وهو بمثابة وكيل الباشا او نائبه، وله سلطة واسعة المدى فى كافة شؤون الحكومة، وكان بمثابة رئيس الوزراء ووزير الداخلية، وصار هذا الديوان يعرف على مدى السنين بالديوان الخديوى وسمى أيضا وقتاً ما (ديوان المعاونة)

وألف على التعاقب لكل فرع من فروع الحكومة مجلسا أو (ديوانا) يختص به، فكان هناك ديوان للحربية (الجهادية) وديوان للبحرية، وديوان للتجارة والشؤون الخارجية، وديوان للمدارس (المعارف العمومية) وديوان للابنية وآخر للاشغال، وكانت هذه الدواوين بمثابة فروع وأقسام للديوان العالى

ولما تقدمت شؤون الحكومة ألف سنة ١٨٣٤ مجلساً دعاه (المجلس العالى) يتألف من نظار الدواوين و رؤساء المصالح واثنين من العلماء يختارهما شيخ الجامع الازهر ، واثنين من التجار يختارهما كبير تجار العاصمة ، واثنين من ذوى المعرفة بالحسابات واثنين من الاعيان عن كل مديرية من مديريات القطر المصرى ينتخبهما الاهالى

وعين لرآسة هـذا المجلس عبدى شكرى بك (باشا) أحد خريجى البعثة العلمية الأولى ، وكان قد تلقى فى فرنسا علم الادارة والحقوق ، ومدة عضوية اعضاء المجلس النائبين عن التجار والعلماء والمديريات سنة واحدة

وغنىٌ عن البيان ان هـذه المجالس أو الدواوين لم تكن على درجة كبيرة من الرقى وحسن النظام ، لـكنها كانت الخطوة الأولى لنظام حكومى لم تعرف البلاد مثله من قبل حيث كانت الفوضى ضاربة إطنابها فى مختلف نواحى الحكم .

قال الدكتور كلوت بك فى هـذا الصدد « من المحقق ان هـذه الهيئات الحكومية لم تبلغ درجة الاتقان ، لكن ينبغى ملاحظة مابذله محمد على من الجهود فى هـذا السبيل وما بثه من روح النظام وتقرير اوضاعه وما اظهره من سداد النظر وصدق العزيمة فى وضع النظام الادارى الحكومى ، ولا ريب انه اذا توافر عنده الوقت الكافى وتخلص من مشاغله الحالية [١] ، وخرجت المدارس عددا كافيا من الاكفاء سيضع لمصر نظاما دستوريا ثابتا يكون قد بحثه ونفذه بما عهد فيه من الحكمة » [٢]

مجالس المشورة (سنة ١٨٢٩)

كانت المجالس المتقدمة مجالس حكومية تنفيذية تتألف فى الجملة من كبار الموظفين ، ولم تكن هيئات شعبية تمثل طبقات الأمة أو يصح اعتبارها نواةً لنظام نيابى أو شبه نيابى ، ولـكنَّ هيئةً واحدةً ألفها محمد على سنة ١٨٢٩ يصح أن تعد

---

(١) سنة ١٨٣٩ ابان اشتداد الازمة بينه وبين تركيا

(٢) لمحة عامة الى مصر تأليف الدكتور كلوت بك وتعريب الاستاذ محمد مسعود بك

نواة لنظام شورى وهى (مجلس المشورة) ويتألف من كبار موظفى الحكومة والعلماء وأعيان القطر المصرى برآسة ابراهيم باشا، وهذا المجلس يشبه فى عدد أعضائه وتمثيلهم لمختلف الطبقات أن يكون جمعية عمومية مؤلفة من ١٥٦ عضواً ، منهم ٣٣ من كبار الموظفين والعلماء ، و ٢٤ من مأمورى الأقاليم ، و ٩٩ من كبار أعيان القطر المصرى

وهو من جهة التمثيل أفضل من (الديوان العومى) الذى أنشأه نابليون فى عصر الحملة الفرنسية ، فإن هذا الديوان كان مؤلفاً من أعيان وتجار القاهرة فقط(١) ، وهو أقرب فى تشكيله الى (الديوان العام) الذى أسسه نابليون أيضاً ، إذ كان مؤلفا من العلماء والأعيان النائبين عن مختلف مديريات القطر المصرى(٢)

أما من جهة السلطة فلم يكن لمجلس المشورة سوى سلطة استشارية ، وكذلك الديوان العمومى والديوان العام فى عهد الحملة الفرنسية ، وكانت مشورته مقصورة على مسائل الادارة والتعليم والأشغال العمومية ، وما يقترحه الاعضاء فى هذا الصدد مما ترشدهم اليه اختباراتهم، وينظر فى الشكايات التى تقدم اليه ، وينعقد مرة واحدة فى السنة ويجوز أن يستمر الانعقاد عدة جلسات

أعضاء مجلس المشورة

يهمنا كثيراً أن نذكر هنا أسماء أعضاء مجلس المشورة ، فمنهم تألفت أول هيئة نيابية شورية فى عصر محمد علي ، وجدير بنا أن نعرف أسماءهم بعد أن أثبتنا فى الجزأين الأول والثانى أسماء أعضاء الهيئات التمثيلية التى تألفت على التعاقب فى عهد الحملة الفرنسية (٣) لكى يكون لدينا صورة جلية لمن يصح التعبير عنهم بأنهم نواب الشعب فى مختلف أدوار الحركة القومية ، ولنقف من هذا البيان على اسماء كبار أعيان مصر فى ذلك العصر ، لأن الذين انتخبوا لعضوية مجلس المشورة كانوا بالبداهة رؤساء العشائر والعائلات وكبار الأعيان البارزين فى القاهرة والأقاليم

---

(١) انظر الجزء الثانى ص ١٥ (٢) انظر الجزء الأول ص ١٠٤

(٣) انظر الجزء الاول ص ٩٦ والجزء الثانى ص ١٦و١٨و٢٢٠

ذكرت جريدة (الوقائع المصرية)(١) نبأ انعقاد مجلس المشورة لأول مرة، فقالت إنه اجتمع عصر يوم ٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ (٢ سبتمبر سنة ١٨٢٩) فى قصر ابراهيم باشا (القصر العالى) وتحت رآسته، وحضر الاجتماع جميع الأعضاء وعرض عليه كل الشؤون الخاصة بالأقاليم خصوصاً ما كان موجوداً منها بالديوان العالى، وذكرت أسماء الأعضاء ننقلها بترتيب نشرها فى الوقائع مع بيان وظائفهم وألقابهم بعد حذف عبارات التفخيم التى كانت مألوفة فى لغة ذلك العصر

ابراهيم باشا، رئيس المجلس

اعضاء من رؤساء مصالح الحكومة والعلماء

عباس باشا (حفيد محمد على)، احمد باشا مأمور الاقاليم الوسطى، محمد خسرو بك مأمور الجيزة والمنوفية والبحيرة، شريف بك (الكتخدا بك) مأمور الاقاليم الصعيدية، محمود بك ناظر الجهادية، السيد البكرى نقيب الاشراف، السيد السادات، الشيخ الأمير مفتى المالكية، الشيخ محمد المهدى مفتى الحنفية، الشيخ على، الحاج ابراهيم افندى ناظر مجلس المشورة، كتخداى اغا والى جدة، أمير اللواء محمد بك ناظر عموم المهمات الحربية ومعمل البارود والطبخانة وعموم الفابريقات، حسن اغا رئيس بوابى الركاب العالى وناظر المواشى الأميرية، خليل افندى ناظر الترسانات، عبد الباقى افندى مدير خزينة الجهادية وباشمحاسبجى، محمد افندى الداوندار سابقا، محمد امين افندى ناظر الابنية الاميرية، حسين بك ناظر الارز والغلال، الحاج عبد الله اغا سركردكان، حسين اغا ناظر الجوقة، عمر افندى ناظر الجلود، محمد افندى ناظر المنسوجات، أمين افندى ناظر البيع، حافظ افندى معاون الفابريقات، عرفى افندى معاون جورنال المحروسة، احمد مميش افندى المعاون، محمد عارف افندى المعاون، على راغب افندى المعاون، خالد افندى المعاون، سامى افندى محرر الوقائع المصرية، كاشف أفندى باشكاتب الوقائع

---

(١) عدد ٤٩

أعضاء من مأمورى الاقاليم

خليل بك محافظ دمياط ، سليمان اغا مأمور الجعفرية ، حسين بك مأمور زفتى ، حسين اغا مأمور الفيوم ، اسماعيل اغا مأمور نصف البهنسا ، حسن بك مأمور الجيزة ، رستم افندى مأمور نصف المنوفية ، محمد افندى مأمور نصف المنوفية ، رستم افندى مأمور نصف البحيرة ، حسن افندى مأمور نصف الشرقية ، ابراهيم اغا مأمور طنطا ، ابراهيم بك مأمور نبروه ، محرم اغا مأمور نصف البهنسا ، تيمور اغا مأمور نصف الشرقية ، يوسف افندى مأمور فوه ، صالح افندى مأمور ميت غمر والسنبلاوين ، محمد اغا مأمور القليوبية ، ابراهيم اغا مأمور شرق اطفيح ، الحاج عبد الرازق اغا مأمور محلة دمنه ، محمود اغا مأمور المنيا ، محمد افندى مأمور اسيوط ، حسين اغا مأمور منفلوط ، الشيخ المصرى بجرنال المحروسة ، الشيخ عبد الله فواز بجرنال اسيوط

مشايخ واعيان الاقاليم

(الجيزة) الشيخ حسن ، الشيخ عبد الواحد

(السنبلاوين) الشيخ موسى خليفة ، الشيخ حفناوى ، الشيخ على الغول ، الشيخ اسماعيل ابوجاد ، الشيخ خضر ، الشيخ عبد الرحيم سلامى ، الشيخ حسين سالم ، الشيخ احمد سعدى

(ميت غمر) الشيخ رزق الله ، الشيخ الحاج شريف ، الشيخ محمد خليل ، الشيخ عبد الله هلال ، الشيخ حنفى شرف الدين ، الشيخ على غندور ، الشيخ الحاج منصور ، الشيخ همام حبيب ، الشيخ عيسى سالم ، الشيخ قاسم طه ، الشيخ محمد المغربى ، الشيخ سليمان حجاب ، الشيخ سليمان منصور

(الفيوم) الشيخ نصر عثمان ، الشيخ محمد الشبكى

(زفتى) الشيخ محمد فتوح ، الشيخ على سالم

(اشمون جريس) الشيخ محمد عبيد

(منوف) الشيخ ابراهيم شحاته
(ابو كبير) الشيخ ايوب عيسوى ، الشيخ عبد الغالب سالم ، الشيخ صالح ، الشيخ منصور ، الشيخ على المكاوى ، الشيخ مصطفى على
(شيبة «شرقية») الشيخ حسن اباظه ، الشيخ غيث ، الشيخ بغدادى اباظه
(مليج) الشيخ محمد ابو عامر ، الشيخ ابو عماره
(ابيار) الشيخ حاجى سليمان ، الشيخ حاجى احمد
(غربية) الشيخ ابراهيم ابو در باله ، الشيخ على ابو احمد
(ههيا) الشيخ احمد دريبه
(قسم اول شرقية) الشيخ ابراهيم سالم ، الشيخ محمد خضر ، الشيخ محمد عليوه
(المنيا) الشيخ فرج ، الشيخ عبد الهادى
(الفشن) الشيخ على شريعى ، الشيخ حبيب
(شرق اطفيح) الشيخ حسين ابو على ، الشيخ حماد
(بنى سويف) الشيخ بكر بدر ، الشيخ محمد الخولى ، الشيخ عبد الرحمن ابو زيت
(سمنود) الخواجه على
(بشبيش) الشيخ ابو يوسف ، الشيخ احمد سرجانى ، الشيخ حسن ابو زيت
(نبروه) الشيخ على كرفوز ، الشيخ فوده ، الشيخ احمد ابو اسماعيل ، الشيخ غانم محمد ، الشيخ اسماعيل رضوان ، الشيخ محمد ابو على
(المحلة الكبرى) الشيخ حبيب جاويش ، الشيخ مطاوع دهلان ، الشيخ مصطفى ، الشيخ عيسوى خضر ، الشيخ على ابو عامر
(الشباسات) الشيخ يونس ، الشيخ عبد الرحمن ، الشيخ شمس الدين ، الشيخ اسماعيل
(كفر الشيخ) الشيخ محمد ابو صادر ، الشيخ عمر ، الشيخ ابراهيم سليمان
(فوه) الشيخ يوسف رجب

(طنطا) الشيخ احمد المنشاوى ، الشيخ احمد ربع ، الشيخ على ابو عائد
(العزيزية) الشيخ موسى ، الشيخ محمد عبد الله ، الشيخ ابراهيم ، الشيخ ابو نصير
(المحلة) الشيخ يوسف سماح ، الشيخ محمد عبد الله ، الشيخ الخولى عبيد
(دمنهور) الشيخ دسوقى خير الله
(الرحمانية) الشيخ محمد
(النجيلة) الشيخ مصطفى
(كفر الزيات) الشيخ حسن سليمان
(القليوبية) الشيخ محمد القاضى ، الشيخ خضر ، الشيخ محمد الشواربى ، الشيخ جمعه منصور ، شيخ العرب احمد حبيب

بعض اعمال مجلس المشورة

يتبين من الاطلاع على مانشرته الوقائع المصرية من قرارات مجلس المشورة نوع الاعمال التى كان يتداول فيها ، فغالبها كان خاصا بالادارة والتعليم والاشغال والقضاء ، ومعظم قراراته كان بناء على اقتراحات الاعضاء الموظفين فيه

ومما يلفت النظر أن أول قرار له فى أولى جلساته كان خاصا بالتعليم ، اذ قرر اعداد مكتب لتعليم كتبة الديوان اللغتين العربية والتركية ، واحوال الفلاحة ، وتعيين محمد افندى دو يدار ناظرا لهذا المكتب ، والشيخ مصطفى مدرسا للغة العربية ، وقرر انه كلما يتم تعليم عدد من كتبة الديوان يرسلون الى الاقاليم ويجىء خلافهم لتعليمهم ثم ارسالهم « ويستمر العمل حتى يصير القائمون بالعمل فيهم الكفاءة لادارة مصالح البلاد »

فالقرار كما ترى مفيد وحكيم ، اذ هو يرمى الى ترقية المستوى العلمى لكتبة الدواوين وارسال من يتم تعليمهم الى الاقاليم حتى يشغلوا الوظائف عن جدارة واستحقاق ، وذلك هو عين الصواب

وقرر فى جلسة ١٢ ربيع الاول ارتداء جميع الموظفين كساوى الجهادية ، وقرر فى جلسة ١٣ ربيع الأول بناء على طلب الدفتردار (مدير الشؤون المالية) جعل اعمال السخرة بالمناوبة بحيث يتناوب أهل كل بلد العمل أسبوعا بعد أسبوع ، إلا إذا كان كثيراً فيستخدمون بأجمعهم حتى يتم ، ولا يعفى من العمل إلا عمال الفابريقات

وقرر فى هذه الجلسة ذاتها بناء على طلب مأمور السنبلاوين أن يكون عمل الفلاحين فى التطهيرات و بناء القناطر و إصلاح الجسور فى أشهر توت و بابه وكيهك، وطوبه وأمشير وبرمهات وبؤونه ، و بنى اقتراحه على أن الفلاحين فى باقى أشهر السنة يكونون مشغولين بالزراعة والحصاد وجنى القطن ، فوافق المجلس على الاقتراح ، وكلف مأمور الديوان الخديوى بأن يأمر بذلك نظار الأقسام ومأمورى الأقاليم

ومن قراراته انه قرر أخذ ١٠٠ غلام من كل ثمن من أثمان القاهرة و بولاق ومصر القديمة وجملتهم ١٠٠٠ غلام لتشغيلهم بالأجرة فى فابريقات الحكومة ، وكذلك قرر أخذ الصالحين للعمل من المتسولين (الشحاذين) للالتحاق بهذه الفابريقات وأن يرتب لهم أرزاق يومية و بعد تعلمهم الصناعة ترتب لهم أجور يومية ، ولهذا القرار قيمته فى تعليم الصناعة ومحاربة البطالة

وبحث فى عقاب الموظفين ومشايخ البلاد (العمد) الذين تمتد يدهم الى الرشوة (البرطيل) أو سلب أموال الأهالى ، فقرر إلزامهم برد ما أخذوه ومجازاتهم بالعقوبات الشديدة

ويقول المسيو لينان باشا فى كتابه (مذكرات عن اهم اعمال المنفعة العامة بمصر ص ٤٣٣) انه عرض مشروعه فى بناء القناطر الخيرية على مجلس المشورة ، فطلب منه المجلس بيان ما يقتضيه المشروع من النفقات ، فابدى له رقما تقديريا ، ويطالعنا المسيو لينان بحقيقة هذا المجلس فقد قال عنه انه « مؤلف من مشايخ الاقاليم الذين كان المراد ان يحلوا محل الترك فى الحكم ، ولكنه لم يدم طويلا » ،

فيتبين من ذلك ان هذا المجلس الذى كان يمكن أن يكون نواة لنظام نيابى لم يكن طويل العمر ، ولذلك لم يظهر له أثر فى معظم عهد محمد على

القانون الاساسى سنة ١٨٣٧

وفى سنة **١٨٣٧** وضع محمد على باشا قانونا اساسيا يعرف بقانون (السياستنامة) احاط فيه بنظام الحكومة واختصاص كل مصلحة من مصالحها العامة ، وقد حصر السلطة فى سبعة دواوين وهى

(أولا) — الديوان الخديوى ، وينظر فى شؤون الحكومة الداخلية العامة ، وله سلطة قضائية إذ كان يفصل فى بعض الدعاوى الجنائية ، فقد ورد فى لائحة تأسيسه انه يختص بالضبط والربط فى مدينة القاهرة والفصل فى الخصومات والشكايات التى ترفع اليه ، اما الدعاوى الشرعية فكان يحيلها الى المحاكم الشرعية ، وكان يختص بالحكم فى جرائم القتل والسرقات الى ان انشئت سنة **١٨٤٢** (جمعية الحقانية) التى سيرد الكلام عنها ، وكان له الاشراف والرآسة على عدة مصالح ، منها مصلحة الابنية (المبانى) وفروعها ، والمخبز الملكى ، والكيلار العامر (ادارة المخصصات الغذائية للباشا) ، والسلخانة ، والقوافل ، وديوان المواشى ، وترسانة بولاق ، والمستشفيات الملكية ، والروزنامة (ادارة اموال الميرى) و بيت المال ، والاوقاف المصرية ، والتمرخانة ، وجبال المرور ، ومحاجر طره وأثر النبى ، ومهمات ترعة المحمودية ، وخزينة الامتعة ، والبوستة ، وأمور الاحكام باسكندرية

(ثانيا) — ديوان الايرادات ، وهو قسمان ، أحدهما يختص بحسابات كافة المديريات وجزيرة كريد والحجاز والسودان ، والثانى يختص بايراد مدينتى مصر والاسكندرية والكمارك والمقاطعات والزمامات ، وكان لهذين القسمين مفتشون يعرفون بمفتشى الاقاليم للتعقيب على المصالح

(ثالثا) — ديوان الجهادية ، واليه يرجع النظر فى نظام الجنود البرية وضبط وربط حركاتها وتعليماتها ، ومهمات الفيالق والشكنات ومواضع الخيام والقلاع ،

والمستشفيات العسكرية، والشؤون الصحية للجنود وورش ومخازن المهمات الحربية، ومعامل البارود وتعلقاتها واشوان المؤن العسكرية والمخابز، وعلى العموم كافة المصالح العسكرية

رابعا — ديوان البحر، واليه يرجع النظر فى ادارة وتنظيم الدونانمة (الاسطول) وضبط وربط حركاتها، والترسانة والمخازن والخزينة البحرية وتجهيز المهمات والمؤونة وسائر حاجات الدونانمة والمستشفيات البحرية

خامسا — ديوان المدارس وإليه يرجع النظر فى أمور المدارس الابتدائية والتجهيزية والخصوصية (العالية) والكتبخانات ومخازن الآلات والادوات، والقناطر الخيرية، ومطبعة بولاق وادارة الوقائع المصرية ومصلحة الأمور الهندسية وادارة زرائب المارينوس والاصطبلات الكبرى فى شبرا

سادسا — ديوان الأمور الافرنكية والتجارة المصرية واليه يرجع النظر فى العلاقات الخارجية ومعاملة الأجانب وبيع متاجر الحكومة ومشترياتها

سابعا — ديوان الفابريقات واليه يرجع النظر فى ادارة فابريقة الطرابيش فى فوه وكافة الفابريقات التى كانت توجد فى مدينة مصر ومدن الاقاليم

وكان مفروضا على رئيس كل من هذه الدواوين ان يقدم للباشا تقريرا فى كل اسبوع عن احوال ديوانه وكشفا شهريا بحساباته الى تفتيش الحسابات وميزانية سنوية عن الايراد والمصرف

المجلس الخصوصى والمجلس العمومى

وفى يناير سنة ١٨٤٧ ألف محمد على ثلاثة مجالس جديدة عدا الهيئات المتقدمة، اهمها (المجلس الخصوصى) واختصاصه النظر فى شؤون الحكومة الكبرى وسن اللوائح والقوانين واصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة وكان يرأسه ابراهيم باشا، واعضاؤه كتخدا باشا (عباس باشا حفيد محمد على) واحمد باشا يكن وحسن بك رئيس جمعية الحقانية، وبرهان بك

و (المجلس العمومى) او (الجمعية العمومية) بديوان المالية وهى هيئة مؤلفة من مدير المالية ووكيل الديوان الخديوى ومدير المدارس (ادهم بك) ومدير الحسابات (باسليوس بك) ومفتش الفابريقات (لطيف بك) ومفتش الشفالك (حافظ بك) ورؤساء اقلام دواوين الحكومة، و ينعقد هذا المجلس مرتين فى الاسبوع على الاقل و ينظر فى شؤون الحكومة العمومية التى تحال عليه و يرسل قراره الى (المجلس الخصوصى) فاذا وافق عليه احاله على الباشا ليأمر بتنفيذه اذا اقره

و (مجلس عمومى) آخر بالاسكندرية يختص بالنظر فى شؤونها يرأسه ناظر ديوان الاسكندرية واعضاؤه ناظر ديوان البحرية وناظر ديوان التجارة ومأمور الضبطية وامين الجمرك وناظر الترسانة ووكيل الدونانمة

نظرة عامة فى هـذا النظام

إن انشاء حكومة قوية من أجلّ الاعمال التى قام بها محمد على ، لانها قضت على الفوضى التى كانت ضاربة اطنابها فى البلاد ، وبهذه الحكومة امكنه أن يتم الاصلاحات التى فكر فيها ، وكان لها الفضل الكبير فى نشر لواء الامن فى البلاد وهذا الامن الذى بسطه محمد على باشا كان من أهم دعائم العمران فى وادى النيل ، ومن الحق ان نقول ان استتباب الامن والنظام من مميزات هذا العصر ، لان عصر المماليك اشتهر بفقدان الضبط والربط فلم يكن المزارعون والتجار والملاك يأمنون على مواله‍م واملاكهم بل كانت تتخطفها المناسر وقطاع الطرق ، ومعلومٌ أنه اذا لم يستتب الأمن فى بلد فلا يرجى له تقدم أو حضارة ، فمحمد على قد وضع أول دعامة لعمران مصر بضبط الامن والضرب على ايدى الاشقياء وقطاع الطرق وقرصان النيل ، وهذا من أجلّ أعماله مدة حكمه ، قال المسيو جومار فى هذا الصدد « ان من أهم نتائج حكم محمد على وأدعاها للاعجاب بسط رواق الامن بحيث يستطيع

الانسان أن يجتاز الجهات البعيدة عن النيل آمنا مطمئنا بعد أن كان يستهدف لاختطاف العربان اياه اذا تخطى عتبة الصحراء ، بل فى وسط الجهات الزراعية ، وقد اخضعت الحكومة سطوة العربان ومنعت غزواتهم ، ويمكن الانسان أن يسير وسط مضاربهم آمنا على نفسه ، وهم يشتغلون بتربية المواشى والغنم والاتجار بها فى الاسواق »

فتميزة حكومة محمد على انها وطدت دعائم الامن فى البلاد ، و بذلك امكنها أن تقوم بالاصلاحات التى مر بك ذكرها ، ولكن بجانب ذلك لامندوحة عن القول بان محمد على لم يتجه ذهنه قط الى انشاء نظام دستورى أو شبه دستورى بالمعنى المفهوم منه ، وهذه نقطة ضعف وموضع نقد شديد فى تاريخه ، وما الهيئات التى اسسها الا مجالس تنفيذية كانت الكلمة العليا فيها له او لكتخدائه ، ومجلس المشورة لم يعمر طويلا ، والظاهر ان ميوله النفسية لم تتجه الى ناحية النظام الدستورى ، ولو انه عنى بهذه الناحية لامكنه أن يعد الأمة للاضطلاع بمسؤوليات الحكم فى عهده ، ولكنه لم يفعل ، وترك المسألة فوضى بين خلفائه والشعب ، فوقع التصادم بينهما فى اواخر عهد اسماعيل واوائل عهد توفيق حتى أفضى الى الثورة العرابية ثم الى الاحتلال الانجليزى

التقسيم الادارى والموظفون

كانت مصر مقسمة الى ١٦ اقليما طبقا للتقسيم الذى كان معمولا به فى عهد الحكم التركى (١) ، فادخل محمد على تعديلا فى هذا التقسيم بان جعل من مصر سبع مديريات جعل عليها حكاما سماهم المديرين ، وهى التسمية الباقية الى اليوم

وجعل فى الوجه البحرى اربع مديريات ، فالمديرية الاولى تشمل البحيرة والقليوبية والجيزة ، ثم صارت البحيرة مديرية قائمة بذاتها ، وكذلك الجيزة

---

(١) انظر الجزء الاول ص ٥٨

والمديرية الثانية تشمل المنوفية والغربية ، ثم انفصلت كل منهما وصارت مديرية قائمة بذاتها ، والمديرية الثالثة تشمل المنصورة (الدقهلية)، والمديرية الرابعة تشمل الشرقية

وواحدة تتألف منها مصر الوسطى من جنوبى المنيا الى جنوبى الجيزة ، ثم سميت مديرية الاقاليم الوسطى ، وشملت بنى سويف والفيوم والمنيا

واثنتان تتألف منهما مصر العليا ، الاولى من شمالى قنا الى جنوبى المنيا ، والثانية من وادى حلفا الى قنا ، ثم سميت اسيوط وجرجا مديرية (نصف اول وجه قبلى) وسميت قنا واسنا مديرية (نصف ثانى وجه قبلى)

أما القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط والسويس فكل منها محافظة

وقسمت كل مديرية الى مراكز ، والمراكز الى اقسام (اخطاط) ، أما المراكز فقد سمى رؤساؤها المأمورين ، وهى التسمية الباقية الى اليوم ، ورؤساء الاقسام بالنظار ، وهذه التسمية لم يعد لها وجود الآن ، والقسم يشمل فى دائرته جملة نواح (قرى) لكل ناحية رئيس يدعى شيخ البلد الموجود منذ القدم (والمعروف الآن بالعمدة)، وبقى بجانبه (الخولى) ووظيفته مسح الاطيان و (الصراف) لجمع أموال الميرى و (الشاهد) وهو المعروف بالمأذون

فمحمد على هو أول من سمى أقسام مصر الادارية (مديريات) وأول من سمى رؤساءها (مديرين) ، وسمى رئيس المركز مأمورا ، ورئيس القسم ناظرا ، فهذه الاسماء من مبتكراته

البوليس

وكان يتولى ادارة الأمن وحفظ النظام فى القاهرة موظفان كبيران ، يسمى أحدهما الوالى ، وكان موجودا قبل عصر محمد على ، والآخر الضابط (ويسمى ضابط مصر) وهو بمثابة حكمدار البوليس الآن ، ثم آل الامر الى الاقتصار على

الثانى ، وتحت امرته ضباط موزعون فى انحاء المدينة تميزهم من غيرهم علامةخاصة، وعليهم ضبط الأمن ، والمحافظة على سلامة الافراد ، و يقومون أثناء الليل بالنو بة، فاذا مضت ساعة ونصف من غروب الشمس القوا القبض فى الطريق على كل شخص لايحمل بيده مصباحا ، وبهذا تقفر الشوارع وتكاد تخلو من السابلة أثناء الليل ، و يتولى رقابة الاسواق موظف يعرف بالمحتسب

النظام القضائى

لم يتغير النظام القضائى كثيرا عما كان عليه فى عهد المماليك(١) .

ولم يدخل محمد على فى هذا النظام تعديلا أو اصلاحا ، غير انه جعل للديوان الخديوى اختصاصا قضائيا كما مر بك بيانه ، وانشأ سنة ١٨٤٢ هيئة قضائية جديدة تسمى (جمعية الحقانية) جعل من اختصاصها محاكمة كبار الموظفين على مايتهمون به فى عملهم ، وتحكم أيضا فى الجرائم التى تحيلها عليها الدواوين ، وكانت بمثابة محكمة جنايات وجنح ، وهى مؤلفة من رئيس وستة أعضاء منهم اثنان من أمراء الجهادية واثنان من البحرية واثنان من ضباط البوليس

وانشأ محكمة تجارية تسمى (مجلس التجار) للفصل فى المنازعات التجارية بين الاهلين، أو بينهم و بين الافرنج ، وتتألف هذه المحكمة من رئيس ونائب رئيس ، و باشكاتب ، وكاتب ، وثمانية أعضاء من التجار خمسة منهم من الوطنيين وثلاثة من الاجانب ، وكان بكل من الاسكندرية والقاهرة محكمة من هذا النوع .

وكان المديرون يجمعون بين السلطتين القضائية والادارية ، ولهم اختصاص جنائى واسع المدى يصل الى الحكم بالاعدام ، ومن هنا جاء اسرافهم فى الظلم والارهاق

---

(١) انظر الجزء الاول ص ٣٤

النظام المالى والاقتصادى

الملكية والضرائب

تكلمنا فى الجزء الاول (ص ٢٨ومابعدها) عن نظام ملكية الأراضى فى عهد المماليك ، وخلاصة ماذكرناه ان السلطان سليم اعتبر نفسه مالكا لاراضى مصر ، وبذلك كان صاحب الارض لايملك رقبتها بل حق الانتفاع بها ، وان المماليك بسطوا ايديهم على الكثير من اراضى مصر فصارت ملكا لهم ، وباقى الارض موزع بين الفلاحين والملتزمين والاوقاف ، وان الفلاحين كانوا يملكون النزر اليسير من الأراضى ينتفعون بها و يتوارثونها ، لكن ملكيتهم لها معلقة على دفع الضرائب والاتاوات ، وهذه الضرائب والاتاوات تدفع للملتزمين ، والملتزمون هم الملاك الذين يأخذون القرى «التزاما» اى يتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه على أن يلتزموا للحكومة بدفع نصيبها من الضرائب

الغاء نظام الالتزام

تغير هذا النظام فى عهد محمد على باشا تغيرا عظيما ، فانه بعدأن غلب المماليك وخاصة بعد أن قضى عليهم فى مذبحة القلعة عمد الى املاكهم التى كانت تحت أيديهم واستخلصها لنفسه ، ثم الغى نظام الالتزام ونزع الاراضى التى كانت تحت ايدى الملتزمين والتى كان الفلاحون يزرعونها ويدفعون ضريبتها لهم ، واعتبرها ملكا للحكومة ، ووزع منفعتها على الفلاحين كأطيان مؤجرة ، وخول كل قادر على العمل زراعة ثلاثة افدنة او أربعة او خمسة ، و بذلك آلت له حقوق الملتزمين وسلطتهم ، وصارت علاقة الفلاحين بالحكومة مباشرة بعد أن كانت علاقتهم بالملتزمين

وقد توصل محمد على الى الغاء نظام الالتزام بان طلب من الملتزمين ان يطلعوه

على سندات ملكيتهم ، فلما قدموها له قرر بطلانها جميعا ، واعتبر الحكومة أو بعبارة أوضح اعتبر ذاته مالكا لجميع أراضي مصر

أحدث الغاء نظام الالتزام استياءً شديدا بين الملتزمين ، وكانوا يؤلفون طبقة كبيرة من الملاك والاعيان والمشايخ فى مختلف البلدان يتعيشون منه ، فأراد محمد على أن يعوضهم شيئا مما فقدوه من مزايا التزامهم ، فأبقى تحت ايديهم (الأطيان الوسية) اى التى أقطعها اياهم ولاة الأمور من قبل للقيام بأعباء الالتزام ، نخولهم حق الانتفاع بها مدى الحياة مع اعفائهم من دفع ضريبتها ، وقرر لهم عدا ذلك معاشات سنوية تدفع لهم من ادارة الروزنامة تعادل ما كانوا يربحونه من الاطيان الداخلية فى التزامهم ، وكان حقهم فى هذا الربح مستمدا من أساس الالتزام نفسه ، فأساسه أن يعجل الملتزم للحكومة ضريبة سنة يدفعها مقدما على ان يجبيها بعد ذلك من الفلاحين ، فجعل محمد على هذه الرواتب السنوية فى مقابل ما كان يصل الى ايديهم من ارباح الألتزام وسميت (الفائض) وقيدت فى الروزنامة لاسم كل ملتزم ، تدفع له مادام حيا ، على أنه مما يجدر ملاحظته ان هذا الفايض أقل بكثير مما كانوا ينالونه من مزايا الالتزام ، لان محمد على لجأ الى طريقة تدل على ذكائه ودهائه فى حساب هذا الفائض ، ذلك أنه قبل أن يعلن عن نيته فى الغاء الالتزام طلب من الملتزمين أن يقدموا له كشوفا بارباحهم من التزاماتهم ، وهى التى تسمى بالفائض او فائض الالتزام ، فظنوا أن الغرض من هذا الطلب عزم الحكومة على زيادة الضريبة التى يلتزمون بدفعها للحكومة ، فأنقصوا قيمة هذه الأرباح جهد ما استطاعوا ، فاعتمد محمد على باشا على هذا الحساب وحدد لهم رواتب مساوية لها ، واسترد فى مقابل ذلك الاملاك التى كانت تحت يدهم التزاما

وضع محمد على إذن يده على أطيان الملتزمين ، أما الأراضى الموقوفة على المساجد ومعاهد البر والخيرات فقد تركها بداءة ذى بدء حتى لا يثير عليه هياج المستحقين والنظار ، لكنه ما لبث أن ألغاها وضمها الى أملاك الحكومة ، آخذاً

على عهدته الانفاق على المساجد ، ورتب للشيوخ الذين كانوا يتولون إدارة الأطيان الموقوفة معاشات سنوية ضئيلة ، ولم يبق من الأوقاف على الخيرات سوى النزر اليسير ، وبذلك توصل محمد على الى وضع يده على أطيان الملتزمين ثم على الاطيان الموقوفة

ومما يجب الالماع اليه انه لم يكن فى مصر ملاك بالمعنى الصحيح حينما ألغى محمد على نظام الالتزام ، ولم يكن سوى الملتزمين ، ولذلك يسميهم كثير من المؤلفين الافرنج (ملاكا) ، فالغاء الالتزام كان بمثابة إلغاء للملكية المعروفة فى ذلك العصر ، وهى ملكية الانتفاع ، ولو أن محمد على بعد إلغاء نظام الالتزام ملّك الفلاحين الأراضى لكان ذلك إنشاءً لنظام الملكية ، ولكنه اعتبر الحكومة مالكة لجميع الاراضى ، ولم يرتب للفلاحين حقوق الملكية عليها بل كانت الحكومة تعد الفلاحين اجرَاء عندها أو منتفعين بأطيانها ، فتستأجرهم للعمل فى الأرض بالمياومة وتعين للواحد منهم قرشاً واحداً فى اليوم ، إما نقداً وإما أصنافاً ، ويبقى لهم حق الانتفاع بالارض ما داموا يدفعون ضريبتها ، فاذا تأخروا عن أداء الضريبة نزعت الارض من تحت يدهم ، وأعطيت لفلاحين آخرين ينتفعون بها ، وكان للحكومة أن تنزع الارض من تحت يد من تشاء إذا اقتضت المصلحة العامة ذلك دون أن تدفع له تعويضا ، وكانت تعطى الفلاحين ما يلزم الزراعة من آلات الرى والحرث والمواشى ، ومأمور المركز هو الذى يحدد لكل فلاح مساحة الارض التى تعطى له ومقدار ما يخصص لكل نوع من الزراعات ، وإذا جاء الحصاد اشترت الحكومة من الفلاح حاصلاته بالثمن الذى تحدده طبقاً لنظام الاحتكار ولا تترك له إلا الحبوب ، ثم شمل الاحتكار الحبوب أيضاً

وكان الانتفاع قاصراً على المنتفع مدى الحياة ، فلا يتوارثه أعقابه ، على أن العمل جرى على انه بعد وفاة المنتفع يتولى مشايخ البلاد ثم المديرون إعطاء حق الانتفاع لورثة المتوفى على سبيل المنح ، كما منح من قبل الى المورث لا على أنه حق موروث ، ولذلك كان الفلاحون عرضة لاهواء المشايخ وتحكمهم كلما أرادوا أن يمنح لهم هذا الحق .

ومما تقدم يتبين أن حق ملكية الفلاحين للاراضى الزراعية لم يتقرر فى عصر محمد على ، وإنما جاء تقريره بمقتضى قانون سنة ١٨٥٨ فى عهد سعيد باشا

ولا نزاع فى أن إلغاء الالتزام مع عدم تقرير حق الملكية لا يمكن أن يعد إصلاحاً ، بل هو أبعد ما يكون عن الاصلاح ، قال المسيو مانجان ، وهو صديق لمحمد على ، إن التعديلات التى أدخلها الباشا فى نظام الملكية لم تكن متفقة مع الصالح العام ، فلا هو احترم الملكية الفردية ، ولا هو اعترف بها ، كما ان الذين عجزوا عن دفع الاتاوات والضرائب المختلفة التى فرضت على أملاكهم اضطروا أن يتنازلوا عنها ، وقال إنه لما أمر محمد على بمسح الاراضى فى القطر المصرى زاد عدد الافدنة بسبب تغييرمقياس المساحة وإنقاص طول القصبة ، وزاد بالتالى ما يطلب على الارض من الضرائب ، وبالغاء الالتزام حُرم الملتزمون من الاملاك التى كانوا يستثمرونها ، فالغاء الالتزام معءدم إنشاء الملكية الفرديةمعناه إلغاء الملكية وامتلاك الحكومة لجميع الاراضى الزراعية ، ولئن كان محمد على قد أمر بترتيب إيراد سنوى للملتزمين الذين نزعت الاراضى من تحت ايديهم إلا أن هذه الرواتب لا تتوارث فكانت تسقط بوفاة الملتزم ، ويقول المسيو مانجان أيضاً إن هذا النظام القاسى قد نشر الاحزان فى العائلات،وقدأسهب الجبرتى فى وصف تذمر الناس من هذا النظام فى حوادث ربيع الاول سنة ١٢٢٩ هـ (سنة ١٨١٤ م)

ولقد دافع بعض الكتاب الافرنج عن هذا النظام ، ولكنه دفاع ضعيف لايرتكز على أساس صحيح ، ولم يجدوا ما يبررونه به سوى قولهم ان هذه الطريقة مكنت الحكومة من ان تنظم زراعة الأراضى على الاساليب الجديدة ، وتدخل الزراعات التى لم تكن معروفة عند الفلاحين من قبل ، وان هذه الطريقة هى التى نهضت بحاصلات مصر الزراعية فى عصر محمد على ، وغنىٌّ عن البيان ان هذا الدفاع لايثبت أمام البحث والتمحيص ، فان تحسين الزراعة وادخال الزراعات الجديدة لايستلزم جعل جميع الأراضى الزراعية ملكا للحكومة ولا يتعارض مع تخويل الفلاحين حق الملكية . ولقد خول لهم هذا الحق فى عهد سعيد باشا

فلم تقف معه حركة النهوض الزراعى ، بل كانت الملكية الفردية - ولم تزل - من دواعى نشاط الفلاحين وجهدهم فى العمل ، وهذا الجهد والنشاط هما قوام العمران

على أن الذين دافعوا عن هذا النظام مثل الدكتور كلوت بك اعترفوا بانه نظام مؤقت وانه يمهد السبيل لتقرير حق الملكية الزراعية ، ومعنى ذلك أن حق الملكية هو النظام الطبيعى الذى لا مندحة عن تقريره فى كل بلد من البلاد المتحضرة

أحدث الغاء الالتزام كما قلنا تذمرا بين الملتزمين ، على أن ملتزمى الوجه البحرى والجيزة قد أذعنوا لأمر الحكومة ورضوا بما رتبته لهم من الفائض السنوى مهما كان ضئيلا ، اما ملتزمو الوجه القبلى ومعظمهم من سلالة المماليك ورؤساء العشائر ذوى النفوذ والعصبية فانهم لم يذعنوا ، واضطر محمد على ان يجرد عليهم قوة حربية لاخضاعهم فغلبتهم وحرمتهم من ميزة (الفائض) واضطر بعضهم الى الهجرة ، ونزع محمد على املاكهم واضافها الى مجموع الاراضى الزراعية التى اعتبرها ملكا له

ولما كانت أراضى الوسية حقا للملتزمين مدى الحياة فقط فقد شرع كثير من الملتزمين فى وقفها حتى لا يحرم ورثتهم من ريعها ، وزادت الوقفيات زيادة كبيرة حتى اضطرت الحكومة فى عهد سعيد باشا سنة ١٨٥٥ الى تخويل اصحاب (الاواسى) حق توريثها لاعقابهم الى ان تنقرض ذريتهم فتعود ملكيتها الى الحكومة

الابعاديات والشفالك

ويظهر أن محمد على بعد احتكاره ملكية اطيان القطر المصرى رأى ان يخفف غلواء هذا الاحتكار ويقرر نوعا من الملكية الفردية ، بان أقطع كثيرا من أعيان الدولة ورجال الجهادية والموظفين وبعض كبار الاعيان مساحات شاسعة من الأراضى البور قدرها كلوت بك بـ ٢٠٠ الف فدان ليستحثهم على اصلاحها واحياء مواتها ، وبذلك يزداد عمران البلاد وتتسع الاراضى الزراعية ، وهذه الاراضى مما لم يمسح فى دفاتر التاريع ، وقد أعفاها من الضرائب ، وسميت أباعد او ابعاديات لانها

كانت مستبعدة عن مساحة فك الزمام التى عملت سنة ١٨١٣، ولأجل ان يستحث اصحاب تلك الابعاديات على العمل فيها واصلاحها أصدر امرا فى سنة ١٨٣٨ بمنعهم من أن يؤجروها ويأمرهم ويؤكد عليهم أن يشتغلوا بانفسهم فى اصلاحها

وخص أفراد أسرته وكبار حاشيته باراض أخرى أوسع من الابعاديات سميت (جفالك) أو (شفالك) وأعفاها ايضا من الضرائب، وكانت تعطى بهذه الاطيان (تقاسيط) من مصلحة (الروزنامة) أو حجج تحرر بالمحاكم الشرعية، وكانت كذلك فى المبدأ خارجة عن الاراضى الممسوحة التى تجبى منها الضرائب

وحقوق أصحاب هذه الاطيان من الابعاديات والشفالك كانت مقصورة على حق الانتفاع الى أن لاحظ محمد على ان عدم تخويلهم حق الملكية قد صرف أصحابها عن العمل لاصلاحها فخولهم حق الملكية والتصرف الشرعى فيها فى أواخر حكمه (سنة ١٨٤٢)

مساحة الأراضى الزراعية

ورأى محمد على باشا من وسائل العمران مساحة الاراضى الزراعية فى جميع المديريات توصلا الى حصرها وفرض ضرائب ثابتة سنوية عليها، وذلك هو (التاريع) المشهور الذى بدأ بعمله فى سنة ١٨١٣ وعهد به الى ابنه ابراهيم بك (باشا) ومعه المعلم غالى بصفته رئيس المساحين، وتعد دفاتر التاريع التى أمر محمد على بوضعها من أهم أعماله العمرانية، وفيها مساحة أطيان القطر المصرى المزروعة وحدود كل أطيان البلاد واحواضها ومساحة سكن كل بلد ومساحة الأراضى المستعملة للمنافع العمومية كالترع والجسور والطرق والمدافن

وعرف كل فلاح ماعليه من الضريبة، ومنح مشايخ البلاد عن كل مائة فدان من زمام البلد خمسة افدنة لا يدفعون عنها ضريبة مقابل خدماتهم للحكومة وإيواء من يحضر اليهم من الموظفين، وقد سميت هذه الاطيان (مسموح المشايخ) أو مسموح المصطبة على أن معظم هؤلاء المشايخ ساءت تصرفاتهم واستبدوا بتسخير الفلاحين

فى خدمة أراضيهم وكثرت شكاوى الناس منهم فأمر سعيد باشا سنة ١٨٥٨ بابطال مسوح المشايخ وضم تلك الاراضى الى زارعيها من الفلاحين بأعلى ضريبة فى كل بلد

وكانت مساحة الأراضى المزروعة سنة ١٨٢١ مليونى فدان، و بلغت سنة ١٨٤٠ ٣٫٨٥٦٫٠٠٠ فدان (١) أى انها بلغت الضعف تقريبا فى مدى عشرين عاما

الضرائب

لم يكن للضرائب قاعدة أو نظام قبل ان يمسح محمد على اراضى مصر (سنة ١٨١٣) بل كانت القاعدة انه كلما احتاجت الحكومة الى المال فرضت اتاوة جديدة أو زادت الاتاوات القديمة

وقد كان محمد على يستشير العلماء فيما يفرضه من الضرائب، وذلك فى السنوات الأولى من حكمه ، الى أن تخلص من نفوذ السيد عمر مكرم فأطلق يده فى فرض مايشاء من الضرائب والاتاوات كلما احتاج الى المال ، وعظمت حاجته الى الاموال بجبها لمناسبة الحملة على الوهابيين ، فانها اقتضت نفقات طائلة ، ولما اخفقت الحملة الأولى جهز حملات اخرى واحتاج الى اموال جديدة ، ففرض ضريبة على اراضى الرِّزَق التى كانت معفاة من المال من قبل ، فشكا المشايخ والاهلون من أن مثل هـذه الضريبة تؤدى الى ضياع غلة الاطيان الموقوفة على المساجد والمعاهد الدينية والأسبلة والمنشآت الخيرية، ولـكن هذه الشكوى لم تلق قبولا .

ولما تمت عملية مساحة اطيان القطرى المصرى قررت الحـكومة فرض ضريبة ثابتة على الاطيان ، وفرزت الاراضى الزراعية الى درجات بحسب قيمتها ونوعها وجعلت لـكل درجة ضريبة محدودة، فقدرت الضريبة على كل فدان بأربعة قروش ونصف على الأقل فى عموم القطر ، وبخمسة وأربعين قرشاً أو تسعة وأربعين قرشاً على الاكثر، ثم عدلت الضرائب غير مرة على مر السنين بوضع تقسيمات جديدة للاراضى ومراتبها ، وكان

---

(١) احصاء كاوت بك ج ٢ ص ٢٦٤ (من الاصل الفرنسى)

الغرض من هذه التعديلات زيادة سعر الضريبة وبالتالى زيادة ما يجبى منها ، وحجة محمد على فى هذه الزيادات ان الاصلاحات التى قام بها والحروب التى باشرها استنفدت إيرادات الحكومة ، فكان لا مندوحة له عن زيادة الضرائب كما انه استحدث ضرائب جديدة لسد العجز فى ميزانية الحكومة

وكان من نتائج زيادة الضرائب وافتقار الاراضى الى الأيدى العاملة بسبب تجنيد الآلاف من الفلاحين فى الجيش أن تأخرت قرى كثيرة عن أداء نصيبها فى الضريبة ، وهجر كثير من الفلاحين بلادهم لفداحة الضرائب ، ففكر محمد على فى ابتكار الوسائل لاداء المنكسر من الخراج فقرر وقتا ما (سنة ١٠٣٩) تضمين القرى خراج القرى المجاورة وتضمين الاهالى الموسرين خراج المعسرين ، على أن هذه الوسيلة كان لها نتائج سيئة ، لانها فضلا عما فيها من الظلم والحيف فانها تؤدى الى افقار القرى الموسرة واجبارها على دفع الضرائب اضعافا مضاعفة

ففكر فى طريقة أخرى وهى نظام العهد (جمع عهدة) ، وذلك انه عهد الى بعض الاعيان والمأمورين ورجال الجهادية ان يكون فى (عهدتهم) جباية ضرائب بلاد بأكلها ، على أن يكونوا مسؤولين عن الدفع من مالهم الخاص اذا لم يجبوها ، ولا ريب ان هذا النظام قريب الشبه بنظام الالتزام الذى الغاه محمد على ، على انه يختلف عنه فى كون (المتعهد) لا يستطيع ان يجبى من اصحاب الاراضى إلا الضريبة المحددة ، أما الملتزم فكان يجبى منهم ماتشاء أهواؤه وأطماعه.

على أن مركز الفلاح إزاء (المتعهد) لم يكن مما يغبط عليه ، لأن المتعهد بما التزم به من اداء الضريبة كان يسخر الفلاح لاطماعه لانه يعتبر نفسه كالدائن الذى يسدد عنه دينه ، وكانت الحكومة ملزمة اذا هجر الفلاحون بلادهم ان تعيدهم اليها حتى يستوفى المتعهد منهم مادفعه عنهم ، وفى هذا من مطاردة الناس وارهاقهم مالا يغيب عن البال

ولقد أحدث نظام (العهد) مساوئ كثيرة ، فالغته الحكومة سنة ١٨٥٠

اذ أصدرت أمرا باسترجاع البلاد من المتعهدين، على انها انعمت على بعضهم بما كان فى أيديهم من العهد وجعلتها لهم رزقة بلا مال يملكون رقبتها ومنفعتها ملكا مطلقا ، وسمحت لآخرين من المتعهدين بان يتمتعوا مدى حياتهم بمنفعة العهد التى كانت فى ايديهم (١)

فرضة الرءوس أو الضريبة على الدخل

هى ضريبة تجبى من الافراد على اعتبار انها جزء من اثنى عشر جزءا من المال المفروض انه يعدل الدخل، وهذه الضريبة مفروضة على الذكور المراهقين كافة متى بلغوا الثانية عشرة من عمرهم ، وتختلف تبعا لتفاوت الناس فى الثروة من ١٥ قرشا الى ٥٠٠ قرش فى السنة ، وتجبى هذه الضريبة فى المدن عن النفوس ، وفى القرى عن المنازل ، و يبلغ مايحصل منها عادة سدس ايراد الحكومة

ضرائب أخرى

وهناك ضرائب أخرى تجبى على الماشية، فالبقر والجاموس يدفع عنها عشرون قرشا للرأس الواحد فى السنة ، وسبعون اذا كانت تباع للجزارين وتخصص للذبح على أن تبقى جلودها ملكا للحكومة ، والجمال والنعاج يدفع عن الرأس الواحد منها أربعة قروش ، وقوارب النقل يدفع عن كل قارب منها ٢٠٠ قرش ، والنخيل يدفع عنه ضريبة تختلف بحسب أصناف محصوله ومتوسطها قرش ونصف عن كل نخلة ، وقوارب الصيد يدفع عنها ضريبة

---

(١) عاد العمل بنظام العهد مرة أخرى فى عهد اسماعيل باشا الى أن صدر قرار مجلس شورى النواب فى ١٦ شعبان سنة ١٢٨٣ (١٨٦٦ م) بفك عهد البلاد ابتداء من سنة ١٢٨٤ لمساواة الاهالى بعضهم ببعض

نظام الاحتكار

احتكار الحكومة للحاصلات الزراعية والاتجار بها

ان الكلام عن نظام الملكية والضرائب يستتبع الكلام على الاحتكار للارتباط بينهما، ذلك انه كان مألوفا من عهد المماليك ان تجبي الضرائب نوعاً من حاصلات الارض، ولم يكن الفلاحون الذين خولهم محمد على حق الانتفاع بالاراضي من اليسار بحيث يستطيعون أداء الضريبة نقدا فى موعدها، كما أن الحكومة من جهة اخرى كانت تعطى الفلاحين أدوات الزراعة والمواشي والبزور التى يحتاجون اليها قرضا، فكانت قيمتها دينا عليهم يجب أن يؤدوه مع الضرائب، وهم كما قدمنا عاجزون عن أدائها نقدا لما كانوا عليه من الفقر والفاقة، لذلك أذن محمد على باشا للفلاحين أن يؤدوا الضريبة صنفاً من حاصلات اراضيهم، وانشأ فى المديريات شونا (جمع شونه) لتحفظ فيها الحاصلات التى تجبى من الفلاحين، ومن هنا صارت الحكومة مالكة لمعظم حاصلات القطر المصرى الزراعية.

وكانت الحكومة تتولى بيعها للأهالي والتجار الجملة من الاجانب الذين يصدرونها للخارج، و تتولى هى ايضا تصديرها لحسابها و بيعها فى ثغور فرنسا وايطاليا والنمسا وانجلترا، فربحت من هذا العمل ارباحا طائلة، فكانت هذه الارباح مغرية لها باحتكار حاصلات القطر المصرى والاتجار بها

وذلك ان محمد على قرر أن تحتكر الحكومة جميع الحاصلات الزراعية بحيث يحظر على الفلاحين ان يبيعوها الى التجار، وفرض عليهم أن يبيعوها للحكومة بأثمان تقررها هى، فصارت الحكومة محتكرة لتجارة حاصلات القطر المصرى با كلها، وهكذا تسلسل نظام الاحتكار، فبعد ان تملكت الحكومة معظم الاراضى الزراعية واحتكرتها بالغاء نظام الالتزام واسترداد املاك الملتزمين والغاء معظم الاوقاف، احتكرت كذلك الحاصلات الزراعية، أى أن الحكومة صارت المالكة

للاراضى الزراعية ثم المحتكرة لحاصلاتها جميعا ، فلم يكن للفلاح ملكية لا على الارض ولا على ماتنتجه

قررت الحكومة اذن شراء الحاصلات من الفلاحين باثمان تحددها هى ، وكانت تخصم من الثمن ما عليهم من الضريبة وتدفع لهم الباقى نقدا ، وصارت هى التى تتولى التصرف فى الحاصلات و بيعها والاتجار بها وتصديرها ، وشمل الاحتكار حاصلات القطر المصرى باجمعها كالقطن والارز والغلال والقمح والنيلة والسكر والافيون الخ .

وصار الفلاحون اذا احتاجوا للغلال للقوت يضطرون الى شرائها من الحكومة ثانية ، وكثيرا ما يحدث أن ترفع الحكومة سعر البيع لتربح من ثمن المبيع ، فتشتد الضائقة بالناس وترتفع اسعار الغلال فى الوقت الذى تفيض بها مخازنها

ولاجرم أن هذه الوسيلة وان كانت تعود على الحكومة بالمكاسب (زمنا ما) الا انها من الوجهتين الاقتصادية والاجتماعية تشل حركة التقدم الاقتصادى ، لان اجبار الفلاحين على بيع حاصلات أراضيهم للحكومة وتحديدها هى سعر البيع عمل ينطوى على الظلم والارهاق ، وفيه مصادرة لحق الملكية وحرمان المالك من الاستمتاع بحقه ، ومن الانتفاع من تزاحم التجار على الشراء ، ذلك التزاحم الذى ينجم عنه مضاعفة الثمرة للبائع ، كما أن العمل بمثل هذا النظام يقتل كل همة فردية ويقبض ايدى الناس عن العمل ، ومن ثم يحول دون تقدم البلاد ادبيا وماديا ، ويضرب على الشعب حجابا من الفقر والجمود

وقد ذكر الجبرتى احتكار الحكومة للغلال والسكر فى حوادث سنة ١٢٢٧ (١٨١٢) وسنة ١٢٣٠ (١٨١٥) ، وذكر فى حوادث ذى القعدة سنة ١٢٣١ (١٨١٦ م) احتكارها حاصلات الكتان والسمسم والعصفر والنيلة والقطن والقرطم والقمح والفول والشعير والأرز ، وذكر فى حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٣٢ (مارس ١٨١٧) اشتداد ازمة الاقوات بسبب الاحتكار

ولم يفت معظم كتاب الافرنج انتقاد هذا النظام فيما كتبوه عنه ، فقد قال المسيو

موريه «إن هـذا الاحتكار هو الجانب السىء فى تاريخ محمد على» وقال المسيو مريو Merruau (١) «لاحاجة بنا الى الاطالة فى عيوب نظام الاحتكار كما وضعه محمد على ، لقد ربح الباشا منه ارباحا طائلة لـكنه افضى الى فقر الفلاحين المدقع وكاد يهوى بهم الى المجاعة لولا ما اعتادوه من القناعة وشظف العيش»

احتكار الصناعة

سرى مبدأ الاحتكار من الزراعة والتجارة الى الصناعة ، فبعد أن صار محمد على المالك الوحيد لاراضى مصر ، ثم التاجر الوحيد لحاصلاتها ، صار الصانع الوحيد لصنائعها ، والظاهر أنه رأى الاحتكار مما يزيد ايراد الحكومة لانه يفتح بابا جديدا للربح ، فعمد الى احتكار الصناعة ، لـكن هذه الطريقة أضرت بالحالة الاقتصادية فى مصر ضررا بليغا

قال المسيو مانجان فى هذا الصدد «كان فى البلاد صناعات يتولاها الافراد ويربحون مما يبيعونه من مصنوعاتهم لى أهل البلاد ، وما يصدرونه منها للخارج ، كنسيج أقمشة الكتان والقطن والحرير وصناعة الحصر والجلود واستقطار ماء الورد وصبغ النيلة وغير ذلك (٢) وكانت هذه الصناعات تشغل عددا من السكان يربحون منها نحو ثلاثين ألف كيس كل سنة (١٥٠٫٠٠٠ جنيه) ، ولـكن محمد على احتكر هـذه الصناعات واضاف ارباحها الى حسابه ، وبعد ان كان الصناع يستثمرون هذه الصناعات صاروا يعملون فيها لحساب الحكومة ، ويقبضون رواتب معلومة كعمال مأجورين ، وقال ان من نتائج هذا النظام ان كثيراً من صناع النسيج فضلوا ترك صناعاتهم واشتغالهم بالزرعة وآثروها على الاشتغال عمالا لحساب الحكومة ،

---

(١) فى كتابه مصر الحديثة (١٨٤٠ — ١٨٥٧)

(٢) ذكرنا أنواع الصناعات الصغرى الموجودة فى ذلك العصر تفصيلا فى الجزء الأول ص ٥٤

والاستهداف لسوء معاملة موظفيها ، وان المصنوعات فى نظام الاحتكار قد هبطت جودتها عما كانت عليه حين كانت الصناعة حرة ، ولا غرو فان الصانع الذى لا يعمل لحسابه لا يتقن العمل كما يتقنه لو كان ربحه عائدا اليه

وقال ان احتكار الصناعات قد أضر بالاهالى ، لان الاحتكار من طبيعته ان يتلف مصادر الثروة ، ويحرم الصانع نتيجة كده وتعبه »

وقد ذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٣١و١٢٣٢ هـ (١٨١٦ و ١٨١٧) احتكار الحكومة صناعة الغزل والنسيج وما احدثه الاحتكار من الضيق وارتفاع اسعار المنسوجات وكيف انه شمل «كل مايصنع بالمكوك وما ينسج على نول أو نحوه من جميع الاصناف من ابريسم وحرير وكتان الى الخيش والقل والحصير فى سائر الاقليم المصرى طولا وعرضا من الاسكندرية ودمياط الى اقصى بلاد الصعيد »

وذكر ايضا فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢٣٥ (سبتمبر سنة ١٨٢٠) احتكار الحكومة للصابون وتجارته والبلح بانواعه والعسل وصناعة الخيش والقصب والتلى الذى ينسج من اسلاك الذهب والفضة للتطريز والمقصبات والمناديل والمحارم وخلافها من الملابس

مالية الحكومة وميزانيتها السنوية

من كلامنا عن نظام الحكم تتبين فى الجملة موارد الحكومة المالية من الضرائب والعوائد وارباح الاحتكار

وقد بنيت ميزانية الحكومة فى عصر محمد على على هذا الأساس ، والآن نذكر مفردات الميزانية من ايرادومصروفات عن ١٨٣٣ كما احصاها المسيومانجان(١) ومنها يعرف نظام الحكومة المالى فى تطبيقه وتنفيذه ، وقد أورد المسيو مانجان مفردات الميزانية بالأكياس ، ولما كان الكيس مقداره خمسمائة قرش فقد جولناها الى جنيهات لسهولة البيان

---

(١) ج ٣ ص ١٥٠

ميزانية سنة ١٨٣٣ — مفردات الايرادات

	جنيه
الميرى أو الضريبة العقارية	١ر١٢٥ر٠٠٠
فرضة الرءوس أو ضريبة النفوس	٣٥٠ر٠٠٠
العوائد (١) على الحبوب	١٨٠ر٠٠٠
ربح الحكومة من احتكار الاصناف الآتية وهى : القطن ، والنيلة ، والافيون ، والسكر ، والنبيذ ، والأرز ، والعسل ، والشمع ، والحناء ، وماء الورد ، وبزر الكتان ، وبزر السمسم ، وبذر الخس ، وبزر القرطم ، والحرير ، والزعفران ، والنتر	٤٥٠ر٠٠٠
ربح الحكومة من نسيج الاقمشة وبيعها	٦٠ر٠٠٠
« « « فابريقة لاثواب الحريرية	٤٧ر٥٠٠
دخل الحكومة من جمرك الاسكندرية وعوائد الدخولية	٣٠ر٠٠٠
« « « « « دمياط وبولاق	٣٦ر٧٦٥
« « « « « مصر القديمة	٨ر٠٠٥
« « « « « السويس والقصير	٣٠ر٠٠٠
« « « « « اسوان	١ر٢٥٠
رسوم الصيد فى بحيرة المنزلة	١٣ر٧٥٠
« الملح والمراكب والاسماك	١٧ر٥٠٠
المكوس على البضائع السورية الآتية من طريق البر	١ر٠٠٠
ربح الحكومة من الجير والمصيص والاحجار	٢٢ر٠٠٠
عوائد السوائل	١٣ر٨٥٥
« السنامكى	١ر٣٠٠
عوائد الصيد فى بحيرة قارون والمكوس بالفيوم	٢ر٩٠٠

(١) تجبيها الحكومة على الغلال التى تنقل من بلد الى آخر

	جنيه
ربح الحكومة من الجلود الخام والمدابغ	٣٥ر٠٠٠
المكوس فى الوجه البحرى والقبلى	١٦ر٠٠٠
عوائد الراقصات والموسيقيين والحواة	٢ر٥٠٠
« المواشى المخصصة للذبح	١٠ر٠٠٠
« صب الفضة والمقصب	٢ر٢٥٠
رسوم التركات (بيت المال)	٦ر٠٠٠
عوائد الوكائل والاسواق فى الوجه القبلى	٢ر٠٠٠
رسوم الخرج	٣ر٢٠٠
ربح دار الضرب (الضربخانة)	١٥ر٠٠٠
ربح بيع الحصر	٤ر٠٠٠
« « النطرون	٣ر٠٠٠
« « الصودا بالاسكندرية	١ر٥٠٠
« « ملح النشادر	٢ر٠٠٠
عشور النخيل	٢٠ر٠٠٠
اجرة السفن المملوكة للحكومة	١٢ر٠٠٠
مجموع الايرادات	٢ر٥٢٥ر٢٧٥ ج.

مفردات المصروفات

ميزانية الجيش	٦٠٠ر٠٠٠ ج
مرتبات كبار الضباط ورؤساء المصالح	١٩٩ر٢٩٥
« الكتبة والموظفين	١٠٠ر٠٠٠
معاشات الملتزمين الذين الغى التزامهم	١٧ر٥٠٠
نفقات قافلة الحج	١١ر٠٠٠
نفقات الفابريقات واجور العمال	١٠٨ر٠٠٠

	جنيه
نفقات انشاء القصور والفابريقات والقناطر والجسور	٩٠ر٠٠٠
أموال مرسلة الى الاستانة	٦٠ر٠٠٠
ميزانية موظفي البحرية و رجالها	٣٠٠ر٠٠٠
مخصصات لصيانة قصور نائب الملك (محمد على)	٥٠ر٠٠٠
مخصصات غذائية الموظفين	٢٥ر٠٠٠
اجور الخيالة الترك غير النظاميين (الباشبوزق)	٣٢ر٥٠٠
أجور العربان	٢٥ر٠٠٠
معاشات للأرامل والنساء	٣٠ر٠٠٠
أشياء مجلوبة من اوروبا برسم الفابريقات	٧٥ر٠٠٠
مصاريف ترسانة بناء السفن فى بولاق	١٦ر٥٠٠
نفقات المدرسة الحربية(١)	٧ر٥٠٠
« المطبعة	١ر٧٥٠
« انشاء السفن الحربية	٧٧ر٥٢٥
مخصصات غذائية لنائب الملك	٢٠ر٠٠٠
ثمن مهمات حربية	٧٠ر٠٠٠
المعينات لعلف الجمال والبغال والخيول	١٢ر٥٠٠
مخصصات لادارة مشتريات الكشامير والاجواخ والاثواب الحريرية والجواهر الخ	٧٠ر٠٠٠
مجموع المصروفات	١ر٩٩٩ر٠٧٠ ج

(١) لاحظ مانجان على هذه الميزانية خلوها من نفقات المدارس عامة وكذلك نفقات البعثات العلمية ، ويلاحظ أيضا انه لم يرد بها سوى نفقات مدرسة حربية واحدة على تعدد المدارس الحربية .

ويقول المسيو مانجان ان زيادة الايراد عن المنصرف لا يفيد بقاء متوفر نقدى فى خزانة الحكومة ، فان الايراد كان ينقص فى آخر السنة عن تقدير الميزانية ، ففى كل عام يبقى جزء من الميرى غير مسدد من أصحاب الاطيان ، وقد تخسر الحكومة فى اتجارها بالاصناف التى احتكرتها بسبب افلاس بعض التجار ممن يبتاعون منها تلك الاصناف ، وكذلك كانت تقع اختلاسات فى الجمارك مما يؤدى ذلك الى نقص صافى الايرادات بحيث لا يتوفر منها شىء فى الخزانة فى ختام العام.

مقارنة بين ميزانيات بعض السنوات

واذا قارنا ميزانيات بعض السنوات فى عصر محمد على يتبين مبلغ التقدم المطرد فى مالية الحكومة

السنة	الايرادات	المصروفات
١٨٢١	١ر١٩٩ر٧٠٠ ج	٩٤٧ر٠٠٠ ج
١٨٣٣	٢ر٥٢٥ر٢٧٥ ج	١ر٩٩٩ر٠٧٠ ج
١٨٤٢ (١)	٢ر٩٢٦ر٦٢٥ ج	٢ر١٧٦ر٨٦٠ ج

(١) والآن (١٩٢٨ ـ ١٩٢٩) بلغت ايرادات الحكومة ٤٠ر٣٦٦ر٩٧٥ ج والمصروفات ٣٧ر٢٢٩ر٥٥٩ ج

الفصل الخامس عشر

الحالة الاجتماعية

تطوّرت حالة مصر الاجتماعية تطوراً بعيد المدى فى عصر محمد على، فتكونت هيئة اجتماعية تختلف كثيراً عما كانت عليه من قبل

عدد السكان

كان سكان مصر فى أواخر القرن الثامن عشر يبلغون ثلاثة ملايين نسمة، وإذا أخذنا باحصاء المسيو مانجان عن سنة ١٨٢٣ فان عددهم كان تلك السنة ٢٫٥١٤٫٤٠٠ ، وهذا النقص فى العدد له أسباب معقولة، فان سكان مصر قد نقصوا فى عهد الحملة الفرنسية والسنوات التى أعقبتها وفى أوائل حكم محمد على لكثرة الفتن والثورات والحروب التى أفنت عدداً كبيراً من السكان وأنقصت النسل ، على أن الاحصاء الذى عمل سنة ١٨٤٥ دل على زيادة عدد السكان الى ٤٫٤٧٦٫٤٤٠ نسمة ، فلنتكلم عن طبقاتهم وحالتهم الاجتماعية فى ذلك العصر

طبقات المجتمع

أسلفنا الكلام فى الجزء الأول (ص ٤٨) عن حالة مصر الاجتماعية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وبيّنا أن سكان مصر فى ذلك العصر كانوا فئتين ، فريق الحكام ، وفريق المحكومين ، فالحكام هم فئة المماليك الذين استبدوا بحكم البلاد السنين الطوال ، والمحكومون هم الشعب المصرى بطبقاته الأربع التى فصلنا الكلام عنها وهم طبقة العلماء ، وطبقة الملاك والتجار ، وطبقة المزارعين ، وطبقة الصناع .

الهيئة الحاكمة

تبدلت طبقات المجتمع فى عصر محمد على ، فبادت فئة المماليك ، ولم يعد لهم حول

ولا قوة ، بل لم يعد لمعظمهم وجود ، وآل الحكم الى محمد على باشا واسرته ، ولا يغيب عن البال ان محمد على أصبح بولايته الحكم بارادة زعماء الشعب جزءاً من الهيئة الاجتماعية المصرية ، وانه قد تمصر واستعرب ، فأسس دولة مصرية ، وجيشاً مصريا ، وأسطولا مصريا ، وثقافة مصرية عربية ، واندمجت شخصيته فى شخصية مصر ، فأصبح مصريا حكما وسياسة وعملاً ، وزاد فى هذا الاندماج أنه رهن مصيره ومصير أسرته بمركز مصر ومستقبلها ، واتخذ مصر موطناً له ، كما اتخذ نابليون الكورسيكى الأصل الايطالى الجنس فرنسا موطناً له ، ورضيت هى به عاهلا لها وموضع فخرها .

ومما أكد ارتباط محمد على بمصر واندماجه فيها اعلانه الحرب على تركيا ومناصبته اياها العداء ، وحروبه المتواصلة عليها ، فقد جعلت هذه الحروب لمصر وحاكمها شخصية منفصلة عن السلطنة العثمانية ، واستمد محمد على قوته من الجيوش المصرية ، ونال انتصاراته الحربية باسم مصر ، ولحساب مصر وعظمتها ، وانقطعت الصلات القديمة التى كانت تجعل ولى الأمر فى مصر نائبا عن سلطان تركيا ، بل انقطعت الروابط بين مصر وتركيا ، وصار لمصر شخصية مستقلة أظهرها محمد على واندمج فيها ، ومن هنا يبدو لك الفرق عظيما بين حكم الامراء المماليك وحكم محمد على باشا ، فالمماليك بحكم ابتياعهم اصلاً من اسواق الرقيق واعتمادهم على هذا المصدر فى تأليف بطانتهم واشياعهم وجنودهم ، كانوا يستمدون كيانهم وقوتهم من مصدر خارجى ، فهم أبداً يعدون انفسهم عنصرا منفصلا عن البلاد ، وهم لذلك ولقلة تناسلهم لم يندمجوا فى الهيئة الاجتماعية المصرية ، ولا كان لهم بها صلة ما ، أما محمد على والاسرة المحمدية العلوية فقد استمدوا قوتهم ومجدهم من قوة الأمة المصرية ، ولعلك تذكر فى كلامنا عن الجيش المصرى النظامى ان محمد على لم يستطع تأليفه من العناصر غير المصرية ، كالارناءود والترك والدلاة وغيرهم لما فطروا عليه من التمرد والعصيان ، وأنه لم يوفق لانشائه الا من

ضميم المصريين ، فالقوة الحربية التى شاد عليها محمد على ملكه ، والتى هى عماد الدول والممالك ، كانت مادتها مصرية ، وعنصرها مصرى ، وهذه الاعتبارات قد قضت على مافى نفس محمد على من العواطف القديمة نحو تركيا ومقدونيا ، وزادته اندماجا فى مصر .

وهذه الحقيقة تنطبق كذلك على اعوانه ممن كانوا فى الاصل من اصل غير مصرى ، فكثير منهم كانوا من سلالة تركية أو مقدونية ، ولكن الحروب التى اشتركوا فيها تحت لواء محمد على وابراهيم قد فصلتهم عن موطنهم الاصلى وأدمجتهم فى مجموعة الشعب المصرى ، فصارت مصر وطنا خالدا لهم ولاسراتهم وذراريهم ، حاربوا من أجلها ، وبذلوا جهودهم وارواحهم ودماءهم فى سبيل رفعتها ومجدها ، فهؤلاء قد اندمجوا فى الشعب وصاروا جزءا من الهيئة الاجتماعية المصرية الجديدة ، ولا غرابة فى ذلك فان من مميزات مصر انها تدمج فى كيانها العناصر والقوميات التى تتصل بها برابطة الفتح او التوطن وتصبغها على الزمن بصبغة القومية المصرية ، ولقد عبر ابراهيم باشا عن هذا الشعور بحديثه الذى نقلناه عنه (ص ٢٣٣) ، وذكر البارون (بو الكونت) حديثا آخر لمصطفى مختار بك ياور ابراهيم باشا وملازمه فى حروب سورية والاناضول (ووزير المعارف العمومية فى عهد محمد على) قال فيه « اننا وان كنا فى الغالب مولودين فى تركيا لكننا قد اكتسبنا الجنسية المصرية بحكم التوطن ، وانتم معشر الفرنسيين تعترفون بالجنسية الفرنسية لمن يقيم بفرنسا عشر سنوات ، اما نحن فقد جئنا مصر قبل أن نتجاوز سن الصبا ، فلسنا الآن اتراكا ، ولم يبق فينا مايربطنا بهذا الشعب الذى لا يترك فى طريقه اينما سار سوى دلائل الخراب ، ولقد اندمجنا فى امة أخرى ارقى وانبل واذكى من الأمة التركية ، اندمجنا فى تلك الأمة العربية التى سبقت اوروبا الى الحضارة وازدانت أيام عزها وسؤددها بذلك العمران الذى يتجلى للناظرين فى المدن الزاهرة التى انشأتها والعمائر الجميلة التى اقامتها »

فأول عمل سياسى واجتماعى لمحمد على أنه ادمج شخصيته وشخصية اسرته فى كيان مصر وقوميتها ، وكذلك نحا نحوه أعوانه فى الحكم ممن كانوا فى الاصل من عنصر غير مصرى ، وهنا يبدو لك جانب من عبقرية محمد على ، فلقد كان فى بداءة حكمه لا يعدو ان يكون واليا من ولاة السلطنة العثمانية ، فلو أنه حذا حذوهم وكان على شاكلتهم لتعصب للجنسية التركية وعمل على تتريك المصريين كما عمل ولاة السلطنة العثمانية اذ كانوا دائبين على تتريك العناصر العربية ، فيحاربون اللغة العربية والقومية العربية ، ويثيرون فى هذا السبيل الفتن والثورات فى مختلف الاتجاه ، ويضعون القيود والعقبات امام تقدم الشعب ، لكن محمد على باشا عمل على نقيض تلك السياسة فأحيا القومية المصرية واندمج فيها واقتادها الى الامام ، وأسس دولة مصرية ، وعرشا مصريا وملكا مصريا

ويكفيك لتتبين مبلغ عمله فى احياء القومية المصرية ان الثقافة التى نشر لواءها فى مصر كانت ثقافة مصرية عربية ، وانه لم يفكر يوما فى انشاء ثقافة تركية أو مقدونية ، وأن الفضل يرجع اليه فى بعث اللغة والآداب العربية من مرقدها بعد أن ظلت مئات السنين ذاوية مضمحلة فى عهد الحكم التركى وحكم المماليك

اندمج إذن محمد على واسرته واعوانه فى الحكم فى الهيئة الاجتماعية ، ولا شك ان اندماج هذا العنصر فيها قد قواها وبعث فيها روحا جديدة كان لها أثرها فى تقدم مصر السياسى والاجتماعى ، صحيح ان فئة من المصريين الذين كانوا من عنصر تركى أو مقدونى قد ظلوا ينظرون الى المصريين الصميمين بعين الزراية ، واستمرت هذه الحالة النفسية حتى صارت مع الزمن من بواعث الثورة العرابية ، لكنها كانت تتلاشى تدريجا وأدى تطور الحوادث الى محو الفوارق بينهم ، وصارت القومية المصرية مفخرة المندمجين فيها وموضع حبهم وتقديسهم ، وقد ساعد على محو هذه الفوارق ما اكتسبته سلالة الترك والمقدونيين المتمصرين من الثقافة والتهذيب فى المدارس والمعاهد التى أسسها محمد على باشا ، فان هذه الثقافة قد صبغت شبابهم بالصبغة المصرية ، فتلاشت الفروق القديمة التى كان يشعر بها آباؤهم ، وكذلك

ساعد على محوها اتصالهم بالمجتمع المصرى بصلات النسب والمصاهرة ، واندماجهم فى الاهالى ومشاركتهم اياهم فى الحياة الاجتماعية باشتغال الكثيرين منهم وخاصة سكان الاقاليم بالتجارة وزراعة املاكهم ، ومساهمتهم فى اعباء الخدمة العامة ،

هذا بالنسبة الى محمد على واسرته ورجالات دولته ، وهم قوام الهيئة الحاكمة ، واتماما للكلام عن هذه الهيئة يجب ان نتكلم عن الطبقة المتعلمة التى اشتركت فى الحكم ، فلا يعزب عن الذهن ان المدارس التى فتحها محمد على والبعثات العلمية التى ارسلها الى اوربا قد كونت عنصرا جديدا من صميم المصريين كان له فضل كبير فى تقدم المجتمع المصرى والادارة المصرية ، ذلك هو عنصر الشباب المتعلم الذى ثقفته العلوم والمعارف ، فنهض بالهيئة الاجتماعية المصرية نهضة كبرى ، وكان رسول العلم والحضارة والعمران فى ربوع وادى النيل ، فى المدن والقرى والأقاليم ، وتولى الوظائف العامة فى عصر محمد على وخلفائه فاضطلع باعبائها فى الحربية والبحرية والادارة والتعليم والمالية والصحة والاشغال العمومية ، وعلى يده تمت منشآت الرى والعمران كفتح الترع واقامة القناطر وانشاء المدارس والمعاهد والمستشفيات و بناء القصور والثكنات والقلاع والاستحكامات والمصانع والترسانات والموانىء والمنائر والسفن الحربية والتجارية وغير ذلك من المنشآت العامة

فالهيئة الحاكمة فى عصر محمد على كان قوامها شخصية محمد على واسرته ورجالات حكومته وخريجى المدارس والمعاهد والبعثات العلمية ، ونظرة بسيطة فى تأليف هذه الهيئة تدلك على مبلغ التقدم الذى تدرج اليه نظام المجتمع فى ذلك العصر قياسا الى ما كانت عليه الهيئة الحاكمة فى عصر المماليك ، فالحكام المماليك كانوا خليطا من أجهل العناصر لم يهذبهم تعليم ولا عرفان ، فلا جرم أن بقيت ادارة الحكومة فى عهدهم مثالا لأحطّ نظم الحكم ، وقد بينا فى الجزء الاول مبلغ ماوصل اليه انحطاط نظام الحكم فى عصرهم وما أفضى اليه من التأخر فى حالة البلاد الاجتماعية والعلمية ، اما الهيئة الحاكمة فى عصر محمد على فقد نالت حظا كبيرا من الرقى وخاصة بعد ماخرجت البعثات والمدارس الحديثة عددا كافيا من الشباب المتعلم ، ولاشك

أن هـذا الرقى قد نهض بالأداة الحكومية ورفع مستواها فى مختلف الاعمال ، فانشاء الدواوين وتنظيمها ، وتأسيس المعاهد والمدارس ، ونشر لواء الحضارة والعلوم هو أثر من آثار الهيئة التى تولت الحكم فى عصر محمد على ثم فى عصر سعيد واسماعيل

فالطبقة المتعلمة فى المدارس والبعثات ـ وهى الطبقة الممتازة من طبقات المجتمع ـ بدأت فى الظهور على عهد محمد على ، وقد كان لها فضل كبير فى ترقية مستوى الهيئة الاجتماعية ، ومنهم من لعبوا دورا كبيرا فى حياة مصر السياسية أو العلمية فى عهده وعهد خلفائه أمثال شريف باشا وعلى باشا مبارك ورفاعة رافع الطهطاوى ومظهر باشا وبهجت باشا وغيرهم ممن ترجمنا لهم

ويكفيك أن تلقى نظرة على كثير من المعاهد والمبانى العامة التى انشئت فى ذلك العصر وتحصى ثمراتها لتعرف أثر ذلك العنصر الجديد من الهيئة الحاكمة فى تقدم مصر وتطور الهيئة الاجتماعية المصرية

هذه كلمتنا عن الهيئة الحاكمة ، وإذ تكلمنا عن الحكام فلنتكلم عن المحكومين ، ولنستعرض الطبقات الاخرى من الشعب وماطرأ عليها من التبديل فى عصر محمد على

الازهر والعلماء

فالعلماء هم الطبقة التى كان لها فى عهد المماليك النفوذ العظيم والتأثير الكبير فى الامة وقيادة افكارها كما أوضحنا ذلك فى الجزء الاول ، وكانت لهم الزعامة الأدبية والسياسية بين الجماهير ، واليهم يرجع تدبير الحركات الشعبية التى ظهرت على مسرح الحوادث السياسية فى عهد الحملة الفرنسية ، وبعد انتهائها ، وهم الذين أثاروا الشعب على حكم المماليك ثم على الوالى التركى ، كما تراه مبسوطا فى الجزأين الأول والثانى ، ولكن نفوذهم قد تضاءل فى عهد محمد على وانحلت زعامتهم بتحاسدهم وتخاذلهم وائتمارهم وإياه بالسيد عمر مكرم حتى انتهت المؤامرة بنفيه كما سبق الكلام عن ذلك فى الفصل الأول ، فلم تقم لهم قائمة بعد نفى زعيمهم واقصائه من الميدان ، بل ضاروا

تبعا للحكومة من غير أن يكون لهم أثر فى سياستها أو فى مشاريعها ، وهـذا تأويل ماذكرناه فى الجزء الثانى (ص ٣٦١) لمناسبة الـكلام عن عظم نفوذ العلماء فى أوائل القرن التاسع عشر اذ قلنا انهم « كانوا موئل الشعب يفزع اليهم عند وقوع الملمات ، وكانت مساوئ خورشد باشا هى الباعثة على ذلك ، ففى عهده قوى سلطان العلماء و بلغ نفوذهم أقصى مداه حتى أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالى عن كرسى ولايته وأجلسوا (محمد على) مكانه ، ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل ، كما لم يخلص لهم مثله بعد انقضاء هذا العصر »

وفى الواقع انهم لم يخلص لهم نفوذهم القديم بعد نفى السيد عمر مكرم ، ولم يبق لهم إلا إثارة من الاحترام يسبغها عليهم انتسابهم إلى الدين والازهر

ومما زاد فى تضاؤل نفوذ العلماء ان الازهر ظل على نظامه القديم ولم يساير حركة التقدم والاصلاح التي نهض بهـا محمد على باشـا ، فانتقل مركز الثقافة من الازهر إلى المدارس والمعاهد والبعثات ، وانـكمش العلماء ولم يشتركوا فى حركة التجديد والانشاء فى مختلف نواحيها ، فعجزوا عن الاشتراك فى حروب مصر أو فى ادارة حكومتها أو فى سياستها وأعمال العمران التى قامت بهـا ، و بديهى أن انعكافهم على المسائل الدينية ، وعجزهم عن الاشتراك فى الاعمـال العامة التى تمت فى عصرهم ، كل ذلك كان له أثره فى تضاؤل نفوذهم واضعاف كلمتهم ، إذ مامن شك أن الفئة التى تخرجت من المـدارس الحربية والبحرية أو العلمية والهندسية هى التى اضطلعت باعباء الاعمال العامة سواء فى خارج مصر أوفى داخلها ، وهم بحكم توليهم عبء الجهاد وسياسة الحـكم وحملهم لواء النهضة قد امتازوا على طبقة العلماء وحجبوها عما نالوه من السلطان والنفوذ ، وتضاءلت منزلة العلماء وظهر الفرق جسيما بين ما آل اليه أمرهم من الضعف وخمول الذكر وما كان لهم من نفوذ وسؤدد حين تولوا قيادة الحركات الشعبية فى عهد الحملة الفرنسية او بعدها ، وحين كانوا فى أوائل حكم محمد على يتقدمون الصفوف فى الدعوة الى التطوع للجهاد دفاعاً عن الذمار كما فعلوا عند مجيء الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧

ولهذه المناسبة يحضرنا مارواه الجبرتى عن رجوع ابراهيم باشا بعد انتصاره فى حروب الوهابية وكيف استقبل العلماء الذين جاءوا لتهنئته ، فقد لاحظ الجبرتى انه لم يقابلهم بالاحترام اللائق ، وذكر فى هذا الصدد « ان ابراهيم باشا رجع من هذه الغيبة متعاظما فى نفسه جدا ، وداخله من الغرور ما لا مزيد عليه ، حتى ان المشايخ لما ذهبوا للسلام عليه والتهنئة بالقدوم وأقبلوا عليه ، وهو جالس فى ديوانه لم يقم لهم ، ولم يرد عليهم السلام ، فجلسوا وجعلوا يهنئونه بالسلامة فلم يجبهم ولا بالاشارة ».

فهذا الذى ذكره الجبرتى يعطينا فكرة عن تضاؤل منزلة العلماء بعد ما كان لهم من صولة ونفوذ ، ونعتقد أن تقصيرهم عن الاضطلاع بالاعباء العامة كان له أثر كبير فى سقوط هيبتهم ، فضلا عن تحاسدهم وتنافسهم ، وخذلانهم للسيد عمر مكرم ، فلا غرو أن يقابلهم ابراهيم باشا بعد قدومه من حرب شاقة احتمل فيها ما احتمل من الشدائد والأهوال بغير المقابلة التى كان يقابلهم بها محمد على فى أوائل حكمه

ومما يستدعى النظر أن يد الاصلاح التى تناولت التعليم والادارة والرى والحربية والبحرية لم تمتد الى الأزهر ، بل تركه محمد على كما كان على نظامه القديم ، ولعل السبب فى ذلك انه خشى أن يثير سخط العلماء والجماهير إذا هو عرض لنظام التعليم فيه أو أقدم على إصلاحه وجعله يساير حركة التقدم العلمى الحديث ، أو لعله لم يجد من بين العلماء من يضطلع بهذه المهمة ويعهد اليه بها ، ولو أنه وجد من بينهم مثل السيد جمال الدين الافغانى أو الشيخ محمد عبده لنهض الأزهر منذ نيف وثمانين سنة نهضة علمية واجتماعية تؤتى أبرك الثمرات ، ولكن محمد على لم يفكر فى إصلاح الأزهر ، ولا فكر فيه علماؤه وأقطابه ، فوقفت حركته وانتقلت النهضة العلمية الى المدارس النظامية التى أسسها محمد على

على أن الأزهر ظل مع ذلك المورد السائغ الذى استمدت منه المدارس الحديثة والبعثات العلمية تلاميذها ، فمنه اختارت الحكومة طلبة المدارس العالية التى أنشأتها وكثيراً من أعضاء البعثات العلمية التى أوفدتها الى أوروبا ، فتخرج منه بواسطة البعثات والمدارس علماء نابهون كان لهم القدح المعلى فى نهضة مصر العلمية والاجتماعية ،

فالأزهر من هذه الناحية كان له فضل كبير على النهضة العلمية الحديثة ، ومن جهة أخرى فان الحكومة كانت تختار من رجاله بعض المتضلعين فى اللغة العربية لتنقيح وتهذيب الكتب المترجمة للغة العربية فى الطب والرياضيات وغيرها ، ويسمون المحررين ، وطائفة أخرى لتصحيح الكتب عند طبعها وهم المصححون ولهؤلاء وأولئك فضل كبير على نهضة التعريب والتأليف .

الزراع والصناع والتجار

تقدمت حالة الفلاح تقدماً نسبيا عما كانت عليه فى عهد المماليك(١) ، ولكن لا يخفى أن حياته فى الجملة بقيت تدعو الى الألم والاشفاق ، فان ما ذكرناه عن حرمانه حق التملك واستهدافه لفداحة الضرائب ومساوىء الاحتكار ومظالم الحكام جعله فى حالة تعسة ، فزيادة الحاصلات الزراعية وإقامة أعمال العمران لم يقترن بها ارتقاء حالة الفلاح الاجتماعية ، وقد وصف المسيو مانجان حالته فى ذلك العهد بقوله « إذا صح انه لا يوجد فى العالم بلاد أغنى من مصر من الوجهة الزراعية فليس ثمة بلاد أخرى أتعس منها سكاناً ، وإذا بقى فيها العدد الذى بها من السكان (سنة ١٨٣٢) فالفضل فى ذلك إنما يرجع الى خصوبة أرضها وقناعة فلاحها »(٢)

وقد ساءت حالة الفلاحين لدرجة اضطرار الكثيرين منهم الى الهجرة من قراهم ، وخربت قرى عديدة بسبب هذه الهجرة ، واضطرت الحكومة الى إصدار الأوامر المشددة برجوع المهاجرين وتهديد من لم يرجع بأشد أنواع العقاب ، ولكن مهما قيل فى مظالم ذلك العصر فانها لا تذكر بجانب مظالم الحكام فى عهد المماليك

أما الصناع فان أمرهم يحتاج الى بيان ، فالعمال الذين انتظموا فى سلك المصانع الكبرى التى أنشأها محمد على كالترسانات الحربية والبحرية أو الفابريقات التى سبق الكلام عنها فانهم مارسوا صناعات جديدة حذقوها ومهروا فيها ، وتكونت منهم

---

(١) انظر الجزء الأول ص ٣٢

(٢) مانجان ج ٢ ص ٣٤٢

طبقة من العمال الفنيين كانوا موضع إعجاب من شاهد أعمالهم، وكان لهم أثر صالح فى تقدم مصر الصناعى ، ويكفيك أن ترجع الى شهادة الافرنج فى هذا الصدد لتعرف مدى هذا التقدم

اما عمال الصنائع اليدوية فى الصناعات الصغرى التى كانت معروفة من قبل فهؤلاء قد ساءت حالتهم بسبب نظام الاحتكار حتى اضطر كثير منهم كما يقول المسيو مانجان الى ترك الصناعة والاشتغال بالزراعة

وكذلك طبقة التجار قد تراجعت واضمحل شأنها لاحتكار الحكومة التجارة الداخلية والخارجية ، وبالرغم من ازدياد متاجر مصر فى ذلك العصر فان ثمرة التجارة كانت تعود على الحكومة وعلى الوسطاء من الافرنج الذين كانوا يتبادلون وإياها حركة التجارة الخارجية ، ولذلك اقترنت زيادة حاصلات مصر وتجارتها الخارجية بظاهرة غريبة ، وهى تضاؤل الثروات الشخصية ، فحينما كانت حاصلات مصر أقل مما وصلت اليه كان الاهالى أيسر حالا ، ولما زادت الحاصلات حل الفقر محل اليسر عند الأهلين ، وذلك راجع الى نظام الاحتكار الذى فرضته الحكومة على حاصلات مصر ، ولم ينتفع من هذه الزيادة فى الحاصلات سوى الاسكندرية التى اتسعت تجارتها وصارت سوقا لاقطان القطر المصرى وحاصلاته ، اما المحلات التجارية فى القاهرة ودمياط ورشيد فقد هبط عددها عما كانت عليه من قبل

ويقول المسيو مانجان (ج ٣ ص ٢٢٧) ان عدد التجار المصريين فى القاهرة قد تناقص فى ذلك العصر ، ومما يستدعى النظر ويؤيد هذا القول انه لم يظهر فى ذلك العصر من التجار الوطنيين من شغل مركزا كبيرا فى عصر محمد على مثل السيد احمد المحروقى كبير تجار مصر فى اوائل القرن التاسع عشر وابنه السيد محمد المحروقى ممن ترجمنا لهم ، وهذا كله راجع الى مساوئ نظام الاحتكار

الأعيان

وبقى الاعيان من ذوى البيوت والعصبيات القديمة حافظين لمكانتهم غير

أنهم صاروا فى عهد محمد على اكثر خضوعا للحكومة مما كانوا فى عهد المماليك

العربان

كان عدد العربان أو البدو المصريين فى عصر الحملة الفرنسية نحو مائة ألف ، تتألف منهم ستون قبيلة ، وعدد المقاتلة منهم من ١٨ الى ٢٠ ألفا من الفرسان ، ولم يتغير هذا الاحصاء كثيرا فى عصر محمد على ، وكانوا الى أوائل القرن التاسع عشر لم يألفوا حياة الحضر ، فكان تنقلهم فى الصحراء يجعلهم فى حرب مستمرة مع الفلاحين القائمين على الزراعة ، وانصرف كثير منهم الى قطع الطرق والاعتداء على القرى الآمنة ، وكلا منا ينصرف الى غالبية العربان ، فان بعض القبائل البدوية كانت ولم تزل متصفة بكريم الخصال ، تكرم الضيف وتأوى الجار ، وتنصر الضعيف وتحمى الذمار

فكر محمد على باشا مليا فى علاج حالة العربان ، ورأى من الحكمة بادىء الأمر أن يهادن زعماء القبائل ويسلك حيالهم مسلك المحاسنة ، فعقد الاتفاقات معهم ولكن القبائل نقضت هذه الاتفاقات ، فأدرك محمد على ان لامناص من أخذهم بالقوة ، فجرد عليهم كتائب الفرسان فأخذت تناوشهم وتسد عليهم السبل الى أن أذعنوا وثابوا الى الطاعة وطلبوا الصلح ، فرضى أن يصالحهم على أن يقيم زعماؤهم بالقاهرة ليكونوا رهائن عنده يضمن بهم طاعتهم وولاء قبائلهم ، وأجرى عليهم الرواتب والأرزاق فكان لهذه الوسيلة تأثير كبير فى اخلاد القبائل الى الهدوء والسكينة ، ولجأت الحكومة الى وسيلة حكيمة تصرف بها البدو المنتشرين فى أطراف البلاد عن عيشة البداوة وتدخلهم فى حظيرة العمران ، فاقطعتهم أراضى شاسعة أعفتها من الضرائب ينتفعون بها ويستغلونها

وقد كانت هذه الوسيلة من بواعث تحضير القبائل البدوية وادماجها فى جسم الهيئة الاجتماعية ، ولما اجتذب محمد على رؤساء العشائر من العربان حبب اليهم أن ينتظموا فى سلك الجيش النظامى الذى أسسه وعرض عليهم أن تدفع الحكومة

لمن ينتظم من العربان فى سلك الجيش أجورهم على شرط أن يأتى كل منهم بفرسه وبندقيته فلبوا الدعوة واستفاد الجيش المصرى منهم فوائد جمة ، واشتركوا فى حروب السودان والحجاز وسورية والاناضول، واتخذ منهم ابراهيم باشا حرسه الخاص

ولقد كان ادماج القبائل البدوية فى جسم الهيئة الاجتماعية من اهم أعمال العمران التى قام بها محمد على

بقايا الرقيق -

كانت تجارة الرقيق لم تزل مباحة فى ذلك العصر ، فاستخدم كثير من الترك وقليل غيرهم فتيان المماليك يشترونهم من أسواق الرقيق ليكونوا اتباعالهم وخدماً ، وقد بلغ عدد اولئك الفتيان ٢٠٠٠ مملوك يضاف اليهم من أسروا من الأروام فى حرب اليونان واعتنقوا الاسلام (ص٢٢٦ ،) وكان يوجد فى بيوت الاغنياء نحو ثلاثة آلاف من (الجوارى البيض) الشركسيات ، منهن نحو ستمائة من يونانيات المورة أو من جزيرة كريت وساقز، وقد اعتنق غالبهن الاسلام وصرن فى حكم الجوارى البيض، وكان يوجد فى القاهرة أيضا نحو ألف جارية حبشية او سودانية بنسبة جارية فى كل بيت يقمن فى البيوت بالخدمة والطهى وتربية الاطفال ، ونحو الفين من السودانيين اشتراهم الأفراد من اسواق الرقيق ، ونحو ٢٥٠٠ آخرين منتظمين جنودا فى سلك الجيش المصرى ، وقد اندمج كل اولئك فى جسم الهيئة الاجتماعية المصرية وصاروا مع الزمن والتناسل من عناصر تكوينها لا يختلفون فى شئ عن عناصرها الاصلية

الفصل السادس عشر

شخصية محمد على

والحكم على عصره

لاجدال فى ان محمد على قد سما بأعماله الى مصاف عظماء الرجال ، وتتمثل لك عظمته من كونه نشأ نشأة متواضعة وتدرج من جندى بسيط الى أن ارتقى عرش مصر ، فأسس ملكا عريضاً ، وغالب دولا كباراً ، وأنشأ دولة عظيمة وحكومة ثابتة وطيدة ، و بعث حضارة زاهرة ، وأنبت ثقافة كان لها الفضل الكبير فى نشر لواء العلم والعرفان فى وادى النيل

فالرجل الذى ينشئ كل ذلك ، وكان أميا لم يتلق تعليما عاليا ولا أولياء لا بد أن يعد بحق من عظماء الرجال ، ولولا عظمته لما تخطى نشأته الأولى ، واذا تخطاها فلا يلبث أن يقف عند حد يتناسب مع مرتبته أو مرتبة اقرانه ، ولكن اضطلاعه بالمهمات الكبرى التى اخذها على عاتقه وتأسيسه ذلك الملك الضخم رغم ما اعترضه من العقبات ، و بقاء أثره خالداً طوال هذه السنين والى ما شاء الله يدل على مبلغ عبقريته .

نعم ان العناية الالهية لاحظته فى مختلف أدوار حياته ، وكان لها فضل كبير فيما وصل اليه من عز وسؤدد ، ولكن مَنْ مِن العظماء لم تكن للعناية والاقدار دخل اىما دخل فيما نالوه من نجاح وتوفيق ؟ ومَن مِن العظماء المجهولين لم يَقبر عظمتهم إدبارُ الحظ وغَلَبَةُ الاقدار ؟ فمع اعتقادنا بما للحظ والعناية الالهية من الاثر فى حياة محمد على لانشك فى أن المواهب التى توافرت لديه كان لها القسط الا كبر فى نجاحه وتوفيقه

وأول تلك المواهب ذكاؤه الخارق ، وبعد نظره ، وسعة حيلته

فلقد جاء الى مصر ضابطا صغيرا فى الحملة العثمانية التى جردتها تركيا لاخراج الفرنسيين

من البلاد ، وشهد انتهاء عهد الحملة الفرنسية ، فلوكان على ذكاء عادى لانتهى أمره بما انتهى اليه معظم ضباط الجيش التركى ، ولكنه لمح من خلال الافق ماتتمخض عنه الامة المصرية من نزوع الى الحرية ، وما يجيش فى صدرها من آمال كبار ، وما تشعر به من سخط على نظام الحكم القديم ، فماشاها فى ميولها وسايرها فى آمالها ، ورسم لنفسه خطة الوصول الى عرش مصر من طريق ارادة الشعب ، وهى فكرة مبتكرة بالقياس الى ذلك العصر تدل على ذكاء محمد على ودهائه وبعد نظره

ثم تأمل كيف اختط لنفسه طريق الوصول الى السلطة بين مختلف الاطماع والمنازع المختلفة ، فلقد كان يعمل لهذا الغرض وامامه سلطتان يجب أن يتخلص منهما واحدة بعد الاخرى ، وهما سلطة المماليك حكام البلد الاقدمين وسلطة الوالى التركى الذى كان يمثل حكومة الاستانة ، وكانت هذه الحكومة تعمل على أن تكون لها الكلمة العليا فى البلاد بعد أن احتلتها بجيوشها ، ثم كانت امامه عقبة أخرى وهى سلطة الجند الارناءود والدلاة وغيرهم من اخلاط السلطنة العثمانية ، فاستطاع محمد على بدهائه وصبره وذكائه أن يضرب كل سلطة بالاخرى ، وان يشق لنفسه طريق النجاح والوصول الى الغاية التى يطمح اليها

كان خسرو باشا (والى مصر سنة ١٨٠٢) يعمل للتخلص من محمد على ، فحار به هذا بالجند إذ حرضهم على التمرد والمطالبة برواتبهم المتأخرة ، وكانت نتيجة تلك الحركة سقوط خسرو باشا وطرده من القاهرة ، و كانت الفرصة سانحة ليحقق محمد على آماله ، ولكنه لم يشأ ان يتعجل الوصول الى السلطة ، بل أخذ نفسه بالصبر والتريث حتى تتهيأ له الظروف الملائمة التى يستقر له فيها الحكم من غير منازع ، فترك رؤساء الجند ينادون بطاهر باشا قائمقاما ، ولعله كان يتوقع الا يطول مقامه فى الحكم لما اشتهر عنه من الظلم ، فثار عليه الاتراك الانكشارية وقتلوه ، وخلا

منصب الوالى من جديد، غير أن محمد على تريث ايضا ولم يتعجل، وكان الانكشارية قد اتفقوا على تعيين احمد باشا واليا على مصر ، فلم يرض بهذا التعيين وتحالف مع الامراء المماليك على اقصائه وترك السلطة لهم ، وألقى فى روع كبيرهم ابراهيم بك انه الاحق بولاية مصر ، وبذلك ضرب الاتراك بالمماليك ، ثم ترك هؤلاء يحتملون امام الشعب مساوئ الحكم ، فما لبثوا أن استهدفوا للثورة التى اقصتهم عن الحكم

ويدلك على دهائه وأناته انه كان فى استطاعته ان يثب الى الحكم بعد سقوط دولة المماليك ، لكنه آثر الانتظار واختار للولاية خورشد باشا ، وبقى هو فى صف الشعب يدافع عن مطالبه ويتودد الى زعمائه ، فلما ساءت سيرة خورشد وكثرت مظالمه ثار عليه الشعب وخلعه كما رأيته مفصلا فى الجزء الثانى، وهنالك طلب الزعماء من محمد على أن يقبل منصب الولاية وألحوا عليه فى أن يجيب طلبهم ، فقبل ماعرضوه عليه وصار الوالى المختار من الشعب

واستطاع بذكائه وصدق نظره فى الامور وسعة حيلته أن يذلل العقبات التى اعترضته فى السنوات الأولى من حكمه ، فتغلب على دسائس الاتراك والانجليز ومساعى المماليك ، كما فصلنا ذلك فى الفصول الأولى ، كل ذلك يدلك على مقدرته بل على عبقريته ، وخاصةً اذا لاحظت انه الى ذلك الحين كان أميا ، إذ من المعروف انه لم يبدأ فى تعلم القراءة والكتابة إلا بعد ان تجاوز الاربعين وبعد ان تبوأ عرش مصر وتخطى العقبات الأولى فى حكمه

ويتجلى لك بعد نظره ورجاحة عقله وأخذه الأمور بالاناة والحكمة انه لما اعتزم ادخال النظام الجديد فى الجيش المصرى لم يغامر بانفاذ عزمه ، بل انتظر السنين الطوال يتحين الفرص الملائمة لانفاذ مشروعه ، ولو أنه استعجل الامر وتسرع لاستهدف لهياج الجنود ولشهدت البلاد ثورة من ثورات الجند التى كانت تودى بمراكز الولاة بل توردهم موارد الحتف والهلاك

ولعلك تذكر حين عودته من الاسكندرية بعد جلاء الحملة الانجليزية عن

البلاد سنة ١٨٠٧ كيف ثار الجند فى القاهرة وعاثوا فى اسواقها فساداً ، وكيف استعمل الحكمة فى اخماد ثورتهم ، واعتزم من ذلك الحين ان يتخلص من الجيش القديم ويحل محله جيشا حديثا قوامه النظام والطاعة ، ولكنه لم يمض فى تحقيق برنامجه إلا حوالى سنة ١٨١٩ — ١٨٢٠ ، وما ذلك الا لما آنسه من الخطر اذا هو انفذ مشروعه قبل ذلك الحين ، فمثل هذه الأناة والحكمة وسعة الحيلة لا تصدر الا عن دهاقين السياسة ذوى الرءوس الكبيرة ، وبهذه الصفات نجح فى تأسيس الجيش المصرى النظامى ، فتأمل كيف انتظر اكثر من اثنتى عشرة سنة قبل أن يبدأ فى انفاذ فكرته ، وكيف انه عند ما بدأ فى دور التنفيذ كان شديد الاحتياط بعيد النظر ، فأسس المدرسة الحربية الأولى لتخريج الضباط النظاميين فى (اسوان) أى فى أقاصى الوجه القبلى ، لكى يبدأ بمشروعه بعيدا عن الدسائس والفتن التى كانت القاهرة مسرحا لها

فبمثل هذا الذكاء وبعد النظر والأناة استطاع محمد على أن يشق لنفسه طريق النجاح ، وهو من هذه الناحية جدير بان يعلم ساسة الدول وزعماء الامم كيف يأخذون الامور بالحكمة والصبر ورجاحة العقل

ومن مواهبه التى ذللت العقبات فى طريقه وكفلت له الاضطلاع بالمهمات الجسام ، الشجاعة ، وعلو الهمة ، ومضاء العزيمة ، فهذه الصفات كانت من اكبر مميزاته بعد الذكاء وحسن التدبير

اما عن شجاعته واستخفافه بالمخاطر فلعلك تذكر حادثة (براوسطه) وكيف امتنع اهلها عن اداء ماعليهم من الضرائب ، فعرض محمد على على حاكم قوله أن يأخذ على عهدته اجبار أهلها على الاذعان ، وسار اليهم فى عشرة من الجند ، وكيف استطاع ان يعتقل اعيان المدينة ويسوقهم الى قوله ، وبذلك أذعن اهل براوسطه وأدوا ما عليهم من الخراج (١) ، فهذه الحادثة تدلك على ماجبلت عليه نفس محمد على من الجرأة ، واقتحام الاخطار ، فلقد كان هدفا لان يذهب ضحية

---

(١) انظر الجزء الثانى ص ٣١١

مغامرته في تلك القرية الثائرة ، ولا شك أن تلك الشجاعة التي ظهرت عليه منذ نعومة أظفاره كانت كما أسلفنا من أخص صفاته بل هي من أسباب نجاحه في تأسيس ملكه العظيم (١)

وتتجلى لك شجاعته وقوة عزيمته في اقدامه على الحروب ومواصلته القتال رغم مااعترضه من الهزائم والعقبات ، واحتفاظه برباطة جأشه في أشد الاوقات حرجا ، ولولم تكن الشجاعة وعلو الهمة من أخص مواهبه لاضطربت نفسه وتولاها اليأس امام المخاطر التي استهدف لها في كثير من المواطن

ففي حرب الوهابيين استهدفت الحملات التي جردها على الحجاز للهزائم والخسائر الفادحة ، وكانت تجيئه في بعض المواطن انباء مخيفة عما حل بجيشه من الكوارث ، فلم يتزلزل لهذه الانباء بل كان يقابلها بالجلد والثبات وقوة العزيمة ، وكان كلما اخفقت حملة جرد غيرها ماضيا في تحقيق غايته ، وقد شهد له الجبرتي ، ولم يكن من مناصريه ، بعلو الهمة لمناسبة الكارثة التي حلت بالجيش المصري في واقعة (الصفراء) فقال عنه « ولما حصل ذلك لم يتزلزل الباشا واستمر على همته في تجهيز عساكر أخرى »

ولو تابعت وقائع الحرب الوهابية لتحققت انه لولا همة محمد على وقوة ارادته لما استطاع أن يواصل هذه الحرب ثماني سنوات متواليات حتى وصل بها الى نهايتها من الظفر بالوهابيين وبسط نفوذ مصر وسلطتها على جزيرة العرب

وتبدو لك إيضا شجاعة محمد علي في اعلانه الحرب على تركيا وزحفه عليها ، فان محاربة السلطنة العثمانية وهي وقتئذ دولة الخلافة وصاحبة الجيوش الجرارة التي لا ينضب معينها امر يحتاج الى حظ كبير من الشجاعة وعلو الهمة ، بل والمجازفة والاستهداف للاخطار ، إذ لو ظفر به السلطان في واقعة من وقائع تلك الحروب

---

(١) الجزء الثاني ص ٣١٢

الطاحنة لكانت دولة محمد على بل حياته عرضة للخطر ، فهذا الاقدام له قيمته فى الحكم على شخصيته

واذا قال قائل ان محمد على إنما حارب تركيا فى الوقت الذى بدت عليها فيه اعراض الضعف والهرم ، فماذا تقول عن وقوفه فى وجه الدول الأوروبية جمعاء عقب انتصار الجيش المصرى فى بيلان وقونيه واعتراضه على حرمانه ثمرة انتصاراته ، فاذا رجعت الى الخطابات التى وجهها الى مندوبى الدول واعتراضه على تدخلهن ومصارحتهن بعدم النزول على ارادتهن تجلى لك مبلغ شجاعته ورباطة جأشه وقوة يقينه ، ثم ماذا تقول فى تحديه الدول الأوروبية فى الحرب التركية الثانية عقب انتصاره فى واقعة نصيبين ورفضه الاذعان لقراراتها وطرده سفراءها من مصر ؟ كل ذلك يدل على مبلغ ما تذرع به من شجاعة النفس ومغالبة المصاعب ، وتلك لعمرى صفات العبقرية والعظمة

وتتبين قوة عزيمته من انه انشأ من العدم جيشا ضخما على احدث نظام ، واسطولا قويا رفع علم مصر فوق ظهر البحار ، واوجد حكومة منتظمة حيث كانت الفوضى ضاربة اطنابها ، وانشأ المدارس والمعاهد حيث كانت الجهالة فاشية ، والمستشفيات حيث كانت الامراض تفتك بالاهلين ، وشق الترع واقام الجسور حيث كانت مياه النيل تذهب هدراً دون أن تنتفع منها الاراضى ، وأسس البعثات واقام المصانع والمبانى العامة ، كل ذلك يدل على ما تفعله العزيمة الحديدية ، وقد شهد له الجبرتى بقوة العزم والشهامة ، فقال عنه لمناسبة اصلاحه سد ابو قير « فارسل اليه المباشرين والقومة والرجال والفعلة والنجارين والبنائين والمسامير وآلات الحديد والاحجار والمؤن والاخشاب العظيمة والسهوم والبراطيم حتى تممه ، وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الازمان ، ولو وفقه الله لشىء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان اعجوبة زمانه وفريد اقرانه » وهى شهادة لها قيمتها من مؤرخ عُرف باحكامه الشديدة عن محمد على .

وقد ذكر عنه الكونت بنديتى قنصل فرنسا العام فى مصر وقتئذ انه لما شرع

فى اقامة القناطر الخيرية وسمع بالاعتراضات التى ابديت على المشروع من جهة العقبات والمصاعب التى تحول دون نجاحه كان جوابه « ان هذا صراع بينى و بين النهر العظيم ! ولـكنى سأخرج فائزا من هذا الصراع ! » فهذا الجواب يدلك على مبلغ شعوره بقوة ارادته ، ولولا تلك الارادة لما اعتزم أن يقهر النيل و يتحكم فى جريانه بواسطة مشروعه الـكبير

ومن اخص صفاته التى لازمته طول حكمه حبه للعمل وجلده على احتمال اعبائه ، فلم يكن يعرف لنفسه هوادة ، وكان يهتم بدقائق اعمال الحـكومة و يراقبهـا بنفسه ، ولا ينام من الليل الا قليلا ، وكان يصرف معظم وقته فى مراقبة الاعمـال والعمال ، و يكثر من التجول فى الاقاليم ليراقب بنفسه تنفيذ التعليمات التى يصدرها ، وبهذه الوسيلة كان يبث روح العمل والنشاط فى نفوس الموظفين و يشعرهم دائما بان عينه لاتغفل عن مراقبة اعمالهم ، وغنى عن البيان ان هذا يستدعى مثابرة وجلدا على العمل ونشاطا لا يعرف الملل والـكلال ، وهذا النشاط كان أمراً غـير مألوف فى ملوك الشرق وأمرائه الذين هم فى الغالب اميل الى الدعة والـكسل والانصراف الى الراحة وترك حبل الامور على غاربها والانـكباب على الملاهى والملذات ، فمحمد على كان فذاً بين ملوك الشرق وحكامه ، وهو بنشاطه المنقطع النظير قد أعطى الملوك والحـكام كافة أحسن مثال للاضطلاع بمهام الامور ، ولقد كان هذا النشاط موضع اعجاب الافرنج الذين لم يألفوا مثل تلك الحركة المستمرة من حكام الشرق وملوكه ، ولقد تعجبوا على الأخص حينما رأوه وهو فى سن السبعين يقوم برحلة طويلة شاقة فى السودان و يتوغل فى اصقاعه النائية مستهدفا للمتاعب والامراض متنقلا من جهة الى اخرى على اتم مايكون من النشاط واليقظة ، فهذه الحركة وذلك النشاط مع التقدم فى السن يعطينا فـكرة عما غرس فى نفسه من علو الهمة وحبه للعمل

ولايخفى ان حبه للعمل و يقظته فى مراقبة موظفى الحـكومة كان لهما فضل كبير فى تقدم الأداة الحـكومية فى عهده و بعث روح النشاط فى فروعها بعد أن كانت الحـكومة مصابة بالجمود أو بما يشبه الشلل فى عهد الحـكم التركى وحكم المماليك

تلك هي الصفات والمواهب التي تكونت منها شخصية محمد على وجعلت منه رجلا عظيما ، والآن فلنبحث عن أثر هذه العظمة ونتائجها في ولايته الحكم ، لأن من العظماء من تتوافر فيهم صفات العظمة ولكنهم يقصرونها على ذواتهم وانفسهم فلا تنال البلاد منهم ثمرة ما ، بل قد يجلبون عليها النكبات والكوارث ، ومع ذلك يعدون عظماء ، ولكن محمد على كان من صنف العظماء الذين نالت البلاد على ايديهم كبرى الفوائد

فهو من الوجهة السياسية كان يرمى الى انشاء دولة مصرية مستقلة ، قوية البأس ، عظيمة السلطان ، منيعة الجانب ، وهى غاية تعد المثل الأعلى للقومية المصرية ، ولقد حقق فعلا تلك الغاية وجعل من مصر دولة فتية مستقلة تمتد حدودها من جبال طوروس شمالا الى اقاصى السودان جنوبا ، وتشمل مصر وسورية وبلاد العرب وجزيرة كريت وقسما من الاناضول ، ولئن تراجعت حدود مصر طبقا لمعاهدة لندره كما فصلناه فى موضعه فقد بقيت حدودها الاصلية سليمة شملت استقلال مصر والسودان وحققت وحدة وادى النيل السياسية والقومية

وغنىٌّ عن البيان أن تحقيق هذا المشروع العظيم ليس من الهنات الهينات ، ولا ينهض به رجل عادى ، بل يحتاج الى سياسى كبير من اعظم الرجال همة ودهاء ، فان أى خطأ يبدر منه كان يكفى لاحباط المشروع فى خطواته الأولى ، أو هدمه من أساسه بعد تمامه ، ولكن محمد على أحاط مشروعه بالحذر وبعد النظر والحكمة ، ويكفيك برهانا على بعد نظره فى السياسة ، انه لما عرض عليه مشروع حفر قناة السويس اعرض عنه رغم الحاح بعض الماليين والسياسيين الافرنج ، إذ رأى انه سيؤدى الى تدخل الدول فى شؤون مصر واتجاه الاطماع اليها وجعلها هدفا للدسائس الاستعمارية مما يفضى الى ضياع استقلالها ، ومما يؤثر عنه انه قال فى هذا الصدد «اذا انا فتحت قناة السويس فسأنشئ فى مصر بوسفورا ثانيا ، والبوسفور سيؤدى الى ضياع السلطنة العثمانية ، و بفتح قناة السويس تستهدف مصر للاطماع اكثر مما هى الآن ، ويحيق الخطر بالعمل الذى قمت به وبخلفائى من بعدى »

ولقد حققت الأيام صدق نظره ، وما كان أجدر خلفاءه أن يعملوا برأيه فلا يغامروا بمستقبل البلاد وينشئوا فيها بسفوراً ثانياً أفضى الى ضياع استقلالها ، ولكن هكذا شاء جد مصر العاثر أن يتنكبوا سبيله ويفتحوا تلك القناة التى كانت شؤما على البلاد

إن كفاءة محمد على كرجل سياسى بعيد النظر ظهرت فى تأسيس الدولة المصرية المستقلة وفى إبعاد اليد الأجنبية عن التدخل فى شؤونها ، ومن هنا جاءته فكرة المعارضة فى فتح قناة السويس ، وتبدو هذه الكفاءة أيضاً فى كونه مع وفرة أعمال الاصلاح والعمران التى تمت على يده لم يحمِّل مصر ديناً لدولة أجنبية ، ولم يقع فيما وقع فيه خلفاؤه من مديد الاستدانة وفتح ثغرات التدخل الاجنبى فى شؤون البلاد

ومما يذكر له فى هذا الصدد ، أن شركة انجليزية طلبت اليه أن يأذن لها باجراء إصلاحات هامة فى ميناء السويس تزيد من اتساعها وتجعلها مرفأ كبيراً ، فأبى أن يجيب الطلب ، وكذلك لم يطمئن الى مد سكة حديدية بين مصر والسويس على يد شركة انجليزية أخرى وبعد أن اتفق وإياها على انفاذ المشروع عدل عنه خوفاً من عواقب امتداد النفوذ البريطانى فى مصر

ففضل محمد على ليس مقصوراً على تحقيق استقلال مصر بل هو فوق ذلك قد وضع الدعائم الكفيلة بصيانة ذلك الاستقلال ، ورسم السياسة الحكيمة التى تجعله بمنجاة من المخاطر ، ولو أن خلفاءه حذوا حذوه واتبعوا سياسته لما تصدع بناء الاستقلال فى عهدهم

تلك كانت اعمال محمد على ومقاصده من الوجهة السياسية ، اما من الوجهة العمرانية فقد كان من الرجال ذوى الخطط الواسعة النطاق فى الاصلاح ونشر لواء العلم والحضارة فى البلاد ، ولا نريد هنا أن نسرد اعماله فى هذا الصدد فيكفى أن نرجع بك الى ما كتبناه عنها فى الفصول السابقة ، فهو من غير شك باعث نهضة الاصلاح والعمران فى مصر الحديثة

وهو من الوجهة الحكومية قد أسس حكومة نظامية ، ولم يكن بمصر ثمة حكومة

من قبل ، بل كانت هيئة قوامها الخلل والفوضى ، لكن محمد على أوجد حكومة مستقرة لها قواعد وانظمة ودواوين وادارات ، وسن لهـا قوانين ولوائح ، فهو من هذه الوجهة يعد من كبار رجال الدول ، ولا شك أن فكرة التنظيم هي ناحية بارزة من نواحي عبقريته ، فهو الذى بث روح النظام فى هيئات الحكومة وفروعهـا ، فى الجيش ، والبحرية ، والتعليم ، والشؤون الخارجية ، والرى ، الى غير ذلك

كذلك يجب ان نذكر لمحمد على انه عنى بتنشئة اولاده واحفاده تنشئة عملية عامية ، فلم يتركهم رهن المقاصير والسرايات وبين الخدم والغانيات كما كان شأن ملوك الشرق فى الغالب ، بل عنى بتربيتهم وتعليمهم وتعويدهم الاضطلاع بمهام الدولة ، ووكل اليهم كما مر بك قيادة الجيوش وخوض غمار الحروب ، فعهد . الى طوسون قيادة الحملة الأولى على الوهابيين ، والى ابراهيم الحملة الثانية ، والى اسماعيل الحملة على السودان ثم عاونه فيهـا ابراهيم ، وعهد الى ابراهيم باشا قيادة الجيوش فى حرب المورة ، ثم فى حروب الشام والاناضول ، وعلّم ابنه سعيدا فنون البحرية ودرّبه عليهـا علما وعملا ، وارسل طائفة من ابنائه واحفاده الى فرنسا ضمن البعثات العامية .

على انّ من الواجب أن نقرر اثباتا للحقيقة من جميع نواحيهـا ان الشعب لم يتحرر من الشقاء فى عصر محمد على ، فقد وقع عليه ارهاق ومظالم كثيرة ، ويحق لنا من هذه الناحية ان نقول إن أعمال الاصلاح التى تمت فى عصر محمد على لم ينتفع بها الجيل الذى عاش فى ذلك العصر بل انتفعت منها الأجيال التى توالت من بعده ، أما جيل محمد على فقد خدمته أعمال السخرة والارهاق ولم يتذوق طعم الحرية الشخصية ، ولا حق الملكية ، فلعلك تذكر أن محمد على قد تملك كل أراضى مصر ، ووضع نظام احتكار الحاصلات الزراعية وبيعهـا ، كما احتكر التجارة والصناعة ، وقد أساء هذا النظام الى الشعب اساءة كبرى لانه ضرب عليه حجابا من الفقر والجمود ، وصارت الحكومة هى المالكة لكل اطيان القطر وحاصلاته وتجارته وصناعته ، وهـذه الحالة هى موضع ضعف فى سياسة محمد على الاقتصادية والاجتماعية ،

وعلى تعدد مشاريعه فى الاصلاح لم يفكر تفكيرا جديا فى ايجاد نظام للشورى يعوّد الشعب الاشتراك فى الحكم كما بيّنا ذلك ص ٥٨١ ، وهذا عيب كبير فى سياسته

وإذ تكلمنا عن المظالم التى ارهقت الشعب فى عهده فمن الحق أن نقول إنها أخف وطأة من المظالم التى كانت تقع فى عصر المماليك

حدثنى صديق لى عن جده الذى ادرك عصر محمد على انه كان يقول اننا كنا نحتمل مظالم حكمه لانها بمقارنتها بمظالم المماليك كانت أخف منها وارحم ، وهذا القول فيه ناحية من الصواب ، وينير لنا طريق الحكم على عصر محمد على ، فلأجل أن نحكم على عظيم من العظماء أو على عصر من العصور يجب علينا أن ندرس الرجل فى مجموعه ، والعصر باكمله ، ثم نقارن بين ذلك العصر والعصر الذى سبقه ، ثم الذى تلاه ، وبذلك يكون الحكم صحيحا والرأى فيه سديدا ، فاذا نحن نظرنا الى تاريخ محمد على فى مجموعه حكمنا من غير تردد انه مؤسس الدولة المصرية الحديثة ومحقق الاستقلال القومى وباعث نهضة الاصلاح والعمران فى مصر ، وانه من هذه الناحية اكبر بناء فى صرح القومية المصرية ، ومهما عددنا على حكمه من المآخذ فمن المحقق انه لو لم يتول حكم مصر لظلت كما كانت ولاية من ولايات السلطنة العثمانية يتعاقب عليها الولاة الجهلاء الذين كانت ترسلهم الاستانة كل سنة أوسنتين والذين لم يكن لهم سوى الحصول على نصيبهم فى الخراج وارسال الخزانة السنوية الى الاستانة ثم يتركون شؤون الحكومة فى يد المماليك يعيثون فى الارض فسادا ويجعلون الحكم اداة للمظالم والفوضى مما أدى الى تأخر البلاد فى كل نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فلو لم يتول محمد على حكم البلاد لبقيت رازحة تحت حكم التقهقر الفوضى كما بقيت سائر ولايات السلطنة العثمانية كالعراق وسورية وفلسطين ، او لاحتلتها دولة من دول الاستعمار كما احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ وما زالت تحتلها الى اليوم

فهذه المقارنة تظهر لنا فضل محمد على ومبلغ المزايا التى عادت على مصر من عبقريته وجهوده ومواهبه ، وهذا فيما نعتقد هو حكم الانصاف على محمد على وعصره



أبراهيم باشا
(١٧٨٩ - ١٨٤٨)
قائد الجيوش المصرية فى حروب الاستقلال

الفصل السابع عشر

ابراهيم باشا

(١٧٨٩ — ١٨٤٨)

من الواجب أن نفرد فصلا لابراهيم باشا ، ولئن كانت الفصول السابقة تصلح أن تكون تاريخا له فان بطولته تدعونا أن نختم هذا العصر بفصل خاص بابراهيم

تاريخه

هو أكبر أنجال محمد على ، وساعده الأيمن فى فتوحاته ومشروعاته ، وقائد الجيوش المصرية فى حروب الاستقلال ، يقترن اسمه باسم أبيه فى كثير من جلائل الأعمال ، وأهمها تأليف الجيش المصرى وقيادته فى ميادين القتال الى حيث حقق استقلال مصر ورفع ذكرها بين الأمم

ولد فى قوله سنة ١٧٨٩ ، وجاء مصر هو وأخوه طوسون فى سبتمبر سنة ١٨٠٥ ، وعهد اليه ابوه بمهمات عدة ، مارس فيها شؤون الدولة وأعمالها الادارية والحربية ، فكانت له توطئة للاضطلاع بالمهام الجسيمة التى تولاها من بعد ، فقد تولى منصب الدفتردارية سنة ١٨٠٧ ولمّا يبلغ العشرين ، والدفتردار هو بمثابة وزير المالية اليوم ، وقام فى هذا المنصب بعمل من أجل أعمال العمران ، وهو مساحة أطيان القطر المصرى .

وتولى أيضا حكم الصعيد وجمع بين هذا المنصب ومنصب الدفتردارية ، وقاتل المماليك ، ولكنه لم يشتبك معهم فى حرب حقيقية ، وظلت كفاءته الحربية دفينة الى أن سطع نجمها أولَ وهلة فى الحرب الوهابية ، فهى أول حرب خاض ابراهيم غمارها ، وتجلت فيها مواهبه ، ولا نريد هنا أن نعود الى وقائع تلك الحرب ، فقد وفينا الكلام عنها فى الفصل الخامس

فالحرب الوهابية كانت أول ميدان للقتال ظهرت فيه بطولة ابراهيم باشا ، تلك البطولة التي لازمته في الحروب التالية

وتتبين لك ناحية من كفاءته وصدق نظره في كونه أول من استعان بخبرة الأوروبيين في الحروب ، فاصطحب معه في الحرب الوهابية طائفة من الافرنج منهم الضابط الفرنسي فيسير أحد ضباط أركان الحرب كما تقدم ذكره ، وهذا أمر لم يكن مألوفا ولا سائغا بين قواد الشرق الى ذلك العهد ، ولكن ابراهيم باشا لذكائه وحصافته عرف ان الأمم الشرقية لا تنهض إلا اذا اقتبست خبرة علماء أوروبا وقوادها

وبعد أن انتهت الحرب الوهابية عاون ابراهيم باشا أخاه اسماعيل في فتح السودان ، ولكنه لم يطل مكثه هناك اذ أصيب بمرض شديد اضطره الى العودة لمصر

وجاءت حرب اليونان ، فعهد اليه محمد على قيادة الجيوش المصرية في البر والبحر ، وقد رأيت مما سطرناه في الفصل السابع كيف ظهرت عبقريته في تلك الحرب التي تولى قيادة الجيش المصري في ميادينها اربع سنوات متوالية

وإذ كانت الحروب والشدائد هي المدرسة العملية التي تكون فيها ابراهيم باشا فان حملة الموره قد أكسبته خبرة واسعة في فنون الحرب والقتال ، ذلك أنه حارب فيها جيوشا أوروبية يقودها ضباط وقواد درس معظمهم أساليب النظام الحربي الحديث ، واختلط بكثير منهم وخبرهم ، وحادثهم ، فاقتبس من تلك الحرب معارف جمة زادته بصراً بفنون القتال

ثم جاءت حروب الشام والاناضول ، فخاض غمارها وقد اكتملت خبرته ومواهبه الحربية ، فتجلت فيها عبقريته ، وعظمت مكانته ، واقترن اسمه فيها باسماء كبار القواد والفاتحين ، وطبق ذكره الخافقين

ويطيب لنا في هذا المقام أن نعيد هنا الكلمة التي ذكرناها عنه (ص ٣١٠) ففيها خلاصة تاريخه المجيد « وانك لتلمح عظمة ابراهيم من كونه قاد الجيش المصري في ميادين النصر الى حيث جعل تركيا والدول الأوروبية تقف مبهوتة مضطربة أمام وثبات ذلك الفاتح الكبير ، كأنما هي أمام القدَر »

ان تاريخ ابراهيم باشا مقترن بتاريخ الجيش المصرى وحروبه فى عصر محمد على ، ولقد فصلنا الكلام فى هـذا الصدد فى فصول عدة (١) ، فهذه الفصول هى تاريخ لابراهيم ، ولا يخفى ان هذه الحروب كما اسلفنا هى التى حققت لمصر استقلالها ، فلا غرو ان يكون أدق تعريف لشخصية ابراهيم باشا انه « قائد الجيوش المصرية فى حروب الاستقلال » وهو التعريف الذى اخترناه لنضعه بجانب صورته ، ولعمرى إن قيادته لجيوش مصر فى حروب استقلالها لهى اعظم مايزين تاريخه

وقد ذاعت شهرته فى اوروبا فنال فيها مكانة عالية لما استفاض عن بطولته وشهرته الحربية ، وتجلت هذه المكانة حينما سافر الى اوروبا فى سبتمبر سنة ١٨٤٥ للاستشفاء من مرض عضال أصابه ، وذهب الى ايطاليا ثم الى فرنسا ، فقوبل باعظم مظاهر الحفاوة والاجلال ، وبلغ لندره فى يونيه سنة ١٨٤٦ ، فقابلته الملكة فكتوريا وعظماء الانجليز بالترحاب والاحترام

ولم تقتصر مواهب ابراهيم فى ميادين القتال ، بل ظهرت كفاءته الادارية فى تنظيم الحكم المصرى فى سورية و توطيد دعائم الامن فيها كما بسطنا ذلك فى الفصل الثامن ، وفى المهام الادارية التى تولاها فى مصر ، و إذ كان من مزاياه فى حياته الحربية حرصه على النظام ، فقد استمسك بهذه الميزة فى تنظيم الشؤون الادارية التى تولاها ، وكان فى أوقات السلم شديد العناية بالشؤون الزراعية و تنظيمها ، وامتاز بميله الى تنسيق الحدائق و تنظيم اشجارها و نباتها كأنها فى نظره صفوف من الجنود يجب أن يسود النظام بينها ، و بلغ شغفه بتنظيمها أن استخدم مهندسا زراعيا انجليزيا عهد اليه تنسيق حدائقه الواسعة فى جزيرة الروضة وغرس فيها العدد الوفير من اشجار الفاكهة والرياحين

صفاته وآراؤه ومبادئه

ان ابرز صفة من صفات ابراهيم باشا شجاعته واقدامه ، فالشجاعة هى اكبر ناحية

---

(١) الفصل الخامس والسابع والثامن والتاسع والعاشر

من نواحى عبقريته ، وبجانبها حبه للنظام ، وصرامته فى تطبيق قواعده ، ولا غرو فالنظام هو أساس الحياة العسكرية وقوام تقدم الجيوش وقوتها ، وهو أول ما امتاز به الجيش المصرى على الجيوش التركية فى ميادين القتال ، وأول الاسباب التى كفلت له النصر والظفر ، وكان ابراهيم باشا لصرامته فى النظام يطبقه على نفسه ، فيعيش عيشة الجندى البسيط فى مأكله ونومه ، ويقاسم جنوده السراء والضراء ، ويشاركهم شظف العيش ، وكثيرا ما كان يقطع المراحل الشاسعة سيرا على قدميه ليعطى جنوده المثال فى احتمال شدائد الحروب ومتاعبها فلا غرابة إذ تعلقوا به واستبسلوا فى القتال تحت رايته

وكان يجمع الى الشجاعة الذكاء الحاذ وصدق النظر والرغبة الشديدة فى الاخذ باسباب تقدم الأمم الأوروبية ، وكان من مزاياه البساطة فى معيشته والرغبة عن مظاهر الفخفخة والابهة ، وهذا الخلق نادر بين قواد الشرق وامرائه ، فانهم أبداً يحيطون أنفسهم بمظاهر الابهة والعظمة ، لكن ابراهيم باشا كان على حظ كبير من عظمة النفس ، فلم يكن فى حاجة الى العظمة المصطنعة

وقد قابله كثير من عظماء الافرنج ورجالهم السياسيين والحربيين ووصفوه فيما كتبوه وصفا يعطينا صورة حية من شخصيته وافكاره ومبادئه ، ومن أصدق من وصفوه البارون (بو الكونت) Bois le Comte فقد اجتمع به بالقرب من طرسوس بالاناضول فى اغسطس سنة ١٨٣٣ عقب انتصاره فى معركة قونيه وابرام اتفاق كوتاهية ، واستطلع آراءه وافكاره فكتب عنه ما يأتى

« دخلت على ابراهيم فى خيمته ولم يكن معه أحد ، وكان يجلس على ديوان كبير فى صدر الخيمة على الطريقة الأوروبية ، وأمامه كراسى عدة ، وقد بدا لى أنه بلغ الأربعين ، وهو قوى البنية ، قصير القامة ، كبير الرأس ، جميل الأسنان ، ذكى النظر ، نشيط فى كل حركاته ، قصير الذراعين شأن أفراد عائلته ، لكن ذراعيه أقصر من ذراعى أبيه ، وقد لمحت روح الحماسة بادية فى حديثه ولهجته ، لما ناله من الانتصارات الأخيرة ، وهو شغف بالحروب ، لا يكترث كثيراً بحياته التى طالما جعلها

هدفاً للمخاطر بشجاعة بلغت حد المجازفة ، و يسير فى حياته على هـذه الوتيرة ، ولا يطيب نفساً إلا فى جو العمل والنشاط والحركة ، وقد رأيته مشغولا بمشروعات جمة ترمى الى إصلاح سورية فى الوقت الذى يستريح فيه من عناء المعارك، ويلوح لى كأن هذه الراحة هى حالة يرغم عليها ولا يميل اليها، ويشعر بأنها لا يصح أن يطول مداها ،

وقد تجاذب ابراهيم باشا والبارون بو الكونت أطراف الأحاديث ، ودار الكلام على الحرب الأخيرة ، قال البارون فى هذا الصدد : حدثنى ابراهيم بلهجة طبيعية قائلا « إنه ليؤلمنى أن الدول منعتنى من متابعة الزحف » فأجبته : إنى أظن بالعكس أنه قد آن الوقت الذى يحق فيه للدول أن تفكر فى وقف سموكم عن الزحف، فانه لم يكن أمامكم سوى بضع خطوات لتتصل الجنود المصرية الى اسكدار، وهنالك تشب الثورة فى الاستانة

فأجابنى : ولكنى كنت شديد الرغبة فى دخول الاستانة على رأس جيشى .

فقلت له : وماذا تقصدون سموكم من الذهاب الى الاستانة وماذا كنتم صانعين بها ؟

فأجابنى : ما كنت أدخلها للهدم بل للاصلاح، ولكى أقيم حكومة صالحة مؤلفة من رجال أكفاء بدل الحكومة الحالية العاجزة عن الاضطلاع بحكم الامبراطورية

فقلت له : إن سموكم يؤكد بحديثه المخاوف التى ألمعت اليها فى كلامى، فان ما كنتم تنوون إحداثه هو ما كنا نعمل على منعه ، لا لأننا مسوقون بفكرة عدائية نحو سموكم أو نحو أبيكم ، ولكن لأن الانقلاب الذى كنتم عازمين على إحداثه فى الاستانة يفضى الى مشاكل قد تشعل نار الحرب فى أوروبا بأسرها

فاجابنى : انك واهم فيما تظن، فان هذا الانقلاب كان يحدث دون أية مقاومة ، فان السكان على جانبى البوسفور والدردنيل يطلبوننى لاحداث الانقلاب الذى كان يتم فى هدوء وسرعة دون أن تجدوا الوقت للشعور بوقوعه ، تقولون انكم تبغون الدفاع عن كيان تركيا وجعلها قوية ، ولو تم هذا الانقلاب لكان من نتائجه بعث

سلطنة قوية تقوم على انقاض هذه السلطنة المفككة التى تحاولون عبثا تأييدها والتى ستنحل يوماً بين ايديكم وتسبب لكم وقتئذ مشاكل لاعداد لها .

وهنا سكت ابراهيم باشا قليلا عن الكلام كأنما استوقفته فكرة طارئة ثم قال: انى ابحث كثيرا وأتساءل لماذا تحقد الدول الأوروبية كل هذا الحقد على الأمم الاسلامية ؟

فقلت له انى لم أفهم كلام سموكم

قال نعم ، فانك تقول الآن إن وصول جيشي الى اسكدار يحدث ثورة فى الاستانة ، وانى أوافقكم وأرى رأيكم ، ولكن أليس هذا دليلا على ان الأمة الاسلامية لاتريد حكم السلطان محمود ؟ فبأى حق ترغمون هذه الأمة على مالا تريده ؟ وهل يحق لكم معشر الفرنسيين ان تمنعوها من اختيار حكامها ؟ عجبا ! لقد كنتم حينما ثار البلجيكيون وطلبوا تأليف مملكة مستقلة ، وحينما قام اليونانيون يطالبون باستقلالهم تنادون ان لكل أمة الحق فى اختيار ولى امرها ونظام الحكم الذى تبتغيه ؛ بل انكم ساعدتم اليونانيين فى ثورتهم ، فلماذا تحرمون الأمة التركية من هذا الحق ؟

قال البارون بوا لكونت « وكان ابراهيم باشا يلقى حديثه هذا فى حماسة وذكاء ، ويمزج الادلة القوية بشيء من الفكاهة والدعابة ، وكان جوابى له ان سموه يخطئ فى تقدير المبدأ الذى أملى على الدول الأوروبية سياستها فى المسألة الشرقية ، فانها لاتنظر الى مثل هذه المسألة فى ذاتها بل تنظر اليها من ناحية تأثيرها فى مركز الدول ، فاذا رأت مثلا كما فى الحالة التى نحن بصددها أن ثورة أهلية تفضى الى تزلزل التوازن الدولى واحداث حرب عامة كان من الطبيعى ان تعمل كل دولة ماتراه حائلا دون وقوع هذه الكارثة .

فقال ابراهيم باشا : ان هذا عبث فان اسباب الخصام بين الدول الأوروبية لاتنتهى ، ودخلت معه فى تفاصيل طويلة لاقنعه بخطأ فكرته »

وكان البارون (بوالكونت) قد قابل محمد على قبل اجتماعه بابراهيم ، واستطلع

رأى كليهما فى الحالة السياسية ودوّن خواطره عن شخصية الاثنين والمقابلة بينهما ، فقال عن ابراهيم انه لم تتوافر عنده القدرة على تأسيس الممالك مثلما توافرت عند أبيه ، ولـكن عنده من المواهب مايكفل المحافظة على كيانها و بقائها ، وان من أسباب قوة الدولة المصرية الارتباط المتين بين محمد على وابراهيم ، وان ابراهيم قد حافظ على عظيم احترامه واجلاله لابيه ولم يداخله اى زهو وخيلاء ولم تتغير علاقته به حتى بعد الانتصارات العظيمة التى نالها لدرجة انه لم يسمح لنفسه ان يشرب الدخان فى حضرته ، واذا بعد عنه فانه لا يفتأ يبدى له من الاخلاص والطاعة والاحترام ما اعتاده من قبل

وقال عن الفوارق فى آرائهما « ان محمد على يمثل فكرة الحكم المطلق ، اما ابراهيم فانه أقرب الى المبادئ الحرة ، وقد خالف اباه فى مسألتين جوهريتين ، فالمسألة الأولى انه لم يكن يوافقه على نظام الاحتكار الذى اتبعه فى مصر وسورية ولو أنه نفذ فى هـذا الصدد أوامر ابيه ، والمسألة الأخرى انه يجاهر برأيه فى إحياء القومية العربية ، وذكر عن ارائه فى هذا الصدد مانقلناه فى موضعه (ص ٢٣٣) واضاف اليها أنه كان يسمع مثل هـذه الأقوال من حاشية ابراهيم وخاصة رجاله بخلاف ما كان يسمعه من بطانة محمد على التى كانت متشبعة بالفكرة التركية ، وقال ان فكرة ابراهيم باشا أن يجعل من الامبراطورية التى أسسها ابوه دولة عربية بحتة أى أن يـكون حكامها ورعيتها وجنودها وضباطها من جنس واحد وأمة واحدة (وهى الأمة المصرية) وان يعيد الى القومية العربية وجودها واستقلالها اسوة بلغتها وآدابها وتاريخها »

ولايته حكم مصر

ابريل سنة ١٨٤٨ — نوفمبر سنة ١٨٤٨

إن عظمة ابراهيم لم تجئه من طريق ولايته الحـكم ، بل توافرت عنده وانقادت له من قبل ، فلقد اسبغت عليه بطولته فى ميادين القتال صفات العظمة والمجد ،

أما مدة حكمه فلم تزد عن سبعة أشهر وثلاثة عشر يوماً ولم تتسع ليخط فيها صفحة جديدة يضمها الى سجله الخالد

تولى الحكم فى حياة أبيه ، ذلك أن محمد على فى اخريات سنيه قد اعتلت صحته واصيب بضعف فى قواه العقلية ، ولم يعد فى استطاعته الاضطلاع باعباء الحكم ، وقد ظهرت عليه اعراض هذا الضعف غير مرة ولم ينجع فيه دواء

فعقد ابراهيم باشا مجلسا خاصا برآسته واستقر رأى المجلس على ان يتولى ادارة شؤون الحكومة بدل أبيه ، فتولى الحكم فى ابريل سنة ١٨٤٨ وابلغ الأمر الى الباب العالى فارسل اليه فى يوليه فرمان التقليد ، وقد عنى ابراهيم باشا مدة حكمه القصير بتقوية ثغور البلاد وحصونها وتجديد قوتها الحربية

وفاته (١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨)

ولكن المنية عاجلته فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ ، توفى وله من العمر ستون سنة هلالية ، فخسرت مصر بوفاته قائد جيشها المظفر الذى كان لبطولته اليد الطولى فى تحقيق استقلالها

وفاة محمد على باشا (٢ اغسطس سنة ١٨٤٩)

و بعد وفاة ابراهيم ولى الحكم عباس باشا الأول ، وما زال محمد على مصابا بمرضه العضال الى أن توفى يوم ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ (٢ اغسطس سنة ١٨٤٩) بسراى رأس التين بالاسكندرية ، ونقلت جثته الى القاهرة وشيعت جنازته باحتفال مهيب ، ودفن بمسجده بالقلعة حيث يرقد رقدته الابدية ، وهكذا انتهت حياة ذلك الرجل الكبير بعد أن خلف مجدا لايبليه الزمان ، توفى بعد أن اسس الدولة المصرية وحقق استقلالها وأتم وحدتها وشيد دعائم نهضتها ، وتم على يده من الاعمال الجليلة ماتنوء به العصبة من عظماء الرجال .

وثائق تاريخية

وثيقة رقم ١ (انظر ص٦٥)

معاهدة جلاء الانجليز عن الاسكندرية

المبرمة بين محمد على باشا من جانب، والجنرال شربروك والكبتن فيلوز من جانب آخر
(وهى المعاهدة التى انتهى بها الاحتلال الانجليزى الثانى)

« بما أن الجنرال فريزر Fraser قائد القوات البرية لصاحب الجلالة البريطانية والكبتن هلويل Hollowel قائد الاسطول الانجليزى المرابط تجاه السواحل المصرية قد خولا الجنرال شربروك Scherbrook والكبتن فيلوز Fellowes من ضباط البحرية الانجليزية سلطة ابرام الاتفاق الخاص بالجلاء عن الاسكندرية فقد اتفق كل من صاحب العظمة محمد على باشا والى مصر والجنرال شربروك والكبتن فيلوز المذكورين على الشروط الآتية »

المادة ١

توقف فوراً الاعمال العدائية من الجانبين ، وتجلو القوات البريطانية عن الاسكندرية فى مدى عشرة أيام من التوقيع على هذه المعاهدة وتنسحب من جميع القلاع والاستحكامات والمنشآت وتتركها بالحالة التى هى عليها الآن ويسلم صاحب العظمة محمد على باشا للقواد البريطانيين صهره مصطفى بك وعمه اسحق بك ومهرداره (حامل الختم) سليمان افندى بصفة رهائن يبقون على ظهر احدى السفن الحربية الانجليزية الى ان يتم تنفيذ هذه المعاهدة

المادة ٢

جميع اسرى الحرب الانجليز وكذلك الافراد الذين التحقوا بخدمتهم من الارقاء يطلق سراحهم ويرسلون بطريق النيل الى بوغاز رشيد حيث يبحرون على سفينة انجليزية

المـادة ٣

يصدر عفو عام عن سكان الاسكندرية أو غيرهم من الاهلين لما وقع منهم فى الماضى ويؤمنون على ارواحهم واملاكهم لكونهم اضطروا بحكم الظروف الى اتخاذ الطريق الذى سلكوه

المـادة ٤

بما أن أمين بك الألفى قد بارح الاسكندرية أثناء الاحتلال الانجليزى فان صاحب العظمة محمد على باشا يعد بانه فى حالة عودة امين بك المذكور الى الميناء لا يناله سوء ويعطى امانا له ولحاشيته بشرط ان لا يتجاوز عددهم اثنى عشر شخصا

المـادة ٥

نظرا لتفرق الافراد الارقاء الملحقين بخدمة الجيش البريطانى ووجود بعضهم على مسافات بعيدة فيبقى مندوب انجليزى فى الاسكندرية بعد الجلاء عنها ليتسلمهم كلما ظهروا ، ولهذا المندوب ان يحصل من صاحب العظمة على كل حماية ومساعدة لاداء مهمته فى احضار هؤلاء الافراد، ويسمح له بان يرسل كل من يوجد منهم الى أية سفينة انجليزية تكون راسية فى الميناء او يرسلهم الى صقلية أو مالطة بأية طريقة اخرى تتيسر له

« حررت هذه المعاهدة فى معسكر صاحب العظمة محمد على باشا والى مصر بالقرب من دمنهور يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ الموافق ١١ رجب سنة ١٢٢٢ »

« امضاءات: محمد على باشا ؛ شربروك ؛ فيلوز »

وثيقة رقم ٢ (انظر ص ٣٣١)

اتفاق الاسكندرية

(٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠)

« بين الكومودور نابييه Npier قائد القوات البريطانية البحرية الراسية أمام الاسكندرية من جانب ، و بوغوص يوسف بك وزير خارجية صاحب السمو نائب ملك مصر المفوض من قبل سموه من جانب آخر ، تم ابرام الاتفاق الآتى بالاسكندرية يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠ »

المادة ١

بما أن الكومودور نابييه بصفته المبينة أعلاه احاط صاحب السمو محمد على علما ان الدول اشارت على الباب العالى باعادة حكم مصر الوراثى الى عهدته ، و بما ان سموه يرى فى ذلك وسيلة لوضع حد للحرب وويلاتها ، فانه يتعهد بان يصدر اوامره الى ابنه ابراهيم باشا باجراء الجلاء فورا عن سورية ويتعهد ايضا باعادة الاسطول العثمانى بمجرد ان يصله اخطار رسمى بان الباب العالى يتنازل له عن حكم مصر الوراثى وان يبقى ذلك الحق كما كان مكفولا من الدول

المادة ٢

يضع الكومودور نابييه تحت تصرف الحكومة المصرية سفينة من سفنه لتنقل الى سورية الضابط الذى يعهد اليه صاحب السمو ابلاغ القائد العام للجيش المصرى امره بالجلاء عن سورية و يعين الاميرال ستوبفورد قائد القوات البريطانية من ناحيته ضابطا لملاحظة تنفيذ هذا الامر

المادة ٣

و بناء على ما تقدم يتعهد الكومودور نابييه بوقف الحركات العدائية من جانب القوات البريطانية ضد الاسكندرية وكل جهة من الاراضى المصرية و يبيح

حرية الملاحة لكل السفن المعدة لنقل الجرحى والمرضى وسائر الجنود المصرية الذين ترغب الحكومة المصرية نقلهم الى مصر بطريق البحر

المادة ٤

للجيش المصرى الحق فى ان ينسحب من سورية حاملا معه مدافعه واسلحته وجياده وذخائره وامتعته وفى الجملة كل مامعه من مهمات الجيش

وقد حررت نسختان من هذا الاتفاق

« توقيع: شارل نابييه ، بوغوص يوسف »

مراجع البحث

ذكرنا فى هوامش الصحائف المراجع التى اعتمدنا عليها ، وسنذكر المراجع كلها مرتبة فى ختام الجزء الرابع ان شاء الله تعالى

فهرست الجزء الثالث

الفصل الأول

الزعامة الشعبية فى السنوات الأولى من حكم محمد على

(١) راجع ما كتبناه عن السيد عمر مكرم بالجزء الاول ص ٩٧ وبالجزء الثانى ص ٣٢ و١٥٢ و١٨٢ و ٢٨٤ ومابعدها

الفصل الثانى

الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ وفشلها

الفصل الثالث

اختفاء الزعامة الشعبية من الميدان

الفصل الرابع

انفراد محمد على بالحكم

الفصل الخامس

تحقيق الاستقلال القومى

حروب مصر فى عهد محمد على

الفصل السادس

فتح السودان

الفصل السابع

حرب اليونان

الفصل الثامن

الحرب فى سورية والاناضول

الفصل التاسع

معاهدة لندره ومركز مصر الدولى

الفصل العاشر

دعائم الاستقلال

الجيش

الفصل الحادي عشر

الاسطول

الفصل الثانى عشر

التعليم والنهضة العلمية

الفصل الثالث عشر

أعمال العمران والحالة الاقتصادية

الفصل الرابع عشر

نظام الحكم

الفصل الخامس عشر

الحالة الاجتماعية

الفصل السادس عشر

شخصية محمد علي والحكم على عصره

الفصل السابع عشر

ابراهيم باشا

فهرست الخرائط والرسوم

تصحيح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٧٧	هامش (١)	فى كتابه التوفيقات الالهامية	مع مقارنته بما ورد فى الوقائع المصرية عدد ١٢
٢٧٧	١٤	نقص	نقص
٢٧٩	١	الالايات	الايالات
٣٦٧	٦	ضابط	ضابطا
٣٦٨	٢٢	و٢١٨	و ٢١٨ و ٣١١
٣٧٠	٢١	لضرب النار والتلاميذ	لضرب النار للجنود والتلاميذ
٣٧١	١٠	الآلات الموسيقى	آلات الموسيقى
٣٨٠	٤	٧٠٠٠ قرش	٨٠٠٠ قرش
٤٧١	١	المدينة	المدنية
٤٧٥	١٠	١٨٢٦ هـ	١٨٢٦ م
٤٩٤	٣	ويصلحهن	و يصلحن
٤٩٨	١٦	عظيم	عظيم الهامة
٥٤٤	١٧	حرفاو	جرقاو
٥٧٤	١٨	عبد الله هلال	هلال عبد الله


Bibliotheca Alexandrina
0546425
